

عُمْدَةُ النَّفْسِيرِ

عَنْ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ

مُخْتَصَرُ نَفْسِيَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

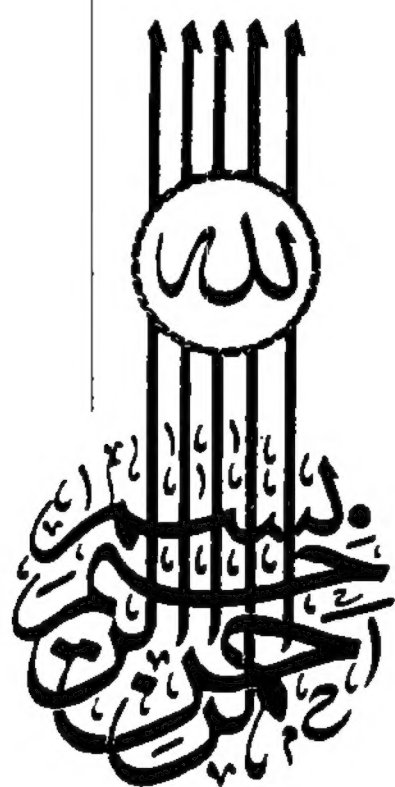
لِلْعَلَّامَةِ الْمُحَقِّقِ

الْشَّيْخِ أَحْمَدَ شَيْخَاكَرٍ

أَعَدَّهُ
أَفُورُ الْبَازِ

الجزء الثالث

دار الوفاء



عُمْدَةُ النَّفْسِيرِ

عَنْ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ

مُخْتَصَرُ نَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة: ش. الإمام محمد عبد المجاهد لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٢٠ / ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤ / ٥٠
المكتبة: أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٥٠
E-Mail: DAR ELWAFA @ HOTMAIL . COM



تفسير سورة لقمان

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ١ ﴾ اَلَمْ هَدَىٰ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿ ٢ ﴾ هُدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿ ٣ ﴾ اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿ ٤ ﴾ اُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدَىٰ مِّن رَّبِّهِمْ ؕ اُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ ٥ ﴾

تقدم في أول سورة « البقرة » عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة ، وهو أنه تعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا قراباتهم وأرحامهم ، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة ، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك ، لم يراؤوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا ، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى : ﴿ اُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدَىٰ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أى : على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلى ﴿ اُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ ٦ ﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ؕ اُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿ ٧ ﴾ وَاِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِ ءَايٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَاَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَاَن فِيْ اُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ ﴿ ٨ ﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ويتتفعون بسماعه ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية [الزمر: ٢٣] ، عطف بذكر حال الأشقياء ، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب ، كما روى عن أبى الصهباء البكرى ، أنه سمع عبد الله بن مسعود - وهو يسأل عن هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ - فقال عبد الله : الغناء ، والله الذى لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات . وكذا قال ابن عباس ، وجابر ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومكحول ، وعمرو بن شعيب . وقال الحسن البصرى : أنزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فى الغناء والمزامير . وقال قتادة : قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ : والله لعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن شراؤه استحبابه ، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على

ما ينفع . وقيل : عنى بقوله : ﴿ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ : اشتراء المغنيات من الجوارى . وقال الضحاك فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ يعنى : الشرك . وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله .

وقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوا ، يستهزئ بها وقال قتادة : يعنى : ويتخذ آيات الله هزوا . وقول مجاهد أولى .

وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أى : كما استهانوا بآيات الله وسبيله ، أهينوا يوم القيامة فى العذاب الدائم المستمر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تَلَّيَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَآءٌ ﴾ أى : هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب ، إذا تليت عليه الآيات القرآنية ، ولى عنها وأعرض وأدبر وتصام وما به من صمم ، كأنه ما يسمعها ؛ لأنه يتأذى بسماعها ، إذ لا انتفاع له بها ، ولا أرب له فيها ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : يوم القيامة يؤلمه ، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء فى الدار الآخرة ، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ أى : يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار ، من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمراكب والنساء ، والنضرة والسماع الذى لم يخطر ببال أحد ، وهم فى ذلك مقيمون دائما فيها ، لا يظعنون ولا ييغون عنها حولا .

وقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ أى : هذا كائن لا محالة ؛ لأنه من وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد ؛ لأنه الكريم المنان ، الفعال لما يشاء ، القادر على كل شيء ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذى قد قهر كل شيء ، ودان له كل شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقواله وأفعاله ، الذى جعل القرآن هدى للمؤمنين ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤] ، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾

بين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض ، وما فيهما وما بينهما ، فقال : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ قال الحسن وقتادة : ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية ﴿ وَالْقَىٰ

فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي ﴿ يعنى : الجبال أرسى الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أى : لئلا تميد بكم ﴾ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أى : وذرا فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذى خلقها .

ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : من كل زوج من النبات كريم ، أى : حسن المنظر . وقال الشعبى : والناس - أيضاً - من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لثيم .

وقوله : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ أى : هذا الذى ذكره تعالى من خلق السموات ، والأرض وما بينهما ، صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره ، وحده لا شريك له فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى : مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ ﴾ يعنى : المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ أى : جهل وعمى ﴿ مُبِينٍ ﴾ أى : واضح ظاهر لا خفاء به .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

اختلف السلف فى لقمان : هل كان نبياً ، أو عبداً صالحاً من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثانى . وعن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً . وعن عبد الله بن الزبير ، قلت لجابر بن عبد الله : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفطس من النبوة . مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرت أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما . فقال لقمان : إنه ليس من شىء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا . ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً ، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة - إن صح السند إليه ، فإنه رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم من حديث وكيع ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن عكرمة فقال : كان لقمان نبياً . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفى ، وهو ضعيف ، والله أعلم . والذى رواه سعيد بن أبى عروة ، عن قتادة ، فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أى : الفقه فى الإسلام ، ولم يكن نبياً ، ولم يوح إليه . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أى : الفهم والعلم والتعبير ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أى : أمرناه أن يشكر الله ، عز وجل ، على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل ، الذى خصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى : غنى عن العباد ، لا يتضرر بذلك ، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً ، فإنه الغنى عما سواه ؛ فلا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَمَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده - وقد ذكره تعالى بأحسن الذكر ، فإنه آتاه الحكمة ، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ، ثم قال محذراً له : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أى : هو أعظم الظلم . روى البخارى عن عبد الله [بن مسعود] قال : لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٢] ، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا : أينما لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : «إنه ليس بذاك ، ألا تسمع إلى قول لقمان : ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ . » . ورواه مسلم من حديث الأعمش ، به (١) .

ثم قرَنَ بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] . وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك فى القرآن وقال ههنا : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ قال مجاهد : مشقة وهن الولد . وقال قتادة : جهداً على جهد . وقال عطاء الخراساني : ضعفاً على ضعف .

وقوله : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَمَيْنِ ﴾ أى : تربيته وإرضاعه بعد وضعه فى عامين ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] . ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ؛ لأنه قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الاحقاف : ١٥] . وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلاً ونهاراً ، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٤] ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ أى : فإنى سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء .

وقوله : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أى : إن حرصاً عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما ، فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما فى الدنيا معروفاً ، أى : محسناً إليهما ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ يعنى : المؤمنين ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . روى الطبرانى فى كتاب العشرة : أن سعد بن مالك

قال : أنزلت في هذه الآية : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ الآية ، وقال : كنت رجلاً برأ بأمي ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ، ما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت ، فتعير بي ، فيقال : «ياقاتل أمه» . فقلت : لا تفعل يا أمه ، فإنني لا أدع ديني هذا لشيء . فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه ، تعلمين والله لو كانت لكى مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت ديني هذا لشيء ، فإن شئت فكلى ، وإن شئت لا تأكلى . فأكلت .

﴿ يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (١٦) يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضِضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ؛ ليمثلها الناس ويقتدوا بها ، فقال : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ أى : إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ أى : أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الانبياء : ٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة فى داخل صخرة صماء ، أو غائبة ذاهبة فى أرجاء السموات أو الأرض ، فإن الله يأتى بها ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أى : لطيف العلم ، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ، ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بدبيب النمل فى الليل البهيم .

ثم قال : ﴿ يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ أى : بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ أى : بحسب طاقتك وجهدك ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ علم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا بد أن يناله من الناس أذى ، فأمره بالصبر ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أى : إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور .

وقوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ يقول : لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم ولكن ألن جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء فى الحديث : « ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ، وإياك وإسبال الإزار فإنها من

المخيلة ، والمخيلة لا يحبها الله . قال ابن عباس فى قوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ يقول : لا تتكبر فتحقر عباد الله ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك . وكذا روى العوفى وعكرمة عنه . وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ : لا تكلم وأنت معرض . وكذا روى عن مجاهد ، وعكرمة ، ويزيد بن الأصم ، وأبى الجوزاء ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وابن يزيد ، وغيرهم . وقال إبراهيم النخعي : يعنى بذلك : التشديق فى الكلام . والصواب القول الأول . قال ابن جرير : وأصل الصعر : داء يأخذ الإبل فى أعناقها أو رؤوسها ، حتى تُلَفَّتْ أعناقها عن رؤوسها ، فشبه به الرجل المتكبر .

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أى : جذلاً متكبراً جباراً عنيداً ، لا تفعل ذلك ييغضك الله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أى : مختال معجب فى نفسه ، فخور : أى على غيره .

وقوله : ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أى : امش مشياً مقتصدًا ليس بالبطيء المتشط ، ولا بالسرير المفرط ، بل عدلاً وسطاً بين بين .

وقوله : ﴿ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ أى : لا تبالح فى الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أى : غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير فى علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغض إلى الله تعالى . وهذا التشبيه فى هذا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه غاية الذم ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « ليس لنا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه » (١) . وروى النسائي عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعودوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطاناً » . وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه (٢) وفى بعض الألفاظ : « بالليل » ، فالله أعلم .

فهذه وصايا نافعة جداً ، وهى من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة . روى الإمام أحمد عن ابن عمر ، قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه » (٣) .

وروى ابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى ، أن رسول الله ﷺ قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابنى ، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل ، مذلة بالنهار » (٤) .

(١) مسلم (١٦٢٠ / ٢) .

(٢) النسائي فى الكبرى (١١٣٩١) والبخارى (٣٣٠١) ومسلم (٢٧٢٩ / ٨٢) وأبو داود (٥١٠٢) .

(٣) المسند (٥٦٠٥ ، ٥٦٠٦) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » .

(٤) رواه الحاكم فى المستدرک (٤١١ / ٢) وقال : « هذا متن شاهده إسناده صحيح » ووافقه الذهبى .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾
﴿ ١٩ ﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ سَعِيرٍ ﴿ ٢٠ ﴾

يقول تعالى منها خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحب وأمطار وثلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا ، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار . وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وإراحة الشبه والعلل ، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل في الله ، أى : فى توحيده وإرسال الرسل ، ومجادلته فى ذلك بغير علم ، ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب ماثور صحيح ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ أى : مبين يضىء . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ أى : لهؤلاء المجادلين فى توحيد الله : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ أى : على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أى : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] أى : فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ سَعِيرٍ ﴾ .

﴿ وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ ﴿ ٢١ ﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿ ٢٢ ﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿ ٢٣ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن أسلم وجهه لله، أى : أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أى : فى عمله ، باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ أى : فقد أخذ موثقا من الله متينا أنه لا يعذبه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ . وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ﴾ أى : لا تحزن يا محمد عليهم فى كفرهم بالله وبما جئت به ؛ فإن قدر الله نافذ فيهم ، إلى الله مرجعهم فنبئهم بما عملوا ، أى : فيجزئهم عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فلا تخفى عليه خافية . ثم قال : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أى : فى الدنيا ، ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أى : نلجئهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أى : فظيع صعب مشق على النفوس ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٩ ، ٧٠] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ٢٤ ﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿ ٢٥ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض ، وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى : إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : هو خلقه وملكه ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى : الغنى عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، الحميد فى جميع ما خلق ، له الحمد فى السموات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود فى الأمور كلها .

﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٧) ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (١٨)

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله ، وأسمائه الحسنی وصفاته العلا وكلماته التامة التى لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ أى : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً ، وجعل البحر مداداً ومدّه سبعة أبحر معه ، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مدداً . وإنما ذكرت « السبعة » على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر . وقال الحسن البصرى : لو جعل شجر الأرض أقلاماً ، وجعل البحر مداداً ، وقال الله : « إن من أمرى كذا ، ومن أمرى كذا » لنفد ما فى البحور ، وتكسرت الأقلام . وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ ﴾ أى : لو كان شجر الأرض أقلاماً ، ومع البحر سبعة أبحر ، ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه . وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ ﴾ الآية ، يقول : لو كان ذلك البحر مداداً لكلمات الله والأشجار كلها أقلاماً ، لا تكسرت الأقلام ، وفنى ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء ؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا يثنى عليه كما ينبغى ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه . إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أى : عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شؤونه . وقوله : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أى : ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة ، الجميع هين عليه و ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] أى : لا يأمر بالشىء إلا مرة واحدة ، فيكون ذلك الشىء لا يحتاج إلى تكرره وتوكده ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ

سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٩﴾ أى : كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بِعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ﴿٣٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣١﴾

يخبر تبارك وتعالى أنه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ يعنى : يأخذ منه فى النهار ، فيطول ذاك ويقصر هذا ، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ، ثم يشرع فى النقص فيطول الليل ويقصر النهار ، وهذا يكون فى الشتاء ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل : إلى غاية محدودة . وقيل : إلى يوم القيامة . وكلا المعنيين صحيح .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ كقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الحج : ٧٠] . ومعنى هذا : أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء ، كقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أى : إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أى : الموجود الحق ، الإله الحق ، وأن كل ما سواه باطل ؟ فإنه الغنى عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ؛ لأن كل ما فى السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده ، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه ، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لعجزوا عن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أى : العلى : الذى لا أعلى منه ، الكبير : الذى هو أكبر من كل شيء ، فكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٣﴾

يخبر تعالى أنه هو الذى سَخَّرَ البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، أى : بلطفه وتسخييره ؛ فإنه لولا ما جعل فى الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ ﴾ أى : من قدرته ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : صبار فى الضراء ، شكور فى الرخاء . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ أى : كالجبال والغمام ﴿ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ،

كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وقال : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

ثم قال : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] . وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل . وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، فالمقتصد ههنا هو : المتوسط فى العمل . ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال و الأمور العظام والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَا يَجْعَدُ بآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ : فالخَتَّار : هو الغَدَّار ، وهو الذى كلما عاهد نقض عهده ، والخَتَر : أتم الغدر وأبلغه ﴿ كَفُورٍ ﴾ أى : جحود للنعم لا يشكرها ، بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَتَأْتِيَ النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْفُرُورُ ﴾ ﴿ ١٢١ ﴾

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد ، وأمرهم لهم بتقواه والخوف منه ، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ أى : لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه . وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه . ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿ وَلَا يَفْرَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْفُرُورُ ﴾ يعنى : الشيطان . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة . فإنه يفر ابن آدم ويَعْدُهُ ويمنيه ، وليس من ذلك شيء ، بل كما قال تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ﴿ ١٢٢ ﴾

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها ، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿ لَا يُجْلِيهَا لَوَقْتُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الاعراف : ١٨٧] ، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه . وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى ، أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء الله

من خلقه . وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غدا في دنياها وأخرها ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ في بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان ، لا علم لأحد بذلك . وهذه شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية [الأنعام : ٥٩] . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس : مفاتيح الغيب . روى الإمام أحمد عن أبى بريدة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » . هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجوه (١) . وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » . انفراد بإخراجه البخارى (٢) . ورواه من وجه آخر عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس » . ثم قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ ، انفراد به أيضا (٣) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال : أوتى نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٤) .

وروى البخارى عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس ، إذ أتاه رجل يمشى ، فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر » . قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : « الإسلام : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » . فقال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : « الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربتها ، فذاك من أشراطها . وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس ، فذاك من أشراطها ، فى خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ » الآية ، ثم انصرف الرجل فقال : « ردوه عني » . فأخذوا ليردوه ، فلم يروا شيئا ، فقال : « هذا جبريل ، جاء ليعلم الناس دينهم » (٥) . ورواه البخارى ومسلم (٦) .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال : جلس رسول الله ﷺ مجلسا له ، فأتاه جبريل فجلس بين يدي رسول الله ﷺ واضعاً كفيه على ركبتي النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ،

(١) المسند (٣٥٣ / ٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (٩٣ / ٧) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

(٢) المسند (٤٧٦٦) والبخارى (١٠٣٥) . (٣) البخارى (٤٦٩٧) .

(٤) المسند (٣٦٥٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٥) البخارى (٤٧٧٧) . (٦) البخارى (٥٠) ومسلم (٥ / ٩) .

ما الإسلام ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإسلام : أن تسلم وجهك لله عز وجل ، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » . قال : فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ؟ قال : « إذا فعلت ذلك فقد أسلمت » . قال : يا رسول الله ، فحدثني ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان : أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبين ، وتؤمن بالموت ، وبالحياة بعد الموت ، وتؤمن بالجنة والنار ، والحساب والميزان ، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره » . قال : فإذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال : « إذا فعلت ذلك فقد آمنت » . قال : يا رسول الله ، حدثني ما الإحسان ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإحسان : أن تعمل لله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك » . قال : يا رسول الله ، فحدثني متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : « سبحان الله . في خمس لا يعلمهن إلا هو : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » ، ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك ؟ » . قال : أجل ، يا رسول الله ، فحدثني . قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيت الأمة ولدت رببتها - أو : ربها - ورأيت أصحاب الشاء يتناولون في البنيان ، ورأيت الحفاة الجياع العالة [كانوا رؤوس الناس ، فذلك من معالم الساعة وأشراطها] » . قال : يا رسول الله ، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة ؟ قال : « العرب » (١) .

وروى الإمام أحمد عن رجل من بنى عامر ؛ أنه استأذن على النبي ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « اخرجني إليه ، فإنه لا يحسن الاستئذان فقول لي : فليقل : « السلام عليكم ، أدخل ؟ » قال : فسَمِعْتُهُ يقول ذلك ، فقلت : السلام عليكم ، أدخل ؟ فأذن ، فدخلت ، فقلت : بم أتيتنا به ؟ قال : « لم آتكم إلا بخير ، أتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن تدعوا اللات والعزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ؛ وأن تصوموا من السنة شهراً ، وأن تحجوا البيت ، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم » . قال : فقال : فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال : « قد علم الله عز وجل خيراً ، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل : الخمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » (٢) . وهذا إسناد صحيح .

وقوله : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن ، فلم يُطلع عليهن ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلًا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة ، في أى سنة أو فى أى شهر ، أو ليل أو نهار ، ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ، ليلاً أو نهاراً ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ فلا يعلم أحد ما فى الأرحام ، أذكر أم أنثى ، أحمر أو أسود ، وما هو ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ أخير أم شر ، ولا تدرى يا بن

(١) المسند (٢٩٢٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (٣٦٨ / ٥) .

آدم متى تموت ؟ لعلك الميت غدا ، لعلك المصاب غدا ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ليس أحد من الناس يدرى أين مضجعه من الأرض ، أفى بحر أم بر ، أو سهل أو جبل ؟ عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ما جعل الله منية عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة » (١) . وروى الإمام أحمد عن أبي عزة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها - أو قال : بها - حاجة » . وأخرجه الترمذى وقال : صحيح (٢) . وروى ابن ماجه عن عمر بن على (٣) مرفوعا : « إذا كان أجل أحدكم بأرض أثبتته إليها حاجة ، فإذا بلغ أقصى أثره ، قبضه الله عز وجل ، فتقول الأرض يوم القيامة : رب ، هذا ما أودعته » (٤) .

(١) الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ١٧٨) (٤٦١) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ١٩٩) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٢) المسند (٣ / ٤٢٩) والترمذى (٢١٤٧) .

(٣) فى المطبوعة والمخطوطة : « عمر بن عكرمة » والصواب ما أثبتناه من ابن ماجه .

(٤) ابن ماجه (٤٢٦٣) وفى الزوائد للبوصيرى : « هذا إسناد صحيح ورجالہ ثقات » وصححه الألبانى .

تفسير سورة السجدة

وهي مكية

روى البخارى عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : كان النبى ﷺ يقرأ فى الفجر يوم الجمعة : ﴿ اَلَمْ . تَنْزِيل ﴾ السجدة و ﴿ هَلْ اَتَى عَلَى الْاِنْسَان ﴾ . ورواه مسلم (١) . وروى الإمام أحمد عن جابر قال : كان النبى ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿ اَلَمْ . تَنْزِيل ﴾ السجدة ، و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْك ﴾ تفرد به أحمد (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اَلَمْ ﴾ ﴿ ١ ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ٢ ﴾ اَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا اَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿ ٣ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته . وقوله : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى : لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ثم قال مخبراً عن المشركين : ﴿ اَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ بل يقولون ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ أى : اختلقه من تلقاء نفسه ، ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا اَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أى : يتبعون الحق .

﴿ اَللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ اَيَّامٍ ثُمَّ اَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ اَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ ٤ ﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ اَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿ ٥ ﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغُيُوبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ ٦ ﴾

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء ، فخلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، وقد تقدم الكلام على ذلك ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أى : بل هو المالك لأزمة الأمور ، الخالق لكل شيء ، المدبر لكل شيء ، القارء على كل شيء ، فلا ولى لخلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه ﴿ اَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعنى : أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه - تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد ، أو وزير أو عديل ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

(١) البخارى (٨٩١) ومسلم (٨٨٠ / ٦٥) .

(٢) المسند (٣ / ٣٤٠) والحديث رواه الترمذى (٢٨٩٢) وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى والسلسلة الصحيحة (٥٨٥) .

وقوله : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أى : يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ، كما قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] . وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وسمك السماء خمسمائة سنة . وقال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك : النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام ، وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام ، ولكنه يقطعها فى طرفة عين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى : المدبر لهذه الأمور الذى هو شهيد على أعمال عباده ، يرفع إليه جليلها وحقيرها ، وصغيرها وكبيرها هو ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذى قد عز كل شىء فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين . فهو عزيز فى رحمته ، رحيم فى عزته ، وهذا هو الكمال : العزة مع الرحمة ، والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل .

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿ ٧ ﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿ ٨ ﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿ ٩ ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه الذى أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها . وقال مالك . عن زيد بن أسلم : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ قال : أحسن خلق كل شىء كأنه جعله من المقدم والمؤخر . ثم لما ذكر خلق السموات والأرض ، شرع فى ذكر خلق الإنسان فقال : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ ، يعنى : خلق أبا البشر آدم من طين ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ أى : يتناسلون كذلك من نقطة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ يعنى : آدم ، لما خلقه من تراب خلقه سوياً مستقيماً ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ يعنى : العقول ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : بهذه القوى رزقكموها الله عز وجل . فالسعيد من استعملها فى طاعة ربه عز وجل .

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿ ١٠ ﴾ ﴿ قُلْ يَتُوبُ إِلَيْكُمْ مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ ١١ ﴾

ربع

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى استبعادهم المعاد حيث قالوا : ﴿ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : تمزقت أجسامنا وتفرقت فى أجزاء الأرض وذهبت ، ﴿ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى : أئنا لنعود بعد تلك الحال ؟ ! يستبعدون ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة ، لا بالنسبة إلى قدرة الذى بدأهم وخلقهم من العدم ، الذى إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ؛

ولهذا قال : ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ : الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة ، وقد سُمي في بعض الآثار بعزرائيل ، وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد ، وله أعوان . وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت . قال مجاهد : حُوت له الأرض فجعلت له مثل الطست ، يتناول منها حيث يشاء . وقال كعب الأحبار : واللّه ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات . ينظر هل فيه أحد أمر أن يتوفاه .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة ، وحالهم حين عاينوا البعث ، وقاموا بين يدي الله حقيرين ذليلين ، ناكسى رؤوسهم ، أى : من الحياء والخجل ، يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أى : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك ، كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : ٣٨] . وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] . وهكذا هؤلاء يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا ﴾ أى : إلى الدار الدنيا ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أى : قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات الله ويخالفون رسله ، كما قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل ولورُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴿ [الأنعام : ٢٧ - ٢٩] . وقال ههنا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٩٩] . ﴿ وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : من الصنفين ، فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها ، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك . ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أى : يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ : ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له ؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ، ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ أى : سنعاملكم معاملة الناسى ؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة ، كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الجاثية : ٣٤] .

وقوله : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بسبب كفركم وتكذيبكم ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا . إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا . جَزَاءً وَفَاقًا . إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا . وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا . وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا . فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبا : ٢٤ - ٣٠] .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿ ١٥ ﴾ ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ ١٧ ﴾

يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى : إنما يصدق بها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أى : استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً ، ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى : عن اتباعها والانقياد لها ، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

ثم قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ يعنى بذلك : قيام الليل ، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة . قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ ﴾ ، يعنى بذلك : قيام الليل . وعن أنس ، وعكرمة ، ومحمد بن المنكدر ، وأبى حازم ، وقتادة : هو الصلاة بين العشاءين . وعن أنس أيضاً : هو انتظار صلاة العتمة . رواه ابن جرير بإسناد جيد . وقال الضحاك : هو صلاة العشاء فى جماعة ، وصلاة الغداة فى جماعة . ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أى : خوفاً من وبال عقابه ، وطمعاً فى جزيل ثوابه ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ ، كما قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه :

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ما قال واقع
بيت يجافى جنبه عن فراشه	إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود ، عن النبى ﷺ قال : « عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولحافه ، ومن بين أهله وحيه (١) إلى صلاته ، [فيقول ربنا : أيا ملائكتى ، انظروا إلى عبدى ، ثار من فراشه ووطائه ، ومن بين حيه وأهله إلى صلاته] (٢) رغبة فيما عندى ، وشفقة مما عندى . ورجل غزا فى سبيل الله ، عز وجل ، فانهزموا ، فعلم ما عليه من

(١) فى المطبوعة : « وحيه » بالباء الموحدة ، وغير منقوطة بالمخطوطة والمثبت من المسند .

(٢) ما بين المعقوفتين ليس فى المخطوطة ، وأثبتناه من المسند والمطبوعة .

الفرار، وما له في الرجوع ، فرجع حتى أهرق دمه ، رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي . فيقول الله ، عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندي ، ورهبة مما عندي ، حتى أهرق دمه . وهكذا رواه أبو داود في « الجهاد » ، عن موسى بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، به بنحوه (١) . وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار . قال : « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » . ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل » . ثم قرأ : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ . ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ » فقلت : بلى ، يا رسول الله . فقال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله » . ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » فقلت : بلى ، يا نبي الله . فأخذ بلسانه ثم قال : « كَفَّ عَلَيْكَ هَذَا » فقلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به . فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال : على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم » . رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه . وقال الترمذى : حسن صحيح (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم ، واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد ، لَمَّا أخفوا أعمالهم أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقاً ؛ فإن الجزاء من جنس العمل . قال الحسن البصرى : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر ، على قلب بشر . روى البخارى : قوله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآية ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « قال الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . قال أبو هريرة : فاقروا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ . ورواه مسلم والترمذى . وقال الترمذى : حسن صحيح (٣) . ثم روى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبي ﷺ : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذُخْرًا مِّنْ بَلَهٍ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ » ، ثم قرأ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . قرأ أبو هريرة : « قُرَاتٍ أَعْيُنٍ » . انفرد به البخارى من هذا الوجه (٤) .

(١) المسند (٣٩٤٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (٥٢٣٦) .

(٢) المسند (٥ / ٢٣١) والترمذى (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣) وصححه الألبانى .

(٣) البخارى (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤ / ٢) والترمذى (٣١٩٧) .

(٤) البخارى (٤٧٨٠) .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى قال : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . أخرجاه في الصحيحين . قال ورواه الترمذى بمثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (١) . وعن أبي هريرة ، قال حماد : أحسبه عن النبي ﷺ قال : « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . رواه مسلم (٢) . وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدى ، قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة ، حتى انتهى ، ثم قال فى آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ . وأخرجه مسلم (٣) . وروى مسلم عن المغيرة بن شعبة - يرفعه إلى النبي ﷺ - قال : « سأل موسى ، عليه السلام ربه عز وجل : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجىء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أى رب ، كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب . فيقول : لك ذلك ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب . فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت رب . قال : رب ، فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلن تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر » ، قال : ومصادقه من كتاب الله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . ورواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم ولم يرفعه ، والمرفوع أصح (٤) .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن عدله أنه لا يساوى فى حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسوله ، بمن كان فاسقاً ، أى : خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرسله إليه ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

(١) المسند (٢ / ٣١٣) والبخارى (٨٤٩٨) ومسلم (٢٨٢٤ / ٤) والترمذى (٣٢٩٢) .

(٢) مسلم (٢٨٣٦ / ٢١) . (٣) المسند (٥ / ٣٣٤) ومسلم (٢٨٢٥ / ٥) .

(٤) مسلم (١٨٩ / ٢٩٣) والترمذى (٣١٩٨) .

[الجاثية : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ؛ ولهذا قال تعالى : ههنا : ﴿ أَقْمَنَ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أى : عند الله يوم القيامة . وقد ذكر عطاء بن يسار والسُّدِّي وغيرهما : أنها نزلت فى على بن أبى طالب ، وعقبة بن أبى معيط ؛ ولهذا فصل حكمهم فقال : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى : صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها ، وهى الصالحات ﴿ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ﴾ أى : التى فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿ نُزُلًا ﴾ أى : ضيافة وكرامة ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أى : خرجوا عن الطاعة ﴿ فَمَا وَاهُمْ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ كقوله : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ الآية [الحج : ٢٢] . قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدى لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقريرا وتوبيخا . وقوله : ﴿ وَلَنَذِيقَنَّ هُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ قال : ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها ، وما يحل بأهلها مما يتلى الله به عباده ليتوبوا إليه . وروى مثله عن أبى بن كعب ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة . وقال ابن عباس - فى رواية عنه : يعنى به إقامة الحدود عليهم . وقال : البراء بن عازب ، ومجاهد ، وأبو عبيدة : يعنى به عذاب القبر .

وروى عبد الله بن الإمام أحمد عن أبى بن كعب فى هذه الآية : ﴿ وَلَنَذِيقَنَّ هُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ قال : المصيبات والدخان قد مضيا ، والبطشة واللزام . ورواه مسلم موقوفا نحوه (١) وعند البخارى عن ابن مسعود، نحوه (٢) . وقال عبد الله بن مسعود أيضا ، فى رواية عنه : العذاب الأدنى : ما أصابهم من القتل والسبى يوم بدر . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم . قال السُّدِّي وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غرموا ، ومنهم من جمع له الأمران . وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أى : لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها ، كأنه لا يعرفها . قال قتادة : إياكم الإعراض عن ذكر الله ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة ، وأعوز أشد العوز ، وعظم من أعظم الذنوب . ولهذا قال تعالى متهددا لمن فعل ذلك : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أى : سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ (١٢) ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١٤) ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٥)

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه آتاه الكتاب وهو التوراة .
وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ قال قتادة : يعنى به ليلة الإسراء . ثم روى عن
أبي العالية الرياحى قال : حدثني ابن عم نبيكم - يعنى ابن عباس - قال : قال رسول الله ﷺ :
« أريت ليلة أسرى بى موسى بن عمران ، رجلاً آدم طويلاً جعداً ، كأنه من رجال شنوءة .
ورأيت عيسى رجلاً موبوع الخلق ، إلى الحمرة والبياض ، مبسط الرأس ، ورأيت مالكا خازن
النار والدجال ، فى آيات أراهن الله إياه » ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ : أنه قد رأى موسى ،
ولقى موسى ليلة أسرى به (١) .

وروى الطبرانى عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾
قال : جعل موسى هدى لبني إسرائيل ، وفى قوله : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ قال : من لقاء
موسى ربه عز وجل (٢) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أى : الكتاب الذى آتيناه ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ كما قال تعالى فى سورة
الإسراء : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٢] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ أى : لما كانوا صابرين
على أوامر الله وترك نواهيه وزواجه وتصدق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به ، كان منهم أئمة
يهدون إلى الحق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . ثم
لما بدلوا وحرّفوا وأولّوا ، سلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن
مواضعه ، فلا عمل صالحاً ، ولا اعتقاد صحيحاً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا
صَبَرُوا ﴾ قال قتادة وسفيان : لما صبروا عن الدنيا ، وكذلك قال الحسن بن صالح . قال سفيان :
هكذا كان هؤلاء ، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يُقْتَدَى به حتى يتحامى عن الدنيا . قال
وكيع : قال سفيان : لا بد للدين من العلم ، كما لا بد للجسد من الخبز . وقال ابن بنت
الشافعى : قرأ أبى على عمى - أو عمى على أبى - سئل سفيان عن قول على : الصبر من الإيمان
بمنزلة الرأس من الجسد ، ألم تسمع قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ قال : لما
أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً . قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ [وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ
عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ الآية [الجاثية : ١٦ ، ١٧] ، كما قال هنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ
بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى : من الاعتقادات والأعمال .

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية الاولى من سورة الإسراء .

(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢ / ١٦٠) (١٢٧٥٨) وقال الهيثمى فى الزوائد (٩٣ / ٧) : « رجاله رجال
الصحيح » .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى : أو لم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسول ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية ، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل ، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ﴿ هل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً ﴾ [مريم : ٩٨] ؛ ولهذا قال : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ ﴾ أى : وهؤلاء المكذبون يمشون فى مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ، ذهبوا منها ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [الاعراف : ٩٢] ، كما قال : ﴿ فَتَلَكَّ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل : ٥٢] ، وقال : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِئُ مُعْظَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٥ ، ٤٦] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى : إن فى ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم ، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل متظاهرة ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أى : أخبار من تقدم ، كيف كان أمرهم ؟

وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه ، وإحسانه إليهم فى إرساله الماء إما من السماء أو من السبح ، وهو : ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضى المحتاجة إليه فى أوقاته ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ ، وهى التى لانبث فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ [الكهف : ٨] ، أى : ييساً لا تنبت شيئاً .

وليس المراد من قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أرض مصر فقط ، بل هى بعض المقصود ، وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست المقصودة وحدها ، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية ، فإنها فى نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها ، فيسوق الله إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة ، وفيه طين أحمر ، فيغشى أرض مصر ، وهى أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء ، وذلك الطين أيضاً لينبت الزرع فيه ، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطر فى غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم ، فسبحان الحكيم الكريم المتان المحمود أبداً .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعَبْنًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس : ٢٤-٣٢] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ قال : هى التى لا

تُمْطَرُ إِلَّا مَطَرًا لَا يَغْنَى عَنْهَا شَيْئًا ، إِلَّا مَا يَأْتِيهَا مِنَ السَّيُولِ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَمُجَاهِدٍ : هِيَ أَرْضُ الْيَمَنِ . وَقَالَ الْحَسَنُ : هِيَ قَرْيٌ فِيمَا بَيْنَ الْيَمَنِ وَالشَّامِ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ ، وَالضَّحَّاكُ ، وَقَتَادَةُ ، وَالسُّدِّيُّ ، وَابْنُ زَيْدٍ ، الْأَرْضُ الْجُرُزُ : الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا وَهِيَ مَغْبِرَةٌ . قُلْتُ : وَهَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٥] .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ ٢٨ ﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿ ٢٩ ﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿ ٣٠ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار ووقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ ﴾ أى : متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتاً تadal علينا، ويتنقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليين ! قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ أى : إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه فى الدنيا وفى الآخرة ﴿ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٣ - ٨٥] ، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فافحش، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم؛ لقوله : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ ، وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل، كقوله تعالى : ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٨] ، وكقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبا: ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٥] ، وقال : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة: ٨٩] ، وقال : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال: ١٩] . ثم قال : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴾ أى : أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله : ﴿ اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٠٦] ، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد.

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴾ أى : أنت منتظر، وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا أَلَمْ نَكُنْ مِنْ قَبْلُ نَبِئًا مُنذِرًا ﴾ [الطور: ٣٠] ، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله، فى نصرتك وتأيدك ، وسيعجدون غيب ما ينتظرونه فيك وفى أصحابك ، من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تفسير سورة الأحزاب

وهي مدنية

روى الإمام أحمد عن زرّ قال : قال لى أبى بن كعب : كآين تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كآين تعدها ؟ قال : قلت : ثلاثاً وسبعين آية . فقال : قط ! لقد رأيتها وإنها لتعادل « سورة البقرة » ، ولقد قرأنا فيها : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، نكالا من الله ، والله عليم (١) حكيم » . ورواه النسائي (٢) . وهذا إسناد حسن ، وهو يقتضى أنه كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِ ﴿ يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾
﴿ ١ ﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿ ٢ ﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿ ٣ ﴾

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا ، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأخرى . وقد قال طلق بن حبيب : التقوى : أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أى : لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى : فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم فى أقواله وأفعاله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى : من قرآن وسنة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أى : فلا تخفى عليه خافية ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : فى جميع أمورك وأحوالك ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أى : وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأتاب إليه .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ ﴿ ٤ ﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ ٥ ﴾

(١) فى المطبوعة : « عزيز حكيم » ، وما أثبتناه من المسند والمخطوطة .

(٢) المسند (٥ / ١٣٢) والنسائي فى الكبرى (٧١٥٠) .

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي أمراً معروفاً حسياً ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا يصير زوجته التي يظهر منها بقوله : أنت على كظهر أمي أمّا له ، كذلك لا يصير الدّعيّ ولدّاً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له ، فقال : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ الآية [المجادلة : ٢] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ : هذا هو المقصود بالنفي ؛ فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة ، وكان يقال له : « زيد ابن محمد » ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ ، كما قال تعالى في أثناء السورة : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، وقال ههنا : ﴿ ذَلِكَ كَقَوْلِكُمْ بَأْفَوَاهِكُمْ ﴾ يعنى : تبنيكم لهم قول لا يقتضى أن يكون ابناً حقيقياً ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ قال سعيد بن جبير : ﴿ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ أى : العدل . وقال قتادة : ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ أى : الصراط المستقيم . وقد ذكر غير واحد : أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش ، كان يقال له : « ذو القلبين » ، وأنه كان يزعم أن له قلبين ، كل منهما بعقل وافر . فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليه . هكذا روى العوفي عن ابن عباس . وقاله مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، واختاره ابن جرير . وروى الإمام أحمد عن ابن أبي ظبيان قال : قلت لابن عباس : رأيت قول الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ ﴾ ، ما عني بذلك ؟ قال : قام رسول الله ﷺ يوماً يصلى ، فخطر خطرة ، فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترون له قلبين ، قلباً معكم وقلباً معهم ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ ﴾ . وهكذا رواه الترمذى ثم قال : وهذا حديث حسن (١) .

وقال الزهرى ، فى قوله : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ ﴾ قال : بلغنا أن ذلك كان فى زيد بن حارثة ، ضرب له مثل ، يقول : ليس ابن رجل آخر ابنك . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : أنها نزلت فى زيد بن حارثة . وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير ، والله أعلم . وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ : هذا أمر ناسخ لما كان فى ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأدعياء ، فأمر تعالى برد نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط . روى البخارى عن عبد الله بن عمر ؛ أن زيداً بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنّا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ . وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى (٢) .

(١) المسند (٢٤١٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » والترمذى (٣١٩٩) .

(٢) البخارى (٤٧٨٢) ومسلم (٢٤٢٥ / ٦٢) والترمذى (٣٢٠٩) والنسائى فى الكبرى (١١٣٩٧) .

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه ، فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك ؛ ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة : يا رسول الله ، كنا ندعو سالماً ابناً ، وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإنه كان يدخل علىّ ، وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئاً فقال ﷺ : «أرضعيه تحرمي عليه» الحديث (١) . ولهذا لما نسخ هذا الحكم ، أباح تعالى زوجة الدعوى ، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة ، وقال : ﴿ لَكَى لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْراً ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وقال فى آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ، احترازاً عن زوجة الدعوى ، فإنه ليس من الصلب ، فأما الابن من الرضاعة ، فمَنْزِل منزلة ابن الصلب شرعاً ، بقوله ، عليه السلام ، فى الصحيحين : « حرّموا من الرضاعة ما يحرم من النسب » (٢) . فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحيب ، فليس مما نهى عنه فى هذه الآية ، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى عن ابن عباس ، قال : قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بنى عبد المطلب على حمّرات لنا من جمّع ، فجعل يَلَطِّخُ أفخاذنا ويقول : « أُبْنَى لَا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس » (٣) . قال أبو عبيدة وغيره : « أُبْنَى » : تصغير ابنى . وهذا ظاهر الدلالة ، فإن هذا كان فى حجة الوداع سنة عشر ، وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ ﴾ فى شأن زيد بن حارثة ، وقد قتل فى يوم مؤتة سنة ثمان ، وأيضاً ففى صحيح مسلم عن أنس بن مالك ، قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا بُنَى » ، ورواه أبو داود والترمذى (٤) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ : أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم ، إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا آباءهم ، فهم إخوانهم فى الدين ومواليهم ، أى : عوضاً عما فاتهم من النسب ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء ، وتبعتهم ابنة حمزة تنادى : يا عم ، يا عم . فأخذها على وقال لفاطمة : دونك ابنة عمك فاحتملتها . فاختصم فيها على ، وزيد ، وجعفر فى أيّهم يكفلها ، فكل أدلى بحجة ؛ فقال على : أنا أحق بها وهى ابنة عمي - وقال زيد : ابنة أخى . وقال جعفر بن أبى طالب : ابنة عمى ، وخالتها تحتى - يعنى أسماء بنت عميس - فقضى النبى ﷺ لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم » . وقال لعلى : « أنت منى ، وأنا منك » . وقال لجعفر : « أشبهت خلقى وخلقى » . وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » (٥) . ففى هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها : أنه ، عليه الصلاة والسلام ، حكم بالحق ، وأرضى كلاً من المتنازعين ، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » ، كما قال تعالى : ﴿ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ .

(١) مسلم (١٤٥٣ / ٢٦) . (٢) البخارى (٤٧٩٦) ومسلم (١٤٤٥ / ٣) .

(٣) المسند (٣١١ / ١) وأبو داود (١٩٤٠) وابن ماجه (٣٠٢٥) وصححه الألبانى .

(٤) مسلم (٢١٥١ / ٣١) وأبو داود (٤٩٦٤) والترمذى (٤٨٣١) .

(٥) البخارى (٢٦٩٩) .

وقد جاء في الحديث : « من ادعى لغير أبيه ، وهو يعلمه كفر » (١) . وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد ، في التبري من النسب المعلوم ؛ ولهذا قال : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ﴾ أى : إذا نسبتهم بعضهم إلى غير أبيه فى الحقيقة خطأ ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع ؛ فإن الله قد وضع الحرج فى الخطأ ورفع إثمه ، كما أرشد إليه فى قوله أمراً عباده أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله : قد فعلت » (٢) . وفى صحيح البخارى ، عن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب ، فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ ، فله أجر » (٣) . وقال هاهنا : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى : وإنما الإثم على من تعمد الباطل كما قال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْغُرُوبِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ .

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ، ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم مقدماً على اختيارهم لأنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] . وفى الصحيح : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » (٤) . وفى الصحيح أيضاً أن عمر قال : يا رسول الله ، والله لانت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى . فقال : « لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك » : فقال : يا رسول الله ، والله لانت أحب إلى من كل شيء حتى من نفسى . فقال ﷺ : « الآن يا عمر » (٥) .

ولهذا قال تعالى فى هذه الآية : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ . وروى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فأما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا . وإن ترك ديناً أو ضياعاً ، فليأتنى فأنا مولاه » . تفرد به البخارى (٦) .

(٢) مسلم (١٢٦ / ٢٠٠) .

(٤) البخارى (١٤) .

(٦) البخارى (٤٧٨١) .

(١) البخارى (٣٥٠٨) .

(٣) البخارى (٧٣٥٢) .

(٥) البخارى (١٦٣٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أى : فى الحرمة والاحترام ، والإكرام والتوقير والإعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم .

وقوله : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أى : فى حكم الله ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ أى : القرباب أولى بالتوراث من المهاجرين والأنصار ، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالخلف والمؤاخاة التى كانت بينهم ، كما قال ابن عباس وغيره : كان المهاجرى يرث الأنصارى دون قراباته وذوى رحمه ، للأخوة التى آخى بينهما رسول الله ﷺ ، وكذا قال سعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف والخلف .

وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ أى : ذهب الميراث ، وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية . وقوله : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ أى : هذا الحكم ، وهو أن أولى الأحام بعضهم أولى ببعض ، حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأول ، الذى لا يبدل ، ولا يغير . قاله مجاهد وغير واحد . وإن كان تعالى : قد شرع خلافه فى وقت لما له فى ذلك من الحكمة البالغة ، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزل ، وقضائه القدرى الشرعى .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ ﴿٧﴾ لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن أولى العزم الخمسة ، وبقية الأنبياء : أنه أخذ عليهم العهد والميثاق فى إقامة دين الله ، وإبلاغ رسالته ، والتعاون والتناصر والاتفاق ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١] . فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم ، وكذلك هذا . ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة ، وهم أولو العزم ، وهو من باب عطف الخاص على العام ، وقد صرح بذكرهم أيضاً فى هذه الآية ، وفى قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣] ، فذكر الطرفين والوسط ، الفاتح والخاتم ، ومن بينهما على هذا الترتيب . فهذه هى الوصية التى أخذ عليهم الميثاق بها ، كما قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ ، فبدأ فى هذه الآية بالخاتم ، لشرفه - صلوات الله عليه - ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم .

وقوله : ﴿ لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ قال مجاهد : المبلغين المؤدين عن الرسل . وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى : من أمهم ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : موجعاً ، فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين ، الواضح الجلى ، الذى لا

لبس فيه ، ولا شك ، ولا امتراء ، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين ، فما جاءت به الرسل هو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين ، فى صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق ، وذلك فى شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور .

وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفراً من أشراف يهود بنى النضير ، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام بن أبى الحقيق، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش ، وألبوهم على حرب النبى ﷺ ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة . فأجابوهم إلى ذلك ، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً . وخرجت قريش فى أحابيشها ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر ، والجميع قريب من عشرة آلاف ، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلى الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي ، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر ، وكان فى حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحة .

وجاء المشركون فنزلوا شرقى المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم فى أعالى أرض المدينة ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ ، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف ، وقيل : سبعمائة ، وأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم إلى نحو العدو ، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجال والخيالة أن تصل إليهم ، وجعل النساء والذرارى فى أطام المدينة، وكانت بنو قريظة - وهم طائفة من اليهود - لهم حصن شرقى المدينة ، ولهم عهد من النبى ﷺ وذمة ، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حبي بن أخطب النضرى اليهودى ، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ، ومالؤوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، فعظم الخطب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ . ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ود العامرى - وكان من الفرسان الشجعان المشهورين فى الجاهلية - ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه ، فلم يبرز إليه أحد ، فأمر علياً فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتله على ، رضى الله عنه ، فكان علامة على

النصر . ثم أرسل الله ، عز وجل ، على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية ، حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ولا تُوقَد لهم نار ، ولم يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ . قال مجاهد : وهى الصبا ، ويؤيده الحديث الآخر : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » (١) .

وقوله : ﴿ وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ : وهم الملائكة ، زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بنى فلان إلى . فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء . لما ألقى الله تعالى فى قلوبهم من الرعب . وقال ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قال : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله ، رأيت رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟ قال : نعم يا بن أخى . قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد . قال الفتى : والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا . قال : قال حذيفة : يا بن أخى ، والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخذق وصلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ، ثم التفت فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ ؟ - يَشْرُطُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ - أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » . قال : فما قام رجل . ثم صلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ثم التفت إلينا ، فقال مثله ، فما قام منا رجل . ثم صلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ثم التفت إلينا فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ - يَشْرُطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجْعَةَ - أَسْأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ » . فما قام رجل من القوم ؛ من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد . فلما لم يبق أحد ، دعانى رسول الله ﷺ . فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى فقال : « يا حذيفة ، اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يفعلون ، ولا تُحَدِّثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا » . قال : فذهبت فدخلت فى القوم ، والريح وجنود الله ، عز وجل ، تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقَرَّ لهم قَدَرًا ولا نارًا ولا بناءً ، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ، لينظر كل امرئ مَنْ جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى ، فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكُرَاع والخُفَّ ، وأخلفتنا بنو قُرَيْظَةَ ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح الذى ترون . والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تَقُومُ لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فإنى مُرْتَحِلٌ ، ثم قام إلى جَمَلِهِ وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقاله إلا هو قائم . ولولا عهد رسول الله ﷺ إلى : « ألا تحدث شيئًا حتى تأتيني » ثم شئتُ ، لقتلته بسهم .

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى مِرْطٍ لبعض نسائه مُرَحِّلٌ ، فلما رآنى أدخلنى بين رجله ، وطرح على طرف المِرْطِ ، ثم ركع ، وسجد وإنى لفيه ، فلما

سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش ، فانשמروا راجعين إلى بلادهم . وقد رواه مسلم في صحيحه عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه قال : كنا عند حذيفة بن اليمان فقال له رجل : لو أدركت رسول الله ﷺ ، قاتلت معه وأبليت . فقال له حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقرّ ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا رجل يأتي بخبر القوم ، يكون معي يوم القيامة ؟ » . فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ، ثم الثالثة مثله . ثم قال : « يا حذيفة ، قم فأتنا بخبر من القوم » . فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم ، فقال : « اتنى بخبر القوم ، ولا تدعهم على » . قال : فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم ، فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار ، فوضعت سهمي في كبد قوسى ، وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ : « لا تدعهم على » ، ولو رميته لأصبته . قال : فرجعت كأنما أمشي في حمام ، فأتيت رسول الله ﷺ ، ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت فأخبرت رسول الله ﷺ ، والبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها ، فلم أزل نائماً حتى أصبح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ : « قم يا نومان » (١) .

وقوله : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ أى : الأحزاب ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ بنو قريظة ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ أى : من شدة الخوف والفرع ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ . قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سيفعل ذلك . وقال ابن إسحاق فى قوله : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ : ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير - أخو بنى عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقبصر ، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط . وقال الحسن فى قوله : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ : ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (١٢)

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال ، حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون فى غاية الجهد والضيق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم : أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالاً شديداً ، فحينئذ ظهر النفاق ، وتكلم الذين فى قلوبهم مرض بما فى نفوسهم ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أما المنافق ، فنجم نفاقه ،

والذى فى قلبه شبهة أو حسكة ، لضعف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس فى نفسه ؛ لضعف إيمانه ، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال . وقوم آخرون قالوا كما قال الله : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ يعنى : المدينة ، كما جاء فى الصحيح : « أريت [فى المنام] دار هجرتكم ، أرض بين حرتين فذهب وهلى أنها هجر ، فإذا هى يثرب » ، وفى لفظ : « المدينة » (١) .

وقوله : ﴿ لَا مَقَامَ لَكُمْ ﴾ أى : ها هنا ، يعنون عند النبى ﷺ فى مقام المراقبة ﴿ فَارْجِعُوا ﴾ أى : إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ ﴾ قال ابن عباس : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السرقة . وكذا قال غير واحد . وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك : هو أوس بن قَيْظَى ، يعنى : اعتذروا فى الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة ، أى : ليس دونها ما يحجبها عن العدو ، فهم يخشون عليها منهم . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ ﴾ أى : ليست كما يزعمون ﴿ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أى : هرباً من الزحف .

﴿ وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾
 ﴿ ١٤ ﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا بِأَمْرٍ أُولَىٰ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿ ١٥ ﴾
 قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ ١٦ ﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿ ١٧ ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنْ بَيَّتْنَا عُورَةً وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ : أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة ، وقطر من أقطارها ، ثم سئلوا الفتنة ، وهى الدخول فى الكفر ، لكفروا سريعاً . وهم لا يحافظون على الإيمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع . هكذا فسرهما قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد ، وابن جرير ، وهذا ذم لهم فى غاية الذم .

ثم قال تعالى : يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف ، ألا يولوا الأدبار ولا يفروا من الزحف ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ أى : وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد ، لا بد من ذلك . ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ، ولا يطول أعمارهم ، بل ربما كان ذلك سبباً فى تعجيل أخذهم غرة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى : بعد هربكم وفراركم ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾ [النساء : ٧٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : يمنعكم ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أى : ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث .

الفرج من ربه ، عز وجل ، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجعوا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أى : هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ؟ ولهذا قال : ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ .

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم ، وجعله العاقبة حاصلة لهم في الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ قال ابن عباس وقتادة : يعنون قوله تعالى في « سورة البقرة » : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] . أى : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذى يعقبه النصر القريب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ : دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم ، كما قاله جمهور الأئمة : إنه يزيد وينقص .

ومعنى قوله : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ أى : ذلك الحال والضيق والشدة ﴿ إِلَّا إِيمَانًا ﴾ بالله ﴿ وَتَسْلِيمًا ﴾ أى : انقيادا لأوامره ، وطاعة لرسوله .

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (١٢) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿ (١٤) ﴾

لما ذكر عز وجل عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذى كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق ، و ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ قال بعضهم : أجله . وقال البخارى : عهده . وهو يرجع إلى الأول ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أى : وما غيروا عهد الله ، ولا نقضوه ولا بدلوه .

روى البخارى عن زيد بن ثابت ، قال : لما نسخنا الصحف ، فَقَدْتُ آيَةً من « سورة الأحزاب » كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصارى ، الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ . وأخرجه أحمد ، والترمذى والنسائى . وقال الترمذى : « حسن صحيح » (١) .

وروى البخارى أيضا عن أنس بن مالك قال : نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ . انفرد به البخارى من هذا الوجه (٢) ، ولكن له

(١) البخارى (٤٧٨٤) ، والمسند (١٨٨/٥) ، والترمذى (٣١٠٤) ، والنسائى فى الكبرى (١١٤/١) .

(٢) البخارى (٤٧٨٣) .

شواهد من طرق أخر. روى الإمام أحمد عن أنس قال : عمى أنس بن النضر سُميت به ، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ، فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبَ عنه ، لئن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ لَيَرَيْنَ الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ [يوم] (١) أحد ، فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس : يا أبا عمرو أين ؟ واهاً لريح الجنة أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قُتل قال : فوجد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته - عمتي الربيع ابنة النضر - : فما عرفتُ أخى إلا بينانه . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ . قال : فكانوا يُروْنَ أنها نزلت فيه ، وفي أصحابه . ورواه مسلم والترمذي والنسائي .

وروى ابن أبي حاتم عن أنس أن عمه - يعني : أنس بن النضر - غاب عن قتال بدر ، فقال : غُيِّبَ عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين ، لئن الله أشهدني قتالاً للمشركين ، لَيَرَيْنَ الله ما أصنع . قال : فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إني أعترض إليك مما صنع هؤلاء - يعني : أصحابه - وأبرأ إليك مما جاء هؤلاء - يعني : المشركين - ثم تقدم فلقى سعد - يعني : ابن معاذ - دون أحد ، فقال : أنا معك . قال سعد : فلم أستطع أن أصنع ما صنع . قال : فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف ، وطعنة رمح ، ورمية سهم . وكانوا يقولون : فيه وفي أصحابه نزلت : ﴿ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ﴾ . وأخرجه الترمذي والنسائي . وقال الترمذي : حسن (٢) . ولم يذكر نزول الآية (٣) . قال مجاهد في قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ قال : عهده ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ﴾ قال : يوماً فيه القتال فيصدق في اللقاء . وقال الحسن : ﴿ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ يعني : موته على الصدق والوفاء ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ﴾ الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل تبديلاً . وكذا قال قتادة ، وابن زيد وقال بعضهم : ﴿ نَحْبَهُ ﴾ : نذره .

وقوله : ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أي : وما غيروا عهدهم ، وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه ، وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ إِنَّا بُوْتْنَا عَوْرَةً وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : إنما يختبر عباده بالخوف والزلازل ليميز الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ،

(١) المسند (٣/١٩٣) ، ومسلم (١٤٨/١٩٠٣) ، والترمذي (٣٢٠٠) .

وفي المخطوطة : « فشهد مع رسول الله ﷺ أحد » هكذا بدون نصب « أحد » مما يدل على سقوط « يوم » منها ، والذي أثبتناه من البخاري والمطبوعة .

(٢) الترمذي (٣٢٠١) والنسائي في الكبرى (١١٤٠٣) وصححه الألباني .

(٣) البخاري (٤٠٤٨) .

مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم ، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، فهذا علم بالشيء بعد كونه ، وإن كان العلم السابق حاصلًا به قبل وجوده . وكذا قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أي : بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه ، وقيامهم به ، ومحافظتهم عليه ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ : وهم الناقضون لعهد الله ، المخالفون لأوامره ، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا ، إن شاء استمر بهم على ما فعلوه حتى يلقوه به فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان ، وعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة لغضبه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾

يقول تعالى مخبرًا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة ، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية ، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين ، لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم على عاد ، ولكن قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣] ، فسلط عليهم هواء فرق شملهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الهوى ، وهم أخلاط من قبائل شتى ، أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم ، وردهم خائبين خاسرين بغیظهم وحنقهم ، لم ينالوا خيرًا لا في الدنيا ، مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم ، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، بالعداوة ، وهمهم بقتله ، واستتصال جيشه ، ومن همّ بشيء وصدق همّه بفعله ، فهو في الحقيقة كفاعله .

وقوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أي : لم يحتاجوا إلى منازلهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » ، فلا شيء بعده . أخرجاه من حديث أبي هريرة (١) . وفي الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم ، اهزمهم وزلزلهم » (٢) .

وفي قوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها ، لم يغزهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون في بلادهم . قال ابن إسحاق : لما

انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا: « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » ، فلم تغز قريش بعد ذلك ، وكان هو يغزوهم بعد ذلك ، حتى فتح الله عليه مكة . وهذا حديث صحيح ، كما روى الإمام أحمد عن سليمان بن صرد قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » . وهكذا رواه البخارى (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ أى : بحوله وقوته ، ردهم خائبين ، لم ينالوا خيراً ، وأعز الله الإسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعبده ، فله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ (١٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٧﴾

قد تقدم أن بنى قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ، ونزلوا على المدينة ، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد ، وكان ذلك بسفارة حبي بن أخطب النضرى - لعنه الله - دخل حصنهم ، ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد ، وقال له فيما قال : ويحك ، قد جئتك بعز الدهر ، أتيتك بقريش وأحابيشها ، وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه . فقال له كعب : بل والله أتيتنى بذل الدهر . ويحك يا حبي ، إنك مشؤوم ، فدعنا منك . فلم يزل يفتل فى الذروة والغارب حتى أجابه ، واشترط له حبي إن ذهب الأحزاب ، ولم يكن من أمرهم شيء ، أن يدخل معهم فى الحصن ، فيكون له أسوتهم . فلما نقضت قريظة ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه ، وشق عليه وعلى المسلمين جداً ، فلما أيد لله ونصر ، وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً ، ووضع الناس السلاح . فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعاء تلك المراقبة فى بيت أم سلمة إذ تبدى له جبريل معتجراً بعمامة من إستبرق ، على بغلة عليها قطيفة ديباج ، فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها ، وهذا الآن رجوعى من طلب القوم . ثم قال : إن الله يأمرك أن تنهض إلى بنى قريظة . فنهض رسول الله ﷺ من فوره ، وأمر الناس بالمسير إلى بنى قريظة ، وكانت على أميال من المدينة ، وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال : « لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة » . فسار الناس ، فأدركتهم الصلاة فى الطريق ، فصلى بعضهم فى الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا فى بنى قريظة . فلم يُعَنَّفَ واحداً من الفريقين . وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب . ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمسا وعشرين

ليلة ، فلما طال عليهم الحال ، نزلوا على حكم سعد بن معاذ - سيد الأوس - لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية ، واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك ، كما فعل عبد الله بن أبي ابن سلول في مواليه بنى قينقاع ، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك ، ولم يعلموا أن سعداً ، رضى الله عنه ، كان قد أصابه سهم في أكحله أيام الخندق ، فكواه رسول الله ﷺ في أكحله ، وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب . وقال سعد فيما دعا به : اللهم ، إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها . وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فافجرها ولا تمتني حتى تُقرّ عيني من بنى قريظة . فاستجاب الله دعاءه ، وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطّؤوا له عليه ، جعل الأوس يلوذون به ويقولون : يا سعد ، إنهم مواليك ، فأحسن فيهم . ويرققونه عليهم ويعطفونه ، وهو ساكت لا يرد عليهم . فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله : « قوموا إلى سيدكم » . فقام إليه المسلمون ، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم . فلما جلس قال له رسول الله ﷺ : « إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حكمك ، فاحكم فيهم بما شئت » . قال : وحكمي نافذ عليهم ؟ قال : « نعم » . قال : وعلى من في هذه الخيمة ؟ قال : « نعم » . قال : وعلى من هاهنا . وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ - وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ - إجلالاً وإكراماً وإعظاماً - فقال له رسول الله ﷺ : « نعم » . فقال : إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتُسبى ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله ﷺ : « لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » (١) ، وفي رواية : « لقد حكمت بحكم الملك » . ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فخذت في الأرض ، وجيء بهم مكتفين ، فضرب أعناقهم ، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة ، وسبى من لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ ﴾ أى : عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : بنى قريظة من اليهود ، من بعض أسباط بنى إسرائيل ، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديماً ، طمعاً في اتباع النبی الامی الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة : ٨٩] ، فعليهم لعنة الله .

وقوله : ﴿ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعنى : حصونهم . كذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، وقتادة ، والسدّي ، وغيرهم ، ومنه سميت صياصي البقر ، وهى قرونها ؛ لأنها أعلى شىء فيها ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ وهو الخوف ؛ لأنهم كانوا مالئوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ ، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزّوا في الدنيا ، فانعكس عليهم الحال ؛ ولهذا قال تعالى :

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ ، فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصاغر والنساء . روى الإمام أحمد عن عطية القرظي قال : عرضت على النبي ﷺ يوم قريظة فشكوا في ، فأمر بي النبي ﷺ أن ينظروا : هل أنبت بعد ؟ فنظروا فلم يجدوني أنبت ، فخلي عني وألحقني بالسبي . وكذا رواه أهل السنن . وقال الترمذي : حسن صحيح (١) . ورواه النسائي بنحوه (٢) .

وقوله : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ أى : جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها ﴾ : قيل : خيبر . وقيل : مكة . وقيل : فارس والروم . وقال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مراداً . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ روى الإمام أحمد عن علقمة بن وقاص قال : أخبرتنى عائشة قالت : خرجت يوم الخندق أقفو الناس ، فسمعت وثيد الأرض ورائي ، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنه ، قالت : فجلست إلى الأرض ، فمر سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه ، فأنا أتخوف على أطراف سعد ، قالت : وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم ، فمر وهو يرتجز ويقول :

لَبْتُ قَلِيلًا يَشْهَدُ الْهَيْجَا حَمَلٌ
مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ

قالت : فقامت فاقتحمت حديقة ، فإذا فيها نفر من المسلمين ، وإذا فيها عمر بن الخطاب ، وفيهم رجل عليه تسبغة له - تعنى المغفر - فقال عمر : ما جاء بك ؟ لعمرى والله إنك لجريرة ، وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تحوز . قالت : فما زال يلومنى حتى تمنيت أن الأرض انشقت بى ساعتئذ ، فدخلت فيها ، فرفع الرجل التسبغة عن وجهه ، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال : يا عمر ، ويحك ، إنك قد أكثرت منذ اليوم ، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى ؟ قالت : ويرمى سعداً رجل من قريش ، يقال له : ابن العرقة بسهم ، وقال له : خذها وأنا ابن العرقة فأصاب أكحلّه فقطعه ، فدعا الله سعد فقال : اللهم ، لا تمنى حتى تُقر عينى من قريظة . قالت : وكانوا حلفاءه ومواليه فى الجاهلية ، قالت : فرقاً كلمه ، وبعث الله الريح على المشركين ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً . فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة ، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا فى صياصيههم ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من آدم فضربت على سعد فى المسجد ، قالت : فجاءه جبريل ، عليه السلام ، وإن على ثنياه لنقع الغبار ، فقال : أو قد وضعت السلاح ؟ لا ، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح ، أخرج إلى بنى قريظة فقاتلهم . قالت : فلبس رسول الله ، لأمته ، وأذن فى الناس بالرحيل أن يخرجوا ، فخرج رسول الله ﷺ فمر على بنى غنم وهم جيران المسجد حوله فقال : ومن مر بكم ؟ قالوا : مر بنا دحية الكلبي - وكان دحية الكلبي تشبه لحيته ، وسنه ووجهه جبريل ، عليه الصلاة والسلام ، فاتاهم رسول الله ﷺ

(١) المسند (٣١١/٥) ، وأبو داود (٤٤٠٤) ، والترمذي (١٥٨٤) ، والنسائي (٤٩٨١) ، وابن ماجه (٢٥٤٢) وصححه الألبانى .

(٢) النسائي فى الكبرى (٨٦١٩) .

فحاصرهم خمسين ليلة ، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله ﷺ . فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر ، فأشار إليهم أنه الذبح . قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ [فقال رسول الله ﷺ : « انزلوا على حكم سعد بن معاذ » . فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ] (١) فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حمل عليه ، وحفّ به قومه ، فقالوا : يا أبا عمرو ، حلفاؤك ومواليك وأهل النكابة ، ومن قد علمت ، قالت : ولا يرجع إليهم شيئا ، ولا يلتفت إليهم ، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال : قد آن لى ألا أبالي فى الله لومة لائم . قال : قال أبو سعيد : فلما طلع قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » . فقال عمر : سيدنا الله . قال : « أنزلوه » . فأنزلوه ، قال رسول الله ﷺ : « احكم فيهم » . قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتقسم أموالهم ، فقال رسول الله : « لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله » . ثم دعا سعد فقال : اللهم ، إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئا ، فأبقنى لها . وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم ، فأقبضنى إليك . قال : فانفجر كلمه ، وكان قد برئ منه إلا مثل الخرص ، ورجع إلى قبه التى ضرب عليه رسول الله .

قالت عائشة : فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر ، وعمر : قالت : فوالذى نفس محمد بيده ، إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر ، وأنا فى حجرتى . وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ . قال علقمة : فقلت : أى أمه ، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع ؟ قالت : كانت عينه لا تدمع على أحد ، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلمحيته . وقد أخرج البخارى ومسلم عن عائشة نحوه من هذا ، ولكنه أخصر منه ، وفيه دعاء سعد ، رضى الله عنه (٢) .

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (١٨) وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿ (١٩) ﴾

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن ، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله فى ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن ، رضى الله عنهن وأرضاهن ، الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

روى البخارى عن عائشة ، زوج النبى ﷺ : أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه ، فبدأ بى رسول الله ﷺ فقال : « إنى ذاكر لك أمرا ، فلا عليك أن تستعجلى

(١) ما بين المعقوفتين ليس فى المخطوطة ، وأثبتناه من المطبوعة والمسند .

(٢) المسند (٦/١٤١) ، والبخارى (٤١١٧) ، ومسلم (١٧٦٩/٦٥) .

حتى تستأمرى أبويك » ، وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه . قالت : ثم قال : « وإن الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ » إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففى أى هذا أستأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة (١) . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قالت عائشة : أنزلت آية التخيير فبدأ بى أول امرأة من نسائه ، فقال : « إنى ذاكرك لك أمراً ، فلا عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك » . قالت : قد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه . قالت : ثم قال : « إن الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ » الآيتين . قالت عائشة : فقلت : أفى هذا أستأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة . ثم خير نساءه كلهن ، فقلن مثل ما قالت عائشة ، رضى الله عنهن . وأخرجه البخارى ومسلم مثله (٢) . وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت : خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه ، فلم يعدها علينا شيئاً . أخرجاه (٣) . وروى الإمام أحمد عن جابر قال : أقبل أبو بكر ، يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس ، والنبي ﷺ جالس : فلم يؤذن له . ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له . ثم أذن لأبى بكر وعمر فدخلوا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه ، وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر : يا رسول الله ، لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتنى النفقة آنفاً ، فوجأت عنقها . فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذه وقال : « هن حولى يسألننى النفقة » . فقام أبو بكر ، رضى الله عنه ، إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر ، رضى الله عنه ، إلى حفصة ، كلاهما يقولان : تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده . فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه : والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده . قال : وأنزل الله ، عز وجل ، الخيار ، فبدأ بعائشة فقال : « إنى أذكرك لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » . قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ الآية ، قالت عائشة ، رضى الله عنها : أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نساءك ما اخترت . فقال : « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفاً ، ولكن بعثنى معلماً ميسراً ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » . انفرد بإخراجه مسلم (٤) .

وقد اختلف العلماء فى جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن ، على قولين ، وأصحهما نعم لو وقع ، ليحصل المقصود من السراح ، والله أعلم . قال عكرمة : وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيى النضرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، رضى الله عنهن وأرضاهن .

(١) البخارى (٤٧٨٥) . (٢) البخارى (٤٧٨٦) ، ومسلم (١٤٧٥/٢٢) .

(٣) المسند (٤٥/٦) ، والبخارى (٥٢٦٢) ، ومسلم (١٤٧٧/٢٤) .

(٤) المسند (٣٢٨/٣) ، ومسلم (١٤٧٨/٢٩) .

﴿ يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ ﴿٢١﴾

يقول تعالى واعظا نساء النبي ﷺ ، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء، بأن من يأت منكن بفاحشة مبينة - قال ابن عباس: وهى النشوز وسوء الخلق. وعلى كل تقدير فهو شرط ، والشرط لا يقتضى الوقوع كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ، وكقوله : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الانعام : ٨٨] ، ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف : ٨١] ، ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الزمر : ٤] . فلما كانت محلتهن رفيعة ، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظا ، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع ؛ ولهذا قال : ﴿ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ قال زيد بن أسلم: فى الدنيا والآخرة ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أى : سهلا هينا . ثم ذكر عدله وفضله فى قوله : ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : يطع الله ورسوله ويستجيب ﴿ نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ أى : فى الجنة ، فإنهن فى منازل رسول الله ﷺ فى أعلى عليين ، فوق منازل جميع الخلائق ، فى الوسيلة التى هى أقرب منازل الجنة إلى العرش .

﴿ يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسُنٌّ - كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ ﴿٢٣﴾

هذه آداب أمر الله بها نساء النبي ﷺ ، ونساء الأمة تبع لهن فى ذلك ، فقال مخاطبا لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن ، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ، ولا يلحقهن فى الفضيلة والمنزلة ، ثم قال : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ قال السدّى وغيره : يعنى بذلك : ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ؛ ولهذا قال : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ أى : دغل ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ قال ابن زيد : قولاً حسناً جميلاً معروفاً فى الخير. ومعنى هذا : أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أى : لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها. وقوله : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أى : الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة . ومن الحوائج

الشرعية : الصلاة في المسجد بشرطه ، كما قال رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، وليخرجن وهن ثَفَلَات » (١) ، وفي رواية : « وبيوتهن خير لهن » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية . وقال قتادة : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ يقول : إذا خرجتن من بيوتكن - وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج - فنهى الله عن ذلك . وقال مقاتل بن حيان : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ : والتبرج : أنها تلقى الخمار على رأسها ، ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها ، وذلك التبرج ، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج .

وقوله : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير ، من إقامة الصلاة ، وهي : عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهي : الإحسان إلى المخلوقين ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ : وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا ؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية ، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً ، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح .

فإن كان المراد أنهم كُنَّ سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن ، ففي هذا نظر ؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك .

روى ابن جرير عن صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة : خرج رسول الله ﷺ ذات غداة ، وعليه مرط مُرَحَّل من شعر أسود ، فجاء الحسن فأدخله معه ، ثم جاء الحسين فأدخله معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه ، ثم جاء علي فأدخله معه ، ثم قال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ . ورواه مسلم (٣) .

وروى مسلم في صحيحه عن يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحُصَيْن بن سَبْرَةَ وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه ، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً ؛ حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ . قال : يا بن أخي ، والله لقد كبرت سنِّي ، وقدم عهدي ، ونسيتُ بعض الذي كنتُ أعي من رسول الله ﷺ ، فما حدثتكم فاقبلوا ، وما لا فلا تُكَلِّفُونِيهِ . ثم قال : قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى خُماً - بين مكة والمدينة - فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكر ، ثم قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين ، أولهما كتاب الله ، فيه الهدى

(١) أبو داود (٥٦٥) وصححه الألباني .

(٢) أبو داود (٥٦٧) وصححه الألباني .

(٣) الطبري (٥/٢٢) ، ومسلم (٣٦/٢٠٨١) .

والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به». فحثّ على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: « وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » ثلاثاً. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِّمِ الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حُرِّمِ الصدقة؟ قال: نعم (١).

ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾، فإن سياق الكلام معهن؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أي: اعملن بما ينزل الله على رسوله في بيوتكن من الكتاب والسنة. قاله قتادة وغير واحد. واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العظيمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه. قال بعض العلماء، رحمه الله: لأنه لم يتزوج بكرة سواها، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه الرتبة العلية. ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية، كما تقدم في الحديث: « وأهل بيتي أحق ».

وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم. فقال: « هو مسجدى هذا » (٢). فهذا من هذا القبيل؛ فإن الآية إنما نزلت في مسجد قباء. كما ورد في الأحاديث الأخرى. ولكن إذا كان ذاك أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ أولى بتسميته بذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أي: بلطفه بكن بلغت هذه المنزلة، وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك، أعطاكم ذلك وخصكن بذلك.

قال ابن جرير رحمه الله: واذكرن نعمة الله عليكم بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أي: ذا لطف بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته والحكمة؛ وهي السنة، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً. وقال قتادة: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ قال: يمتن عليهن بذلك. رواه ابن جرير. وقال عطية العوفي في قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ يعنى: لطيف باستخراجها، خبير بموضعها. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وكذا روى عن الربيع بن أنس، عن قتادة.

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿٢٥﴾

روى الإمام أحمد عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت : قلت للنبي ﷺ : ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعنى منه ذات يوم إلا وندأه على المنبر ، قالت : وأنا أسرح شعري ، فلففت شعري ، ثم خرجت إلى حجرتي ، حجرة بيتي ، فجعلت سمعى عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر : « يا أيها الناس ، إن الله يقول : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ إلى آخر الآية . وهكذا رواه النسائي وابن جرير (١) .

فقوله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام ، وهو أخص منه ؛ لقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٤] . وفي الصحيحين : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » . فيسلبه الإيمان ، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين .

وقوله : ﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ القنوت : هو الطاعة في سكون ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ [الروم : ٢٦] ، ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٣] ، ﴿ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] ، فالإسلام بعده مرتبة يرتقى إليها ، ثم القنوت ناشئ عنهما .
﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ : هذا في الأقوال ، فإن الصدق خصلة محمودة ؛ ولهذا كان بعض الصحابة لم تجرب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام ، وهو علامة على الإيمان ، كما أن الكذب أمانة على النفاق ، ومن صدق نجا .

﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾ : هذه سجية الثبات ، وهي الصبر على المصائب ، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة ، وتلقى ذلك بالصبر والثبات ، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ، أى : أصعبه في أول وهلة ، ثم ما بعده أسهل منه ، وهو صدق السجية وثباتها . ﴿ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ﴾ الخشوع : السكون والطمأنينة ، والتؤدة والوقار والتواضع . والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته . ﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ﴾ الصدقة : هى الإحسان إلى الناس المحاييج الضعفاء ، الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، يعطون من فضول الأموال طاعة لله ، وإحسانا إلى خلقه ، وقد ثبت في الصحيحين : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » فذكر منهم : « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (٢) . وفى

(١) المسند (٦/٣٠٥) ، والنسائي فى الكبرى (١٤٠٥) ، والطبرى (٢٢/١٠) .

(٢) البخارى (١٤٢٣) ، ومسلم (٩١/١٠٣١) .

الحديث الآخر : « والصدقة تطفئ الخطيئة ، كما يطفئ الماء النار » (١) . والأحاديث في الحث عليها كثيرة جداً ، له موضع بذاته .

﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ : قال سعيد بن جبير : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر ، دخل في قوله : ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ .

ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة - كما قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (٢) - ناسب أن يذكر بعده : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ أى : عن المحارم والمآثم إلا عن المباح ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُروجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥ - ٧] .

وقوله : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، قال : كان النبی ﷺ يسير في طريق مكة ، فأتى على جُمُدان فقال : « هذا جُمُدان ، سيروا فقد سبق المُفَرَّدُونَ » . قالوا : وما المُفَرَّدُونَ ؟ قال : « الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » . ثم قال : « اللهم اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « اللهم ، اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « والمقصرين » . تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم دون آخره (٣) .

وقوله : ﴿ أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم ، أن الله تعالى قد أعد لهم أى : هيا لهم منه لذنوبهم مغفرة وأجرًا عظيمًا وهو الجنة .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا ﴾

عن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ، فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسبا - وكانت امرأة فيها حدة - فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ الآية كلها . وهكذا قال مجاهد ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان : أنها نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة ، فامتنعت ثم أجابت . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وكانت أول من هاجر من النساء - يعنى : بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي ﷺ ، فقال : قد قبلت فزوجها زيد بن حارثة - يعنى والله أعلم بعد فراقه زينب - فسخطت هى وأخوها

(١) الترمذى (٦١٤) ، وقال : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه » ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « الحديث صحيح فله شواهد تؤيد صحته » .

(٢) البخارى (٥٠٦٦) ، ومسلم (١/١٤٠٠) .

(٣) المسند (٤١١/٢) ، ومسلم (٣٢٠/١٣٠٢) .

وقالا : إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده . قال : فنزل القرآن : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ إلى آخر الآية .

وروى الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد - يعنى : ابن سلمة - عن ثابت ، عن كنانة بن نعيم العدوى ، عن أبي برزة الأسلمي أن جلييبا كان امرأ يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن ، فقلت لامرأتى : لا يدخلن اليوم عليكم جلييب فإنه إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن . قال : وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجهما حتى يعلم : هل لنبي الله ﷺ فيها حاجة أم لا . فقال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار : « زوجنى ابتك » . قال : نعم ، وكرامة يا رسول الله ، ونعمة عين . فقال : « إني لست أريدها لنفسى » . قال : فلمن يا رسول الله ؟ قال : « لجلييب » .

فقال : يا رسول الله ، أشاور أمها . فأتى أمها فقال : رسول الله ﷺ يخطب ابتك ؟ فقالت نعم ونعمة عين . فقال : إنه ليس يخطبها لنفسه ، إنما يخطبها لجلييب . فقالت : أجلييب إني ؟ أجلييب إني ؟ لا لعمر الله لا تزوجه . فلما أراد أن يقوم ليأتى رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها ، قالت الجارية : من خطبنى إليكم ؟ فأخبرتها أمها . قالت : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟! ادفعونى إليه ، فإنه لن يضيعنى . فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال : شأنك بها . فزوجها جلييبا . قال : فخرج رسول الله ﷺ فى غزاة له ، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : نفقد فلانا ونفقد فلانا . قال : « انظروا هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : لا . قال : « لكنى أفقد جلييبا » . قال : « فاطلبوه فى القتلى » . فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فقالوا : يا رسول الله ، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه ، فقال : « قتل سبعة وقتلوه ، هذا منى وأنا منه » . مرتين أو ثلاثا ، ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفرله ، ما له سرير إلا ساعد النبي ﷺ . ثم وضعه فى قبره ، ولم يذكر أنه غسله ، رضى الله عنه . قال ثابت : فما كان فى الأنصار أيم أنفق منها . وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتاً : هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ ؟ فقال : « اللهم ، صب عليها الخير صبا ، ولا تجعل عيشها كدًا » كذا قال ، فما كان فى الأنصار أيم أنفق منها . هكذا أورده الإمام أحمد بطوله ، وأخرج منه مسلم والنسائى فى الفضائل قصة قتله (١) .

وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى « الاستيعاب » أن الجارية لما قالت فى خدرها : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟ تلت هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (٢) . عن طاوس قال : إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد

(١) المسند (٤/٤٢٢) ، ومسلم (٢٤٨٢/١٤٥) ، والنسائى فى الكبرى (٨٢٤٦) .

(٢) الاستيعاب (١/٢٥٩) .

العصر ، فنهاء ، وقرأ ابن عباس ، رضى الله عنه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ .

فهذه الآية عامة فى جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء ، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا ، ولا رأى ولا قول ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ، ولهذا شدد فى خلاف ذلك ، فقال : ﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أنه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذى ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أى : بالإسلام ومتابعة الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ أى : بالعتق من الرق ، وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر ، حبيباً إلى النبى ﷺ ، يقال له : الحب ، ويقال لابنه أسامة : الحب ابن الحب . عن أسامة بن زيد قال : كنت فى المسجد ، فأتانى العباس وعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنهما ، فقالا : يا أسامة ، استأذن لنا على رسول الله ﷺ . قال : فأتيت رسول الله فأخبرته ، فقلت : على والعباس يستأذنان ؟ فقال : « أتدرى ما حاجتهما ؟ » فقلت : لا يا رسول الله . فقال : « لكنى أدرى » ، قال : فأذن لهما . قالوا : يا رسول الله ، جئناك لتخبرنا : أى أهلك أحب إليك ؟ فقال : « أحب أهلى إلى فاطمة بنت محمد » ، قالوا : يا رسول الله ، ما نسألك عن فاطمة . قال « فأسامة بن زيد بن حارثة ، الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه » (١) .

وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية - وأمها أميمة بنت عبد المطلب - وأصدقها عشرة دنانير ، وستين درهماً ، وخماراً ، وملحفة ، ودرعاً ، وخمسين مدّاً من طعام ، وعشرة أمداد من تمر ، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها ، ثم وقع بينهما ، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له : « أمسك عليك زوجك ، واتق الله » . قال الله تعالى : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . وقد روى البخارى أيضاً بعضه مختصراً عن أنس بن مالك قال : إن هذه الآية : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ نزلت فى شأن زينب بنت جحش ، وزيد بن حارثة ، رضى الله عنهما (٢) .

(١) الترمذى (٣٨١٩) بنحوه ، وقال : « حديث حسن صحيح » .

(٢) البخارى (٤٧٨٧) .

وروى ابن جرير عن عائشة ، أنها قالت : لو كنتم محمد ﷺ شيئا مما أوحى إليه من كتاب الله ، لكنتم : ﴿ وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا ﴾ : الوطر : هو الحاجة والأرب ، أى : لما فرغ منها ، وفارقها ، زوّجناها ، وكان الذى ولى تزويجها منه هو الله ، عز وجل ، بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولى ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر . وروى الإمام أحمد عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « اذهب فاذكرها على » . فانطلق حتى أتاها وهى تُخَمَّرُ عجينها ، قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى - حتى ما أستطيع أن أنظر إليها - أن رسول الله ﷺ ذكرها ، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي ، وقلت : يا زينب ، أبشرى ، أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي ، عز وجل . فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن . ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتبع حجر نسائه يسلم عليهن ، ويقولن : يا رسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر . قال : فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه ، فألقى الستر بينى وبينه ، ونزل الحجاب ، ووعظ القوم بما وعظوا به : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ الآية . ورواه مسلم والنسائي (٢) .

وقد روى البخارى عن أنس بن مالك ، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ فتقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات (٣) .

وقوله : ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أى : إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك ؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى تزويج مطلقات الأدعياء ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة ، فكان يقال له : « زيد بن محمد » ، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ زاد ذلك بيانا وتأكيدا بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة ؛ ولهذا قال فى آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ليحترز من الابن الدعى ؛ فإن ذلك كان كثيرا فيهم .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أى : وكان هذا الأمر الذى وقع قد قدره الله تعالى وحثمه ، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب فى علم الله ستصير من أزواج النبى ﷺ .

(١) ابن جرير فى التفسير (١١/٢٢) .

(٢) المسند (٣/١٩٥) ، ومسلم (٨٩/١٤٢٨) ، والنسائي (٣٢٥٢) .

(٣) البخارى (٧٤٢٠) .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أى : فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التى طلقها دعيه زيد بن حارثة .

وقوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : هذا حكم الله فى الانبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم فى ذلك حرج ، وهذا ردُّ على من تَوَهَّم من المنافقين نقصاً فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه ، الذى كان قد تبناه ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ أى : وكان أمره الذى يقدره كائناً لا محالة ، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ ﴿٢٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٠﴾

يمدح تبارك وتعالى ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ أى : إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ﴿ وَيَخْشَوْنَ ﴾ أى : يخافونه ولا يخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أى : وكفى بالله ناصرًا ومعينًا . وسيد الناس فى هذا المقام - بل وفى كل مقام - محمد رسول الله ﷺ ؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب ، إلى جميع أنواع بنى آدم ، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وأما هو ، صلوات الله عليه ، فإنه بُعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه ، بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، فى ليله ونهاره ، وحضره وسفره ، وسره وعلايته ، فرضى الله عنهم وأرضاهم . ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فبنورهم يقتدى المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون . فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ نهى تعالى أن يقال بعد هذا : « زيد بن محمد » أى : لم يكن أباه وإن كان قد تبناه ، فإنه ، صلوات الله عليه وسلامه ، لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ؛ فإنه ولد له القاسم ، والطيب ، والطاهر ، من خديجة فماتوا صغارا ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضا رضيعا ، وكان له من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، رضى الله عنهم أجمعين ، فمات فى حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به ، صلوات الله وسلامه عليه ، ثم ماتت بعده لسته أشهر .

وقوله : ﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ كقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأخرى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ، ولا ينعكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة . روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ قال : « مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنیان ويعجبون منه ، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ! فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة » .

ورواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح (١) . وروى أبو داود الطيالسى عن عبد الله [بن مسعود] قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة ! فأنا موضع اللبنة ، ختم بى الأنبياء ، عليهم السلام » . ورواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وقال الترمذى : صحيح غريب من هذا الوجه (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل النبيين من قبلى كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا لبنة واحدة ، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » . انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش ، به (٣) . وروى الإمام مسلم عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِّرْتُ بِالرَّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ » . ورواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح (٤) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا موضع لبنة واحدة ، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » . ورواه مسلم (٥) .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ ، إليهم ، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له . وقد أخبر تعالى فى كتابه ، ورسوله فى السنة المتواترة عنه : أنه لا نبي بعده ؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك ، دجال ضال ، مضل ، ولو تخرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرجيات ، فكلها محال وضلال عند أولى الأبواب ، كما أجرى الله ، سبحانه وتعالى ، على يد الأسود العنسى باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة والأقوال

(١) المسند (٥/١٣٦) ، والترمذى (٣٦١٣) .

(٢) أبو داود فى مسنده (١٧٨٥) ، والبخارى (٣٥٣٤) ، ومسلم (٢٣/٢٢٨٧) ، والترمذى (٢٨٦٢) .

(٣) المسند (٩/٣) ، ومسلم (٢٠/٢٢٨٦) .

(٤) مسلم (٥/٥٢٣) ، والترمذى (١٥٥٣) ، وابن ماجه (٥٦٧) .

(٥) انظر هامش (٢) بالصفحة .

الباردة ، ما علم كل ذى لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان ، لعنهما الله . وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها . وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه ، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرؤن بمعروف ولا ينهؤن عن منكر إلا على سبيل الاتفاق ، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون فى غاية الإفك والفجور فى أقوالهم وأفعالهم ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أَنْبِئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢] . وهذا بخلاف الأنبياء ، عليهم السلام ، فإنهم فى غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرؤن به وينهؤن عنه ، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات ، والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِى يُصَلِّىٰ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ نَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ؕ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى ، المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن ، لما لهم فى ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب .

روى الإمام أحمد عن أبى الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « ذكر الله ، عز وجل » . وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه (١) .

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن قيس قال : سمعت عبد الله بن بسر يقول : جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ ، فقال أحدهما : يا رسول الله ، أى الناس خير؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » . وقال الآخر : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فمرنى بأمر أتشبه به . قال : « لا يزال لسانك رطبا بذكر الله » . وروى الترمذى وابن ماجه الفصل الثانى ، وقال الترمذى : حسن غريب (٢) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله فيه ، إلا رأوه حسرة يوم القيامة » (٣) .

(١) المسند (٥/١٩٥) ، والترمذى (٣٣٧٧) ، وابن ماجه (٣٧٩٠) وصححه الألبانى .

(٢) المسند (٤/١٩٠) ، والترمذى (٣٣٧٥) ، وابن ماجه (٣٧٩٣) ، وصححه الألبانى .

(٣) المسند (٢/٢٢٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/٨٣) : « رجاله رجال الصحيح » .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ : إن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، ثم عذر أهلها فى حال عذر ، غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حدا ينتهى إليه ، ولم يعذر أحدا فى تركه ، إلا مغلوبا على تركه ، فقال : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٣] ، بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والصحة والسقم ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال ، وقال : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته .

والأحاديث والآيات والآثار فى الحث على ذكر الله كثيرة جدا ، وفى هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار من ذلك . وقد صنف الناس فى الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائي والمعمري وغيرهما ، ومن أحسن الكتب المؤلفة فى ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيى الدين النووى .

وقوله : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى : عند الصباح والمساء ، كقوله : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم : ١٧ ، ١٨] .

وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ : هذا تهيج إلى الذكر ، أى : إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم ، كقوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١ ، ١٥٢] . وقال النبى ﷺ : « يقول الله : من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منهم » (١) .

والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة ، حكاها البخارى عن أبى العالية . ورواه أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عنه . وقال غيره : الصلاة من الله : الرحمة . وقد يقال : لا منافاة بين القولين والله أعلم .

وأما الصلاة من الملائكة ، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار ، كقوله : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ الآية [غافر : ٧ - ٩] .

وقوله : ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى : سبب رحمته بكم وثناؤه عليكم ، ودعاء ملائكته لكم ، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين . ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا : فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم ، وبصّرهم الطريق الذى ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياءهم من الطعام . وأما رحمته بهم فى الآخرة : فأمنهم من الفرع الأكبر ، وأمر ملائكته يتلقونهم

بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبتهم لهم ورأفته بهم . روى الإمام أحمد عن أنس، رضى الله عنه ، قال : مر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه وصبى فى الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يُوطأ ، فأقبلت تسعى وتقول : ابنى ، ابنى ، وسعت فأخذته ، فقال القوم : يا رسول الله ، ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار . قال فخففهم رسول الله ﷺ وقال : « ولا الله ، لا يلقى حبيبه فى النار » (١) . إسناده على شرط الصحيحين ، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة ، ولكن فى صحيح الإمام البخارى ، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها، فألصقته إلى صدرها، وأرضعته فقال : « أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ » قالوا : لا . قال : « فوالله ، لله أرحم بعباده من هذه بولدها » (٢) .

وقوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ : الظاهر أن المراد - والله أعلم - ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أى : من الله تعالى يوم يلقونه ﴿ سَلَامٌ ﴾ أى : يوم يسلم عليهم كما قال تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨] . وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى بعضهم بعضا بالسلام ، يوم يلقون الله فى الدار الآخرة . واختاره ابن جرير . قلت : وقد يستدل بقوله تعالى : ﴿ دَعَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ يعنى : الجنة وما فيها من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمناكح والملاذ والمناظر وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿ (٤٦) وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ (٤٧) وَلَا نُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَّ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٤٨)

روى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة . قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : « ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وحرزا للأمين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا » . وقد رواه البخارى (٣) .

وقوله : ﴿ شَهِدًا ﴾ أى : لله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره ، وعلى الناس بأعمالهم يوم

(٢) البخارى (٥٩٩٩) .

(١) المسند (١٠٤/٣) .

(٣) المسند (٦٦٢٢) ، والبخارى (٢١٢٥ ، ٤٨٣٨) .

القيامة ، ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] .

وقوله عز وجل : ﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى : بشيرًا للمؤمنين بجزيل الثواب ، ونذيرًا للكافرين من وييل العقاب .

وقوله : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ أى : داعيًا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك ، ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ أى : وأمرُك ظاهر فيما جئت به من الحق ، كالشمس فى إشراقها وإضاءتها ، لا يجحدها إلا معاند .

وقوله : ﴿ وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ أى : لا تطعمهم وتسمع منهم فى الذى يقولونه ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ ، أى : اصفح وتجاوز عنهم ، وكل أمرهم إلى الله ، فإن فيه كفاية لهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعَذُّوْنَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة . منها : إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها ، وقد اختلفوا فى النكاح : هل هو حقيقة فى العقد وحده ، أو فى الوطاء ، أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال ، واستعمال القرآن إنما هو فى العقد والوطء بعده ، إلا فى هذه الآية فإنه استعمل فى العقد وحده ؛ لقوله : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ . وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها .

وقوله : ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ : خرج مخرج الغالب ؛ إذ لا فرق فى الحكم بين المؤمنة والكتابية فى ذلك بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس ، وسعيد بن المسيب وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ ، فعقب النكاح بالطلاق ، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله . وهذا مذهب الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وطائفة كثيرة من السلف والخلف .

وذهب مالك وأبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح ؛ فيما إذا قال : « إن تزوجت فلانة فهى طالق » : فعندهما متى تزوجها طلقت منه . واختلفا فيما إذا قال : « كل امرأة أتزوجها فهى طالق » . فقال مالك : لا تطلق حتى يعين المرأة . وقال أبو حنيفة : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه ، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية .

عن ابن عباس قال : إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهى طالق ، قال : ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ الآية . وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك » . رواه الإمام أحمد والترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه . وقال الترمذى :

« هذا حديث حسن » (١) .

وقوله عز وجل : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا ﴾ : هذا أمر مجمع عليه بين العلماء : أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتزوج في فورها من شاءت ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها ، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشرًا ، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضًا .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ : المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . وقال : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] . وفي صحيح البخارى ، عن سهل بن سعد وأبى أسيد ؛ أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين (٢) .

قال ابن عباس : إن كان سمي لها صداقا ، فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمي لها صداقا فامتعتها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل .

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عِمَّكَ وَبَنَاتٍ عَمَّتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَكَ وَبَنَاتٍ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

يقول تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهرهن ، وهى الأجور هاهنا . كما قاله مجاهد وغير واحد ، وقد كان مهره لنسائه اثنتى عشرة أوقية ونشًا (٣) وهو نصف أوقية ، فالجميع خمسمائة درهم ، إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى أربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حيى فإنه اصطفاها من سبى خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها . وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية ، أدّى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها ، رضى الله عن جميعهن .

(١) المسند (٦٧٦٩) ، والترمذى (١١٨١) ، وأبو داود (٢١٩١) ، وابن ماجه (٢٠٤٧) . وقال الشيخ أحمد شاكر :

« إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٥٢٥٦ ، ٥٢٥٧) .

(٣) فى المطبوعة : « ونشز » وهو خطأ . وفى المصباح المنير : « والنش : نصف الأوقية » مادة (ن ش ش) .

وقوله : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أى : وأباح لك الترسى مما أخذت من المغانم ، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما . وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم ، عليه السلام ، وكانتا من السرارى .

وقوله : ﴿ وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ : هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط ؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا بشع فظيع . وإنما قال : ﴿ وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ ﴾ فَوَحَّدَ لفظ الذكر لشرفه ، وجمع الإناث لنقصهن كقوله : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ﴾ [النحل : ٤٨] ، ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام : ١] ، وله نظائر كثيرة . وقوله : ﴿ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ : قال أبو رزین وقتادة : إن المراد : من هاجر معه إلى المدينة . وفى رواية عن قتادة : ﴿ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ أى : أسلمن .

وقوله : ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكِحَّهَا ﴾ أى : ويحل لك - يا أيها النبى - المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . وهذه الآية توالى فيها شرطان ، كقوله تعالى إخباراً عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود : ٣٤] ، وكقول موسى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٨٤] . وقال هاهنا : ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكِحَّهَا ﴾ ، وقد روى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدي ؛ أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله ، إنى قد وهبت نفسى لك . فقامت قياماً طويلاً ، فقام رجلاً فقال : يا رسول الله ، زوّجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله ﷺ : « هل عندك من شيء تُصدقها إياه » ؟ فقال : ما عندي إلا إزارى هذا . فقال رسول الله ﷺ : « إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فالتمس شيئاً » . فقال : لا أجد شيئاً . فقال : « التمس ولو خاتماً من حديد » فالتمس فلم يجد شيئاً ، فقال له النبى ﷺ : « هل معك من القرآن شيء ؟ » قال : نعم ؛ سورة كذا ، وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له رسول الله ﷺ : « زوجتكها بما معك من القرآن » . أخرجاه (١) . وروى الإمام أحمد عن أنس قال : جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت : يا نبى الله ، هل لك فى حاجة ؟ فقالت ابنته : ما كان أقلّ حياءها . فقال : « هى خير منك ، رغبت فى النبى ، فعرضت عليه نفسها » . انفرد بإخراجه البخارى (٢) .

(١) المسند (٣٣٦/٥) ، والبخارى (٥١٣٥) ، ومسلم (٨٦/١٤٢٥) .

(٢) المسند (٢٦٨/٣) ، والبخارى (٥١٢٠) .

وقوله : ﴿ خَالِصَةً لِّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال عكرمة : أى لا تحل الموهوبة لغيرك ، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً . أى : أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل ، فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها ، ولهذا قال قتادة فى قوله : ﴿ خَالِصَةً لِّكَ مِنَ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، يقول : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولى ولا مهر إلا للنبي ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أى : من حصرهم فى أربع نسوة حرائر وما شاؤوا من الإماء ، واشترط الولى والمهر والشهود عليه ، وهم الأمة ، وقد رخصنا لك فى ذلك ، فلم نوجب عليك شيئاً منه ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

﴿ تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدَّى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْزَيَنَّ وَبِمَا ءَايَتْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ ﴿ ٥١ ﴾

ربع

روى الإمام أحمد عن عائشة ؛ أنها كانت تُعَيِّرُ النساء اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ ، قالت : ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ ، قالت : إني أرى ربك يسارع لك فى هواك (١) .

قوله : ﴿ تَرْجِي ﴾ أى : تؤخر ﴿ مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ أى : من الواهبات ﴿ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ أى : من شئت قبلتها ، ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك ، إن شئت عدت فيها فأويتها ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ .

وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ أى : من أزواجك ، لا حرج عليك أن تترك القسم لهن ، فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتجمع من شئت ، وتترك من شئت . هكذا يروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم ، ومع هذا كان ، صلوات الله وسلامه عليه ، يقسم لهن ؛ ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ، وصلوات الله وسلامه عليه ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة . وروى البخارى عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية : ﴿ تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ ، فقلت لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذاك إلى إني لا أريد يا رسول الله أن أوتر عليك أحداً (٢) . فهذا الحديث عنها يدل على عدم وجوب القسم ، ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة فى الواهبات وفى النساء اللاتى عنده ، أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم . وهذا الذى اختاره حسن جيد قوى ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ

أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴿٥٢﴾ أى : إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج فى القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك فى أى ذلك فعلت ، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب ، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك فى ذلك ، واعترفن بمنتك عليهن فى قسمك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى : من الميل إلى بعضهن دون بعض ، مما لا يمكن دفعه ، كما روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » . ورواه أهل السنن الأربعة ، وزاد أبو داود بعد قوله : « فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » : يعنى القلب . وإسناده صحيح ، ورجاله كلهم ثقات (١) . ولهذا عقب ذلك بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً ﴾ أى : بضمائر السرائر ، ﴿ حَلِيماً ﴾ أى : يحلم ويغفر .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً ﴾ ﴿٥٢﴾

ذكر غير واحد من العلماء - كابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وابن زيد ، وابن جرير ، وغيرهم - أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهن ، على حسن صنعهن فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله ﷺ ، كما تقدم فى الآية . فلما اخترن رسول الله ﷺ ، كان جزاؤهن أن الله قصره عليهن ، وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن إلا الإمام والسراى فلا حجر عليه فيهن . ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر فى ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوّج لتكون المنة للرسول ﷺ عليهن .

وقال آخرون : بل معنى الآية : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ أى : بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتى أحللنا لك من نسائك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك ، وبنات العم والعمات والخال والخالات والواهبه وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك . هذا مروي عن أبى بن كعب ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك وغيرهم . واختار ابن جرير أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء ، وفى النساء اللواتى فى عصمته وكن تسعاً . وهذا الذى قاله جيد ، ولعله مراد كثير من حكينا عنه من السلف ؛ فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا ، ولا منافاة ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ : فنهاه عن الزيادة عليهن ، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه .

(١) المسند (٤١/٦) . وأبو داود (٢١٣٤) ، والترمذى (١١٤٠) ، والنسائى (٣٩٤٣) ، وابن ماجه (١٩٧١) .

﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْتَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خُفِّفُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهى مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عنه أنه قال : وافقت ربي فى ثلاث ، قلت : يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فأنزل الله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] . وقلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو حجبتن ؟ فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبى ﷺ لما تمالأن عليه فى الغيرة : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُدْلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ ﴾ [التحريم : ٥] ، فنزلت كذلك (١) .

وكان وقت نزولها فى صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش ، التى تولى الله تعالى تزويجها بنفسه ، فعن أنس بن مالك ، قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، دعا القوم فَطَعَمُوا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام ، وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبى ﷺ ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت ، فجئت فأخبرت النبى ﷺ أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فالتقى الحجاب بينى وبينه ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ الآية (٢) .

فقوله : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ : حَظَرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا مَنَازِلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بغير إذن ، كما كانوا قبل ذلك يصنعون فى بيوتهم فى الجاهلية وابتداء الإسلام ، حتى غار الله لهذه الأمة ، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ : «إياكم والدخول على النساء» (٣) .

ثم استثنى من ذلك فقال : ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ إِنَّهُ ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أى غير متحينين نضجه واستواءه ، أى : لا ترقبوا الطعام حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هذا يكرهه الله ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفيل .

(٢) البخارى (٤٧٩١) ، ومسلم (١٤٢٨/٩٢) .

(١) البخارى (٤٠٢) .

(٣) البخارى (٥٢٣٢) ، ومسلم (٢١٧٢/٢٠) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ . وفى صحيح مسلم عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا أحدكم أخاه فليجب ، عرساً كان أو غيره » (١) . وأصله فى الصحيحين ، وفى الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ : « لو دُعيت إلى ذراع لأجبت ، ولو أهدى إلى كراع لقبلت ، فإذا فرغتم من الذى دُعيتُم إليه فخففوا عن أهل المنزل ، وانتشروا فى الأرض » (٢) ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ ، أى : كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ، ونسوا أنفسهم ، حتى شقّ ذلك على رسول الله ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُوْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ﴾ . وقيل : المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به ، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه ، عليه السلام ، حتى أنزل الله عليه النهى عن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ أى : ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ أى : وكما نهيتكم عن الدخول عليهن ، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب ﴿ ذَلِكَ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أى : هذا الذى أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُذْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُذْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ قال : نزلت فى رجل همّ أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ . قال رجل لسفيان : أهي عائشة ؟ قال : قد ذكروا ذاك . وكذا قال مقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، والسدى : أن الذى عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله ، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك ؛ ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفى عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده ؛ لأنهن أزواجه فى الدنيا والآخرة وأمّهات المؤمنين . واختلفوا فىمن دخل بها ثم طلقها فى حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين ، مأخذهما : هل دخلت هذه فى عموم قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها ، فما نعلم فى حلها لغيره - والحالة هذه - نزاعاً ، والله أعلم .

وقد عظم تبارك وتعالى ذلك ، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ، ثم قال : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أى : مهما تكنه ضمائركم وتنطوى عليه سرائركم ، فإن الله يعلمه ؛ فإنه لا تخفى عليه خافية ، ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب ، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم ، كما استثناهم في سورة النور ، عند قوله : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ إلى آخرها [النور : ٣١] ، وفيها زيادات على هذه . وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته . وقد سأل بعض السلف فقال : لِمَ لَمْ يذكر العم والخال في هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبي : بأنهما لم يذكرَا ؛ لأنهما قد يصفان ذلك لبيهما .

وقوله : ﴿ وَلَا نِسَائِهِنَّ ﴾ : يعنى بذلك : عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ يعنى به : أرقاءهن من الذكور والإناث ، قال سعيد بن المسيب : إنما يعنى به : الإماء فقط . رواه ابن أبى حاتم . وقوله : ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ أى : واخشينه فى الخلوة والعلانية ، فإنه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، فراقبن الرقيب .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

قال البخارى : قال أبو العالية : صلاة الله : ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة : الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون : يبركون . هكذا علقه البخارى عنهما (١) . وروى عن سفيان الثورى وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب : الرحمة ، وصلاة الملائكة : الاستغفار . والمقصود من هذه الآية : أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبهه عنده فى الملأ الأعلى ، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلى عليه . ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعاً .

وقد أخبر أنه ، سبحانه وتعالى ، يصلى على عباده المؤمنين فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ الآية [الأحزاب : ٤١ - ٤٣] . وقال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ الآية [البقرة : ١٥٥ - ١٥٧] . وفى الحديث : « اللهم ، صل على آل أبى أوفى » (٢) . وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر - وقد سأله أن يصلى عليها وعلى زوجها : « صلى الله عليك ، وعلى زوجك » (٣) .

(٢) البخارى (١٤٩٧) ، ومسلم (١٠٧٨/١٧٦) .

(١) فتح البارى (٥٣٢/٨) .

(٣) المسند (٣٩٨/٣) ، وابن حبان فى صحيحه (١٩٥١ موارد) .

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر ، والله المستعان .

روى البخارى عن كعب بن عُجْرَةَ قال : قيل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » (١) .

وروى الإمام أحمد عن ابن أبى ليلى قال : لقينى كعب بن عُجْرَةَ فقال : ألا أهدى لك هدية ؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله ، قد علمنا - أو : عرفنا - كيف السلام عليك ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » . وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة (٢) .

ومعنى قولهم : « أما السلام عليك فقد عرفناه » : هو الذى فى التشهد الذى كان يعلمهم إياه ، كما كان يعلمهم السورة من القرآن ، وفيه : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » .

وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قلنا : يا رسول الله ، هذا السلام ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك ، كما صليت على آل إبراهيم . وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم » . قال أبو صالح ، عن الليث : « على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم » . وأخرجه النسائى (٣) .

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن سُلَيْم أنه قال : أخبرنى أبو حميد الساعدى أنهم قالوا : يا رسول الله ، كيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » . وقد أخرجه بقية الجماعة ، سوى الترمذى (٤) . وروى مسلم عن أبى مسعود الأنصارى - قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن فى مجلس سعد بن عبادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قولوا : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم » .

(١) البخارى (٤٧٩٧) .

(٢) المسند (٢٤١/٤) ، والبخارى (٣٣٧٠ ، ٦٣٥٧ ، ٤٧٩٧) ، ومسلم (٦٦/٤٠٦) .

(٣) البخارى (٤٧٩٨) .

(٤) المسند (٤٢٤/٥) ، والبخارى (٣٣٦٩) ، ومسلم (٦٩/٤٠٧) .

إبراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد ، والسلام كما قد علمتم » . وقد رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى . وقال الترمذى : حسن صحيح (١) . وروى الترمذى عن أبي بن كعب ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس ، اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه » . قال أبى : قلت : يا رسول الله ، إنى أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتى ؟ قال : « ما شئت » . قلت : الربع ؟ قال : « ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك » . قلت : فالنصف ؟ قال : « ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك » . قلت : فالثلثين ؟ قال : « ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك » . قلت : أجعل لك صلاتى كلها ؟ قال : « إذن تكفى همك ، ويغفر لك ذنبك » . ثم قال : هذا حديث حسن (٢) .

وروى الإمام أحمد عن أبى طلحة الأنصارى قال : أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس ، يرى فى وجهه البشر ، قالوا : يا رسول الله ، أصبحت اليوم طيب النفس ، يرى فى وجهك البشر ؟ قال : « أجل ، أتانى آت من ربى ، عز وجل ، فقال : من صلى عليك من أمتك صلاة ، كتب الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها » . هذا إسناد جيد ، ولم يخرجوه (٣) . وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث إسماعيل بن جعفر ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى على واحدة ، صلى الله عليه بها عشراً » . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٤) .

وروى الإمام أحمد عن الحسين [بن على] ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « البخيل من ذكرت عنده ، ثم لم يصل على » . وقال أبو سعيد : « فلم يصل على » . ورواه الترمذى ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب صحيح (٥) . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على . ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ، ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلهما الجنة » . ثم قال : حسن غريب (٦) . قلت : وقد رواه البخارى فى الأدب بنحوه (٧) . ورويناه من حديث محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، به . قال الترمذى : وفى الباب عن جابر وأنس .

(١) مسلم (٦٥/٤٠٥) ، وأبو داود (٩٨٠) ، والترمذى (٣٢٢٠) ، والنسائى (١٢٨٥) .

(٢) الترمذى (٢٤٥٧) ، وقال : « حسن صحيح » .

(٣) المسند (٢٩/٤) .

(٤) مسلم (٧٠/٤٠٨) ، وأبو داود (١٥٣٠) ، والترمذى (٤٨٥) ، والنسائى (١٢٩٦) .

(٥) المسند (١٧٣٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، والترمذى (٣٥٤٦) .

(٦) الترمذى (٣٥٤٥) وقال الألبانى : « حسن صحيح » .

(٧) البخارى فى الأدب المفرد (٢١) .

قلت : وابن عباس ، وكعب بن عُجرة ، وقد ذكرت طرق هذا الحديث فى أول كتاب الصيام وعند قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَلْفُظَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

وهذا الحديث دليل على وجوب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر ، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوى والحليمى ، وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة فى المجلس مرة واحدة ، ثم لا تجب فى بقية ذلك المجلس ، بل تستحب . نقله الترمذى عن بعضهم ، ويتأيد بالحديث الذى رواه الترمذى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترةٌ ، فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم » . تفرد به الترمذى من هذا الوجه . ورواه الإمام أحمد عن أبى هريرة ، مرفوعا مثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه ، عليه السلام ، فى العمر مرة واحدة ، امثالاً لأمر الآية ، ثم هى مستحبة فى كل حال ، وهذا هو الذى نصره القاضى عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ فى الجملة . قال : وقد حكى الطبرى أن محمل الآية على النذب ، وادعى فيه الإجماع . قال : ولعله فيما زاد على المرة ، والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة ، وما زاد على ذلك فمندوب مُرَغَّب فيه من سنن الإسلام ، وشعار أهله . قلت : وهذا قول غريب ، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه فى أوقات كثيرة ، فمنها واجب ، ومنها مستحب على ما نبينه .

فمنه : بعد النداء للصلاة ؛ للحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على ؛ فإنه من صلى على صلاةٍ صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » . وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى (٢) . وروى الإمام أحمد عن رُوَيْفَع بن ثابت الأنصارى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى على محمد وقال : اللهم ، أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة ، وجبت له شفاعتى » . وهذا إسناد لا بأس به ، ولم يخرجوه (٣) .

ومن ذلك : الصلاة عليه ﷺ فى صلاة الجنازة : فإن السنة أن يقرأ فى التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وفى الثانية يصلى على النبى ﷺ ، وفى الثالثة يدعو للميت ، وفى الرابعة يقول : اللهم لا تحرمننا أجره ولا تفتنا بعده . روى الشافعى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبى ﷺ : أن السنة فى الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام ، ثم

(١) الترمذى (٣٣٨٠) وقال : « حسن صحيح » وصححه الألبانى ، وهو فى المسند (٤٥٣/٢) .

(٢) المسند (٦٥٦٨) ، ومسلم (١١/٣٨٤) ، وأبو داود (٥٢٣) ، والترمذى (٣٦١٤) ، والنسائى (٦٧٨) .

(٣) المسند (١٠٨/٤) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/١٦٦) : « رواه البزار والطبرانى فى الكبير والأوسط وأسانيدهم حسنة » ولم يعزه لأحمد .

يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا في نفسه ثم يصلي على النبي ﷺ ويخلص الدعاء للجنابة ، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها ، ثم يسلم سرا في نفسه . ورواه النسائي ، عن أبي أمامة نفسه أنه قال : من السنة ، فذكره (١) . وهذا من الصحابي في حكم المرفوع على الصحيح .

ومن ذلك : في صلاة العيد : عن علقمة : أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد ، فقال لهم : إن هذا العيد قد دنا ، فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد الله : تبدأ فتكبر تكبيرة تفتح بها الصلاة ، وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ ، ثم تدعو ، وتكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ ثم تدعو وتكبر ، وتفعل مثل ذلك ، ثم تركع . فقال حذيفة وأبو موسى : صدق أبو عبد الرحمن . إسناد صحيح (٢) .

ومن ذلك : أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ روى الترمذي عن عمر بن الخطاب قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض ، لا يصعد منه شيء حتى تصلّي على نبيك (٣) .

ومن أكد ذلك : دعاء القنوت : لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم ، عن الحسن بن علي ، قال : علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر : « اللهم اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يَقْضِي عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ » (٤) . وزاد النسائي في سننه بعد هذا : وصلي الله على النبي محمد .

ومن ذلك : أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة : روى الإمام أحمد عن أوس بن أوس الثقفي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علي » . قالوا : يا رسول الله ، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أَرَمْتَ ؟ -

(١) الأم (٢٣٩/١) ، والنسائي (١٩٨٩) .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي (٢٠٨/٢) والحديث صححه الألباني في إرواء الغليل (٦٤٢) .

(٣) الترمذي (٤٨٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « هذا موقوف في حكم المرفوع . قال القاضي أبو بكر بن العربي (٢ / ٢) : ٢٧٣ ، ٢٧٤ : « مثل هذا إذ قاله عمر لا يكون إلا توقيفاً ، لأنه لا يدرك بنظر . ويعضده ما خرج مسلم قال النبي عليه السلام : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة ، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » . والحديث الذي أشار إليه هو في صحيح مسلم (١ / ١١٣) . »

(٤) المسند (١٧/٨) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (١٤٢٥) ، والترمذي (٤٦٤) ، وابن خزيمة في صحيحه (١٠٩٥) ، وابن حبان في الإحسان (٩٤١) ، والمستدرک (١٧١/٣) .

يعنى : وقد بليت - قال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » . ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه (١) . وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني ، والنووى فى الأذكار .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلى على النبي ﷺ يوم الجمعة على المنبر فى الخطبتين ، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ؛ لأنها عبادة ، وذكر الله فيها شرط ، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة . هذا مذهب الشافعى وأحمد .

ومن ذلك : أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره ﷺ : روى أبو داود عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد يسلم علىّ إلا رد الله علىّ روحى ، حتى أرد عليه السلام » . تفرد به أبو داود ، وصححه النووى فى الأذكار (٢) .

مسألة : وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه ، وقد ذكر الخطيب البغدادي فى كتابه : « الجامع لأدب الراوى والسامع » ، قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : كثيراً ما يكتب اسم النبي ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة ، قال : وبلغنى أنه كان يصلى عليه لفظاً .

فصل : وأما الصلاة على غير الأنبياء ، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم فى الحديث : « اللهم ، صل على محمد وآله وأزواجه وذريته » (٣) ، فهذا جائز بالإجماع ، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم :

فقال قائلون : يجوز ذلك ، واحتجوا بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ ، وبقوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة : ١٥٧] ، وبقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، وبحديث عبد الله بن أبى أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صل عليهم » (٤) . وأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » . أخرجاه فى الصحيحين (٥) . وبحديث جابر : أن امرأته قالت : يا رسول الله ، صل علىّ وعلى زوجى . فقال : « صلى الله عليك وعلى زوجك » (٦) .

وقال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة ؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا ، فلا يلحق بهم غيرهم ، فلا يقال : « قال أبو بكر صلى الله عليه » و« قال علىّ صلى الله عليه » . وإن كان المعنى صحيحاً ، كما لا يقال : « قال محمد ، عز وجل » ،

(١) المسند (٨/٤) ، وأبو داود (١٠٤٧) ، وابن ماجه (١٦٣٦) ، وصححه الألبانى .

(٢) أبو داود (٢٠٤١) .

(٣) البخارى (٣٣٦٩) ، ومسلم (٦٩/٤٠٧) .

(٤ - ٦) تقدم تخريجها ص ٦٦ ، ٦٧ .

وإن كان عزيزاً جليلاً ؛ لأن هذا من شعار ذكر الله ، عز وجل . وحملوا ما ورد فى ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ؛ ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبى أوفى ، ولا لجابر وامراته . وهذا مسلك حسن . وقال آخرون : لا يجوز ذلك ؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء ، يصلون على من يعتقدون فيهم ، فلا يقتدى بهم فى ذلك ، والله أعلم .

ثم اختلف المانعون من ذلك : هل هو من باب التحريم ، أو الكراهة التنزيهية ، أو خلاف الأولى ؟ على ثلاثة أقوال ، حكاه الشيخ أبو زكريا النووى فى كتاب الأذكار . ثم قال : والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه ؛ لأنه شعار أهل البدع ، وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود . قال أصحابنا : والمعتمد فى ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة فى لسان السلف بالأنبياء ، كما أن قولنا : « عز وجل » ، مخصوص بالله تعالى ، فكما لا يقال : « محمد عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلاً ، لا يقال : « أبو بكر - أو : على - صلى الله عليه » . هذا لفظه بحروفه . قال : وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجوينى : هو فى معنى الصلاة ، فلا يستعمل فى الغائب ، ولا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال : « على عليه السلام » ، وسواء فى هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخاطب به ، فيقال : سلام عليك ، أو السلام عليك أو عليكم . وهذا مجمع عليه . انتهى ما ذكره .

قلت : وقد غلب هذا فى عبارة كثير من النساخ للكتب ، أن يفرد على ، بأن يقال : « عليه السلام » ، من دون سائر الصحابة ، أو : « كرم الله وجهه » وهذا وإن كان معناه صحيحاً ، لكن ينبغى أن يسوى بين الصحابة فى ذلك ؛ فإن هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه ، رضى الله عنهم أجمعين .

عن ابن عباس أنه قال : لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبى ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة . وعن جعفر بن برقان قال : كتب عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله : أما بعد ، فإن أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا فى الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبى ﷺ ، فإذا جاءك كتابى هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة ، ويدعوا ما سوى ذلك .

فرع : قال النووى : إذا صلى على النبى ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول : « صلى الله عليه فقط » ، ولا : « عليه السلام فقط » ، وهذا الذى قاله منتزع من هذه الآية الكريمة ، وهى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ، فالأولى أن يقال : صلى الله عليه وسلم تسليماً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

﴿ ٥٧ ﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا

وإِنَّمَا مُّبِينًا ﴿ ٥٨ ﴾

يقول تعالى : متهدداً ومتوعداً من آذاه ، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجه وإصراره على ذلك ، وإيذاء رسوله بغيب أو بنقص ، عياداً بالله من ذلك . قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت في المصورين . وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله ، عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يَسُبُّ الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » (١) . ومعنى هذا : أن الجاهلية كانوا يقولون : يا خيبة الدهر ، فعل بنا كذا وكذا . فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ، ويسبونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله ، عز وجل ، فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيى بن أخطب . والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ، ومن آذاه فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ أى : ينسبون إليهم ما هم برء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ﴿ فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ وهذا هو البهت البين أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه ، على سبيل العيب والتنقص لهم ، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ؛ فإن الله ، عز وجل ، قد أخبر أنه قد رضى عن المهاجرين والأنصار ومدحهم ، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم ، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً ، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب ، يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين . وروى أبو داود عن أبي هريرة ، أنه قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال : « ذكرُّ أخاك بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان في أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » . وهكذا رواه الترمذى ، ثم قال : حسن صحيح (٢) .

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٥٩) ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٦٠) ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدُوا وَقْتِلُوا قَتِيلًا ﴾ (٦١) ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (٦٢)

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات - خاصة أزواجه وبناته

(١) البخارى (٤٨٢٦) ، ومسلم (٢/٢٢٤٦) .

(٢) أبو داود (٤٨٧٤) ، والترمذى (١٩٣٤) ، وصححه الألبانى .

لشرفهن - بأن يدين عليهن من جلابيهن ؛ ليميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماماء .
والجلباب هو : الرداء فوق الخمار . قاله ابن مسعود ، وعبيدة ، وقتادة ، والحسن البصري ، وسعيد
ابن جبير ، وإبراهيم النخعي ، وعطاء الخراساني ، وغير واحد . وهو بمنزلة الإزار اليوم .

قال الجوهري : الجلباب : الملحفة .

قال ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين
وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويبدين عيناً واحدة . وقال محمد بن سيرين : سألت
عبيدة السلماني عن قول الله تعالى : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ﴾ ، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه
اليسرى . وقال عكرمة : تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها . وروى ابن أبي حاتم عن أم
سلمة قالت لما نزلت هذه الآية : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ﴾ ، خرج نساء الأنصار كأن على
رؤوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن أكسية سود يلبسها (١) . وروى عن سفيان الثوري أنه
قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة ، إنما ينهى عن ذلك لخوف الفتنة ؛ لا لحرمتهن ،
واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ أى : إذا فعلن ذلك عُرفن أنهن حرائر ، لسن
بإماء ولا عواهر ، قال السدى فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ
يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ قال : كان ناس من فساق أهل المدينة
يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة ، يتعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل
المدينة ضيقة ، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق
يبتغون ذلك منهن ، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا : هذه حرة ، كفوا عنها . وإذا رأوا المرأة
ليس عليها جلباب ، قالوا : هذه أمة . فوثبوا إليها . وقال مجاهد : يتجلبن فيعلم أنهن حرائر ،
فلا يعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى : لما سلف فى أيام الجاهلية
حيث لم يكن عندهن علم بذلك .

ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر : ﴿ وَالَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ قال عكرمة وغيره : هم الزناة هاهنا ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ يعنى : الذين
يقولون : « جاء الأعداء » و « جاءت الحروب » ، وهو كذب وافتراء ، لئن لم ينتهوا عن ذلك
ويرجعوا إلى الحق ﴿ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : أى : لنسلطنك عليهم . وقال قتادة ،
رحمه الله : لنحرشنك بهم . وقال السدى : لنعلمنك بهم ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا ﴾ أى : فى
المدينة ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ ﴾ حال منهم فى مدة إقامتهم فى المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ،
﴿ أَيْنَمَا تُقِفُوا ﴾ أى : وجدوا ﴿ أَخَذُوا ﴾ لذلتهم وقتلتهم ﴿ وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا ﴾ .

ثم قال : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : هذه سنته فى المنافقين إذا تمردوا على

نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه ، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أى : وسنة الله فى ذلك لا تبدل ولا تغير .

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۝٦٦ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ۝٦٧ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨ ﴾

يقول تعالى مخبراً لرسوله ﷺ : أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأله الناس عن ذلك ، وأرشده أن يرد علمها إلى الله ، عز وجل ، كما قال الله تعالى فى سورة « الأعراف » ، وهى مكية وهذه مدنية ، فاستمر الحال فى ردّ علمها إلى الذى يقيمها ، لكن أخبره أنها قريبة بقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] ، وقال : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١] ، وقال : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] . ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : أبعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى : فى الدار الآخرة : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : ماكثين مستمرين ، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ، ﴿ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أى : وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه .

ثم قال : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ أى : يسحبون فى النار على وجوههم ، وتلوى وجوههم على جهنم ، يقولون وهم كذلك ، يتمنون أن لو كانوا فى الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر عنهم فى حال العرصات بقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان : ٢٧ - ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ رَبُّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر : ٢] . وهكذا أخبر عنهم فى حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول فى الدنيا ، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴾ أى : اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة ، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً ، وأنهم على شىء فإذا هم ليسوا على شىء ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أى : بكفرهم ، وإغوائهم إيانا ، ﴿ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ . قرأ بعض القراء بالباء الموحدة . وقرأ آخرون بالثاء المثلثة ، وهما قريباً المعنى ، كما فى حديث عبد الله بن عمرو : أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعوه به فى صلاتى . قال : « قل اللهم ، إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ،

فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم . أخرجاه فى الصحيحين (١) ، يروى « كبيراً » و « كثيراً » ، وكلاهما بمعنى صحيح . واستحب بعضهم أن يجمع الداعى بين اللفظين فى دعائه ، وفى ذلك نظر ، بل الأولى أن يقول هذا تارة ، وهذا تارة ، كما أن القارئ مخير بين القراءتين أيتهما قرأ فحَسَنَ ، وليس له الجمع بينهما ، والله أعلم .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾

روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى ، عليه السلام ، كان رجلاً حيياً ستيراً ، لا يرى من جلده شىء استحياء منه ، فأذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما برص وإما أدرة وإما آفة ، وإن الله ، عز وجل ، أراد أن يُبرئه مما قالوا لموسى ، عليه السلام ، فخلا يوماً وحده ، فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر ، حتى انتهى إلى ملا من بنى إسرائيل ، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، عز وجل ، وأبراه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً - قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ . وهذا الحديث من أفراد البخارى دون مسلم (٢) . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ ﴾ قال : قال قومه له : إنك آدر . فخرج ذات يوم يغتسل ، فوضع ثيابه على صخرة ، فخرجت الصخرة تشتد بثيابه ، وخرج يتبعها عرياناً حتى انتهت به مجالس بنى إسرائيل ، قال : فرأوه ليس بآدر ، فذلك قوله : ﴿ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ . وروى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال : قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله . قال : فقلت : يا عدو الله ، أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت . قال : فذكر ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ، ثم قال : « رحمة الله على موسى ، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » . أخرجاه فى الصحيحين (٣) . وقوله : ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ أى : له وجهة وجاه عند ربه ، عز وجل . قال الحسن البصرى : كان مستجاب الدعوة عند الله . وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله ، عز وجل . وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع فى أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله ، وقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] .

(١) البخارى (٨٣٤) ، ومسلم (٤٨/٢٧٠٥) . (٢) البخارى (٣٤٠٤) .

(٣) المسند (٣٦٠٨) ، والبخارى (٣٤٠٥) ، ومسلم (١٠٦٢/١٤٠) .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وأن يقولوا ﴿ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أى : مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف . ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك ، أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم ، أى : يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم فى المستقبل يلهمهم التوبة منها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وذلك أنه يجار نار الجحيم ، ويصير إلى النعيم المقيم . قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا الله . وقال غيره : السديد : الصدق . وقال مجاهد : هو السداد . وقال غيره : هو الصواب . والكل حق .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

قال العوفي ، عن ابن عباس : يعنى بالأمانة : الطاعة ، التى عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم ، فلم يطقنها . فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ، وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الأمانة : الفرائض ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، إن أدوها أثابهم . وإن ضيعوها عذبهم ، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيماً لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ يعنى : غراً بأمر الله . وقال ابن جرير عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ قال : عرضت على آدم فقال : خذها بما فيها ، فإن أطعت غفرت لك ، وإن عصيت عذبتك . قال : قبلت ، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم ، حتى أصاب الخطيئة . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير وغير واحد : إن الأمانة هى الفرائض . وقال آخرون : هى الطاعة . وقال أبى بن كعب : من الأمانة أن المرأة تؤتمنت على فرجها . وقال قتادة : الأمانة : الدين والفرائض والحدود . وقال بعضهم : « الغسل من الجنابة » . وقال مالك ، عن زيد بن أسلم قال : الأمانة ثلاثة : الصلاة ، والصوم ، والاعتسال من الجنابة . وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر والنواهى بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عُوقِبَ ، فقبلها الإنسان

على ضعفه وجهله وظلمه ، إلا من وفق الله ، وبالله المستعان .

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا « أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » . ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، فقال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر [الوكت ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر] المجل كجمر دحرجته على رجلك ، تراه مُتَبَرّاً وليس فيه شيء » . قال : ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله ، قال : « فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة ، حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجلده وأظرفه وأعقله . وما فى قلبه حبة من خردل من إيمان . ولقد أتى على زمان وما أبالى أياكم بايعت ، إن كان مسلماً ليردنه على دينه ، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أباع منكم إلا فلانا وفلانا » . وأخرجاه فى الصحيحين (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أربع إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصِدْق حديث ، وحُسْن خليقة ، وعِفَّة طُعْمة » (٢) .

وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة ، روى أبو داود عن بُرَيْدة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف بالأمانة فليس منا » ، تفرد به أبو داود ، رحمه الله (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ أى : إنما حمل ابن آدم الأمانة وهى التكليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ، عز وجل ، ومخالفة رسله ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى : وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ .

(١) المسند (٣٨٣/٥) ، والبخارى (٦٤٩٧) ، ومسلم (١٤٣/٢٣٠) . وما بين المعقوفتين من المسند .

(٢) المسند (٦٦٥٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٣) أبو داود (٣٢٥٣) ، وصححه الألبانى ، وانظر السلسلة الصحيحة (٩٤) .

تفسير سورة سبأ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا
وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة : أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة ؛ لأنه المنعم
المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم في جميع ذلك ، كما قال
تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] ؛
ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : الجميع ملكه
وعبيده وتحت قهره وتصرفه ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَآ لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ [الليل : ١٣] . ثم قال عز وجل :
﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ ، فهو المعبود أبدا ، المحمود على طول المدى ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أى : فى
أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شيء .

وقال الزهرى : خير بخلقه ، حكيم بأمره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ
مِنْهَا ﴾ أى : يعلم عدد القطر النازل فى أجزاء الأرض ، والحب المبدور والكامن فيها ، ويعلم ما
يخرج من ذلك : عدده وكيفيته وصفاته ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من قطر ورزق ﴿ وَمَا يَعْرُجُ
فِيهَا ﴾ أى : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ أى : الرحيم بعباده فلا
يعاجل عصاتهم بالعقوبة ، الغفور عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ
عَنهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ
﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾

هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر الله رسولہ ﷺ أن يقسم بربه
العظيم على وقوع المعاد لَمَّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن فى سورة يونس

عليه السلام ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس : ٥٣] ، والثانية هذه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ، والثالثة فى التغابن وهى قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُعَذِّبُنَّهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التغابن : ٧] ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ . قال مجاهد وقتادة : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ : لا يغيب عنه ، أى : الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شيء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شيء عليم .

ثم بين حكمته فى إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ أى : سعوا فى الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين ، كما قال : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ : هذه حكمة أخرى معطوفة على التى قبلها ، وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذى كانوا قد علموه من كتب الله فى الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضاً : ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الاعراف : ٤٣] ، ويقال أيضاً : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ٥٢] ، ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ [الروم : ٥٦] ، ﴿ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ العزيز هو : المنيع الجنب ، الذى لا يُغالب ولا يُمانع ، بل قد قهر كل شيء ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه ، وقدره ، وهو المحمود فى ذلك كله .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَاشِئًا نَحْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ فى إخباره بذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ ﴾ أى : تفرقت أجسادكم فى الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أى : بعد هذا الحال

﴿ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك ، وهو فى هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ قال الله عز وجل راداً عليهم : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه ، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذى جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿ فِي الْعَذَابِ ﴾ أى : الكفر المفضى بهم إلى عذاب الله ﴿ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ من الحق فى الدنيا .

ثم قال منبهاً لهم على قدرته فى خلق السموات والأرض ، فقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : حيثما توجهوا وذهبوا فالسمااء مظلة عليهم ، والأرض تحتهم ، كما قال : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧ ، ٤٨] . عن قتادة : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال : إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك ، أو من بين يديك أو من خلفك ، رأيت السماء والأرض .

وقوله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك وقدرتنا عليهم ، ولكن تؤخر ذلك لحلمنا وعفونا . ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ قال قتادة : المنيب : المقبل إلى الله عز وجل . أى : إن فى النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجاء إلى الله ، على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد ؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وهذه الأرضين فى انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ (١) بلى ﴿ [يس : ٨١] ، وقال : ﴿ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ رَمَىٰ سَيْفَتَيْنِ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنَّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود ، صلوات الله وسلامه عليه ، ، مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العدد والعدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع

(١) فى المخطوطة : « على أن يحيى الموتى » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

لقراءته، ثم قال ﷺ «لقد أوتى هذا زمزماً من مزامير آل داود» (١). وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا وتر أحسن من صوت أبي موسى الأشعري . ومعنى قوله: ﴿أُوبِي﴾ التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها .
أى : رَجَعَى مُسَبَّحَةً مَعَهُ ، واللّه أعلم .

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْخَدِيدُ﴾ قال الحسن البصرى ، وقتادة ، والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ؛ ولهذا قال : ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ﴾ وهى: الدروع . قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح ﴿وَقَدَرُ فِي السَّرْدِ﴾ : هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود، عليه السلام، فى تعليمه صنعة الدروع. قال مجاهد فى قوله: ﴿وَقَدَرُ فِي السَّرْدِ﴾ : لا تُدَقُّ المسمار فيخلق فى الحلقة، ولا تُغْلَظُ فيفصمها، واجعله بقدر . وقال الحكم بن عتيبة: لا تُغْلَظُ فيفصم، ولا تُدَقُّ فيخلق . وهكذا روى عن قتادة، وغير واحد . وقال ابن عباس: السرد: حلق الحديد . وقال بعضهم : يقال : درع مسرودة : إذا كانت مسمورة الحلق .

وقوله تعالى : ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحاً﴾ أى : فى الذى أعطاكم الله من النعم ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى: مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى على من ذلك شىء .

﴿وَلَسَلِّمَنَّ الْريِّحَ غَدُوهاَ شَهْرٌ وَرَوَّاحُهاَ شَهْرٌ وَأَسَلَّنَا لَهُمُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (١١)
يَعْمَلُونَ لَهُمَ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ﴾ (١٢)

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود ، عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام ، من تسخير الريح له تحمل بساطه ﴿غَدُوهاَ شَهْرٌ وَرَوَّاحُهاَ شَهْرٌ﴾ .

قال الحسن البصرى : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغذى بها ، ويذهب راثحاً من إصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع . وقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وغير واحد : القطر: النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن ، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان ، عليه السلام . قال السدى : وإنما أسيلت له ثلاثة أيام .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أى : وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله ، أى : بقدره ، وتسخيرهم لهم بمشيئته ما يشاء من البنيات وغير ذلك ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أى : ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وهو الحريق .

وقال الحسن : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون ، وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان . وقوله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ ﴾ : أما المحارِب فهي البناء الحسن ، وهو أشرف شيء في المسكن وصدرة . وقال مجاهد : المحارِب بنيان دون القصور . وقال الضحاك : هي المساجد . وقال قتادة : هي المساجد والقصور ، وقال ابن زيد : هي المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفى ، والضحاك والسدى : التماثيل : الصور . قال مجاهد : وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله تعالى : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ الجواب : جمع جابية ، وهي الخوض الذى يجبى فيه الماء ، وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ أى : كالجوبة من الأرض . وقال العوفى ، عنه : كالحياض . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك وغيرهم . والقُدور الراسيات : أى الثابتات ، فى أماكنها لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمها . كذا قال مجاهد ، والضحاك ، وغيرهما . وقال عكرمة : أثافيتها منها .

وقوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ أى : وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم فى الدنيا والدين . وشكراً : مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له ، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالية . قال أبو عبد الرحمن السلمى : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير عمله لله شكر . وأفضل الشكر الحمد . رواه ابن جرير . وروى هو وابن أبى حاتم ، عن محمد بن كعب القرظى قال : الشكر تقوى الله والعمل الصالح . وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل ، وقد كان آل داود ، عليه السلام ، كذلك قائمين بشكر الله قولاً وعملاً . وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً . ولا يفر إذا لاقى » (١) . وقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ : إخبار عن الواقع .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ فَلََمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (١٤)

يذكر تعالى كيفية موت سليمان ، عليه السلام ، وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئاً على عصاه - وهى منسأته - كما قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة وغير واحد - مدة طويلة نحو من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض ،

وهي الأرضة، ضعفت وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة - تبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَاشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ
بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا
كَفَرُوا وَهَلْ تُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾ ﴾

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التابعة منهم ، وبلقيس - صاحبة سليمان - منهم ،
وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم ، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم . وبعث الله
إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله
ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ ، شذر مذر .

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن وعلّة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن رجلاً
سأل رسول الله ﷺ عن سبأ : ما هو ؟ رجل أم امرأة أم أرض ؟ قال : « بل هو رجل ، ولد
عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ،
والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير . وأما الشامية فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان »
وهذا إسناد حسن ، ولم يخرجوه (١) ، وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب «القصص
والأئمة» بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم « عن ابن عباس فذكر نحوه . وروى ابن جرير
عن فروة بن مسيك الغطيفي قال : قال رجل : يا رسول الله ، أخبرني عن سبأ : ما هو ؟
أرض ، أم امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد ، فتيامن
سته وتشاءم أربعة ، فأما الذين تشاءموا : فلخم وجذام وعاملة وغسان ، وأما الذين تيامنوا :
فكندة : والأشعريون ، والأزد ، ومذحج ، وحمير ، وأنمار » . فقال رجل : ما أنمار ؟ قال :
« الذين منهم خثعم وبجيلة » . ورواه الترمذي أبسط من هذا ، ثم قال : هذا حديث حسن
غريب (٢) . وروى أبو عمر بن عبد البر : عن تميم الداري ؛ أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فسأله
عن سبأ ، فذكر مثله ، فقوى هذا الحديث وحسن . قال علماء النسب ، منهم محمد بن
إسحاق : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وإنما سمي سبأ لأنه أول
من سبأ في العرب ، وكان يقال له : الرائي ؛ لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه ،
فسمى الرائي ، والعرب تسمى المال : ريشا ورياشا .

(١) المسند (٢٩٠٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) ابن جرير في التفسير (٥٣/٢٢) ، والترمذي (٣٢٢٢) وقال الألباني : « حسن صحيح » .

ومعنى قوله عليه السلام : « كان رجلا من العرب » يعنى : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل ، عليه السلام ، من سلالة سام بن نوح . وفى صحيح البخارى : أن رسول الله ﷺ مر بنفر من « أسلم » يتنصلون ، فقال : « ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا » (١) . فأسلم قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا بيشرب لما تفرقت سبأ فى البلاد ، حين بعث الله عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما قيل لهم : غسان بماء نزلوا عليه قيل : باليمن . وقيل : إنه قريب من المشلل .

ومعنى قوله : « ولد له عشرة من العرب » أى : كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر ، كما هو مقرر مبين فى مواضعه من كتب النسب .

ومعنى قوله : « فتيا من منهم ستة ، وتشاء منهم أربعة » أى : بعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزع عنها إلى غيرها ، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقدام ، فبنوا بينهما سدا عظيما محكما حتى ارتفع الماء ، وحكم على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف ، منهم قتادة : أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ، وهو الذى تخترق فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطاف ، لكثرته ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب : بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب .

وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شئ من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شئ من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ، ليوحده ويعبدوه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِينِهِمْ آيَةٌ ﴾ ، ثم فسرهما بقوله : ﴿ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أى : من ناحيتى الجبلين والبلدة بين ذلك ، ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أى : غفور لكم إن استمررتم على التوحيد . وقوله : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أى : عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس ، كما قال هدهد سليمان : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٢ - ٢٤] .

وقوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ : قيل : المراد بالعرم المياه . وقيل : الوادى . وقيل : الجرذ . وقيل : الماء الغزير . فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته ، مثل : « مسجد الجامع » . و« سعيد كرز » حكى ذلك السهيلي . وذكر غير واحد منهم ابن عباس ، وهب بن منبه ، وقتادة ،

والضحاك ؛ أن الله ، عز وجل ، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم ، بعث على السد دابة من الأرض ، يقال لها : « الجُرْدُ » نقبته - قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرْدُ فكانوا يرصدون عنده السنابير برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنابير ، وولجت إلى السد فنقبته ، فانهار عليهم .

وقال قتادة وغيره : الجُرْدُ : هو الخلد ، نقبت أسافله حتى إذا ضعف ووهى ، وجاءت أيام السيول ، صدم الماء البناء فسقط ، فانساب الماء في أسفل الوادي ، وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال ، فبيست وتحطمت ، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء الخراساني ، والحسن ، وقتادة ، والسدي : وهو الأراك ، وأكلة البرير . ﴿ وَأَثَلِ ﴾ : قال العوفي ، عن ابن عباس : هو الطرفاء . وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء . وقيل : هو السمُر . فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ : لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر قال : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ ، فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل . وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله ، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ أى : عاقبناهم بكفرهم . قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور . وقال الحسن البصري : صدق الله العظيم . لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور . وقال طاوس : لا يناقش إلا الكفور . وعن ابن خيرة - وكان من أصحاب على ، رضى الله عنه - قال : جزاء المعصية الوهن في العبادة ، والضيق في المعيشة ، والتعسر في اللذة . قيل : وما التعسر في اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من ينعصه إياها .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغبطة والنعمة ، والعيش الهنيئ الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة ، بعضها من بعض ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلا حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمر ، ويقيل في قرية وبيت في أخرى ، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ، قال وهب بن منبه : هي قرى بصنعاء . وكذا قال

أبو مالك . وقال مجاهد ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، زيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، وابن زيد وغيره : يعنى : قرى الشام . يعنون أنهم كانوا يسرون من اليمن إلى الشام فى قرى ظاهرة متواصلة . وقال ابن عباس : القرى التى باركنا فيها : بيت المقدس . وقال أيضا : هى قرى عربية بين المدينة والشام .

﴿ قُرَى ظَاهِرَةً ﴾ أى : بينة واضحة ، يعرفها المسافرون ، يقلون فى واحدة ، ويبيتون فى أخرى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ ، أى : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ أى : الأمن حاصل لهم فى سيرهم ليلا ونهارا .

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ وذلك أنهم بطروا هذه النعمة - كما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد - وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون فى قطعها إلى الزاد والرواحل والسير فى الحرور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض ، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا فى عيش رغيد فى مَنْ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشرب وملابس مرتفعة ؛ ولهذا قال لهم : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٦١] ، وقال عز وجل : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : ٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] . وقال فى حق هؤلاء : ﴿ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ، أى : بكفرهم ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أى : جعلناهم حديثا للناس ، وسَمَرًا يتحدثون به من خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنىء تفرقوا فى البلاد هاهنا وهاهنا ؛ ولهذا تقول العرب فى القوم إذا تفرقوا : « تفرقوا أيدي سبأ » « وأيادي سبأ » و « تفرقوا شذَرَ مَذَرَ » .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : إن فى هذا الذى حل بهؤلاء من النعمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية ، عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام - لبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب ، شكور على النعم . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » (١) .

قال قتادة : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال : كان مطرّف يقول : نعم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

(١) مسلم (٢٩٩٩/٦٤) ، وأحمد (٣٣٢/٤) عن صهيب رضى الله عنه ولم نقف على رواية أبى هريرة .

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴿٢١﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشیطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ . قال ابن عباس وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم ، ثم قال : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنُ أَخْرَجَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا حَتَّكَنَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢] ، وقال : ﴿ ثُمَّ لَا تَنَالُهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] والآيات في هذا كثيرة .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ قال ابن عباس : أى من حجة . وقال الحسن البصرى : والله ما ضربهم بعضاً ، ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وقوله : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ ﴾ أى : إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء ، فيحسن عبادة ربه عز وجل في الدنيا ، ممن هو منها فى شك ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴾ أى : ومع حفظه ضلّ من ضلّ من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُم مِّنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ﴾ ﴿٢١﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

يبين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده ، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض ، فقال : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : من الآلهة التى عبدت من دونه ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِّن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِّن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ ﴾ أى : لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشراكة ، ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ﴾ أى : وليس لله من هذه الأنداد من ظهر يستظهر به فى الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه . قال قتادة فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ﴾ : من عون يعينه بشيء . قال قتادة فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ﴾ ، من عون يعينه بشيء .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَفْعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أى : لعظمته وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى فى شىء إلا بعد إذنه له فى الشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم : ٢٦] ، وقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] . ولهذا ثبت فى الصحيحين ، من غير وجه عن رسول الله ﷺ - وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شافع عند الله : أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلهم أن يأتى ربهم لفصل القضاء ، قال : « فأسجد لله فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه واشفع تشفع » الحديث بتمامه (١) . وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ ﴾ : وهذا أيضا مقام رفيع فى العظمة ، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه ، أَرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى . قاله ابن مسعود ومسروق ، وغيرهما .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى : زال الفزع عنها . قال ابن عباس ، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبى ، وقتادة فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول : جُلِّيَ عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف - وجاء مرفوعا - : « حَتَّىٰ إِذَا فَرَّغَ » بالغين المعجمة ، ويرجع إلى الأول . فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضا : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهى الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال : ﴿ قَالُوا الْحَقُّ ﴾ أى : أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

وقال آخرون : بل معنى قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ ف قيل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا . قال مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ : كشف عنها الغطاء يوم القيامة . وقال الحسن : يعنى : ما فيها من الشك والتكذيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى : ما فيها من الشك ، قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانهم وما كان يضلهم ، ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ قال : وهذا فى بنى آدم ، هذا عند الموت ، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار . وقد اختار ابن جرير القول الأول : أن الضمير عائد على الملائكة . هذا هو الحق الذى لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار :

روى البخارى عن أبى هريرة قال : إن نبي الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاء لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحق ، وهو العلى الكبير فيسمعها مُسْتَرْقِ

السمع ، ومسترق السمع - هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة ، فيلقها إلى من تحته ، ثم يلقها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقها على لسان الساحر أو الكاهن : فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء . انفراد بإخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه ، ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه (١) . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالسا في نفر من أصحابه - قال عبد الرزاق : « من الأنصار » - فرمى بنجم فاستنار ، قال : « ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يؤلد عظيم ، أو يموت عظيم - قلت للزهري : أكان يرمى بها في الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غلظت حين بعث النبي ﷺ - قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا ، تبارك وتعالى ، إذا قضى أمرا سبح حملة العرش [ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا ، ثم يستخير أهل السماء الذين يكون حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء ؛ حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع فيرمون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون . ورواه مسلم والنسائي والترمذي (٢) . وعن ابن عباس وقتادة : أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إحياء الله سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية .

ربع ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿١٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ۚ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مقررًا تفردة بالخلق والرزق ، وانفراده بالإلهية أيضا ، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض - أي : بما ينزل من المطر وينبت من الزرع - إلا الله ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره . وقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ . قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين : والله ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد

(١) البخاري (٤٨٠٠) ، وأبو داود (٣٩٨٩) ، والترمذي (٣٢٢٣) ، وابن ماجه (١٩٤) .

(٢) المسند (١٨٨٣) ، ومسلم (٢٢٢٩/١٢٤) ، والنسائي في الكبرى (١١٢٧٢) ، والترمذي (٣٢٢٤) .

الفريقين لمهتد . وقال عكرمة : معناها : إنا نحن لعلى هدى ، وإنكم لفى ضلال مبين . وقوله : ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ معناه : التبرى منهم ، أى : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيدِهِ وإفراد العبادة له ، فإن أجبتُم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتُم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ (١) كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١] ، وقال : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون] .

وقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ أى : يوم القيامة ، يجمع بين الخلائق فى صعيد واحد ، ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى : يحكم بيننا بالعدل ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُورَثُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم : ١٤ - ١٦] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور .

وقوله : ﴿ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ أى : أرونى هذه الآلهة التى جعلتموها لله أندادا وصيرتموها له عدلاً ﴿ كَلَّا ﴾ أى : ليس له نظير ولا نديد ، ولا شريك ولا عديل ، ولهذا قال : ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ ﴾ أى : الواحد الأحد الذى لا شريك له ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : ذو العزة التى قد قهر بها كل شىء ، وغلبت كل شىء ، الحكيم فى أفعاله وأقواله ، وشرعه وقدره ، تعالى وتقدس .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
﴿ ٢٨ ﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ ٢٩ ﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِدُّونَ ﴿ ٣٠ ﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ : أى : إلا إلى جميع الخلق من المكلفين ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الاعراف : ١٥٨] ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] . ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى : تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، كقوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ﴿ وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] . وقال ابن عباس : إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا بن عباس ، فيم فضله الله على الأنبياء ؟ قال : إن الله قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ، وقال للنبي ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ ، فأرسله الله إلى الجن والإنس . وهذا

(١) فى المخطوطة والمطبوعة : « فَإِنْ » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

الذى قاله ابن عباس قد ثبت فى الصحيحين رفعه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » (١) . وفى الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت إلى الأسود والأحمر » (٢) . قال مجاهد : يعنى : الجن والإنس . وقال غيره : يعنى : العرب والعجم . والكل صحيح .

ثم قال تعالى مخبرا فى استبعادهم قيام الساعة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، كقوله عز وجل : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ الآية [الشورى : ١٨] . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أى : لكم ميعاد مؤجل معدود محدد ، لا يزداد ولا ينقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ، وقال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ . يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٤ ، ١٠٥] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا ، ومخبرا عن مواقفهم الدليلة بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجهم : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ وهم الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم : ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لولا أنتم تصدونا ، لكننا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به . فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ أى : نحن ما فعلنا بكم أكثر من أننا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الرسل ، لشهوتكم واختياركم لذلك ؛ ولهذا قالوا : ﴿ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى : بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا ، وتغرُّونا وتُمتِّنوننا ، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء ، فإذا جميع ذلك باطل وكذبٌ ومين . قال قتادة ، وابن زيد : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ يقول : بل مكرهم بالليل والنهار ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ أى نظراء وآلهة معه ، وتقيموا لنا شُبُهًا وأشياء من المحال ، تصلونا بها ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ أى : الجميع من السادة والأتباع ، كُلُّ نَدَمٍ على ما سَلَفَ منه . ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : إنما نجازيكم بأعمالكم ، كُلُّ بِحَسَبِهِ ، للقيادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾
 ﴿ ٢٤ ﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿ ٢٥ ﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ
 الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٢٦ ﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ
 بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ
 فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿ ٢٧ ﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ
 ﴿ ٢٨ ﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ
 يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿ ٢٩ ﴾

يقول تعالى مسلينا لنبيه ﷺ ، وأمرأ له بالتأسي بمن قبله من الرسل ، ومخبره بأنه ما بعث نبيا فى قرية إلا كذبه مترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال قوم نوح : ﴿ أَنْتُمْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ ﴾ [هود : ٢٧] ، وقال الكبراء من قوم صالح : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٧٥ ، ٧٦] وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٣] ؟ وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ مَجْرِمِهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وقال : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾ [الإسراء : ١٦] . وقال هاهنا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ ﴾ أى : نبي أو رسول ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة .

قال قتادة : هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم فى الشر . ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أى : لا نؤمن به ولا نتبعه . وهكذا قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، قال فيها : وسألتك : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل . وقوله تعالى إخبارا عن المترفين المكذبين : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ أى : افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم ، وأنه

ما كان ليعطيهم هذا فى الدنيا ، ثم يعذبهم فى الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال الله : ﴿ أَيْحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] وقال : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ﴾ [المدثر : ١١ - ١٧] .

وقد أخبر الله عن صاحب تينك الجنة : أنه كان ذا مال وولد وثمر ، ثم لم تُغن عنه شيئاً ، بل سلب ذلك كله فى الدنيا قبل الآخرة ؛ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْتَطِيعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة الدامغة القاطعة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى ﴾ أى : ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، قال : قال سول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . ورواه مسلم وابن ماجه (١) .

ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى : إنما بقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ، ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى : تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴾ أى : فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يحذر منه . ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ أى : يسعون فى الصد عن سبيل الله ، واتباع الرسل والتصديق بآياته ﴿ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أى : جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم . وقوله : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْتَطِيعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أى : بحسب ما له فى ذلك من الحكمة ، يبسط على هذا من المال كثيراً ، ويضيق على هذا ويقتصر عليه رزقه جداً ، وله فى ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٢١] أى : كما هم متفاوتون فى الدنيا : هذا فقير مدقع ، وهذا غنى موسع عليه ، فكذلك هم فى الآخرة : هذا فى الغُرَفَاتِ فى أعلى الدرجات ، وهذا فى الغمرات فى أسفل الدرجات . وأطيب الناس فى الدنيا كما قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » . رواه مسلم من حديث ابن عمرو (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أى : مهما أنفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه لكم ، فهو يخلفه عليكم فى الدنيا بالبدل ، وفى الآخرة بالجزاء والثواب ، كما ثبت فى

(١) المسند (٥٣٩/٢) ، ومسلم (٣٣/٢٥٦٤) ، وابن ماجه (٤١٤٣) .

(٢) مسلم (١٢٥/١٠٥٤) ، وفى المخطوطة والمطبوعة : « من حديث ابن عمر » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه من مسلم .

الحديث: « يقول الله تعالى : أنفق أنفق عليك » (١) . وفى الحديث : أن ملكين يصيحان كل يوم ، يقول أحدهما : « اللهم أعط مُمسكاً تلقاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقاً خلفاً » (٢) . وقال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه الآية : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ : إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التى هى على صور الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى ، فيقول للملائكة : ﴿ أَهْوَاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ أى : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ كما قال فى سورة الفرقان : ﴿ أَنْتُمْ أَضَلُّتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان : ١٧] ، وكما يقول لعيسى عليه السلام : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] . وهكذا تقول الملائكة : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى : تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أى : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعنون : الشياطين ؛ لأنهم هم الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم ﴿ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ [النساء : ١١٧] . قال الله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أى : لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان ، التى ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم ، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المشركون ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك ، تقرعاً وتوبيخاً .

﴿ وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَتَّبِعُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٤٣) وَمَا ءَايَتُهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا ءَايَتْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب ؛ لأنهم كانوا إذا

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : من الأمم ﴿ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى من القوة فى الدنيا . وكذا قال قتادة ، والسدى ، وابن زيد . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً ﴾ [غافر : ٨٢] ، أى : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : كيف كان نكالى وعقابى وانتصارى لرسلى ؟

ربع

وقوله تعالى : ﴿ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ : روى البخارى عن ابن عباس قال : صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم ، فقال : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أرايتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبِّحكم أو يُمَسِّيكم ، أما كنتم تصدقونى ؟ » قالوا : بلى . قال : « فلانى نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تباً لك ! ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد] ^(١) . وروى الإمام أحمد عن

بريدة قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات فقال : « أيها الناس ، تدرّون ما مثلى ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم ، فبعثوا رجلا يترأى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس ، أوتيتم . أيها الناس ، أوتيتم » - ثلاث مرات (١) .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٤٧) قُلْ
إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَамُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ
ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشرّكين : ﴿ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أى : لا أريد منكم جُعلاً ولا عطاءً على أداء رسالة الله إليكم ، ونصحى إياكم ، وأمركم بعبادة الله ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : إنما أطلب ثواب ذلك عند الله ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : عالم بجميع الأمور ، بما أنا عليه من إخبارى عنه بإرساله إياى إليكم ، وما أنتم عليه . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَامُ الْغُيُوبِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر : ١٥] . أى : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أى : جاء الحق من الله والشرع العظيم ، وذهب الباطل وزهق واضمحل ، كقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يطعن الصنم بسية قوسه ، ويقول : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ، ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن ابن مسعود ، به (٢) . أى : لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ أى : الخير كله من عند الله ، وفيما أنزله عز وجل من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : سميع لأقوال عباده ، قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . وقد روى النسائى هاهنا حديث أبى موسى الذى فى الصحيحين : « إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا » (٣) .

(١) المسند (٣٤٨/٥) وإسناده صحيح .

(٢) البخارى (٢٤٧٨ ، ٤٢٨٧) ، ومسلم (٨٧/١٧٨١) ، والترمذى (٣١٣٨) ، والنسائى فى الكبرى (١١٤٢٨) .

(٣) النسائى فى الكبرى (١١٤٢٧) ، والبخارى (٤٢٠٥) ، ومسلم (٤٥/٢٧٠٤) .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ ٥١ ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ٥٢ ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ٥٣ ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ ٥٤

يقول تعالى : ولو ترى - يا محمد - إذ فرغ هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿ فَلَا قُوَّةَ ﴾ أى : فلا مفر لهم ، ولا وزر ولا ملجأ ﴿ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أى : لم يمكنوا أن يمنعوا فى الهرب ، بل أخذوا من أول وهلة . قال الحسن البصرى : حين خرجوا من قبورهم . وقال عبد الرحمن بن زيد : يعنى : قتلهم يوم بدر . والصحيح : أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك .

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أى : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وبكتبه ورسله ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أى : وكيف لهم تعاظم الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء لا دار الابتلاء ، فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد . قال مجاهد : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ ﴾ قال : التناول لذلك . وقال الزهرى : تناولهم الإيمان وهم فى الآخرة ، وقد انقطعت عنهم الدنيا . وقال الحسن البصرى : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاظموا الإيمان من مكان بعيد . وقال ابن عباس : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة عما هم فيه ، وليس بحين رجعة ولا توبة . وكذا قال محمد بن كعب القرظى . وقوله : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : كيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة ، وقد كفروا بالحق فى الدنيا وكذبوا بالرسول ؟ ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال زيد بن أسلم : ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ قال : بالظن . قلت : كما قال تعالى : ﴿ رَجُمَا بِالْغَيْبِ ﴾ [الكهف : ٢٢] ، فتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : كاهن . وتارة يقولون : ساحر . وتارة يقولون : مجنون . إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالغيب والنشور والمعاد ، ويقولون : ﴿ إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ﴾ [الحج : ٣٢] . قال قتادة : يرممون بالظن ، لا بعث ولا جنة ولا نار .

وقوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ قال الحسن البصرى ، والضحاك ، وغيرهما : يعنى : الإيمان . وقال السُّدِّى : هى : التوبة . وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله . وقال مجاهد : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من هذه الدنيا ، من مال وزهرة وأهل . وروى نحوه عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس . وهو قول البخارى وجماعة . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين ؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ما طلبوه فى الآخرة ، فمنعوا

منه . وقوله تعالى : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ ﴾ أى : كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسول ، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ ، ٨٥] . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ أى : كانوا فى الدنيا فى شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب . قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإنه من مات على شك بُعِثَ عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

تفسير سورة فاطر

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِيَ أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعٌ
يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿١﴾

قال ابن عباس قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتاني أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما لصاحبه : أنا فطرتهما ، أنا بدأتها . وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : بديع السموات والأرض . وقال الضحاك : كل شيء فى القرآن « فاطر السموات والأرض » فهو : خالق السموات والأرض .

وقوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ أى : بينه وبين أنبيائه ﴿ أُولِيَ أَجْنِحَةٍ ﴾ أى : يطفرون بها ليلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعٌ ﴾ أى : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء فى الحديث : أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ؛ ولهذا قال : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال السدى : يزيد فى الأجنحة وخلقهم ما يشاء . وقال الزهرى ، وابن جريج فى قوله : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ يعنى : حسن الصوت .

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٢﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع . روى الإمام أحمد عن وراد (١) - مولى المغيرة بن شعبة - قال : كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة : اكتب إلى بما سمعت من رسول الله ﷺ . فدعانى المغيرة فكتبت إليه : إني سمعت رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ، وسمعتة ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ،

(١) فى المخطوطة : « وارد » وهو خطأ ، صوابه كما أثبتنا من المطبوعة ومصادر التخريج . وفى رواية البخارى المطبوعة : « كاتب المغيرة » .

وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات . وأخرجاه (١) . وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السماء والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد . اللهم ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد . اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » (٢) . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس : ١٠٧] . ولهذا نظائر كثيرة . كان أبو هريرة إذا مطروا يقول : مطرنا بنوء الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾ أى : فكيف تؤفكون بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ؟

﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمُ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

يقول تبارك وتعالى : وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور . هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد ، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ؛ فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى : وسنجزئهم على ذلك أوفر الجزاء .

ثم قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : المعاد كائن لا محالة ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية ، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ وهو الشيطان . قاله ابن عباس . أى : لا يفتنكم الشيطان ويصرفكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فإنه غرّار كذاب أفاك . وهذه

(١) المسند (٤/٢٥٤) ، والبخارى (٨٤٤) ، ومسلم (٥٩٣/١٣٧) .

(٢) مسلم (٤٧٧/٢٠٥) .

الآية كالآية التي في آخر لقمان : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣] . قال زيد بن أسلم : هو الشيطان . كما قال : يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا : ﴿ بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [الحديد: ١٣ ، ١٤] .

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أى : هو مبارز لكم بالعداوة ، فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى : إنما يقصد أن يضللكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين . فنسأل الله القوى العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان ، وأن يرزقنا اتباع كتابه ، والافتقار بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير . وهذه كقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾
 ﴿ ٧ ﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿ ٨ ﴾

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا بالله ورسوله ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ أى : لما كان منهم من ذنب ، ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ على ما عملوه من خير .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ يعنى : كالكفار والفجار ، يعملون أعمالا سيئة ، وهم فى ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أى : أفمن كان هكذا قد أضله الله ، ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى : بقدره كان ذلك ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ أى : لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم فى قدره ، إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي ، لما له فى ذلك من الحجة البالغة ، والعلم التام ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ . وعن عبد الله بن الديلمي قال : أتيت عبد الله بن عمرو ، وهو فى حائط بالطائف يقال له : الوهط ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأه منه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على ما علم الله عز وجل » (١) .

(١) الترمذى (٢٦٤٢) وقال : « هذا حديث حسن » وصححه الألبانى .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَسَقَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] ، كذلك الأجساد ، إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطرا يعم الأرض جميعاً فتنبت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض ؛ ولهذا جاء في الصحيح : « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ، منه خلق ومنه يركب » (١) ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أى : من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة الله ، فإنه يحصل له مقصوده ؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعها ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُلِيتُ عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٣٩] .

وقال عز وجل : ﴿ وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٦٥] ، وقال : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] . وقوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ يعنى : الذكر والتلاوة والدعاء . قاله غير واحد من السلف . روى ابن جرير عن المخارق بن سليم قال : قال لنا عبد الله - هو ابن مسعود - إذا حدثناكم حديثاً أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله : إن العبد المسلم إذا قال : « سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله » ، أخذ من ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يجرى بهن وجه الرحمن عز وجل ، ثم قرأ عبد الله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (٢) . روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « الذين يذكرون من جلال الله ، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل ، يذكرن بصاحبهن ألا يحب أحدكم ألا يزال له عند الله شيء يذكر به ؟ » . وهكذا رواه ابن ماجه (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ قال ابن عباس : الكلم الطيب : ذكر الله ، يصعد

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٢/ ٨٠) .

(١) مسلم (٢٩٥٥/ ١٤٢) .

(٣) المسند (٤/ ٢٦٨) وابن ماجه (٣٨٠٩) وفى الزوائد للبوصيرى : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » وصححه الألبانى .

به إلى الله، عز وجل ، والعمل الصالح : أداء الفريضة . ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على عمله ، فكان أولى به . وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وكذا قال أبو العالية، وعكرمة، وغير واحد . وقال إياس بن معاوية القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام . وقال الحسن ، وقتادة : لا يقبل قولٌ إلا بعمل .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السُّيُوفَاتِ ﴾ قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وشهر بن حوشب : هم المراءون بأعمالهم ، يعنى : يمكرون بالناس ، يوهمون أنهم فى طاعة الله ، وهم بغضاء إلى الله عز وجل ، يراؤون بأعمالهم ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢] . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون . الصحيح أنها عامة ، والمشركون داخلون بطريق الأولى ؛ ولهذا قال : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورِثُ ﴾ أى : يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولى البصائر والنهى ، فإنه ما أسر عبد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فالمرأى لا يروج أمره ويستمر إلا على غبى ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم ، بل يكشف لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أى : ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى : ذكراً وأنثى ، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجا من جنسكم ، لتسكنوا إليها ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ ﴾ أى : هو عالم بذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، بل ﴿ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الانعام : ٥٩] . وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْذَاوُ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى ﴾ [الرعد : ٨ ، ٩] .

وقوله : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ أى : ما يعطى بعد النطف من العمر الطويل يعلمه ، وهو عنده فى الكتاب الأول ﴿ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ الضمير عائد على الجنس ، لا على العين ؛ لأن العين : الطويل العمر فى الكتاب وفى علم الله لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس . قال ابن جرير : وهذا كقولهم : « عندى ثوب ونصفه » أى : ونصف آخر . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ إن ذلك على الله يسير ، يقول : ليس أحد قضيت له طول عمر وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يزداد عليه ، وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر ، ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له ، فذلك قوله : ﴿ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ إن ذلك على الله يسير ، يقول : كل ذلك فى كتاب عنده . وهكذا قال الضحاك بن مزاحم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه : ﴿ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام . وقال

عبد الرحمن فى تفسيرها: ألا ترى الناس ، يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد ، فهذا هذا . وقال قتادة : والذى ينقص من عمره : فالذى يموت قبل ستين سنة . وقال مجاهد: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ أى : فى بطن أمه يكتب له ذلك ، لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ، ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، وكل ذلك مكتوب لصاحبه ، بالغ ما بلغ . وقال بعضهم : بل معناه : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ﴾ أى : ما يكتب من الأجل ﴿ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ ، وهو ذهابه قليلا قليلا ، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله فى كتاب . واختار ابن جرير القول الأول ، وهو كما قال . وروى النسائى عن أنس ابن مالك ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يُبْسَطَ له فى رزقه ، ويُؤَسَّأَ له فى أثره فليصل رحمه » . وقد رواه البخارى ومسلم وأبو داود (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى : سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله فى جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شىء منها .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِتَبْنِفُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى منها على قدرته العظيمة فى خلقه الأشياء المختلفة : خلق البحرين العذب الزلال ، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، من كبار وصغار ، بحسب الحاجة إليها فى الأقاليم والأمصار ، والعمران والبرارى والقفار ، وهى عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ وهو البحر الساكن الذى تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زُعَاقاً مرة ، ولهذا قال : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أى : مر . ثم قال : ﴿ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ يعنى : السمك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ٢٢ ، ٢٣] .

وقوله : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ ﴾ (٢) أى : تمخره وتشقه بحيزومها ، وهو مقدمها المُسَنَّم الذى يشبه جَوْجُو الطير - وهو : صدره . وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ، ولا يُمخر الريح من السفن إلا العظام . وقوله : ﴿ لَتَبْنِفُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : بأسفاركم بالتجارة ، من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ﴿ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى : تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمتنع عليكم شىء منه ، بل

(١) النسائى فى الكبرى (١١٤٢٩) . ورواه البخارى برقم (٢٠٦٧) ، ومسلم (٢٥٥٧/٢٠) ، وأبو داود (١٦٩٣) .

(٢) فى المخطوطة : « مواخر فيه » . وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

بقدرته قد سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، الجميع من فضله ومن رحمته .

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى تسخيره الليل بظلامه والنهار بضياءه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده فى قصر هذا فيعتدلان . ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول هذا ويقصر هذا ، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ، ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى : والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديرأ من عزيز عليم ﴿ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : إلى يوم القيامة ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أى : الذى فعل هذا هو الرب العظيم ، الذى لا إله غيره ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى : من الأنداد والأصنام التى هى على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : القطمير : هو اللفافة التى تكون على نواة التمرة ، أى : لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ يعنى : الآلهة التى تدعونها من دون الله لا يسمعون دعاءكم ؛ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ أى : لا يقدرّون على ما تطلبون منها ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أى : يتبرؤون منكم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٥ ، ٦] ، وقال : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨١ ، ٨٢] .

وقوله : ﴿ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أى : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه ، مثل خبير بها . قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

﴿ يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ رِيعَ يَشَأْ يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

يخبر تعالى بغناؤه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذلّلها بين يديه ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى : هم محتاجون إليه فى جميع الحركات والسكنات ، وهو الغنى عنهم بالذات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى : هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له ، وهو الحميد فى جميع ما يفعله ويقوله ، ويقدره ويشعره .

وقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم ، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَآ ﴾ أى : وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أى : ولو كان قريباً إليها ، حتى ولو كان أباً أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله .

ثم قال : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى : إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ﴿ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ﴾ أى : ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۝ ١٩ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝ ٢٠ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۝ ٢١ وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۝ ٢٢ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝ ٢٣ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝ ٢٤ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۝ ٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝ ٢٦ ﴾

يقول تعالى : كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوى الأحياء ولا الأموات . وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وقال عز وجل : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [هود : ٢٤] فالؤمن سميع بصير فى نور يمشى ، على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة ، حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى أصم ، فى ظلمات يمشى ، لا خروج له منها ، بل هو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ﴿ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٤٣ ، ٤٤] .

وقوله : ﴿ إِنْ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿ وَمَا

أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِّنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٧﴾ أى : كما لا يتتبع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم ، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتِبَ عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ، ولا تستطيع هدايتهم . ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٨﴾ أى : إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهذى من يشاء . ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٩﴾ أى : بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين ﴿وَأِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٣٠﴾ أى : وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر ، وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٣١﴾ [الرعد : ٧] ، وكما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّبَ عَلَيْهِ الضَّلَالَةَ ﴿٣٢﴾ الآية [النحل : ٣٦] ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿وَأِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٣٣﴾ وهى : المعجزات الباهرات ، والأدلة القاطعات ﴿وَبِالْزُبُرِ ﴿٣٤﴾ وهى الكتب ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٣٥﴾ أى : الواضح البين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٣٦﴾ أى : ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاؤوهم به ، فأخذتهم ، أى : بالعقاب والنكال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٣٧﴾ أى : فكيف رأيت إنكارى عليهم عظيما شديدا بليغا ، والله أعلم ؟

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٣٨﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى منها على كمال قدرته فى خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشئ الواحد ، وهو الماء الذى ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها ، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ ﴿٤٠﴾ الآية [الرعد : ٤] .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴿٤١﴾ أى : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمرة ، وفى بعضها طرائق - وهى : الجُدَد ، جمع جُدَّة - مختلفة الألوان أيضا . قال ابن عباس : الجُدَد : الطرائق . وكذا قال أبو مالك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى . ومنها ﴿وَعَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٤٢﴾ قال عكرمة : الغرابيب : الجبال الطوال السود . وكذا قال أبو مالك ، وعطاء الخراسانى وقتادة . وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد ، قالوا : أسود غريب . وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴿٤٣﴾ أى : كذلك الحيوانات من الأناسى والدواب - وهو : كل ما دب على قوائم - والأنعام ، من باب عطف الخاص على العام . كذلك هى مختلفة أيضا ، فالناس منهم بربر

وحبوش وطُماطم فى غاية السواد ، وصقالبة وروم فى غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك . ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَاختِلَافُ أَلْوَانِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢] . وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان ، حتى فى الجنس الواحد ، بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق ، فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ولهذا قال تعالى بعد هذا : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ أى : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى - كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر . قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ قال : الذين يعلمون أن الله على كل شىء قدير . وقال : العالم بالرحمن من لم يشرك به شيئا ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله . وقال سعيد بن جبير : الخشية هى التى تحول بينك وبين معصية الله عز وجل . وقال الحسن البصرى : الإيمان من خشى الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه ، ثم تلا الحسن : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

وعن ابن مسعود ، أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ، ولكن العلم عن كثرة الخشية . وعن أبى حيان التيمى ، عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة : عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله . فالعالم بالله وبأمر الله : الذى يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض . والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله : الذى يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض . والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله : الذى يعلم الحدود والفرائض ، ولا يخشى الله عز وجل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۝١٩ لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٢٠ ﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه ، من إقام الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم الله فى الأوقات المشروعة ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ أى : يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى : ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ أى : لذنوبهم ﴿ شَكُورٌ ﴾ للقليل من أعمالهم . قال قتادة : كان مُطَرَّف ، رحمه الله ، إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ وهو القرآن ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى : من الكتب المتقدمة يصدقها ، كما شهدت له بالتنويه ، وأنه منزل من رب العالمين ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : هو خبير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه . ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات الله عليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم ، المصدق لما بين يديه من الكتب ، الذين اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع ، فقال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ وهو : المفرط فى فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ وهو : المؤدى للواجبات ، التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ﴾ وهو : الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قال : هم أمة محمد ﷺ ، ورثهم الله كل كتاب أنزله ، فظالمهم يُغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب . وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب . وقال مجاهد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ قال : هم أصحاب المشأمة .

وقال مالك عن زيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة : هو المنافق . ثم قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة فى أول سورة « الواقعة » وآخرها . والصحيح : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة . وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ .

روى الإمام أحمد عن أبى الدرداء ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحسبون فى طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته ، فهم الذين يقولون : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ

شُكُور. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿١﴾ . وعن عبد الله بن مسعود؛ أنه قال : هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول : ما هؤلاء ؟ - وهو أعلم تبارك وتعالى - فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام ، إلا أنهم لم يشركوا بك فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي : وتلا عبد الله هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية . وعن عقبة بن صُهَبَانَ الهُنَائِي قال : سألت عائشة ، عن قول الله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ الآية ، فقالت لى : يا بنى ، هؤلاء فى الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم . قال : فجعلت نفسها معنا . وهذا منها ، رضى الله عنها ، من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات ؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة فى جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة ، فإنهم كما روى الإمام أحمد عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة إلى أبى الدرداء - وهو بدمشق - فقال : ما أقدمك أى أخى ؟ قال : حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ . قال أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا . قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ؟ قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال : فإننى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقا يطلب فيه علما ، سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإنه ليستغفر للعالم من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه به أخذ بحظ وافر » . وأخرجه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه (٢) . وعن ثعلبة بن الحكم ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إني لم أضع علمى وحكمى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم ، على ما كان منكم ، ولا أبالى » (٣) .

﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾
 ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٤﴾ الَّذِى
 أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٢٥﴾

يعبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده ، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين

(١) المسند (١٩٨/٥) والحديث إسناده صحيح .

(٢) المسند (١٩٦/٥) ، وأبو داود (٣٦٤١) ، والترمذى (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) وصححه الالبانى .

(٣) الطبرانى فى الكبير (٨٤/٢) (١٣٨١) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٢٩/١) : « رجاله موثقون » .

يوم القيامة مأواهم ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أى : جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على الله عز وجل : ﴿ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الضوء » (١) .

﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ، ولهذا كان محظوراً عليهم فى الدنيا ، فأباحه الله لهم فى الدار الآخرة ، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من لبس الحرير فى الدنيا ، لم يلبسه فى الآخرة » (٢) .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ : وهو الخوف من المحذور ، أزاحه عنا ، وأراحنا بما كنا نتخوفه ، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة .

قال ابن عباس ، وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات . ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يقولون : الذى أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله ومنّ ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوى ذلك . كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » (٣) .

﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أى : لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء . والنصب واللغوب : كل منهما يستعمل فى التعب . وكأن المراد ينفى هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم ، والله أعلم . فمن ذلك أنهم كانوا يدثبون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا ، فسقط عنهم التكليف بدخولها ، وصاروا فى راحة دائمة مستمرة ، قال الله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾ (٢١) وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٢٧)

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء ، شرع فى بيان مآل الأشقياء ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ [طه : ٧٤] . وثبت

(٢) مسلم (٢٠٧٣/٢١) .

(١) مسلم (٤٠/٢٥٠) .

(٣) البخارى (٥٦٧٣) ، ومسلم (٧١/٢٨١٦) .

فى صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ولا يحيون » (١) . وقال الله عز وجل : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الزخرف : ٧٧] . فهم فى حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٤ ، ٧٥] ، وقال : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] ، ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبا : ٣٠] .

ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أى : هذا جزاء كل من كفر بربه ، وكذب بالحق . وقوله : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أى : ينادون فيها ، يجأرون إلى الله ، عز وجل ، بأصواتهم : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أى : يسألون الرجعة إلى الدنيا ، ليعملوا غير عملهم الأول ، وقد علم الرب ، جل جلاله ، أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون . فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم ، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى قولهم : ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ ﴾ (٢) مِنْ سَبِيلٍ . ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ [غافر : ١١ ، ١٢] ، أى : لا يجيبكم إلى ذلك ، لأنكم كنتم كذلك ، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ ﴾ أى : أو ما عشتم فى الدنيا أعمارا لو كنتم ممن يتتفع بالحق به فى مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون فى مقدار العمر المراد هاهنا ، فروى عن على بن الحسين زين العابدين أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة . وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة ، فنعود بالله أن نغتر بطول العمر ، قد نزلت هذه الآية : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ ﴾ ، وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة . وعن الحسن قال : أربعين سنة . وعن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة ، فليأخذ حذره من الله عز وجل . وهذه رواية عن ابن عباس - فيما رواه ابن جرير - قال : العمر الذى أعذر الله إلى ابن آدم : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ ﴾ أربعون سنة . وهذا القول هو اختيار ابن جرير . ثم رواه عن ابن عباس قال : العمر الذى أعذر الله فيه لابن آدم فى قوله : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ ﴾ ستون سنة . فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ، وهى الصحيحة فى نفس الأمر أيضاً ، لما ثبت فى ذلك من الحديث . وقد روى أصبغ بن نباتة ، عن على ، أنه قال : العمر الذى عيّرهم الله به فى قوله : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ ﴾ ستون سنة .

(١) مسلم (٣٠٦/١٨٥) .

(٢) فى المخطوطة والمطبوعة : « مرد » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لقد أعذر الله إلى عبد أحياء حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر الله إليه ، لقد أعذر الله إليه » (١) . وهكذا رواه الإمام البخارى عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أعذر الله عز وجل إلى امرئ آخر عمره حتى بلغه ستين سنة » (٢) .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثة وستين سنة . وقيل : ستين . وقيل : خمسا وستين سنة . والمشهور الأول ، والله أعلم . وقوله : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ روى عن ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، أنهم قالوا : يعنى : الشيب . وقال السدى ، وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : يعنى به الرسول ﷺ وقرأ ابن زيد : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى ﴾ [النجم : ٥٦] . وهذا هو الصحيح عن قتادة ، فيما رواه شيبان ، عنه أنه قال : احتج عليهم بالعمر والرسول . وهذا اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا تُكُونُونَ . لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧ ، ٧٨] ، أى : لقد بينا لكم الحق على السنة الرسل ، فأبستم وخالفتم ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك : ٨ ، ٩] .

وقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أى : فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعمالكم ، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٢٨)
هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٢٩)

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : يخلف قوم لآخرين قبلهم ، وجيل لجيل قبلهم ، كما قال : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢] ، ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى : فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ أى : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ، ارتفعت درجته ومنزلته فى الجنة ، وزاد أجره ، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين .

(١) المسند (٧٦٩٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٦٤١٩) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أى : ليس لهم شىء من ذلك ، ما يملكون من قطمير . وقوله : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ﴾ أى : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولون من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك ، ﴿ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى : بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيتهم التى تمنوها لأنفسهم ، وهى غرور وباطل وزور .

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ أى : أن تضطربا عن أماكنهما ، كما قال : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم : ٢٥] ، ﴿ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حلیم غفور ، أى : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستر آخرين ويغفر ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، قبل إرسال الرسول إليهم : ﴿ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ أى : من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل . قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٥٦ ، ١٥٧] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ . فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الصافات : ١٦٧ - ١٧٠] .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ وهو : محمد ﷺ ، بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المين ﴿ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أى : ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم ، ثم بين ذلك بقوله : ﴿ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿ وَمَكْرُ السَّيِّئِ ﴾ أى : ومكروا بالناس فى صدّهم إياهم عن سبيل الله ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ أى : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم . وقال محمد بن كعب القرظى : ثلاث من فعلهن لم ينجُ حتى ينزل به من مكر أو بغى أو نكث ، وتصديقها فى كتاب الله : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا بِفَيْكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ [يونس : ٢٣] ، ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [الفتح : ١٠] . وقوله : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾ يعنى : عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أى : لا تغير ولا تبدل ، بل هى جارية كذلك فى كل مكذب ، ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ [الرعد : ١١] ، ولا يكشف ذلك عنهم ، ويحوله عنهم أحد والله أعلم .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا ﴾ ﴿ ٤٤ ﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿ ٤٥ ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة : سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فخلت منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة ، وكثرة العدد والعدد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أغنى ذلك شيئا ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء ، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شيء ، إذا أراد كونه فى السموات والأرض ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ أى : عليم بجميع الكائنات ، قدير على مجموعها . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى : لو أخذهم بجميع ذنوبهم ، لأهلك جميع أهل الأرض ، وما يملكونه من دواب وأرزاق . عن عبد الله [بن مسعود] قال : كاد الجعل أن يعذب فى جحره بذنوب ابن آدم ، ثم قرأ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ . وقال سعيد ابن جبير ، والسدى : أى : لما سقاهم المطر ، فماتت جميع الدواب .

﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : ولكن يُنظرهم إلى يوم القيامة ، فيحاسبهم يومئذ ، ويوفى كل عامل بعمله ، فيجازى بالشواب أهل الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ .

تفسير سورة يس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَس ١ ﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿ ٢ ﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿ ٣ ﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ ٤ ﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿ ٥ ﴾ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿ ٦ ﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ ٧ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول « سورة البقرة » .

﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ أى : المحكم الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ إِنَّكَ ﴾ أى : يا محمد ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى : على منهج ودين قويم ، وشرع مستقيم ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى : هذا الصراط والمنهج والدين الذى جئت به تنزيل من رب العزة ، الرحيم بعباده المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] .

وقوله تعالى : ﴿ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعنى بهم : العرب ؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله . وذكرهم وحدهم لا ينفى من عداهم ، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفى العموم . وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة فى عموم بعثته ﷺ عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الاعراف : ١٥٨] . وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله قد حتم عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله ، ولا يصدقون رسله .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيّ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلًا لَّا فِيْهِ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴾ ﴿ ٨ ﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿ ٩ ﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ ١٠ ﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿ ١١ ﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ كُلَّ شَيْءٍ آخِصْتَهُ فِيّ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿ ١٢ ﴾

يقول تعالى : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل فى عنقه غُل ، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه ، فارتفع رأسه ، فصار مقمحا ؛ ولهذا قال : ﴿ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴾ والمقمح : هو الرافع رأسه ، كما قالت أم زرع فى كلامها : « وأشرب

فَاتَّقِمَّحْ « أى : أشرب فأروى ، وأرفع رأسى تهنيتاً وترّوياً . واكتفى بذكر الغل فى العنق عن ذكر اليدين ، وإن كانتا مرادتين ، والغُلّ إنما يعرف فيما جَمَعَ اليدين مع العنق .

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ قال : هو كقوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء : ٢٩] يعنى بذلك : أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم ، لا يستطيعون أن يسطوها بخير . وقال مجاهد : ﴿ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ قال : رافعو رؤوسهم ، وأيديهم موضوعة على أفواههم ، فهم مغلولون عن كل خير .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ قال مجاهد : عن الحق ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ قال مجاهد : عن الحق ، فهم مترددون . وقال قتادة : الضلالات .

وقوله : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ أى : أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أى : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه . قال ابن جرير : وروى عن ابن عباس أنه كان يقرأ : «فأغشيناهم» بالعين المهملة، من العشا وهو داء فى العين . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : جعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان ، فهم لا يخلصون إليه ، وقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ثم قال : من منعه الله لا يستطيع . وقال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيتُ محمداً لأفعلن ولا أفعلن ، فأنزلت : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، قال : وكانوا يقولون : هذا محمد . فيقول : أين هو ؟ أين هو ؟ لا يبصره . رواه ابن جرير . وقال ابن إسحاق عن محمد بن كعب : قال أبو جهل وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكا ، فإذا متم بعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم جناتٌ خير من جنات الأردن . وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نارٌ تُعَذِّبون بها . وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك ، وفى يده حفنة من تراب ، وقد أخذ الله على أعينهم دونه ، فجعل يذرها على رؤوسهم ، ويقرأ : ﴿ يَس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ حتى انتهى إلى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته ، وباتوا رُصْدَاءَ على بابه ، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً . قال : قد خرج عليكم ، فما بقى منكم من رجل إلا وضع على رأسه ترابا ، ثم ذهب لحاجته . فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب . قال : وقد بلغ النبى ﷺ قول أبى جهل فقال : « وأنا أقول ذلك : إن لهم منى لذبحا ، وإنه أحدهم » (١) .

وقوله : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : قد ختم الله عليهم بالضلالة ، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به . وقد تقدم نظيرها فى أول سورة البقرة (٢) ، وكما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

[يونس : ٩٦ ، ٩٧] . ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أى : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ، وهو القرآن العظيم ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾ أى : حيث لا يراه أحد إلا الله ، يعلم أن الله مطلع عليه ، وعالم بما يفعله ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أى : لذنوبه ، ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : كبير واسع حسن جميل ، كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : ١٢] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أى : يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيى قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة ، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال بعد ذكر قسوة القلوب : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد : ١٧] .

وقوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ أى : من الأعمال . وفى قوله : ﴿ وَأَثَارَهُمْ ﴾ قولان :

أحدهما : نكتب أعمالهم التى باشروها بأنفسهم ، وأثارهم التى أثروها من بعدهم ، فنجزهم على ذلك أيضاً ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كقوله ﷺ : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ، كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » . رواه مسلم (١) . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم ، انقطع عمله إلا من ثلاث : من علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده » (٢) . وقال سفيان الثورى ، عن أبى سعيد قال : سمعت مجاهداً يقول فى قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ قال : ما أورثوا من الضلالة . وقال سعيد بن جبیر فى قوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ يعنى : ما أثروا . يقول : ما سنوا من سنة ، فعمل بها قوم من بعد موتهم ، فإن كان خيراً فله مثل أجورهم ، لا ينقص من أجر من عمله شيئاً ، وإن كانت شراً فعليه مثل أوزارهم ، ولا ينقص من أوزار من عمله شيئاً .

والقول الثانى : أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية . قال مجاهد : ﴿ مَا قَدَّمُوا ﴾ : أعمالهم ﴿ وَأَثَارَهُمْ ﴾ قال : خطاهم بأرجلهم . وكذا قال الحسن وقتادة : ﴿ وَأَثَارَهُمْ ﴾ يعنى : خطاهم . قال قتادة : لو كان الله تعالى مغفلاً شيئاً من شأنك يا بن آدم ، أغفل ما تغفل الرياح من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله ، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره فى طاعة الله ، فليفعل . روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال لهم : « إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد » . قالوا : نعم ، يا رسول الله ، قد أردنا ذلك . فقال : « يا بنى

سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم » . وهكذا رواه مسلم (١) .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : توفي رجل بالمدينة ، فصلى عليه النبي ﷺ وقال : « يا ليت مات في غير مولده » . فقال رجل من الناس : ولم يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الرجل إذا توفي في غير مولده ، قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة » . ورواه النسائي ، وابن ماجه (٢) . وهذا القول لا تنافى بينه وبين الأول ، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى ، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكتب ، فلأن تُكتب تلك التي فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ ، والإمام المبين هنا هو أم الكتاب . قاله مجاهد ، وقتادة ، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم ، وكذا في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء : ٧١] أى : بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر ، كما قال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ [الزمر : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ١٢ ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ ١٤ ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ ١٥ ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ ١٦ ﴿ وَمَا عَلَيْنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ١٧

يقول تعالى : واضرب - يا محمد - لقومك الذين كذبوك ﴿ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ . قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس - : إنها مدينة أنطاكية ، وهكذا روى عن بُريدة بن الحُصيب ، وعكرمة ، وقتادة ، والزهرى : أنها أنطاكية . وقد استشكل بعضُ الأئمة كونها أنطاكية ، بما سذكروه بعد تمام القصة ، إن شاء الله تعالى .

وقوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أى : بادروهما بالكذب ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أى : قويناهم وشددنا أزرهما برسول ثالث . ﴿ فَقَالُوا ﴾ أى : لأهل تلك القرية : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ أى : من ربكم الذى خلقكم ، نأمركم بعبادته وحده لا شريك له ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ أى : فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر ، فلم لا أوحى إلينا مثلكم ؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة . وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة ، كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ

(١) المسند (٣/ ٣٣٢) ، ومسلم (٦٦٥/ ٢٨٠) .

(٢) المسند (٦٦٥٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، والنسائي (١٨٣٢) ، وابن ماجه (١٦١٤) .

كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْ يَهُدُونَنَا ﴿١٦﴾ [التغابن : ٦] ، فاستعجبوا من ذلك وأنكروه ، وقوله : ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ [إبراهيم : ١٠] . وقوله حكاية عنهم في قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣٤] ، ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٤] . ولهذا قال هؤلاء : ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ . قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ أى : أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٢] . ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ يقولون : إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإن أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة ، وإن لم تحببوا فستعلمون غيب ذلك ، والله أعلم .

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾
﴿ ١٨ ﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿ ١٩ ﴾

فعند ذلك قال لهم أهل القرية : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أى : لم نر على وجوهكم خيراً فى عيشنا . وقال قتادة : يقولون : إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم . وقال مجاهد : يقولون : لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ قال قتادة : بالحجارة . وقال مجاهد : بالشتم ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : عقوبة شديدة . فقالت لهم رسلهم : ﴿ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أى : مردود عليكم ، كقوله تعالى فى قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٣١] ، وقال قوم صالح : ﴿ أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٤٧] . وقال قتادة ، ووهب بن منبه : أى أعمالكم معكم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨] .

وقوله : ﴿ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أى : من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العباداة له ، قابلتمونا بهذا الكلام ، وتوعدتمونا وتهددتمونا ؟ بل أنتم قوم مسرفون . وقال قتادة : أى إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ، بل أنتم قوم مسرفون .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَدْعُوكم التَّمَسَّكُ بِالْحَبْلِ ﴾
﴿ ٢٠ ﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿ ٢١ ﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿ ٢٢ ﴾ ءَاتِخُذْ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِيدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي
شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿ ٢٣ ﴾ إِنْئِي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿ ٢٤ ﴾ إِنْئِي ءَامَنْتُ
بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿ ٢٥ ﴾

قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس : إن أهل القرية همّوا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى ، أى : لينصرهم من قومه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ : يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أى : على إبلاغ الرسالة ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ فيما يدعونكم إليه ، من عبادة الله وحده لا شريك له .

﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أى : وما يمنعنى من إخلاص العبادة للذى خلقنى وحده لا شريك له ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم المعاد ، فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿ إِنْ يَرِئِدَنَّ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون ﴾ أى : هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئا ، فإن الله لو أرادنى بسوء ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ [يونس : ١٠٧] . وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ، ولا ينقذوننى مما أنا فيه ﴿ إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : إن اتخذتها آلهة من دون الله .

وقوله : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون ﴾ قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس - يقول لقومه : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذى كفرتم به ، ﴿ فَاسْمَعُون ﴾ أى : فاسمعوا قولى .

ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أى : الذى أرسلكم ، ﴿ فَاسْمَعُون ﴾ أى : فاشهدوا لى بذلك عنده . وقد حكاه ابن جرير فقال : وقال آخرون : بل خاطب بذلك الرسل ، وقال لهم : اسمعوا قولى ، لتشهدوا لى بما أقول لكم عند ربى ، أتى آمنت بربكم واتبعتكم . وهذا القول الذى حكاه هؤلاء أظهر فى المعنى ، والله أعلم .

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿ ١٦ ﴾ ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ ﴿ ١٨ ﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ ﴿ ١٩ ﴾

الجزء
٢٣

قال ابن مسعود : إنهم وطئوه بأرجلهم فوجبت له ، فلما رأى الثواب ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ . قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحا ، لا تلقاه غاشا ؛ لما عاين ما عاين من كرامة الله ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين . تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله ، وما هجم عليه .

وقال ابن عباس : نصح قومه فى حياته بقوله : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس : ٢٠] ، وبعد مماته فى قوله : ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين . وقال أبو مجلز : ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ : بإيمانى بربى ، وتصديقى المرسلين . ومقصوده : أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه الله ورضى عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ : يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه ، غضباً منه تعالى عليهم ؛ لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه . ويذكر تعالى أنه ما أنزل عليهم ، وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك . قاله ابن مسعود ، فيما رواه ابن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عنه أنه قال في قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أى : ما كثرناهم بالجموع ، الأمر كان أيسر علينا من ذلك ، ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ قال : فأهلك الله ذلك الملك ، وأهلك أهل أنطاكية ، فبادوا عن وجه الأرض ، فلم يبق منهم باقية . وقيل : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أى : وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم ، بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم . وقيل : المعنى فى قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من رسالة أخرى إليهم . قاله مجاهد وقتادة . قال قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله ، ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ . قال ابن جرير : والأول أصح ؛ لأن الرسالة لا تسمى جنداً .

قال المفسرون : بعث الله إليهم جبريل ، عليه السلام ، فأخذ بعضادتي باب بلدهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم ، لم تبق بهم روح تردد فى جسد .

وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح ، عليه السلام ، كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذى لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره ، وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله ، عز وجل ، لا من جهة المسيح ، كما قال تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ إلى أن قالوا : ﴿ رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِين ﴾ [يس : ١٤ - ١٧] . ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح ، عليه السلام ، والله أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [يس : ١٥] .

الثانى : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ؛ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتى فيهن بئاركة ، وهن القدس لأنها بلد المسيح ، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، والإسكندرية لأن فيها اصطالحوا على اتخاذ البئاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهبان . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأطده . ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البتريك من رومية إليها ، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أحمدهم ، فالله أعلم .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدرى وغير واحد من السلف : أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، ذكروه عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ [القصص : ٤٣] . فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة فى القرآن العظيم قرية أخرى غير أنطاكية ، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا . أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا فى هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة ، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، والله ، سبحانه وتعالى ، أعلم .

﴿ يَحْشَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ٢٠ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿ ٢١ ﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿ ٢٢ ﴾

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ ﴾ أى : يا ويل العباد . وقال قتادة : أى : يا حسرة العباد على أنفسهم ، على ما ضيعت من أمر الله ، فرطت فى جنب الله . ومعنى هذا : يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب ، كيف كذبوا رسل الله ، وخالفوا أمر الله ، فإنهم كانوا فى الدار الدنيا المكذبون منهم ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى : يكذبونه ويستهزئون به ، ويجحدون ما أرسل به من الحق . ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى : ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسول ، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [المؤمنون ٣٧] ، وهم القائلون بالدور من الدهرية ، وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، فرد الله تعالى عليهم باطلهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أى : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله ، جل وعلا ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرا وشرها ، ومعنى هذه كقوله جل وعلا : ﴿ وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لِيُوفِّيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [هود : ١١١] .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ ٢٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿ ٢٤ ﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿ ٢٥ ﴾ سُبْحَنَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٢٦ ﴾

يقول تعالى : ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ﴾ أى : دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ﴾ أى : إذا كانت ميتة هامدة لا شىء فيها من النبات ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال : ﴿أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أى : جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم ، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ أى : جعلنا فيها أنهاراً سارحة فى أمكنة ، يحتاجون إليها لياكلوا من ثمره . لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها .

وقوله : ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أى : وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم ، ولا بحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس وقتادة ؛ ولهذا قال : ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ؟ أى : فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التى لا تعد ولا تحصى ؟ واختار ابن جرير - بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالا - أن « ما » فى قوله : ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ بمعنى : «الذى» ، تقديره : لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أى : غرسوه ونصبوه ، قال : وهى كذلك فى قراءة ابن مسعود « لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » .

ثم قال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ أى : من زروع وثمار ونبات ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ، ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى : من مخلوقات شتى لا يعرفونها ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٢٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى : ومن الدلالة لهم على قدرته تعالى العظيمة خلق الليل والنهار ، هذا بظلامه وهذا بضياؤه ، وجعلهما يتعاقبان ، يجرى هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجىء هذا ، كما قال : ﴿يُفْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الاعراف : ٥٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أى : نصرمه منه فيذهب ، فيقبل الليل ؛ ولهذا قال : ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ ، كما جاء فى الحديث : « إذا أقبل الليل من هاهنا ، وأدبر النهار من هاهنا ، وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم » (١) .

وقوله : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ فى معنى قوله : ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قولان :

(١) البخارى (١٩٥٤) ، ومسلم (٥١/١١٠٠) .

أحدهما : أن المراد : مستقرها المكانى ، وهو تحت العرش مما يلى الأرض من ذلك الجانب ، وهى أينما كانت فهى تحت العرش هى وجميع المخلوقات ؛ لأنه سقفها ، وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم تحملها الملائكة ، وهو فوق العالم مما يلى رؤوس الناس ، فالشمس إذا كانت فى قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، فإذا استدارت فى فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام ، وهو وقت نصف الليل ، صارت أبعد ما تكون من العرش ، فحينئذ تسجد وتستأذن فى الطلوع ، كما جاءت بذلك الأحاديث .

روى البخارى عن أبى ذر ، قال : كنت مع النبى ﷺ فى المسجد عند غروب الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ، أتدرى أين تغرب الشمس ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ » . وعن أبى ذر قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ ، قال : « مستقرها تحت العرش » . كذا أورده هاهنا . وقد أخرجه فى أماكن متعددة ، ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه (١) .

وروى الإمام أحمد عن أبى ذر قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى المسجد حين وجبت الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ، تدرى أين تذهب الشمس ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد بين يدى ربها عز وجل ، فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها : ارجعى من حيث جئت . فترجع إلى مطلعها ، وذلك مستقرها ، ثم قرأ : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ » (٢) .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ : هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها فى السماء فى الصيف وهو أوجها ، ثم غاية انخفاضها فى الشتاء وهو الحضيض .

والقول الثانى : أن المراد بمستقرها هو : منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة ، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور ، وينتهى هذا العالم إلى غايته ، وهذا هو مستقرها الزمانى . قال قتادة : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ أى : لوقتها ولأجل لا تعدوه .

وقيل : المراد : أنها لا تزال تنتقل فى مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها ، ثم تنتقل من مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليه ، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو . وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا » أى : لا قرار لها ولا سكون ، بل هى سائرة ليلا ونهاراً ، لا تفر ولا تقف ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ [إبراهيم : ١٢]

(١) البخارى (٣١٩٩ ، ٤٨٠٢ ، ٤٨٠٣ ، ٧٤٢٤ ، ٧٤٣٣) ، ومسلم (١١٥٩ / ٢٥٠) ، وأبو داود (٤٠٠٢) ، والترمذى (٣٢٢٧) .

(٢) المسند (١٥٢ / ٥) والحديث إسناده صحيح .

[٣٣] أى : لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة .

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ أى : الذى لا يخالف ولا يمانع ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بجميع الحركات والسكنات ، وقد قدر ذلك وقننه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس ، كما قال تعالى : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ (١) اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] . وهكذا ختم آية « حم السجدة » بقوله : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ١٢] .

ثم قال : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ أى : جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضى الشهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩] ، وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ ﴾ الآية [يونس : ٥] ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٢] ، فجعل الشمس لها ضوء يخصصها ، والقمر له نور يخصصه ، وفاوت بين سير هذه وهذا ، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب فى آخره على ضوء واحد ، ولكن تنتقل فى مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء ، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار ، وجعل سلطانها بالنهار ، فهى كوكب نهارى . وأما القمر ، فقدرة منازل ، يطلع فى أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور ، ثم يزداد نوراً فى الليلة الثانية ، ويرتفع منزلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً ، وإن كان مقتبساً من الشمس ، حتى يتكامل نوره فى الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع فى النقص إلى آخر الشهر ، حتى يصير كالعرجون القديم . قال ابن عباس : وهو أصل العذق . وقال مجاهد : العرجون القديم : أى العذق اليابس . يعنى ابن عباس : أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى ، وكذا قال غيرهما . ثم بعد هذا بيديه الله جديداً فى أول الشهر الآخر ، والعرب تسمى كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر ، فيسمون الثلاث الأول « غُرَر » واللواتى بعدها « نُفَل » ، واللواتى بعدها « تُسَع » ؛ لأن أخراهن التاسعة ، واللواتى بعدها « عُشَر » ؛ لأن أولاهن العاشرة ، واللواتى بعدها « البيض » ؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتى بعدهن « دُرَع » جمع دَرْعاء ؛ لأن أولهن سُود ؛ لتأخر القمر فى أولهن ، ومنه الشاة الدرعاء وهى التى رأسها أسود . وبعدهن ثلاث « ظُلَم » ثم ثلاث « حَنَادَس » ، وثلاث « دَادِي » ، وثلاث « محاق » ؛ لانمحاق القمر أواخر الشهر فيهن .

وقوله : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ قال مجاهد : لكل منهما حد لا يعدوه ولا يُقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا . وقال عكرمة : يعنى : أن لكل منهما سلطانا ، فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل .

وقوله : ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ يقول : لا ينبغى إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى

(١) هى قراءة كما سبق بيانه .

يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل . وقال الضحاك : لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجيء النهار من هاهنا . وأوماً بيده إلى المشرق . وقال مجاهد : ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ : يَطْلُبَانِ حَيْثُينِ ، ينسلخ أحدهما من الآخر . والمعنى فى هذا : أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً .

وقوله : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يعنى : الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كلهم يسبحون ، أى : يدورون فى فلك السماء . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة .

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف : فى فَلَكَةٍ كَفَلَكَةِ الْمَغْزَلِ . وقال مجاهد : الْفَلَكُ كَحَدِيدَةِ الرَّحَى ، أو كفلكة المغزل ، لا يدور المغزل إلا بهأ ، ولا تدور إلا به .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى : ودلالة لهم أيضا على قدرته تعالى : تسخيره البحر ليحمل السفن ، فمن ذلك - بل أوله - سفينة نوح ، عليه السلام ، التى أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أى : آباءهم ﴿ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ أى : فى السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات ، التى أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . قال ابن عباس : المشحون : الموقر . وكذا قال سعيد بن جبير ، والشعبى ، وقتادة . وقال الضحاك ، وقتادة ، وابن زيد : وهى سفينة نوح ، عليه السلام .

وقوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ قال العوفى عن ابن عباس : يعنى بذلك : الإبل ، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والحسن وغيرهم . وقال السدى - فى رواية : هى الأنعام . وقال ابن جرير عن ابن عباس قال : تدرؤن ما ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ؟ قلنا : لا . قال : هى السفن ، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها . وكذا قال أبو مالك ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو صالح ، والسدى أيضاً : المراد بقوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ : أى السفن . ويقوى هذا المذهب فى المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] .

وقوله : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ يعنى : الذين فى السفن ﴿ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ ﴾ أى : فلا مغيث لهم مما هم فيه ﴿ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ أى : مما أصابهم ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ﴾ وهذا استثناء منقطع ، تقديره : لكن برحمتنا نسيركم فى البر والبحر ، ونسلمكم إلى أجل مسمى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أى : إلى وقت معلوم عند الله .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ ﴾

مَنْ ءَايَتْ رَبَّهُمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمادى المشركين فى غيهم وضلالهم ، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التى أسلفوها ، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ قال مجاهد : من الذنوب . وقال غيره بالعكس ﴿ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾ أى : لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه . وتقدير كلامه : أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه . واكتفى عن ذلك بقوله : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى : على التوحيد وصدق الرسل ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أى : لا يتأملونها ولا يتفكرون بها . وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى : وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى : عن الذين آمنوا من الفقراء ، أى : قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمرهم به : ﴿ أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ أى : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم ، لو شاء الله لأغناهم ولاطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم ، ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى : فى أمركم لنا بذلك .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة فى قولهم : ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى : ١٨] ، قال الله عز وجل : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أى : ما ينتظرون إلا صيحة واحدة ، وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع ، ينفخ فى الصور نفخة الفزع ، والناس فى أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عاداتهم ، فبينما هم كذلك إذ أمر الله تعالى إسرافيل فنفخ فى الصور نفخة يطولها ويمدّها ، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتها ، ورفع ليتها - وهى صفحة العنق - يسمع الصوت من قبل السماء . ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار ، تحيط بهم من جوانبهم ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أى : على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ﴿ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . ثم تكون بعد هذا نفخة الصعق ، التى تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحى القيوم ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَنْوِيلُنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

هذه هي النفخة الثالثة ، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ ، والنَّسْلَانِ هو : المشى السريع ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣] .

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ ؟ يعنون : قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوه في محشرهم ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ ، وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم ؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد . قال أبي بن كعب ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : ينامون نومة قبل البعث . قال قتادة : وذلك بين النفختين . فلذلك يقولون : ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون - قاله غير واحد من السلف : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ . وقال الحسن : إنما يجيبهم بذلك الملائكة . ولا منافاة إذ الجمع ممكن ، والله أعلم . وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار : ﴿ يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ . نقله ابن جرير ، واختار الأول ، وهو أصح ، وذلك كقوله تعالى في الصافات : ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ . هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصافات : ٢٠ ، ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٥٥ ، ٥٦] .

وقوله : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل : ٧٧] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٢] . أى : إنما نامهم أمراً واحداً ، فإذا الجميع محضرون ، ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أى : من عملها ، ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴾ ﴿ ٥٥ ﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِعُونَ ﴿ ٥٦ ﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿ ٥٧ ﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿ ٥٨ ﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة : أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا في روضات الجنات أنهم في شغل عن غيرهم ، بما هم فيه من النعيم المقيم ، والفوز العظيم . قال الحسن البصري وإسماعيل بن أبي خالد : ﴿ فِي شُغْلٍ ﴾ عما فيه أهل النار من العذاب . وقال مجاهد : ﴿ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴾ أى : في نعيم معجبون ، أى : به . وكذا قال قتادة . وقال ابن عباس : ﴿ فَكِهُونَ ﴾ : أى فرحون . وقال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، فى قوله : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴾ قالوا : شغلهم افتضاض الأبقار . وقال ابن عباس - فى رواية عنه : ﴿ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴾ : أى بسماع الأوتار . وقال أبو حاتم : لعله غلط من المستمع ، وإنما هو افتضاض الأبقار .

وقوله : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾ قال مجاهد : وحلائلهم ﴿ فِي ظِلَالٍ ﴾ أى : فى ظلال الأشجار ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد وعكرمة وغيرهم : ﴿ الْأَرَائِكِ ﴾ : هى السرر تحت الحجال . قلت : نظيره فى الدنيا هذه التختات تحت البشاحين ، والله أعلم . وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أى : من جميع أنواعها ﴿ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴾ أى : مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ .

وقوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ قال ابن عباس : فإن الله نفسه سلام على أهل الجنة . وهذا الذى قاله ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ [الأحزاب : ٤٤] .

﴿ وَامْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ ﴿ ٥٩ ﴾ ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ﴿ ٦٠ ﴾ ﴿ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ﴿ ٦١ ﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ ٦٢ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا ، بمعنى : يميزون عن المؤمنين فى موقفهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرِيقًا بَيْنَهُم ﴾ [يونس : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴾ [الروم : ١٤] ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : ٤٣] أى : يصيرون صدعين فرقتين ، ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : ٢٢ ، ٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنَى آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ : هذا تقرير من الله للكفرة من بنى آدم ، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذى خلقهم ورزقهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى : قد أمرتكم فى دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتي ، وهذا هو الصراط المستقيم ، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ والمراد بذلك : الخلق الكثير ، قاله مجاهد ، والسدى ، وقتادة .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ أى : أفما كان لكم عقل فى مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له ، وعدوكم إلى اتباع الشيطان ؟ !

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ﴿ ٦٣ ﴾ ﴿ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ﴿ ٦٤ ﴾ ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿ ٦٥ ﴾ ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْى يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ ٦٦ ﴾ ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿ ٦٧ ﴾

يقال للكفرة من بنى آدم يوم القيامة ، وقد برزت الجحيم لهم تقريبا وتوبيخا : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أى : هذه التى حذرتكم الرسل فكذبتموهم ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور : ١٣ - ١٥] .

وقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ : هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة ، حين ينكرون ما اجترموه فى الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم بما عملت .

عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبى ﷺ ، فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : رب ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجيز على إلا شاهداً من نفسى . فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، وبالكرام الكاتبين شهدوا . فيختم على فيه ، ويقال لأركانها : انطقى . فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكن وسحقاً ، فعنكن كنتم أناضل » . رواه مسلم والنسائى (١) .

وعن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ فى حديث القيامة الطويل ، قال فيه : « ثم يلقى الثالث فيقول : ما أنت ؟ فيقول : أنا عبدك ، آمنت بك وبنبيك وبكتابك ، وصمت وصليت وتصدقت - ويشئى بخير ما استطاع - قال : فيقال له : ألا نبعث عليك شاهداً ؟ قال : فيفكر فى نفسه ، من الذى يشهد عليه ، فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقى . فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل ، وذلك المنافق ، وذلك ليعذر من نفسه . وذلك الذى سخط الله عليه » . رواه مسلم وأبو داود بطوله (٢) . وروى ابن أبى حاتم عن عقبة بن عامر ؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختم على الأفواه ، فخذه من الرجل اليسرى » . وقد جَوَّدَ إسناده الإمام أحمد فروى عن عقبة بن عامر ؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختم على الأفواه ، فخذه من الرجل الشمال » (٣) .

وقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يقول : ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى ، فكيف يهتدون ؟ وقال مرة : أعميناهم . وقال الحسن البصرى : لو شاء الله لطمس على أعينهم ، فجعلهم عمياً يترددون . وقال السدى : لو شئنا أعمينا أبصارهم . قال مجاهد ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدى : ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ يعنى : الطريق . وقال ابن زيد : يعنى بالصراط هاهنا : الحق ، ﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ وقد طمسنا على أعينهم ؟ وقال ابن عباس : ﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ : لا يبصرون الحق .

(١) مسلم (١٧/٢٩٦٩) ، والنسائى فى الكبرى (١١٦٥٣) .

(٢) مسلم (١٦/٢٩٦٨) وأبو داود (٤٧٣٠) .

(٣) المسند (١٥١/٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (٣٥١/١) : « إسناده جيد » .

وقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : أهلكناهم . وقال السدى :
يعنى : لغيرنا خلقهم . وقال أبو صالح : لجعلناهم حجارة . وقال الحسن البصرى ، وقتادة :
لأقعدهم على أرجلهم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا ﴾ أى : إلى أمام ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى : إلى وراء ،
بل يلزمون حالا واحداً ، لا يتقدمون ولا يتأخرون .

﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ١٨ ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا
يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ ١٩ ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى
الْكَافِرِينَ ﴾ ٢٠

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره ردّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط ،
كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤] . وقال عز وجل : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا
يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحج : ٥] . والمراد من هذا - والله أعلم - الإخبار عن هذه الدار بأنها دار
زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى : يتفكرون بعقولهم فى
ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى سن الشَّيْبَةِ ، ثم إلى الشيخوخة ؛ ليعلموا أنهم خلُقوا لدار
أخرى ، لا زوال لها ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها ، وهى الدار الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ : يقول تعالى مخبراً عن نبيه محمد ﷺ أنه
ما علمه الشعر ، ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أى : وما هو فى طبعه ، فلا يحسنه ولا يحبه ، ولا تقتضيه جِبِلَّتُهُ .
وثبت فى الصحيحين أنه ﷺ ، تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة ، ولكن
تبعاً لقول أصحابه ، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون ، فيقولون :

لَاهُمْ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِّينَا
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا
إِنَّ الْأَلَىٰ قَدْ بَغَوَا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا

ويرفع صوته بقوله : « أبينا » ويمدها (١) .

وكذلك ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب البغلة ، يُقدم بها فى نحور العدو :

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ (٢)

لكن قالوا : هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد
إليه .

(١) البخارى (٧٢٣٦) ، ومسلم (١٢٥/١٨٠٣) . (٢) البخارى (٢٨٦٤) ، ومسلم (٧٨/١٧٧٦) .

وكذلك ما ثبت في الصحيحين عن جُنْدَب بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غار فنكبت أصبعه ، فقال :

هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتَ وفي سبيل الله ما لَقِيتَ (١)

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما عُلِّم شعراً ولا ينبغي له ؛ فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ، ﴿ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] . وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ، ولا مفتعل ، ولا سحر يؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال . وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً .

روى الإمام أحمد عن أبي نوفل قال : سألت عائشة : أكان رسول الله ﷺ يتسامع عنده الشعر ؟ فقالت : كان أبغض الحديث إليه . وقال عن عائشة : كان رسول الله ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء ، ويدع ما بين ذلك (٢) .

وروى أبو داود عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً » . تفرد به من هذا الوجه ، وإسناده على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (٣) .

والمراد بذلك نظمه لا إنشاده ، والله أعلم . على أن الشعر فيه ما هو مشروع ، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام ، كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وأمثالهم وأضرابهم . ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب ، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية ، وقد أنشد بعض الصحابة منه للنبي ﷺ مائة بيت ، يقول عقب كل بيت : « هيه » . يعنى يستطعمه ، فيزيده من ذلك (٤) . وقد روى أبو داود من حديث أبي ابن كعب ، وعبد الله بن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ مِنْ الْبَيَانِ سِحْراً ، وَإِنْ مِنْ الشَّعْرِ حَكْماً » (٥) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ما علمه الله شعراً ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أى : وما يصلح له ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ أى : ما هذا الذى علمناه ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ أى : بين واضح جلى لمن تأمله وتدبره . ولهذا قال : ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ أى : لينذر هذا القرآن البين كلّ حى على وجه الأرض ، كقوله : ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وقال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] . وإنما ينتفع بنذارته من هو حى القلب ، مستنير البصيرة ، كما قال قتادة : حى القلب ، حى البصر . وقال الضحاك : يعنى : عاقلاً ﴿ وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى : هو رحمة للمؤمن ، وحجة على الكافر .

(٢) المسند (٦/١٤٨) وإسناده صحيح .

(٤) رواه مسلم (١/٢٢٥٥) .

(١) البخارى (٢٨٠٢) ، ومسلم (١٧٩٦/١١٢) .

(٣) أبو داود (٥٠٠٩) .

(٥) أبو داود (٥٠١٠ ، ٥٠١١) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ (٧١) ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ (٧٢) ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٧٣) ﴿

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ أي : جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بعير لآناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك ذليل منقاد معه . وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر ، لسار الجميع بسير صغير .

وقوله : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أي : منها ما يركبون في الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال ، إلى سائر الجهات والأقطار ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ إذا شأوا ونحروا واجتزروا ، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ ﴾ أي : من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴿ وَمَشَارِبٌ ﴾ أي : من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ، ونحو ذلك ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ؟ أي : أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره ، ولا يشركون به غيره ؟

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٧٤) ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ (٧٥) ﴿ فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنََّّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٧٦) ﴿

يقول تعالى منكرأ على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله ، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى . قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَهُمْ ﴾ أي : لا تقدر الآلهة على نصر عابديها ، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحق وأدحر ، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل .

وقوله : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ قال مجاهد : يعنى : عند الحساب ، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة ، محضرة عند حساب عابديها ؛ ليكون ذلك أبلغ في خزيهم ، وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم . وقال قتادة : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَهُمْ ﴾ يعنى : الآلهة ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ والمشركون يفضبون للآلهة في الدنيا وهي لا تسوق إليهم خيراً ، ولا تدفع عنهم سوءاً ، إنما هي أصنام . وهكذا قال الحسن البصرى . وهذا القول حسن ، وهو اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أي : تكذبيهم لك وكفرهم بالله ﴿ إِنََّّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي : نحن نعلم جميع ما هم عليه ، وسنجزئهم وصفهم ونعاملهم على ذلك ، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ، ولا صغيراً ولا كبيراً ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾

قال مجاهد ، وعكرمة ، وعروة بن الزبير ، والسُّدِّي ، وقتادة : جاء أُنبي بن خلف - لعنه الله - إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يُفْتَتُّه ويذريه في الهواء ، وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال : « نعم ، يميتك الله ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار » . ونزلت هذه الآيات من آخر « يس » : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُّطْفَةٍ ﴾ إلى آخرهن . وعن ابن عباس ، أن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففَتَّه بيده ، ثم قال لرسول الله ﷺ : أحيي الله تعالى هذا بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، يميتك الله ثم يحييك ، ثم يدخلك جهنم » . قال : ونزلت الآيات من آخر « يس » . وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات نزلت في أُنبي بن خلف ، أو العاص بن وائل ، أو فيهما ، فهي عامة في كل من أنكر البعث .

والألف واللام في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ ﴾ للجنس ، يعم كل منكر للبعث . ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ أى : أو لم يستدل من أنكر البعث بالبده على الإعادة ، فإن الله ابتداء خلق الإنسان من سلاله من ماء مهين ، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [المرسلات : ٢٠ - ٢٢] ، وقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان : ٢] أى : من نطفة من أخلاط متفرقة ، فالذى خلقه من هذه النطفة الضعيفة اليس بقادر على إعادته بعد موته ؟ كما روى الإمام أحمد عن بُسر بن جَحَّاش ؛ أن رسول الله ﷺ بَصَقَ يوماً في كفه ، فوضع عليها أصبعه ، ثم قال : « قال الله تعالى : ابن آدم ، أننى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سَوَّيتك وعدلتك ، مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بَلَغْتَ التراقي قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة ؟ » . ورواه ابن ماجه (١) .

ولهذا قال : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ؟ أى : استبعد إعادة الله تعالى - ذى القدرة العظيمة التى خلقت السموات والأرض - للأجساد والعظام الرميمة ، ونسى نفسه ، وأن الله خلقه من العدم ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحدته ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : يعلم العظام فى

(١) المسند (٤/ ٣١٠) وابن ماجه (٧٠٧-٢٧) وفى زوائد البوصيرى : « إسناد حديثه صحيح ورجاله ثقات » وحسنه الألبانى .

سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت ، وأين تفرقت وتمزقت . روى الإمام أحمد عن رباعي قال : قال عقبة بن عمرو لحذيفة : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعته يقول : « إن رجلاً حضره الموت ، فلما أيس من الحياة أوصى أهله : إذا أنا مت فاجمعوا لى حطباً كثيراً جزلاً ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى فامتحشت ، فخذوها فذروها فى اليم . ففعلوا ، فجمعه الله إليه فقال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك . فغفر الله له » . فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته يقول ذلك ، وكان نباشاً . وقد أخرجاه فى الصحيحين بالفاظ كثيرة ، منها : أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ، ثم يذروا نصفه فى البر ونصفه فى البحر ، فى يوم رائج ، أى : كثير الهواء - ففعلوا ذلك . فأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال له : كن . فإذا هو رجل قائم . فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : مخافتك وأنت أعلم . فما تلافاه أن غفر له « (١) .

وقوله : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ﴾ أى : الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً ، توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء . قال قتادة فى قوله : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ﴾ يقول : الذى أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر أن يبعثه . وقيل : المراد بذلك سرح المرح والعفار ، ينبت فى أرض الحجاز فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتولد النار من بينهما ، كالزناد سواء . روى هذا عن ابن عباس .

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِيرُ مَلَكُوتَهُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة فى خلق السموات السبع ، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال ، وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر : ٥٧] . وقال هاهنا : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أى : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم . قاله ابن جرير .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف : ٣٣] ، وقال : ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٣﴾ أى : يأمر بالشىء أمراً واحداً ، لا يحتاج إلى تكرار .

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقول : يا عبادى ، كلکم مذنّب إلا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم . وكلکم فقير إلا من أغنيت ، إني جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : تنزيه وتقديس وتبرئة من سوء للحي القيوم ، الذى بيده مقاليد السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر ، وإليه يرجع العباد يوم المعاد ، فيجازى كل عامل بعمله ، وهو المنعم المتفضل .

ومعنى قوله : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [المؤمنون : ٨٨] ، وكقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [الملك : ١] ، فالملك والملكوت واحد فى المعنى ، كرحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت ، وجبر وجبروت . ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والأول هو الصحيح ، وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

وقد روى أبو داود ، والترمذى فى الشمائل ، والنسائى ، عن حذيفة ؛ أنه رأى رسول الله ﷺ من الليل ، وكان يقول : « الله أكبر - ثلاثاً - ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » . ثم استفتح فقرأ البقرة ، ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه ، وكان يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » . ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحواً من ركوعه ، وكان يقول فى قيامه : « لربى الحمد » . ثم سجد ، فكان سجوده نحواً من قيامه ، وكان يقول فى سجوده : « سبحان ربى الأعلى » . ثم رفع رأسه من السجود ، وكان يقعد فيما بين السجدين نحواً من سجوده ، وكان يقول : « رب ، اغفر لى ، رب اغفر لى » . فصلّى أربع ركعات ، فقرأ فيهن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة - أو الأنعام - شك شعبة - هذا لفظ أبى داود (٢) . وروى أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعى قال : قمتُ مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة ، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ . قال : ثم ركع بقدر قيامه ، يقول فى ركوعه : « سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » . ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال فى سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ، ثم قرأ سورة سورة . ورواه الترمذى فى الشمائل ، والنسائى (٣) .

(١) المسند (١٧٧/٥) وإسناده حسن .

(٢) أبو داود (٨٧٤) ، والترمذى فى الشمائل (٢٦٠) ، والنسائى (١٠٦٩) وصححه الألبانى .

(٣) أبو داود (٨٧٣) ، والترمذى فى الشمائل (٢٩٦) ، والنسائى (١٠٤٩) وصححه الألبانى .

تفسير سورة الصفات

وهي مكية

روى النسائي عن عبد الله بن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصفات. تفرد به النسائي (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ﴾ ﴿ ١ ﴾ ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾ ﴿ ٢ ﴾ ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ ﴿ ٣ ﴾ ﴿ إِنَّ إِلَهُكُمُ لَوَاحِدٌ ﴾ ﴿ ٤ ﴾ ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴾ ﴿ ٥ ﴾

عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: ﴿ وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ﴾ وهى: الملائكة ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾ وهى: الملائكة ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ هى: الملائكة. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، وقتادة. قال قتادة: الملائكة صفوف فى السماء. وروى مسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تَرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ» (٢). وقد روى مسلم أيضاً، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ وَيَتَرَاصُونَ فِي الصَّفِّ» (٣).

وقال السدى وغيره: معنى قوله: ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾: أنها تزجر السحاب. وقال الربيع بن أنس: ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾: ما زجر الله عنه فى القرآن. وكذا روى مالك، عن زيد بن أسلم. ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ قال السدى: الملائكة يجيئون بالكتاب، والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ فَالْمُتْلِقَاتِ ذِكْرًا. عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴾ [المرسلات: ٥، ٦].

وقوله: ﴿ إِنَّ إِلَهُكُمُ لَوَاحِدٌ ﴾ هذا هو المقسم عليه؛ أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى: من المخلوقات ﴿ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ أى: هو المالك المتصرف فى الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشرق عن المغرب لدلالتهما عليه. وقد صرح بذلك فى قوله: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ [المعارج: ٤٠]. وقال فى الآية الأخرى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرحمن: ١٧]، يعنى: فى الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

(١) النسائي فى سننه (٨٢٦) وصححه الألبانى . (٢) مسلم (٥٥٢ / ٤) .

(٣) مسلم (٤٣٠ / ١١٩) وأبو داود (٦٦١) والنسائي فى سننه (٨١٦) وابن ماجه (٩٢٢) .

﴿ إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَن خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾، قرئ بالإضافة وبالبديل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوءها جرم السماء الشفاف، فتضيء لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلَّا مَن اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨]. وقوله هاهنا: ﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظاً ﴿مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ يعني: المتمرد العاتى إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ أى: لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهى السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحىه الله بما يقوله من شرعه وقدره. ولهذا قال: ﴿وَيُقَذَّفُونَ﴾ أى: يرمون ﴿مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أى: من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿دُحُورًا﴾ أى: رجما يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أى: فى الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجه مستمر، كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

وقوله: ﴿إِلَّا مَن خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أى: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهى الكلمة يسمعها من السماء فيلقىها إلى الذى تحته، ويلقىها الآخر إلى الذى تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقىها وربما ألقاها بقدر الله قبل أن يأتیه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أى: مستنير. روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كانت للشياطين مقاعد فى السماء فكانوا يستمعون الوحي. قال: وكانت النجوم لا تجرى، وكانت الشياطين لا ترمى. قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض، فزادوا فى الكلمة تسعاً. قال: فلما بعث رسول الله ﷺ، جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاء شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه. قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا من أمر حدث. قال: فبث جنوده، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى بين جبلين نخلة - قال وكيع: يعنى بطن نخلة - قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذى حدث (١). وستأتى الأحاديث الواردة مع الآثار فى هذا المعنى عند قوله تعالى إخباراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتِ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا. وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ - ١٠].

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ (١١) ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ (١٢) ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾ (١٣) ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ (١٤) ﴿ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (١٥) ﴿ أَوَلَمْ نَكُنَّا نَرَاكَ وَاعْظَمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (١٦) ﴿ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (١٧) ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (١٨) ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (١٩) ﴿

يقول تعالى : فسأل هؤلاء المنكرين للبعث : أيما أشد خلقاً هم أم السموات والأرض ، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة ؟ - وقرأ ابن مسعود : «أم من عددنا» - فإنهم يُقرّون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم ، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث ؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا ، كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] . ثم بين أنهم خلّقوا من شيء ضعيف ، فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك : هو الجيد الذي يلتزق بفضه ببعض . وقال ابن عباس ، وعكرمة : هو اللزج . وقال قتادة : هو الذي يلزق باليد .

وقوله : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أي : بل عجبت - يا محمد - من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب ، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها . وهم بخلاف أمرك ، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك . ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ أي : دلالة واضحة على ذلك ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : يستهزئون . ﴿ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أي : إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين ، ﴿ أَأَنْذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ . أو أبأؤنا الأولون ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به ، ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي : قل لهم يا محمد : نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون تراباً وعظاماً ، ﴿ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي : حقيرون تحت القدرة العظيمة ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلُّ أُنُوفَةٍ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل : ٨٧] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] . ثم قال : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي : إنما هو أمر واحد من الله عز وجل ، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض ، فإذا هم قيام بين يديه ، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة .

﴿ وَقَالُوا يَتَوَلَّىٰ هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٢٠) ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ (٢١) ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢) ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ (٢٣) ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ (٢٤) ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ (٢٥) ﴿ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ (٢٦) ﴿

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة ، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا ، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم حيث لا

ينفعهم الندم ، ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ . وهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ ، ويأمر الله الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ قال النعمان بن بشير : يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم . وكذا قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعن عمر : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ قال : أشباههم . يجىء صاحب الربا مع أصحاب الربا ، وصاحب الزنا مع أصحاب الزنا ، وصاحب الخمر مع أصحاب الخمر . ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ، تحشر معهم فى أماكنهم .

وقوله : ﴿ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أى : ارشدوهم إلى طريق جهنم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] . وقوله : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ أى : قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التى صدرت عنهم فى الدار الدنيا كما قال الضحاك ، عن ابن عباس : يعنى احبسوهم إنهم محاسبون . وقال عبد الله بن المبارك : سمعت عثمان بن زائدة يقول : إن أول ما يسأل عنه الرجل جلساؤه ، ثم يقال لهم على سبيل التقرير والتوبيخ : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ أى : كما زعمتم أنكم جميع منتصر ، ﴿ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ أى : منقادون لأمر الله ، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَغَيْنَ ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُونَ آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٢٧﴾

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون فى عرصات القيامة ، كما يتخاصمون فى دركات النار ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ . قال الذين استكبروا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿ [غافر : ٤٧ ، ٤٨] . وقال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ . قال الذين استكبروا لِلَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا أَنْحُنَّ صِدْدًا نَكُفُّ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وقال الذين اسْتَضَعْفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [سبا : ٣١-٣٣] . وهكذا قالوا لهم هاهنا : ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال ابن عباس : يقولون : كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا ؛ لأننا كنا أذلاء وكنتم أعزاء . وقال مجاهد : يعنى : عن الحق ، الكفار تقوله للشياطين . وقال قتادة : قالت الإنس

للجن : ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال : من قبل الخير ، فتنهونا عنه وتبطئونا عنه . وقال السدي : تأتوننا من قبل الحق ، تزينون لنا الباطل ، وتصدوننا عن الحق . وقال الحسن في قوله : ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ : إى والله ، يأتيه عند كل خير يريد فيصده عنه . وقال ابن زيد : معناه تحولون بيننا وبين الخير ، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذى أمرنا به . وقال يزيد الرشك : من قبل «لا إله إلا الله» . وقال خُصيف : يعنون من قبل ميامنهم . وقال عكرمة : ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال : من حيث نأمنكم . وقوله : ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ : تقول القادة من الجن والإنس للأتباع : ما الأمر كما تزعمون ، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان ، قابلة للكفر والعصيان ، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أى : من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ، ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ﴾ أى : بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق ؛ فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذى جاءكم به الأنبياء ، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به ، فخالفتموهم . ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ . فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ يقول الكبراء للمستضعفين : حقت علينا كلمة الله : أنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة ، ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أى : دعوناكم إلى الضلالة ، ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أى : دعوناكم إلى ما نحن فيه ، فاستجبتم لنا .

قال الله تعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أى : الجميع فى النار ، كل بحسبه ، ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ أى : فى الدار الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى : يستكبرون أن يقولوها ، كما يقولها المؤمنون . عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله ، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله ، وأنزل الله فى كتابه - وذكر قوما استكبروا - فقال : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾» (١) . ﴿وَيَقُولُونَ أَأَنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ أى : أنحن نترك عبادة آلِهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون ، يعنون رسول الله ﷺ ؟ ! قال الله تعالى تكذبا لهم ، وردا عليهم : ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى رسول الله ﷺ جاء بالحق فى جميع شرعة الله له من الإخبار والطلب ، ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى : صدقهم فيما أخبروه عنه من الصفات الحميدة ، والمناهج السديدة ، وأخبر عن الله فى شرعه وأمره كما أخبروا ، ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية [فصلت : ٤٣] .

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ (٢٨) ﴿وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٩) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٣٠) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ (٣١) ﴿فَوَكَّهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ (٣٢) ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (٣٣) ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٣٤) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ (٣٥) ﴿بِضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ (٣٦) ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ (٣٧) ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ (٣٨) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (٣٩) ﴿﴾ (٤٠)

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين ، كما قال تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١-٣] . وقال : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤-٦] ، وقال : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا . ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ ، ٧٢] ، وقال : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨ ، ٣٩] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى : ليسوا يذوقون العذاب الأليم ، ولا يناقشون فى الحساب ، بل يتجاوز عن سيئاتهم ، إن كان لهم سيئات ، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، إلى ما يشاء الله من التضعيف .

وقوله جل وعلا : ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ قال قتادة ، والسدى : يعنى الجنة . ثم فسره بقوله تعالى : ﴿فَوَآكِهِ﴾ أى : متنوعة ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ أى : يُخْدَمُونَ ويرفَهُون وينعمون ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ قال مجاهد : لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض .

وقوله : ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ . بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ . لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ . لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ - ١٩] ، فنزه الله خمر الجنة عن الآفات التى فى خمر الدنيا ، من صداع الرأس ووجع البطن - وهو الغول - وذهابها بالعقل جملة ، فقال هاهنا : ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ أى : بخمر من أنهار جارية ، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها . قال زيد بن أسلم : خمر جارية بيضاء ، أى : لونها مشرق حسن بهى لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردىء ، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة ، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم .

وقوله : ﴿لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ أى : طعامها طيب كلونها ، وطيب الطعام دليل على طيب الريح ، بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك . وقوله : ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعنى : لا تؤثر فيهم غولا ، وهو وجع البطن - قاله ابن عباس ، مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد - كما تفعله خمر الدنيا من القولنج ونحوه ، لكثرة مايتها . وقال قتادة : هو صداع الرأس ، ووجع البطن . وعن السدى : لا تغتال عقولهم ، وقال سعيد بن جبیر : لا مكروه فيها ولا أذى . والصحيح قول مجاهد : أنه وجع البطن . وقوله : ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ قال مجاهد : لا تذهب عقولهم ، وكذا قال ابن عباس ، والحسن ، وعطاء الخراسانى ، وغيرهم . وقال الضحاك ، عن ابن عباس : فى الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقىء ، والبول . فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال ، كما ذكر فى سورة «الصافات» .

وقوله : ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرْفِ﴾ أى : عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن . كذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم . وقوله : ﴿عِينٌ﴾ أى : حسان الأعين . وقيل : ضخام الأعين . وهو يرجع إلى الأول ، وهى النجلاء العيناء ، فوصف عيونهن بالحسن والعفة ، كقول زليخا فى يوسف

عليه السلام حين جملة وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمته وأكبرته، وظن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أى: هو مع هذا الجمال عفيف تقى نقى، وهكذا الحور العين ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرْفِ عِينٌ﴾.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾: وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان. قال ابن عباس: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون. وقال الحسن: يعنى: محصنون لم تمسه الأيدي. وقال السدى: البيض فى عشه مكنون. وقال سعيد بن جبیر: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾، يعنى: بطن البيض. وقال عطاء الخراسانى: هو السحاء الذى يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة. وقال السدى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يقول: بياض البيض حين ينزع قشره. واختاره ابن جرير لقوله: ﴿مَكْنُونٌ﴾، قال: والقشرة العليا يمسه جناح الطير والعش، وتناولها الأيدي بخلاف داخلها، والله أعلم.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٥٠ ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ ٥١
يَقُولُ أَهْلَكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ ٥٢ ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ ٥٣ ﴿قَالَ هَلْ أَنَسُّ مُتِّلِعُونَ﴾ ٥٤ ﴿فَاطْلَعَ فَرَّاءٌ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ٥٥ ﴿قَالَ تَأَلَّهْ إِنْ كِدْتَ لِتَزِدَّ لِتَزِيدَ ٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ ٥٧ ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ﴾ ٥٨ ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ٥٩ ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ٦٠ ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ ٦١ ﴿

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أى: عن أحوالهم، وكيف كانوا فى الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها؛ وذلك من حديثهم على شرابهم، واجتماعهم فى تنادهم وعشرتهم فى مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم، من مأكّل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال مجاهد: يعنى شيطاناً. وقال ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان فى الدنيا. ولا تنافى بين كلام مجاهد، وابن عباس؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس فى النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان، وكلاهما متعاونان، قال الله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. وكل منهما يوسوس، كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٤ - ٦] ؛ ولهذا ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَتُنْكَلُ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أى: أنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعنى: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، ﴿أَنذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ قال مجاهد، والسدى: لمحاسبون؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب

القرطبي : لمجزيون بأعمالنا ؟ وكلاهما صحيح .

قال تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾ أى : مشرفون . يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ﴿ فَاطَّلِعْ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، يعنى فى وسط الجحيم . وقال الحسن البصرى : فى وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد . ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴾ ، يقول المؤمن مخاطباً للكافر : والله إن كدت لتهلكنى لو أطعته ، ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أى : ولولا فضل الله على لكنت مثلك فى سواء الجحيم حيث أنت ، محضر معك فى العذاب ، ولكنه تفضل ورحمنى فهدانى للإيمان ، وأرشدنى إلى توحيده ، ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

وقوله : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ : هذا من كلام المؤمن مغبطاً نفسه بما أعطاه الله من الخلد فى الجنة والإقامة فى دار الكرامة ، لا موت فيها ولا عذاب ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ . قال ابن عباس ، فى قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٩] ، قال ابن عباس : قوله : ﴿ هَنِيئًا ﴾ أى : لا يموتون فيها . فعندها قالوا : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ . وقال الحسن البصرى : علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه ، فقالوا : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ ، قيل : لا . قالوا : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ . وقوله : ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ قال قتادة : هذا من كلام أهل الجنة . وقال ابن جرير : هو من كلام الله تعالى ، ومعناه : لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون فى الدنيا ، ليصيروا إليه فى الآخرة .

﴿ أَدْلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ ١٢ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ ١٣ ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ ١٤ ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ ١٥ ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ تَوَنَّا ﴾ ١٦ ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ ١٧ ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ ١٨ ﴿ إِنَّهُمْ أَلفَاءُ أَبَاءٍ مِّنْ ذُرِّيَّتِهِمْ يَسْرِعُونَ ﴾ ١٩ ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ عَذَابٍ مُّهِينٍ ﴾ ٢٠ ﴿

يقول الله تعالى : أهذا الذى ذكره من الجنة وما فيها من مأكّل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ ، خير ضيافة وعطاء ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ ؟ أى : التى فى جهنم . وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة ، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر ، يقال له : الزقوم ، كقوله تعالى : ﴿ وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٌ لِلْكَالِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٠] ، يعنى الزيتون . ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَهْلُ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَا تَكُونُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَقُّومٍ ﴾ [الواقعة : ٥١ ، ٥٢] .

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ قال قتادة : ذكرت شجرة الزقوم ، فافتتن بها أهل الضلالة ، وقالوا : صاحبكم ينبئكم أن فى النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ، فأنزل الله عز

وجل : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ غدت من النار ، ومنها خلقت . وقال مجاهد : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ ، قال أبو جهل - لعنه الله - : إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه . قلت : ومعنى الآية : إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختباراً نختبر به الناس ، من يصدق منهم ممن يكذب ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٦٠] .

وقوله : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ أى : أصل منبتها فى قرار النار ، ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ تبشيع لها وتكريه لذكرها . وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين ؛ لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر .

وقوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَا لَئُونٌ مِنْهَا الْبُطُونُ ﴾ : ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التى لا أبشع منها ، ولا أقبح من منظرها ، مع ما هى عليه من سوء الطعم والريح والطبع ، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها ، لأنهم لا يجدون إلا إياها ، وما فى معناها ، كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ . لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ [الغاشية : ٦ ، ٧] . وروى ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ، وقال : « اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا ، لأفسدت على أهل الأرض معاشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟ » . ورواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح (١) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ قال ابن عباس : يعنى شرب الحميم على الزقوم . وقال فى رواية عنه : ﴿ شَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ : مزجا من حميم . وقال غيره : يعنى يمزج لهم الحميم بصديد وغساق ، مما يسيل من فروجهم وعيونهم .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ أى : ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لى نار تتأجج ، وجحيم تتوقد ، وسعير تتوهج ، فتارة فى هذا وتارة فى هذا ، كما قال تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ ﴾ [الرحمن : ٤٤] . هكذا تلا قتادة هذه الآية ، وهو تفسير حسن قوى . وقال السدى فى قراءة عبد الله : « ثم إن مقيلمهم لى الجحيم » وكان عبد الله يقول : والذى نفسى بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار . ثم قرأ : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٤] . وعن عبد الله قال : لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء . قال سفيان : أراه ، ثم قرأ : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ ، « ثم إن مقيلمهم لى الجحيم » . قلت : على هذا التفسير تكون « ثم » عاطفة لخبر على خبر . وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ أى : إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك ، من غير دليل ولا برهان ؛ ولهذا قال : ﴿ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ قال مجاهد : شبيهة بالهرولة . وقال سعيد بن جبیر : يسفهون .

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٠٢) من آل عمران .

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى. وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، يندرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم. فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم؛ ولهذا قال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾. إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ.

﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً، عليه السلام، وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة. لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعى ربه أنى مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أى: فلنعم المجيبون له، ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو التكذيب والأذى، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام. وقال قتادة فى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام. وروى الإمام أحمد: عن سمرة؛ أن نبى الله ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم». ورواه الترمذى (١). والمراد بالروم هاهنا: هم الروم الأول، وهم اليونان المنتسبون إلى رومى بن ليطى بن يونان بن يافث بن نوح، عليه السلام.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾، قال ابن عباس: يذكر بخير. وقال مجاهد: يعنى لسان صدق للأنبياء كلهم. وقال قتادة والسدى: أبقى الله عليه الثناء الحسن فى الآخرين. قال الضحاك: السلام والثناء الحسن. وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه فى جميع الطوائف والأمم. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: هكذا نجزي من أحسن من العباد فى طاعة الله، نجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته فى ذلك. ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: المصدقين الموحدين الموقنين، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أى: أهلكتناهم، فلم يبق منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ ٨٣ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ ٨٤ ﴾ إِذْ قَالَ رَبِّ
لَأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿ ٨٥ ﴾ أَفَكَاةً إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿ ٨٦ ﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿ ٨٧ ﴾

قال ابن عباس : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ يقول : من أهل دينه . وقال مجاهد : على منهاجه
وسنته . ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قال ابن عباس : يعنى : شهادة أن لا إله إلا الله .

وقال الحسن : سليم من الشرك ، وقال عروة : لا يكون لعانا .

وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ : أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ؛ ولهذا قال :
﴿ أَفَكَاةً إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال قتادة : يعنى : ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا
لقيتموه وقد عبدتم معه غيره ؟!

﴿ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ ٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿ ٨٩ ﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿ ٩٠ ﴾ فَرَاغَ
إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿ ٩١ ﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿ ٩٢ ﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿ ٩٣ ﴾
فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ ﴿ ٩٤ ﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿ ٩٥ ﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿ ٩٦ ﴾ قَالُوا
أَبْنَاؤُا لَمْ يَتَنَا فَآلِقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿ ٩٧ ﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿ ٩٨ ﴾

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ؛ ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه
كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يختلى بآلهتهم فيكسرهما ، فقال لهم كلاما هو
حق فى نفس الأمر ، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه ، ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ قال قتادة :
والعرب تقول لمن تفكر : نظر فى النجوم : يعنى قتادة : أنه نظر فى السماء متفكرا فيما يلهيهم به ،
فقال : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أى : ضعيف . فأما الحديث الذى رواه ابن جرير عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله
ﷺ قال : « لم يكذب إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، غير ثلاث كذبات : ثنتين فى ذات الله ،
قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [الأنبياء : ٦٣] ، وقوله فى سارة : هى أختى » (١) .
فهو حديث مخرج فى الصحاح والسنن من طرق ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى
الذى يذم فاعله ، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزا ، وإنما هو من المعارض فى
الكلام لمقصد شرعى دينى ، كما جاء فى الحديث : « إن فى المعارض لمدوحة عن الكذب » (٢) .
قال سفيان فى قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ يعنى : طعين . وكانوا يفرون من المطعون ، فأراد أن يخلو
بآلهتهم . وقال آخرون : فقال : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل ، يعنى : مرض الموت . وقيل :
أراد ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أى : مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى .

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٣ / ٤٥) . وهو فى البخارى (٣٣٥٨) والترمذى (٣١٦٦) .

(٢) البيهقى فى السنن الكبرى (١٠ / ١٩٩) عن عمران بن الحصين ، مرفوعا وموقوفا ، والموقوف أصح .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أى : إلى عيدهم ، ﴿ فَرَاغَ إِلَى آلِهِمْ ﴾ أى : ذهب إليها بعد أن خرجوا فى سرعة واختفاء ، ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتبارك لهم فيه .

وقوله : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ قال الفراء : معناه : مال عليهم ضربا باليمين . وقال قتادة والجوهري : فأقبل عليهم ضربا باليمين . وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى ؛ ولهذا تركهم جزاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ، كما تقدم فى سورة الأنبياء تفسير ذلك . وقوله هاهنا : ﴿ فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : أى يسرعون . وهذه القصة هاهنا مختصرة ، وفى سورة الأنبياء مبسطة ، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا ، فعرفوا أن إبراهيم ، عليه السلام ، هو الذى فعل ذلك . فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ فى تأنيبهم وعيبتهم ، فقال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ ؟! أى : أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم ؟! ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يحتمل أن تكون «ما» مصدرية ، فيكون تقدير الكلام : والله خلقكم وعملكم . ويحتمل أن تكون بمعنى «الذى» تقديره : والله خلقكم والذى تعملونه . وكلا القولين متلازم ، والأول أظهر . فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر ، فقالوا : ﴿ ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه فى سورة الأنبياء ، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم ، وأعلى حجته ونصرها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ ﴿ ٩٩ ﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ ١٠٠ ﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿ ١٠١ ﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَّبِعُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿ ١٠٢ ﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿ ١٠٣ ﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّبِعْهُمَا ﴿ ١٠٤ ﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ ١٠٥ ﴾ إِنَّ هَذَا لَكُوْا الْبَلَاءُ الْمَيْنِ ﴿ ١٠٦ ﴾ وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿ ١٠٧ ﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿ ١٠٨ ﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿ ١٠٩ ﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ ١١٠ ﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ١١١ ﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ ١١٢ ﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿ ١١٣ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم عليه السلام : أنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة ، هاجر من بين أظهرهم ، وقال : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ، يعنى : أولادا مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم . قال الله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام ، فإنه أول

ولد بشر به إبراهيم، عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ لإبراهيم، عليه السلام، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيداً، وفي نسخة: بكره، فأقحموا هاهنا كذباً وبهتاناً «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحرّفوا وحيدك، بمعنى الذى ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب مكة. وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: «وحيد» إلا لمن ليس له غيره، وأيضاً فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ فى الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكى ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضاً، وليس ذلك فى كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١]، أى: يولد له فى حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أى: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشى معه. وقد كان إبراهيم، عليه السلام، يذهب فى كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد «فاران» وينظر فى أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك، فالله أعلم. وعن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ يعنى: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل، ﴿فَلَمَّا قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحى، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾. وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه.

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أى: امض لما أمرك الله من ذبحى ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أى: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل. وصدق، صلوات الله وسلامه عليه، فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥]. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أى: فلما شهدا وذكر الله تعالى إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت. وقيل: ﴿أَسْلَمَا﴾، يعنى: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمر الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة والسدى وغيرهم. ومعنى ﴿تَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أى: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، والضحاك، وقتادة: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾: أكبه على وجهه. وروى

الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال : لما أمر إبراهيم بالمناسك عَرَضَ له الشيطان عند المسعى ، فسابقه فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ، وثُمَّ تَلَّه للجبين ، وعلى إسماعيل قميص أبيض ، فقال له : يا أبت ، إنه ليس لى ثوب تكفنى فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفنى فيه . فعالجه ليخلعه ، فنودى من خلفه : ﴿ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَقْتَ الرَّءْيَا ﴾ ، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين . قال ابن عباس : لقد رأينا نتبع ذلك الضرب من الكباش (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَقْتَ الرَّءْيَا ﴾ أى : قد حصل المقصود من رؤياك وإضجاعك ولدك للذبح . وذكر السدى وغيره أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً ، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس ، ونودى إبراهيم ، عليه السلام ، عند ذلك : ﴿ قَدْ صَدَقْتَ الرَّءْيَا ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى : هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجاً ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] . قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ أى : الاختبار الواضح الجلى ؛ حيث أمر بذبح ولده ، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله ، متقاداً لطاعته ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم : ٢٧] .

وقوله : ﴿ وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ عن ابن عباس قال : الصخرة التى بمبنى بأصل ثبير هى الصخرة التى ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه ، وقال مجاهد : ذبحه بمبنى عند المنحر . وعن ابن عباس : كان أفتى الذى جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه ، فأمره بمائة من الإبل . ثم قال بعد ذلك : لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشاً ، فإن الله تعالى قال فى كتابه : ﴿ وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ . والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه فدى بكبش . وقد روى الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتنى امرأة من بنى سليم - وكدت عامة أهل دارنا - أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة - وقال مرة : إنها سألت عثمان : لم دعاك النبي ﷺ؟ قال : قال : «إني كنت رأيت قرني الكبش ، حين دخلت البيت ، فنسيت أن أمرك أن تخمرهما ، فخرهما ، فإنه لا ينبغي أن يكون فى البيت شيء يشغل المصلى» . قال سفيان : لم يزل قرنا الكبش معلقين فى البيت حتى احترق البيت ، فاحترقا (٢) . وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل ، عليه السلام ، فإن قریشا توارثوا قرني الكبش الذى فدى به إبراهيم خلفاً عن سلف وجيلاً بعد جيل ، إلى أن بعث الله رسوله ﷺ .

وقوله : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ : لما تقدمت البشارة بالذبيح - وهو إسماعيل - عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق . وقوله : ﴿ نَبِيًّا ﴾ حال مقدرة ، أى : سيصير منه نبي من الصالحين . وقوله : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ كقوله تعالى :

(١) المسند (٢٧٠٧) وقال الشيخ شاكر : «إسناده صحيح» .

(٢) المسند (٦٨ / ٤) ، وأبو داود (٢٠٣٠) ، وصححه الألبانى .

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنَمَتُّهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمُ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: ٤٨].

﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْفَالِقِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٢٢﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، وغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال هاهنا: ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ. وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى: فى الأقوال والأفعال ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى: أبقينا لهما من بعدهما ذكرا جميلا وثناء حسنا، ثم فسر بقوله: ﴿ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تُتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴿١٢٥﴾ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٦﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُم لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٨﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٩﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٠﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣١﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قال قتادة، وابن إسحاق، يقال: إلياس هو إدريس. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: إلياس هو إدريس. وكذا قال الضحاك. ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تُتَّقُونَ ﴾ أى: ألا تخافون الله فى عبادتكم غيره ؟ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة: ﴿ بَعْلًا ﴾ يعنى: ربا. قال قتادة وعكرمة: وهى لغة أهل اليمن. وفى رواية عن قتادة قال: هى لغة أزد شنوءة. وقال ابن إسحاق: أخبرنى بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها: «بعل». وقال زيد بن أسلم: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها: «بعلبك»، غربى دمشق. وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه.

وقوله: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أى: أتعبدون صنما؟ ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له. قال الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُم لَمُحْضَرُونَ ﴾

أى للعذاب يوم الحساب ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى : الموحدين منهم . وقوله : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أى : ثناء جميلا ، ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾ كما يقال فى إسماعيل : إسماعيل . وهى لغة بنى أسد . وقرأ آخرون : «سلام على إدراسين» ، وهى قراءة ابن مسعود . وآخرون : «سلام على آل ياسين» ، يعنى : آل محمد ﷺ . وقوله : ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ قد تقدم تفسيره .

﴿وَإِنَّ لُوطًا لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٣٣ ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ١٣٤ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ ١٣٥ ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ ١٣٦ ﴿وَإِنَّا لَنُؤْتِيهِمْ مُّصْبِحِينَ﴾ ١٣٧ ﴿وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ١٣٨

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط ، عليه السلام ، أنه بعثه إلى قومه فكذوبه ، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله ، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها ، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات ، وجعل محلّتهم من الأرض بحيرة متّنة قبيحة المنظر والطعم والريح ، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا ؛ ولهذا قال : ﴿وَإِنَّا لَنُؤْتِيهِمْ مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى : أفلا تعتبرون بهم ، كيف دمر الله عليهم ، وتعلمون أن للكافرين أمثالها ؟

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٣٩ ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ ١٤٠ ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ ١٤١ ﴿فَالْقَمَّةَ الْخَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ١٤٢ ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ١٤٣ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ١٤٤ ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ١٤٥ ﴿وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ ١٤٦ ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ١٤٧ ﴿فَأَمْنُوا فَرَعَنَّهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ١٤٨

ربع

قد تقدمت قصة يونس ، عليه السلام ، فى سورة الأنبياء . وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أمه (١) ، وفى رواية قيل : إلى أبيه . وقوله : ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال ابن عباس : هو الموقر ، أى : المملوء بالأمّعة ﴿فَسَاهَمَ﴾ أى : قارع ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أى : المغلوبين . وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب ، وأشرفوا على الفرق ، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقي فى البحر ، لتخف بهم السفينة ، ف وقعت القرعة على نبي الله يونس ، عليه الصلاة والسلام ، ثلاث مرات ، وهم يضمنون به أن يلقي من بينهم ، فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك . وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر أن يشق البحار ، وأن يلتقم يونس ، عليه السلام ، فلا يَهْشِمُ له لحما ، ولا يكسر له عظما . فجاء ذلك الحوت وألقى يونس ، عليه السلام ، نفسه ،

فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس فى بطن الحوت، حسب أنه قد مات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حى، فقام يصلى فى بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: «يا رب، اتخذتُ لك مسجداً فى موضع لم يبلغه أحد من الناس» واختلفوا فى مقدار ما لبث فى بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، وقيل: سبعة، وقيل: أربعين يوماً. وقال الشعبي: التقمه ضحى، وقذفه عشية. والله أعلم بمقدار ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾، قيل: لولا ما تقدم له من العمل فى الرخاء. قاله الضحاك بن قيس، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير. وفى حديث عن ابن عباس: «تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَةِ» (١). وقال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وعطاء بن السائب، وقتادة: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ يعنى: المصلين. وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك. وقال بعضهم: كان من المسبحين فى جوف أبويه. وقيل: المراد: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ هو قوله: ﴿ فَنادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، قاله سعيد بن جبيرة وغيره.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَبَيِّنَّا ﴾ أى: ألقيناه ﴿ بِالْعُرَاءِ ﴾ قال ابن عباس وغيره: وهى الأرض التى ليس بها نبت ولا بناء. قيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. قاله أعلم. ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أى: ضعيف البدن. قال ابن مسعود، كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدى: كهيئة الصبى حين يولد، وهو المنفوس. وقاله ابن عباس، وابن زيد أيضا. ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع. وعن سعيد بن جبيرة: وكل شجرة لا ساق لها فهى من اليقطين. وفى رواية عنه: كل شجرة تهلك من عامها فهى من اليقطين. وذكر بعضهم فى القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبه وقشره أيضا. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يُحِبُّ الدُّبَّاءَ، ويتبعه من نواحي الصَّحْفَةِ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت. رواه ابن جرير. وقال مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت. قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولا، أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به.

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال ابن عباس - فى رواية عنه: بل يزيدون، وكانوا مائة

(١) المسند (٢٦٦٩)، وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، والترمذى (٢٥١٦)، وقال: «حسن صحيح».

(٢) البخارى (٥٤٣٩).

وثلاثين ألفاً. وعنه : مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً. قال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول فى ذلك : معناه إلى المائة الألف ، أو كانوا يزدون عندكم ، يقول : كذلك كانوا عندكم. ولهذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة : ٧٤] ، وقوله : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء : ٧٧] ، وقوله : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [النجم : ٩] أن المراد ليس أنقص من ذلك ، بل أزيد . وقوله : ﴿ فَأَمْنُوا ﴾ أى : فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس ، عليه السلام ، جميعهم ﴿ فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ أى : إلى وقت آجالهم ، كقوله : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨] .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ ﴿ ١٤٩ ﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿ ١٥٠ ﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهمْ لَيَقُولُونَ ﴿ ١٥١ ﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿ ١٥٢ ﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿ ١٥٣ ﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿ ١٥٤ ﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ ١٥٥ ﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿ ١٥٦ ﴾ فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ ١٥٧ ﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿ ١٥٨ ﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿ ١٥٩ ﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿ ١٦٠ ﴾

يقول تعالى منكرأ على هؤلاء المشركين فى جعلهم لله البنات ، سبحانه ، ولهم ما يشتهون ، أى : من الذكور ، أى : يودون لأنفسهم الجيد . ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل : ٥٨] أى : يسوؤه ذلك ، ولا يختار لنفسه إلا البنين . يقول عز وجل : فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذى لا يختارونه لأنفسهم ؟ ولهذا قال : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ أى : سلهم على سبيل الإنكار عليهم : ﴿ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ كقوله : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [النجم : ٢١ ، ٢٢] .

وقوله : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ أى : كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم ؟ كقوله : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] أى : يسألون عن ذلك يوم القيامة . وقوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهمْ ﴾ أى : من كذبهم ﴿ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ ﴾ أى : صدر منه الولد ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ، فذكر الله عنهم فى الملائكة ثلاثة أقوال فى غاية الكفر والكذب ، فأولا جعلوهم بنات الله ، فجعلوا لله ولداً . وجعلوا ذلك الولد أنثى ، ثم عبدوهم من دون الله . وكل منها كاف فى التخليد فى نار جهنم . ثم قال منكرأ عليهم : ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ أى : أى شىء يحمله عن أن يختار البنات دون البنين ؟ كقوله : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً ﴾ [الإسراء : ٤٠] ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أى : ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ؟ ﴿ أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٦١﴾ أى : حجة على ما تقولونه ﴿ فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب مُنْزَلٍ من السماء عن الله : أنه اتخذ ما تقولونه ، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل ، بل لا يُجَوِّزُهُ العقل بالكلية .

وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا ﴾ قال مجاهد : قال المشركون : الملائكة بناتُ الله . فسأل أبو بكر : فمن أمهاتهن ؟ قالوا : بنات سرّوات الجن . وكذا قال قتادة ، وابن زيد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ ﴾ أى : الذين نسبوا إليهم ذلك : ﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى : إن الذين قالوا ذلك لمحضرون فى العذاب يوم الحساب لكذبهم فى ذلك وافتراءهم ، وقولهم الباطل بلا علم . وقوله : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ أى : تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد ، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً . وقوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل .

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦٢﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٣﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٤﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٧﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٨﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٩﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٧٠﴾ فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً للمشركين : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴾ أى : إنما ينقاد لمقالتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذرئ للنار ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الاعراف : ١٧٩] . فهذا الضرب من الناس هو الذى ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ . يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ﴾ [الذاريات : ٨ ، ٩] أى : إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل .

ثم قال تعالى مُنْزَهاً للملائكة عما نسبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ أى : له موضع مخصوص فى السماوات ومقامات العبادة لا يتجاوزها ولا يتعداه . وقال الضحاك فى تفسيره : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ قال : كان مسروق يروى عن عائشة ، رضى الله عنها ، أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم » . فذلك قوله : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ (١) . ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ أى : نقف صفوفاً فى الطاعة ، كما تقدم عند قوله : ﴿ وَالصَّافَّاتُ صَفًّا ﴾ قال الوليد بن عبد الله بن أبى مغيث : كانوا لا يصفون فى الصلاة حتى نزلت : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ ،

(١) مشكل الآثار للطحاوى (٤٣ / ٢) ، والحديث رواه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٨٥٢) ، وقال : « إسناد صحيح على شرط مسلم ، وفى ابن عطاء كلام لا يضر » .

فصفوا. وقال أبو نضرة: كان عمر إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، يريد الله بكم هدى الملائكة، ثم يقول: ﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾، تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر. وفي صحيح مسلم عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِداً، وَتَرَبَّتْهَا طَهُوراً» الحديث (١).

﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أى: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه. وقال ابن عباس، ومجاهد: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾: الملائكة ﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾: الملائكة يسبحون الله عز وجل. وقال قتادة: ﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ يعنى: المصلون، يثبتون بمكانهم من العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلِداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يُسَبِّقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَلَنُكْزِلَنَّهُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الانباء: ٢٦ - ٢٩].

وقوله: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ . لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ [فاطر: ٤٢]، وقال: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَكُفِّرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم - عز وجل - وتكذيبهم - رسوله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿١٧٣﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿١٧٤﴾ ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٧٥﴾ ﴿أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿١٧٦﴾ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ ﴿١٧٧﴾ ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿١٧٨﴾ ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: تقدم فى الكتاب الأول أن العاقبة للرسول وأتباعهم فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا وَأَنَّهُمْ لَنُفْلِحَنَّ إِنَّا نَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ أى: فى الدنيا

والآخرة. كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم من كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين: ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أى: تكون لهم العاقبة. وقوله جل وعلا: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ أى: اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإننا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر؛ ولهذا قال بعضهم: نسا ذلك إلى يوم بدر. وما بعدها أيضاً فى معناها.

وقوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُصِرُّونَ﴾ أى: أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك؛ ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿فَسَوْفَ يُصِرُّونَ﴾. ثم قال عز وجل: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أى: فإذا نزل العذاب بمحلتهم، فبئس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكهم ودمارهم. قال السدى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعنى: بدارهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أى: فبئس ما يتصبحون، أى: بئس الصباح صباحهم؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين عن أنس، قال: صَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرٌ، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس. فقال النبى ﷺ: «الله أكبر، خربت خير، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» (١). وروى الإمام أحمد عن أبى طلحة قال: لما صَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرٌ، وقد أخذوا مساحيهم وغدّوا إلى حروثهم وأرضيهم، فلما رأوا النبى ﷺ نكصوا مدبرين، فقال نبى الله ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» (٢). لم يخرجوه من هذه الوجه، وهو صحيح على شرط الشيخين.

وقوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ. وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُصِرُّونَ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

ينزه تعالى نفسه ويقدها ويرثها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون - تعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً - ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أى: ذى العزة التى لا تُرَامُ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: عن قول هؤلاء المعتدين المفتريين، ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: سلام الله عليهم فى الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه فى ربهم، وصحته وحقيقته، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: له الحمد فى الأولى والآخرة فى كل حال. ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة،

(١) البخارى (٣٧١، ٤١٩٧) ومسلم (١٣٦٥ / ١٢٠).

(٢) المسند (٢٨ / ٤).

ويستلزم التنزيه من النقص - قرن بينهما في هذا الموضع ، وفي مواضع كثيرة من القرآن ؛ ولهذا قال : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » (١) . وقد أفردت لها جزءا على حدة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) انظر على سبيل المثال : المسند (٣ / ٤٥٠) والترمذي (٣٤٣٣) وأبو داود (٤٨٥٨) والحاكم في المستدرک (١ / ٥٣٦ ، ٥٣٧) .

تفسير سورة ص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة « البقرة » بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله تعالى: ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ أى: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم في المعاش والمعاد. قال الضحاك فى قوله: ﴿ ذِي الذِّكْرِ ﴾ كقوله: ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء: ١٠] أى: تذكيركم. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإسماعيل بن أبى خالد: ﴿ ذِي الذِّكْرِ ﴾: ذى الشرف، أى: ذى الشأن والمكانة. ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار. واختلفوا فى جواب هذا القسم، فقال بعضهم: هو قوله: ﴿ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلُ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴾ [ص: ١٤]. وقال قتادة: جوابه: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾، واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ أى: إن فى هذا القرآن لذكراً لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿ فِي عِزَّةٍ ﴾ أى: استكبار عنه وحمية، ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أى: ومخالفة له ومعاندة ومفارقة.

ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسول وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء، فقال: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أى: من أمة مكذبة، ﴿ فَنَادَوا ﴾ أى: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله. وليس ذلك بمجد عنهم شيئاً. كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٢] أى: يهربون، ﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٣].

وقال ابن عباس: ليس بحين مغاث. وقال محمد بن كعب فى قوله: ﴿ فَنَادَوا وَلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴾، يقول: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستنصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم. وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة فى غير حين النداء. وقال مجاهد: ليس بحين فرار ولا إجابة. وقد روى نحو هذا عن عكرمة، وسعيد بن جبير، وأبى مالك، والضحاك، وزيد بن أسلم، والحسن، وقتادة.

وهذه الكلمة وهى «لات»، هى «لا» التى للنفى، زيدت معها «التاء»، كما تزداد فى «ثم»، فيقولون: «ثمت»، و«رب» فيقولون: «ربت». وهى مفصولة، والوقف عليها. ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بحين: «ولا تحين مناص». والمشهور الأول. ثم قرأ الجمهور بنصب «حين»، تقديره: وليس الحين حين مناص. ومنهم من جوز النصب بها، ومنهم من جوز الجر بها. وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أى: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿٤﴾ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصِبُوا عَلَىٰ هَٰذَا لَوْلَا آلِهَتُهُمْ بِمَا هُمْ يُرَادُّ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿٧﴾ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَاهِنًا لَمْ يَهُزُوكَ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى تعجبهم من بعثة الرسول الله ﷺ بشيرا ونذيرا، كما قال عز وجل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٢]. وقال هاهنا: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أى: بشر مثلهم، ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾. أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا أى: أزعجهم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟! أنكر المشركون ذلك - قبحهم الله تعالى - وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾. وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ وهم ساداتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿آمَسُوا﴾ أى: استمروا على دينكم ﴿وَاصِبُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ﴾ قال ابن جرير: إن هذا الذى يدعونا إليه محمد من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم، والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا نجيبه إليه.

ذكر سبب نزول هذه الآيات :

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهم، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته؟ فبعث إليه، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشى أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه. فوثب فجلس فى ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسا قرب عمه، فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب:

أى ابن أخى، ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول؟ قال: وأكثرها عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: « يا عم، إني أريدكم على كلمة واحدة! يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية»، ففرعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة! نعم وأبيك عشرا، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأى كلمة هي يا ابن أخى؟ فقال: « لا إله إلا الله»، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾. وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائي نحوه، ورواه الترمذى، نحوه. وقال الترمذى: حسن (١). وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أى: ما سمعنا بهذا الذى يدعوننا إليه محمد من التوحيد فى الملة الآخرة. قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: يعنون دين قريش. وقال غيرهم: يعنون النصرانية، قاله محمد بن كعب، والسدى. وقال ابن عباس: يعنى: النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقا أخبرتنا به النصارى. ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾: قال مجاهد، وقتادة: كذب، وقال ابن عباس: تخرص.

وقولهم: ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعنى: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا فى الآية الأخرى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ ولهذا لما قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم، فى استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أى: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله ونقمته، سيعلمون غيب ما قالوا، وما كذبوا به، يوم يُدْعَوْنَ إلى نار جهنم دَعَاً.

ثم قال مبينا أنه المتصرف فى ملكه، الفعال لما يشاء، الذى يعطى من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئا من الأمر، وليس إليهم من التصرف فى الملك ولا مثقال ذرة، وما يملكون من قطمير؛ ولهذا قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أى: العزيز الذى لا يرام جنابه، الوهاب الذى يعطى ما يريد لمن يريد. وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾. أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكًا عظيمًا. فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرًا [النساء: ٥٣-٥٥]، وقوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠]، وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشرى، وكما أخبر تعالى عن قوم صالح عليه السلام حين قالوا: ﴿أَلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾. سيعلمون غداً من الكذاب الأشر [القمر: ٢٥، ٢٦].

(١) ابن جرير فى التفسير (٧٩/٢٣) والنسائي فى الكبرى (١١٤٣٦، ١١٤٣٧) والترمذى (٣٢٣٢).

وقوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ أى : إن كان لهم ذلك فليصعدوا فى الأسباب . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : يعنى طرق السماء . وقال الضحاك : فليصعدوا إلى السماء السابعة . ثم قال : ﴿ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أى : هؤلاء الجند المكذبون الذين هم فى عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون ، كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين ، وهذه كقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ وكان ذلك يوم بدر ، ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴾ [القمر : ٤٤ - ٤٦] .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١١﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٢﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٣﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٥﴾ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية ، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات فى مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقد تقدمت قصصهم مبسطة فى أماكن متعددة .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ أى : كانوا أكثر منكم وأشد قوة ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شىء ، لما جاء أمر ربك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسول ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر . وقوله : ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ قال زيد بن أسلم : أى ليس لها مثنوية ، أى : ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ، أى : فقد اقتربت ودنت وأزفت ، وهذه الصيحة هى نفخة الفزع التى يأمر الله إسرافيل أن يطولها ، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع ، إلا من استثنى الله عز وجل .

قوله : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ هذا إنكار من الله على المشركين فى دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب ، فإن القبط هو الكتاب ، وقيل : هو الحظ والنصيب . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : سألوا تعجيل العذاب - زاد قتادة : كما قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] . وقيل : سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة ، إن كانت موجودة أن يلقوا ذاك فى الدنيا . وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب . وقال ابن جرير : سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر فى الدنيا . وهذا الذى قاله جيد ، والله أعلم .

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد ، قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم ، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر :

﴿ وَذَكَرَ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (١٧) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ
وَالْإِشْرَاقِ ﴿ ١٨ ﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿ ١٩ ﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ
الْخِطَابِ ﴿ ٢٠ ﴾

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود ، عليه السلام : أنه كان ذا أيد ، والأيد : القوة : العلم والعمل . قال ابن عباس وابن زيد والسدي : الأيد : القوة ، وقرأ ابن زيد : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] . وقال مجاهد : الأيد : القوة في الطاعة . وقال قتادة : أعطى داود عليه السلام ، قوة في العبادة ، وفقها في الإسلام ، وقد ذكر لنا أنه ، عليه السلام ، كان يقوم ثلث الليل ، ويصوم نصف الدهر . وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، ولا يفر إذا لاقى » (١) . وإنه كان أوابا ، وهو الرجاء إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤونه .

وقوله : ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ أي : إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار ، كما قال تعالى : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ : ١٠] . وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه ، وترجع بترجيعه ، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور ، لا تستطيع الذهاب ، بل تقف في الهواء ، وتسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ، ترجع معه ، وتسبح تبعاً له . ولهذا قال : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أي : محبوسة في الهواء ﴿ كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أي : مطيع يسبح تبعاً له . قال سعيد بن جبیر ، وقاتدة ، زيد بن أسلم ، وابن زيد : ﴿ كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أي : مطيع .

وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أي : جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك . قال مجاهد : كان أشد أهل الدنيا سلطاناً . ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ قال مجاهد : يعنى : الفهم والعقل والفطنة . وقال مرة : الحكمة والعدل . وقال مرة : الصواب . وقال قتادة : كتاب الله واتباع ما فيه . وقال السدي : ﴿ الْحِكْمَةُ ﴾ : النبوة . ﴿ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ قال شريح القاضي ، والشعبي : فصل الخطاب : الشهود والأيمان . وقال قتادة : شاهدان على المدعى ، أو يمين المدعى عليه ، هو فصل الخطاب الذي فصل به الأنبياء والرسل - أو قال : المؤمنون والصالحون - وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي . وقال مجاهد ، والسدي : هو إصابة القضاء وفهم ذلك . وقال مجاهد أيضاً : هو الفصل في الكلام وفي الحكم . وهذا يشمل هذا كله ، وهو المراد ، واختاره ابن جرير . وكذا قال الشعبي : فصل الخطاب : « أما بعد » .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبُوءُ الْخَصِمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ ﴿١١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿١٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِيَ نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿١٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿١٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿١٥﴾

سجدة

وقوله: ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾: إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسَوَّرا عليه المحراب، أى: احتاطا به يسألانه عن شأنهما. وقوله: ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أى: غلبنى. يقال: عز يعز: إذا قهر وغلب. وقوله: ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ قال ابن عباس: أى اختبرناه. وقوله: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أى: ساجدا ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ويحتمل أنه ركع أولا، ثم سجد بعد ذلك ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أى: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد اختلف الأئمة في سجدة «ص»، هل هي من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعى أنها ليست من عزائم السجود، بلى هي سجدة شكر. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال فى السجود فى «ص»: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها. ورواه البخارى، وأبو داود، والترمذى، والنسائى. وقال الترمذى: حسن صحيح (١). وروى البخارى عن العوام قال: سألت مجاهدا عن سجدة «ص» فقال: سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فكان داود، عليه السلام، ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به، فسجدها داود، عليه السلام، فسجدها رسول الله ﷺ (٢). وروى أبو داود: عن أبى سعيد الخدرى، قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص»، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَرَّنَ الناس للسجود، فقال: « إنما هى توبة نبي، ولكنى رأيتكم تَشَرَّنْتُمْ ». فنزل وسجد، وسجدوا. تفرد به أبو داود (٣)، وإسناده على شرط الصحيح.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴾ أى: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية فى الجنة، لتوبته وعدله التام فى ملكه، كما جاء فى

(١) المسند (٣٣٨٧) والبخارى (١٠٦٩) وأبو داود (١٤٠٩) والترمذى (٥٧٧).

(٢) البخارى (٤٨٠٧). (٣) أبو داود (١٤١٠).

الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا» (١) .

﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (١٦)

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله. وقد توعد تعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. روى ابن أبي حاتم عن إبراهيم أبي زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة، فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقحت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل في أمان. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود؟ إن الله - عز وجل - جمع له النبوة والخلافة، ثم توعدته في كتابه فقال: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ﴾ الآية. وقال عكرمة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾: هذا من المقدم والمؤخر، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا. وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب. وهذا القول أمشى على ظاهر الآية، والله سبحانه الموفق للصواب.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ (١٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (١٨) كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذَّبَرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (١٩)

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه، ثم يجمعهم يوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم.

ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمنين والكافرين، فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أي: لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى، يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فلما نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم

يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل، الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أي: ذوو العقول، وهي الألباب، جمع لب، وهو العقل. قال الحسن البصري: والله ما تدبّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل.

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ﴿٢٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٢١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٢٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان، أي: نبيا، كما قال عز وجل: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [النمل: ١٦] أي: في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله تعالى: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾، ثناء على سليمان، عليه السلام، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل.

وقوله: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ أي: إذ عرض على سليمان في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات. قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد: السراع. وكذا قال غير واحد من السلف. عن عائشة قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - أو خيبر - وفي سهوتها ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة - لُعَب - فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: بناتي. ورأى بينهن فرسا له جناحان من رقاع، فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا الذي أرى وسطهن؟» قالت: فرس. قال: «وما هذا الذي عليه؟» قالت: جناحان قال: «فرس له جناحان!» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ (١).

وقوله: ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾: ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمدا بل نسيانا، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر قال: جاء عمر، يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها». فقال: فقمنا إلى بَطْحَانَ فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب (٢). ويحتمل أنه كان سائغا في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال.

والخيل تراد للقتال . وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايقة والمضايقه ، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود ، كما فعل الصحابة في فتح تستر ، وهو منقول عن مكحول ، والأوزاعي ، وغيرهما . والأول أقرب ؛ لأنه قال بعدها : ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ قال الحسن البصري . قال : لا ، والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك . ثم أمر بها فعقرت . وكذا قال قتادة . وقال السدي : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف . وقال ابن عباس : جعل يمسح أعراف الخيل ، وعراقيبها حبالها . وهذا القول اختاره ابن جرير ، قال : لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ، ويهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها .

وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر ؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ، ولا سيما إذا كان غضبا لله عز وجل بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ؛ ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله تعالى ما هو خير منها ، وهي الريح التي تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوها شهر ورواحها شهر ، فهذا أسرع وخير من الخيل . وروى الإمام أحمد عن أبي قتادة وأبي الدهماء - وكانا يكثران السفر نحو البيت - قالا : أتينا على رجل من أهل البادية ، فقال البدوي : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله تعالى ، وقال : « إنك لا تدع شيئا اتقاء الله - تعالى - إلا أعطاك الله خيرا منه » (١) .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٢٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٢٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٢٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّ لَكُمْ عِندَنَا لُزْفَىٰ وَحَسَنَ مَّثَابٍ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ أي : اخترناه بأن سلبناه الملك مرة ﴿ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم : يعنى شيطانا ﴿ ثُمَّ أَنَاب ﴾ أي : رجع إلى ملكه وسلطانه وأبتهته . ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ قال بعضهم : معناه : لا ينبغي لأحد من بعدى ، أي : لا يصلح لأحد أن يسلبني بعدى ، كما كان من قضية الجسد الذي ألقى على كرسيه ، لا أنه يحجر على من بعده من الناس . والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله ، وهذا هو ظاهر السياق من الآية ، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ .

روى البخاري عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع على الصلاة ، فأمكنني الله منه ، وأردت أن أربطه إلى سارية

(١) المسند (٥ / ٧٨) ، وقال الهيثمي في الزوائد (١٠ / ٢٩٩) : « رجاله رجال الصحيح » .

من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخى سليمان ، عليه السلام : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ . قال روح : فرده خاسئا . وكذا رواه مسلم والنسائي ، من حديث شعبة ، به (١) . وروى مسلم عن أبى الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ يصلى ، فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » . ثم قال : « ألعنك بلعنة الله » - ثلاثا - وبسط يده كأنه يتناول شيئا ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله ، قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ؟ قال : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى ، فقلت : أعوذ بالله منك - ثلاث مرات - ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة . فلم يتأخر - ثلاث مرات - ثم اردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان ، لأصبح موثقا يلعب به صبيان أهل المدينة » (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ قام يصلى صلاة الصبح وهو خلفه ، فقرأ ، فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتمونى وإبليس ، فأهويت بيدي ، فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين إصبعي هاتين - الإبهام والتى تليها - ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سوارى المسجد ، يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » . وقد روى أبو داود منه : « من استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » (٣) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله الديلمى قال : دخلت على عبد الله بن عمرو ، وهو فى حائط له بالطائف يقال له : « الوهط » ، وهو مخاصر فتى من قريش يزن بشرب الخمر ، فقلت : بلغنى عنك حديث أنه « من شرب شربة خمر لم يقبل الله ، عز وجل ، له توبة أربعين صباحا ، وإن الشقى من شقى فى بطن أمه ، وإنه من أتى بيت المقدس لا ينهزه إلا الصلاة فيه ، خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه » ، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده ، ثم انطلق . فقال عبد الله بن عمرو : إنى لا أحل لأحد أن يقول على مالم أقل ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شرب من الخمر شربة ، لم تقبل له صلاة أربعين صباحا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحا ، فإن تاب تاب الله عليه . فإن عاد - قال : فلا أدرى فى الثالثة أو الرابعة - فإن عاد حقا على الله أن يسقيه من ردة الخبال يوم القيامة » . قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله عز وجل » . وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثا ، فأعطاه اثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة : سأل الله حكما يصادف حكمه ،

(١) البخارى (٤٨٠٨) ومسلم (٣٩/٥٤١) والنسائى فى الكبرى (١١٤٤٠) .

(٢) مسلم (٤٠/٥٤٢) .

(٣) المسند (٨٣/٣) وأبو داود (٦٩٩) ، وصححه الألبانى .

فأعطاه إياه ، وسأله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد ، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى قد أعطانا إياها » (١) . وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ، عز وجل ، خللا ثلاثا » وذكره (٢) . وروى الإمام أحمد عن سلمة بن الأكوع ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ دعا دعاء إلا استفتحته « سبحان الله ربى الأعلى العلى الوهاب » (٣) .

وقوله : ﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَاب ﴾ قال الحسن البصرى : لما عقر سليمان الخيل غضبا لله ، عز وجل ، عوضه الله ما هو خير منها وأسرع ، الريح التى غدوها شهر ورواحها شهر . وقوله : ﴿ حَيْثُ أَصَاب ﴾ أى : حيث أراد من البلاد . وقوله : ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴾ أى : منهم من هو مستعمل فى الأبنية الهائلة من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التى لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون فى البحار يستخرجون ما فيها من اللآلى والجواهر والأشياء النفيسة التى لا توجد إلا فيها ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أى : موثوقون فى الأغلال والأكبال ، ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء فى صنيعه واعتدى .

وقوله : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى : هذا الذى أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا ، فأعط من شئت واحرم من شئت ، لا حساب عليك ، أى : مهما فعلت فهو جائز لك ، احكم بما شئت فهو صواب . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خير بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذى يفعل ما يؤمر به ، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله به - وبين أن يكون ملكاً نبياً ، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح ، اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل ، فقال له : تواضع . فاختار المنزلة الأولى ؛ لأنها أرفع قدراً عند الله وأعلى منزلة فى المعاد . وإن كانت المنزلة الثانية وهى النبوة مع الملك عظيمة أيضاً فى الدنيا وفى الآخرة ؛ ولهذا لما ذكر تعالى ما أعطى سليمان فى الدنيا نبه على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً ، فقال : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أى : فى الدار الآخرة .

(١) المسند (٦٦٤٤) وقال الشيخ شاکر : « إسناده صحيح » . والحديث فى المخطوطة والمطبوعة عن « ربيعة بن يزيد بن عبد الله الديلمى » . وهو خطأ ، فإنهما اسمان ، وربيعة إنما يروى عن عبد الله . والصواب ما أثبتناه « كما هو فى المسند » .

(٢) النسائي (٦٩٣) وابن ماجه (١٤٠٨) ، وصححه الألبانى وحرف « ابن عمرو » فى المطبوعة إلى « ابن عمر » .

(٣) المسند (٥٤/٤) قال الهيثمى فى الزوائد (١٥٩/١٠) : « فيه عمر بن راشد اليمامى وثقه غير واحد ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح » .

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب ، عليه السلام ، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده ، حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليما سوى قلبه ، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه ، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله ، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه ، وتخدمه نحوا من ثمانى عشرة سنة . وقد كان قبل ذلك فى مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا ، فسلب جميع ذلك ، حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزايل البلدة هذه المدة بكمالها ، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته ، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ومساءً إلا بسبب خدمة الناس ، ثم تعود إليه قريباً . فلما طال المطال ، واشتد الحال ، وانتهى القدر المقدور ، وتم الأجل المقدر ، تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين ، فقال : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الانبياء : ٨٣] ، وفى هذه الآية الكريمة قال : ﴿ رَبُّ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ قيل : بنصب فى بدنى وعذاب فى مالى وولدى . فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين ، وأمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله . ففعل فأنبع الله عيناه وأمره أن يغتسل منها ، فأذهب جميع ما كان فى بدنه من الأذى . ثم أمره فضرَب الأرض فى مكان آخر ، فأنبع له عينا أخرى وأمره أن يشرب منها ، فأذهبت جميع ما كان فى باطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ .

روى ابن جرير ، وابن أبى حاتم جميعاً عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « إن نبي الله أيوب ، عليه السلام ، لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم - والله - لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين . قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : من ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله ، فيكشف ما به . فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له . فقال أيوب : لا أدري ما تقول ، غير أن الله يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان ، فيذكران الله ، عز وجل ، فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما ، كراهية أن يذكر الله إلا فى حق . قال : وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضأها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها ، وأوحى الله تعالى إلى أيوب ، عليه السلام ، أن ﴿ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ ، فاستبطأته ، فالتفتت تنظر ، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء ، وهو على أحسن ما كان . فلما رآته قالت : أى بارك الله فيك ، هل رأيت نبي الله المبلى ؟ فوالله على ذلك ، ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً . قال : فإنى أنا هو . قال : وكان له

أندران ، أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير حتى فاض . هذا لفظ ابن جرير (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عريانا ، خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحشو فى ثوبه ، فناداه ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى بى عن بركتك » . انفراد بإخراجه البخارى ، من حديث عبد الرزاق ، به (٢) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، قال الحسن ، وقتادة : أحياءهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم . وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ أى : به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته ، ﴿ وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى : لذوى العقول ، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة .

وقوله : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ ﴾ ، وذلك أن أيوب ، عليه السلام ، كان قد غضب على زوجته ، ووجد عليها فى أمر فعلته . قيل : باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه ، فلامها على ذلك ، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة . وقيل : لغير ذلك من الأسباب . فلما شفاه الله وعافاه ، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب ، فأفتاه الله ، عز وجل ، أن يأخذ ضغثاً - وهو : الشمراخ - فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة ، وقد برت يمينه ، وخرج من حنثه ووفى بنذره ، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أى : رجاء منيب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] .

﴿ وَذَكَرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ ٤٥ ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ ٤٦ ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ ٤٧ ﴿ وَذَكَرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ ٤٨ ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين : ﴿ وَذَكَرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ يعنى بذلك : العمل الصالح والعلم النافع والقوة فى العبادة والبصيرة النافذة . قال ابن عباس : ﴿ أُولِي الْأَيْدِي ﴾ يقول : أولى القوة ﴿ وَالْأَبْصَارِ ﴾ يقول : الفقه فى الدين . وقال مجاهد : ﴿ أُولِي الْأَيْدِي ﴾ يعنى : القوة فى طاعة الله ﴿ وَالْأَبْصَارِ ﴾ يعنى : البصر فى الحق . وقال قتادة والسدى : أعطوا قوة فى العبادة وبصراً فى الدين .

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٣ / ١٠٧) ورواه البزار فى مسند (٢٣٥٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٠٨ / ٨) :

« رجال البزار رجال الصحيح » .

(٢) المسند (٨١٤٤) والبخارى (٢٧٨) .

وقوله: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قال مجاهد: أى جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هم غيرها. وكذا قال السدى: ذكرهم للآخرة وعملهم لها. وقال مالك بن دينار: نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها. وقال سعيد بن جبير: يعنى بالدار الجنة، يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها، وقال فى رواية أخرى: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾: عقبى الدار. وقال قتادة: كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها. وقال ابن زيد: جعل لهم خاصة أفضل شىء فى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ أى: لمن المختارين المجتبيين الأخيار، فهم أخيار مختارون. وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾: قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة فى سورة «الأنبياء» بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أى: هذا فضل فيه ذكر لمن يتذكر. وقال السدى: يعنى القرآن.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمْ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَكِينِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

ربع

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء، أن لهم فى الدار الآخرة ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ وهو: المرجع والمنقلب. ثم فسر به بقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أى: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب. والألف واللام هنا بمعنى الإضافة، كأنه يقول: «مفتحة لهم أبوابها» أى: إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها. وقد ورد فى ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة. وقوله: ﴿مُتَكِينِينَ فِيهَا﴾ قيل: متربعين فيها على سرر تحت الحجال ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أى: مهما طلبوا وجدوا، وحضر كما أرادوا ﴿وَشَرَابٍ﴾ أى: من أى أنواعه شاؤوا أتيهم به الخدام ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨]. ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى: عن غير أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿أَرَابٍ﴾ أى: متساويات فى السن والعمر. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى: هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة هى التى وعدها لعباده المتقين، التى يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

ثم أخبر تعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وكقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أى: غير مقطوع، وكقوله: ﴿أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥] والآيات فى هذا كثيرة جدا.

﴿ هَذَا وَابٍ لِلطَّغِيْنَ لَشَرِّ مَآبٍ ﴾ ٥٥ ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسَ الْمِهَادُ ﴾ ٥٦ ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ ٥٧ ﴿ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ ٥٨ ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ ٥٩ ﴿ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْجَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَنْسَ الْقَرَارُ ﴾ ٦٠ ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ ٦١ ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾ ٦٢ ﴿ أَخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ ٦٣ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ ٦٤ ﴿

لما ذكر تعالى مآل السعداء ، ثنى بذكر حال الأشقياء و مرجعهم ومآبهم فى دار معادهم وحسابهم ، فقال عز وجل : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِيْنَ ﴾ وهم : الخارجون عن طاعة الله ، المخالفون لرسول الله ﴿ لَشَرِّ مَآبٍ ﴾ أى : لسوء منقلب و مرجع . ثم فسره بقوله : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أى : يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ، ﴿ فَيَنْسَ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ أما الحميم فهو : الحار الذى قد انتهى حره ، وأما الغساق فهو : ضده ، وهو البارد الذى لا يستطيع من شدة برده المؤلم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ أى : وأشياء من هذا القبيل ، الشئ وضده يعاقبون بها . روى الإمام أحمد عن أبى سعيد ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن دلوأ من غَسَّاق يهراق فى الدنيا ، لأنتن أهل الدنيا » ورواه الترمذى (١) . وقال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ : ألوان من العذاب . وقال غيره : كالزمهرير ، والسموم ، وشرب الحميم ، وأكل الزقوم ، والصعود والهوى ، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة ، والجميع مما يعذبون به ، ويهانون بسببه .

وقوله : ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ : هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨] ، يعنى بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ، ويكفر بعضهم ببعض ، فتقول الطائفة التى تدخل قبل الأخرى ، إذا أقبلت التى بعدها مع الخزنة من الزبانية : ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ ﴾ أى : داخل معكم ، ﴿ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ أى : لأنهم من أهل جهنم ﴿ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْجَبًا بِكُمْ ﴾ أى : فيقول لهم الداخلون : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْجَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا ﴾ أى : أنتم دعوتونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ، ﴿ فَيَنْسَ الْقَرَارُ ﴾ أى : فبئس المنزل والمستقر والمصير . ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ ، كما قال عز وجل : ﴿ قَالَتْ أَخْرَاهُمُ الْأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨] ، أى : لكل منكم عذاب بحسبه .

﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ . أَخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ ، هذا إخبار عن الكفار فى النار أنهم يفقدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة ، وهم المؤمنون

(١) المسند (٢٨ / ٣) والترمذى (٢٥٨٤) ، والحاكم فى المستدرک (٦٠٢ / ٤) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

فى زعمهم، قالوا: ما لنا لا نراهم معنا فى النار؟ قال مجاهد: هذا قول أبى جهل، يقول: ما لى لا أرى بلالا وعمارا وصهيبا وفلانا وفلانا. وهذا مثل ضرب، وإلا فكل الكفار هذا حالهم: يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم، فقالوا: ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ . أَتُخَذُّنَاهُمْ سِحْرِيًّا ﴾ أى: فى الدنيا، ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ يسلون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلهم معنا فى جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم فى الدرجات العاليات، وهو قوله: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الاعراف: ٤٤ - ٤٩]. وقوله: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ أى: إن هذا الذى أخبرناك به يا محمد، من تخاصم أهل النار بعضهم فى بعض، ولعن بعضهم لبعض، لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ١٥ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ١٦ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ١٧ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ١٨ مَا كَانَ لِي مِنَ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ١٩ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢٠

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر لست كما تزعمون، ﴿ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أى: هو وحده قد قهر كل شىء وغلبه ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه، ﴿ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ أى: غفار مع عزته وعظمته. ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ أى: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله إياى إليكم، ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ أى: غافلون. قال مجاهد، وشريح القاضى، والسدى فى قوله: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ يعنى: القرآن.

وقوله: ﴿ مَا كَانَ لِي مِنَ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أى: لولا الوحي من أين كنت أدرى باختلاف الملائكة الأعلى؟ يعنى: فى شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له، ومحتاجته ربه فى تفضيله عليه. فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن معاذ، قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح، حتى كدنا نترأى قرن الشمس. فخرج رسول الله ﷺ سريعا، فثوب بالصلاة فصلى، وتجاوز فى صلاته، فلما سلم قال: «كما أنتم على مصافكم». ثم أقبل إلينا فقال: «إنى سأحدثكم ما حبسنى عنكم الغداة، إنى قمت من الليل فصليت ما قدر لى، فنعت فى صلاتى حتى استيقظت، فإذا أنا بربى عز وجل فى أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدرى فيم يختصم الملائكة الأعلى؟ قلت: لا أدرى رب - أعادها ثلاثا - فرأيت وضع كفه بين كتفى، حتى وجدت برد أنامله بين صدرى، فتجلى لى كل شىء وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملائكة الأعلى؟ قلت: فى الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى

الجمعات (١) ، والجلوس فى المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام . قال : سل . قلت : اللهم ، إنى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لى وترحمنى ، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفنى غير مفتون ، وأسألك حبك وحب من يحبك ، وحب عمل يقربنى إلى حبك . وقال رسول الله ﷺ : «إنها حق فادرسوها وتعلموها» ، فهو حديث المنام المشهور ، ومن جعله يقظة فقد غلط ، وهو فى السنن من طرق . وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذى وقال : «حسن صحيح» (٢) وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور فى القرآن فإن هذا قد فسر ، وأما الاختصاص الذى فى القرآن فقد فسر بعد هذا ، وهو قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ خَلِىْقُۡۤا۟ۤ بَشَرًا مِّنْ طِيۡنٍ ۖ ۝۷۱ ۚ فَاِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِىْ فَقَعُوۡا لَهٗۤ اَسْجِدٰٓتٍ ۖ ۝۷۲ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ اٰجَمُوۡنَ ۖ ۝۷۳ اِلَّاۤ اِبٰلِیۡسَ اَسْتَكْبَرَ ۖ ۝۷۴ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِیۡنَ ۖ ۝۷۵ قَالَ يٰۤاِبٰلِیۡسُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیَدِیْۤیْۤ اَسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰلِیۡنَ ۖ ۝۷۶ قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقَنِیۡ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْنٰهُ مِنْ طِیۡنٍ ۖ ۝۷۷ قَالَ فَاخْرِجْ مِنْهَا ۖ فَاِنَّكَ رَجِیۡمٌ ۖ ۝۷۸ وَاِنَّ عَلَیْكَ لَعْنٰتِیۡۤ اِلٰی یَّوْمِ الدِّیۡنِ ۖ ۝۷۹ قَالَ رَبِّۤ اَنْظِرْنِیۡۤ اِلٰی یَّوْمِ یُّبْعَثُوۡنَ ۖ ۝۸۰ قَالَ فَاِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِیۡنَ ۖ ۝۸۱ اِلٰی یَّوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوۡمِ ۖ ۝۸۲ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَاۤ اُغْوِيَنَّهُمْ اَجْمَعِیۡنَ ۖ ۝۸۳ اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَصِیۡنَ ۖ ۝۸۴ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ اَقُوۡلُ ۖ ۝۸۵ لَاۤ اَمْلَآءَۤنَ جَهَنَّمَ مِّنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ اَجْمَعِیۡنَ ۖ ۝۸۶ ﴾

هذه القصة ذكرها الله تعالى ، فى سورة « البقرة » ، وفى أول « الأعراف » ، وفى سورة « الحجر » ، و « سبحان » ، و « الكهف » ، و « هاهنا . وهى أن الله ، سبحانه ، أعلم الملائكة قبل خلق آدم ، عليه السلام ، بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر : متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما ، وامثالاً لأمر الله عز وجل . فامتلأ الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنسا ؛ كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه ، فاستنكف عن السجود لآدم ، وخاصم ربه عز وجل فيه ، وادعى أنه خير من آدم ؛ فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين ، والنار خير من الطين ، فى زعمه . وقد أخطأ فى ذلك ، وخالف أمر الله ، وكفر بذلك ، فأبعده الله وأرغم أنفه ، وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ، وسماه « إبليس » ، إعلاما له بأنه قد أبلس من الرحمة ، وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض ، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث ، فأنظره الحليم الذى لا يعجل على

(١) فى المطبوعة : « الجماعات » والمثبت من المسند والمخطوطة .

(٢) المسند (٥/٢٤٣) والترمذى (٣٢٣٥) .

من عصاه. فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى، وقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ كما قال: ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنُ أَخْرُتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى، وهى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥] .

وقوله: ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ . لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ : قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع «الحق» الأولى ، وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحق، والحق أقول. وفى رواية عنه: الحق منى، وأقول الحق. وقرأ آخرون بنصبهما. قال السدى: هو قسم أقسم الله به. قلت: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣] ، وكقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٣].

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ
﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصيح أجرا تعطونيهِ من عرض الحياة الدنيا، ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أى: وما أزيد على ما أرسلنى الله به، ولا أبتغى زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغى بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة. عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود قال: يأبها الناس، من علم شيئا فليقل به، ومن لا يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله قال لنبىكم ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ . أخرجاه (١).

وقوله: ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ يعنى: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] ، وكقوله: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود: ١٧] . وقوله: ﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُهُ ﴾ أى: خبره وصدقه ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴾ أى: عن قريب. قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعنى يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين؛ فإن من مات فقد دخل فى حكم القيامة. وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ : قال الحسن: يا بن آدم ، عند الموت يأتىك الخبر اليقين.

تفسير سورة الزمر

وهي مكية

روى النسائي عن عائشة ، قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر . ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم . وكان يقرأ في كل ليلة بنى إسرائيل والزمر (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب - وهو القرآن العظيم - من عنده ، تبارك وتعالى ، فهو الحق الذي لا مزية فيه ولا شك ، كما قال عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥] . وقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤١ ، ٤٢] . وقال هاهنا : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أى : المنيع الجنب ، ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ أى : فى أقواله وأفعاله ، وشرعه ، وقدره . ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ أى : فاعبد الله وحده لا شريك له ، وادع الخلق إلى ذلك ، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده ، وأنه ليس له شريك ولا عدل ولا نديد ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ أى : لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده ، لا شريك له . وقال قتادة فى قوله : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ : شهادة أن لا إله إلا الله .

ثم أخبر عز وجل عن عبادة الأصنام من المشركين أنهم يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ أى : إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين فى زعمهم ، فعبدوا تلك الصور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ؛ ليشفعوا لهم عند الله فى نصرهم ورزقهم ، وما ينوبهم من أمر الدنيا ، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به . قال قتادة ، والسدى ، وزيد بن أسلم : ﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ أى : ليشفعوا لنا ، ويقربونا عنده منزلة . ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم إذا حجوا فى جاهليتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » . وهذه الشبهة هى التى اعتمدها المشركون فى قديم الدهر وحديثه ،

(١) النسائي فى الكبرى (١١٤٤٤) ، والترمذى (٢٩٢٠) ، وقال : « حسن غريب » .

وجاءتهم الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، بردها والنهي عنها ، والدعوة إلى أفراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم ، لم يأذن الله فيه ولا رضى به ، بل أبغضه ونهى عنه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الانبياء : ٢٥] . وأخبر أن الملائكة التى فى السموات من المقربين وغيرهم ، كلهم عبيد خاضعون لله ، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى ، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم ، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه ، ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ [النحل : ٧٤] ، تعالى الله عن ذلك .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى : سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ، ويجزى كل عامل بعمله ، ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤٠] ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أى : لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله ، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه .

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين فى الملائكة ، والمعاندون من اليهود والنصارى فى العزيز وعيسى ، فقال : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى : لكان الأمر على خلاف ما يزعمون . وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ، بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه ، كما قال : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الانبياء : ١٧] ، ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف : ٨١] ، كل هذا من باب الشرط ، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم . وقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أى : تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد ، فإنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى كل شيء عبد لديه ، فقير إليه ، وهو الغنى عما سواه ، الذى قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَرُ ۝ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِهَ أَزْوَاجًا يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُصَرِّفُونَ ۝﴾

يخبر تعالى أنه الخالق لما فى السموات والأرض ، وما بين ذلك من الأشياء ، وأنه مالك الملك المتصرف فيه ، يقلب ليله ونهاره ، ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ أى : سخرهما يجريان متعاقبين لا يفتران ، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا ، كقوله : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف : ٥٤] هذا معنى ما روى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضى يوم القيامة ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ أى : مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأتاب إليه . وقوله : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أى : خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألستكم والوانكم من نفس واحدة ، وهو آدم ، عليه السلام ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ، وهى حواء ، عليهما السلام ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] . وقوله : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أى : وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج ، وهى المذكورة فى سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ [الأنعام : ١٤٣] ، ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾ [الأنعام : ١٤٤] .

وقوله : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أى : قدركم فى بطون أمهاتكم ﴿ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أى : يكون أحدكم أولا نطفة ، ثم يكون علقة ، ثم يكون مضغة ، ثم يخلق فيكون لحما وعظما وعصبا وعروقا ، وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر ، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] . وقوله : ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ يعنى : ظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة - التى هى كالغشاوة والوقاية على الولد - وظلمة البطن . كذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة . وقوله : ﴿ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أى : هذا الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم ، هو الرب له الملك والتصرف فى جميع ذلك ، ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى : الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده ، ﴿ فَأَتَى تَصْرُفُونَ ﴾ أى : فكيف تعبدون معه غيره ؟ أين يذهب بعقولكم ؟ !

﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿ ٧ ﴾ ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًّا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ ﴿ ٨ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نفسه تعالى : أنه الغنى عما سواه من المخلوقات ، كما قال موسى عليه السلام : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] . وفى صحيح مسلم : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئا » (١) . وقوله ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ أى : لا يحبه ولا يأمر به ، ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أى : يحبه منكم ويزدكم من فضله . ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى : لا تحمل نفس عن نفس شيئا ، بل كل مطالب بأمر نفسه ، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : فلا تخفى عليه خافية .

وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أى : عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْتُمُ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧] . ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ أى : فى حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مِّسَّهُ ﴾ [يونس : ١٢] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَ اللَّهُ أُنْدَادًا لِّبُضْلٍ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أى : فى حال العافية يشرك بالله ، ويجعل له أندادا ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ أى : قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه : تمتع بكفرِكَ قليلا . وهو تهديد شديد ووعيد أكيد ، كقوله : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٣٠] ، وقوله : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤] .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

يقول عز وجل : أمَّن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا؟ لا يستون عند الله ، كما قال تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٣] ، وقال هاهنا : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ أى : فى حال سجوده وفى حال قيامه ؛ ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع فى الصلاة ، ليس هو القيام وحده ، كما ذهب إليه آخرون . قال ابن مسعود : القانت : المطيع لله ولرسوله . وقال ابن عباس ، والحسن : ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ : جوف الليل . وقال منصور : بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء . وقال الحسن ، وقتادة : ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ : أوله وأوسطه وآخره .

وقوله : ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ أى : فى حال عبادته خائف راج ، ولا بد فى العبادة من هذا وهذا ، وأن يكون الخوف فى مدة الحياة هو الغالب ؛ ولهذا قال : ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ ، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه . عن يحيى البكاء ، أنه سمع ابن عمر قرأ : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ ؛ قال ابن عمر : ذاك عثمان بن عفان . وإنما قال ابن عمر ذلك ؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته ، حتى إنه ربما قرأ القرآن فى ركعة ، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه .

وقوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : هل يستوى هذا والذى قبله ممن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله؟! ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أى : إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل .

﴿ قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أى : لمن أحسن العمل فى هذه الدنيا حسنة فى دنياهم وأخراهم .
﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ قال مجاهد : فهاجروا فيها ، وجاهدوا ، واعتزلوا الأوثان . وقال عطاء فى قوله : ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ قال : إذا دعيتم إلى المعصية فاهربوا ، ثم قرأ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء : ٩٧] . ﴿ إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال الأوزاعى : ليس يوزن لهم ولا يكال ، إنما يغرف لهم غرفا . وقال ابن جريج : بلغنى أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط ، ولكن يزدون على ذلك . وقال السدى : ﴿ إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ : يعنى فى الجنة .
وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ أى : إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، قال السدى : يعنى من أمته ﷺ .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ ١٣ ﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿ ١٤ ﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿ ١٥ ﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُ يَعْجَبُونَ فَاتَّقُونِ ﴿ ١٦ ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد وأنت رسول الله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة . وهذا شرط ، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأخرى ، ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ ، وهذا أيضا تهديد وتبر منهم ، ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى : إنما الخاسرون كل الخسران ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ أى : تفارقوا فلا التقاء لهم أبدا ، وسواء ذهب أهلوههم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار ، أو أن الجميع أسكنوا النار ، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ، ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ أى : هذا هو الخسار البين الظاهر الواضح .

ثم وصف حالهم فى النار فقال : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ ، كما قال : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الاعراف : ٤١] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٥] . وقوله : ﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ أى : إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده ، لينزجروا عن المحارم والمآثم ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ أى : اخشوا بأسى وسطوتى ، وعذابى ونقمتى .

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿ ١٨ ﴾

قال زيد بن أسلم : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَّبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبى ذر ، وسلمان الفارسي . والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ، ممن اجتنب عبادة الأوثان ، وأناب إلى عبادة الرحمن . فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ثم قال : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ أى : يفهمونه ويعملون بما فيه ، كقوله تعالى لموسى حين آتاه التوراة : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف : ١٤٥] . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ، أى : ذوو العقول الصحيحة ، والفطر المستقيمة .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ (١٩) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى : أفمن كتب الله أنه شقى تقدرُ تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أى : لا يهديه أحد من بعد الله ؛ لأنه من يضل الله فلا هادى له ، ومن يهده فلا مضل له .

ثم أخبر عن عباده السعداء أن لهم غرفا في الجنة ، وهى القصور الشاهقة ، ﴿ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ أى : طباق فوق طباق ، مبنيات محكمات مزخرفات عاليات . روى الإمام أحمد عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى والناس نيام » . تفرد به أحمد (١) . وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء » . قال : فحدثت بذلك النعمان بن أبى عياش ، فقال : سمعت أبا سعيد الخدرى يقول : « كما تراءون الكوكب الدرى فى الأفق الشرقى أو الغربى » . أخرجاه فى الصحيحين (٢) ، وأخرجاه أيضاً فى الصحيحين عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ (٣) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون فى الجنة أهل الغرف ، كما تراءون الكوكب الدرى الغارب فى الأفق الطالع ، فى تفاضل أهل الدرجات » . فقالوا : يا رسول الله ، أولئك النبيون؟ فقال : « بلى ، والذى نفسى بيده ، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل » . ورواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قلنا : يا رسول الله ، إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا ، وكنا من أهل الآخرة ، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد . قال : « لو أنكم

(١) المسند (٣٤٣ / ٥) . ورواه الحاكم فى مستدركه (٨٠ / ١) وصححه ، ووافقه الذهبى .

(٢) المسند (٣٤٠ / ٥) والبخارى (٦٥٥٥) ومسلم (٢٨٣٠ ، ٢٨٣١ / ١١) .

(٣) البخارى (٦٥٥٦) ومسلم (٢٨٣١ / ١١) .

تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي، لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم في بيوتكم. ولو لم تُذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله، حَدَّثَنَا عَنْ الْجَنَّةِ، مَا بَنَّاؤُهَا؟ قَالَ: «لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، وَمَلَاطُهَا الْمَسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتَرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ. ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يَفْطُرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ، وَتَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَوَاتِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لَا نُصْرَنُكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ». وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَهَ (١).

وقوله : ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى : تسلك الأنهار بين خلال ذلك ، كما يشاؤون وأين أرادوا ﴿ وَعَدَ اللَّهُ ﴾ أى : هذا الذى ذكرناه وَعَدُّ وَعَدَهُ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَنَرُّهُ مُمْصِقًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

يخبر تعالى أن أصل الماء فى الأرض من السماء كما قال عز وجل : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨] ، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَنَّ فى الأرض، ثم يصرفه تعالى فى أجزاء الأرض كما يشاء، وَيُنْبِغُهُ عِيُونًا ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها؛ ولهذا قال : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ﴾ . عن ابن عباس فى قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : ليس فى الأرض ماء إلا نزل من السماء ، ولكن عروق فى الأرض تغيره ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذبا فليصعده . وكذا قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبى : أن كل ماء فى الأرض فأصله من السماء . وقال سعيد بن جبير : أصله من الثلج ، يعنى : أن الثلج يتراكم على الجبال ، فيسكن فى قرارها ، فتنبع العيون من أسافلها .

وقوله : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أى : ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنباع من الأرض زرعاً ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أى : أشكاله وطعومه وروائحهم ومنافعه، ﴿ ثُمَّ يَهِيَجُ ﴾ أى : بعد نضارته وشبابه يكتهل ﴿ فَنَرُّهُ مُمْصِقًا ﴾ قد خالطه اليبس ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ أى : ثم يعود يابساً يتحطم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى : الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خضرة نضرة حسنة، ثم تعود عَجُوزًا شوهاء، والشباب يعود شيخاً هَرِمًا كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت. فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل

الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء ، وينبت به زروعا وثمارا ، ثم يكون بعد ذلك حطاما ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف : ٤٥] .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ ﴾ أى : هل يستوى هذا ومن هو قاسى القلب بعيد من الحق ؟! كقوله عز وجل : ﴿ أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى : فلا تلين عند ذكره ، ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾

هذا مدح من الله - عز وجل - لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي ﴾ قال مجاهد : يعنى القرآن كله متشابه مثنى . وقال قتادة : الآية تشبه الآية ، والحرف يشبه الحرف . وقال الضحاك : ﴿ مثنى ﴾ : ترديد القول ليفهموا عن ربهم عز وجل . وقال عكرمة ، والحسن : ثنى الله فيه القضاء - زاد الحسن : تكون السورة فيها آية ، وفى السورة الأخرى آية تشبهها . وقال ابن عباس : ﴿ مثنى ﴾ : القرآن يشبه بعضه بعضا ، ويرد بعضه على بعض . وقال بعض العلماء - ويروى عن سفيان بن عيينة : معنى قوله : ﴿ مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي ﴾ : أن سياقات القرآن تارة تكون فى معنى واحد ، فهذا من المتشابه ، وتارة تكون بذكر الشئ وضده ، كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار ، وما أشبه هذا ، فهذا من المثنى ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣ ، ١٤] ، وكقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِينٍ ﴾ [المطففين : ٧] ، إلى أن قال : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّينَ ﴾ [المطففين : ١٨] ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ ﴾ [ص : ٤٩] . إلى أن قال : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَّآبٍ ﴾ [ص : ٥٥] ، ونحو هذا من السياقات ، فهذا كله من المثنى ، أى : فى معنيين اثنين ، وأما إذا كان السياق كله فى معنى واحد يشبه بعضه بعضا ، فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور فى قوله : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] ، ذلك معنى آخر .

وقوله : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى : هذه صفة الأبرار ، عند سماع كلام الجبار ، المهيمن العزيز الغفار ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد ، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ، ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه ، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه :

أحدها : أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات لأبيات ، من أصوات القينات .

الثانى : أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٢ - ٤] وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان : ٧٣] أى : لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

الثالث : أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة، عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد فى ذلك؛ ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى فى الدنيا والآخرة.

قال معمر : تلا قتادة : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قال : هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا فى أهل البدع، وهذا من الشيطان. وقال السدى : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى : إلى وعد الله.

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أى : هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله، ﴿ وَمَن يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٣٣] .

﴿ أَفَمَن يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (١٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ (١٥) فَادْأَقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٦)

يقول تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾، ويُقرعُ فيقال له ولا مثاله من الظالمين : ﴿ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾، كمن يأتى آمنا يوم القيامة؟! كما قال عز وجل : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : ٢٢]، وقال : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر : ٤٨]، وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [فصلت : ٤٠]، واكتفى فى هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر. وقوله : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يعنى : القرون الماضية المكذبة للرسل، أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق.

وقوله : ﴿ فَادْأَقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى : بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفى المؤمنين بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياء ﷺ،

والذى أعده الله لهم فى الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم فى الدنيا ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٧) ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٢٨) ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٩) ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (٣٠) ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (٣١)

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى : بينا للناس فيه بضرب الأمثال ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، فإن المثل يُقَرَّبُ المعنى إلى الأذهان ، كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [الروم : ٢٨] أى : تعلمونه من أنفسكم ، وقال : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] . وقوله : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ أى : هو قرآن بلسان عربى مبين ، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس ، بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنما جعله الله تعالى كذلك ، وأنزله بذلك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى : يحذرون ما فيه من الوعيد ، ويعملون بما فيه من الوعد .

ثم قال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ أى : يتنازعون فى ذلك العبد المشترك بينهم ، ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾ أى : خالصا لرجل ، لا يملكه أحد غيره ، ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ ؟ أى : لا يستوى هذا وهذا . كذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد آلهة مع الله ، والمؤمن المخلص الذى لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له . فأين هذا من هذا ؟ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : هذه الآية ضربت مثلا للمشرك والمخلص ، ولما كان هذا المثل ظاهرا بينا جليا ، قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى : على إقامة الحجة عليهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : فلهذا يشركون بالله .

وقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ : هذه الآية من الآيات التى استشهد بها الصديق عند موت الرسول ﷺ ، حتى تحقق الناس موته ، مع قوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

ومعنى هذه الآية : ستنقلون من هذه الدار لا محالة ، وستجتمعون عند الله فى الدار الآخرة ، وتختصمون فيما أنتم فيه فى الدنيا من التوحيد والشرك بين يدى الله عز وجل ، فيفصل بينكم ، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم ، فينجى المؤمنين المخلصين الموحدين ، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين .

ثم إن هذه الآية - وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين ، وذكر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة - فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا ، فإنه تعاد عليهم الخصومة فى الدار الآخرة .

روى ابن أبي حاتم عن الزبير قال : لما نزلت : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قال الزبير : يا رسول الله ، أكرر علينا الخصومة ؟ قال : « نعم » . قال : إن الأمر إذاً لشديد . وكذا رواه الإمام أحمد ، وعنده زيادة : ولما نزلت : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [التكاثر : ٨] قال الزبير : أى رسول الله ، أى نعيم نسأل عنه ؟ وإنما - يعنى - هما الأسودان : التمر والماء ؟ قال : « أما إن ذلك سيكون » . وقد روى هذه الزيادة الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن (١) . وروى الإمام أحمد عن الزبير بن العوام قال : لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قال الزبير : أى رسول الله ، أكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : « نعم ، ليكررن عليكم ، حتى يؤدى إلى كل ذى حق حقه » . قال الزبير : والله إن الأمر لشديد . ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح (٢) . وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « أول الخصمين يوم القيامة جاران » . تفرد به أحمد (٣) .

وقال ابن عباس : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ : يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهتدى الضال ، والضعيف المستكبر . وقال أبو العالية : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ : يعنى أهل القبلة . وقال ابن زيد : يعنى أهل الإسلام وأهل الكفر . وقد قدمنا أن الصحيح العموم ، والله أعلم .

الجزء ٢٤ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٢١) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٢٢﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخاطبا للمشركين الذين افتروا على الله ، وجعلوا معه آلهة أخرى ، وادعوا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا لله ولدا - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا - ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على السنة رسل الله ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ ﴾ أى : لا أحد أظلم من هذا ؛ لأنه جمع بين طرفى الباطل ، كذب على الله ، وكذب رسول الله ، قالوا الباطل وردوا الحق ؛ ولهذا قال متوعدا لهم : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ وهم الجاحدون المكذبون .

ثم قال : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ قال مجاهد ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وابن زيد :

(١) المسند (١٤٠٥) والترمذى (٣٣٥٦) وابن ماجه (٤١٥٩) . وقال الشيخ شاکر : « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (١٤٣٤) والترمذى (٣٢٣٦) . وقال الشيخ شاکر : « إسناده صحيح » .

(٣) المسند (١٥١/٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (٣٣٩/١٠) : « رواه أحمد بإسناد حسن » .

﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ : هو رسول الله ﷺ. وقال السدى : هو جبريل عليه السلام، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾
يعنى : محمداً ﷺ. وقال ابن عباس : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ : من جاء بلا إله إلا الله ﴿وَصَدَّقَ
بِهِ﴾ يعنى : محمداً ﷺ. وقرأ الربيع بن أنس : «الذين جاؤوا بالصدق» يعنى : الأنبياء ،
«وصدقوا به» يعنى : الأتباع. وقال مجاهد : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال : أصحاب
القرآن المؤمنون يحيئون يوم القيامة ، فيقولون : هذا ما أعطيتمونا ، فعملنا فيه بما أمرتمونا. وهذا
القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين ؛ فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به ، والرسول ﷺ أولى
الناس بالدخول فى هذه الآية على هذا التفسير ، فإنه جاء بالصدق ، وصدق المرسلين ، وآمن بما
أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن
أسلم : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو رسول الله ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ : المسلمون.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس : اتقوا الشرك . ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعنى : فى
الجنة ، مهما طلبوا وجدوا ، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ
سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الاحقاف : ١٦].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا
لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۚ﴾
وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ
مُمْسِكَةٌ رَحْمَتَهُ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ - وقرأ بعضهم : «عباده» - يعنى : أنه تعالى يكفى
من عبده وتوكل عليه . ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعنى : المشركين يخوفون الرسول ويتوعدونه
بأصنامهم وآلهتهم التى يدعونها من دونه ؛ جهلا منهم وضلالا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ أى : منيع الجناح لا يضام ،
من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه ، فإنه العزيز الذى لا أعز منه ، ولا أشد انتقاما منه ، ممن كفر
به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

وقوله : ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يعنى : أن المشركين كانوا يعترفون
بأن الله هو الخالق للأشياء كلها ، ومع هذا يعبدون معه غيره ، عما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ؛
ولهذا قال : ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ

هُنَّ مُنْسِكَاتٌ رَحْمَتُهُ ﴿٤١﴾ أى : لا تستطيع شيئا من الأمر . عن ابن عباس مرفوعا : «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، جفت الصحف ، ورفعت الأقلام ، واعمل لله بالشكر فى اليقين ، واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا » (١) .

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى : الله كافى ، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون ، كما قال هود ، عليه السلام ، حين قال له قومه : ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ . إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود : ٥٤ - ٥٦] . وقوله : ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أى : على طريقَتكم ، وهذا تهديد ووعد ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ أى : على طريقَتى ومنهجى ، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى : ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أى : فى الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أى : دائم مستمر ، لا محيد له عنه . وذلك يوم القيامة - أعاذنا الله منها .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿٤٢﴾ الله يتوفى الأنفس حين موتها **وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْآخِرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴿٤٣﴾

يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا ﷺ : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعنى : القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أى : لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به ، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ أى : فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ، ﴿وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ أى : إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أى : بموكل أن يهتدوا ، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود : ١٢] ، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد : ٤٠] .

ثم قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف فى الوجود بما يشاء ، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى ، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان ، والوفاة الصغرى عند المنام ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام : ٦٠ ، ٦١] . فذكر الوفاة الصغرى ثم الكبرى . وفى هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى ؛ ولهذا قال : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا

فِيْمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْآخِرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٤٣﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّهَا تَجْتَمِعُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ. وَفِي صَحِيحِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أُوِيَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلْفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتَ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ» (١). وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: يَقْبِضُ أَرْوَاحُ الْأَمْوَاتِ إِذَا مَاتُوا، وَأَرْوَاحُ الْأَحْيَاءِ إِذَا نَامُوا، فَتَتَعَارَفُ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَنْ تَتَعَارَفَ، ﴿فِيْمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ الَّتِي قَدْ مَاتَتْ، وَيُرْسِلُ الْآخِرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى. قَالَ السُّدِّيُّ: إِلَىٰ بَقِيَّةِ أَجْلِهَا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَمْسِكُ أَنْفُسَ الْأَمْوَاتِ، وَيُرْسِلُ أَنْفُسَ الْأَحْيَاءِ، وَلَا يَغْلُطُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿٤٤﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٥﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ ذَامًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ شُفَعَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَهُمْ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ، الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ تَلَقُّاءِ أَنْفُسِهِمْ بِلاَ دَلِيلٍ وَلَا بَرَهَانٍ حُدَاهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ، بَلْ وَلَيْسَ لَهَا عَقْلٌ تَعْقِلُ بِهِ، وَلَا سَمْعٌ تَسْمَعُ بِهِ، وَلَا بَصَرٌ تَبْصُرُ بِهِ، بَلْ هِيَ جُمَادَاتٌ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْحَيَوَانِ بكَثِيرٍ. ثُمَّ قَالَ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الزَّاعِمِينَ أَنَّ مَا اتَّخَذُوهُ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، أَخْبِرْهُمْ أَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَنْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَاهُ وَأَذِنَ لَهُ، فَمَرْجِعُهَا كُلُّهَا إِلَيْهِ، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَحْكُمُ بَيْنَكُمْ بَعْدَهُ، وَيَجْزِي كُلًا بِعَمَلِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ ذَامًا لِلْمُشْرِكِينَ أَيْضًا: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أَيْ: إِذَا قِيلَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾. ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾: نَفَرَتْ وَكَفَرَتْ وَاسْتَكْبَرَتْ. كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفات: ٣٥]، أَيْ: عَنِ الْمَتَابَعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ لَهَا. فَقُلُوبُهُمْ لَا تَقْبَلُ الْخَيْرَ، وَمَنْ لَمْ يَقْبَلِ الْخَيْرَ يَقْبَلِ الشَّرَّ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيْ: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أَيْ: يَفْرَحُونَ وَيَسْرُونَ.

﴿٤٨﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٥٠﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم فى حبههم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذى خلق السموات والأرض وفطرها، أى: جعلها على غير مثال سبق، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: السر والعلانية، ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: فى دنياهم، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم. روى مسلم عن أبى سلمة ابن عبد الرحمن قال: سألت عائشة: بأى شىء كان رسول الله ﷺ يفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١). وروى الإمام أحمد عن أبى عبد الرحمن قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاسا وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شىء، وإله كل شىء، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أقترف على نفسى إثما، أو أجره إلى مسلم». تفرد به أحمد^(٢). وروى أحمد عن أبى راشد الخبرانى قال: أتيت عبد الله ابن عمرو فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ. فألقى بين يدى صحيفة فقال: هذا ما كتب لى رسول الله ﷺ، فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق قال: يا رسول الله، علمنى، ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شىء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسى، وشر الشيطان وشركه، أو أقترف على نفسى سوءا، أو أجره إلى مسلم». ورواه الترمذى، وقال: حسن غريب من هذا الوجه^(٣).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون، ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أى: ولو أن جميع ملك الأرض وضعفه معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أى: الذى أوجبه الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهبا، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أى: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن فى بالهم ولا فى حسابهم، ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أى: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا فى الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به فى الدار الدنيا.

(١) مسلم (٧٧٠ / ٢٠٠).

(٢) المسند (٦٥٩٧) وقال الشيخ شاكر: «إسناده صحيح».

(٣) المسند (٦٨٥١) والترمذى (٣٥٢٩). وقال الشيخ شاكر: «إسناده صحيح».

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله، عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أى: لما يعلم الله من استحقاقى له، ولولا أنى عند الله تعالى خصيص لما خولنى هذا! قال قتادة: ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾: على خير عندي. قال الله عز وجل: ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أى: ليس الأمر كما زعم، بل أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهى فتنة أى: اختبار، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون. ﴿ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى، كثير ممن سلف من الأمم، ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى: فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ ﴾ أى: من المخاطبين ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى: كما أصاب أولئك، ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ كما قال تعالى مخبرا عن قارون أنه قال له قومه: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الفصل: ٧٦ - ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبا: ٣٥] . وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى: يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: لعبرا وحججا.

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جُنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ ﴾

ربع

تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

روى البخارى عن ابن عباس ؛ أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا. فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾. وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى (١). والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآية [الفرقان: ٧٠].

فالمراد : أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى فى حق المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠]. قال الحسن البصرى: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة! والآيات فى هذا كثيرة جدا. وفى الصحيحين عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ، حديث الذى قتل تسعا وتسعين نفسا، ثم ندم وسأل عبدا من عباد بنى إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله وأكمل به مائة. ثم سأل عالما من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدتها فأتاه الموت فى أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها. فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة. وذكر أنه نأى ب صدره عند الموت، وأن الله أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد (٢) هذا معنى الحديث.

(١) البخارى (٤٨١٠)، ومسلم (١٩٣/١٢٢)، وأبو داود (٧٢٧٤)، والنسائى (٨٦/٧).

(٢) البخارى (٣٤٧٠)، ومسلم (٤٦/٢٧٦٦).

وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيزا ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٤] ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولا من هؤلاء، من قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨]. قال ابن عباس: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وعن شتير بن شكل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية فى كتاب الله: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية فى القرآن بخير وشر: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية فى القرآن فرجا فى سورة الغرف: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾، وإن أشد آية فى كتاب الله تفويضا: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. فقال له مسروق: صدقت. وعن أبى الكنود قال: مر عبد الله - يعنى ابن مسعود - على قاص، وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر، لم تقنط الناس؟ ثم قرأ: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾.

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذى نفسى بيده، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذى نفس محمد بيده، لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم». تفرد به أحمد (١). وروى الإمام أحمد عن أبى أيوب الأنصارى، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئا سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «لولا أنكم تذنبون، لخلق الله قوما يذنبون فيغفر لهم». وأخرجه مسلم والترمذى (٢).

ثم استحث تعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿ وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ ﴾ أى: ارجعوا إلى الله واستسلموا له، ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أى: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النعمة، ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وهو القرآن العظيم، ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بُغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أى: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

ثم قال: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ أى: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط فى التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل ﴿ وَإِنْ كُنْتَ لَمِنَ السَّآخِرِينَ ﴾ أى: إنما كان عملى فى الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق.

(١) المسند (٢٣٨/٣). وقال الهيثمى فى الزوائد (٢١٨/١٠): «رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات».

(٢) المسند (٤١٤/٥) ومسلم (٩/٢٧٤٨) والترمذى (٣٥٣٩).

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾
 أى : تود أن لو أعيدت إلى الدار فتحسن العمل . قال ابن عباس : أخبر الله سبحانه ، ما العباد قائلون قبل أن يقولوه ، وعملهم قبل أن يعملوه . وقال : ﴿ وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٤] ، ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فأخبر الله تعالى : أن لو ردوا لما قدروا على الهدى ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨] . وقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول : لو أن الله هداني؟! فتكون عليه حسرة » . قال : « وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أن الله هداني! » قال : « فيكون له الشكر » . ورواه النسائي (١) .

ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا ، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتى فى الدار الدنيا ، وقامت حججى عليك ، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها ، وكنت من الكافرين بها ، الجاحدين لها .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾
 ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه ، وتبيض فيه وجوه ، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف ، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، قال تعالى هاهنا : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : فى دعواهم له شريكا وولداً ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ أى : بكذبهم وافترائهم .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أى : أليست جهنم كافية لهم سجنا وموتلا ، لهم فيها الخزى والهوان ، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق . عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر فى صور الناس ، يعلوهم كل شئ من الصغار ، حتى يدخلوا سجنا من النار فى واد يقال له بولس ، من نار الأنبار ، ويسقون عصارة أهل النار ، من طينة الخبال » (٢) .

وقوله : ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ أى : مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أى : ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، بل هم آمنون من كل فزع ، مزحزون عن كل شر ، مؤملون كل خير .

(١) المسند (٥١٢/٢) والنسائي (٢/١١٤٥٤) . وروى نحوه البخارى (٣٢٤٠) ومسلم (٢٨٦٦/٦٥ ، ٦٦) .

(٢) المسند (٦٦٥٩) ، والترمذى (٢٤٩٢) . وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » . وصحح إسناده الشيخ شاکر .

﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ١١ ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ١٢ ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ ١٣ ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ١٤ ﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ١٥ ﴿

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها ، وربها ومليكتها والمتصرف فيها ، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته . وقوله : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : المقاليد هي : المفاتيح . وكذا قال قتادة . وقال السدي : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : خزائن السموات والأرض . والمعنى على كلا القولين : أن أزيمة الأمور بيده ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى : حججه وبراهينه ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ : ذكروا فى سبب نزولها ما رواه ابن أبى حاتم وغيره ، عن ابن عباس : إن المشركين من جاهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ، ويعبدوا معه إلهه ، فنزلت : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ . وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . وهذه كقوله : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٨] . وقوله : ﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى : أخلص العبادة لله وحده ، لا شريك له ، أنت ومن معك ، أنت ومن اتبعك وصدقك .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرَكُونَ ﴾ ١٦ ﴿

يقول تعالى : وما قدر المشركون الله حق قدره ، حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذى لا أعظم منه ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته . قال مجاهد : نزلت فى قريش . وقال السدي : ما عظموه حق تعظيمه . وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوه . وقال ابن عباس : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير ، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره . وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة ، والطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف .

روى البخارى : عن عبد الله بن مسعود قال : جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد : إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع . فيقول : أنا الملك . فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، تصديقا لقول الخبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ الآية . ورواه الإمام أحمد ، ومسلم ، والترمذى

والنسائي بنحوه (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله ، قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب ، فقال : يا أبا القاسم ، أبلغك أن الله يحمل الخلائق على إصبع ، والسموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع ؟ قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه . قال : وأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ إلى آخر الآية . وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي (٢) . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : مر يهودى برسول الله ﷺ وهو جالس فقال : كيف تقول يا أبا القاسم : يوم يجعل الله السماء على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلق على ذه - كل ذلك يشير بإصبعه - قال : فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ الآية . وكذا رواه الترمذي ، وقال : حسن صحيح غريب (٣) . ثم روى البخاري عن أبي هريرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يقبض الله الأرض ، ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض » . ورواه مسلم (٤) . وروى البخاري عن ابن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع ، وتكون السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » . ورواه مسلم (٥) . وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده ، يحركها يقبل بها ويدبر : « يمجده الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم » . فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا : ليخرن به . ورواه مسلم والنسائي وابن ماجه نحوه (٦) .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي قِيَامٍ يَنْظُرُونَ ﴾ ٦٨ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿ ٧٠ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة ، فقلوه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ هذه النفخة هي الثانية ، وهي نفخة الصعق ، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض ، إلا من

(١) البخاري (٤٨١١ ، ٧٤١٤ ، ٧٤١٥ ، ٧٤٥١) والمسند (٤٠٨٧) ومسلم (١٩ / ٢٧٨٦) والترمذي (٣٢٣٨) والنسائي في الكبرى (١١٤٥١) .

(٢) المسند (٣٥٩٠) والبخاري (٧٤٥١) ومسلم (٢١ / ٢٧٨٦ ، ٢٢) والنسائي في الكبرى (١١٤٥٢) .

(٣) المسند (٢٩٩٠) والترمذي (٣٢٤٠) . (٤) البخاري (٤٨١٢) ومسلم (٢٣ / ٢٧٨٧) .

(٥) البخاري (٧٤١٢) ومسلم (٢٥ / ٢٧٨٨) .

(٦) المسند (٥٤١٤) ومسلم (٢٥ / ٢٧٨٨) والنسائي في الكبرى (٧٦٨٩) وابن ماجه (٤٢٧٥) .

شاء الله كما جاء مصرحا به مفسرا في حديث الصور المشهور. ثم يقبض أرواح الباقيين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا، وهو الباقي آخر بالديمومة والبقاء، ويقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أنا: الذى كنت وحدى وقد قهرت كل شىء، وحكمت بالفناء على كل شىء. ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى، وهى النفخة الثالثة نفخة البعث، قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أى: أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ. فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

روى الإمام أحمد عن النعمان بن سالم قال: سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال: سمعت رجلا قال لعبد الله بن عمرو: إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ قال: لقد هممت ألا أحدثكم شيئا، إنما قلت: سترون بعد قليل أمرا عظيما. ثم قال عبد الله ابن عمرو: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال فى أمتى، فيمكث فيهم أربعين - لا أدرى أربعين يوما أو أربعين عاما أو أربعين شهرا أو أربعين ليلة - فيبعث الله عيسى ابن مريم، كأنه عروة بن مسعود الثقفى، فيظهر فيهلكه الله. ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم كان فى كبد جبل لدخلت عليه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «ويبقى شرار الناس فى خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرا». قال: «فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم فى ذلك دارة أرزاقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق. ثم يرسل الله - أو: ينزل الله مطرا كأنه الطل - أو الظل، شك نعمان - فتنبت منه أجساد الناس. ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ: ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، قال: «ثم يقال: أخرجوا بعث النار». قال: «فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. فيومئذ تبعث الولدان شيئا، ويومئذ يكشف عن ساق». انفرد بإخراجه مسلم (١). وروى البخارى عن أبى هريرة يحدث عن النبى ﷺ قال: «بين النفختين أربعون». قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوما؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، ويبلى كل شىء من الإنسان إلا عَجْبُ ذنبه، فيه يركب الخلق (٢).

وقوله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ أى : أضاءت يوم القيامة إذا تجلّى الحق ، تبارك وتعالى ، للخلائق لفصل القضاء ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ قال قتادة : كتاب الأعمال ، ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ ﴾ قال ابن عباس : يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم ، ﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ أى : الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ، ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ أى : بالعدل ، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ . قال الله : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، ولهذا قال : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ أى : من خير أو شر ، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [٧١] قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَنُورُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿ [٧٢]

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار ، وإنما يساقون سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد ، كما قال عز وجل : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاءً ﴾ [الطور : ١٣] أى : يدفعون إليها دفعا . هذا وهم عطاش ظماء ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا . وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثَةً ﴾ [مريم : ٨٥ ، ٨٦] . وهم فى تلك الحال صُمُّ وبكم وعمى ، منهم من يمشى على وجهه ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَ ﴾ وبُكْمًا وَصُمًّا مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿ [الإسراء : ٩٧] .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ أى : بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا ، لتعجل لهم العقوبة ، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية - الذين هم غلاظ الأخلاق ، شداد القوى ، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أى : من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ، ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ أى : يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أى : ويحذرونكم من شر هذا اليوم ، فيقول الكفار لهم : ﴿ بَلَىٰ ﴾ أى : قد جاؤنا وأنذرونا ، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى : ولكن كذبناهم وخالفناهم ، لما سبق إلينا من الشقوة التى كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل ، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى الآية الأخرى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ . وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ٨ - ١٠] أى : رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١١]

أى: بعدا لهم وخسارا. وقوله هاهنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ما كثر فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها، ﴿فَبُئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: فبئس المصير وبئس المقيّل لكم، بسبب تكبركم فى الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (٧٢) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة ﴿زُمَرًا﴾ أى: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضا. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ أى: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتصر لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنة، وقد ورد فى حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول، فيقصدون آدم، ثم نوحا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمدا، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما فعلوا فى العرصات عند استشفاعهم إلى الله، عز وجل، أن يأتى لفصل القضاء، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر فى المواطن كلها. وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع فى الجنة» وفى لفظ لمسلم: «وأنا أول من يقرع باب الجنة» (١). وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتى باب الجنة يوم القيامة فاستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. قال: يقول: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك». ورواه مسلم (٢).

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ولا يبصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها. أنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم

زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم، من الحسن. لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا». وروى البخارى ومسلم نحوه (١).

وروى الحافظ أبو يعلى عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب درى فى السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعا فى السماء». وأخرجاه أيضا (٢). وعن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتى زمرة، هم سبعون ألفا، تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر». فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم: فقال: «اللهم اجعله منهم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم. فقال ﷺ: «سبقك بها عكاشة». أخرجاه (٣). ولهما عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفا - أو: سبعمائة ألف - آخذ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر» (٤).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾: لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاؤوها، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراما وتعظيما، وتلقاهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالثريب والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سعادوا وطابوا، وسرورا وفرحوا، بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم. وإذا حذف الجواب هاهنا ذهب الذهن كل مذهب فى الرجاء والأمل. ومن زعم أن «الواو» فى قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد النجعة، وأغرق فى النزاع. وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله، دعى من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان» فقال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، ما على أحد من ضرورة دعى، من أيها دعى، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم». ورواه البخارى ومسلم بنحوه (٥). وفيهما عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان،

(١) المسند (٨١٨٣) والبخارى (٣٢٢٥) ومسلم (١٤/٢٨٣٤).

(٢) أبو يعلى فى مسنده (٤٧٠/١٠) والبخارى (٣٣٢٧) ومسلم (١٥/٢٨٣٤).

(٣) البخارى (٦٥٤٢) ومسلم (٣٦٩/٢١٦). (٤) البخارى (٦٥٥٤) ومسلم (٣٧٣/٢١٩).

(٥) المسند (٧٦٢١) والبخارى (٣٦٦٦) ومسلم (٨٥/١٠٢٧).

لا يدخله إلا الصائمون » (١) . وفى صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو: فيسبغ الوضوء - ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء » (٢) .

ذكر سعة أبواب الجنة - نسأل الله العظيم من فضله أن يجعلنا من أهلها :

فى الصحيحين عن أبى هريرة فى حديث الشفاعة الطويل : «يقول الله : يا محمد، أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس فى الأبواب الأخر. والذى نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة - ما بين عضادتى الباب - لكما بين مكة وهجر - أو: هجر ومكة». وفى رواية: «مكة وبصرى» (٣) .

وفى صحيح مسلم، عن عتبة ابن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: «ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام» وفى المسند مثله (٤) .

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أى: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أى: ماكثين فيها أبدا، لا ييغون عنها حولا. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: يقول المؤمنون إذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: الذى كان وعدنا على السنة رسله الكرام، كما دعوا فى الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لَنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥] .

وقولهم: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَبِوًّا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدى، وابن زيد: أى أرض الجنة. وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَبِوًّا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أى: أين شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا. وفى الصحيحين عن أنس فى قصة المعراج قال النبى ﷺ: « أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك » (٥) .

وعن أبى سعيد ، أن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة؟ فقال: درمكة بيضاء مسك خالص: فقال رسول الله ﷺ: «صدق». رواه مسلم (٦) .

(١) البخارى (١٨٩٦) ومسلم (١١٥٢/١٦٦) .
 (٢) مسلم (١٧/٢٣٤) .
 (٣) البخارى (٤٧١٢) ومسلم (٣٢٧/١٩٤) .
 (٤) مسلم (٢٩٦٧/١٤) والمسند (٣/٥) .
 (٥) مضى بطوله عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء ، وخرجناه هناك .
 (٦) مسلم (٩٢/٢٩٢٨) .

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٧٥﴾

لما ذكر تعالى حكمه فى أهل الجنة والنار، وأنه نَزَلَ كُلًّا فى المحل الذى يليق به ويصلح له، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور - أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى: بين الخلائق ﴿ بِالْحَقِّ ﴾. ثم قال: ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: ونطق الكون أجمعه - ناطقه وبهيمة - لله رب العالمين، بالحمد فى حكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد. قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد فى قوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [الأنعام: ١]، واختتم بالحمد فى قوله: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

تفسير سورة غافر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْدٌ ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿ ١ ﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ
التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿ ٢ ﴾

ربع

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أى: تنزيل هذا الكتاب - وهو القرآن - من الله ذى العزة والعلم، فلا يرام جنابه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابيه. وقوله: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ أى: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة فى المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه. وقوله: ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ أى: لمن تمرد وطغى وأثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله، وبغى. وهذه كقوله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، يقرن هذين الوصفين كثيراً فى مواضع متعددة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف. وقوله: ﴿ ذِي الطَّلَوِّ ﴾ قال ابن عباس: يعنى: السعة والغنى. وهكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال يزيد بن الأصم: يعنى: الخير الكثير. وقال عكرمة: ذى المن. وقال قتادة: ذى النعم والفواضل. والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المن والأنعام، التى لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ الآية [إبراهيم: ٣٤].

وقوله: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى: لا نظير له فى جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴾ أى: المرجع والمآب، فيجازى كل عامل بعمله، ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٤١]. جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إنى قتلت، فهل لى من توبة؟ فقرا عليه: ﴿ حَمْدٌ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ وقال: اعمل ولا تيأس. رواه ابن أبى حاتم - واللفظ له - وابن جرير (١). وروى ابن أبى حاتم عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب ففقد عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، تتابع فى هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذى الطول، لا إله إلا هو

إليه المصير». ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه، وأن يتوب الله عليه. فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي. ورواه الحافظ أبو نعيم وزاد: «فلم يزل يرددّها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخا لكم زل زلة فسدوده ووثقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه^(١)».

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ ﴾

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ أي: في أموالها ونعيمها وزهرتها، كما قال: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وقال عز وجل: ﴿نُمتّعهم قليلاً ثُمَّ نَضُرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]. ثم قال تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء؛ فإنه قد كذبهم أمهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من كل أمة ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي: ماحلّوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي. وقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف بلغك عذابي لهم، ونكالي بهم؟ قد كان شديداً موجعاً مؤلماً. قال قتادة: كان والله شديداً. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأخرى؛ لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك.

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حَمَلَةِ العرش الأربعة ، ومن حوله من الكروبيين ، بأنهم يسبحون بحمد ربهم ، أى : يقرنون بين التسبيح الدال على نفى النقائص ، والتحميد المقتضى لإثبات صفات المدح ، ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى : خاشعون له أذلاء بين يديه ، وأنهم ﴿ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : من أهل الأرض ممن آمن بالغيب ، فقيض الله سبحانه ملائكته المقربين أن يَدْعُوا للمؤمنين بظهر الغيب ، ولما كان هذا من سجايا الملائكة ، عليهم الصلاة والسلام ، كانوا يُؤْمِنُونَ على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب ، كما ثبت فى صحيح مسلم : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ، ولك بمثله » (١) .

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ صدق أمية فى شىء من شعره ، فقال :

رَجُلٌ وَثُورٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ وَالنَّسْرُ لِلْأُخْرَى وَلَيْثٌ مُرْصَدٌ

فقال رسول الله ﷺ : « صدق » . فقال :

وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ حَمْرَاءُ يُصْبِحُ لَوْنُهَا يَتَوَرَّدُ
تَأْبَى فَمَا تَطْلُعُ لَنَا فِي رِسْلِهَا إِلَّا مَعَذَّةٌ وَإِلَّا تُجْلَدُ

فقال النبى ﷺ : « صدق » (٢) . وهذا إسناد جيد : وهو يقتضى أن حملة العرش اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٧] .

وهنا سؤال ، وهو أن يقال : ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية ، ودلالة هذا الحديث ؟ وبين الحديث الذى رواه أبو داود عن العباس بن عبد المطلب ، قال : كنت بالبطحاء فى عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة ، فنظر إليها فقال : « ما تسمون هذه ؟ » قالوا : السحاب . قال : « والمزن ؟ » قالوا : والمزن . قال : « والعنان ؟ » قالوا : والعنان - قال أبو داود : ولم أتقن العنان جيداً - قال : « هل تدرون بُعد ما بين السماء والأرض ؟ » قالوا : لا ندري . قال : « بُعد ما بينهما إما واحدة ، أو اثنتان ، أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء فوقها كذلك » حتى عدّ سبع سموات « ثم فوق السماء السابعة بحر ، بين أسفله وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال ، بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم الله ، تبارك وتعالى ، فوق ذلك » ثم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن غريب . وهذا يقتضى أن حملة العرش ثمانية ،

(١) مسلم (٢٧٣٢ / ٨٦) .

(٢) المسند (٢٣١٤) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » .

كما قال شهر بن حوشب : حملة العرش ثمانية ، أربعة يقولون : «سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك» . وأربعة يقولون : «سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك» .

ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أى : رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أى : فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه ، واتبعوا ما أمرتهم به ، من فعل الخيرات وترك المنكرات ، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى : وزحزحهم عن عذاب الجحيم ، وهو العذاب الموجع الأليم ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أى : اجمع بينهم وبينهم ، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع فى منازل متجاورة ، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ (١) بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور : ٢١] أى : ساوينا بين الكل فى المنزلة ، لتقر أعينهم ، وما نقصنا العالى حتى يساوى الدانى ، بل رفعنا ناقص العمل ، فساوينا به بكثير العمل ، تفضلا منا ومنه . قال سعيد بن جبیر : إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه ، وأين هم ؟ فيقال : إنهم لم يبلغوا طبقتك فى العمل . فيقول : إني إنما عملت لى ولهم . فيلحقون به فى الدرجة ، ثم تلا سعيد بن جبیر هذه الآية : ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة ، ثم تلا هذه الآية : ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ ، وأغش عباد الله للمؤمنين الشياطين .

وقوله : ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى : الذى لا يمانع ولا يغالب ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الحكيم فى أقوالك وأفعالك ، من شرعك وقدرك . ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أى : فعلها أو وبالها ممن وقعت منه ، ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أى : لطفت به ونجيته من العقوبة ، ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا فَاْلْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾

(١) هى قراءة ، كما مضى بيانه عند تفسير الآية (١٦٤) من سورة الأنعام .

يقول تعالى مخبرا عن الكفار: إنهم يُنَادُونَ يوم القيامة وهم فى غَمَرَات النيران يتلظون، وذلك عندما باشروا من عذاب الله ما لا قَبْلَ لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة، التى كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارا عاليا، نادوهم نداء بأن مقت الله لهم فى الدنيا حين كان يُعرض عليهم الإيمان، فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المذبذبون أنفسكم اليوم فى هذه الحالة. قال قتادة فى قوله: ﴿ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ يقول: لمقت الله أهل الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان فى الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة. وهكذا قال الحسن البصرى، ومجاهد، والسدى، وذَرَّ بن عبد الله الهمداني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وابن جرير الطبرى، رحمة الله عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَيْنِ ﴾ قال ابن مسعود: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨] وكذا قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وهذا هو الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية.

والمقصود من هذا كله: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله، عز وجل، فى عرصات القيامة، كما قال: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، فلا يجابون. ثم إذا رأوا النار وعابنوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] فإذا دخلوا النار وذاقوا مَسَّهَا وحسبها ومقامعها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧]، ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨]، وفى هذه الآية الكريمة تلتطفوا فى السؤال، وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة، وهى قولهم: ﴿ رَبَّنَا أَمَتَنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَيْنِ ﴾ أى: قدرتك عظيمة، فإنك أحيتنا بعد ما كنا أمواتا، ثم أمتنا ثم أحيتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا فى الدار الدنيا، ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أى: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك؛ لنعمل غير الذى كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإننا ظالمون. فأجيبوا ألا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا. ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تجحده وتنفيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾، أى: أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨]. وقوله: ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ أى: هو الحاكم فى خلقه، العادل الذى لا يجور، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو.

وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أى : يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه فى خلقه العلوى والسفلى من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ، ﴿ وَيُنَزِّلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس ، من اختلاف ألوانه وطعومه ، وروائح وأشكاله وألوانه ، وهو ماء واحد ، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء ، ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ أى : يعتبر ويتفكر فى هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ أى : من هو بصير منيب إلى الله ، عز وجل .

وقوله : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ أى : فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء ، وخالفوا المشركين فى مسلكهم ومذهبهم . روى الإمام أحمد عن أبى الزبير قال : كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » قال : وكان رسول الله ﷺ يهتلى بهن دبر كل صلاة . ورواه مسلم وأبو داود والنسائى (١) . وقد ثبت فى الصحيح عن ابن الزبير : أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » (٢) .

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤُنْ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)

يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه ، وارتفاع عرشه العظيم العالى على جميع مخلوقاته كالسقف لها ، كما قال تعالى : ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ . تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٣ ، ٤] ، وهذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة ، فى قول جماعة من السلف والخلف ، وهو الأرجح إن شاء الله تعالى . وقوله : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢] ، وكقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤] ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ يَوْمَ

(١) المسند (٤ / ٤) ومسلم (١٣٩ / ٥٩٤) وأبو داود (١٥٠٦) والنسائى فى الكبرى (١٢٦٢) .

(٢) مسلم (١٣٩ / ٥٩٤) .

التَّلاقِ : اسم من أسماء يوم القيامة، حذر منه عباده. وقال: يلتقى فيه آدم وآخر ولده. وقال ابن زيد: يلتقى فيه العباد. وقال قتادة، والسدى وغيرهما: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض. وقال قتادة أيضا: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق. وقد يقال: إن يوم التلاق هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر. كما قاله آخرون.

وقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ أى: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلمهم ولا يسترهم. ولهذا قال: ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾: أى: الجميع فى علمه على السواء. ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قد تقدم فى حديث ابن عمر: أنه تعالى يطوى السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ (١). وفى حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه، وحده لا شريك له، حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلا: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى: الذى هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه (٢).

وقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يخبر تعالى عن عدله فى حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها، وبالسئنة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى ذر، عن رسول الله ﷺ - فيما يحكى عن ربه عز وجل - أنه قال: «يا عبادى، إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا - إلى أن قال -: يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (٣). وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أى: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿٢٠﴾

يوم الآزفة هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ. لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨] وقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وقال: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ [الملك: ٢٧].

(١) مضى تخريجه عند الآية (٦٧) من سورة الزمر.

(٢) مضى بتمامه وتخرجه عند الآية (٧٣) من سورة الأنعام. (٣) مسلم (٥٥/٢٥٧٧).

وقوله : ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ ﴾ قال قتادة : وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف ، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة ، والسدى ، وغير واحد . ومعنى ﴿ كَاطِمِينَ ﴾ أى : ساكتين ، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبا : ٣٨] . وقال ابن جرير : ﴿ كَاطِمِينَ ﴾ أى : باكين . وقوله : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أى : ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ، ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير .

وقوله : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ : يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء ، جليلها وحقيقها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم ، فيستحيوا من الله حق الحياء ، ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه ، وأنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ : وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسنة ، أو تمر به وبهم المرأة الحسنة ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غص ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غص ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ودّ لو اطلع على فرجها . وقال الضحاك : ﴿ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ : هو الغمز ، وقول الرجل : رأيت ، ولم ير ؛ أو : لم أر ، وقد رأى . وقال ابن عباس : يعلم تعالى من العين فى نظرها ، هل تريد الخيانة أم لا ؟ وكذا قال مجاهد ، وقتادة . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ : يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزنى بها أم لا ؟ وقال السدى : ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ أى : من الوسوسة .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ أى : يحكم بالعدل . قال ابن عباس : قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة ، وبالسّيئة السيئة ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ . وهذا الذى فسر به ابن عباس فى هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى : من الأصنام والأوثان والأنداد ، ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ أى : لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أى : سميع لأقوال خلقه ، بصير بهم ، فيهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الحاكم العادل فى جميع ذلك .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ رُبَمَا كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُدَوِّبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ۖ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : من الأمم المكذبة بالأنبياء ، ما حل بهم من العذاب والنكال ، مع

أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أى : أثروا فى الأرض من البنايات والمعالم والديارات ، ما لا يقدر عليه هؤلاء ، كما قال : ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الاحقاف : ٢٦] ، وقال : ﴿وَأَثَرُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم : ٩] أى : ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد ، أخذهم الله بذنوبهم ، وهى كفرهم برسولهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أى : وما دفع عنهم عذاب الله أحد ، ولا رده عنهم راد ، ولا وقاهم واق .

ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التى ارتكبوها واجترموها ، فقال تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى : بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ﴿فَكَفَرُوا﴾ أى : مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أى : أهلكهم ودمر عليهم وللكافرين أمثالها ، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى : ذو قوة عظيمة وبطش شديد ، وهو ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى : عقابه اليم شديد وجيع . أعاذنا الله منه .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه ، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له فى الدنيا والآخرة ، كما جرى لموسى بن عمران ، عليه السلام ، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات ، والدلائل الواضحات ؛ ولهذا قال : ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ والسلطان هو : الحجة والبرهان ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ هو : ملك القبط بالديار المصرية ﴿وَهَامَانَ﴾ وهو : وزيره فى مملكته ﴿وَقَارُونَ﴾ وكان أكثر الناس فى زمانه مالا وتجارة ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَابٌ﴾ أى : كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً ممهاً كذاباً فى أن الله أرسله . وهذه كقولته : ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات : ٥٢ ، ٥٣] .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أى : بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بنى إسرائيل . أما الأول : فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى ، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم ، أو لمجموع الأمرين . وأما الأمر الثانى : فللعلة الثانية ، لإهانة هذا الشعب ، ولكى يتشاءموا بموسى ، عليه السلام ؛ ولهذا قالوا : ﴿أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الاعراف : ١٢٩] . قال قتادة : هذا أمر بعد

أمر. قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أى : وما مكرهم وقصدهم الذى هو تقليل عدد بنى إسرائيل لئلا ينصروا عليهم ، إلا ذاهب وهالك فى ضلال .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ : وهذا عزم من فرعون - لعنه الله - على قتل موسى ، عليه السلام ، أى : قال لقومه : دعونى حتى أقتل لكم هذا ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ أى : لا أبالى منه . وهذا فى غاية الجحد والتجهرم والعناد . وقوله - قبحه الله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ يعنى : موسى ، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم . وهذا كما يقال فى المثل : « صار فرعون مذكراً » ، يعنى : واعظا ، يشفق على الناس من موسى ، عليه السلام . وقرأ الأكثرون : « أن يبدل دينكم وأن يظهر فى الأرض الفساد » وقرأ آخرون : ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ وقرأ بعضهم : « يظهر فى الأرض الفساد » ، بالضم .

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أى : لما بلغه قول فرعون : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ قال موسى : استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أيها المخاطبون ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أى : عن الحق ، مجرم ﴿ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ ؛ ولهذا جاء فى الحديث عن أبى موسى ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوما قال : « اللهم ، إنا نعوذ بك من شرورهم ، وندراً بك فى نحورهم » (١) .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿١٨﴾ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿١٩﴾ ﴾

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون . واختاره ابن جرير ، ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً ؛ لأن فرعون انفعّل لكلامه واستمعه ، وكف عن قتل موسى ، عليه السلام ، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة ؛ لأنه منهم . وقال ابن عباس : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون ، والذى قال : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [القصص : ٢٠] . وقد كان هذا الرجل يكتُم إيمانه عن قومه القبط ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ ، فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل ، و«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» (٢) ، كما ثبت بذلك الحديث ، ولا أعظم من هذه الكلمة

(١) المسند (٤/٤١٤) ، والحاكم فى المستدرک (٢/١٤٢) وقال : « حديث صحيح على شرط الشيخين وأكبر ظنى أنهما لم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٢) أبو داود (٤٣٤٤) والترمذى (٢١٧٤) وقال : « غريب من هذا الوجه » ، وصححه الألبانى .

عند فرعون، وهى قوله: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ، اللهم إلا ما رواه البخارى عن عروة ابن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرنى بأشد شىء مما صنعه المشركون برسول الله ﷺ، قال: بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه فى عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر، رضى الله عنه، فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبى ﷺ، ثم قال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ . انفراد به البخارى (١) .

وقوله: ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى: كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول: «ربى الله»، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم فى المخاطبة فقال: ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ . يعنى: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأى التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذباً فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة، وإن يك صادقاً وقد آذيتموه يصبكم بعض الذى يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً، فينبغى على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه .

وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى، عليه السلام، أنه طلب من فرعون وقومه المواعدة فى قوله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ . أَنْ أَذُوا إِلَىٰ إِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ . وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ ﴾ [الدخان : ١٧ - ٢١] وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعوا إلى الله عباد الله، ولا يمسوه بسوء، و يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة فى ترك أذيته، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣] أى: إلا ألا تؤذونى فيما بينى وبينكم من القرابة، فلا تؤذونى وتتركوا بينى وبين الناس . وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحاً مبيناً . وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ أى: لو كان هذا الذى يزعم أن الله أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون، لكان أمره بينا، يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله، كانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله، وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله .

ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم: ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور فى الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتكم رسوله، ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ أى: لا تغنى عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لقومه، راداً على ما أشار به هذا

الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أى: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ كذب فيه وافتري، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أى: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضا فى ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩]، وفى الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام» (١).

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿٢٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ ﴿٢١﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ ﴿٢٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مَذِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ ﴿٢٥﴾

هذا إخبار من الله، عز وجل، عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون: أنه حذر قومه بأس الله فى الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أى: الذين كذبوا رسل الله فى قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله، وما رده عنهم راد، ولا صده عنهم صاد ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أى: إنما أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره. فأنفذ فيهم قدره.

ثم قال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يعنى: يوم القيامة وسمى بذلك، قال بعضهم: لما جاء فى حديث الصور: إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر، وماجت وارتجت، فنظر الناس إلى ذلك، ذهبوا هاربين ينادى بعضهم بعضا. وقال آخرون، منهم الضحاك: بل ذلك إذا جىء بجهنم، ذهب الناس هربا، فتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام

المحشر، وهو قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] . وقد روى عن ابن عباس، والحسن، والضحاك: أنهم قرؤوا: «يوم التناد»، بتشديد الدال، من ند البعير: إذا شرد وذهب. وقيل: لأن الميزان عنده ملك، وإذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته: ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا. وإن خف عمله نادى: ألا قد شقى فلان بن فلان. وقال قتادة: ينادى كل قوم بأعمالهم: ينادى أهل الجنة أهل الجنة، وأهل النار أهل النار. وقيل: سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار: ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ﴾ [الأعراف: ٤٤]. ومناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠] ، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار، كما هو مذكور في سورة الأعراف. واختار البغوي وغيره: أنه سمي بذلك لمجموع ذلك. وهو قول حسن جيد، والله أعلم.

وقوله : ﴿ يَوْمَ تُؤْكَفُونَ مُدَبِّرِينَ ﴾ أى : ذاهبين هاريين ، ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة: ١١ ، ١٢] ، ولهذا قال : ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أى : ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى : من أضله الله فلا هادى له غيره .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يعنى : أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى، وهو يوسف، عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القبط (١)، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ أى : يئستم فقلتم طامعين : ﴿ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ أى : كحالكم هذا يكون حال من يضلله الله لإسرافه فى أفعاله وارتباب قلبه .

ثم قال : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ أى : الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : والمؤمنون أيضا يُبغضون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفا، ولا ينكر منكرا؛ ولهذا قال : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أى : على اتباع الحق ﴿ جَبَّارٍ ﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٢٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون، وعتوه، وتمرده، وافترائه فى تكذيبه موسى، عليه السلام،

أنه أمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا ، وهو : القصر العالى المنيف الشاهق . وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوى ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا ﴾ [القصص : ٣٨] .

وقوله : ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ ﴾ قال سعيد بن جبير ، وأبو صالح : أبواب السموات . وقيل : طرق السموات ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ وهذا من كفره وتمرده ، أنه كذب موسى ، عليه السلام فى أن الله ، عز وجل ، أرسله إليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى : بصنيعه هذا الذى أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئا يتوصل به إلى تكذيب موسى ، عليه السلام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ يعنى : إلا فى خسار .

﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَتَقَوَّمُ أَتَّبِعُونَ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ٢٨
يَتَقَوَّمُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ٢٩ مَن
عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٠

يقول المؤمن لقومه ممن ترمد وطغى وآثر الحياة الدنيا ، ونسى الجبار الأعلى ، فقال لهم : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ، لا كما كذب فرعون فى قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ . ثم زهدهم فى الدنيا التى آثروها على الأخرى ، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه السلام ، فقال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ أى : قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ أى : الدار التى لا زوال لها ، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها ، بل إما نعيم وإما جحيم ، ولهذا قال : ﴿ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ أى : واحدة مثلها ، ﴿ وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى : لا يتقدر بجزاء بل يشبهه الله ثوابا كثيرا لا انقضاء له ولا نفاد .

﴿ وَيَتَقَوَّمُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِنِي إِلَى النَّارِ ﴾ ٤١ تَدْعُونِنِي رِيع
لَا كُفْرَ بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقْرِ
﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَن مَّردنَا
إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ ٤٢ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ
وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ٤٣ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا
مَكَرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ٤٤ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ٤٥

يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهى عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذى بعثه ﴿وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ؟
 أى: جهل بلا دليل ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ أى: هو فى عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ يقول: حقا. قال السدى، وابن جرير: معنى قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقا. وقال الضحاك: ﴿لَا جَرَمَ﴾: لا كذب. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا جَرَمَ﴾، يقول: بلى، إن الذى تدعوننى إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ قال مجاهد: الوثن ليس بشيء. وقال قتادة: يعنى الوثن، لا ينفع ولا يضر. وقال السدى: لا يجيب داعيه، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الاحقاف: ٥، ٦]، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

وقوله: ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: فى الدار الآخرة، فيجازى كلا بعمله؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله. ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أى: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتمكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم، ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أى: هو بصير بهم، فيهدى من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وقوله: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكُرُوا﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فنجاه الله مع موسى، عليه السلام، وأما فى الآخرة فبالجنة ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو: الغرق فى اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم. فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أى: أشده ألما وأعظمه نكالا. وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور، وهى قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

ولكن هاهنا سؤال، وهو أنه لاشك أن هذه الآية مكية، وقد استدلوا بها على عذاب القبر فى البرزخ، وقد روى الإمام أحمد عن عائشة؛ أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقال الله عذاب القبر. قالت: فدخل رسول الله ﷺ على فقالت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال: «لا، وعم ذلك؟». قالت: هذه اليهودية، لا نصنع إليها شيئا من المعروف إلا قالت: وقال الله عذاب القبر. قال: «كذبت يهود. وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة». ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملا بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادى بأعلى صوته: «القبر كقطع الليل المظلم. أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا وضحكتكم قليلا. أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق». وهذا إسناد صحيح على شرط

البخارى ومسلم، ولم يخرجاه (١). وروى أحمد عن عائشة - قال: سألتها امرأة يهودية فأعطتها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر. فأنكرت عائشة ذلك، فلما رأت رسول الله ﷺ قالت له، فقال: «لا». قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: «وإنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم». وهذا أيضا على شرطهما (٢). فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية، وفيها الدليل على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح إلى النار غدوا وعشيا فى البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور، إذ قد يكون ذلك مختصا بالروح، فأما حصول ذلك للجسد وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث المرضية الآتى ذكرها. وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن فى قبره بذنوب، ومما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد عن عائشة، أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهى تقول: أشعرت أنكم تفتنون فى قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود». قالت عائشة: فلبثنا ليلالى، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشعرت أنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى القبور؟». وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيز من عذاب القبر. وهكذا رواه مسلم (٣).

وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد فى قبورها، فلما أوحى إليه فى ذلك بخصوصيته استعاذ منه، والله، سبحانه وتعالى، أعلم. وقد روى البخارى، عن عائشة، أن يهودية دخلت عليها فقالت: نعوذ بالله من عذاب القبر. فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: «نعم، عذاب القبر حق». قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر (٤). فهذا يدل على أنه بادر إلى تصديق اليهودية فى هذا الخبر، وقرر عليه. وفى الأخبار المتقدمة: أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي، فلعلهما قضيتان، والله أعلم، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جدا.

وقال قتادة فى قوله: ﴿غَدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: صباحا ومساء، ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيخا ونقمة وصغارا لهم. وقال ابن زيد: هم فيها اليوم، يُغْدَى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة. وروى الإمام أحمد عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله، عز وجل، إلى يوم القيامة». أخرجاه فى الصحيحين (٥).

(٢) المسند (٢٣٨/٦).

(١) المسند (٥٣/٦).

(٣) المسند (٢٤٨/٦) مسلم (١٢٣/٥٨٤).

(٤) البخارى (١٣٧٢).

(٥) المسند (٥٩٢٦) والبخارى (١٣٧٩) ومسلم (٦٥/٢٨٦٦).

﴿ وَإِذْ يَتَحَاوَتُ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ ٤٧ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ٤٨ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ٤٩ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ ﴾ وهم: الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم: القادة والسادة والكبراء : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أى: أطعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ أى: قسطا تتحملونه عنا. ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ أى: لا نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ أى: يقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ : لما علموا أن الله، سبحانه، لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] سألوا الخزنة - وهم كالبوابين (١) لأهل النار - أن يدعوا لهم الله أن يخفف عن الكافرين ولو يوما واحدا من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على السنة الرسل؟ ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا ﴾ أى: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتكم أو لم تدعوا، لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم؛ ولهذا قالوا: ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أى: إلا من ذهاب، لا يتقبل ولا يستجاب.

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ ٥١ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ٥٢ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ٥٣ فَاصْبِرْ إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ٥٤ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٥﴾

قد أورد أبو جعفر بن جرير عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالاً فقال : قد عُلِمَ أن بعض الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا (١) .

ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى ، فأين النصر في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين :

أحدهما: أن يكون الخبر خرج عاماً، والمراد به البعض ، قال : وهذا سائغ في اللغة .

الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم ، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم ، كما فُعِلَ بقتلة يحيى وزكريا وشعيا (٢) ، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم ، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح ، عليه السلام ، من اليهود ، فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلّوهم ، وأظهرهم الله عليهم . ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماماً عادلاً ، وحكماً مقسطاً ، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام . وهذه نصرّة عظيمة ، وهذه سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه : أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ، ويقر أعينهم ممن آذاهم ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب » (٣) ؛ ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود ، وأصحاب الرس ، وقوم لوط ، وأهل مدين ، وأشباههم وأضرابهم ، ممن كذب الرسل وخالف الحق . وأنجى الله من بينهم المؤمنين ، فلم يهلك منهم أحداً ، وعذب الكافرين ، فلم يفلت منهم أحداً . قال السدي : لم يبعث الله رسولا قط إلى قوم فيقتلونه ، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون ، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم ، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا . قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا ، وهم منصورون فيها .

وهكذا نصر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه ، وكذبه وعاداه ، فجعل كلمته هي العليا ، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان . وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية ، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر ، فنصره عليهم وخذلهم له ، وقتل صناديدهم ، وأسر سراتهم ، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد ، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم ، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة ، فقرت عينه ببلده ، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم ، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر ، وفتح له اليمن ، ودانت له جزيرة العرب بكمالها ، ودخل الناس في دين الله أفواجا . ثم قبضه الله ، تعالى ، إليه ، لما له عنده من الكرامة العظيمة ، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده ، فبلغوا عنه دين الله ، ودعوا

(١) في المطبوعة حرفت إلى « شعيا » والمثبت من المخطوطة .

(٢) البخاري (٦٥٠٢) .

(٣) في المطبوعة حرفت إلى « شعيا » والمثبت من المخطوطة .

عباد الله إلى الله . وفتحوا البلاد والرياسات والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب ، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها . ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام الساعة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ أى : يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل . قال مجاهد : الأشهاد : الملائكة (١) .

وقوله : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ ﴾ بدل من قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ . وقرأ آخرون : « يَوْمٌ » بالرفع ، كأنه فسر به ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وهم المشركون ﴿ مَعَذِرَتُهُمْ ﴾ أى : لا يقبل منهم عذر ولا فدية ، ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ أى : الإبعاد والطرده من الرحمة ، ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ وهى النار . قاله السدى ، بشئ المنزل والمقيل . وقال ابن عباس : ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ أى : سوء العاقبة .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى ﴾ : وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور ، ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ ﴾ أى : جعلنا لهم العاقبة ، وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه ، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى ، عليه السلام ، وفى الكتاب الذى أورثوه - وهو التوراة - ﴿ هُدًى وَذِكْرًى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ وهى : العقول الصحيحة السليمة .

وقوله : ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أى : يا محمد ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ أى : وعدناك أنا سنعلى كلمتك ، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك ، والله لا يخلف الميعاد . وهذا الذى أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك . وقوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ : هذا تهيج للأمة على الاستغفار ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ ﴾ أى : فى أواخر النهار وأوائل الليل ، ﴿ وَالْإِبْكَارِ ﴾ وهى أوائل النهار وأواخر الليل .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ أى : يدفعون الحق بالباطل ، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ﴿ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ أى : ما فى صدورهم إلا كبر على اتباع الحق ، واحتقار لمن جاءهم به ، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم ، بل الحق هو المرفوع ، وقولهم وقصدهم هو الموضوع ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أى : من حال مثل هؤلاء ، ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أو : من شر مثل هؤلاء المجادلين فى آيات الله بغير سلطان . هذا تفسير ابن جرير .

(١) قلت : أين المسلمون الآن من هذه الآية ؟ لقد ضاعت كل هذه الانتصارات والفتوحات من أيدي المسلمين ، ونُحِىَ الإسلام من هذه الديار ، وترأس الإلحاد وماذاك إلا بتكالب المسلمين على الدنيا ، وحبها ، وما ألقى فى قلوبهم من الوهن ، فكانوا لقمة سائغة فى يد أعدائهم ، وتكالبت عليهم الأمم حتى أهون خلق الله على الله وهم اليهود !! ولن تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها من التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وببذ الفرقة والتعاون على البر والتقوى ، وعدم موالات أعداء الله ، والأخذ بأسباب التمكين فى الأرض ، ولينصرون الله من ينصره ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

﴿ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٥٧ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ٥٨ ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ٥٩ ﴿

يقول تعالى منها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه - بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ [وَلَمْ يَعْصِ بِخَلْقِهِنَّ] ﴾ (١) بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ [الاحقاف: ٣٣]. وقال هاهنا: ﴿ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد، استبعادا وكفرا وعنادا، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا.

ثم قال: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ﴾ أى: كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا، والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس. ثم قال: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ أى: لكائنة وواقعة، ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: لا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ٦٠ ﴿

هذا من فضله، تبارك وتعالى، وكرمه: أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا مَنْ أَحَبُّ عِبَادِهِ إِلَيْهِ مَنْ سَأَلَهُ فَأَكْثَرَ سْؤَالَهُ، ويا مَنْ أَبْغَضَ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ، وليس أحد كذلك غيرك يارب. روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدَّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ»، ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن أبى حاتم، وابن جرير، وقال الترمذى: حسن صحيح. رواه أبو داود، وابن حبان والحاكم فى صحيحيهما، وقال الحاكم: صحيح الإسناد (٢). وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدْعِ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ» (٣). وهذا إسناد لا بأس به.

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوطة.

(٢) المسند (٢٧١/٤) والترمذى (٢٩٦٩، ٣٣٧٢) والنسائى فى الكبرى (١١٤٦٤) وابن ماجه (٣٨٢٨) وابن حبان فى صحيحه (٢٣٩٦ موارد) والحاكم فى المستدرک (٤٩١/١) وابن جرير فى التفسير (٥١/٢٤).

(٣) المسند (٤٧٧/٢).

وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أى : عن دعائى وتوحيدي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أى : صاغرين حقيرين ، كما روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى ﷺ قال : « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ ، فِي صُورِ النَّاسِ ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ ، حَتَّى يَدْخُلُوا سَجْنَا فِي جَهَنَّمَ - يُقَالُ لَهُ : بُولَس - تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ ، يَسْقُونَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ : عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ » (١) .

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿١٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّيَّنُوا اللَّهَ يَجْحَدُونَ ﴿١٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ممثنا على خلقه ، بما جعل لهم من الليل الذى يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم فى المعاش بالنهار ، وجعل النهار مبصرا ، أى : مضيئا ، ليتصرفوا فيه بالأسفار ، وقطع الأقطار ، والتمكن من الصناعات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أى : لا يقومون بشكر نعم الله عليهم .

ثم قال : ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى : الذى فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد ، خالق الأشياء ، الذى لا إله غيره ، ولا رب سواه ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أى : فكيف تعبدون غيره من الأصنام ، التى لا تخلق شيئا ، بل هى مخلوقة منحوتة . وقوله : ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أى : كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله ، كذلك أفك الذين من قبلهم ، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى ، وجحدوا حجج الله وآياته .

وقوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أى : جعلها مستقرا لكم ، بساطا مهادا تعيشون عليها ، وتتصرفون فيها ، وتمشون فى مناكبها ، وأرساها بالجبال لثلا تميد بكم ، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أى : سقفا للعالم محفوظا ، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أى : فخلقكم فى أحسن الأشكال ، ومنحكم أكمل الصور فى أحسن تقويم ، ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى : من المأكول والمشرب فى الدنيا . فذكر أنه خلق الدار ، والسكان ، والأرزاق - فهو الخالق الرازق ، كما قال فى سورة البقرة : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ

بِنَاءٍ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ [البقرة: ٢٠، ٢١] وقال هاهنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أى: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم.

ثم قال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: أى: هو الحى أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: أى: لا نظير له ولا عديل له، ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: أى: موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قال ابن جرير: كان جماعة من أهل العلم يأمرّون من قال: «لا إله إلا الله» أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين، عملاً بهذه الآية. ثم روى عن ابن عباس قال: من قال: «لا إله إلا الله» فليقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» فذلك قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. روى الإمام أحمد عن محمد بن مسلم بن بدر المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون». قال: وكان رسول الله ﷺ يهل بهن دبر كل صلاة. ورواه مسلم وأبو داود والنسائي (١).

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٨﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان. وقد بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، فى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾: أى: هو الذى يخلقكم فى هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتديره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ﴾: أى: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يتوفى صغيراً، وشاباً، وكهلاً قبل الشيخوخة، كقوله ﴿لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥] وقال هاهنا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: تذكرون البعث.

ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾: أى: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه،

﴿ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أى : لا يخالف ولا يمانع ، بل ما شاء كان .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَمْجَدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرِفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّْا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَتَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

يقول تعالى : ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ، ويجادلون فى الحق بالباطل ، كيف تُصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ، ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّْا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ أى : من الهدى والبيان ، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ : هذا تهديد شديد ، ووعد أكيد ، من الرب ، جل جلاله ، لهؤلاء ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : ١٥] .

وقوله : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ ﴾ أى : متصلة بالأغلال ، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم ، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم ؛ ولهذا قال : ﴿ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ ، كما قال : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ ﴾ [الرحمن : ٤٣ ، ٤٤] . وقال بعد ذكره أكلهم الزقوم وشربهم الحميم : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ [الصفات : ٦٨] وقال : ﴿ وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ إلى أن قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَا أَكَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ . فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ هَذَا نُزِّلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الواقعة : ٤١ - ٥٦] . وقال : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ . خَذُوهُ فَاَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صَبُّوا فِيهِ رَأْسَهُ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان : ٤٣ - ٥٠] ، أى : قال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ ، والتحقير والتصغير ، والتهكم والاستهزاء بهم .

وقوله : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَتَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : قيل لهم : أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله ؟ هل ينصرونكم اليوم ؟ ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أى : ذهبوا فلم ينفعونا ، ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أى : جحدوا عبادتهم ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَسُبَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] ؛ ولهذا قال : ﴿ كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أى : تقول لهم الملائكة : هذا الذى أنتم فيه جزاء على فرحكم فى الدنيا بغير الحق ، وفرحكم وأشركم وبطركم ، ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أى : فبئس المنزل والمَقِيلُ الذى فيه الهوان والعذاب الشديد ، لمن استكبر عن آيات الله ، واتباع دلائله وحججه .

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه؛ فإن الله سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿فَمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أى: فى الدنيا. وكذلك وقع، فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أبعدوا فى يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب فى أيام حياته ﷺ وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ﴾ أى: فنذيقهم العذاب الشديد فى الآخرة.

ثم قال مسليا له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ كما قال فى «سورة النساء» سواء، أى: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسول العاقبة والنصرة، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك فى سورة النساء (١)، والله الحمد والمنة. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتى قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله له فى ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿فُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ فينجو المؤمنون، ويهلك الكافرون؛ ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى ممتنا على عباده، بما خلق لهم من الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة. والبقر تؤكل، ويشرب لبنها، وتحرب عليها الأرض. والغنم تؤكل، ويشرب لبنها. والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منه الأثاث والياب والامتعة، ولهذا قال هاهنا: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾. ولَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ. وقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى: حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم، ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾؟ أى: لا تقدرون على إنكار شىء من آياته،

إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَعَزَّ بَلَاءًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسول في قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم، وما أثروه في الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئا، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل. قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم، لن نبعث ولن نعذب. وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهم من بأس الله ما لا قبل لهم به. ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى: أحاط بهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى: يكذبون ويستبعدون وقوعه. ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أى: عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أى: وحدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُقال العثرات، ولا تنفع المَعذرة. وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله تعالى: ﴿ آتَاكَ مَا كُنْتَ تَكْفُرُ ﴾ [يونس: ٩١] أى: فلم يقبل الله منه؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى دعاءه عليه حين قال: ﴿ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨]. وها هنا قال: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ أى: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يقبل؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» (١) أى: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة، وعاین الملك، فلا توبة حينئذ؛ ولهذا قال: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾.

(١) الترمذی (٣٥٣٧) وابن ماجه (٤٢٥٣)، وحسنه الألبانی .

تفسير سورة فصلت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٤﴾

يقول تعالى : ﴿حَمْدٌ﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ يعني : القرآن منزل من الرحمن الرحيم ، كقوله : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل : ١٠٢] ، وقوله : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤] .

وقوله : ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أى : بُيِّنَتْ معانيه وأحكامه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى : فى حال كونه لفظا عربيا ، بينا واضحا ، فمعانيه مفصلة ، وألفاظه واضحة غير مشككة ، كقوله : ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود : ١] أى : هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢] . وقوله : ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى : إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماءُ الراسخون ، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى : تارة يبشر المؤمنين ، وتارة ينذر الكافرين ، ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أى : أكثر قريش ، فهم لا يفهمون منه شيئا مع بيانه ووضوحه ، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أى : فى غلف مغطاة ﴿مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أى : صمم عما جئتنا به ، ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما نقول ، ﴿فَأَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ أى : اعمل أنت على طريقتك ، ونحن على طريقتنا لا نتابعك .

عن محمد بن كعب القرظى قال : حَدَّثْتُ أَنَّ عْتَبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ - وكان سيذا - قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السُّطَّةِ فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها . قال : فقال له رسول الله ﷺ : «قل يا أبا الوليد ، أسمع» . قال : يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالا . وإن كنت تريد به شرفا

سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا. وإن كان هذا الذى يأتيك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يدأوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟». قال: نعم. قال: «فاستمع مني» قال: أفعل. قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حَمْدٌ. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك»، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: أقسم - يحلف بالله - لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها لى، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم (١).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، ﴿فاستقيموا إليه﴾ أى: اخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على السنة الرسل، ﴿واسْتَغْفِرُوهُ﴾ أى: لسالف الذنوب، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أى: دمار لهم وهلاك عليهم، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال ابن عباس: يعنى: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وهذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّى﴾ [النازعات: ١٨].

والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقاً إلى استعماله فى الطاعات. وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم. وهذا هو الظاهر عند

كثير من المفسرين ، واختاره ابن جرير . وفيه نظر ؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة ، على ما ذكره غير واحد ، وهذه الآية مكية ، اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به في ابتداء البعثة ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٤١] ، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة ، ويكون هذا جمعا بين القولين ، كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة ، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف ، فرض الله على رسوله ﷺ الصلوات الخمس ، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك ، شيئا فشيئا ، والله أعلم .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال مجاهد وغيره : لا مقطوع ولا محبوب ، كقوله : ﴿ مَا كُنْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف : ٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : ١٠٨] .

﴿ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٩] وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَى مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا معه غيره ، وهو الخالق لكل شيء ، القاهر لكل شيء ، المقدر لكل شيء ، فقال : ﴿ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ أى : نظراء وأمثالا تعبدونها معه ، ﴿ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم . وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، ففصل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسما ، فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس ، والأصل أن يُبْدَأَ بالأساس ، ثم بعده بالسقف ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ الآية [البقرة : ٢٩] . فأما قوله : ﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا . مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات : ٢٧ - ٣٣] ففي هذه الآية أن دحى الأرض كان بعد خلق السماء ، فالدحى هو مفسر بقوله : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ ، وكان هذا بعد خلق السماء ، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص ، وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية من صحيحه ، فإنه قال رجل لابن عباس : إني أجد في القرآن أشياء تختلف على ، قال : ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] ، ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [الصافات : ٢٧] ، ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ لِلَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٤٢] ، ﴿ وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] ؛ فقد

كتموا في هذه الآية ؟ وقال : ﴿ أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ ، إلى قوله : ﴿ دَحَاهَا ﴾ [النازعات : ٢٧ - ٣٠] ، فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ثم قال : ﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ إلى قوله : ﴿ طَائِعِينَ ﴾ ، فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء ؟ وقال : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٩٦] ، ﴿ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ٥٦] ، ﴿ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] ، فكأنه كان ثم مضى . فقال ابن عباس : ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ في النفخة الأولى ، ثم ينفخ في الصور ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الزمر : ٦٨] ، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الأخرى ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ .

وأما قوله : ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ، ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ ، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، فقال المشركون : تعالوا نقول : « لم نكن مشركين » ، فيختم على أفواههم ، فتنتطق أيديهم ، فعند ذلك يعرف أن الله لا يكتُم حديثًا ، وعنده ﴿ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية [الحجر : ٢] . وخلق الأرض في يومين ، ثم خلق السماء ، ثم استوى إلى السماء ، فسواهن في يومين آخرين ، ثم دَحَى الأرض ، ودَحِيَّهَا : أن أخرج منها الماء والمرعى ، وخلق الجبال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين ، فذلك قوله : ﴿ دَحَاهَا ﴾ ، وقوله : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ، فخلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام ، وخلقت السموات في يومين . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٩٦] ، سمى نفسه بذلك ، وذلك قوله ، أى : لم يزل كذلك ؛ فإن الله لم يرد شيئًا إلا أصاب به الذى أراد ، فلا يختلفن عليك القرآن ، فإن كلا من عند الله عز وجل .

فقوله : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ يعنى : يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ أى : جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس ، ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ وهو : ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس ، يعنى : يوم الثلاثاء والأربعاء ، فهما مع اليومين السابقين أربعة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ ﴾ أى : لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه . وقال مجاهد وعكرمة فى قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ : جعل فى كل أرض ما لا يصلح فى غيرها . وقال ابن عباس ، وقتادة ، فى قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ ﴾ أى : لمن أراد السؤال عن ذلك . وقال ابن زيد : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ ﴾ أى : على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة ، فإن الله قدر له ما هو محتاج إليه . وهذا القول يشبه ما ذكره فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا كُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ وهو : بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض ، ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أى : استجيبا لأمرى ، وانفعلا لفعلى ، طائعتين أو مكرهتين . قال ابن عباس : قال الله تعالى للسموات : أطلعى شمسى وقمرى ونجومى . وقال للأرض : شققى أنهارك ، وأخرجى ثمارك : فقالتا : ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ . واختاره ابن جرير . ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ أى : بل نستجيب لك مطيعين بما فينا ، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعا مطيعين لك . حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية ، قال : وقيل : تنزيلا لهن معاملة من يعقل

بكلامهما . ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى : ففرغ من تسويتهن سبع سموات فى يومين ،
أى : آخرين ، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أى : ورتب مقررًا فى
كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة ، وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلا هو ، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ
الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ ، وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ، ﴿وَحِفْظًا﴾ أى : حرسًا من
الشياطين أن تستمع إلى الملائكة الأعلى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى : العزيز الذى قد عز كل شىء
فغلبه وقهره ، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم .

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ
بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا
أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِرَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا
يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جنتهم به من الحق : إن أعرضتم
عما جنتكم به من عند الله ، فإنى أنذركم حلول نقمة الله بكم ، كما حلت بالأمم الماضين من
المكذبين بالرسلين ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أى : ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما ، ﴿إِذْ
جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ
خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف : ٢١] أى : فى القرى المجاورة لبلادهم ، بعث الله إليهم
الرسل يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، ومبشرين ومنذرين ، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من
النقم ، وما ألبس أوليائه من النعم ، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا ، بل كذبوا وجحدوا ، وقالوا :
﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أى : لو أرسل الله رسلا لكانوا ملائكة من عنده ، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ﴾ أى : لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا .

قال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى : بغوا وعتوا وعصوا ، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا
قُوَّةً﴾ أى : منوا بشدة تركيبيهم وقواهم ، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله ! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ
اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أى : أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة ؟ فإنه العظيم الذى
خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها ، وإن بطشه شديد ، كما قال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا
بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات : ٤٧] ، فبارزوا الجبار بالعداوة ، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله ، فلهذا
قال : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم : وهى الشديدة الهبوب . وقيل : الباردة . وقيل :
هى التى لها صوت . والحق أنها متصفة بجميع ذلك ، فإنها كانت ريحا شديدة قوية ؛ لتكون

عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدا، كقوله تعالى: ﴿بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] أى: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق «صرصرا»، لقوة صوت جريه.

وقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أى: متتابعات، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، كقوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أى: ابتدئوا بهذا العذاب فى يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ أى: أشد خزيا لهم، ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ أى: فى الآخرة، كما لم ينصروا فى الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدراً عنهم النكال.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وقتادة، : بينا لهم. وقال الثورى: دعوناهم. ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ أى: بصرناهم، وبيننا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه السلام، فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أى: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: من التكذيب والجحود. ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: من بين أظهرهم، لم يمسه سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح عليه السلام بإيمانهم، وتقواهم لله، عز وجل.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخُسْرَيْنِ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار ﴿يُوزَعُونَ﴾ أى: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ [مريم: ٨٦] أى: عطاشا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أى: وقفوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: بأعمالهم مما قدموه وأخروه، لا يكتّم منه حرف. ﴿وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ ؟ أى: لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء:

﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى : فهو لا يخالف ولا يمانع ، وإليه ترجعون . عن أنس بن مالك ، قال : ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم ، فقال : «ألا تسألونى عن أى شىء ضحكت ؟ » قالوا : يا رسول الله ، من أى شىء ضحكت؟ قال : «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : أى ربى ، أليس وعدتنى ألا تظلمنى؟ قال : بلى ، فيقول : فإنى لا أقبل على شاهد إلا من نفسى . فيقول الله تبارك وتعالى : أو ليس كفى بى شهيدا ، وبالملائكة الكرام الكاتبين ؟! قال : فيردد هذا الكلام مرارا . قال : «فيختم على فيه ، وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول : بُعْداً لَكُنَّ وسُحُقا ، عنكن كنت أجادل .» أخرجه مسلم والنسائى (١) . وقد تقدم أحاديث كثيرة ، وأثار عند قوله فى سورة يس : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الآية : ٦٥] ، بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله : ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أى : تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم : ما كنتم تتكتمون منا الذى كنتم تفعلونه ، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصى ، ولا تبالون منه فى زعمكم ؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ أى : هذا الظن الفاسد - وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون - هو الذى أتلّفكم وأرداكم عند ربكم ، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى : فى مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهلكم . روى الإمام أحمد عن عبد الله قال : كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر : قرشى ، وختناه ثقفيان - أو : ثقفى وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعهم ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر : إن سمع منه شيئا سمعه كله . قال : فذكرت ذلك للنبي ﷺ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ . وكذا رواه الترمذى ومسلم بنحوه والبخارى (٢) . وروى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن ، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله ، فقال الله تعالى : ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ » (٣) .

وقوله : ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أى : سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم فى النار ، لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها . وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا فما لهم أعذار ، ولا تُقال لهم عثرات . قال ابن جرير : ومعنى قوله : ﴿وَأَنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ أى : يسألوا الرجعة إلى الدنيا ، فلا جواب لهم - قال : وهذه كقوله تعالى إخبارا

(١) مسلم (١٧/٢٩٦٩) والنسائى فى الكبرى (١١٦٥٣) بنحوه .

(٢) المسند (٣٨٧٥) والبخارى (٤٨١٧) ومسلم (٥/٢٧٧٥) والترمذى (٣٢٤٩) .

(٣) المسند (٣/٣٩٠) .

عنهم : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَوْوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون ﴾ [المؤمنون : ١٠٦ - ١٠٨] .

ربع

﴿ وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴾ (١٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿١٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿١٩﴾

يذكر تعالى أنه هو الذى أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم فى أفعاله، بما قيض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أى : حسنوا لهم أعمالهم فى الماضى، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف : ٣٦ ، ٣٧] .

وقوله تعالى : ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أى : كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعلهم، من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أى : استووا هم وإياهم فى الخسار والدمار . وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أى : تواصلوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامره ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أى : إذا تلى لا تستمعوا له . قال مجاهد : ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ يعنى : بالمكاء والصفير والتخليط فى المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله . وقال ابن عباس : ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ : عيوه . وقال قتادة : اجحدوا به، وأنكروه وعادوه . ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ : هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن . وقد أمر الله - سبحانه - عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الاعراف : ٢٠٤] .

ثم قال تعالى : منتصرا للقرآن، ومنتقما ممن عاداه من أهل الكفران : ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أى : فى مقابلة ما اعتمدوه فى القرآن وعند سماعه، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى : بشر أعمالهم، وسيئ أفعالهم ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ . وقال الذين كفروا ربنا أرينا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين . قال سفيان الثورى عن على فى قوله : ﴿الَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾ قال : إبليس وابن آدم الذى قتل أخاه . وقال السدى، عنه : فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس - لعنه الله - هو الداعى إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول . كما

ثبت في الحديث: « ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل » (١).

وقوله: ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أى: أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذابا منا؛ ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أى: فى الدرك الأسفل من النار، كما تقدم فى «الأعراف» من سؤال الأتباع من الله أن يعذب قاداتهم أضعاف عذابهم ، قال: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] أى: إنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾ تَزُولُ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أى: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم. عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: أى آية فى كتاب الله أرخص؟ قال قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله. وقال الزهرى: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا - والله - لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على أداء فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهم، أنت ربنا ، فارزقنا الاستقامة. وقال أبو العالية: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ : أخلصوا له العمل والدين. وروى الإمام أحمد عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، حدثنى بأمر أعتصم به. قال: «قل: ربى الله ، ثم استقم». قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف على؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: «هذا». رواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى: حسن صحيح (٢). وقد أخرجه مسلم فى صحيحه والنسائى عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولاً ، لا أسأل عنه أحدا بعدك . قال: « قل : آمنت بالله ، ثم استقم » . وذكر تمام الحديث (٣).

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال مجاهد، والسدى، وزيد بن أسلم: يعنى عند الموت قائلين: ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ أى: مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أى: على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإننا نخلفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾

(١) مضى تخريجه عند الآية (٢٩) من سورة المائدة .

(٢) المسند (٤١٣/٣) ، والترمذى (٢٤١٠) وابن ماجه (٣٩٧٢) ، وصححه الألبانى .

(٣) مسلم (٣٨) والنسائى (١/١١٤٨٩) .

فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير. وهذا كما في حديث البراء: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان» (١). وقيل: إن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، والسدي. وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدا. وهو الواقع.

وقوله: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أى: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أى: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ أى: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهي النفوس، وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أى: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، كما اخترتم، ﴿نَزْلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أى: ضيافة وعطاء وإنعاما من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف. وروى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت؟ قال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب الله لقاءه» قال: «وإن الفاجر - أو الكافر - إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر - أو: ما يلقي من الشر - فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه».

وهذا حديث صحيح، وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه (٢).

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾
 ﴿٢٢﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ
 ﴿٢٤﴾ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾

يقول عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أى: دعا عباد الله إليه ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل ياتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة في كل من دعا إلى خير، وهو في

(١) مضى الحديث وتخریجه عند الآية (٤٠) من سورة الأعراف.

(٢) المسند (١٠٧/٣) والبخاری (٦٥٠٧) ومسلم (١٤/٢٦٨٣).

نفسه مهتد ، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك ، كما قال محمد بن سيرين ، والسدى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقيل : المراد بها المؤذنون الصالحاء . والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم ، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية ؛ لأنها مكية ، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة ، حين أريه عبد الله بن زيد بن عبدربه الأنصارى فى منامه ، فقصه على رسول الله ﷺ ، فأمره أن يلقيه على بلال فإنه أندى صوتاً ، كما هو مقرر فى موضعه ، فالصحيح إذاً أنها عامة ، كما قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الحسن البصرى : أنه تلا هذه الآية : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، فقال : هذا حبيب الله ، هذا ولى الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحاً فى إجابته ، وقال : إننى من المسلمين ، هذا خليفة الله .

وقوله : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ أى : فرق عظيم بين هذه وهذه ، ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى : من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه ، كما قال عمر : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وهو الصديق ، أى : إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادتة تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك ، والحنو عليك ، حتى يصير كأنه ولى لك حميم ، أى : قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك . ثم قال : ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى : وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك ، فإنه يشق على النفوس ، ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى : ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والأخرى . قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم .

وقوله : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أى : إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه ، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك ، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه ، كفه عنك ورد كيده .

وقد كان رسول الله ﷺ : إذا قام إلى الصلاة يقول : «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه» (١) . وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له فى القرآن إلا فى «سورة الأعراف» عند قوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٩٩ ، ٢٠٠] ، وفى سورة المؤمنين عند قوله : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون : ٩٦ - ٩٨] .

(١) ابن ماجه (٨٠٨) وصححه الألبانى .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا
لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ٢٧ ﴿ فَإِنْ
اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۝
٢٨ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۖ إِنَّ
الَّذِيَ أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ٢٩ ﴿

سجدة

يقول تعالى منها خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له، وأنه على ما يشاء قادر، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أى: أنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضياءه، وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازلها فى فلكه، واختلاف سيره فى سمائه، ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات. ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة فى العالم العلوى والسفلى، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أى: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ أى: عن أفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره، ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعنى: الملائكة، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾، كقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أى: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أى: هامة لا نبات فيها، بل هى ميتة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أى: أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ٤٠ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاثِبٌ عَزِيزٌ ﴾ ٤١ ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ٤٢ ﴿ يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَفِلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ٤٣ ﴿

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قال ابن عباس: الإلحاد: وضع الكلام على غير مواضعه. وقال قتادة، وغيره: هو الكفر والعناد. وقوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد، أى: أنه تعالى عالم بمن يلحد فى آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؟ أى: أيستوى هذا وهذا؟ لا يستويان. ثم قال - عز وجل - تهديداً للكفرة: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قال مجاهد، والضحاك، وعطاء: وعيد، أى: من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم؛ ولهذا

قال : ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ قال الضحاك ، والسدى ، وقتادة : وهو القرآن ، ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ أى : منيع الجنب ، لا يرام أن يأتى أحد بمثله ، ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أى : ليس للبطلان إليه سبيل ؛ لأنه منزل من رب العالمين ؛ ولهذا قال : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ أى : حكيم فى أقواله وأفعاله ، حميد بمعنى محمود ، أى : فى جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته .

ثم قال : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ قال قتادة ، والسدى ، وغيرهما : ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسول من قبلك ، فكما قد كذبت فقد كذبوا ، وكما صبروا على أذى قومهم لهم ، فاصبر أنت على أذى قومك لك . وهذا اختيار ابن جرير . وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أى : لمن تاب إليه ، ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : لمن استمر على كفره ، وطغيانه ، وعناده ، وشقاقه ، ومخالفته .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته ، وإحكامه فى لفظه ومعناه ، ومع هذا لم يؤمن به المشركون ، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت ، كما قال عز وجل : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٨ ، ١٩٩] . وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم ، لقالوا على وجه التعنت والعناد : ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أى : لقالوا : هلا أنزل مفصلا بلغة العرب ، ولأنكروا ذلك فقالوا : أعجمى وعربى ؟ أى : كيف ينزل كلام أعجمى على مخاطب عربى لا يفهمه ؟ . هكذا روى هذا المعنى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة وغيرهم . وقيل : المراد بقولهم : ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أى : هلا أنزل بعضها بالأعجمى ، وبعضها بالعربى . هذا قول الحسن البصرى ، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام فى قوله : ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾ ، وهو رواية عن سعيد بن جبير . وهو فى التعنت والعناد أبلغ .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أى : قل يا محمد : هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه ، وشفاء لما فى الصدور من الشكوك والريب ، ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أى : لا يفهمون ما فيه ، ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ أى : لا يهتدون إلى ما فيه من البيان ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] . ﴿ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال مجاهد : يعنى بعيد من قلوبهم . قال ابن جرير : معناه : كأن من يخاطبهم

يناديه من مكان بعيد ، لا يفهمون ما يقول . قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] . وقال الضحاك : ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ﴾ أى : كُذِّبَ وأوذى ، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الاحقاف : ٣٥] . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [الشورى : ١٤] بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ، ﴿ لَقَضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أى : لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أى : وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا ، بل كانوا شاكين فيما قالوا ، غير محققين لشيء كانوا فيه . هكذا وجهه ابن جرير ، وهو محتمل ، والله أعلم .

﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ الجزء ٢٥
يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامٍهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا
بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاؤُا۟ قَالُوا۟ ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ۝٤٧ وَضَلَّ
عَنَّهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوٓا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٤٨

يقول تعالى : ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ أى : إنما يعود نفع ذلك على نفسه ، ﴿ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ أى : إنما يرجع وبال ذلك عليه ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أى : لا يعاقب أحداً إلا بذنبه ، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه .

ثم قال : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى : لا يعلم ذلك أحد سواه ، كما قال محمد ﷺ ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة - حين سأله عن الساعة ، فقال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١) ، وكما قال تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٤] ، وقال : ﴿ لَا يُجْلِيهَا لَوَقْتُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] . وقوله : ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَةٍ (٢) مِّنْ أَكْمَامٍهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ أى : الجميع بعلمه ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، وقال جلّت عظمتة : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْذَاذُ وَكُلِّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨] ، وقال : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر : ١١] .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاؤُا۟ ﴾ أى : يوم القيامة ينادى الله المشركين على رؤوس الخلائق : أين شركائى الذين عبدتموهم معى ؟ ﴿ قَالُوا۟ آذَنَّاكَ ﴾ أى : أعلمناك ، ﴿ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ أى : ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكاً ، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أى : ذهبوا فلم ينفعوهم ، ﴿ وَظَنُّوٓا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أى : وظن المشركون يوم القيامة ، وهذا بمعنى اليقين ،

(١) مسلم (١ / ٨) .

(٢) « ثمرة » : قراءة الجمهور ، وكذا قراءة الحافظ ابن كثير .

﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ أى : لا محيد لهم عن عذاب الله ، كقوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف : ٥٣] .

﴿ لَا يَسْتَعْمِلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ ﴿٤٩﴾
 وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً
 وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا
 وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا
 مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

يقول تعالى : لا يَملَ الإنسان من دعائه ربه بالخير وهو : المال ، وصحة الجسم ، وغير ذلك ، وإن مسه الشر وهو : البلاء أو الفقر ﴿ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ أى : يقع فى ذهنه أنه لا يتهيا له بعد هذا خير . ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ أى : إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان فى شدة ليقولن : هذا لى ، إني كنت أستحقه عند ربي ، ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أى : يكفر بقيام الساعة ، أى : لأجل أنه خولَّ نعمة يفخر ، ويبطر ، ويكفر ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴾ [العلق : ٦ ، ٧] . ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ أى : ولئن كان ثم معاد فليحسنن إلى ربي ، كما أحسن إلى فى هذه الدار ، يتمنى على الله ، عز وجل ، مع إساءته العمل وعدم اليقين . قال تعالى : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ أى : أعرض عن الطاعة ، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله ، عز وجل ، كقوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ بُرْكَتِهِ ﴾ [الذاريات : ٣٩] . ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أى : الشدة ، ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ أى : يطيل المسألة فى الشيء الواحد ، فالكلام العريض : ما طال لفظه وقل معناه ، والوجيز : عكسه ، وهو : ما قل ودل . وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِجَبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ﴾ الآية [يونس : ١٢] .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ ﴿٥١﴾ سَرُّهُمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ
 أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٢﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيعَةٍ مِنَ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا
 إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ أى : كيف تُروون حالكم عند الذى أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال :

﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ ؟ أى : فى كفر وعناد ومشاقة للحق ، ومسلك بعيد من الهدى .
ثم قال : ﴿ سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى : سنظهر لهم دلائلنا وحُجَجنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله ، عز وجل ، على رسوله ﷺ بدلائل خارجية ﴿ فِي الْآفَاقِ ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان . قال مجاهد ، والحسن ، والسدى : ودلائل فى أنفسهم ، قالوا : وقعة بدر ، وفتح مكة ، ونحو ذلك من الوقائع التى حلت بهم ، نصر الله فيها محمداً وصحبه ، وخذل فيها الباطل وحزبه . ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاق والهيئات العجيبة ، كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى . وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة ، من حسن وقبيح وبين ذلك ، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التى لا يقدر بحوله ، وقوته ، وحيله ، وحذره أن يجوزها ، ولا يتعدها .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم ، وهو يشهد أن محمداً صادق فيما أخبر به عنه ، كما قال : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ [النساء : ١٦٦] .

وقوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ أى : فى شك من قيام الساعة ؛ ولهذا لا يتفكرون فيه ، ولا يعملون له ، ولا يحذرون منه ، بل هو عندهم هدر لا يعبؤون به وهو واقع لا ريب فيه وكائن لا محالة . روى ابن أبى الدنيا عن عمر بن عبد العزيز أنه صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فإننى لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم ، ولكن فكرت فى هذا الأمر الذى أنتم إليه صائرون ، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحق ، والمكذب به هالك ثم نزل . ومعنى قوله : « أن المصدق به أحق » أى : لأنه لا يعمل له عمل مثله ، ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله ، وهو مع ذلك مصدق به ، موقن بوقوعه ، وهو مع ذلك يتمادى فى لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه ، فهو أحق بهذا الاعتبار ، والأحق فى اللغة : ضعيف العقل . وقوله : « والمكذب به هالك » : هذا واضح ، والله أعلم .

ثم قال تعالى - مقررًا على أنه على كل شيء قدير ، وبكل شيء محيط ، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ أى : المخلوقات كلها تحت قهره وفى قبضته ، وتحت طى علمه ، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

تفسير سورة الشورى

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْدٌ ﴾ ﴿ عَسَقٌ ﴾ ﴿ ١ ﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿ ٢ ﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿ ٣ ﴾ تَكَادُ
السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي
الْأَرْضِ أَلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ ٤ ﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ
حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿ ٥ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : كما أنزل إليك هذا القرآن ، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك . وقوله : ﴿ اللَّهُ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فى انتقامه ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقواله وأفعاله . روى الإمام مالك عن عائشة : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علىّ فيفصم عنيّ قد وعيت ما قال . وأحياناً يأتينى الملك رجلاً فيكلمنى ، فأعنى ما يقول » . قالت عائشة : فلقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البارد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً . أخرجاه فى الصحيحين ، ولفظه للبخارى (١) . وقد رواه الطبرانى عن الحارث بن هشام ؛ أنه سأل رسول الله ﷺ : كيف ينزل عليك الوحي ؟ فقال : « مثل صلصلة الجرس ، فيفصم عنيّ وقد وعيت ما قاله » قال : « وهو أشده علىّ » قال : « وأحياناً يأتينى الملك فيتمثل لى فيكلمنى ، فأعنى ما يقول » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : الجميع عبيد له وملك له ، تحت قهره وتصريفه ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد : ٩] ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبا : ٢٣] ، والآيات فى هذا كثيرة . وقوله : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ قال ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، أى فرقاً ، من العظمة ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ كقوله : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾

(١) الموطأ (٢٠٢ / ١) والبخارى (٢) ومسلم (٢٣٣٣ / ٢١٠) .

(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٥٩ / ٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٥٩ / ٨) : « رواه الطبرانى بإسنادين ورجال أحدهما ثقات » .

رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴿٧﴾ [غافر: ٧] . وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ : إعلام بذلك وتنويه به .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعنى : المشركين ، ﴿اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ﴾ أى : شهيد على أعمالهم ، يحصيها ويعدّها عدداً ، وسيجزّيهم بها أوفر الجزاء ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أى : إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل .

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى : وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى : واضحا جليا بينا ﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ وهى مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى : من سائر البلاد شرقا وغربا ، وسميت مكة «أم القرى» ؛ لأنها أشرف من سائر البلاد ، لأدلة كثيرة مذكورة فى مواضعها . ومن أوجز ذلك وأدله ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عدى بن الحمراء الزهرى : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - وهو واقف بالحزورة فى سوق مكة : «والله ، إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت» . وهكذا رواية الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح (١) .

وقوله: ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة ، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى : لا شك فى وقوعه ، وأنه كائن لا محالة ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ ، كقوله : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] أى : يغيب أهل الجنة أهل النار ، وكقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ . وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣ - ١٠٥] . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان ، فقال : «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قال : قلنا : لا ، إلا أن تخبرنا يا رسول الله . قال للذى فى يده اليمينى : «هذا كتاب من رب العالمين ، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» ثم قال للذى فى يساره : «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فلأى شيء إذاً نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ : «سددوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة ، وإن عمل أى عمل ، وإن صاحب النار ليختم له بعمل أهل النار ، وإن عمل أى عمل» ثم قال بيده فقبضها ، ثم قال : «فرغ ربكم عز وجل من العباد» ثم قال

(١) المسند (٣٠٥ / ٤) والترمذى (٣٩٢٥) والنسائى فى الكبرى (٤٢٥٢) وابن ماجه (٢١٠٨) .

باليمنى فنبذ بها فقال: «فريق فى الجنة»، ونبذ باليسرى فقال: «فريق فى السعير». وهكذا رواه الترمذى والنسائى. وقال الترمذى: حسن صحيح غريب^(١). وروى الإمام أحمد عن أبى نصره، أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ يقال له: أبو عبد الله - دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكى، فقالوا له: ما يبكيك؟، ألم يقل لك رسول الله ﷺ: «خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقانى» قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قبض يمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى»، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أبالى» فلا أدري فى أى القبضتين أنا^(٢). وأحاديث القدر فى الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جدا.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١ ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ٢ ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ٣ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ٤

يقول تعالى منكرًا على المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبرًا أنه الولي الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده، فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام فى جميع الأشياء، ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: هو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبى ﷺ، كقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ أى: الحاكم فى كل شيء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى: أرجع إليه فى جميع الأمور.

وقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: خالقهما وما بينهما، ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى: من جنسكم وشكلكم، منةً عليكم وتفضلاً جعل من جنسكم ذكراً وأنثى، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أى: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج. ﴿يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾ أى: يخلقكم فيه، أى: فى ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذروكم فيه ذكورا وإناثا، خلقا من بعد خلق، وجيلا بعد جيل، ونسلا بعد نسل، من الناس والأنعام. وقال البغوى: ﴿يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾ أى: فى الرحم.

(١) المسند (٦٥٦٣) والترمذى (٢١٤١) والنسائى فى الكبرى (١١٤٧٣). وقال الشيخ شاکر: «إسناده صحيح».

(٢) المسند (١٧٦/٤)، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٨٨/٧): «رجاله رجال الصحيح».

وقيل : فى البطن . وقيل : فى هذا الوجه من الخلقة . قال مجاهد : ونسلا بعد نسل من الناس والأنعام ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ أى : ليس كخالق الأزواج كلها شيء ؛ لأنه الفرد الصمد الذى لا نظير له ، ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

وقوله : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدم تفسيره فى «سورة الزمر» ، وحاصل ذلك : أنه المتصرف الحاكم فيهما ، ﴿ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : يوسع على من يشاء ، ويضيق على من يشاء ، وله الحكمة والعدل التام ، ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى لهذه الأمة : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم ، عليه السلام ، وهو نوح ، عليه السلام ، وآخرهم وهو محمد ﷺ ، ثم ذكر من بين ذلك من أولى العزم وهم : إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، عليهم السلام . وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة ، كما اشتملت آية «الأحزاب» عليهم فى قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ الآية [الأحزاب: ٧] .

والدين الذى جاءت به الرسل كلهم هو : عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَى (١) إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] . وفى الحديث : «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » (٢) أى : القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ، كقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أى : وصى الله تعالى جميع الأنبياء ، عليهم السلام ، بالائتلاف والجماعة ، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف .

وقوله : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أى : شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد . ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ أى : هو الذى يُقَدِّرُ الهداية لمن يستحقها ، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أى : إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم ، وقيام الحجة عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البغى والعناد والمشاقة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد ، لعجل لهم العقوبة فى الدنيا سريعا : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ يعنى : الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴾ أى : ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم ، بلا دليل ولا برهان ، وهم فى حيرة من أمرهم ، وشك مريب ، وشقاق بعيد .

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١٥)

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات ، كل منها منفصلة عن التى قبلها ، حكم برأسها ، قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسى ، فإنها أيضا عشرة فصول كهذه . قوله : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ﴾ أى : فللذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم ، فادع الناس إليه ﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ أى : واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله ، كما أمركم الله عز وجل ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ يعنى : المشركين فيما اختلقوه ، وكذبوه ، وافتروه من عبادة الأوثان . ﴿ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أى : صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ، لا نفرق بين أحد منهم .

وقوله : ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أى : فى الحكم كما أمرنى الله ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أى : هو المعبود ، لا إله غيره ، فنحن نقر بذلك اختيارا ، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارا ، فله يسجد من فى العالمين طوعا واختيارا ﴿ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ أى : نحن برآء منكم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١] . وقوله : ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ قال مجاهد : أى لا خصومة . قال السدى : وذلك قبل نزول آية السيف . وهذا متجه ؛ لأن هذه الآية مكية ، وآية السيف بعد الهجرة ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أى : يوم القيامة ، كقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبا : ٢٦] . وقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : المرجع والمآب يوم الحساب .

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحَنَّهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٦) **اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ** (١٧) **يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ** (١٨)

يقول تعالى - متوعدا الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به : ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ

بَعْدَ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ ﴿١٩﴾ أَيْ : يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ، ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ : باطلة عند الله ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أَيْ : منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أَيْ : يوم القيامة . قال ابن عباس ، ومجاهد : جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله ، ليصدوهم عن الهدى ، وطمعوا أن تعود الجاهلية . وقال قتادة : هم اليهود والنصارى ، قالوا لهم : ديننا خير من دينكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خير منكم ، وأولى بالله منكم . وقد كذبوا فى ذلك . ثم قال : ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى : الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو : العدل والإنصاف ، قاله مجاهد ، و قتادة . وهذه كقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد : ٢٥] ، وقوله : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن : ٧ - ٩] . وقوله : ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ : فيه ترغيب فيها ، وترهيب منها ، وتزهيد فى الدنيا .

وقوله : ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أَيْ : يقولون : ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبا : ٢٩] ، وإنما يقولون ذلك تكديبا واستبعادا ، وكفرا وعنادا ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أَيْ : خائفون وجلون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أَيْ : كائنة لا محالة ، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها . وقد روى من طرق تبلغ درجة التواتر ، فى الصحاح والحسان ، والسنن والمسانيد ، وفى بعض ألفاظه : أن رجلا سأل رسول الله ﷺ بصوت جهورى ، وهو فى بعض أسفاره ، فناداه فقال : يا محمد . فقال له النبى ﷺ نحوا من صوته «هاؤم» . فقال : متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ : «ويحك ، إنها كائنة ، فما أعددت لها ؟ » . فقال : حُب الله ورسوله . فقال : «أنت مع من أحببت» (١) . فقوله فى الحديث : «المرء مع من أحب» ، هذا متواتر لا محالة ، والغرض : أنه لم يجبه عن وقت الساعة ، بل أمره بالاستعداد لها .

وقوله : ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يَمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أَيْ : يحاجون فى وجودها ويدفعون وقوعها ، ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أَيْ : فى جهل بين ؛ لأن الذى خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى ، كما قال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم : ٢٧] .

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ﴿٢١﴾ مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٢﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقِعُ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبرا عن لطفه بخلقه فى رزقه إياهم عن آخرهم ، لا ينسى أحدا منهم ، سواء فى رزقه البرّ والفاجر ، كقوله عز وجل : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود: ٦] . ولها نظائر كثيرة وقوله : ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى : يوسع على من يشاء ، ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ أى : لا يعجزه شىء .

ثم قال : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ ﴾ أى : عمل الآخرة ، ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ أى : نقويه ونعينه على ما هو بصدده ، ونكثر نماءه ، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما يشاء الله ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ أى : ومن كان إنما سعيه ليحصل له شىء من الدنيا ، وليس له إلى الآخرة هم البتة بالكلية ، حرّمه الله الآخرة ، والدنيا إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ لم يحصل له لا هذه ولا هذه ، وفاز هذا الساعى بهذه النية بالصفقة الخاسرة فى الدنيا والآخرة . والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التى فى «سبحان» وهى قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١] .

عن أبى بن كعب ، قال : قال رسول الله ﷺ : «بشر هذه الأمة بالسَّاء والرفعة ، والنصر والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له فى الآخرة من نصيب» (١) .

وقوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ أى : هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم ، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس ، من تحريم ما حرموا عليهم ، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وتحليل الميتة والدم والقمار ، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة ، التى كانوا قد اخترعوها فى جاهليتهم ، من التحليل والتحريم ، والعبادات الباطلة ، والأقوال الفاسدة . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «رأيت عمرو بن لُحى بن قَمْعَةَ يَجُرُّ قُصْبَهُ فى النار» (٢) . لأنه أول من سيب السوائب . وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة ، وهو أول من فعل هذه الأشياء ، وهو الذى حَمَلَ قريشا على عبادة الأصنام ، لعنه الله وقبحه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ ، أى : لعوجلوا بالعقوبة ، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد ، ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : شديد موجه فى جهنم وبئس المصير .

ثم قال تعالى : ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أى : فى عرصات القيامة ، ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾

(١) المسند (١٣٤/٥) والحاكم فى المستدرک (٣١١/٤) وصححه ووافقه الذهبى . ورواه البغوى فى شرح السنة (٤١٤٤) .

(٢) مضى الحديث وتخريجه عند الآية (١٠٣) من سورة المائدة .

أى: الذى يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم فى هذا الخوف والوجل، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، فأين هذا من هذا؟ أين من هو فى العرصات فى الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو فى روضات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشرب ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى: الفوز العظيم، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٣) أم يقولون أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به.

وقوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفر قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تعطونه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى، وتذرونى أبلغ رسالات ربي، إن لم تنصرونى فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة. روى البخارى عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، فقال سعيد بن جبیر: قربى آل محمد. فقال ابن عباس: عَجَلْتُ، إن النبى ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة. انفرد به البخارى. ورواه الإمام أحمد (١). وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى، وغيرهم. وقول ثان يقول: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى: إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقربكم عند الله زلفى. وروى عن الحسن البصرى مثله. وقول ثالث عن سعيد بن جبیر، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تودونى فى قرابتى، أى: تحسنوا إليهم وتبروهم.

والحق تفسير الآية بما فسرهما به الإمام حبرُ الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخارى، ولا ننكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلى وأهل بيته وذريته، رضى الله عنهم أجمعين. وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته بغدير خم: «إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتى، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض» (٢). وروى الإمام أحمد عن العباس بن عبد المطلب قال:

قلت : يا رسول الله ، إن قریشا إذا لقی بعضهم بعضا لقوهم ببشر حسن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ؟ قال : فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً ، وقال : « والذي نفسى بيده ، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم الله ولرسوله » (١) . وروى البخارى عن أبى بكر الصديق ، قال : ارقبوا محمداً ﷺ فى أهل بيته (٢) . وفى الصحيح : أن الصديق قال لعلى : والله لقراة رسول الله ﷺ أحب إلى أن أصل من قرابتى (٣) . وقال عمر بن الخطاب للعباس ، رضى الله عنهما : والله لإسلامك يوم أسلمت ، كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب .

فحال الشيخين ، رضى الله عنهما ، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك ؛ ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين ، رضى الله عنهما ، وعن سائر الصحابة أجمعين .

وروى الإمام أحمد عن يزيد بن حبان قال : انطلقت أنا وحسين بن ميسرة ، وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً ، رأيت رسول الله ﷺ ، وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت معه . لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً . حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ . فقال : يا بن أخى ، والله كبرت سننى ، وقدم عهدى ، ونسيت بعض الذى كنت أعمى من رسول الله ﷺ ، فما حدثتكم فاقبلوه ، وما لا فلا تكلفونيهِ . ثم قال : قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا ، بماء يدعى خُماً - بين مكة والمدينة - فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر ووعظ ، ثم قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس ، إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب ، وإنى تارك فيكم الثقلين ، أولهما : كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغب فيه ، وقال : « وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى » . فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : إن نساءه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حُرِّ الصدقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال : هم آل على ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل العباس . قال : أكل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال : نعم . وهكذا رواه مسلم (٤) . وروى الترمذى عن زيد بن أرقم ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى ، أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، والآخر عترتى : أهل بيتى ، ولن يتفرقا حتى يردا على الخوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما » . تفرد بروايته الترمذى ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب (٥) . وروى الترمذى أيضاً عن جابر بن عبد الله ، قال : رأيت رسول الله ﷺ فى حجته يوم عرفة ، وهو على ناقته القصواء يخطب ، فسمعتة يقول : « يا أيها الناس ، إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن

(١) المسند (١٧٧٢ ، ١٧٧٣) وقال الشيخ شاکر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٣٧١٣) . (٣) البخارى (٣٧١٢) .

(٤) المسند (٣٦٦/٤) ومسلم (٣٦/٢٤٠٨) .

(٥) الترمذى (٣٧٨٨) وصححه الألبانى .

تضلوا: كتاب الله، وعترتي: أهل بيتي». تفرد به الترمذى أيضاً، وقال: حسن غريب (١). ثم روى الترمذى عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتى بحبى». ثم قال: حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه (٢). وقد أوردنا أحاديث أخر عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، بما أغنى عن إعادتها هاهنا، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أى: ومن يعمل حسنة ﴿ نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أى: أجزا وثوابا، كقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠]. وقال بعض السلف: من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أى: يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر.

وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ أى: لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ أى: لطبع على قلبك وسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧] أى: لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه. وقوله: ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ ﴾ أى: يحققه ويثبت ويبينه ويوضحه ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى بحججه وبراهينه، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى: بما تكنه الضمائر، وتنطوى عليه السرائر.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾
 ﴿ ١٥ ﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿ ١٦ ﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿ ١٧ ﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿ ١٨ ﴾

يقول تعالى ممثنا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر، كقوله عز وجل: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدى وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح» (٣).

(٢) الترمذى (٣٧٨٩) وصححه الألبانى .

(١) الترمذى (٣٧٨٦) وصححه الألبانى .

(٣) مسلم (٢٧٤٧ / ٧) .

وقوله : ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أى : يقبل التوبة فى المستقبل ، ويعفو عن السيئات فى الماضى ، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أى : هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتكم وقلتم ، ومع هذا يتوب على من تاب إليه .

وقوله : ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال السدى : يعنى يستجيب لهم . وكذا قال ابن جرير : معناه يستجيب لهم الدعاء ولأصحابهم وإخوانهم . وحكاه عن بعض النحاة ، وأنه جعلها كقوله : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران : ١٩٥] . ثم روى هو وابن أبى حاتم عن سلمة بن سبرة قال : خطبنا معاذ بالشام فقال : أنتم المؤمنون ، وأنتم أهل الجنة . والله إنى أرجو أن يدخل الله من تسبون من فارس والروم الجنة ، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعنى أحدهم عملا - قال : أحسنت رحمك الله ، أحسنت بارك الله فيك ، ثم قرأ : ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ . وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل قوله : ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كقوله : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر : ١٨] أى : هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام : ٣٦] والمعنى الأول أظهر ؛ لقوله تعالى : ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى : يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك .

وقال قتادة عن إبراهيم النخعى اللخمى فى قوله تعالى : ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ، قال : يشفعون فى إخوانهم ، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال : يشفعون فى إخوان إخوانهم . وقوله : ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ : لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجه المؤلم يوم معادهم وحسابهم . وقوله : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أى : لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق ، لحملهم ذلك على البغى والطغيان من بعضهم على بعض ، أشرا وبطرا . وقال قتادة : كان يقال : خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك . وقوله : ﴿وَلَكِنْ يُنْزَلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أى : ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم ، وهو أعلم بذلك ، فيغنى من يستحق الغنى ، ويفقر من يستحق الفقر .

وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أى : من بعد إياس الناس من نزول المطر ، ينزله عليهم فى وقت حاجتهم وفقرهم إليه ، كقوله : ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم : ٤٩] . وقوله : ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أى : يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية . قال قتادة : ذكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، قُحِطَ المطر وقنط الناس ؟ فقال عمر : مطرتم ، ثم قرأ : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ . ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى : هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم ، وهو المحمود العاقبة فى جميع ما يقدره ويفعله .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ (٢٩) ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٣٠) ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٣١)

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى : ذرا فيهما ، أى : فى السموات والأرض ، ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات ، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم ، وطباعهم وأجناسهم ، وأنواعهم ، وقد فرقهم فى أرجاء أقطار الأرض والسموات ، ﴿ وَهُوَ ﴾ مع هذا كله ﴿ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ أى : يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر ، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق .

وقوله : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أى : مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما عن سيئات تقدمت لكم ، ﴿ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أى : من السيئات ، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ [فاطر : ٤٥] . وفى الحديث الصحيح : «الذى نفسى بيده ، ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها ، حتى الشوكة يشاكها » (١) . عن على ، قال : ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله عز وجل ، وحدثنا به رسول الله ﷺ ، قال : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ . وسأفسرها لك يا على : «ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا ، فبما كسبت أيديكم ، والله تعالى أحلم من أن يثنى عليه العقوبة فى الآخرة ، وما عفا الله عنه فى الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه» . رواه الإمام أحمد (٢) . وروى الإمام أحمد عن معاوية - هو ابن أبى سفيان - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من شئ يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه إلا كفر الله عنه به من سيئاته » (٣) .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (٣٢) ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٣٣) ﴿ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٣٤) ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ (٣٥)

يقول تعالى : ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه ، تسخير البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، وهى الجوارى فى البحر كالأعلام ، أى : كالجبال ، قاله مجاهد ، والحسن ، والسدى ، والضحاك ،

(١) البخارى (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) ومسلم (٥٢ / ٢٥٧٣) .

(٢) المسند (٦٤٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده حسن» .

(٣) المسند (٩٨ / ٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (٣٠٤ / ٢) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

أى : هذه فى البحر كالجبال فى البر ، ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ ﴾ أى : التى تسير بالسفن ، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن ، بل تبقى راكدة لا تحيى ولا تذهب ، بل واقفة على ظهره ، أى : على وجه الماء ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أى : فى الشدائد ﴿ شَكُورٍ ﴾ أى : إن فى تسخيريه البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم ، لدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أى : فى الشدائد ، ﴿ شَكُورٍ ﴾ فى الرخاء .

وقوله : ﴿ أَوْ يُوقِنُ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى : ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها ، ﴿ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أى : من ذنوبهم . ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر . وقال بعض علماء التفسير : معنى قوله : ﴿ أَوْ يُوقِنُ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى : لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية ، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم ، فصرفت ذات اليمين أو ذات الشمال ، أبقة لا تسير على طريق ، ولا إلى جهة مقصد . وهذا القول هو يتضمن هلاكها ، وهو مناسب للأول ، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت ، أو لقواه فشردت وأبقت وهلكت . ولكن من لطف ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة ، كما يرسل المطر بقدر الكفاية ، ولو أنزله كثيرا جدا لهدم البنيان ، أو قليلا لما أنبت الزرع والثمار ، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها ؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر ، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم ، وأسقط جدرانهم . وقوله : ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِصٍ ﴾ أى : لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا ، فإنهم مقهورون بقدرتنا .

﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٢١) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٢٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٢٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿ (٢٩) ﴾

يقول تعالى محقرا لشأن الحياة الدنيا وزينتها ، وما فيها من الزهرة والنعيم الفانى ، بقوله : ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى : مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به ، فإنما هو متاع الحياة الدنيا ، وهى دار دنيئة فانية زائلة لا محالة ، ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أى : وثواب الله خير من الدنيا ، وهو باق سرمدى ، فلا تقدموا الفانى على الباقي ؛ ولهذا قال . ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى : للذين صبروا على ترك الملاذ فى الدنيا ، ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أى : ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحرمات .

ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش فى « سورة الأعراف » ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أى : سجيتهم تقتضى الصفح والعفو عن الناس ، ليس سجيتهم الانتقام من الناس . وقد ثبت فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط ،

إلا أن تنتهك حرمة الله (١) . وفى حديث آخر: كان يقول لأحدنا عند المعتبة: « ماله ؟ تربت جبينه » (٢) .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أى: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وهى أعظم العبادات لله عز وجل، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أى: لا يرمون أمرا حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم فى مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان عليه الصلاة والسلام ، يشاورهم فى الحروب ونحوها ، لطيب بذلك قلوبهم . وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى فى ستة نفر، وهم: عثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، فاجتمع رأى الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ، وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أى: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا وعفوا، كما قال يوسف، عليه السلام، لإخوته: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] ، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم من عليهم مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن غورث بن الحارث، الذى أراد الفتك به عليه السلام حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ، عليه السلام، وهو فى يده صلتا، فانتهره، فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه . وكذلك عفا عن لييد بن الأعصم، الذى سحره، عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه . وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية - وهى زينب أخت مرحب اليهودى الخبىرى الذى قتله محمود بن مسلمة - التى سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: «ما حملك على ذلك» قالت: أردت إن كنت نبيا لم يضرك، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك، فأطلقها، عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا، والحمد لله .

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾
﴿٤٠﴾ وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] . وكقوله ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ الآية [النحل : ١٢٩] ، فشرع العدل وهو القصاص ، وندب إلى الفضل وهو العفو ، كقوله : ﴿ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة : ٤٥] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : لا يضيع ذلك عند الله كما صح فى الحديث : «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا» (١) . وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : المعتدين ، وهو المبتدئ بالسيئة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أى : ليس عليهم جناح فى الانتصار ممن ظلمهم . روى النسائى وابن ماجه عن عروة قال : قالت عائشة : ما علمت حتى دخلت على زينب بغير إذن وهى غضبى ، ثم قالت لرسول الله ﷺ : حسبك إذا قلبت لك ابنة أبى بكر ذُرِيَّتَيْهَا ثم أقبلت على فأعرضت عنها ، حتى قال النبى ﷺ : «دونك فانتصرى» فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها فى فمها ، ما ترد على شيئا . فرأيت النبى ﷺ يتهلل وجهه . وهذا لفظ النسائى (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ أى : إنما الحرج والعنت ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى : يبدؤون الناس بالظلم . كما جاء فى الحديث الصحيح : «المُسْتَبَّانِ ما قالا ، فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم» (٣) . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : شديد موجه .

ثم إن الله تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص ، قال نادباً إلى العفو والصفح : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أى : صبر على الأذى وستر السيئة ، ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعنى : لمن حق الأمور التى أمر الله بها ، أى : لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التى عليها ثواب جزيل وثناء جميل . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، أن رجلا شتم أبا بكر والنبى ﷺ جالس ، فجعل النبى ﷺ يعجب ويتبسم ، فلما أكثر رد عليه بعض قوله ، فغضب النبى ﷺ وقام ، فلحقه أبو بكر فقال : يا رسول الله ، إنه كان يشتمنى وأنت جالس ، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ! قال : « إنه كان معك ملك يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان » . ثم قال : «يا أبا بكر ، ثلاث كلهن حق ، ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضى عنها الله ، إلا أعز الله بها نصرته ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة ، إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة ، إلا زاده الله بها قلة » . وكذا رواه أبو داود (٤) . وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى ، وهو مناسب للصديق رضى الله عنه .

(١) الترمذى (٢٠٢٩) وقال : « حسن صحيح » .

(٢) النسائى فى الكبرى (١١٤٧٦) وابن ماجه (١٩٨١) وفى زوائد البوصيرى : « هذا إسناد صحيح على شرط مسلم » ، وصححه الألبانى .

(٣) مسلم (٢٥٨٧ / ٦٨) .

(٤) المسند (٤٣٦ / ٢) وأبو داود (٤٨٩٧) وصححه الألبانى .

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مَنْ بَعْدَهُ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، وأنه من هداه فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، كما قال: ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧]. ثم قال عز وجل مخبرا عن الظالمين، وهم المشركون بالله ﴿ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ أى: يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا، ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ ، كما قال جل وعلا: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقوله: ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى: على النار ﴿ خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ ﴾، أى: الذى قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله، ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ قال مجاهد: يعنى ذليل، أى ينظرون إليها مسارقة خوفا منها، والذى يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما فى نفوسهم، أجارنا الله من ذلك ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: يقولون يوم القيامة: ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى: الخسار الأكبر ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ أى: ذهب بهم إلى النار، فعدموا لذتهم فى دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقرباتهم، فخسروهم، ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ أى: دائم سرمدى أبدى، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها. وقوله: ﴿ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أى: ليس له خلاص.

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ حَفِظًا إِلَّا بَلَغٌ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبًا وَإِنْ نَضِيبُ سَيْئَتِهِ يَمَّا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

لما ذكر تعالى ما يكون فى يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حذر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى: إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع. وقوله: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ أى: ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره، تبارك

وتعالى ، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته ، فلا ملجأ منه إلا إليه ، ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة : ١٠ - ١٢] . وقوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ يعنى : المشركين ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ أى : لست عليهم بمصيطر . وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] . وقال هاهنا : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ أى : إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبْنَاهَا ﴾ أى : إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ، ﴿ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ ﴾ يعنى الناس ﴿ سَيْئَةٌ ﴾ أى : جذب ونقمة وبلاء وشدة ، ﴿ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ أى : يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة ، فإن أصابته نعمة أشرب وبطر ، وإن أصابته محنة يشس وقنط ، كما قال رسول الله ﷺ للنساء : « يا معشر النساء ، تصدقن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت امرأة : ولم يارسول الله ؟ قال : « لأنكن تكثرن الشكاية ، وتكفرن العشير ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوما قالت : ما رأيت منك خيرا قط » (١) . وهذا حال أكثر الناس إلا من هداه الله وألهمه رشده ، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فالؤمن كما قال رسول الله ﷺ : « إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » (٢) .

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

يخير تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وأنه يخلق ما يشاء ، و﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنِثَاءً ﴾ أى : يرزقه البنات فقط ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ أى : يرزقه البنين فقط لم يولد له أنثى ، ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً ﴾ أى : ويعطى من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى ، أى : من هذا وهذا ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ أى : لا يولد له . فجعل الناس أربعة أقسام ، منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا ، فيجعله عقيما لا نسل له ولا يولد له ، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أى : بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ، ﴿ قَدِيرٌ ﴾ أى : على من يشاء ، من تفاوت الناس فى ذلك .

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى : ﴿ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ [مريم : ٢١] أى : دلالة لهم على قدرته ، تعالى وتقدس ، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام ، فآدم ، عليه السلام ، مخلوق من تراب ، لا من ذكر ولا أنثى ، وحواء ، عليها السلام ، مخلوقة من ذكر بلا أنثى ، وسائر الخلق

سوى عيسى، عليه السلام، من ذكر وأنثى، وعيسى، عليه السلام، من أنثى بلا ذكر فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم، عليهما السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ فهذا المقام فى الآباء، والمقام الأول فى الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

ربع ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

هذه مقامات الوحى بالنسبة إلى جناب الله، عز وجل، وهو أنه تعالى تارة يقذف فى روع النبى شيئا لا يمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء فى صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي: أَنْ نَفْسًا لَّنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا وَأَجْلَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ» (١). وقوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ﴾، كما كلم موسى، عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها. وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كَفَاحًا» الحديث (٢)، وكان قد قتل يوم أحد، ولكن هذا فى عالم البرزخ، والآية إنما هى فى الدار الدنيا. وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾، كما ينزل جبريل، عليه السلام، وغيره من الملائكة على الأنبياء، عليهم السلام ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾، فهو على عليم خبير حكيم.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعنى: القرآن، ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أى: على التفصيل الذى شرع لك فى القرآن، ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أى: القرآن ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يامحمد ﴿لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو الحق القويم، ثم فسره بقوله: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ أى: شرعه الذى أمر به الله، ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أى: ترجع الأمور، فيفصلها ويحكم فيها.

(١) لم أقف عليه عند ابن حبان، وهو فى شرح السنة للبغوى (٣٠٤/١٤)، رقم (٤١١١).

(٢) الترمذى (٣٠١٠)، وابن ماجه (١٩٠) وحسنه الألبانى.

تفسير سورة الزخرف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَم ١ ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿ ٢ ﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ ٣ ﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿ ٤ ﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿ ٥ ﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿ ٦ ﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿ ٧ ﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿ ٨ ﴾

يقول تعالى: ﴿ حَم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أى: البين الواضح الجلى المعانى والألفاظ؛ لأنه نزل بلغة العرب التى هى أفصح اللغات للتخاطب بين الناس؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ﴾ أى: أنزلناه ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أى: بلغة العرب فصيحاً واضحاً، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى: تفهمونه وتتدبرونه، كما قال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾: بين شرفه فى الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى: القرآن ﴿ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ أى: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أى: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿ لَعَلِيَّ ﴾ أى: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أى: محكم برىء من اللبس والزيغ. وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة : ٧٧ - ٨٠] وقال: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس : ١١ - ١٦] ؛ ولهذا استنبط العلماء، رحمهم الله، من هاتين الآيتين: أن المحدث لا يمس المصحف؛ لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن فى الملأ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾.

وقوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾: اختلف المفسرون فى معناها، فقيل: معناها: اتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس، ومجاهد والسدى، واختاره ابن جرير. وقال قتادة فى قوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾: والله لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد بعائده ورحمته، وكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك. وقول قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أنه يقول فى معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم

إلى الخير والذكر الحكيم - وهو القرآن - وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر به ليتهدى من قدر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته. ثم قال تعالى - مسلماً لنبيه في تكذيب من كذبه من قومه، وأمره له بالصبر عليهم - : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾ أى : فى شيع الأولين، ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى : يكذبونه ويسخرون به .

وقوله : ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ أى : فأهلكنا المكذبين بالرسول، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد. كقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ [غافر: ٨٢] والآيات فى ذلك كثيرة. وقوله : ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : قال مجاهد: سنتهم. وقال قتادة: عقوبتهم. وقال غيرهما: عبرتهم، أى : جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله فى آخر هذه السورة : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٦]. وكقوله : ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ [غافر: ٨٥] وقال : ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾
 ١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
 ٢ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ
 ٣ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ
 لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٢﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى : ولئن سألت - يا محمد - هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره : ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد. ثم قال : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا ١ ﴾ أى : فراشاً قراراً ثابتة، يسيرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لثباتها هكذا ولا هكذا ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أى : طرقاً بين الجبال والأودية ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى : فى سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم. ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ أى : بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم، لأنفسكم ولأنعامكم. ﴿ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا ﴾ أى : أرضاً ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج ثم نبه بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال : ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

ثم قال عز وجل : ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أى : مما تنبت الأرض من سائر الأصناف ، من نبات وزروع وثمار وأزاهير ، وغير ذلك ، ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها ، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ﴾ أى : السفن ﴿وَالْأَنْعَامَ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أى : ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها ، وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها ؛ ولهذا قال : ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أى : لتستوا متمكنين مرتفقين ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أى : على ظهور هذا الجنس ، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أى : فيما سخر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أى : مقاومين . ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه . قال ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد : ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أى : مطيقين . ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أى : لصاثرون إليه بعد مماتنا ، وإليه سيرنا الأكبر . وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الدنيوى على الزاد الآخرى فى قوله : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧] ، وبالباس الدنيوى على الآخرى فى قوله تعالى : ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الاعراف: ٢٦] .

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة :

روى الإمام أحمد عن على بن ربيعة قال : رأيت عليا أتى بدابة ، فلما وضع رجله فى الركاب قال : بسم الله . فلما استوى عليها قال : الحمد لله ، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿ ، ثم حمد الله ثلاثا ، وكبر ثلاثا ، ثم قال : سبحانك ، لا إله إلا أنت ، قد ظلمت نفسى فاغفر لى . ثم ضحك ، فقلت له : مم ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : رأيتُ رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ، ثم ضحك . فقلت : مم ضحكت يا رسول الله ؟ فقال : «يعجب الرب من عبده إذا قال : رب ، اغفر لى . ويقول : علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى» . وهكذا رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وقال الترمذى : حسن صحيح (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر ، أن النبى ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثا ثم قال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿ . ثم يقول : «اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى . اللهم ، هون علينا السفر واطو لنا البعيد . اللهم ، أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل . اللهم ، اصحبنا فى سفرنا ، واخلفنا فى أهلنا» . وكان إذا رجع إلى أهله قال : «آيبون تائبون إن شاء الله ، عابدون ، لربنا حامدون» . وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى والترمذى (٢) . وروى أحمد عن محمد بن حمزة ؛ أنه سمع أباه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «على ظهر كل بعير شيطان ، فإن ركبتموها فسموا الله ، عز وجل ، ثم لا تقصروا عن حاجاتكم» (٣) .

(١) المسند (٧٥٣) وأبو داود (٢٦٠٢) والترمذى (٣٤٤٦) والنسائى فى الكبرى (٨٨٠٠) .

(٢) المسند (٦٣١١) ومسلم (٤٢٥/١٣٤٢) وأبو داود (٢٥٩٩) والنسائى فى الكبرى (١٠٣٨٢) والترمذى (٣٤٤٧) .

(٣) المسند (٤٩٤/٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٣١/١٠) : «رجاله رجال الصحيح غير محمد بن حمزة وهو ثقة» .

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله، كما ذكر الله عنهم في سورة «الأنعام»، في قوله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦]. وكذلك جعلوا له من قسمي البنات والبنين أحسهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى . تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [النجم: ٢١]، [٢٢]. وقال هاهنا: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ .

ثم قال: ﴿ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾ ؟ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار فقال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسبونه إلى الله عز وجل؟

ثم قال: ﴿ أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أى: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحللى منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هى عاجزة عيية، أَوْ مَنْ يكون هكذا ينسب إلى جناب الله عز وجل؟!، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، فى الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحللى وما فى معناه، ليجبر ما فيها من نقص وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر بنت: «ما هى بنعم الولد: نصرها بالبكاء، وبرها سرقة».

وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ﴾ أى: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أى: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثا، ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ﴾ أى: بذلك، ﴿ وَيُسْأَلُونَ ﴾ عن ذلك يوم القيامة . وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد. ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ أى: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التى هى على صور الملائكة التى هى بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

أحدها: جعلهم لله ولدا، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا.

الثانى: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله عز وجل، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخطب فى الجاهلية الجاهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدراً، وقد جهلوا فى هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال فى هذه الآية - بعد أن ذكر حجتهم هذه -: ﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، أى: يكذبون ويتقولون. وقال مجاهد فى قوله: ﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أى: ما يعلمون قدرة الله على ذلك.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ﴿١١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرِيرَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ جَحَّتْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين فى عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ ؟ أى: من قبل شركهم ، ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أى: فيما هم فيه، أى: ليس الأمر كذلك، كقوله: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥] أى: لم يكن ذلك. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ أى: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين هاهنا، وفى قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ أى: وراءهم ﴿مُهْتَدُونَ﴾ دعوى منهم بلا دليل.

ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الدِّينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾. أتواصوا به بل هم قوم طاغوت ﴿[الذاريات: ٥٢، ٥٣]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ

مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٦﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿قُلْ﴾ أَى : يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ : ﴿أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ؟ أَى : وَلَوْ عَلِمُوا وَتَيَقَّنُوا صِحَّةَ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ ، لَمَا انْقَادُوا لِذَلِكَ بِسُوءِ قَصْدِهِمْ وَمَكَابِرَتِهِمْ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿فَانتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾ أَى : مِنَ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ ، كَمَا فَصَّلَهُ تَعَالَى فِي قَصَصِهِمْ ، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أَى : كَيْفَ بَادُوا وَهَلَكُوا ، وَكَيْفَ نَجَّى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ ؟

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٨﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٩﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣١﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣٢﴾ أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٤﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٥﴾ وَزُخْرَفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وخليفه إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذى تنتسب إليه قریش فى نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ أَى : هذه الكلمة، وهى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهى «لا إله إلا الله» ، أَى : جعلها دائمة فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم، عليه السلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أَى : إليها . وقال عكرمة، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم فى قوله عز وجل : ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعنى : لا إله إلا الله، لا يزال فى ذريته من يقولها . وروى نحوه عن ابن عباس . وقال ابن زيد : كلمة الإسلام . وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة .

ثم قال تعالى : ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ﴾ يعنى : الْمَشْرِكِينَ ، ﴿وَأَبَاءَهُمْ﴾ أَى : فتطاول عليهم العمر فى ضلالهم ، ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أَى : بين الرسالة والندارة . ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أَى : كَابَرُوهُ وَعَانَدُوهُ وَدَفَعُوا بِالْصُّدُورِ وَالرُّوْحِ كَفَرًا وَحَسَدًا وَبَغْيًا ، ﴿وَقَالُوا﴾ أَى : كَالْمُعْتَرِضِينَ عَلَى الَّذِي أَنْزَلَهُ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أَى : هَلَا كَانَ إِنْزَالُ هَذَا الْقُرْآنِ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ كَبِيرٍ فِى أَعْيُنِهِمْ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ؟ يَعْنُونَ مَكَّةَ

والطائف. قاله ابن عباس، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، وقد ذكر غير واحد، منهم قتادة: أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي. وقال زيد بن أسلم، والضحاك، والسدي: يعنون الوليد بن المغيرة، ومسعود بن عمرو الثقفي. وعن مجاهد: عمير ابن عمرو بن مسعود الثقفي. وعنه أيضا: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي. وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف. وقال السدي: عنوا الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثقفي. والظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان. قال الله تعالى رادا عليهم فى هذا الاعتراض: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ؟ أى: ليس الأمر مردودا إليهم، بل إلى الله، عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبا ونفسا، وأشرفهم بيتا، وأطهرهم أصلا.

ثم قال تعالى مبينا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾. وقوله: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ قيل: معناه: ليسخر بعضهم بعضا فى الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدي وغيره. وقال قتادة، والضحاك: ليملك بعضهم بعضا. وهو راجع إلى الأول. ثم قال: ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى: رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال هذا معنى قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، وغيرهم ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُوتَهُمْ سَفَافًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أى: سلالم ودرجا من فضة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أى: يصعدون، ﴿وَلَبُوتَهُمْ أَبْوَابًا﴾ أى: أغلاقا على أبوابهم ﴿وَسُرُورًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ أى: جميع ذلك يكون فضة، ﴿وَزُخْرَفًا﴾ أى: وذها قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى، أى: يعجل لهم بحسناتهم التى يعملونها فى الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها، كما ورد به الحديث الصحيح (١). ثم قال سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى: هى لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم. وفى الصحيحين وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا فى صحافها، فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة» (٢). وإنما خولهم الله تعالى فى الدنيا لحقارتها، كما روى الترمذى وابن ماجه عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرا شربة ماء أبدا»، قال الترمذى: حسن صحيح (٣).

(١) مسلم (٥٦/٢٨٠٨). (٢) البخارى (٥٦٣٣)، ومسلم (٤/٢٠٦٧).

(٣) الترمذى (٢٣٢٠) وقال: «صحيح غريب من هذا الوجه» وابن ماجه (٤١١٠).

﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ ٣٦ ﴿ وَلَهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ٣٧ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ ٣٨ ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ ٣٩ ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ٤٠ ﴿ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ ٤١ ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ ٤٢ ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ٤٣ ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ ٤٤ ﴿ وَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ٤٥ ﴿

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ ﴾ أى : يتعمى ويتغافل ويعرض ، ﴿ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ والعشا فى العين : ضعف بصرها . والمراد هاهنا : عشا البصيرة ، ﴿ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] ، وكقوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] ، وكقوله : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ [فصلت : ٢٥] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا ﴾ أى : هذا الذى تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضلّه ، ويهديه إلى صراط الجحيم . فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشیطان الذى وكل به ، ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ أى : فبئس القرين كنت لى فى الدنيا . وقرأ بعضهم : « حتى إذا جاءنا » يعنى : القرين والمقارن . والمراد بالمشرقين هنا هو ما بين المشرق والمغرب . وإنما استعمل هاهنا تغليباً ، كما يقال : القمزان ، والعمران ، والأبوان ، . قاله ابن جرير وغيره .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أى : لا يغنى عنكم اجتماعكم فى النار واشتراككم فى العذاب الأليم . وقوله : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : ليس ذلك إليك ، إنما عليك البلاغ ، وليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الحكم العدل فى ذلك . ثم قال : ﴿ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ أى : لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ، ولو ذهب أنت ، ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ أى : نحن قادرون على هذا وعلى هذا . ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكمه فى نواصيهم ، وملكه ما تضمنته صياصيهم . هذا معنى قول السدى ، واختاره ابن جرير . وفى الحديث : « النجوم أمانة للسماء ، فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمانة لأصحابى ، فإذا ذهب أتى أصحابى ما يوعدون » (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى : خذ بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنه هو الحق ، وما يهدى إليه هو الحق المفضى إلى صراط الله المستقيم ، الموصل إلى جنات النعيم ، والخير الدائم المقيم .

ثم قال جل جلاله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ قيل : معناه : لشرف لك ولقومك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد . واختاره ابن جرير ، ولم يحك سواه . و عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن هذا الأمر فى قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله على وجهه ما أقاموا الدين » . رواه البخارى (١) . وقيل : معناه : أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم ، فهم أفهم الناس له ، فينبغى أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه ، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلص من المهاجرين السابقين الأولين ، ومن شابههم وتابعهم . وقيل : معناه : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أى : لتذكير لك ولقومك ، وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من سواهم ، كقوله : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠] ، وكقوله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

﴿ وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ ﴾ أى : عن هذا القرآن وكيف كنتم فى العمل به والاستجابة له . وقوله : ﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أى : جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد ، كقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ ٤٦ ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ ﴿ ٤٧ ﴾ ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿ ٤٨ ﴾ ﴿ وَقَالُوا يَتَّيِئُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴾ ﴿ ٤٩ ﴾ ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ ﴿ ٥٠ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة ، والأتباع والرعايا ، من القبط وبنى إسرائيل ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، وأنه بعث معه آيات عظما ، كيده وعصاه ، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات ، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها ، وكذبوها وسخروا منها ، وضحكوا ممن جاءهم بها . ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ ، ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم ، وجهلهم وخبالهم . وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى ، عليه السلام ، ويتلطفون له فى العبارة بقولهم : ﴿ يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ﴾ أى : العالم ، قاله ابن جرير . وكان علماء زمانهم هم

السحرة. ولم يكن السحر عندهم في زمانهم مذموماً، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم في زعمهم، ففي كل مرة يَعدُّون موسى، عليه السلام، إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بنى إسرائيل. وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ. وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَنَكْشِفَنَّهُ عَنْ الرِّجْزِ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْفُؤْهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٣ - ١٣٥].

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُومِ الْيَسَّى لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ قال قتادة: قد كانت لهم جنان وأنهار ماء، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحْشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النارعات: ٢٣ - ٢٥].

وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ يعني فرعون - عليه اللعنة - أنه خير من موسى، عليه السلام، وقد كذب في قوله هذا كذباً بيناً واضحاً، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ويعني بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة، والسدي: يعني: ضعيف. وقال ابن جرير: يعني: لا ملك له ولا سلطان ولا مال. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني: لا يكاد يفصح عن كلامه، فهو عيبى حصر. قال السدي: أي: لا يكاد يفهم. وقال قتادة، والسدي، وابن جرير: يعني عيبى اللسان. وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فيه وهو صغير. وهذا الذي قاله فرعون - لعنه الله - كذب واختلاق، وإنما حملة على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى، عليه السلام، بعين كافرة شقية، وقد كان موسى، عليه السلام، من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوى الألباب.

وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كذب، بل هو المهين الحقير خلقة وخلقا ودينا. وموسى عليه السلام هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد. وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراء أيضاً، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله، عز وجل، أن يحل عقدة

من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله له فى قوله: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه: ٢٦]، وبتقدير أن يكون قد بقى شىء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصرى، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية التى ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدرى هذا، وإنما أراد الترويح على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء، وهكذا قوله: ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ (١) مِّنْ ذَّهَبٍ ﴾ أى: وهى ما يجعل فى الأيدى من الحلى، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أى: يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوى الذى هو أظهر مما نظر إليه، لو كان يعلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ أى: استخف عقولهم، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، قال ابن عباس: ﴿ آسَفُونَا ﴾: أسخطونا. وقال الضحاك عنه: أغضبونا. وهكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم. عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢). وقال عمر بن عبد العزيز: وجدت النعمة مع الغفلة، يعنى قوله: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾. وقوله: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ قال أبو مجلز: ﴿ سَلَفًا ﴾: مثل من عمل بعملهم. وقال هو ومجاهد: ﴿ وَمَثَلًا ﴾ أى: عبرة لمن بعدهم.

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (٥٧) وَقَالُوا رِيعَ ۖ أَلَيْسَ خَيْرٌ أَمْرٌ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُمْ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُمْ لَكُومٌ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ الْيَوْمِ (٦٥) ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (٥٧) ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (٦٣) يقول تعالى مخبرا عن تعنت قريش فى كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (٥٧) ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (٦٣) ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٦٤) ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ الْيَوْمِ ﴾ (٦٥)

(١) «أساورة»: قراءة السبعة سوى حفص، وهى أيضا قراءة الحافظ ابن كثير.

(٢) المسند (١٤٥/٤) غير أن الآية عنده: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [الانعام: ٤٤]. وصححه الألبانى فى صحيح

الجامع الصغير (٥٦١) وفى السلسلة الصحيحة (٤١٣) وقال: «هو عندى صحيح».

مَرِيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، يضحكون، أى: أعجبوا بذلك. وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعي: يعرضون.

وكان السبب فى ذلك ما ذكره ابن إسحاق فى السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ - فيما بلغنى - يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى، حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، سلوا محمدا: أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله، فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أى: عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، عز وجل، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله. ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله. وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أى: يصدون عن أمرك بذلك من قوله. ثم ذكر عيسى فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ. وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أى: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلا على علم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (١).

وروى الإمام أحمد عن أبى يحيى - مولى ابن عقيل الأنصارى - قال: قال ابن عباس: لقد علمت آية من القرآن ما سألتنى عنها رجل قط، فما أدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفتنوا لها فیسألوا عنها. قال: ثم طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا ألا نكون سألناه عنها. فقلت: أنا لها إذا راح غدا. فلما راح الغد قلت: يا ابن عباس، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها أم لم يفتنوا لها؟ فقلت: أخبرنى عنها وعن اللاتى قرأت قبلها. قال: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير»، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، وما تقول

فى محمد، فقالوا: يا محمد، ألت تزعـم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا، فإن كنت صادقا كان آلهتهم كما تقولون ؟ قال: فأنزل الله: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ . قلت: ما يَصِدُّونَ ؟ قال: يضحكون، ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ ﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة (١) . وقال مجاهد فى قوله: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ : قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى . ونحو هذا قال قتادة .

وقوله: ﴿ وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ قال قتادة : يقولون: آلهتنا خير منه . يعنون محمدا ﷺ . وقوله: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ أى: مرء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل، وهى قوله: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] . ثم هى خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلا منهم، ليسوا يعتقدون صحتها . وقد روى الإمام أحمد عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أورثوا الجدل » ، ثم تلا هذه الآية: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ . وقد رواه الترمذى، وابن ماجه، وابن جرير . ثم قال الترمذى: حسن صحيح (٢) .

وقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ يعنى: عيسى، عليه السلام، ما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى: دلالة وحجة وبرهانا على قدرتنا على ما نشاء . وقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ ﴾ أى: بدلكم ﴿ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴾ قال السدى: يخلقونكم فيها . وقال ابن عباس، وقتادة: يخلف بعضهم بعضا، كما يخلف بعضكم بعضا . وهذا القول يستلزم الأول . وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم .

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ ﴾ الضمير فى ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ على الصحيح أنه عائد على عيسى عليه السلام، فإن السياق فى ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ أى: قبل موت ، عيسى ، عليه الصلاة والسلام ، ثم ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: « وإنه لعلم للساعة » أى: أمانة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ ﴾ أى: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة . وهكذا روى عن أبى هريرة ، وابن عباس ، والحسن، وقتادة، وغيرهم . وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، أنه أخبر بنزول عيسى ، عليه السلام، قبل يوم القيامة إماما عادلا ، وحكما مقسطا .

وقوله: ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بَهَا ﴾ أى: لا تشكوا فيها، إنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿ وَأَتَّبِعُونَ ﴾ أى: فيما أخبركم به ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أى: عن اتباع الحق ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ

(١) المسند (٢٩٢١) وقال الشيخ أحمد شاكر: « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (٢٥٦/٥) والترمذى (٣٢٥٣) وابن ماجه (٤٨) وابن جرير فى التفسير (٥٣ / ٢٥) .

عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴿١٦﴾ أَى : بالنبوة ﴿وَلَا يُبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال ابن جرير: يعنى من الأمور الدينية لا الدنيوية . وهذا الذى قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن «بعض» هاهنا بمعنى «كل» . وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَى : فيما أمركم به، ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما جئتكم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أَى : أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون فى عبادته وحده لا شريك له، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أَى : هذا الذى جئتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب، عز وجل، وحده . وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أَى : اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله - وهو الحق - ومنهم من يدعى أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا - ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ﴾ .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿١٦﴾
 الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾ يَتَعَبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ
 الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿١٩﴾ ادْخُلُوا
 الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٢٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا
 مَا تَشْتَهُى الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي
 أَوْرَثْنَاهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسول ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ؟ أَى : فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين، فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم . وقوله: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أَى : كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله، عز وجل، فإنه دائم بدوامه . وهذا كما قال إبراهيم، عليه السلام، لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] . وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل حلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين .

وقوله: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أَى : آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم . قال المعتمر بن سليمان، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع، فينادى مناد: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال: فيتبعها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قال: فيياس الناس منها غير المؤمنين ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أَى : يقال لهم: ادخلوا الجنة ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أَى : نظراؤكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أى تنعمون وتسعدون .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ ﴾ أى : زبىدى آنية الطعام ، ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ وهى : آنية الشراب ،
أى : من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ، ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهَى الْأَنفُسُ ﴾ - وقرأ بعضهم : «تشتهيه
الأنفس» - ﴿ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ أى : طيب الطعم والريح وحسن المنظر . ﴿ وَأَنْتُمْ فِيهَا ﴾ أى : فى الجنة
﴿ خَالِدُونَ ﴾ أى : لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا . ثم قيل لهم على وجه التفضل
والامتنان : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول
رحمة الله إياكم ، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة ، ولكن بفضل من الله ورحمته . وإنما الدرجات
تفاوتها بحسب عمل الصالحات . وقوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أى : من جميع
الأنواع ، ﴿ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أى : مهما اخترتم وأردتم . ولما ذكر الله تعالى الطعام والشراب ، ذكر
بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة .

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ ﴿ ٧٤ ﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿ ٧٥ ﴾
وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿ ٧٦ ﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ
مَكِينُونَ ﴿ ٧٧ ﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿ ٧٨ ﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا
مُبْرِمُونَ ﴿ ٧٩ ﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿ ٨٠ ﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ، ثنى بذكر الأشقياء ، فقال : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لَا
يُفْتَرُ عَنْهُمْ ﴾ أى : ساعة واحدة ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أى : آيسون من كل خير ، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ
كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم ، فكذبوا
وعصوا ، فجوزوا بذلك جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد . ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ ﴾ وهو : خازن النار .
روى البخارى عن صفوان بن يعلى ، عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر :
﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ (١) أى : ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه ، فإنهم كما قال
تعالى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر : ٣٦] . وقال : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي
يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ [الاعلى : ١١ - ١٣] ، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم
مالك ، ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ ﴾ قال ابن عباس : مكث ألف سنة ، ثم قال : إنكم ما كنتم . أى : لا
خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها .

ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال : ﴿ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى :
بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ، ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ أى : ولكن كانت سجاياكم لا تقبله
ولا تقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصد عن الحق وتأباه ، وتبغض أهله ، فعودوا على
أنفسكم بالملامة ، واندماوا حيث لا تنفعكم الندامة . ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ قال
مجاهد : أرادوا كيد شر فكدناهم . وهذا الذى قاله مجاهد كما قال تعالى : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرًا

مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ [النمل: ٥٠]، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله، ورد وبال ذلك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أى: سرهم وعلاانيتهم، ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أى: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضا يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: لو فرض هذا لعبده على ذلك؛ لأننى عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرنى به، ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممتنع فى حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]. وقال بعض المفسرين فى قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: الآنفين. ومنهم سفيان الثورى، والبخارى حكاه فقال: ويقال: ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الجاحدين، من عبد يعبد. وقال قتادة: هى كلمة من كلام العرب: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: إن ذلك لم يكن فلا ينبغى. وقال مجاهد: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: أول من عبده ووحده وكذبكم. وقال البخارى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الآنفين. وهما لغتان، رجل عابد وعبد. والأول أقرب على أنه شرط وجزاء، ولكن هو ممتنع.

ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفاء له، فلا ولد له. وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا﴾ أى: فى جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فى دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة، أى: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم، ومآلهم، وحالهم فى ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ أى: هو إله من فى السماء، وإله من فى الأرض، يعبده أهلها، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾. وهذه الآية

كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٣] أى : هو المدعو الله فى السموات والأرض . ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى : هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما ، بلا مدافعة ولا ممانعة ، فسبحانه وتعالى عن الولد ، وتبارك : أى استقر له السلامة من العيوب والنقائص ؛ لأنه الرب العلى العظيم ، المالك للأشياء ، الذى بيده أزمة الأمور نقضا وإبراما ، ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى : لا يجليها لوقتها إلا هو ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : فيجازى كلا بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى : من الأصنام والأوثان ﴿ الشَّفَاعَةَ ﴾ أى : لا يقدرُونَ على الشفاعة لهم ، ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أى : لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له .

ثم قال : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أى : ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أى : هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها ، وحده لا شريك له فى ذلك ، ومع هذا يعبدون معه غيره ، ممن لا يملك شيئا ولا يقدر على شيء ، فهم فى ذلك فى غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : وقال محمد : قيله ، أى : شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه ، فقال : يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، كما أخبر تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠] وهذا الذى قلناه هو قول ابن مسعود ، ومجاهد ، وقتادة ، وعليه فسر ابن جرير . قال البخارى : وقرأ عبد الله - يعنى ابن مسعود - : « وقال الرسول يارب » (١) . وقال مجاهد فى قوله : ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، قال : فأبر الله قول محمد . وقال قتادة : هو قول نبيكم ﷺ ، يشكو قومه إلى ربه عز وجل . وقوله : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أى : المشركين ، ﴿ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ أى : لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا ، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، هذا تهديد منه تعالى لهم ، ولهذا أحل بهم بأسه الذى لا يرد ، وأعلى دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد ، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وانتشر الإسلام فى المشارق والمغارب .

تفسير سورة الدخان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۝٣ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝٤ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٥ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۝٦ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٧ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ۝٨ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٩ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝١٠ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝١١ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝١٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم: أنه أنزله في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ [القدر : ١] وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ۝ [البقرة : ١٨٥] ، وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ذلك في «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته. ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان - كما روى عن عكرمة - فقد أبعد النجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان. وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝ أى: معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً، لتقوم حجة الله على عباده. وقوله: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أى: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روى عن ابن عمر، ومجاهد، وغير واحد من السلف. وقوله: ﴿ حَكِيمٍ ۝ أى: محكم، لا يبدل ولا يغير؛ ولهذا قال: ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۝ أى: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه بأمره وإذنه وعلمه، ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ أى: إلى الناس رسولا يتلو عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه؛ ولهذا قال: ﴿ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ۝ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝ أى: الذى أنزل هذا القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما، ﴿ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝ أى: إن كنتم متحققين. ثم قال: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۝ [الاعراف : ١٥٨] .

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝١٣ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٤ يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٥ رَبَّنَا آكُشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٦ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٧ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٨ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۝١٩ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝٢٠ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ۝٢١﴾

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون فى شك يلعبون، أى: قد جاءهم اليقين، وهم يشكون فيه ويمترون، ولا يصدقون به، ثم قال متوعدا لهم ومهدداً: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾. عن مسروق قال: دخلنا المسجد - يعنى مسجد الكوفة - عند أبواب كندة، فإذا رجل يقص على أصحابه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، تدرّون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتى يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام. قال: فأتينا ابن مسعود فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعاً ففرع فقعد، وقال: إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: «الله أعلم»، سأحدثكم عن ذلك، إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسنى يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان - وفى رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد - قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ. يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فأتى رسول الله ﷺ ف قيل: يا رسول الله، استسقى الله لمضر، فإنها قد هلكت. فاستسقى لهم فسقوا، فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ قال ابن مسعود: فيكشف العذاب عنهم يوم القيامة، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، قال: يعنى يوم بدر. قال ابن مسعود: فقد مضى خمسة: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللزام.

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين. ورواه الإمام أحمد و الترمذى والنسائى و ابن جرير وابن أبى حاتم (١). وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف كمجاهد، وأبى العالية، وإبراهيم النخعى، والضحاك، وعطية العوفى، وهو اختيار ابن جرير.

وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة، كما فى حديث أبى حذيفة بن أسيد الغفارى، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو: تحشر الناس - تبیت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا». تفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه (٢).

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن الصياد: «إنى خبأت لك خبأ»، قال:

(١) المسند (٣٦١٣) والبخارى (٤٨٢٠) ومسلم (٣٩/٢٧٩٨) والترمذى (٣٢٥٤) وابن جرير فى التفسير (٦٦/٢٥).

(٢) مسلم (٣٩/٢٩٠١).

هو الدُّخ. فقال له: «اخسأ فلن تعدو قدرك». قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (١). وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يُقرطمون العبارة؛ ولهذا قال: «هو الدُّخ»، يعنى: الدخان. فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية، فقال له: «اخسأ فلن تعدو قدرك». وعن عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس، ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن. وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما، التي أوردناها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن.

قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أى: بين واضح يراه كل أحد. وعلى ما فسر به ابن مسعود: إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد. وهكذا قوله: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أى: يتغشاهم ويعمهم، ولو كان أمرا خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾. وقوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً. هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٤]، أو يقول بعضهم لبعض ذلك.

وقوله: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أى: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]. وكذا قوله: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. وهكذا قال هاهنا: ﴿أَتْنِي لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ. ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَجْنُونٌ﴾ يقول: كيف لهم بالتذكر، وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والندارة، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه، بل كذبوه وقالوا: معلم مجنون. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى. يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ. وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ. وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ. وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلِ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ [سبا: ٥١ - ٥٤].

وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه يقول تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

والثاني: أن يكون المراد: إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد سببه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه عليهم، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد ألقوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ. قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الاعراف: ٨٨، ٨٩]، وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم. وقال قتادة: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾: إلى عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾: فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم، وروى أيضاً عن ابن عباس من رواية العوفي عنه وعن أبي بن كعب وجماعة، وهو محتمل. والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً. وروى ابن جرير عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة (١). وهذا إسناد صحيح عنه، وبه يقول الحسن البصري، وعكرمة في أصح الروايتين، عنه.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ رَبِّكَ عِبَادَ اللَّهِ إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرِكِ الْبَحَرَ رَهْوَإِ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى: ولقد اخترنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: موسى كليمه، عليه السلام ﴿أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ﴾، كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ (٢) مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَغْلِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧]. وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: مأمون على ما أبلغكموه. وقوله: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تستكبروا على اتباع

آياته، والانقياد لحججه والإيمان ببراهيمه، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: بحجة ظاهرة واضحة، وهى ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة .

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ قال ابن عباس: هو الرجم باللسان وهو الشتم. وقال قتادة: الرجم بالحجارة . أى: أعوذ بالله الذى خلقنى وخلقكم من أن تصلوا إلى بسوء من قول أو فعل. ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُونِ﴾ أى: فلا تتعرضوا لى، ودعوا الأمر بينى وبينكم مسألة إلى أن يقضى الله بيننا. فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]. وهكذا قال هاهنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج بنى إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه ؛ ولهذا قال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧].

وقوله هاهنا: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وذلك أن موسى، عليه السلام، لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره الله أن يتركه على حاله ساكناً، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى. قال ابن عباس: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾ كهيئته وامضيه. وقال مجاهد: ﴿رَهَوًا﴾: طريقاً يبساً كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة، وقتادة، وغير واحد .

ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ﴾ وهى البساتين ﴿وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهى المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير : ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: المنابر. وقال عبد الله بن عمرو فى قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ﴾ ، قال: كانت الجنان بحافتى هذا النيل من أوله إلى آخره فى الشقين جميعاً، ما بين أسوان إلى رشيد، وكان له تسعة خلج: خليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنهى، متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها. ﴿وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ﴾ أى: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم فى البلاد، فسلموا ذلك جميعه فى صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية

والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] في الآية الأخرى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الاعراف: ١٣٧]. وقال هاهنا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وهم بنو إسرائيل، كما تقدم.

وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أى: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فتبكى على فقدهم، ولا لهم فى الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم؛ فلهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم. وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾: يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم فى الأعمال المهينة الشاقة.

وقوله: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا﴾ أى: مستكبراً جباراً عنيداً، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]، وقوله: ﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أى: مسرف فى أمره، سخيف الرأى على نفسه. وقوله: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ - قال مجاهد: ﴿اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾: على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن لكل زمان عالماً. وهذه كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الاعراف: ١٤٤] أى: أهل زمانه، وكقوله لمريم: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] أى: فى زمانها؛ فإن خديجة أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها فى الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ﴾ أى: الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ أى: اختبار ظاهر جلى لمن اهتدى به.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٦﴾ أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى منكرًا على المشركين فى إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور. ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقاً ﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا فى هذه الدار، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين ل نار جهنم وقوداً، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً.

ثم قال تعالى متهدداً لهم، ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذى لا يرد، كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث وكقوم تبع - وهم سبأ - حيث أهلكهم الله وخرب

بلادهم، وشردهم في البلاد، وفرقهم شذر مذر ، كما تقدم ذلك في سورة سبأ ، وهى مُصدَّرة بإنكار المشركين للمعاد . وكذلك هاهنا شبههم بأولئك ، وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان ، وقد كانت حمير - وهم سبأ - كلما ملك فيهم رجل سموه تُبعاً، كما يقال : كسرى لمن ملك الفرس ، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشى لمن ملك الحبشة ، وغير ذلك من أعلام الأجناس . ولكن اتفق أن بعض تابعتهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده ، وكثرت رعاياه وهو الذى مَصَّر الحيرة فاتفق أنه مرَّ بالمدينة النبوية وذلك فى أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقتلوه بالنهار ، وجعلوا يَقْرُونَهُ بالليل، فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة؛ فإنها مُهاجرُ نبي يكون فى آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن ، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهاه عن ذلك أيضاً، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بنىة إبراهيم الخليل وأنه سيكون له شأن عظيم على يدى ذلك النبي المبعوث فى آخر الزمان، فعظمها وطاف بها ، وكساها الملاء والوصائل والحبر. ثم كر راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى اليهود معه، وكان إذ ذاك دين موسى، عليه السلام، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح، عليه السلام، فتهود معه عامة أهل اليمن. وكأنه - والله أعلم - كان كافراً ثم أسلم، وتابع دين الخليل على يدى من كان من أحبار اليهود فى ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح، عليه السلام، وحج البيت فى زمن الجُرْهُميين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن.

وتُبَّع هذا هو تَبَّع الأوسط، واسمه أسعد أبو كُرَيْب بن مَلَكِيكرب اليماني، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستا وعشرين سنة، ولم يكن فى حمير أطول مدة منه، وتوفى قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة عام.

وذكر ابن أبى الدنيا أنه حُفِر قبر بصنعاء فى الإسلام، فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: « هذا قبر حبي وليس - وروى: حبي وتماضر - ابنتى تَبَّع ، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما. قال قتادة: ذكر لنا أن كعباً كان يقول فى تبع: نُعْتُ نُعْتُ الرجل الصالح، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه ، قال : وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تَبَّعاً ؛ فإنه قد كان رجلاً صالحاً.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا الْبَعِيثَ ﴾ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يَغْنَى مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة، يفصل الله فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين وقوله: ﴿مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا﴾ أى: لا ينفع قريب قريباً، كقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وكقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يَنْصُرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أى: لا يسأل أخاً له عن حاله وهو يراه عياناً وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى: لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج.

ثم قال: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ أى: لا ينفع يومئذ إلا من رحمه الله، عز وجل، لخلقه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أى: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ ﴿٤٢﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٣﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٤﴾ كَفْلَى الْحَمِيمِ ﴿٤٥﴾ خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٦﴾ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٧﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٨﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقاءه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ والأثيم: أى فى قوله وفعله، وهو الكافر. وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك فى دخوله فى هذه الآية، ولكن ليست خاصة به روى ابن جرير عن همام بن الحارث؛ أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾، فقال: طعام اليتيم. فقال أبو الدرداء قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر. أى: ليس له طعام غيرها.

وقوله: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ قالوا: كعكر الزيت ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ كَفْلَى الْحَمِيمِ أى: من حرارتها ورداءتها. وقوله: ﴿خَذُوهُ﴾ أى: الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: ﴿خَذُوهُ﴾ ابتدره سبعون ألفاً منهم ﴿فَاعْتَلُوهُ﴾ أى: سوقوه سحبا ودفعوا فى ظهره. قال مجاهد: ﴿خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ﴾ أى: خذوه فادفعوه. ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أى: وسطها، ﴿ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾، كقوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠]. وقد تقدم أن الملك يضربه بمقموعة من حديد، تفتح دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل فى بدنه، فيسلت ما فى بطنه من أمعائه، حتى تترق من كعبيه - أعادنا الله تعالى من ذلك.

وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أى: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ. وقال

الضحاك، عن ابن عباس: أى لست بعزيز ولا كريم.

وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ ، كقوله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور: ١٣ - ١٥] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعْنَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ جَنَّةٍ أَمِينٍ ﴿٥٦﴾ فَضَلَا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْثِيهِ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء - ولهذا سُمِّي القرآن مثنى - فقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى : لله فى الدنيا ﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ أى : فى الآخرة وهو الجنة ، قد آمنوا فيها من الموت والخروج ، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب ، ومن الشيطان وكيدته ، وسائر الآفات والمصائب ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ . وهذا فى مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم ، وشرب الحميم .

وقوله تعالى : ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ ﴾ وهو : رفيع الحرير ، كالقمصان ونحوها ، ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش ، وما يلبس على أعالي القماش ، ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أى : على السرر ، لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أى : هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان اللاتي ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٥٦ ، ٧٤] ، ﴿ كَانَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٨] ، ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] .

وقوله : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ أى : مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم ، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه ، بل يحضر إليهم كلما أرادوا .

وقوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ﴾ معناه : أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً ، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار ، خلود فلا موت» وقد تقدم الحديث فى سورة مريم (١) . وعن أبى سعيد وأبى هريرة ، قالوا : قال رسول الله : «يقال لأهل الجنة : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً» . رواه مسلم (٢) .

وروى أبو بكر البزار عن جابر قال : قيل : يا رسول الله ، هل ينام أهل الجنة ؟ قال : « لا ، النوم أخو الموت » (١).

وقوله : ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أى : مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم ، وسلمهم ونجاهم وزحزحهم من العذاب الأليم فى دركات الجحيم ، فحصل لهم المطلوب ، ونجاهم من المرهوب ؛ ولهذا قال : ﴿ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى : إنما كان هذا بفضلهم وإحسانه إليهم ، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمّدنى الله برحمته منه وفضل » (٢) .

وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى : إنما يسرنا هذا القرآن الذى أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذى هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى : يتفهمون ويعملون .

ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس من كفر وخالف وعاند ، قال الله تعالى لرسوله مسلماً له وواعداً له بالنصر ، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك : ﴿ فَارْتَقِبْ ﴾ أى : انتظر ﴿ إِنَّهُمْ مُّرتَقِبُونَ ﴾ أى : فسيعلمون لمن يكون النصر والظفر وعُلُو الكلمة فى الدنيا والآخرة ، فإنها لك يا محمد وإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصِرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١] ، [٥٢] .

(١) كشف الأستار (٣٥١٧) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٤١٨ / ١٠) : « رجال البزار رجال الصحيح » .

(٢) البخارى (٦٤٦٧) .

تفسير سورة الجاثية

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

يُرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضياؤه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً؛ لأن به يحصل الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شىء.

وقوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ أى: جنوباً وشمالاً، ودبوراً وصباً، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء الأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج. وقال أولاً: ﴿لَايَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾ ثم ﴿يَعْقِلُونَ﴾ وهو تَرَقُّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وهذه الآيات شبيهة بآية «البقرة» وهى قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾ وَيَلِكُلْ أَفَاكُ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزَلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾

يقول تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعنى القرآن بما فيه من الحجج والبيانات ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أى: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، فبأى حديث بعد الله

وآياته يؤمنون؟! ثم قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أى: أفاك فى قوله كذاب، حلاف مهين أثيم فى فعله وقيله كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أى: على كفره وجحوده استكباراً وعناداً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أى: كأنه ما سمعها، ﴿فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً. ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أى: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذته سخرياً وهزواً، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى: فى مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ولهذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو (١).

ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أى: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أى: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: ولا تغنى عنهم الآلهة التى عبدوها من دون الله شيئاً، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ يعنى القرآن، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ﴾: وهو المؤلم الموجه.

ربع ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾
 ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾
 ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾
 ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥)

يذكر تعالى نعمه على عبده فيما سخر لهم من البحر ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾ وهى السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذى أمر البحر أن يحملها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى: فى المتاجر والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية. ثم قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: من الكواكب والجبال والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أى: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أى: من عنده وحده لا شريك له فى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أى: يصفحوا عنهم ويحتملوا الأذى منهم. وهذا كان فى ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصرروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلال والجهاد. هكذا روى عن ابن عباس، وقتادة. وقال مجاهد: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لا يبالون نعم الله. وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: إذا صفحوا عنهم فى الدنيا، فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة فى

الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه، فيجزىكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿وَأَتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَبِغُهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المأكول والمشرب، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ أي: في زمانهم، ﴿وَأَتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: حججا وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضا، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض﴾ أي: وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضا، فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكًا، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. ثم قال: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: عملوها وكسبوها ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي:

نساويهم بهم فى الدنيا والآخرة ! ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوى بين الأبرار والفجار فى الدار الآخرة ، وفى هذه الدار ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى : بالعدل ، ﴿ وَلَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ أى : إنما ياتمر بهواه ، فمهما رآه حسنا فعله ، ومهما رآه قبيحا تركه وعن مالك : لا يهوى شيئا إلا عبده .

وقوله : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ ، يحتمل قولين : أحدهما وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك . والآخر : وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه ، وقيام الحجة عليه . والثانى يستلزم الأول ، ولا ينعكس . ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ أى : فلا يسمع ما ينفعه ، ولا يعى شيئا يهتدى به ، ولا يرى حجة يستضىء بها ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ كقوله : ﴿ مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٦] .

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (١٤) وَإِذَا ثُلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِنَّا كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٦)

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أى : ما ثم إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد ، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البداءة والرجعة ، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه . وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول ، ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ، أى : يتوهمون ويتخيلون . فأما الحديث الذى أخرجه صاحبها الصحيح ، وأبو داود ، والنسائى عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : يؤذنى ابن آدم ؛ يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب ليله ونهاره . » وفى رواية : « لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » (١) قال الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله ﷺ : « لا تسبوا الدهر ؛ فإن الله هو الدهر » : كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة ، قالوا : يا خيبة الدهر . فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله عز وجل ، فكأنهم إنما سبوا ، الله عز وجل ؛ لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة ، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ؛ لأن الله هو الدهر الذى

(١) البخارى (٤٨٢٦ ، ٦١٨١) ومسلم (٥ / ٢٢٤٦) وأبو داود (٥٢٧٤) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٧) .

يعنونه ، ويسندون إليه تلك الأفعال . هذا أحسن ما قيل فى تفسيره ، وهو المراد ، والله أعلم .
وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية فى عددهم الدهر من الأسماء الحسنى ، أخذوا من هذا الحديث .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أى : إذا استدل عليهم وبين لهم الحق ، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ، ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى : أحيوهم إن كان ما تقولونه حقا . قال الله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أى : كما تشاهدون ذلك ، يخرجكم من العدم إلى الوجود ، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أى : الذى قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى . ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى : إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم فى الدنيا حتى تقولوا : ﴿اتُّوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] ﴿لَا يَوْمَ يُؤْمَرُ أَجَلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: ١٢ ، ١٣] ، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ﴾ [هود: ١٠٤] وقال هاهنا : ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى : لا شك فيه ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى : فلهذا ينكرون المعاد ، ويستبعدون قيام الأجساد ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَتَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦ ، ٧] أى : يرون وقوعه بعيدا ، والمؤمنون يرون ذلك سهلا قريبا .

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾
وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، والحاكم فيهما فى الدنيا والآخرة ؛ ولهذا قال عز وجل : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أى : يوم القيامة ﴿يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ وهم الكافرون بالله الجاحدون ما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات . وقال ابن أبى حاتم : قدم سفيان الثورى المدينة ، فسمع الغاضرى يتكلم ببعض ما يضحك به الناس . فقال له : يا شيخ ، أما علمت أن الله يوماً يخسر فيه المبطلون ؟ قال : فما زالت تعرف فى الغاضرى حتى لحق بالله ، عز وجل . ذكره ابن أبى حاتم .

ثم قال : ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾ أى : على ركبها من الشدة والعظمة ، ويقال : إن هذا إذا جىء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبته ، حتى إبراهيم الخليل ، ويقول : نفسى ، نفسى ، لا أسألك اليوم إلا نفسى ، وحتى إن عيسى ليقول : لا أسألك اليوم إلا نفسى ، لا أسألك مريم التى ولدتنى . قال مجاهد ، وكعب الأحبار ، والحسن البصرى : ﴿كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ﴾ أى : على الركب . وقال عكرمة : ﴿جَائِيَةٌ﴾ : متميزة على ناحيتها ، وليس على الركب . والأول أولى .

وقوله : ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ يعنى : كتاب أعمالها ، كقوله : ﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ [الزمر: ٦٩] ؛ ولهذا قال : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : تجازون بأعمالكم خيرها وشرها ، كقوله تعالى : ﴿ يَنْبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ [القيامة: ١٣ - ١٥] .

ثم قال : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى : يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص ، كقوله تعالى : ﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] . وقوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم . قال ابن عباس وغيره : تكتب الملائكة أعمال العباد ، ثم تصعد بها إلى السماء ، فيقابلون الملائكة الذين فى ديوان الأعمال على ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ فى كل ليلة قدر ، مما كتبه الله فى القدم على العباد قبل أن يخلقهم ، فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ (٢٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ﴿٢٢﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمُ ءَايَةَ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَفُونَ ﴿٢٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

يخبر تعالى عن حكمه فى خلقه يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى : آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة ، وهى الخالصة الموافقة للشرع ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ ، وهى الجنة ، كما ثبت فى الصحيح أن الله تعالى قال للجنة : « أنت رحمتى ، أرحم بك من أشياء » (١) . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ أى : البين الواضح .

ثم قال : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقريبا وتوبيخا : أما قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها ، وأعرضتم سماعها ، ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا

﴿مُجْرِمِينَ﴾ فى أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب ؟ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى : إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرَى مَا السَّاعَةُ﴾ أى : لا نعرفها، ﴿إِنْ نُنْظَنُ إِلَّا ظَنًّا﴾ أى : إن نتوهم وقوعها إلا توهما، أى مرجوحا ؛ ولهذا قال : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ أى : بمتحققين، قال الله تعالى : ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أى : وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أى : أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى : من العذاب والنكال، ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ أى : نعاملكم معاملة الناسى لكم فى نار جهنم ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أى : فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به، ﴿وَمَا أَوَّاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ . وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة : «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، يارب. فيقول: أفظننت أنك ملاقى؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتنى» (١).

قال الله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا﴾ أى : إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا، تسخرون وتستهزئون بها، ﴿وَعَرَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى : خدعتكم فاطمأنتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال : ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا﴾ أى : من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أى : لا يطلب منهم العتبي، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب.

ثم لما ذكر حكمه فى المؤمنين والكافرين قال : ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾ أى : المالك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال : ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . ثم قال : ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: يعنى السلطان. أى : هو العظيم الممجّد، الذى كل شىء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد فى الحديث الصحيح : «يقول الله تعالى : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما أسكنته نارى » . رواه مسلم عن أبى هريرة وأبى سعيد بنحوه (٢) . وقوله : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أى : الذى لا يغالب ولا يمانع، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو.

(١) مسلم (١٦/٢٩٦٨) .

(٢) مسلم (١٣٦/٢٦٢٠) .

تفسير سورة الأحقاف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء ٢٦ ﴿حَمْدٌ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُونَ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٥﴾

يخبر تعالى أنه نزل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أى: لا على وجه العبث والباطل، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ أى: لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتابا وأرسل إليهم رسولا، وهم معرضون عن ذلك كله، أى: وسيعلمون غب ذلك.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ أى: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أى: أرشدوني إلى المكان الذى استقلوا بخلقه من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أى: ولا شرك لهم فى السموات ولا فى الأرض، وما يملكون من قطمير، إن الملك والتصرف كله إلا الله، عز وجل، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أى: هاتوا كتابا من كتب الله المنزلة على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: دليل بين على هذا المسلك الذى سلكتموه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: لا دليل لكم نقليا ولا عقليا على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: «أو أثر من علم» أى: أو علم صحيح يثرونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد فى قوله: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾: أو أحد يأثر علما. قال ابن عباس: أو بينة من الأمر. وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصرى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾: شيء يستخرجه فيثيره. وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضا: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعنى الخط. وقال قتادة: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾: خاصة من علم.

وكل هذه الأقوال متقاربة ، وهى راجعة إلى ما قلناه ، وهو اختيار ابن جرير .

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾
 أى : لا أضل ممن يدعو أصناما ، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة ، وهى غافلة عما
 يقول ، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش ؛ لأنها جماد ، حجارة ، صم . وقوله : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا
 لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا
 سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨١ ، ٨٢] أى : سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم ،
 وقال الخليل : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ
 وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥] .

﴿ وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾
 ﴿ ٧ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ
 فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ ٨ ﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ
 وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكُمُ إِنِ انَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿ ٩ ﴾

يقول عز وجل مخبرا عن المشركين فى كفرهم وعنادهم : إنهم إذا تتلى عليهم آيات الله
 بينات ، أى : فى حال بيانها ووضوحها وجلالها ، يقولون : ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : سحر واضح ،
 وقد كذبوا وافتروا وضلّوا وكفروا ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ يعنون : محمدا ﷺ . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ
 افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى : لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلنى - وليس كذلك -
 لعاقبنى أشد العقوبة ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض ، لا أنتم ولا غيركم ، أن يجيرنى منه ،
 كقوله : ﴿ قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِّى مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا . إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ [الجن : ٢٢ ،
 ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ
 مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ - ٤٧] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ
 أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ ، هذا تهديد لهم ، ووعد أكيد ، وترهيب
 شديد . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ : ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة ، أى : ومع هذا كله إن
 رجعتم وتبتم ، تاب عليكم وعفا عنكم ، وغفر لكم ورحم . وهذه الآية كقوله فى سورة
 الفرقان : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٥ ، ٦] .

وقوله : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أى : لست بأول رسول طرق العالم ، بل قد جاءت
 الرسل من قبلى ، فما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستكرونى وتستبعدوا بعثتى إليكم ، فإنه
 قد أرسل الله قبلى جميع الأنبياء إلى الأمم . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا
 مِنَ الرُّسُلِ ﴾ : ما أنا بأول رسول . ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم غير ذلك . ﴿ وَمَا أَدْرِى مَا

يُفَعِّلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴿٢﴾ قال ابن عباس فى هذه الآية : نزل بعدها ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح : ٢]. وهكذا قال عكرمة ، والحسن ، وقتادة : إنها منسوخة بقوله : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ، قالوا : ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين : هذا قد بين الله ما هو فاعل بك يا رسول الله ، فما هو فاعل بنا ؟ فأنزل الله : ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح : ٥]. هكذا قال ، والذي هو ثابت فى الصحيح أن المؤمنين قالوا : هنيئا لك يا رسول الله ، فما لنا ؟ فأنزل الله هذه الآية . وقال الضحاك : ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفَعِّلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ : ما أدرى بماذا أومر ، وبماذا أنهى بعد هذا ؟

وقال الحسن البصرى فى قوله : ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفَعِّلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ قال : أما فى الآخرة فمعاذ الله ، قد علم أنه فى الجنة ، ولكن قال : لا أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا ، أخرج كما أخرجت الأنبياء من قبلى ؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلى ؟ ولا أدرى أيخسف بكم أو تُرمون بالحجارة ؟ وهذا القول هو الذى عوّل عليه ابن جرير ، وأنه لا يجوز غيره ، ولا شك أن هذا هو اللائق به ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركى قريش إلى ماذا : أيؤمنون أم يكفرون ، فيعذبون فيستأصلون بكفرهم ؟

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أم العلاء - وهى امرأة من نسائهم - أخبرته - وكانت بايعت رسول الله ﷺ - قالت : طار لهم فى السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون . فاشتكى عثمان عندنا فمرّضناه ، حتى إذا توفى أدرجناه فى أثوابه ، فدخل علينا رسول الله فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، شهادتى عليك ، لقد أكرمك الله . فقال رسول الله ﷺ : «وما يدريك أن الله أكرمهم؟» فقلت : بأبى أنت وأمى ! فقال رسول الله ﷺ : «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإنى لأرجو له الخير ، والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى !» قالت : فقلت : والله لا أزكى أحداً بعده أبداً . وأحزنى ذلك ، فنمت فرأيت لعثمان عينا تجرى ، فجئت إلى رسل الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : «ذاك عمله» . فقد انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم ، وفى لفظ له : «ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به » (١) .

وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ ، بدليل قولها : «فأحزنى ذلك» . وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذين نص الشارع على تعيينهم ، كالعشرة ، وابن سلام ، والغميصاء ، وبلال ، وسراقة ، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر ، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة ، وزيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة ، وما أشبه هؤلاء .

وقوله : ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أى : إنما أتبع ما ينزله الله على من الوحي ، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى : بين النذارة ، وأمرى ظاهر لكل ذى لب وعقل .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَنَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ أى : ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله على لأبلغكموه وقد كفرتم به وكذبتموه ، ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ أى : وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلى ، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به . وقوله : ﴿ فَأَمِنْ ﴾ أى : هذا الذى شهد بصدقه من بنى إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أنتم عن اتباعه . وقال مسروق : فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه ، وكفرتم أنتم بنبىكم وكتابكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام . وهذه كقوله : ﴿ وَإِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص : ٥٣] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨] قال مسروق ، والشعبى : ليس بعبد الله بن سلام ، هذه الآية مكية ، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة . رواه عنهما ابن جرير وابن أبى حاتم ، واختاره ابن جرير . وعن عامر بن سعد ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض : «إنه من أهل الجنة» ، إلا لعبد الله بن سلام ، قال : وفيه نزلت : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ . رواه البخارى ومسلم والنسائى^(١) . وكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ويوسف بن عبد الله بن سلام ، وهلال بن يساف ، والسدى ، والثورى ، ومالك بن أنس وابن زيد ؛ أنهم كلهم قالوا : إنه عبد الله بن سلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ أى : قالوا عن المؤمنين بالقرآن : لو كان القرآن خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه . يعنون : بلالا وعمارا وصهيبا وخبابا وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء ، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية . وقد غلطوا فى ذلك غلطا فاحشا ، وأخطؤوا خطأ بينا ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الأنعام : ٥٣] أى :

(١) البخارى (٣٨١٢) ومسلم (١٤٧/٢٤٨٣) والنسائى فى الكبرى (٨٢٥٢) .

يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها. وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أى: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ﴾ أى: كذب ﴿قَدِيمٌ﴾ أى: مأثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذى قال رسول الله ﷺ: «بطر الحق، وغمط الناس» (١). ثم قال: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعنى: القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أى: لما قبله من الكتب ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أى: فصيحاً بيناً واضحاً، ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: تقدم تفسيرها في سورة «حم، السجدة» (٢). ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَلَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن، كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال هاهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ (٣) أى: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما. وروى أبو داود الطيالسى يحدث عن سعد قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا أكل طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى تكفر بالله. فامتنعت من الطعام الشراب، حتى جعلوا يفتحون فاهما بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية. ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه نحوه وأطول منه (٤).

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أى: قاست بسببه في حال حملة مشقة وتعباً، من وحام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أى: بمشقة أيضاً

(١) مسلم (٩١ / ١٤٧). (٢) الآية رقم (٣٠) من سورة فصلت.

(٣) «حسناً» قراءة الجمهور، وبها قرأ الحافظ ابن كثير.

(٤) المسند للطيالسى (٢٠٨) ومسلم (٣٣/١٧٤٨) وأبو داود (٢٧٤٠) والترمذى (٣٠٧٩).

من الطلق وشدته، ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. وقد استدل على بهذه الآية مع التي في لقمان: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوى صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة، رضى الله عنهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أى : قوى وشب وارتجل ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أى : تنهى عقله وكمل فهمه وحلمه. ويقال: إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أى : ألهمنى ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أى : فى المستقبل ، ﴿وَأَصْلِحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أى نسلى وعقبى ، ﴿إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله، عز وجل، ويعزم عليها.

قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ﴾ (١) عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴿أى: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل، ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أى: هم فى جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله من تاب إليه وأتاب ؛ ولهذا قال : ﴿وَعَدَ الصِّدِّيقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾. روى ابن جرير عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ ، عن الروح الأمين، عليه السلام، قال: «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته، فيقتص بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة وسع الله له فى الجنة» قال : فدخلت على يزداد فحدث بمثل هذا الحديث قال : قلت : فإن ذهبت الحسنة؟ قال : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾. وهكذا رواه ابن أبى حاتم وزاد : «عن الروح الأمين . قال : قال الرب ، جل جلاله : يؤتى بحسنات العبد وسيئاته» (٢) فذكره، وإسناده جيد لا بأس به.

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيهِ أَفِ لَكُمْ أَنِّي أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِihan الله وبلك ءامن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أسطير الأولين ﴿١٧﴾ أولئك الذين حق عليهم القول فى أمر قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خسرين ﴿١٨﴾ ولكل درجت مما عملوا وليوفيتهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴿١٩﴾ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيبيتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴿٢٠﴾﴾

(١) « يتقبل - يتجاوز » : قراءة الجمهور ، وأيضا الحافظ ابن كثير .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٦ / ١٢) .

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمَا﴾ وهذا عام فى كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر فقوله ضعيف ؛ لأن عبد الرحمن بن أبى بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه. وإنما هذا عام فى كل من عاق والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه: ﴿أَفِ لَكُمَا﴾ عقهما. وروى البخارى عن يوسف بن مَاهَك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبى سفيان ، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه ، فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، فلم يقدرُوا عليه، فقال مروان: إن هذا الذى أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن، إلا أن الله أنزل عذرى (١).

وقوله: ﴿أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ أى: أبعث ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أى: قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿وَهُمَا يَسْتَفِثَانِ اللَّهَ﴾ أى: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال الله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أى: دخلوا فى زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهلهم يوم القيامة. وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك. وقال الحسن، وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث.

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أى: لكل عذاب بحسب عمله، ﴿وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أى: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفلا، ودرجات الجنة تذهب علوا. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريبا وتوبيخا. وقد تورع عمر بن الخطاب، عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتنزه عنها، ويقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم وقرعهم: ﴿أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾. وقال أبو مجلز: ليتفقَدَنَّ أقوامٌ حسنات كانت لهم فى الدنيا، فيقال لهم: ﴿أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فجوزوا من جنس عملهم، فكما نَعَمُوا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصى، جازاهم الله بعذاب الهون، وهو الإهانة والحزى والآلام الموجهة، والحسرات المتتابعة، والمنازل فى الدركات المفطعة، أجارنا الله من ذلك كله.

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ (١٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرُنًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٤) تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٥) ﴿

يقول تعالى مسليا لنبه في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود، عليه السلام، بعثه الله إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف - جمع حقف وهو: الجبل من الرمل - قاله ابن زيد. وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار. وقال علي بن أبي طالب: الأحقاف: واد بحضرموت، يدعى برهوت، تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قتادة: ذكر لنا أن عادًا كانوا حيا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشحر. روى ابن ماجه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحمنا الله، وأخا عاد» (١).

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعنى: وقد أرسل الله إلى من حول بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، وكقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ. إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] أى: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ﴾ أى: لتصدنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا فَآتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أنى أبلغكم ما أرسلت به، ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ أى: لا تعقلون ولا تفهمون.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أى: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض مطر، ففرحوا به واستبشروا به، وقد كانوا محلين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: هو العذاب الذى قلتم: ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ﴿تُدْمِرُ﴾ أى: تخرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم، مما من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أى: بإذن الله لها فى ذلك، كقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] أى: كالشيء البالى. ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى (٢) إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾ أى: قد بادوا كلهم عن

(١) ابن ماجه (٣٨٥٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢٠٤/٣): «هذا إسناد صحيح وله شواهد فى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى بن كعب».

(٢) «ترى»: قراءة الجمهور، وكذا الحافظ ابن كثير.

آخريهم ولم تبق لهم باقية، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى : هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

وقد ورد حديث فى قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده، روى الإمام أحمد عن الحارث البكرى قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها، فقالت لى: يا عبد الله، إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغى إليه؟ قال: فحملتها فأتيت بها المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً. قال: فجلست، فدخل منزله - أو قال: رحله - فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت فسلمت، فقال: «هل كان بينكم وبين تميم شىء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك، وها هى بالبواب: فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلى ما قال الأول: «مِعْزَى حَمَلَتْ حَتْفَهَا»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصماً، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: «هيه، وما وافد عاد؟» - وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيْل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما «الجرادتان» - فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرَة فقال: اللهم، إنك تعلم أنى لم أجيئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه. فمرت به سحباب سود، فنودى منها: «اختر»، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودى منها: «خذها رماداً رمداً، لا تبقى من عاد أحداً». قال: فما بلغنى أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا، حتى هلكوا - قال أبو وائل: وصدق - وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد». رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، كما تقدم فى سورة «الأعراف» (١).

وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. قالت: وكان إذا رأى غيماً - أو ريحاً - عرف ذلك فى وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة، ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا» (٢). وروى مسلم فى صحيحه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم، إنى أسألك خيراً، وخيراً ما فيها، وخيراً ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا تَخَيَّلَت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سرى

(١) مضى تخريجه هناك عند الآية (٧٣).

(٢) المسند (٦٦/٦) والبخارى (٤٨٢٨، ٤٨٢٩) ومسلم (١٤/٨٩٩).

عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾» (١). وقد ذكرنا قصة هلاك عاد في سورتي «الأعراف» و«هود» بما أغنى عن إعادته هاهنا، والله الحمد والمنة.

﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريبا منه، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ ﴾ يعني: أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسول مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضا. ﴿ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ ﴾ أي: بينها ووضحناها، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾. فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ﴿ أي: فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم، ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ أي: كذبهم، ﴿ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴾ أي: وافترأؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَدَاعِيَ الْيَوْمِ ﴿٢١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

روى الإمام أحمد والحافظ أبو بكر البيهقي فى كتابه «دلائل النبوة» عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شئ حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء . فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يتبعون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك نفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ ، وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا - والله - الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك حين رجعوا إلى قومهم ، قالوا : يا قومنا ، إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشd فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا ، وأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ [الجن: ١] ، وإنما أوحى إليه قول الجن . رواه البخارى بنحوه ، وأخرجه مسلم ورواه الترمذى والنسائى (١) .

وروى الإمام أحمد أيضا عن ابن عباس ، قال : كان الجن يستمعون الوحي ، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرا ، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلا ، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك ، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتى مقعده إلا رمى بشهاب يحرق ما أصاب ، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال : ما هذا إلا من أمر قد حدث . فبث جنوده ، فإذا بالنبي ﷺ يصلى بين جبلى نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذى حدث فى الأرض . رواه الترمذى والنسائى . وقال الترمذى : حسن صحيح (٢) . وذكر محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان ، عن محمد بن كعب القرظى قصة خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله عز وجل ، وإبائهم عليه . فذكر القصة بطولها ، وأورد ذلك الدعاء الحسن : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى» إلى آخره . قال : فلما انصرف عنهم بات بنخلة ، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين . وهذا صحيح ، ولكن قوله : «إن الجن كان استماعهم تلك الليلة» . فيه نظر ؛ لأن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء ، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور ، وخروجه ، عليه السلام ، إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين ، كما قرره ابن إسحاق وغيره والله أعلم .

وروى أبو بكر بن أبى شيبه عن عبد الله بن مسعود قال : هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا . قالوا : صه ، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى

(١) المسند (٢٢٧١) والبيهقى (٢/٢٢٥) والبخارى (٧٧٣) ومسلم (٤٤٩/١٤٩) والنسائى فى الكبرى (١/١١٦٢٤) .

(٢) المسند (٢٤٨٢) والترمذى (٣٣٢٤) والنسائى فى الكبرى (٤/١١٦٢٦) .

قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿١﴾ إِلَى : ﴿ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١). فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضى أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالا قوما بعد قوم، وفوجا بعد فوج .

فأما ما رواه البخارى ومسلم عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبى قال : سألت مسروقاً : من آذن النبى ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال : حدثنى أبوك يعنى ابن مسعود - أنه آذنته بهم شجرة (٢) فيحتمل أن يكون هذا فى المرة الأولى ، ويكون إثباتا مقدما على نفى ابن عباس ، ويحتمل أن يكون هذا فى بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون فى الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة ، أى : أعلمته باستماعهم، والله أعلم. قال الحافظ البيهقى : وهذا الذى حكاه ابن عباس إنما هو فى أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، كما رواه عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه (٣) .

ذكر الرواية عنه بذلك :

روى الإمام أحمد عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود : هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال : ما صحبه منا أحد، ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة، فقلنا : اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان فى وجه الصبح - أو قال : فى السحر - إذا نحن به يجرى من قبل حراء، فقلنا : يا رسول الله - فذكروا له الذى كانوا فيه - فقال : « إنه أتانى داعى الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم » . قال : فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم - قال : وقال الشعبى : سألوه الزاد - قال عامر : سألوه بمكة، وكانوا من جن الجزيرة، فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما كان عليه لحما ، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم - قال - فلا تستنجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم من الجن » . وهكذا رواه مسلم نحوه (٤) . وروى مسلم أيضا عن عامر قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود ، شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود ؛ فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب ، فقلنا : استطير ؟ اغتيل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء ، قال : فقلنا : يا رسول الله ، فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال : « أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ،

(١) المستدرک (٤٥٦ / ٢) من طريق أبى بكر بن شيبه به ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٢) البخارى (٣٨٥٩) ومسلم (٤٥٠ / ١٥٠) . (٣) البيهقى فى الدلائل (٢٢٧ / ٢) .

(٤) المسند (٤١٤٩) ومسلم (٤٥٠ / ١٥٠) .

فقرأت عليهم القرآن» . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم» . قال رسول الله ﷺ : « فلا تستنجوا بهما ، فإنهما طعام إخوانكم » (١) .

فهذه تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً ، فتلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله ، عز وجل ، وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت . وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم ، كما قاله ابن عباس ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود . وأما ابن مسعود فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيداً منه ، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة ، هذه طريقة البيهقي . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره ، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى والله أعلم .

وقد روى الحافظ أبو بكر البيهقي ، عن سعيد بن عمرو ، قال : كان أبو هريرة يتبع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته ، فأدركه يوماً فقال : « من هذا؟ » قال : أنا أبو هريرة . قال : « اتنى بأحجار أستنج بها ، ولا تأتني بعظم ولا روثة » . فأتيته بأحجار في ثوبى ، فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته ، فقلت : يا رسول الله ، ما بال العظم والروثة ؟ قال : « أتانى وفد جن نصيبين ، فسألونى الزاد ، فدعوت الله لهم ألا يَمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا طعاماً» . أخرجه البخارى قريباً منه (٢) . فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك . وقد روى عن ابن عباس غير ما روى عنه أولاً من وجه جيد ، فروى ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴾ الآية ، قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم (٣) . فهذا يدل على أنه قد روى القصتين .

ومما يدل على ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر قال : ما سمعت عمر يقول لشيء قط : « إنى لأظنه كذا » إلا كان كما يظن ، بينما عمر بن الخطاب جالس ، إذ مر به رجل جميل ، فقال : لقد أخطأ ظنى - أو : إن هذا على دينه فى الجاهلية - أو لقد كان كاهنهم - على بالرجل ، فدعى له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كاليوم استقبل له رجل مسلم . قال : فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى . قال : كنت كاهنهم فى الجاهلية . قال : فما أعجب ما جاءتك به جِنِّيَّتْكَ . قال : بينما أنا يوماً فى السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع ، فقالت :

أَلَمْ تَرَ الْجِنَّ وَابِلَاسَهَا وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ انْكَاسِهَا

وَلَحُوقَهَا بِالْقَلَاصِ وَأَحْلَاسَهَا

قال عمر : صدق ، بينما أنا نائم عند آلهم ، إذ جاء رجل بعجل فذبحه ، فصرخ به

(٢) البيهقي فى الدلائل (٢٣٣ / ٢) والبخارى (٣٨٦٠) .

(١) مسلم (٤٥٠ / ١٥٠) .

(٣) ابن جرير فى التفسير (٢٦ / ٢٢) .

صارخ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه، يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله» فوثب القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا؟ ثم نادى يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله». فقامت، فما نشبنا أن قيل: هذا نبي. هذا سياق البخاري (١)، وقد رواه البيهقي من حديث ابن وهب، بنحوه، ثم قال: «وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذبح، وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر في إسلامه، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه، والله أعلم» (٢). وهذا الذي قاله البيهقي هو المتجه، وهذا الرجل هو سواد بن قارب، وقد ذكرت هذا مستقصى في سيرة عمر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ أى : طائفة من الجن، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصَتُوا﴾ أى : استمعوا وهذا أدب منهم. وقوله : ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أى : فرغ، كقوله : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ [الجمعة : ١٠] ، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت : ١٢] ، ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ﴾ [البقرة : ٢٠٠] ﴿وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ أى : رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله : ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة : ١٢٢]. وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذراً، وليس فيهم رسل : ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا ؛ لقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا يُوحى﴾ (٣) ﴿إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف : ١٠٩] ، وقال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان : ٢٠] ، وقال عن إبراهيم الخليل : ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت : ٢٧]. فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى في الأنعام : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ [الأنعام : ١٣٠] ، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن : ٢٢] أى : أحدهما. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم : ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ ولم يذكروا عيسى ؛ لأن عيسى، عليه السلام، أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى. وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه السلام عليه أول مرة، فقال: بَخْ بَخْ، هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتنى أكون فيها جذعاً.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى : من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء. وقولهم : ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أى : في الاعتقاد والإخبار، ﴿وَالْإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ : في الأعمال، فإن القرآن مشتمل على شيئين خبر وطلب، فخبيره صدق، وطلبه عدل، كما قال : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام :

(١) البخاري (٣٨٦٦) .

(٢) البيهقي في الدلائل (٢٤٥/٢) .

(٤) «كلمات» : قراءه سبعة كما مضى بيانه .

(٣) «يوحى» : هي قراءة كما مضى بيانه .

[١١٥]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ في الاعتقادات، ﴿وإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى: فى العمليات. ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾: فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهى سورة الرحمن؛ ولهذا قال: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾: قيل: إن «من» هاهنا زائدة، وفيه نظر؛ لأن زيادتها فى الإثبات قليل. وقيل: إنها على بابها للتبويض، ﴿وَيُجْرِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أى: ويقيكم من عذابه الأليم. وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا فى هذا المقام، وهو مقام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه. عن ابن عباس قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة؛ لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة.

والحق أن مؤمنهم كمؤمنى الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]، وفى هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ. فِيهَا آلاءٌ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَان﴾ [الرحمن: ٤٦]، [٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولى أبلغ من الإنس، فقالوا: «ولا بشئ من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد» فلم يكن تعالى ليمنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضاً فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار - وهو مقام عدل - فلأن يجازى مؤمنهم بالجنة - وهو مقام فضل - بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضاً على ذلك عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، وما أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة فى جزء على حدة، والله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحاً؟ وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة وإن أجبروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح، عليه السلام، يقول لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِكُمُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤]، ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة، فكذلك هؤلاء.

ثم قال مخبراً عنه: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بل قدرة الله شاملة له ومحيطه به، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أى: لا يجيرهم منه أحدٌ ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجح فى كثير منهم، وجاؤوا إلى

رسول الله ﷺ وفودا وفودا، كما تقدم بيانه.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَى
 أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ
 أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٢٤) فَاصْبِرْ
 كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا
 إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلُغٌ فَمَهْلُ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢٥) ﴿

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أى: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام
 الأجساد يوم المعاد ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ﴾ أى: ولم يكرثه خلقهن،
 بل قال لها: «كونى» فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجللة، أفليس
 ذلك بقادر على أن يحيى الموتى؟ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ
 النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، ولهذا قال: ﴿بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قال متهددا ومتوعدا من كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أى:
 يقال لهم: أما هذا حق، أفسحر هذا، أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أى: لا يسعهم إلا
 الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ثم قال تعالى أمراً رسوله ﷺ بالصبر على
 تكذيب من كذبه من قومه، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى: على تكذيب قومهم لهم.
 وقد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى،
 وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء فى آيتين
 من سورتي «الأحزاب» و«الشورى»، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرسل،
 وتكون ﴿مِنْ﴾ فى قوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أى: لا
 تستعجل لهم حلول العقوبة بهم، كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النِّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل:
 ١١]، وكقوله: ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُوبِدًا﴾ [الطارق: ١٧]. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا
 سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾، كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَةً أَوْ ضَحَاها﴾ [النازعات: ٤٦]،
 وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [يونس: ٤٥]. وقوله:
 ﴿بَلَاغٌ﴾: قال ابن جرير: يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك لبث بلاغ.
 والآخر: أن يكون تقديره: هذا القرآن بلاغ. وقوله: ﴿فَمَهْلُ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: لا
 يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.

تفسير سورة القتال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾

يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : بآيات الله ، ﴿ وَصَدُّوا ﴾ غيرهم ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى : أبطلها وأذهبها ، ولم يجعل لها جزاء ولا ثوابا ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى : آمنت قلوبهم وسرائرهم ، وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم ، ﴿ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ ، عطف خاص على عام ، وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بعد ﷺ . ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ جملة معترضة حسنة ؛ ولهذا قال : ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى أمرهم . وقال مجاهد : شأنهم . وقال قتادة وابن زيد : حالهم . والكل متقارب . وقد جاء فى حديث تميم العاطس : « يهديكم الله ، ويصلح بالكم » (١) . ثم قال عز وجل : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ﴾ أى : إنما أبطلنا أعمال الكفار ، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شؤونهم ؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، أى : اختاروا الباطل على الحق ، ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أى : يبين لهم مآل أعمالهم ، وما يصيرون إليه فى معادهم .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخَسَّمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَمَا مَتَّأَ بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ﴿٤﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَصَرُوا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أى : إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدا بالسيوف ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا﴾ أى : أهلكتموهم قتلا ﴿فَشُدُّوا﴾ وثاق الأسارى الذين تأسروهم ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون فى أمرهم ، إن شئتم منتقم عليهم فأطلقتم أسارهم مجانا ، وإن شئتم فاديتموهم بما ل تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه . والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فإن الله ، سبحانه ، عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء ، والتقليل من القتل يومئذ فقال : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال : ٦٧ ، ٦٨] .

ثم ادعى بعض العلماء أن هذه الآية - المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه - منسوخة بقوله تعالى : ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ الآية [التوبة : ٥] ، رواه العوفى عن ابن عباس . وقال قتادة ، والضحاك ، والسدى ، وابن جرير . وقال الآخرون - وهم الأكثرون : ليست منسوخة . ثم قال بعضهم : إنما الإمام مخير بين المن على الأسير ومفاداته فقط ، ولا يجوز له قتله . وقال آخرون منهم : بل له أن يقتله إن شاء ، لحديث قتل النبى ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط من أسارى بدر ، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له : «ما عندك يا ثمامة؟» فقال : إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تمنى تمنى على شاكرك ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت (١) . وزاد الشافعى ، رحمه الله ، فقال : الإمام مخير بين قتله أو المن عليه ، أو مفاداته أو استرقاقه أيضا . وهذه المسألة محررة فى علم الفروع ، وقد دللنا على ذلك فى كتابنا «الأحكام» ، والله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال مجاهد : حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام . وكأنه أخذه من قوله ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال» (٢) . وقال قتادة : ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ : حتى لا يبقى شرك . وهذا كقوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة : ١٩٣] . ثم قال بعضهم : ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أى : أوزار المحاربين ، وهم المشركون ، بأن يتوبوا إلى الله عز وجل . وقيل : أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع فى طاعة الله ، عز وجل .

وقوله : ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أى : هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ، ﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أى : ولكن شرع لكم الجهاد وقاتل الأعداء ليختبركم ، ويبلو أخباركم . كما ذكر حكمته فى شرعية الجهاد فى سورتي «آل عمران» و«براءة» فى قوله : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٢] . وقال فى

سورة براءة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرُّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥] .

ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين، قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجرى عليه عمله فى طول برزخه، كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب الكندى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له فى أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفرع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع فى سبعين إنسانا من أقاربه». وقد أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه (١). وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، وعن أبى قتادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شيء إلا الدين» (٢). وروى من حديث جماعة من الصحابة، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته». ورواه أبو داود (٣). والأحاديث فى فضل الشهيد كثيرة جدا.

وقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أى: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]. وقوله: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أى: أمرهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ أى: عرفهم بها وهداهم إليها وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاصون مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة، والذى نفسى بيده، إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله كان فى الدنيا» (٤).

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كقوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله ﷺ. وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش» (٥)، أى: فلا شفاه الله. وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أحبطها وأبطلها؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزَلَ اللَّهُ﴾ أى: لا يريدونه ولا يحبونه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

(١) المسند (١٣١/٤) والترمذى (١٦٦٣) وابن ماجه (٢٧٩٩)، وصححه الألبانى .

(٢) مسلم (١١٩/١٨٨٦) . (٣) أبوداود (٢٥٢٢) .

(٤) البخارى (٦٥٣٥) . (٥) البخارى (٢٨٨٦) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ ﴿١٣﴾

يقول تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ يعنى : المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : عاقبتهم بتكذيبهم وكفرهم ، أى : ونجى المؤمنين من بين أظهرهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ ، ثم قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ ، ولهذا قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبى ﷺ ، وعن أبى بكر وعمر فلم يجب ، وقال : أما هؤلاء فقد هلكوا ، وأجابه عمر بن الخطاب فقال : كذبت يا عدو الله ، بل أبقى الله لك ما يسوؤك ، وإن الذين عددت لأحياء كلهم . فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، أما إنكم ستجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤنى ، ثم ذهب يرتجز ويقول : اعل هبل ، اعل هبل . فقال رسول الله ﷺ : « ألا تجيبوه ؟ » قالوا : يا رسول الله ، وما نقول ؟ قال : « قولوا : الله أعلى وأجل » ثم قال أبو سفيان : لنا العزى ، ولا عزى لكم . فقال : « ألا تجيبوه ؟ » قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ أى : فى دنياهم ، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام ، خضما وقضما ليس لهم همة إلا فى ذلك . ولهذا ثبت فى الصحيح : « المؤمن يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » (٢) . ثم قال : ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أى : يوم جزائهم .

وقوله : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ ﴾ يعنى : مكة ، ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة ، فى تكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، فإذا كان الله ، عز وجل ، قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله ، بسببهم ، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء ، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم فى الدنيا والأخرى ؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة فى الدنيا لبركة وجود الرسول نبى الرحمة ، فإن العذاب يوفر على الكافرين به فى معادهم ، ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ [هود : ٢٠] . وقوله : ﴿ مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ ﴾ أى : الذين أخرجوك من بين أظهرهم . عن ابن عباس :

أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: التفت إلى مكة - وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إلى»، ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك» (١). فأعدى الأعداء من عداء على الله في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذحول الجاهلية، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلُكُنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّيِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٤)
مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (١٥)

يقول: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّيِّهِ﴾ أى: على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه، بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم، وبما جبَّله الله عليه من الفطرة المستقيمة ﴿كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾؟ أى: ليس هذا، كهذا، كقوله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]، وكقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

ثم قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قال عكرمة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أى: نعتها ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعنى غير متغير. والعرب تقول: أسِنَ الماء، إذا تَغَيَّرَ ريحه. ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ﴾ أى: بل فى غاية البياض والحلاوة والدسومة ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أى: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، ﴿بَيْضَاءَ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦] ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أى: وهو فى غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، وروى الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فى الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد». ورواه الترمذى. وقال: حسن صحيح (٢). وفى الصحيح: «إذا سألت الله فاسأله الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» (٣).

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، كقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]. وقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]. وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: مع ذلك كله. وقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أى: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد

فى النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أى: ليس من هو فى الدرجات كمن هو فى الدرجات، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أى: حارا شديدا الحرا، لا يستطيع. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أى: قطع ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذا بالله من ذلك.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَاتَّبَعَتَهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ۚ ۞ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذَنبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ۚ ۞﴾

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين فى بلادتهم وقلة فهمهم ، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئا ، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ أَنفَا﴾ أى: الساعة، لا يعقلون ما قال، ولا يكثرثون له. قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أى: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وَأَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أى: ألهمهم رشداهم.

وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أى: وهم غافلون عنها، ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أى: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأَوَّلَىٰ. أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٦، ٥٧]، وكقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، فبعثه رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله، كما هو مبسوط فى موضعه. وقال الحسن البصرى: بعثه محمد ﷺ من أشراط الساعة. وهو كما قال؛ ولهذا جاء فى أسمائه، عليه السلام، أنه نبي التوبة، ونبي الملحمة، والحاشر الذى يحشر الناس على قدميه، والعاقب الذى ليس بعده نبي. وروى البخارى [عن] سهل بن سعد قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتى تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين» (١). ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ أى: فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]، ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبا: ٥٢].

وقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾: هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا ينافى كونه أمرا بعلم

ذلك ؛ ولهذا عطف عليه بقوله : ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول : «اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى هزلى وجدى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى » (١) . وفى الصحيح أنه كان يقول فى آخر الصلاة : «اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت إلهى لا إله إلا أنت » (٢) . وفى الصحيح أنه قال : «يأيها الناس ، توبوا إلى ربكم ، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة» (٣) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن سرجس قال : أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه ، فقلت : غفر الله لك يا رسول الله . فقلت : أستغفر لك ؟ فقال : «نعم ، ولكم» ، وقرأ : ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ، ثم نظرت إلى نغض كتفه الأيمن - أو : كتفه الأيسر ، شعبة الذى شك - فإذا هو كهيئة الجمع عليه الثآليل . رواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وابن جرير (٤) . والأحاديث فى فضل الاستغفار كثيرة جدا .

وقوله : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أى : يعلم تصرفكم فى نهاركم ومستقركم فى ليلكم ، كقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام : ٦٠] ، وكقوله : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود : ٦] . وهذا القول ذهب إليه ابن جريج ، وهو اختيار ابن جرير . وعن ابن عباس : متقلبكم فى الدنيا ، ومثواكم فى الآخرة . والأول أولى وأظهر ، والله أعلم .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذِكْرُ فِيهَا الْقِتَالِ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۚ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد ، فلما فرضه الله ، عز وجل ، وأمر به نكل عنه كثير من الناس ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٧٧] . وقال عز وجل ها هنا : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ أى : مشتملة على حكم القتال ؛

(٢) مسلم (١٩٩ / ٧٦٩) .

(١) البخارى (٦٣٩٨) .

(٣) البخارى (٦٣٠٧) .

(٤) المسند (٨٤ / ٥) ومسلم (١١٢ / ٢٣٤٦) والترمذى فى الشمائل (ص ٣٨) والنسائى فى الكبرى (١ / ١١٤٩٦) وابن جرير فى التفسير (٣٤ / ٢٦) .

ولهذا قال : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مُحْكَمَةٍ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَفْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أى : من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . ثم قال مشجعا لهم : ﴿ فَأَوَلَيْ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ أى : وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا ، أى : فى الحالة الراهنة ، ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أى : جد الحال ، وحضر القتال ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ أى : أخلصوا له النية ، ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى : عن الجهاد ونكلتم عنه ، ﴿ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ أى : تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء ، تسفكون الدماء ، وتقطعون الأرحام ؛ ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴾ ، وهذا نهى عن الإفساد فى الأرض عموما ، وعن قطع الأرحام خصوصا ، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح فى الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والفعال وبذل الأموال . وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ ، من طرق عديدة ، ووجوه كثيرة .

روى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « خلق الله الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن عز وجل ، فقال : مه ! فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى . قال : فذاك » . قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ . ورواه مسلم (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى بكره قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أحرى أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا ، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة ، من البغى وقطيعة الرحم » . رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : هذا حديث صحيح (٢) . وروى الإمام أحمد عن ثوبان ، عن رسول الله ﷺ قال : « من سره النساء فى الأجل ، والزيادة فى الرزق ، فليصل رحمه » . تفرد به أحمد ، وله شاهد فى الصحيح (٣) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها » ، رواه البخارى (٤) . وروى أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « توضع الرحم يوم القيامة لها حُجَّةٌ كحُجَّةِ المغزل ، تتكلم بلسان طُلُقٍ ذَلَقٍ ، فتصل من وصلها وتقطع من قطعها » (٥) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو - يبلغ به النبى ﷺ - قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء ، والرحم شُجَّةٌ من الرحمن ، من وصلها وصلته ، ومن قطعها بته » . وقد رواه أبو داود والترمذى ، وقال الترمذى : حسن صحيح (٦) .

(١) البخارى (٤٨٣٠ ، ٤٨٣١) ومسلم (١٦ / ٢٥٥٤) .

(٢) المسند (٣٨ / ٥) وأبو داود (٤٩٠٢) والترمذى (٢٥١١) وابن ماجه (٤٢١١) .

(٣) المسند (٢٧٩ / ٥) . وشاهده رواه البخارى (٥٩٨٦) ومسلم (٢٠ / ٢٥٥٧) .

(٤) المسند (٦٥٢٤) والبخارى (٥٩٩١) .

(٥) المسند (٦٧٧٤) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٦) المسند (٦٤٩٤) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » . وأبو داود (٤٩٤١) والترمذى (١٩٢٤) .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (١٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿١٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿١٨﴾

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، ونهاياً عن الإعراض عنه، فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أى: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطَبَّقة لا يخلص إليها شيء من معانيه. ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ﴾ أى: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أى: زين لهم ذلك وحسنه، ﴿ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ أى: غرهم وخدعهم، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ أى: مالئوهم وناصحوهم فى الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ أى: ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ ﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ أى: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح فى أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ أى: بالضرب ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ (١٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعَرَّفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَتَعَرَّفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٢١﴾

يقول تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ ؟ أى: أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل تعالى فى ذلك سورة «براءة»، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما فى النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعَرَّفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك

أشخاصهم، فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه، وحملًا للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أى: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أى الحزبين هو بمعانى كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفتات لسانه.

وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أى: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي، ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾. وليس فى تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس فى مثل هذا: إلا لنعلم، أى: لنرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَلُهُمْ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾

يخبر تعالى عن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذى عقبه برده مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات. ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التى هى سعادتهم فى الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذى هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: بالردة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية .

ثم قال جل علا لعباده المؤمنين: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أى: لا تضعفوا عن الأعداء، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ﴾ أى: المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار فى حال قوتكم وكثرة عددكم وعددكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أى: فى حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام فى المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك. وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾: فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً.

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ ٣٦ ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ ٣٧ ﴿ هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ ٣٨

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهوينا لشأنها: ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ ﴾ أى: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أى: هو غنى عنكم لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم. ثم قال: ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا ﴾ أى: يحوجكم تبخلوا: ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ قال قتادة: قد علم الله أن فى إخراج الأموال إخراج الأضغان. وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

وقوله: ﴿ هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ ﴾ أى: لا يجيب إلى ذلك ﴿ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ ﴾ أى: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ أى: عن كل ما سواه، وكل شىء فقير إليه دائماً؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ﴾ أى: بالذات إليه. فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، لا ينفكون عنه. وقوله: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ أى: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.

تفسير سورة الفتح

وهي مدنية

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مغفل قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها - قال معاوية: لولا أنى أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته. أخرجاه (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ۝ ﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذى القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضى عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب، كما سيأتى تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله. فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله، عز وجل، هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روى عن ابن مسعود، وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية. وقال جابر: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية.

وروى البخارى عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر. فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا (٢). وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، قال: فسألته عن شيء - ثلاث مرات - فلم يرد على، قال: فقلت لنفسى: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزلت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء، قال: فإذا أنا بمناد ينادى: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء، قال: فقال النبي ﷺ: «نزلت على البارحة سورة هي أحب إلى من الدنيا وما فيها: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا

(١) المسند (٢٤/٥) والبخارى (٤٨٣٥) ومسلم (٢٣٧/٧٩٤).

(٢) البخارى (٤١٥٠).

تَأَخَّرَ ﴿١﴾ . ورواه البخارى، والترمذى، والنسائى (١) ، وقال على بن المدينى : هذا إسناد مدينى جيد لم نجده إلا عندهم . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك ، قال : نزلت على النبى ﷺ : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية ، قال النبى ﷺ : « لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على الأرض » ، ثم قرأها عليهم النبى ﷺ فقالوا : هنيئا مريئا يا نبى الله ، لقد بين الله ، عز وجل ، ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه : ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ حتى بلغ : ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥] ، أخرجاه فى الصحيحين (٢) . وروى ابن جرير عن عبد الله ابن مسعود قال : لما أقبلنا من الحديبية أعرسنا فمنا ، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت ، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم ، قال : فقلنا : «امضوا» . فاستيقظ رسول الله ﷺ : فقال : «افعلوا كما كنتم تفعلون وكذلك من نام أو نسي» . قال : وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ ، فطلبناها فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة ، فأتيته بها فركبها ، فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي ، قال : وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه ، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ . وقد رواه أحمد وأبو داود ، والنسائى (٣) . وروى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة قال : كان النبى ﷺ يصلى حتى ترم قدماه ، فقبل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : «أفلا أكون عبداً شكوراً» . أخرجاه وبقية الجماعة إلا أبا داود (٤) . وروى الإمام أحمد عن عائشة ، قالت : كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه . فقالت له عائشة : يا رسول الله ، أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : «يا عائشة ، أفلا أكون عبداً شكوراً ؟» . أخرجه مسلم (٥) .

فقوله : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ أى : بينا ظاهراً ، والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان .

وقوله : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ : هذا من خصائصه ﷺ - التى لا يشاركه فيها غيره . وليس فى حديث صحيح فى ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ ، وهو ﷺ فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه ، لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم فى الدنيا والآخرة . ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه ،

(١) المسند (٢٠٩) والبخارى (٤٨٣٣) والترمذى (٣٢٦٢) والنسائى فى الكبرى (١١٤٩٩) .

(٢) المسند (١٩٧/٣) والبخارى (٤١٤٨) ومسلم (٩٧/١٧٨٦) .

(٣) ابن جرير فى التفسير (٤٣/٢٦) والمسند (٤٤٢١) وأبو داود (٤٤٧) والنسائى فى الكبرى (٨٨٥٣) . وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» .

(٤) المسند (٥٥/٤) والبخارى (٤٨٣٦) ومسلم (٧٩/٢٨١٩) والترمذى (٤١٢) وابن ماجه (١٤١٩) .

(٥) المسند (١١٥/٦) ومسلم (٨١/٢٨٢٠) .

قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى اليوم شيئا يعظمون به حرمت الله إلا أجبتهم إليها» (١). فلما أطاع الله فى ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أى: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أى: بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء فى الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» (٢). وعن عمر بن الخطاب أنه قال: ما عاقبت - أى فى الدنيا والآخرة - أحدا عصى الله تعالى فىك بمثل أن تطيع الله فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السَّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أى: جعل الطمأنينة ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك، واستقرت، زادهم إيمانا مع إيمانهم. وقد استدل بها البخارى وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان فى القلوب.

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: ولو أرسل عليهم ملكا واحدا لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. ثم قال تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها أبدا، ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أى: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر، ويستر ويرحم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، كقوله: ﴿فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوءِ﴾ أى: يتهمون الله فى حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ

السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴿٨﴾ أَيْ : أبعدهم من رحمته ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ . ثم قال مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء - أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيْرًا حَكِيمًا﴾ .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ﴿٩﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ أَيْ : على الخلق ، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أَيْ : للمؤمنين ، ﴿وَنَذِيرًا﴾ أَيْ : للكافرين . وقد تقدم تفسيرها في سورة «الأحزاب» (١) ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : يعظموه ، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أَيْ : يسبحون الله ، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أَيْ : أول النهار وآخره . ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفا له وتعظيما وتكريما : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ ، كقوله : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] ، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ : هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ ، كقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ١١١] .

ولهذا قال هاهنا : ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أَيْ : إنما يعود وبال ذلك على الناكث ، والله غنى عنه ، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أَيْ : ثوابا جزيلا . وهذه البيعة هي بيعة الرضوان ، وكانت تحت شجرة سمر بالحديبية ، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل : ألف وثلثمائة . وقيل : أربعمائة . وقيل : وخمسمائة . والأوسط أصح .

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك :

روى البخارى عن جابر قال : كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة . ورواه مسلم (٢) . وأخرجاه عن جابر قال : كنا يومئذ ألفا وأربعمائة ، ووضع يده في ذلك الماء ، فنبع الماء من بين أصابعه ، حتى رويوا كلهم (٣) . وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية ، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهما من كنانته ، فوضعوه في بئر الحديبية ، فجاشت بالماء ، حتى كفتهم ، فقيل لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : كنا ألفا وأربعمائة ، ولو كنا مائة ألف لكفانا (٤) .

(١) عند الآية (٤٥) .

(٢) البخارى (٤٨٤٠) ومسلم (٦٧/١٨٥٦) .

(٣) البخارى (٤١٥٤) ومسلم (٧٢/١٨٥٦) .

(٤) البخارى (٥٦٣٩) .

وفى رواية فى الصحيحين عن جابر: أنهم كانوا خمس عشرة مائة (١) . وروى البخارى من حديث قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة. قلت: فإن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال رحمه الله: وهم، هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة (٢). قال البيهقى: هذه الرواية تدل على أنه كان فى القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة. الذى رواه البيهقى عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفا وأربعمائة (٣). وكذلك هو فى رواية سلمة بن الأكوع، ومعقل بن يسار، والبراء ابن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازى والسير. وقد أخرج صاحبها الصحيح من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبى أوفى يقول: كان أصحاب الشجرة ألفا وأربعمائة، وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين (٤).

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة :

قال ابن إسحاق: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب لبيعته إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشا على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى ابن كعب من يمنعى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها، وغلطى عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى، عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمة. فخرج عثمان إلى مكة، فلقه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل.

قال ابن إسحاق: فحدثنى عبد الله بن أبى بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: « لا نبرح حتى نناجز القوم ». ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على ألا نفر. فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجذ بن قيس أخو بنى سلمة، فكان جابر يقول: والله لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته، قد ضبا إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى كان من أمر عثمان باطل (٥).

(١) البخارى (٤١٥٢) ومسلم (٧٣/١٨٥٦). (٢) البخارى (٤١٥٣).

(٣) البيهقى فى الدلائل (٩٨، ٩٧/٤).

(٤) البخارى (٤١٥٥) ومسلم (٧٥/١٨٥٧). وفيها: « ألفا وثلاثمائة ».

(٥) سيرة ابن هشام (٢٦١/٣٠، ٢٦٢).

وروى البخارى عن نافع، قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فارس له عند رجل من الأنصار أن يأتى به ليقاتل عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدرى بذلك، فبايعه عبد الله، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر، وعمر يستلثم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة، فانطلق، فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، وهى التى يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر. ثم روى البخارى عن ابن عمر، أن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية قد تفرقوا فى ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال - يعنى عمر - : يا عبد الله، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ. فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع (١). وعن جابر، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه، وعمر أخذ بيده تحت الشجرة وهى سمرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت. رواه مسلم، عن قتيبة، عنه (٢). وروى مسلم عن معقل بن يسار، قال: لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر (٣). وروى البخارى عن يزيد بن أبى عبيد، عن سلمة ابن الأكوع، قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم، على أى شىء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت (٤). وروى البخارى أيضا عن سلمة، قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيت، فقال: «يا سلمة، ألا تبايع؟» قلت: بايعت، قال: «أقبل فبايع». فدنوت فبايعته. قلت: علام بايعته يا سلمة؟ قال: على الموت. وأخرجه مسلم (٥). وكذا روى البخارى عن عباد بن تميم، أنهم بايعوه على الموت (٦).

وروى البيهقى عن سلمة بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويهما، ففقد رسول الله ﷺ على جباها - يعنى الركى - فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت، فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة فى أصل الشجرة. فبايعته أول الناس، ثم بايع وببايع، حتى إذا كان فى وسط الناس قال ﷺ: «بايعنى يا سلمة». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك فى أول الناس. قال: «وأىضا». قال: ورأى رسول الله ﷺ عزلا فأعطانى حقة - أو درقة - ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال ﷺ: «ألا تبايع يا سلمة؟». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك فى أول الناس وأوسطهم. قال: «وأىضا». فبايعته الثالثة، فقال: «يا سلمة، أين حجفتك أو درقتك التى أعطيتك؟». قال: قلت: يا رسول الله، لقينى عامر عزلا فأعطيتها إياه: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذى قال الأول: اللهم أبغنى حبيبا هو أحب إلى من نفسى» قال: ثم إن المشركين من

(٢) مسلم (١٨٥٦/٦٧).

(٤) البخارى (٢٩٦٠).

(٦) البخارى (٢٩٥٩).

(١) البخارى (٤١٨٧).

(٣) مسلم (٧٦/١٨٥٨).

(٥) مسلم (٨٠/١٨٦٠).

أهل مكة راسلونا فى الصلح حتى مشى بعضنا فى بعض فاصطلحنا . قال : وكنت خادما لطلحة ابن عبيد الله ، رضى الله عنه ، أسقى فرسه وأحسه وأكل من طعامه ، وتركت أهلى ومالى مهاجرا إلى الله ورسوله . فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة ، واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرة فكسحت شوكتها ، ثم اضطجعت فى أصلها فى ظلها ، فأتانى أربعة من مشركى أهل مكة ، فجعلوا يقعون فى رسول الله ﷺ فأبغضتهم ، وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك إذا نادى مناد من أسفل الوادى : يا للمهاجرين ، قتل ابن زنيم . فاخرطت سيفى ، فشددت على أولئك الأربعة وهم رقود ، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثا فى يدى ، ثم قلت : والذى كرم وجه محمد ﷺ ، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذى فيه عيناه ، قال : ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ ، قال : وجاء عمى عامر برجل من العبلات يقال له : «مكرز» من المشركين يقوده ، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ فى سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال : «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه» ، فعفا عنهم رسول الله ﷺ ، وأنزل الله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية [الفتح : ٢٤] . وهكذا رواه مسلم بنحوه ، أو قريبا منه (١) .

وثبت فى الصحيحين عن سعيد بن المسيب ، قال : كان أبى ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة . قال : فانطلقنا من قابل حاجين ، فخفى علينا مكانها ، فإن كان تبينت لكم ، فأنتم أعلم (٢) . وروى أبو بكر الحميدى عن جابر ، قال : لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة ، وجدنا رجلا منا يقال له «الجد بن قيس» مختبئا تحت إبط بعيره . رواه مسلم (٣) . وروى الحميدى أيضا عن عمرو ، سمع جابرا ، قال : كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة ، فقال لنا رسول الله ﷺ «أنتم خير أهل الأرض اليوم» . قال جابر : لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة . قال سفيان : إنهم اختلفوا فى موضعها . أخرجاه (٤) . وعن جابر ، عن النبى ﷺ أنه قال : « من يصعد الثنية ، ثنية المزار ، فإنه يحط عنه ما حط عن بنى إسرائيل » . فكان أول من صعد خيل بنى الخزرج ، ثم تبادر الناس بعد ، فقال رسول الله ﷺ : «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر» . فقلنا : تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ . فقال : والله لأن أجد ضالتي أحب إلى من أن يستغفر لى صاحبكم . فإذا هو رجل ينشد ضالة . رواه مسلم (٥) . وعن أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة : «لا يدخل النار - إن شاء الله - من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد» . قالت : بلى يا رسول الله . فانتهرها ، فقالت لحفصة : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم : ٧١] ، فقال النبى ﷺ : « قد قال الله : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴾ »

(١) البيهقى فى الدلائل (٤/ ١٣٨) ومسلم (١٨٠٧/ ١٣٢) .

(٢) البخارى (٤١٦٤) ومسلم (١٨٥٩/ ٧٧) .

(٣) الحميدى فى المسند (٥٣٧/ ٢) ومسلم (١٨٥٦/ ٦٩) .

(٤) الحميدى فى المسند (٥١٤/ ٢) والبخارى (٤١٥٤) ومسلم (١٨٥٦/ ٧١) .

(٥) مسلم (١٢/ ٢٧٨٠) .

[مريم: ٧٢]، رواه مسلم (١) . وفيه أيضا عن جابر؛ أن عبدا لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطبا، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها؛ فإنه قد شهد بدرا والحديبية» (٢) .

ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الفتح: ١٠] ، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] .

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مخبرا رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أى: لا يقدر أحد أن يرد ما أَرَادَهُ فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتُمونا وتابعتُمونا؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ . ثم قال: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وَوَظَنْتُمْ ظَنَّ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أى: هلكى. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقال قتادة: فاسدين.

ثم قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الآية] أى: من لم يخلص العمل فى الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه فى السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر. ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف فى أهل السموات والأرض: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أى: لمن تاب إليه وأناب، وخضع لديه.

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيريفتحنونها : أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله رسوله ﷺ ألا يأذن لهم في ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم. فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خير وحدثهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً وقدرًا؛ ولهذا قال : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ قال مجاهد، وقتادة : وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير. وقال ابن جريج : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعنى : بتشيطهم المسلمين عن الجهاد.

﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أى : وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أى : أن نشركم في المغنم، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى : ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال : أحدها : أنهم هوازن. عن سعيد بن جبير أو عكرمة، أو جميعا، وبه يقول قتادة في رواية عنه. الثانى : ثقيف، قاله الضحاك الثالث : بنو حنيفة، قاله جويرى والزهرى. الرابع : هم أهل فارس. عن ابن عباس، وبه يقول عطاء، ومجاهد، وعكرمة. وعن ابن أبى ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادة : هم فارس والروم. وعن مجاهد : هم أهل الأوثان. وعنه أيضا : هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة. وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة » . قال سفيان : هم الترك (١).

وقوله : ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعنى : يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمرا

عليهم، ولكم النصره عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا ﴾ أى: تستجبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذى عليكم فيه، ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنى: زمن الحديبية، حيث دعيتم فتخلفتم، ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. ثم ذكر الأعذار فى ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذى يطرأ أياما ثم يزول، فهو فى حال مرضه ملحق بذوى الأعذار اللازمة حتى يبرأ. ثم قال تعالى مرغبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أى: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش ﴿يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فى الدنيا بالمذلة، وفى الآخرة بالنار.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ رُبِعَ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية. روى البخارى عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجا فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثنى أبى أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم (١). وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ وهى الطمأنينة، ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجْدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

قال مجاهد فى قوله : ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ : هى جميع المغانم إلى اليوم ، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى : فتح خيبر . وعن ابن عباس : ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى : صلح الحديبية . ﴿وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أى : لم ينلکم سوء مما كان أعداؤکم أضمره لکم من المحاربة والقتال . وكذلك كف أيدى الناس عنکم الذين خلفتموهم وراء أظهرکم عن عيالکم وحريمکم ، ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى : يعتبرون بذلك ، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء ، مع قلة عددهم ، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور ، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه فى الظاهر ، كما قال : ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة : ٢١٦] . ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أى : بسبب انقيادکم لأمره واتباعکم طاعته ، وموافقتم رسوله ﷺ .

وقوله : ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أى : وغنيمة أخرى وفتحا آخر معنا لم تكونوا تقدرون عليها ، قد يسرها الله عليكم ، وأحاط بها لكم ، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون . وقد اختلف المفسرون فى هذه الغنيمة ، ما المراد بها؟ فقال ابن عباس : هى خيبر . وهذا على قوله فى قوله تعالى : ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ : إنها صلح الحديبية . وقاله الضحاك ، وابن إسحاق ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقال قتادة : هى مكة . واختاره ابن جرير . وقال ابن أبى ليلى ، والحسن البصرى : هى فارس والروم . وقال مجاهد : هى كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة .

وقوله : ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ : يقول تعالى مبشرا لعباده المؤمنين : بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ، ولانهزم جيش الكفار فإرا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا ؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين . ثم قال : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أى : هذه سنة الله وعادته فى خلقه ، فما تقابل الكفر والإيمان فى موطن فيصل إلى نصر الله الإيمان على الكفر ، فرفع الحق ووضع الباطل ، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين ، مع قلة عدد المسلمين وعددهم ، وكثرة المشركين وعددهم .

وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ : هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدى المشركين عنهم ، فلم يضل إليهم منهم سوء ، وكف أيدى المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان ككلاً من الفريقين ، وأوجد بينهم صلحا فيه خيرة للمؤمنين ، وعاقبة لهم فى الدنيا والآخرة . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح ، من قبل جبل التنعيم ، يريدن غرة رسول الله ﷺ ، فدعا عليهم فأخذوا - قال عفان : فعفا عنهم - ونزلت هذه الآية : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ . ورواه مسلم وأبو داود والترمذى

والنسائي (١) . وروى أحمد عن عبد الله بن مغفل المزني قال : كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ ، وعلى بن أبي طالب . وسهيل بن عمرو بين يديه ، فقال رسول الله ﷺ لعلي : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » ، فأخذ سهيل بيده وقال : ما نعرف الرحمن الرحيم . اكتب في قضيتنا ما نعرف . قال : « اكتب بسمك اللهم » ، وكتب : « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة » . فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله ، اكتب في قضيتنا ما نعرف . فقال : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله » . فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ الله بأسماعهم ، فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال رسول الله ﷺ : « هل جئتم في عهد أحد ؟ أو : هل جعل لكم أحد أمانا ؟ » . فقالوا : لا . فخلى سبيلهم ، فأنزل الله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَرْفِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ . رواه النسائي (٢) .

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٢٥ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن ملأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : هم الكفار دون غيرهم ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي : وأنتم أحق به ، وأنتم أهله في نفس الأمر ، ﴿ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ ﴾ أي : وصدوا الهدى أن يصل إلى محله ، وهذا من بغيتهم وعنادهم .

وقوله : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ ﴾ أي : بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم ، لكنا سلطناكم عليهم فقتلتموهم وأبديتم خضراءهم ، ولكن بين أفتائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ؛ ولهذا قل : ﴿ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ ﴾

(١) المسند (١٢٢ / ٣) ومسلم (١٣٣ / ١٨٠٨) وأبو داود (٢٦٨٨) والترمذي (٣٢٦٤) والنسائي في الكبرى (١١٥١٠) .

(٢) المسند (٨٦ / ٤) والنسائي في الكبرى (١١٥١١) . وقال الهيثمي في الزوائد (١٤٥ / ٦) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

فَتُصِيبُكُم مِّنْهُمْ مِّعْرَةٌ ﴿٢٥﴾ أَيْ : إثم وغرامة ﴿بِفَيْرٍ عِلْمٍ لِّدُخْلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ﴾ ﴿٢٦﴾ أَيْ : يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين ، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام . ثم قال تعالى : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ ﴿٢٧﴾ أَيْ : لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿٢٨﴾ أَيْ : لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلا ذريعا . روى الطبراني : عن جنيد بن سبيع قال : قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافرا ، وقاتلت معه آخر النهار مسلما ، وفينا نزلت : ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ . قال : كنا تسعة نفر : سبعة رجال وامرأتين (١) . وعن ابن عباس : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول : لو تزيل الكفار من المؤمنين ، لعذبهم الله عذابا أليما بقتلهم إياهم .

وقوله : ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ : وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» ، وأبوا أن يكتبوا : «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» ، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ ، وهى قول : «لا إله إلا الله» . وقال مجاهد : ﴿كَلِمَةُ التَّقْوَى﴾ : الإخلاص ، وقال عطاء بن أبى رباح : هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . وقال على : لا إله إلا الله ، والله أكبر . وكذا قال ابن عمر ، رضى الله عنهما . وقال ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وهى رأس كل تقوى . وقال سعيد بن جبير لا إله إلا الله ، والجهد فى سبيله . وقال عطاء الخراسانى : هى : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . وقال الزهري : بسم الله الرحمن الرحيم . وقال قتادة : لا إله إلا الله .

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ : كان المسلمون أحق بها ، وكانوا أهلها . ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أَيْ : هو عليم بمن يستحق الخير من يستحق الشر . وقد روى النسائي عن أبى بن كعب أنه كان يقرأ : ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح : ٢٦] ، ولو حميتكم كما حموا لفسد المسجد الحرام . فبلغ ذلك عمر فأغلظ له ، فقال : إنك لتعلم أنى كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمنى مما علمه الله . فقال عمر : بل أنت رجل عندك علم وقرآن ، فاقراً وعلم مما علمك الله ورسوله (٢) .

وهذا ذكر الأحاديث الواردة فى قصة الحديبية وقضية الصلح :

روى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا : خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت ، لا يريد قتالا ، وساق معه الهدى سبعين بدنة ، وكان الناس سبعمائة رجل ، فكانت كل بدنة عن عشرة ، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذ كان بعسفان لقيه بشر بن

(١) الطبراني فى المعجم الكبير (٢ / ٢٩٠) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ١١٠) : « رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات » .

(٢) النسائي فى الكبرى (١ / ١١٥٠٥) .

سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل، قد لبست جلود النمر، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثنى الله به حتى يظهرني الله أو تنفرد هذه السالفة». ثم أمر الناس فسلخوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق تخرجه على ثنية المزار والحديبية من أسفل مكة. قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قتره الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المزار، بركت ناقته، فقال الناس: خلأت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت، وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها». ثم قال ﷺ للناس: «انزلوا». قالوا: يا رسول الله، ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قلب من تلك القلب، فغرز فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن. فلما اطمأن رسول الله ﷺ، إذا بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهري: وكانت خزاعة في عيبة نصيح لرسول الله ﷺ مشركها ومسلمها، لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عنوة، ولا يتحدث بذلك العرب. ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص، أحد بني عامر بن لؤي، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو ما كلم به أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ؛ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكناني، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدى»، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال: يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صدّه، الهدى في قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله. قالوا: اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك. فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفي، فقال: يا معشر قريش، إن قد رأيت ما يلقي منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم إلى والد وأنا ولد، وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي، ثم جئت حتى آسيكم بنفسي. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، فقال: يا محمد، جمعت أوباش الناس، ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد

لبسوا جلود النمر، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وإيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا. قال: وأبو بكر قاعد خلف رسول الله ﷺ، فقال: امصص بظر اللات! نحن ننكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبي قحافة». قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها. ثم تناول لحية رسول الله ﷺ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ بالحديد، قال: فقرع يده. ثم قال: أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل - والله - لا تصل إليك. قال: ويحك! ما أفضحك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ. قال: من هذا يا محمد؟ قال ﷺ: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة». قال: أغدر، وهل غسلت سواتك إلا بالأمس؟! قال فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً. قال: فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه، وجئت قيصر والنجاشي في ملكهما، والله ما رأيت ملكاً قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم. قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد بعث خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: «الثعلب»، فلما دخل مكة عقرت به قريش، وأرادوا قتل خراش، فمنعتهم الأحابيش، حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا عمر ليعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بها من بنى عدى أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني: عثمان بن عفان. قال: فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمة. فخرج عثمان حتى أتى مكة، فلقاه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله بين يديه وردفه خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. قال: واحتبسته قريش عندها، قال: وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل.

قال محمد: فحدثني الزهري: أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو، وقالوا: ائت محمداً فصالحه ولا تكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلموا وأطالا الكلام، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ فقال أبو بكر: الزم غرزه حيث كان، فإني أشهد أنه رسول الله. فقال عمر: وأنا أشهد. ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أو لسنا بالمسلمين أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ فقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن

أخالف أمره ولن يضيعني». ثم قال عمر: مازلت أصوم وأصلي وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا. قال: ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب فقال: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: ولا أعرف هذا، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، فقال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم. هذا ما صالح عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل بن عمرو: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو، على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله من أصحابه بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن أتى قريشا ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال، وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتوالت خزاعة فقالوا: نحن في عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتوالت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنت ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فتدخلها بأصحابك، وأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب. فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب، إذا جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ قال: وقد كان أصحاب رسول الله يخرجوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله ﷺ على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال: يا محمد، قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فقام إليه فأخذ بتلابيه. قال: وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنونني في ديني؟ قال: فزاد الناس شرا إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً فأعطيناهم على ذلك وأعطينا عليه عهداً، وإنا لن نغدر بهم». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشي مع أبي جندل إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدني قائم السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، قال: فضن الرجل بأبيه. قال: ونفذت القضية، فلما فرغا من الكتاب، وكان رسول الله ﷺ يصلي في الحرم، وهو مضطرب في الحل، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «يأيها الناس، انحروا واحلقوا». قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد بمثلها فما قام رجل، ثم عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل. فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال: «يا أم سلمة، ما شأن الناس؟». قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت، فلا تكلمن منهم إنساناً، واعمد إلى هديك حيث كان فانحروا وحلقوا، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى

إذا أتى هديه فنحره، ثم جلس فخلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون. قال: حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق نزلت سورة الفتح.

هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وقد رواه البخاري في صحيحه، فساقه بسياقة حسنة مطولة بزيادات جيدة، فروى في كتاب الشروط من صحيحه عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالوا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره، وأحرم منها بعمره وبعث عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك. فقال ﷺ: «أشيروا أيها الناس على، أترون أن نميل على عيالهم، وذراى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟»، وفي لفظ: «أترون أن نميل على ذراى هؤلاء الذين أعانوهم. فإن يأتونا كان الله قد قطع عنقاً من المشركين وإلا تركناهم محزونين»، وفي لفظ: «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محروبين وإن نجوا يكن عنقاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟». فقال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا نريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. وفي لفظ: فقال أبو بكر: الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذن»، وفي لفظ: «فامضوا على اسم الله».

حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت به راحلته فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل» ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله، إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكى إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بدیل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددناهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره». قال

بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشا فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء. وقال: ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أى قوم، أستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونى؟ قالوا: لا. قال: أستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا على جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعونى آتته. قالوا: آتته. فأتاه فجعل يكلم النبی ﷺ، فقال النبی ﷺ له نحوا من قوله لبديل بن ورقاء. فقال عروة عند ذلك: أى محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإنى والله لأرى وجوهاً، وإنى لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال أبو بكر: امصص بظُر اللات! أنحن نفر وندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجرك بها، لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبی ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبی ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبی ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: آخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أى غدر، ألتست أسعى فى غدرتك؟! وكان المغيرة بن شعبة صحب قوماً فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبی ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه فى شىء». ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبی ﷺ بعينه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه، تعظيماً له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشى، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل منهم من بنى كنانة: دعونى آتته. فقالوا: آتته، فلما أشرف على النبی ﷺ وأصحابه، قال النبی ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له» فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلّدت وأشعرت، فما أرى أن يُصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: «مكرز بن حفص»، فقال: دعونى آتته. فقالوا: آتته. فلما أشرف عليهم قال النبی ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبی ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. وقال معمر: أخبرنى أيوب،

عن عِكْرَمَةَ أَنَّهُ قَالَ : لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ : « قد سهّل لكم من أمركم » .

قال معمر : قال الزهري في حديثه : فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات اكتب بيننا وبينك كتابا فدعا النبي ﷺ بعليّ وقال : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال سهيل بن عمرو : أما « الرحمن » فوالله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب : « باسمك اللهم » ، كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا : « بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال النبي ﷺ : « اكتب : باسمك اللهم » . ثم قال : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » . فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : « محمد بن عبد الله » ، فقال النبي ﷺ : « والله إنى لرسول الله وإن كذبتهموني . اكتب : محمد بن عبد الله » قال الزهري : وذلك لقوله : « والله لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرّات الله إلا أعطيتهم إياها » . فقال النبي ﷺ : « على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به » . فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطَةً ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيل : « وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا » . فقال المسلمون : سبحان الله ! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟ ! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسفُ في قيوده ، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترُدّه إلى ، فقال النبي ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد » . قال : فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبدا . فقال النبي ﷺ : « فأجزه لى » فقال : ما أنا بمجيز ذلك لك ، قال : « بلى فافعل » . قال : ما أنا بفاعل . قال مكرز : بلى قد أجزناه لك . قال أبو جندل : أى معشر المسلمين ، أَرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟ ! وكان قد عذَّبَ عذاباً شديداً في الله عز وجل قال عمر : فأتيت نبي الله ﷺ ، فقلت : أأست نبي الله حقاً ؟ قال ﷺ : « بلى » . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : « بلى » . قلت : فلم نعطى الدنية في ديننا إذا ؟ قال : « إنى رسول الله ، ولست أعصيه ، وهو ناصرى » ، قلت : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى ، أفأخبرتكم أنا نأتية العام ؟ » . قلت : لا ، قال : « فإنك آتية ومُطَوَّفٌ به » قال : فأتيت أبا بكر فقلت : يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطى الدنية في ديننا إذا ؟ قال : أيها الرجل ، إنه رسول الله ، وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بعرزّه ، فوالله إنه على الحق . قلت : أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، قال : أفأخبركم أنك تأتية العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك تأتية وتطوف به .

قال الزهري : قال عمر : فعملت لذلك أعمالا . قال : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « قوموا فانحروا ثم احلقوا » . قال : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات !! فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، قالت له أم سلمة : يا نبي الله ، أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك

وتدعو خالقك فيخلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا خالقه فخلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يخلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله، عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ حتى بلغ: ﴿بَعْضَ الْكَوَافِرِ﴾ [المتحنة: ١٠]. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا، فاستله الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى برد، وفرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعرا»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد - والله - أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب! لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ، تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم: «فمن أتاه منهم فهو آمن». فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ﴾ حتى بلغ: ﴿حِمَى الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقرأوا أنه رسول الله، ولم يقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت. وهكذا ساقه البخارى هاهنا، وقد أخرجه فى التفسير، وفى عمرة الحديبية، وفى الحج، وغير ذلك (١) ووقع فى بعض الأماكن عن الزهرى، عن عروة، عن مروان والمِسُور بن، عن رجال من أصحاب النبي ﷺ بذلك (٢). وهذا أشبه والله أعلم، ولم يسقه أبسط من هاهنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين فى مواضع، وهناك فوائد ينبغى إضافتها إلى ما هاهنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وروى البخارى فى التفسير عن حبيب بن أبى ثابت، قال: أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال على بن أبى طالب: نعم. فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يعنى: الصلح الذى كان بين النبي ﷺ والمشركين ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلنا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ فقال: «بلى». قال: فقيم نعطي الدنية فى ديننا،

ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال ﷺ: «يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدا»، فرجع متغيظا، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: يا بن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدا، فنزلت سورة الفتح. وقد رواه البخاري أيضا في مواضع أخر ومسلم والنسائي، وفي بعض ألفاظه: «يأيها الناس، اتهموا الرأي، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته»، وفي رواية: فنزلت سورة الفتح، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فقرأها عليه (١).

وروى الإمام أحمد عن أنس، أن قريشا صالحوا النبي ﷺ، فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ لعلی: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب: «باسمك اللهم». فقال ﷺ: «اكتب: من محمد رسول الله». قال: لو نعلم أنك رسول الله لا تبعناك، ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك. فقال النبي ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». واشتروطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددموه علينا، فقال: يا رسول الله، أكتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله». رواه مسلم (٢). وروى أحمد أيضا عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحرورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلی: «اكتب يا على: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله: «امح يا على، اللهم إنك تعلم أني رسولك، امح يا على، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». والله لرسول الله خير من على، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحاه من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. ورواه أبو داود بنحوه (٣).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبي جهل، فلما صُدَّتْ عن البيت حنَّتْ كما تَحِنُّ إلى أولادها (٤).

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (١٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٨﴾

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تفسر هذا العام،

(١) البخاري (٣١٨١، ٣١٨٢، ٤١٨٩، ٤٨٤٤، ٧٣٠٨) ومسلم (٩٤/١٧٨٥) والنسائي في الكبرى (٤/١١٥٠).

(٢) المسند (٢٦٨/٣) ومسلم (٩٣/١٧٨٤).

(٣) المسند (٣١٨٧) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» وأبو داود (٤٠٣٧).

(٤) المسند (٢٨٨٢) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده حسن».

فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قافل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب، في ذلك، فقال له فيما قال : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى، أفأخبرتكَ أنك تأتیه عامك هذا » قال : لا، قال : « فإنك آتیه ومطوف به ». وبهذا أجاب الصديق، أيضا حذو القُذَّة بالقُذَّة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ : هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء. وقوله : ﴿ آمَنِينَ ﴾ أى : فى حال دخولكم . وقوله : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ حال مقدرة ؛ لأنهم فى حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا فى ثانى الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله المحلقين »، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : « رحم الله المحلقين ». قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : « والمقصرين » فى الثالثة أو الرابعة (١) .

وقوله : ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ : حال مؤكدة فى المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم فى البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان فى عمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع، فإن النبى ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج فى صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحا، وهى إقليم عظيم كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدا أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبى طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعرى وأصحابه، ولم يغيب منهم أحد، قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سِمَاك بن خَرَشَةَ، ثم رجع إلى المدينة، فلما كان فى ذى القعدة من سنة سبع خرج إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذى الحليفة، وساق معه الهدى، قيل : كان ستين بدنة، فلبى وسار وأصحابه يلبون. فلما كان قريبا من مر الظهران بعث محمد ابن مسلمة بالخيال والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذى بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسى والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة فى قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان فى أثناء الطريق بعث قريش مكرز بن حفص فقال : يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. فقال ﷺ : « وما ذاك ؟ ». قال : دخلت علينا بالسلاح والقسى والرماح. فقال : « لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج »، فقال : بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه غيظا وحنقا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها

عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبنون، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى، وهو راكب ناقته القصواء التى كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصارى أخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها، وهو يقول:

باسم الذى لا دين إلا دينه	باسم الذى محمدٌ رسوله
خلُّوا بنى الكُفَّار عن سبيله	اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله	ضرباً يزيل الهام عن مَقيله
ويذهل الخليل على خليله	قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صُحف تُتلى على رسوله	بأن خير القتل فى سبيله

يا رب إنى مؤمن بقبيله

فهذا مجموع من روايات متفرقة .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل مرّ الظهران فى عمرته، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشا تقول: ما يتباعثون من العَجَف. فقال أصحابه: لو انتحرنّا من ظهرنا، فأكلنا من لحمه، وحسّونا من مرّقه، أصبحنا غدا حين ندخل على القوم وبنا جَمَامَةً. قال ﷺ: «لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لى من أزوادكم». فجمعوا له وبسطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تركوا وحشا كل واحد منهم فى جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطجع بردائه، ثم قال: «لا يرى القوم فيكم غميرة» فاستلم الركن ثم رَمَلَ، حتى إذا تغيب بالركن اليمانى مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشى أما إنكم لتنقرُون نقرَ الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط، فكانت سُنَّة. قال أبو الطفيل: فأخبرنى ابن عباس: أن رسول الله ﷺ فعل ذلك فى حجة الوداع (١). وروى أحمد أيضا عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها سوءا، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شرا، وجلس المشركون من الناحية التى تلى الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة؛ ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبى ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا. أخرجاه فى الصحيحين (٢). وفى لفظ: قدم النبى ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة، أى من ذى القعدة، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم النبى ﷺ أن

(١) المسند (٢٧٨٢) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» .

(٢) المسند (٨٦٨٦) والبخارى (٤٢٥٦) ومسلم (١٢٦٦/٢٤٠) .

يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

وروى البخارى عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ لعامة الذى استأمن قال: «ارملوا». ليرى المشركون قوتهم، والمشركون من قبل قبيقعا (١). وعن ابن عباس قال: إنما سعى النبي ﷺ بالبيت وبالصفاء والمروة، ليرى المشركون قوته (٢). ورواه مسلم والنسائى، من طرق، عن سفيان بن عيينة، به (٣). وروى أيضا عن ابن أبى أوفى قال: لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم؛ أن يؤذوا رسول الله ﷺ. انفرد به البخارى دون مسلم (٤). وروى البخارى أيضا عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ خرج معتمرا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحا عليهم إلا سيوفا، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثا، أمروه أن يخرج فخرج. وهو فى صحيح مسلم (٥). وروى البخارى أيضا عن البراء، قال: اعتمر النبي ﷺ فى ذى القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: «هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله». قالوا: لا نقر بهذا، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئا، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلى بن أبى طالب: «امح رسول الله». قال: لا، والله لا أمحوك أبدا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله: لا يدخل مكة السلاح إلا السيف فى القراب، وألا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، وألا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها» فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا عليا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادى: يا عم، يا عم. فتناولها على فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختم فيها على وزيد وجعفر، فقال على: أنا أخذتها وهى ابنة عمى، وقال جعفر: ابنة عمى وخالتها تحتى، وقال زيد: ابنة أخى، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلى: «أنت منى وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خلقى وخلقى» وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». قال على: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخى من الرضاعة» انفرد به من هذا الوجه (٦).

وقوله: «فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا» أى: فعلم الله تعالى من الخير والمصلحة فى صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم، «فَجَعَلَ مِنْ دُونِ

(١) فى المطبوعة حرفت إلى: «قبيقعا» . (٢) البخارى (٤٢٥٧) .

(٣) البخارى (١٦٤٩ ، ٤٢٥٦) ومسلم (١٢٦٦ / ٢٤٠) والنسائى فى الكبرى (٣٩٧٣) .

(٤) البخارى (٥٢٥٥) .

(٥) البخارى (٤٢٥٢) ولم يعزه صاحب التحفة (١٩٣ / ٦) إلا للبخارى .

(٦) البخارى (٤٢٥١) .

ذَلِكَ أَي: قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ، ﴿فَتَحَّا قَرِيْبًا﴾: وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين. ثم قال تعالى، مبشرا للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات الله [وسلامه] عليه على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أَي: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فأخباراتها حق وإنشاءاتها عدل، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أَي: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين ومشركين، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أَي: أنه رسوله، وهو ناصره.

﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفا على الكفار، رحيمًا برأ بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر، ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر» (١)، وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه (٢). كلا الحديثين في الصحيح.

وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾: وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهى خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله، عز وجل، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه، تعالى، عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال ابن عباس: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ يعنى: السمات الحسن. وقال مجاهد وغير واحد: يعنى: الخشوع والتواضع. وقال السدى: الصلاة تحسن وجوههم. وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار. وقال بعضهم: إن

للحسنة نورا في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. والغرض: أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روى عن عمر بن الخطاب، أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته. وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائنا ما كان» (١). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «إن الهدى الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة» ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفيلي، عن زهير، به (٢).

فالصحابة رضى الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديتهم. وقال مالك: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾، ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي: فراخه، ﴿فَأَزْرَهُ﴾ أي: شده ﴿فَاسْتَفْظَ﴾ أي: شب وطل، ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أي: فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزره وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطاء مع الزرع، ﴿لِيُغِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾. ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك - في رواية عنه - بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم.

ثم قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ «من» هذه لبيان الجنس ﴿مَغْفِرَةً﴾ أي: لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابا جزيلا ورزقا كريما، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» (٣).

(١) المسند (٢٨١٣)، وقال الهيثمي في الزوائد (٢٨٨/١٠): «إسناده حسن».

(٢) المسند (٢٦٩٨) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، وأبو داود (٤٧٧٦).

(٣) مسلم (٢٢١/٢٥٤٠).

تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربع

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾
 ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ
 كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
 وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

هذه آداب، أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أى: لا تسرعوا فى الأشياء بين يديه، أى: قبله، بل كونوا تبعاً له فى جميع الأمور. قال ابن عباس: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فيما أمركم به ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أى: لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾: هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته. وقد روى أنها نزلت فى الشيخين أبى بكر وعمر. وروى البخارى عن ابن أبى مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا، أبو بكر وعمر، رفعاً أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بنى تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بنى مجاشع، وأشار الآخر بـرجل آخر. قال نافع: لا أحفظ اسمه. فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافى. قال: ما أردت خلافاً. فارتفعت أصواتهما فى ذلك، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية، قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه: يعنى أبا بكر، . انفراد به دون مسلم (١). ثم قال البخارى عن عبد الله بن الزبير: أنه قدم ركب من بنى تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد. وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافى. فقال عمر: ما أردت خلافاً، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت فى ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ

اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴿ حَتَّى انْقَضَتِ الْآيَةُ ﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴿ الآية [الحجرات: ٥] . وهكذا رواه هاهنا منفردا به أيضا (١) .

وروى البخارى عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل : يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه . فأتاه فوجده فى بيته منكساً رأسه، فقال له : ما شأنك؟ فقال : شر، كان يرفعُ صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار . فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة » تفرد به البخارى من هذا الوجه (٢) . وروى الإمام أحمد عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ إلى : ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ ، وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال : أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ حبط عملى، أنا من أهل النار، وجلس فى أهله حزينا، ففقدته رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : تفقدك رسول الله ﷺ، ما لك؟ قال : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبي ﷺ، وأجهر له بالقول، حبط عملى، أنا من أهل النار . فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال : « لا، بل هو من أهل الجنة » . قال أنس : فكنا نراه يمشى بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة . فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفته، فقال : بشما تُعودون أقرانكم . فقاتلهم حتى قُتل (٣) .

وروى مسلم عن أنس بن مالك قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابت فى بيته، قال : أنا من أهل النار . واحتبس عن النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ لسعد بن معاذ : « يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أشتكى؟ » فقال سعد : إنه لجارى، وما علمت له بشكوى . قال : فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت : أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أنى من أرفعكم صوتا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار . فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ : « بل، هو من أهل الجنة » (٤) . فهذه الطرق الثلاث مُعلّلة لرواية حماد بن سلمة، فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ . والصحيح : أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجوداً؛ لأنه كان قد مات بعد بنى قريظة بأيام قلائل سنة خمس، وهذه الآية نزلت فى وفد بنى تميم، والوفود إنما تواتروا فى سنة تسع من الهجرة، والله أعلم .

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله عز وجل، عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ، وقد رويناه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه سمع صوت

(٢) البخارى (٤٨٤٦) .

(١) البخارى (٤٨٤٧) .

(٣) المسند (١٣٧/٣) ، وهو عند البخارى ، انظر السابق .

(٤) مسلم (١٨٧/١١٩) .

رجلين فى مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء ، فقال : أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً (١). وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ ، كما كان يكره فى حياته ؛ لأنه محترم حياً وفى قبره ﷺ ، دائماً . ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه ، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ ، كما قال : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣].

وقوله عز وجل : ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أى : إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك ، فيغضب الله لغضبه ، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري ، كما جاء فى الصحيح : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يكتب له بها الجنة . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى النار أبعد ما بين السموات والأرض » (٢).

ثم ندب الله عز وجل ، إلى خفض الصوت عنده ، وحث على ذلك ، وأرشد إليه ، ورغب فيه ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ أى : أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلاً ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ . وقد روى الإمام أحمد فى كتاب الزهد عن مجاهد ، قال : كُتِبَ إلى عمر : يا أمير المؤمنين ، رجل لا يشتهى المعصية ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

ثم إنه تعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات ، وهى بيوت نسائه ، كما يصنع أجلاف الأعراب ، فقال : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم أرشد إلى الأدب فى ذلك فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أى : لكان لهم فى ذلك الخيرة والمصلحة فى الدنيا والآخرة . ثم قال داعياً لهم إلى التوبة والإنابة : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمى ، فيما أورده غير واحد ، روى الإمام أحمد عن الأقرع بن حابس ؛ أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ، فقال : يا محمد ، يا محمد - وفى رواية : يا رسول الله - فلم يجبه . فقال : يا رسول الله ، إن حمدى لزين ، وإن

(١) البخارى (٤٧٠) .

(٢) البخارى (٦٤٧٨) .

(٣) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥٥٢/٧) لأحمد فى الزهد .

ذمى لشين، فقال: «ذاك الله، عز وجل» (١).

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّآ مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يحكم بقوله فيكون - في نفس الأمر - كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتضى وراءه، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأننا أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أى: اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الاحزاب: ٦]. ثم بين أن رأيهم سخيף بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ أى: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرَجكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: حببه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم. ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أى: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهى: الذنوب الكبار. والعصيان وهى جميع المعاصى. وهذا تدرّيج لكمال النعمة. وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أى: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم. روى الإمام أحمد عن ابن (٢) رفاعه الزرقى، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفاً المشركون، قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثنى على ربي، عز وجل» فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: «اللهم، لك الحمد كله. اللهم، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت. ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت. ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت. اللهم، ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك. اللهم، إني أسألك النعيم المقيم

(١) المسند (٤٨٨/٣)، وقال الهيثمى فى الزوائد (٨٠٨/٧): «إسناد أحمد رجاله رجال الصحيح إن كان أبو سلمة سمع من الأقرع بن حابس، وإلا فهو مرسل».

(٢) فى المخطوطة والمطبوعة: «أبى رفاعه» صوابه ما أثبتناه من المسند والنسائى، وابن رفاعه هو: عبيد.

الذى لا يحول ولا يزول. اللهم، إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف. اللهم، إني عائد بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعنا. اللهم، حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم، توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. اللهم، قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم، قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق». ورواه النسائي في اليوم والليلة (١). وفي الحديث المرفوع: «من سرته حسنته، وساءته سيئته، فهو مؤمن» (٢).

ثم قال: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أى: هذا العطاء الذى منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى أمراً بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ ، فسامهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدل البخارى وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت فى صحيح البخارى عن أبى بكره، أن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن على، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابنى هذا سيد ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» (٣). فكان كما قال ﷺ، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أى: حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله، وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت فى الصحيح عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوما». قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالماً؟ قال ﷺ: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه» (٤). وروى الإمام أحمد، أن أنساً قال: قيل للنبي ﷺ، لو أتيت عبد الله بن أبى؟ فانطلق إليه نبي الله ﷺ وركب

(١) المسند (٤٢٤/٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٢٥/٦): «رجاله رجال الصحيح». والنسائي فى عمل اليوم والليلة (١٠٤٤٥)، وصححه الحاكم فى المستدرک ووافقه الذهبى (٢٣/٣).

(٢) المسند (١١٤) والترمذى (٢١٦٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه» وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٣) البخارى (٢٧٠٤).

(٤) البخارى (٢٤٤٣).

حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهى أرض سبخة، فلما انطلق إليه النبي ﷺ قال: «إليك عنى، فوالله لقد آذانى ريح حمارك» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله أطيب ريحا منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾. ورواه البخارى ومسلم بنحوه (١).

وقوله: ﴿إِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أى: اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض، بالقسط، وهو العدل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. روى ابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين فى الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدى الرحمن، بما أقسطوا فى الدنيا». ورواه النسائى (٢). وهذا إسناد جيد قوى، رجاله على شرط الصحيح. عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وما ولّوا». ورواه مسلم والنسائى (٣).

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أى: الجميع إخوة فى الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» (٤). وفى الصحيح: «والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه» (٥). وفى الصحيح أيضا: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله» (٦). والأحاديث فى هذا كثيرة، وفى الصحيح: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر» (٧). وفى الصحيح أيضا: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه (٨). وروى أحمد عن سهل بن سعد الساعدى، عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما فى الرأس» (٩). تفرد به ولا بأس بإسناده. وقوله: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ يعنى: الفتين المقتلين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فى جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾



(١) المسند (٣/ ١٥٧) والبخارى (٢٦٩١) ومسلم (١٧٩٩/ ١١٧).

(٢) النسائى (٥٣٧٩). (٣) مسلم (١٨٢٧/ ١٨) والنسائى (٥٣٧٩).

(٤) البخارى (٢٤٤٢) ومسلم (٥٨/ ٢٥٨٠). (٥) مسلم (٣٨/ ٢٦٩٩).

(٦) مسلم (٨٧/ ٢٧٣٢). (٧) مسلم (٦٦/ ٢٥٨٦).

(٨) البخارى (٦٠١١) ومسلم (٦٥/ ٢٥٨٥).

(٩) المسند (٥/ ٣٤٠) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨/ ١٩٠): «رجال أحمد رجال الصحيح».

ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَضُ النَّاسِ» ويروى: «وغمط الناس» (١). والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾، فنص على نهى الرجال وعطف بنهى النساء.

وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أى: لا تلمزوا الناس. والهمَّاز اللَّماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، والهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١] أى: يحتقر الناس ويهمزهم طاغياً عليهم، ويمشى بينهم بالنميمة وهى: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أى: لا يقتل بعضكم بعضاً. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أى: لا يطعن بعضكم على بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أى: لا تدعوا بالألقاب، وهى التى يسوء الشخص سماعها. روى الإمام أحمد عن أبى جَبْرِ بن الضحَّاك قال: فىنا نزلت فى بنى سلمة: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فىنا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ أحدُ منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا. فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾. ورواه أبو داود (٢).

وقوله: ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أى: بئس الصفة والاسم الفسوق وهو: التنابز بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون، بعدما دخلتم فى الإسلام وعقلموه، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ﴾ أى: من هذا ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليجتنب كثير منه احتياطاً، وروى مالك عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله

(١) مسلم (١٤٧/٩١).

(٢) المسند (٤/ ٢٦٠) وأبو داود (٤٩٦٢). ورواه الترمذى (٣٢٦٨) وقال: «حديث حسن صحيح».

إخوانا». رواه البخارى ومسلم وأبو داود (١) . وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام». رواه مسلم والترمذى - وصححه (٢).

وقوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أى: على بعضكم بعضا. والتجسس غالبا يطلق فى الشر، ومنه الجاسوس. وأما التجسس فيكون غالبا فى الخير، كما قال تعالى إخبارا عن يعقوب أنه قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد يستعمل كل منهما فى الشر، كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا» (٣). وقال الأوزاعى: التجسس: البحث عن الشيء. والتجسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم. والتدابير: الصرّ.

وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: فيه نهى عن الغيبة، وقد فسرهما الشارع كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود عن أبى هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته». ورواه الترمذى. وقال: حسن صحيح (٤). وروى أبو داود عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا! - قال غير مسدد: تعنى قصيرة - فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنسانا، فقال ﷺ: «ما أحب أنى حكيت إنسانا، وإن لى كذا وكذا». ورواه الترمذى. وقال: حسن صحيح (٥).

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما فى الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «اثنوا له، بشئ أخو العشيرة» (٦)، وكقوله لفاطمة بنت قيس - وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه» (٧). وكذا ما جرى مجرى ذلك. ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد؛ ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؟ أى: كما تكرهون هذا طبعاً، فاكروهوا ذاك شرعاً؛ فإن عقوبته أشد من هذا وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال، عليه السلام، فى العائد فى هبته: «كالكلب يقىء ثم يرجع فى

(١) الموطأ (٩٠٨/٢) والبخارى (٦٠٦٦) ومسلم (٢٨/٢٥٦٣) وأبو داود (٤٩١٧).

(٢) مسلم (٢٣/٢٥٥٩) والترمذى (١٩٣٥). (٣) البخارى (٢٤٤٢).

(٤) أبو داود (٤٨٧٤) والترمذى (١٩٣٥).

(٥) أبو داود (٤٨٧٥) والترمذى (٢٥٠٢، ٢٥٠٣).

(٦) البخارى (٣١٣٢). (٧) مسلم (٣٦/١٤٨٠).

قيته» (١) ، وقد قال: «ليس لنا مثل السوء» (٢) . وثبت في الصحيح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه، عليه السلام، قال في خطبة حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا» (٣) . وروى أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم». ورواه الترمذى . وقال: حسن غريب (٤) . وروى أبو يعلى عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها - أو قال: في خدورها - فقال: «يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته» (٥) .

وروى الحافظ أبو يعلى عن ابن عمّ لأبي هريرة أن ما عزا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى قد زنت فأعرض عنه - قالها أربعاً - فلما كان في الخامسة قال: «زنت؟» قال: نعم. قال: «وتدرى ما الزنا؟» قال: نعم، أتيت منها حراماً ما يأتى الرجل من امرأته حلالاً. قال: «ما تريد إلى هذا القول؟» قال: أريد أن تطهرنى. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الميل في المكحلة والرشاء في البئر؟» قال: نعم، يا رسول الله. قال: فأمر برجمه فرجم، فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب. ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار فقال: «أين فلان وفلان؟ أنزلا فكلنا من جيفة هذا الحمار» قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يؤكل هذا؟ قال: فما نلتما من أخيكما أنفا أشد أكلا من، والذى نفسى بيده، إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها» (٦) إسناده صحيح. وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله ﷺ: «أندرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين» (٧) .

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك واخشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أى: تواب على من تاب إليه، رحيم لمن رجع إليه، واعتمد عليه.

قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يُقلع عن ذلك، ويعزم على ألا يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذى اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يثنى عليه بما فيه في المجالس التى كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون تلك بتلك، كما روى الإمام أحمد عن معاذ بن أنس الجهني، عن النبي ﷺ قال: «من حمى

(١) البخارى (٢٦٢١) .

(٢) البخارى (٢٦٢٢) .

(٣) مسلم (١٤٧/١٢١٨) .

(٤) أبو داود (٤٨٨٢) والترمذى (١٩٢٧) .

(٥) أبو يعلى في مسنده (٢٣٧/٣) وقال الهيثمى في الزوائد (٩٦/٨): «رجاله ثقات» .

(٦) أبو يعلى في مسنده (٥٢٤/١٠) .

(٧) المسند (٣٥١/٣) وقال الهيثمى في الزوائد (٩٤/٨): «رجاله ثقات» .

مؤمننا من منافق يعيبه ، بعث الله إليه ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم . ومن رمى مؤمنا بشيء يريد شينه ، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال . وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله - وهو ابن المبارك - به بنحوه (١) .

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ، وهما آدم وحواء ، وجعلهم شعوبا ، وهى أعم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب آخر كالقصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك . وقيل : المراد بالشعوب بطون العجم ، وبالقبائل بطون العرب ، كما أن الأسباط بطون بنى إسرائيل . فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية ، وهى طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ ؛ ولهذا قال تعالى بعد النهى عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً ، منها على تساويهم فى البشرية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ أى : ليحصل التعارف بينهم ، كل يرجع إلى قبيلته .

وقوله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ ﴾ أى : إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب . وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ : روى البخارى عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فأكرم الناس يوسف نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن خليل الله » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فعن معادن العرب تسألونى ؟ » قالوا : نعم . قال : « فخيركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا » . ورواه النسائى (٢) . وروى مسلم عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . ورواه ابن ماجه (٣) . وروى الإمام أحمد عن أبى ذر قال : إن النبى ﷺ قال له : « انظر ، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى » . تفرد به أحمد (٤) . وروى الإمام أحمد عن درة بنت أبى لهب قالت : قام رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر ، فقال : يا رسول الله ، أى الناس خير ؟ فقال ﷺ : « خير الناس أقرؤهم ، وأتقاهم لله ، عز وجل ، وأمرهم بالمعروف ، ونهاهم عن المنكر ، وأوصلهم للرحم » (٥) .

(١) المسند (٤٤١/٣) وأبو داود (٤٨٨٣) ، وصححه الألبانى .

(٢) البخارى (٣٣٧٤ ، ٣٣٨٣ ، ٤٦٨٩) والنسائى فى الكبرى (١١٢٥) .

(٣) مسلم (٣٤/٢٥٦٤) وابن ماجه (٤١٤٣) .

(٤) المسند (١٥٨/٥) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٨٧/٨) : « رجاله ثقات » .

(٥) المسند (٤٣٢/٦) ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٥٧/٢٤) ، ٢٥٨ (٦٥٧) من طريق شريك به ، وقال

الهيثمى فى الزوائد (٢٦٦/٧) : « رجاله ثقات ، وفى بعضهم كلام لا يضر » .

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أى: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير فى ذلك كله. وقد استدلل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة فى النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ﴾. وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة فى كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك فى «كتاب الأحكام»، والله الحمد والمنة.

ربع

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤)
 إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ اتَّقِلُّوا اللَّهَ يَدِينَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

يقول تعالى منكرأ على الأعراب الذين أول ما دخلوا فى الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان فى قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل، عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه. روى الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص، قال: أعطى رسول الله ﷺ رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تُعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبى ﷺ: «أو مسلم» حتى أعادها سعد ثلاثاً، والنبى ﷺ يقول: «أو مسلم» ثم قال النبى ﷺ: «إنى لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إلىّ منهم فلا أعطيه شيئاً؛ مخافة أن يكبوا فى النار على وجوههم». أخرجاه فى الصحيحين (١).

فقد فرق النبى ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين فى هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان فى قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا فى

ذلك . وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي ، وقتادة ، واختاره ابن جرير . وإنما قلنا هذا لأن البخاري ، ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يُظهرون الإيمان وليسوا كذلك . وقد روى عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وابن زيد أنهم قالوا في قوله : ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أى : استسلمنا خوف القتل والسبى . قال مجاهد : نزلت في بنى أسد بن خزيمه . وقال قتادة : نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ . والصحيح الأول ؛ أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يحصل لهم بعد ، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد ، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا ، كما ذكر المنافقون في سورة براءة . وإنما قيل لهؤلاء تأديباً : ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى : لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ﴾ أى : لا ينقصكم من أجوركم شيئاً ، كقوله : ﴿ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الطور: ٢١] . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى : لمن تاب إليه وأتاب .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إنما المؤمنون الكُمَّل ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أى : لم يشكوا ولا تزلزلوا ، بل ثبتوا على حال واحدة ، وهى التصديق المحض ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم فى طاعة الله ورضوانه ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أى : فى قولهم إذا قالوا : « إنهم مؤمنون » ، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة .

وقوله : ﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أى : أتخبرونه بما فى ضمائرهم ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : لا يخفى عليه من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . ثم قال : ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ يعنى : الأعراب الذين يمينون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ، يقول الله رداً عليهم : ﴿ قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ﴾ ، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ، والله المنة عليكم فيه ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : فى دعواكم ذلك ، كما قال النبى ﷺ للأَنْصار يوم حنين : « يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضللاً لا فهداكم الله بى ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ؟ وعالة فأغناكم الله بى ؟ » . كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أَمَنُ (١) . ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات ، وبصره بأعمال المخلوقات فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

تفسير سورة ق

وهي مكية

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العوام: إنه من (عم) فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل ما رواه أبو داود عن أوس بن حذيفة قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة، وأنزل رسول الله ﷺ بنى مالك في قبة له - قال مسدد: وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف، قال: كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا - قال أبو سعيد: قائما على رجله حتى يراوح بين رجله من طول القيام - فأكثر ما يحدثنا ما لقى من قومه قريش، ثم يقول: لا سواء وكنا مستضعفين مستذلين - قال مسدد: بمكة - فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم، ندال عليهم ويدالون علينا. فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت علينا الليلة! قال: «إنه طرأ على حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمه». قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده. ورواه ابن ماجه والإمام أحمد (١).

إذا علم هذا، فإذا عددت ثمانيا وأربعين سورة، فالتى بعدهن سورة «ق». بيانه: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء. وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحُم السجدة، وحَم عسق، والزخرف، والدخان، والجنات، والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة، فتعين أن أوله سورة «ق» وهو الذي قلناه، والله الحمد والمنة.

روى الإمام أحمد؛ أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بقاف، واقتربت. ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة (٢).

وروى أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيد﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ،

(١) مضمي مختصراً (٤٧/١).

(٢) المسند (٢١٧/٥) ومسلم (١٤/٨٩١) وأبو داود (١١٥٤).

كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس. رواه مسلم وأبو داود والنسائي (١).
والقصد: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجمع الكبار، كالعيد والجمع،
لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب
والعقاب، والترغيب والترهيب، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا
شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَوَ زَايَعْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ
وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٥﴾ ﴾

﴿ق﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور، كقوله: (ص، ن، الم، حم، طس) ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره. وقد أسلفنا الكلام عليها، في أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته.
وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا: ﴿ق﴾: جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف.
وكان هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذب. وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها -
أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ
النقاد فيهم، وشربهم الخمر، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما
أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بني إسرائيل، ولا حرج» (٢) فيما قد يجوزه العقل،
فأما فيما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل -
والله أعلم. وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن
كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أى: الكريم العظيم الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا
من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. واختلفوا فى جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن
بعض النحاة أنه: قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾. وفى هذا نظر، بل
الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن
لم يكن القسم متلقى لفظاً، وهذا كثير فى أقسام القرآن كما تقدم فى قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي
الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ١، ٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا
أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أى: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر
كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢] أى: وليس هذا

(١) المسند (٤٣٥/٦) ومسلم (٥٢/٨٧٣) وأبو داود (١١٠٠) والنسائي (٩٤٩).

(٢) البخارى (٣٤٦١).

بعجيب؛ فإن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس.

ثم قال مخبراً عنهم في عجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿أَلِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ؟ أى: يقولون: أإذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أى: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالة وعدم إمكانه، قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى: ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟ ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾ أى: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة. ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أى: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ. يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْأَفْكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝١ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٢ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝٣ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٤ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝٥ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا ۝٦ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝٧﴾

يقول تعالى منبها للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ ؟ أى: بالمصاييح ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾. قال مجاهد: يعنى من شقوق. وقال غيره: فتوق. وقال غيره: من صدوع. والمعنى متقارب، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤] أى: كليل، أى: عن أن يرى عيباً أو نقصاً.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا﴾ أى: وسعناها وفرشناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وهى: الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ أى: حسن نضر ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أى: ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أى: خاضع خائف وجل رجاء إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ أى: نافعاً ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أى: حدائق من

بساتين ونحوها ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وهو: الزرع الذي يراد لحبه وادخاره. ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أى: طوالا شاهقات. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدى، وغيرهم: الباسقات الطوال ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ أى: منضود ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أى: للخلق ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾، وهى الأرض التى كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزهير وغير ذلك، مما يحار الطرف فى حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيى الله الموتى. وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُمْ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

يقول تعالى متهددا لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم فى الدنيا، كقوم نوح وما عذبهم الله به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم فى سورة «الفرقان». ﴿وَتَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿وَقَوْمُ تَبَّعٍ﴾ وهو اليمانى. وقد ذكرنا من شأنه فى سورة الدخان بما أغنى عن إعادته هاهنا والله الحمد. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أى: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذبت رسولهم، ومن كذب رسولا فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم فى نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ أى: فحق عليهم ما أوعدهم الله على التكذيب من العذاب والنكال فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك.

وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أى: أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم فى شك من الإعادة؟ ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ

﴿ خَلَقَ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقد تقدم في الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يقول: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته» (١).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾
إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾
وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ
﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ
غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل» (٢).

وقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ يعني: ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لثلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾، كما قال في المحتضر: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٥]، يعني ملائكته. وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر - وهو القرآن - بإذن الله، عز وجل. وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم على ذلك، فللملك لمة في الإنسان كما أن للشيطان لمة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ يعني: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. ﴿ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أي: مترصد ﴿ مَا يَلْفِظُ ﴾ أي: ابن آدم ﴿ مِنْ قَوْلٍ ﴾ أي: ما يتلکم بكلمة ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أي: إلا ولها من يراقبها معدٌ لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾. وقد روى الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه». قال: فكان علقمة يقول: كم

من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث. ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح.

قال الحسن البصرى وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: يا بن آدم، بسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفة، وجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. [الإسراء: ١٣، ١٤] ثم يقول: عدل - والله - فيك من جعلك حسيب نفسك. وقال ابن عباس: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله: «أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت»، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر، وألقى سائره، وذلك قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يثن فى مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتب الملك كل شىء حتى الأنين. فلم يثن أحمد حتى مات رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، يقول عز وجل: وجاءت - أيها الإنسان - سكرة الموت بالحق، أى: كشفت لك عن اليقين الذى كنت تترى فيه، ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أى: هذا هو الذى كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناصر، ولا فكاك ولا خلاص. وقد اختلف المفسرون فى المخاطب بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو. وقيل: الكافر، وقيل: غير ذلك.

وعن البهى قال: لما أن ثقل أبو بكر جاءت عائشة، فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغنى الشراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾. وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ: لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله! إن للموت لسكرات» (١). وفى قوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ قولان: أحدهما: أن «ما» هاهنا موصولة، أى: الذى كنت منه تحيد - بمعنى: تبتعد وتناهى وتفر - قد حل بك ونزل بساحتك. والقول الثانى: أن «ما» نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾. قد تقدم الكلام على حديث النفخ فى الصور للفرع والصعق والبعث، وذلك يوم القيامة. وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم

وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له». قالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل». فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل (١). ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أى: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة. وهو اختيار ابن جرير، ثم روى عن عثمان بن عفان أنه خطب، فقرأ هذه الآية: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، فقال: سائق يسوقها إلى الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد. عن أبى هريرة: السائق: الملك، والشهيد: العمل. وكذا قال الضحاك والسدى. وقال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد: الإنسان نفسه، يشهد على نفسه. وبه قال الضحاك بن مزاحم أيضا.

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال فى المراد بهذا الخطاب فى قوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾: أحدها: أن المراد بذلك الكافر. عن ابن عباس. وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان. والثانى: أن المراد بذلك كل أحد من: بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالنم. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن عبد الله ابن عباس. والثالث: أن المخاطب بذلك النبى ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم، وابنه. والمعنى على قولهما: لقد كنت فى غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد. والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يعنى: من هذا اليوم، ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أى: قوى؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصرا، حتى الكفار فى الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿أَلْقِيََا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿١٤﴾ مَنَاع

لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿١٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿١٦﴾

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَمْتُ

إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿١٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبرا عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل، ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ﴾ أى: معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان. وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذى وكلتنى به، قد أحضرته. وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة. فعند ذلك يحكم الله، تعالى، فى الخليقة بالعدل فيقول: ﴿أَلْقِيََا فِي

جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٣﴾. وقد اختلف النحاة فى قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾، فقال بعضهم: هى لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالثنية، كما روى عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسى، اضربا عنقه، وقيل: بل هى نون التوكيد، سهلت إلى الألف. وهذا بعيد؛ لأن هذا إنما يكون فى الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه فى نار جهنم وبئس المصير.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أى: كثير الكفر والتكذيب بالحق ﴿عَنِيدٍ﴾: معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك. ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ أى: لا يؤدى ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة ﴿مُعْتَدٍ﴾ أى: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد. وقال قتادة: معتد فى منطقته وسيرته وأمره. ﴿مَرِيبٌ﴾ أى: شاك فى أمره، مريب لمن نظر فى أمره ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أى: أشرك بالله فعبد معه غيره ﴿فَالْقِيَاءُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾. وقد تقدم فى الحديث: أن عنقا من النار يبرز للخلائق فينادى بصوت يسمع الخلائق: إني وكلت بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلها آخر، وبالمصورين ثم تنطوى عليهم (١). روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن نبي الله ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم، يقول: وكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار، ومن جعل مع الله إلها آخر، ومن قتل نفسا بغير نفس. فتنتوى عليهم، فتقذفهم فى غمرات جهنم» (٢).

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: هو الشيطان الذى وكل به: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتُهُ﴾ أى: يقول عن الإنسان الذى قد وافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتُهُ﴾ أى: ما أضلته ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: بل كان هو فى نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق. كما أخبر تعالى فى الآية الأخرى فى قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول الرب عز وجل للإنسى وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق فيقول الإنسى: يا رب، هذا أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى. ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: عن منهج الحق. فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أى: عندى ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ أى: قد أعذرت إليكم على السنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبيانات والبراهين. ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾: قال مجاهد: يعنى قد قضيت ما أنا قاض ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أى: لست أعذب أحداً بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

(١) المسند (٣ / ٤٠) والترمذى (٢٥٧٤) وصححه الألبانى.

(٢) المسند (٣ / ٤٠) وصححه الألبانى.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ (٢٠) وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿ ٢١ ﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿ ٢٢ ﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿ ٢٣ ﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿ ٢٤ ﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿ ٢٥ ﴾

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى وهى تقول: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أى: هل بقى شيء تزيدونى؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث:

روى البخارى عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «يُلْقَى فى النار، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قط قط» (١). وروى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، وعزتك وكرمك ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم فى فضول الجنة». ثم رواه مسلم (٢). وروى البخارى عن أبى هريرة - رفعه، وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان -: «يقال لجهنم: هل امتلأت، وتقول: هل من مزيد، فيضع الرب، عز وجل، قدمه عليها، فتقول: قط قط» (٣).

وروى البخارى، عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «تحتاج الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطتهم. قال الله، عز وجل، للجنة: أنت رحمتى، أرحم بك من أشياء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من أشياء من عبادى، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهناك تمتلئ وينزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا آخر» (٤). وروى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فى الجبارون والمتكبرون. وقالت الجنة: فى ضعفاء الناس ومساكينهم. فقضى بينهما، فقال للجنة: إنما أنت رحمتى، أرحم بك من أشياء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من أشياء من عبادى، ولكل واحدة منكما ملؤها» انفرد به مسلم دون البخارى من هذا الوجه (٥). والله، سبحانه وتعالى، أعلم. وقد رواه الإمام أحمد عن أبى سعيد بأبسط من هذا السياق فقال: عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يا رب، يدخلنى الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف. وقالت الجنة: أى رب، يدخلنى الضعفاء والفقراء والمساكين. فيقول الله، عز وجل، للنار: أنت عذابى، أصيب بك من أشياء. وقال للجنة: أنت رحمتى،

(٢) المسند (٢٣٤/٣) ومسلم (٣٨/٢٨٤٨).

(٤) البخارى (٤٨٥٠).

(١) البخارى (٤٨٤٨).

(٣) البخارى (٤٨٤٩).

(٥) مسلم (٢٨٤٧).

وسعت كل شيء ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فيلقى في النار أهلها فتقول : هل من مزيد ؟ قال : ويلقى فيها وتقول : هل من مزيد؟ ويلقى فيها وتقول : هل من مزيد؟ حتى يأتيها عز وجل ، فيضع قدمه عليها ، فتزوى وتقول : قدنى ، قدنى . وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله أن يبقى ، فينشئ الله لها خلقا ما يشاء ^(١) . وعن ابن عباس ، ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِحَبَّاسِهِمْ هَلْ أَمْتَلَأْتِ ﴾ قال : ما أمتلأت ، قال : تقول : وهل فى من مكان يزداد فى ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ : وهل فى مدخل واحد؟ قد أمتلأت . فعند هؤلاء أن قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَمْتَلَأْتِ ﴾ إنما هو بعدما يضع عليها قدمه ، فتزوى وتقول حينئذ : هل بقى فى مزيد ؟ يسع شيئا . قال ابن عباس : وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة . فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ قال قتادة ، وأبو مالك ، والسدى : ﴿ أُزْلِفَتْ ﴾ : أدنيت وقربت من المتقين ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ، وذلك يوم القيامة ، وليس ببعيد ؛ لأنه واقع لا محالة ، وكل ما هو آت قريب . ﴿ هَذَا مَا توعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أى : رجاء تائب مقلع ﴿ حَفِيزٍ ﴾ أى : يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكته . وقال عبيد بن عمير : الأواب : الحفيظ الذى لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر الله ، عز وجل . ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ ﴾ أى : من خاف الله فى سره حيث لا يراه أحد إلا الله . كقوله ﷺ : «ورجل ذكر الله خاليا ، ففاضت عيناه» ^(٢) . ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ أى : ولقى الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه . ﴿ ادْخُلُوهَا ﴾ أى : الجنة ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ قال قتادة : سلموا من عذاب الله ، وسلم عليهم ملائكة الله ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ أى : يخلدون فى الجنة فلا يموتون أبداً ، ولا يظعنون أبداً ، ولا يبغون عنها حولا . وقوله : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ أى : مهما اختاروا وجدوا ، من أى أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى : أن رسول الله ﷺ قال : «إذا اشتهى المؤمن الولد فى الجنة ، كان حمله ووضعته وسنه فى ساعة واحدة» . ورواه الترمذى . وقال الترمذى : حسن غريب ، وزاد «كما يشتهى» ^(٣) . وقوله : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] . وقد تقدم فى صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومى : أنها النظر إلى وجه الله الكريم ^(٤) .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾
 ﴿ ٢٦ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿ ٢٧ ﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿ ٢٨ ﴾ فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿ ٢٩ ﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿ ٣٠ ﴾

(٢) البخارى (٦٦٠) .

(١) المسند (١٣ / ٣) .

(٤) مسلم (٢٩٧ / ١٨١) .

(٣) المسند (٩ / ٣) والترمذى (٢٥٦٣) وصححه الألبانى .

يقول تعالى : وكم أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين ﴿مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أى : كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ قال ابن عباس : أثروا فيها . وقال مجاهد : ضربوا فى الأرض . وقال قتادة : فساروا فى البلاد، أى ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها، ويقال لمن طوف فى البلاد : نقب فيها . وقوله : ﴿هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أى : هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص .

وقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ أى : لعبرة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أى : لُبٌّ يعى به . وقال مجاهد : عقل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أى : استمع الكلام فوعاه، وتعقله بقلبه وتفهمه بلبه . وقال مجاهد : ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ يعنى : لا يحدث نفسه فى هذا بقلب . وقال الضحاك : العرب تقول : ألقى فلان سمعه : إذا استمع بأذنيه وهو شاهد يقول غير غائب . وهكذا قال الثورى وغير واحد .

وقوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ : فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن، قادر على أن يحيى الموتى بطريق الأولى والأخرى . وقال قتادة : قالت اليهود - عليهم لعائن الله : خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام، ثم استراح فى اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أى : من إعياء ولا نصب ولا تعب، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْى بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف : ٣٣] ، وكما قال : ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر : ٥٧] وقال : ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات : ٢٧] .

وقوله : ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ يعنى : المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ ، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس فى وقت الفجر، وقبل الغروب فى وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبى ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ فى حق الأمة وجوبه . ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب .

وقد روى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله قال : كنا جلوساً عند النبى ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : «أما إنكم ستعرضون على ربكم فتروونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون فيه، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا» . ثم قرأ : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ . ورواه البخارى ومسلم وبقية الجماعة ، من

حديث إسماعيل، به (١).

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أى: فصل له، كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. ﴿وَأَذْبَارَ السُّجُودِ﴾ قال ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة. ويؤيد هذا ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلىٰ والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتهم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. قال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» (٢). والقول الثانى: أن المراد بقوله: ﴿وَأَذْبَارَ السُّجُودِ﴾: هما الركعتان بعد المغرب، روى ذلك عن عمر وعلى، وابنه الحسن وابن عباس، وأبى هريرة، وأبى أمامة، وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والنخعي والحسن وقتادة، وغيرهم. روى الإمام أحمد عن على قال: كان رسول الله ﷺ يصلى على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: دبر كل صلاة. ورواه أبو داود والنسائي (٣).

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴿٤٤﴾ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٥﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال قتادة: قال كعب الأحبار: يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادى على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى: النفخة فى الصور التى تأتى بالحق الذى كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أى: من الأحداث ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أى: هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازى كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾: وذلك أن الله تعالى ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق فى قبورها، كما ينبت الحب فى الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر

(١) المسند (٣٦٥/٤) والبخارى (٤٨٥١) ومسلم (٢١١/٦٣٣).

(٢) البخارى (٦٣٢٩) ومسلم (١٤٢/٥٩٥).

(٣) المسند (١٠١٢) وأبو داود (١٢٧٥) والنسائي فى الكبرى (٣٤١) وقال الشيخ شاکر: «إسناده صحيح».

الله إسرائفيل فينفخ في الصور، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور، فإذا نفخ إسرائفيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله، عز وجل: وعزتي وجلالي، لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمرة، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللدغ وتنشق الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعا، مبادرين إلى أمر الله، عز وجل، ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]، وفي صحيح مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض» (١). وقوله: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أى: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أى: نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهيدنك ذلك، كقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أى: ولست بالذى تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به. ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أى: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كان قتادة يقول: اللهم، اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بار، يا رحيم .

تفسير سورة الذاريات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴾ ١ ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ ٢ ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ ٣ ﴿ فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا ﴾ ٤ ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ ٥ ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ ٦ ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ ٧ ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُتَخَلِّفٍ ﴾ ٨ ﴿ يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ ﴾ ٩ ﴿ قِيلَ الْخَرَّصُونَ ﴾ ١٠ ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ ١١ ﴿ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ١٢ ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ ١٣ ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ١٤ ﴿

ثبت من غير وجه، عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب: أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴾؟ قال: الريح قال: ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾؟ قال: السحاب. قال: ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾؟ قال: السفن. قال: ﴿ فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا ﴾؟ قال: الملائكة. وهكذا فسرها ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، وغير واحد. ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك. وقد قيل: إن المراد بالذاريات: الريح كما تقدم، وبالحاملات وقرأ: السحاب كما تقدم؛ لأنها تحمل الماء. فأما الجاريات يسرا، فالمشهور عن الجمهور - كما تقدم: أنها السفن، تجري ميسرة في الماء جريا سهلا. وقال بعضهم: هي النجوم تجري يسرا في أفلاكها، ليكون ذلك ترقيا من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمرا الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أي: لخبر صدق ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ ﴾ وهو: الحساب ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ أي: لكائن لا محالة.

ثم قال: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ قال ابن عباس: ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وقال الضحاك، والمنهال بن عمرو، وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضا طرائق طرائق، فذلك الحبك. وعن أبي صالح: ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾: الشدة. وقال خفيف: ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾: ذات الصفاقة. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾: حبكت بالنجوم. وقال عبدالله ابن عمرو: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ يعني: السماء السابعة. وكأنه - والله أعلم - أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة، وهي عند كثير من علماء الهيئة في الفلك الثامن الذي فوق السابع،

والله أعلم. وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس، فإنها من حسنها مرتفعة شفافه صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أى: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول لفي قول مختلف مضطرب، لا يلتئم ولا يجتمع. وقال قتادة: إنكم لفي قول مختلف ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به. ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ أى: إنما يروج على من هو ضال في نفسه؛ لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غمر، لا فهم له، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ. لَأَمِّنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ١٦١-١٦٣]. قال ابن عباس، والسدى: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾: يضل عنه من ضل. وقال مجاهد: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ يؤفن عنه من أفن. وقال الحسن البصرى: يصرف عن هذا القرآن من كذب به.

وقوله: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ قال مجاهد: الكذابون. قال: وهى مثل التى فى عبس: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]، والخراصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون. وقال ابن عباس: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ أى: لعن المرتابون. وهكذا كان معاذ، يقول فى خطبه: هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون. وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: فى الكفر والشك غافلون لاهون. ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾: وإنما يقولون هذا تكديبا وعنادا وشكا واستبعادا. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يعذبون، كما يفتن الذهب على النار. وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضا، وعكرمة، وإبراهيم النخعى: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يحرقون. ﴿ذُوقُوا فَتَنَاتِكُمْ﴾ قال مجاهد: حريقكم. وقال غيره: عذابكم ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقرعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَانَسَهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن المتقين لله، عز وجل: إنهم يوم معادهم يكونون فى جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] ثم إنه تعالى بين إحسانهم فى العمل فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، اختلف المفسرون فى ذلك على قولين:

أحدهما: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلا من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئا. وقال مطرف بن عبد الله: قلّ ليلة تأتي عليهم لا يصلون فيها لله، عز وجل، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قلّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون. وكذا قال قتادة. وقال أنس بن مالك، وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وقال أبو جعفر الباقر، كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

والقول الثاني: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم. واختاره

ابن جرير.

وقال الحسن البصري: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدّوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر. وقال الأحنف بن قيس: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كانوا لا ينامون إلا قليلا، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال الحسن البصري: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملي على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بونا بعيدا، إذا قوم لا نبلي أعمالهم، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وعرضت عملي على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم يكذبون بكتاب الله وبرسل الله، يكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قوما فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم. فقال له أبي: طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ. وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل. فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يأيها الناس، أطعموا الطعام، وصلّوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» (١). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها». فقال أبو موسى الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائما، والناس نيام» (٢). وقال معمر في قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كان الزهري والحسن يقولان: كانوا كثيرا من الليل ما يصلون. وقال ابن عباس: ما ينامون.

وقوله عز وجل: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار. كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ٤١٧]، فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث

(١) المسند (٤٥١/٥) والترمذي (٢٤٨٥) وقال: «حسن صحيح».

(٢) المسند (٦٦١٥) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر» (١). وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارا عن يعقوب: أنه قال لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] قالوا: أخرهم إلى وقت السحر.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ أى: جزء مقسوم قد أفرزوه ﴿لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أما السائل: فمعروف، وهو الذى يبتدئ بالسؤال، وله حق.

وأما المحروم: فقال ابن عباس، ومجاهد: هو المحارف الذى ليس له فى الإسلام سهم. يعنى: لا سهم له فى بيت المال، ولا كسب له، ولا حرفة يتقوت منها. وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارف الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه. وقال الضحاك: هو الذى لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له ذلك. وقال أبو قلابة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم. وقال قتادة، والزهرى: ﴿الْمَحْرُومُ﴾: الذى لا يسأل الناس شيئا، قال الزهرى: وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يَفْطِنُ له فيتصدق عليه» (٢). واختار ابن جرير أن المحروم: هو الذى لا مال له بأى سبب كان، قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله أو نحوه بأفة أو نحوها. وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِ﴾ أى: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألْسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قال قتادة: من تفكر فى خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة. ثم قال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعنى: المطر، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعنى: الجنة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقوله: ﴿فَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾: يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا فى نطقكم حين تنطقون. وكان معاذ، إذا حدث بالشىء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك هاهنا.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (١٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (١٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (١٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (١٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (١٨) فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (١٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٢٠)

هذه القصة قد تقدمت في سورة «هود» و«الحجر» (١) أيضا. وقوله: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ أى: الذين أرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل.

وقوله: ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء: ٨٦]، فالخليل اختار الأفضل.

وقوله: ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾: وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه فى صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾. وقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ أى: انسل خفية فى سرعة ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أى: من خيار ماله. وفى الآية الأخرى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود: ٦٩] أى: مشوى على الرضف، ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: أدناه منهم ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾: تلتطف فى العبارة وعرض حسن.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتى سمين مشوى، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل.

وقوله: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾: هذا محال على ما تقدم فى القصة فى السورة الأخرى، وهو قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ. وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ [هود: ٧٠، ٧١] أى: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾، فالبشارة له هى بشارة لها؛ لأن الولد منها، فكل منهما بشر به.

وقوله: ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ أى: فى صرخة عظيمة ورنه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وهى قولها: ﴿ يَا وَيْلَتَى ﴾ ﴿ فَصَكَتُ وَجْهَهَا ﴾ أى: ضربت بيدها على جبينها، قاله مجاهد. وقال ابن عباس: لطمت، أى تعجبا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب، ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أى: كيف ألد وأنا عجوز، وقد كنت فى حال الصبا عقيما لا أحبل؟ ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ أى: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم فى أقواله وأفعاله.

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٢١) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٢٢) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٢٣) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٢٤) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٢٥) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٢٦) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٢٧) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٢٨) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٢٩) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٣٠) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٣١) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٣٢) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٣٣) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٣٤) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٣٥) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٣٦) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٣٧) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٣٨) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٣٩) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٤٠) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٤١) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٤٢) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٤٣) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٤٤) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٤٥) ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٤٦)

قال الله مخبرا عن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤ - ٧٦]. وقال هاهنا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أى: ما شأنكم وفيهم جثتم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون: قوم لوط ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ. مُّسَوِّمَةٌ﴾ أى: معلمة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أى: مكتوبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال فى سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وقال هاهنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته، ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. احتج بهذه من ذهب إلى رأى المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوما مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك فى كل حال.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أى: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلّتهم بحيرة متنة خبيثة، ففى ذلك عبرة للمؤمنين ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢٨) ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَحَرُ أَوْ يُجْنُونُ ﴾ (٢٩) ﴿ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَذَلَتْهُمْ فِي أَلِيمٍ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (٣٠) ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ (٣١) ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (٣٢) ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٣٣) ﴿ فَهَمَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (٣٤) ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِينَ ﴾ (٣٥) ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٣٦)

يقول تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ أى: فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين، استكبارا وعنادا. وقال مجاهد: تعزز بأصحابه. وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه. وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾

أى : بجموعه التى معه ، ثم قرأ : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود : ٨٠] . والمعنى الأول قوى كقوله : ﴿ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج : ٩] أى : معرض عن الحق مستكبر ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ أى : لا يخلو أمرك فيما جئتنى به من أن تكون ساحرا أو مجنونا ، قال الله تعالى : ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أى : ألقيناهم فى اليم ، وهو البحر ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أى : وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند .

ثم قال عز وجل : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أى : المفسدة التى لا تنتج شيئا . قاله الضحاك ، وقتادة ، وغيرهما . ولهذا قال : ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أى : مما تفسده الريح ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ﴾ أى : كالشيء الهالك البالى . قال سعيد بن المسيب وغيره فى قوله : ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ قالوا : هى الجنوب . وقد ثبت فى الصحيح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور» (١) . ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال ابن جرير : يعنى إلى وقت فناء آجالكم . والظاهر أن هذه كقوله : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت : ١٧] . وهكذا قال هاهنا : ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ففعلوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم فى صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ أى : من هرب ولا نهوض ﴿وَمَا كَانُوا مُتَصِّرِينَ﴾ أى : ولا يقدرُونَ على أن يتصرفوا مما هم فيه .

وقوله عز وجل : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ أى : وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسطة فى أماكن كثيرة ، من سور متعددة .

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾

يقول تعالى منها على خلق العالم العلوى والسفلى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أى : جعلناها سقفا محفوظا رفيعا ﴿بِأَيْدٍ﴾ أى : بقوة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والثورى ، وغير واحد ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أى : قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد ، حتى استقلت كما هى ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أى : جعلناها فراشا للمخلوقات ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أى : وجعلناها مهدا لأهلها ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أى : جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض ، ليل ونهار ، شمس وقمر ، وبر وبحر ، وضياء وظلام ، وإيمان وكفر ، وموت وحياة ، وشقاء وسعادة ، وجنة ونار ، حتى الحيوانات

والنباتات؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: الجؤوا إليه، واعتمدوا فى أموركم عليه ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أى: لا تشركوا به شيئا، ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى مسلما لنبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسولهم: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾! قال الله عز وجل: ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ﴾ أى: أوصى بعضهم بعضا بهذه المقالة؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أى: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم. قال الله تعالى: ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ﴾ أى: فأعرض عنهم يا محمد ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ يعنى: فما نلومك على ذلك ﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: إنما ينتفع بها القلوب المؤمنة.

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى: إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتى، لا لاحتياجى إليهم. وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى: إلا ليقروا بعبادتى طوعا أو كرها، وهذا اختيار ابن جرير. وقال ابن جريج: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى: إلا للعبادة. وقال السدى: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿وَلَتِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون. وقوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ: روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: أقرانى رسول الله ﷺ: «إنى لأنا الرزاق ذو القوة المتين». ورواه أبو داود، والترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح (١).

ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم. روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: يا بن آدم، تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك». ورواه الترمذى وابن ماجه وقال الترمذى: حسن غريب (٢).

(١) المسند (٣٧٤١) وأبو داود (٣٩٩٣) والترمذى (٢٩٤٠).

(٢) المسند (٣٥٨/٢) والترمذى (٢٤٦٦) وابن ماجه (٤١٠٧) وصححه الألبانى.

وقد روى الإمام أحمد عن حبة وسواء ابني خالد يقولان : أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملا أو يبني بناء - وقال أبو معاوية : يصلح شيئا - فأعناه عليه ، فلما فرغ دعا لنا وقال : « لا تيأسا من الرزق ما تهزرت رؤوسكما ، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يعطيه الله ويرزقه » (١) .

وقوله : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا ﴾ أى : نصيبا من العذاب ﴿ مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أى : فلا يستعجلون ذلك ، فإنه واقع لا محالة ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ يعنى : يوم القيامة .

تفسير سورة الطور

وهي مكية

عن جُبَيْر بن مطعم، قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدا أحسن صوتا - أو: قراءة - منه. أخرجاه (١)، وروى البخارى عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنى أشتكى، فقال: « طُوفى من وراء الناس وأنت راكبة » فطفت، ورسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ ١ ﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ﴿ ٢ ﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴿ ٣ ﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿ ٤ ﴾
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿ ٥ ﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿ ٦ ﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿ ٧ ﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ
﴿ ٨ ﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿ ٩ ﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿ ١٠ ﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ
﴿ ١١ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿ ١٢ ﴾ يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿ ١٣ ﴾ هَذِهِ النَّارُ
الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿ ١٤ ﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿ ١٥ ﴾ أَصَلُّوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ
لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ ١٦ ﴾

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم. فالطور هو: الجبل الذى يكون فيه أشجار، مثل الذى كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا، إنما يقال له: جبل. ﴿ وَكَتَابَ مَسْطُورٍ ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التى تقرأ على الناس جهارا؛ ولهذا قال: ﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال فى حديث الإسراء - بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: « ثم رفع بى إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم » (٣) يعنى: يتعبدون فيه ويطوفون، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل، عليه السلام، مسندا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفى كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذى فى السماء الدنيا يقال له: بيت العزة. والله أعلم. وقال ابن عباس: هو بيت حذاء العرش، تعمره الملائكة، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه. وكذا قال عكرمة،

(١) البخارى (٤٨٥٤) ومسلم (١٧٤/٤٦٣). وسيأتى عند الآية (٣٦) من هذه السورة مطولا.

(٢) البخارى (٣٢٠٧) ومسلم (٢٥٩/١٦٢).

(٣) البخارى (٤٨٥٣).

ومجاهد، والربيع بن أنس، والسدى، وغير واحد من السلف.

وقوله: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ قال سفيان الثوري، وشعبة، وأبو الأحوص، عن سمالك، عن خالد بن عرعر، عن علي: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعنى: السماء، قال سفيان: ثم تلا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدى، وابن جريج، وابن زيد، واختاره ابن جرير. وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعنى: أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو يُراد مع غيره كما قاله الجمهور.

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال الربيع بن أنس: هو الماء الذى تحت العرش، الذى ينزل الله منه المطر الذى يحيى به الأجساد فى قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر. واختلف فى معنى قوله: ﴿الْمَسْجُورِ﴾، فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة نارا كقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أى: أضرمت فتصير نارا تتأجج، محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد بن المسيب عن علي بن أبى طالب، وروى عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد، وغيرهم. وقال العلاء بن بدر: إنما سُمى البحر المسجور لأنه لا يُشرب منه ماء، ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ يعنى: المرسل. وقال قتادة: ﴿الْمَسْجُورِ﴾: المملوء. واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقدا اليوم فهو مملوء. وقيل: المراد به: الفارغ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال: الفارغ؛ خرجت أمة تستسقى فرجعت فقالت: «إن الخوض مسجور»، تعنى: فارغا. وقيل: المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض؛ لئلا يغمرها فيغرق أهلها. قاله علي بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول السدى وغيره.

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾: هذا هو المقسم عليه، أى: لواقع بالكافرين، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ أى: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك. وروى الإمام أبو عبيد فى «فضائل القرآن» عن الحسن: أن عمر قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾، فربا لها ربوة، عيد منها عشرين يوما (١).

وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكا. وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دورا. وقال الضحاك: استدارتها وتحركها لأمر الله، وموج بعضها فى بعض. وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك فى استدارة. ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا﴾ أى: تذهب فتصير هباء منبثا، وتنسف نسفا، ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أى: ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابة لهم، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أى: هم فى الدنيا يخوضون فى الباطل، ويتخذون دينهم هزوا ولعبا، ﴿يَوْمَ يَدْعُونَ﴾ أى: يدفعون ويساقون، ﴿إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ وقال مجاهد، والشعبى، والسدى، وغيرهم: يدفعون فيها دفعا ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

أى: تقول لهم الزبانية ذلك تقريبا وتوبيخا، ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾. اصلوها ﴿أى: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: ولا يظلم الله أحدا، بل يجازى كلا بعمله.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمُ رَبُّهُمْ وَوَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿فَكَهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿وَوَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حداثها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التى فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. أى: هذا بذاك، تفضلا منه وإحسانا.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ قال ابن عباس: السرر فى الحجال. ومعنى ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ أى: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الصفات: ٤٤]. ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى: وجعلناهم قرينات صالحات، وزوجات حسنا من الحور العين. وقال مجاهد: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾: أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن فى غير موضع بما أغنى عن إعادته.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ آَلَفْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَشْرَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَوْءٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه: أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم فى الإيمان يلحقهم بأبائهم فى المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم فى منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل

العمل ، ولا ينقص ذاك من عمله ومنزلته ، للتساوى بينه وبين ذاك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (١) وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ . وهكذا يقول الشعبي ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم ، وقتادة . وهو اختيار ابن جرير . وقد روى عبد الله ابن الإمام أحمد عن علي قال : سألت خديجة النبی ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : « هما في النار » . فلما رأى الكراهة في وجهها قال : « لو رأيت مكانهما لأبغضتهما » . قالت : يا رسول الله ، فولدى منك . قال : « في الجنة » . قال : ثم قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ، وإن المشركين وأولادهم في النار » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الآية (٢) .

هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء ، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء ، فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول : يا رب ، أنى لى هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك » (٣) . إسناده صحيح ، ولم يخرجوه من هذا الوجه ، ولكن له شاهد في صحيح مسلم ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (٤) .

وقوله : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ ﴾ : لما أخبر عن مقام الفضل ، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضى ذلك ، أخبر عن مقام العدل ، وهو أنه لا يؤاخذ أحدا بذنب أحد ، بل ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ ﴾ أى : مرتهن بعمله ، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس ، سواء كان أبا أو ابنا ، كما قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ اليمين . فِي جنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [المدر: ٣٨ - ٤١] . وقوله : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أى : وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى ، مما يستطاب ويشتهى .

وقوله : ﴿ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أى : يتعاطون فيها كأسا ، أى : من الخمر . قاله الضحاك . ﴿ لَا لَفْوَ فِيهَا وَلَا تَأثِيمٌ ﴾ أى : لا يتكلمون عنها بكلام لاغ ، أى : هذيان ، ولا إثم ، أى : فحش ، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا . وقال ابن عباس : اللغو : الباطل . والتأثيم : الكذب . وقال مجاهد : لا يستبون ولا يؤثمون . وقال قتادة : كان ذلك في الدنيا مع الشيطان . فنزه الله خمر

(١) « ذرياتهم » بالجمع : قراءة ثابتة أيضا . وانظر تخريج القراءتين في تعليق الشيخ شاکر على الحديث رقم (١١٣١) من المسند .

(٢) المسند (١١٣١) وقال الشيخ شاکر : « إسناده حسن » والحديث من زيادات عبد الله بن الإمام أحمد . وانظر تخريجه مفصلا هناك ، وكذا توجيه القراءتين « ذرياتهم » و « زريتهم » . وقد أشار أيضا إلى ذلك عند تفسير الآية (١٦١) من سورة الأنعام .

(٣) المسند (٥٠٩/٢) وابن ماجه (٣٦٦) وفي الزوائد : « إسناده صحيح رجاله ثقات » .

(٤) مسلم (١٦٣١/١٤) .

الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها - كما تقدم - صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هذياناً وفحشاً، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصفات: ٤٦، ٤٧]، وقال: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، وقال هاهنا: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾: إخبار عن خدمهم وحشمهم فى الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون فى حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]. وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أى: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم فى الدنيا، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم، ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أى: قد كنا فى الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السُّمُومِ﴾ أى: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أى: نتضرع إليه، فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ ﴿١٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٢٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٢١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٢٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه. ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أى: لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش. والكاهن: الذى يأتية الرئى من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾: وهو الذى يتخبطه الشيطان من المس.

ثم قال تعالى منكرًا عليهم فى قولهم فى الرسول ﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ أى: قوارع الدهر. والمنون: الموت، يقولون: ننتظره ونصبر عليه حتى يأتية الموت فنستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أى: انتظروا فإنى منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾ أى: عقولهم تأمرهم بهذا الذى يقولونه فىك من الأقوال الباطلة التى يعلمون فى أنفسهم أنها كذب وزور؟ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أى: ولكن هم قوم ضلال معاندون، فهذا هو الذى يحملهم على ما قالوه فىك.

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أى : اختلقه وافتراه من عند نفسه ، يعنون القرآن ، قال الله : ﴿ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : كفرهم هو الذى يحملهم على هذه المقالة ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ أى : إن كانوا صادقين فى قولهم : «تَقَوَّلَهُ وافتراه» فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن ، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ، ما جاؤوا بمثله ، ولا بعشر سور من مثله ، ولا بسورة من مثله .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ٢٥ ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ ٢٦ ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴾ ٢٧ ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ ٢٨ ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ ٢٩ ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ ٣٠ ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ٣١ ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ ٣٢ ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ٣٣

هذا المقام فى إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية ، فقال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أى : أوجدوا من غير موجد ؟ أم هم أوجدوا أنفسهم ؟ أى : لا هذا ولا هذا ، بل الله هو الذى خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا . روى البخارى عن جبير بن مطعم ، قال : سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ . أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴾ . كاد قلبى أن يطير . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين (١) . وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبى ﷺ بعد وقعة بدر فى فداء الأسارى ، وكان إذ ذاك مشركا ، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حملة على الدخول فى الإسلام بعد ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أى : أهما خلقوا السموات والأرض ؟ وهذا إنكار عليهم فى شركهم بالله ، وهم يعلمون أنه الخالق وحده ، لا شريك له . ولكن عدم إيقانهم هو الذى يحملهم على ذلك ، ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴾ أى : أهما يتصرفون فى الملك ويبيدهم مفاتيح الخزائن ؟ ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴾ المحاسبون للخلائق ؟ ليس الأمر كذلك ، بل الله ، عز وجل ، هو المالك المتصرف الفعال لما يريد . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أى : مرقاة إلى الملأ الأعلى ﴿ فليأتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى : فليأت الذى يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال ، أى : ليس لهم سبيل إلى ذلك ، فليسوا على شيء ، ولا لهم دليل .

ثم قال منكرا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات ، وجعلهم الملائكة إناثا ، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث ، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . هذا وقد

(١) مضى فى مقدمة هذه السورة مختصرا ، وخرج هناك .

جعلوا الملائكة بنات الله، وعبدوهم مع الله، فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾؟ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أى: أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله؟ أى: لست تسألهم على ذلك شيئا، ﴿فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أى: فهم من أدنى شيء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أى: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله، ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم هذا فى الرسول وفى الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون، ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؟ وهذا إنكار شديد على المشركين فى عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله. ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أى: عليهم يعذبون به، لما صدقوا ولما أيقنوا، بل يقولون: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أى: متراكم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]. قال الله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أى: دعهم - يا محمد - ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أى: لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذى استعملوه فى الدنيا، لا يجدى عنهم يوم القيامة شيئا، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أى: قبل ذلك فى الدار الدنيا، كقوله: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: نعذبهم فى الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينبيون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلى عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه.

وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: اصبر على أذاهم ولا تبالهم، فإنك بمراى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال الضحاك: أى إلى الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك. وقد روى مثله عن الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما. وروى مسلم فى صحيحه، عن عمر: أنه كان يقول هذا فى ابتداء الصلاة (١). ورواه أحمد وأهل السنن، عن أبى سعيد

وغيره، عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك (١). وقال أبو الجوزاء : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أى : من نومك من فراشك . واختاره ابن جرير : ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال : «من تعار من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير . سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال : رب اغفر لى - أو قال : ثم دعا - استجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثم صلى تقبلت صلاته». وأخرجه البخارى فى صحيحه، وأهل السنن (٢) . وقال ابن أبى نجیح، عن مجاهد : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال : من كل مجلس . وقال أبو الأحوص : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال : إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال : سبحانك اللهم وبحمدك .

وعن أبى هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال : «من جلس فى مجلس فكثر فيه لفظه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك » . رواه الترمذى - وهذا لفظه - والنسائى فى اليوم والليلة، وقال الترمذى : حسن صحيح . وأخرجه الحاكم فى مستدركه وقال : إسناده على شرط مسلم (٣) . وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو؛ أنه قال : «كلمات لا يتكلم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات، إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن فى مجلس خير ومجلس ذكر، إلا ختم له بهن كما يختم بالخاتم على الصحيفة : سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة، وصححه، ومن رواية جُبَيْر بن مطعم (٤) . ورواه أبو بكر الإسماعيلى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كلهم عن النبي ﷺ . وقد أفردت لذلك جزءا على حدة بذكر طرقه وألفاظه وعلمه، وما يتعلق به، والله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أى : اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة فى الليل، كما قال : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء : ٧٩] . وقوله : ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ قد تقدم فى حديث ابن عباس أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أى : عند جنوحها للغيوبة . وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة، أنها قالت : لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر (٥) . وفى لفظ لمسلم : «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها» (٦) .

(١) المسند (٣ / ٥٠) وأبو داود (٧٧٥) والترمذى (٢٤٢) وصححه الألبانى .

(٢) المسند (٥ / ٣١٣) والبخارى (١١٥٤) وأبو داود (٥٦٠) والترمذى (٣٤١٤) .

(٣) الترمذى (٣٤٣٣) والنسائى (١٠٢٣٠) والحاكم (٥٣٦ / ١) .

(٤) أبو داود (٤٨٥٧) والحاكم فى المستدرک (٥٣٧ / ١) .

(٥) البخارى (١١٦٩) ومسلم (٩٤ / ٧٢٤) .

(٦) مسلم (٩٦ / ٧٢٥) .

تفسير سورة النجم وهي مكية

روى البخارى عن عبد الله قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾، قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتِلَ كافراً، وهو أمية بن خلف. وقد رواه مسلم وأبو داود والنسائي^(١) وقوله فى الممتنع: إنه أمية بن خلف فى هذه الرواية مشكل، فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾

قال الشعبى وغيره: الخالق يُقسِم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق. واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ فقال مجاهد: يعنى بالنجم: الثرى إذا سقطت مع الفجر. وكذا روى عن ابن عباس، وسفيان الثورى. واختاره ابن جرير. وزعم السدى أنها الزهرة. وقال الضحاك: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾: إذا رُمى به الشياطين. وعن مجاهد [أيضاً]: يعنى: القرآن إذا نزل. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَلْمُؤْنَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٨٠].

وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾: هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول، ﷺ بأنه بار راشد تابع للحق، ليس بضال، وهو: الجاهل الذى يسلك على غير طريق بغير علم، والغاوى: هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره، فنه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود، وهى علم الشىء وكتمانه والعمل بخلافه، بل هو ﷺ وما بعثه الله به من الشرع العظيم فى غاية الاستقامة والاعتدال والسداد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أى: ما يقول قولاً عن هوى وغرض، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أى: إنما يقول ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملاً موقراً من غير زيادة ولا نقصان، كما رواه الإمام أحمد عن أبى أمامة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبى مثل الحين - أو: مثل أحد الحين : ربيعة ومضر». فقال رجل: يا رسول الله، أو ما ربيعة من مضر؟ قال: «إنما

(١) البخارى (١٠٧٠، ٣٨٥٣، ٣٩٧٢، ٤٨٦٣) ومسلم (١٠٥/٥٧٦) وأبو داود (١٤٠٦) والنسائي (٩٥٩).

أقول ما أقول « (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ، ورسول الله ﷺ بشر ، يتكلم في الغضب. فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : « اكتب ، فوالذي نفسى بيده، ما خرج منى إلا حق » . ورواه أبو داود (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: « لا أقول إلا حقا » . قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله ؟ قال: « إني لا أقول إلا حقا » (٣) .

﴿ عِلْمُهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ (٥) ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ (٦) ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ (٧) ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ (٨) ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ (٩) ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ (١٠) ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ (١١) ﴿ أَفَتَمُرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ (١٢) ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ (١٣) ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ (١٤) ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ (١٥) ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ (١٦) ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ (١٧) ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (١٨)

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علمه الذي جاء به إلى الناس ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ وهو جبريل، عليه السلام، كما قال: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١] . وقال هاهنا: ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ ذو قوة. قاله مجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن. وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن. ولا منافاة بين القولين؛ فإنه، عليه السلام، ذو منظر حسن، وقوة شديدة. وقد ورد الحديث الصحيح من رواية أبي هريرة وابن عمرو (٤) أن النبي ﷺ قال: « لا تحل الصدقة لغنى، ولا لذي مرة سوي » (٥) .

وقوله: ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ يعني: جبريل، عليه السلام. قاله مجاهد والحسن وقاتادة، والربيع بن أنس ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ يعني: جبريل، استوى في الأفق الأعلى. قاله عكرمة وغير واحد. قال عكرمة: والأفق الأعلى: الذي يأتي منه الصبح. وقال مجاهد: هو مطلع الشمس. وقال قتادة: هو الذي يأتي منه النهار. وكذا قال ابن زيد، وغيرهم. روى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سدّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم. انفرد به أحمد (٦) .

(١) المسند (٢٥٧/٥) وقال الهيثمي في الزوائد (٣٨٤/١٠): رجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة وهو ثقة .

(٢) المسند (١٦٢/٢) وأبو داود (٣٦٤٦) .

(٣) المسند (٣٤٠/٢) والترمذي (١٩٩٠) وقال: « هذا حديث حسن صحيح » .

(٤) في المطبوعة والمخطوطة: « ابن عمر » صوابه ما أثبتناه .

(٥) أبو داود (١٦٣٤) والترمذي (٦٥٢) عن ابن عمرو ، وابن ماجه (١٨٣٩) عن أبي هريرة .

(٦) المسند (٣٧٤٨) وقال الشيخ أحمد شاكر: « إسناده صحيح » .

وروى أحمد عن ابن عباس قال: سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته، فقال: ادع ربك: فدعا ربه، عز وجل، فطلع عليه سواد من قبل المشرق، فجعل يرتفع ويتشعر، فلما رآه النبي ﷺ صرع، فأتاه فنعشه ومسح البزاق عن شدة. انفرد به أحمد (١).

وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أى: فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قَاب قَوْسَيْنِ، أى: بقدرهما إذا مُدَّا. قاله مجاهد، وقتادة. وقد قيل: إن المراد بذلك بُعد ما بين وتر القوس إلى كبدها. وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفى ما زاد عليه، كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أى: ما هى بألين من الحجارة، بل هى مثلها أو تزيد عليها فى الشدة والقسوة. وكذا قوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، أى: ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد، فإن هذا ممتنع هاهنا، وهكذا هذه الآية: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾. وهذا الذى قلناه، من أن هذا المقترب الدانى الذى صار بينه وبين محمد ﷺ، إنما هو جبريل، عليه السلام، هو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبى ذر، وأبى هريرة، وروى مسلم فى صحيحه، عن ابن عباس أنه قال: « رأى محمد ربه بفؤاده مرتين » (٢). فجعل هذه إحداهما.

وعن عائشة قالت: كان أول شأن رسول الله ﷺ أنه رأى فى منامه جبريل بأجياد، ثم إنه خرج ليقضى حاجته فصرخ به جبريل: يا محمد، يا محمد. فنظر رسول الله ﷺ يميناً وشمالاً فلم ير شيئاً - ثلاثاً - ثم رفع بصره فإذا هو ثان إحدى رجله مع الأخرى على أفق السماء فقال: يا محمد، جبريل، جبريل - يُسَكِّنُهُ - فهرب النبي ﷺ حتى دخل فى الناس، فنظر فلم ير شيئاً، ثم خرج من الناس، ثم نظر فرآه، فدخل فى الناس فلم ير شيئاً، ثم خرج فنظر فرآه، فذلك قول الله عز وجل: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ يعنى جبريل إلى محمد ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾: ويقولون: القاب نصف الإصبع. وقال بعضهم: ذراعين كان بينهما. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم (٣). وروى البخارى عن طلق بن غنام، عن زائدة، عن الشيبانى قال: سألت زراً عن قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾. فأوحى إلى عبده ما أوحى قال: حدثنا عبد الله أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح (٤).

فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ معناه: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى. أو: فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل وكلا المعنيين صحيح.

(١) المسند (٢٩٦٧) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح». وسيأتى عند تفسير الآية (١٣).

(٢) مسلم (٢٨٥/١٧٦). (٣) ابن جرير فى التفسير (٢٧/٢٧).

(٤) البخارى (٤٨٥٧).

وقوله : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ روى مسلم عن ابن عباس : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ قال : رآه بفؤاده مرتين (١) . وكذا قال أبو صالح والسدي وغيرهما : إنه رآه بفؤاده مرتين أو مرة ، وقد خالفه ابن مسعود وغيره ، وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية ، وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد . ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب ، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة . وفي صحيح مسلم ، عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه » . وفي رواية : « رأيت نورا » (٢) .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ : هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها ، وكانت ليلة الإسراء . وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الإسراء بطرقها وألفاظها في أول سورة « سبحان » بما أغنى عن إعادته هاهنا ، وتقدم أن ابن عباس كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء ، ويستشهد بهذه الآية . وتابعه جماعة من السلف والخلف ، وقد خالفه جماعات من الصحابة والتابعين وغيرهم . وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود في هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل وله ستمائة جناح ، ينتثر من ريشه التهاويل : الدر والياقوت » (٣) . وهذا إسناده جيد قوى . وروى أحمد أيضا عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل على سدره المنتهى ، وله ستمائة جناح » سألت عاصم عن الأجنحة ، فأبى أن يخبرني ، قال : فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب (٤) . وهذا أيضا إسناده جيد . وروى أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل ، عليه السلام ، في خضر معلق به الدر » (٥) . إسناده جيد أيضا .

وروى أحمد أيضا عن مسروق قال : كنت عند عائشة فقلت : أليس الله يقول : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴾ [التكوير : ٢٣] ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنها ، فقال : « إنما ذاك جبريل » . لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين ، رآه منهبطا من السماء إلى الأرض ، سادا عظما خلقه ما بين السماء والأرض . أخرجاه في الصحيحين (٦) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبي ذر : لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته . قال : وما كنت تسأله ؟ قال : كنت أسأله : هل رأى ربه ، عز وجل ؟ فقال : إني قد سألته فقال : « قد رأيته نورا ، أنى أراه » (٧) . وقد أخرجه مسلم من طريقين بلفظين عن أبي ذر قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه » . وعن

(٢) مسلم (١٧٨ / ٢٩٢) .

(١) مسلم (١٧٦ / ٢٨٥) .

(٣) مضى تخريجه عند الآية (٧) من السورة .

(٤) المسند (٣٨٦٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٥) المسند (٣٨٦٣) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٦) المسند (٢٤١ / ٦) والبخارى (٤٨٥٥) ومسلم (١٧٧ / ٢٨٧) .

(٧) المسند (١٤٧ / ٥) .

عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال: عن أى شيء كنت تسأله؟ قال: قلت: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نورا» (١). وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة، أنه قال فى قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، قال: رأى جبريل، عليه السلام (٢).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾: روى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهى فى السماء السادسة، إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها، ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: فراش من ذهب، قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحّمات. انفرد به مسلم (٣).

وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ قال ابن عباس: ما ذهب يميناً ولا شمالاً، ﴿وَمَا طَغَى﴾: ما جاوز ما أمر به. وهذه صفة عظيمة فى الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطى. وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، كقوله: ﴿لِنُرِيكَ﴾ (٤) من آياتنا ﴿طه: ٢٣﴾ أى: الدالة على قدرتنا وعظمتنا. وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس، وقد روى الإمام أحمد عن ابن مسعود، أنه قال: إن محمداً لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين، أما مرة فإنه سأله أن يريه نفسه فى صورته، فأراه صورته فسد الأفق. وأما الأخرى فإنه صعد معه حين صعد به. وقوله: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى قال: فلما أحس (٥) جبريل ربه، عز وجل، عاد فى صورته وسجد. فقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾. عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى قال: خلق جبريل، عليه السلام (٦).

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّى﴾ (١٩) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَى ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنثُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ وَكَرَّمَنَّا فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٢٦﴾

ربع

(٢) مسلم (١٧٥/٢٨٣).

(١) مسلم (١٧٨/٢٨٣).

(٤) فى المخطوطة: «لنريه» وهو خطأ.

(٣) المسند (٤٠١١) ومسلم (١٧٣/٢٧٩).

(٥) فى المخطوطة و المطبوعة: «أخبر» والمثبت من المسند.

(٦) المسند (٣٨٦٤) وقال الشيخ شاكر: «إسناده صحيح».

يقول تعالى مُقَرَّعًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ، وَاتَّخَذَهُمْ لَهَا الْبُيُوتَ مِصَاهَاةً لِلْكَعْبَةِ الَّتِي بَنَاهَا خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ﴾ ؟ وَكَانَتْ «اللَّاتُ» صَخْرَةً بِيضَاءَ مَنْقُوشَةٍ، وَعَلَيْهَا بَيْتٌ بِالطَّائِفِ لَهُ أَسْتَارٌ وَسَدَنَةٌ، وَحَوْلَهُ فَنَاءٌ مُعْظَمٌ عِنْدَ أَهْلِ الطَّائِفِ، وَهُمْ ثَقِيفٌ وَمِنْ تَابِعِهَا، يَفْتَخِرُونَ بِهَا عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ بَعْدَ قُرَيْشٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَانُوا قَدْ اشْتَقَوْا اسْمَهَا مِنْ اسْمِ اللَّهِ، فَقَالُوا: اللَّاتُ، يَعْنُونَ مَوْثِقَةً مِنْهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عَلَوْا كَبِيرًا. وَحَكَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: أَنَّهُمْ قَرَأُوا «اللَّاتَ» بِتَشْدِيدِ التَّاءِ، وَفَسَّرُوهُ بِأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا يَلْتُمُ اللَّحْجِيجَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ السُّوَيْقِ، فَلَمَّا مَاتَ عَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ فَعَبَدُوهُ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿اللَّاتُ وَالْعُزَّى﴾ قَالَ: كَانَ اللَّاتُ رَجُلًا يَلْتُمُ السُّوَيْقَ، سُوَيْقُ الْحَاجِّ (١).

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَذَا الْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ. وَكَانَتْ شَجَرَةً عَلَيْهَا بِنَاءٌ وَأَسْتَارٌ بِنَخْلَةٍ، وَهِيَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، كَانَتْ قُرَيْشٌ يَعْظُمُونَهَا، كَمَا قَالَ أَبُو سَفْيَانَ يَوْمَ أَحَدٍ: لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ» (٢). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ الزَّهْرِيِّ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: وَاللَّاتُ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أَقَامْرُكَ، فَلْيَتَصَدَّقْ» (٣). وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ سَبَقَ لِسَانُهُ إِلَى ذَلِكَ.

وَأَمَّا «مَنَاة» فَكَانَتْ بِالْمُشَلَّلِ - عِنْدَ قُدَيْدٍ، بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ - وَكَانَتْ خَزَاعَةً وَالْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَعْظُمُونَهَا، وَيُهْلُونَ مِنْهَا لِلْحَجِّ إِلَى الْكَعْبَةِ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ نَحْوَهُ (٤). وَقَدْ كَانَتْ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهَا طَوَاغِيتٌ أُخَرُ تَعْظُمُهَا الْعَرَبُ كَتَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ غَيْرَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي نَصَّ عَلَيْهَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَإِنَّمَا أَفْرَدَ هَذِهِ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا أَشْهَرُ مِنْ غَيْرِهَا. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيَرَةِ: وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ اتَّخَذَتْ مَعَ الْكَعْبَةِ طَوَاغِيتَ، وَهِيَ بُيُوتٌ تَعْظُمُهَا كَتَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ، لَهَا سَدَنَةٌ وَحِجَابٌ، وَتَهْدَى لَهَا كَمَا تَهْدَى لِلْكَعْبَةِ، وَتَطُوفُ بِهَا كَطُوفَاتِهَا بِهَا، وَتَنْحَرُ عِنْدَهَا، وَهِيَ تَعْرِفُ فَضْلَ الْكَعْبَةِ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ قَدْ عَرَفَتْ أَنَّهَا بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَسْجِدُهُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ ؟.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ ؟ أَيُّ: أَتَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَتَجْعَلُونَ وَلَدَهُ أَنْثَى، وَتَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِكُمُ الذَّكَورَ، فَلَوْ اقْتَسَمْتُمْ أَنْتُمْ وَمَخْلُوقٌ مِثْلُكُمْ هَذِهِ الْقِسْمَةَ لَكَانَتْ ﴿قِسْمَةً ضَيْزَى﴾ أَيُّ: جَوْرًا بَاطِلًا، فَكَيْفَ تَقَاسِمُونَ رَبَّكُمْ هَذِهِ الْقِسْمَةَ الَّتِي لَوْ كَانَتْ بَيْنَ مَخْلُوقَيْنِ كَانَتْ جَوْرًا وَسَفْهًا. ثُمَّ قَالَ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَأَحْدَثُوهُ مِنَ الْكُذْبِ وَالْإِفْتِرَاءِ وَالْكَفْرِ، مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَتَسْمِيَتِهَا آلِهَةً: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ أَيُّ: مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِكُمْ ﴿مَا أَنْزَلَ

(١) الْبُخَارِيُّ (٤٨٥٩).

(٢) الْبُخَارِيُّ (٤٠٤٣).

(٣) الْبُخَارِيُّ (٤٨٦٠).

(٤) الْبُخَارِيُّ (٤٨٦١).

اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿٢٧﴾ أى : من حجة ، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أى : ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بأبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظ نفوسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين ، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أى : ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به ، ولا انقادوا له .

ثم قال : ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أى : ليس كل من تمنى خيرا حصل له ، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣] ، ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال ، ولا كل من ود شيئا يحصل له . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى ، فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته» . تفرد به أحمد (١) .

وقوله : ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ أى : إنما الأمر كله لله ، مالك الدنيا والآخرة ، والمتصرف فى الدنيا والآخرة ، فهو الذى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . وقوله : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ، كقوله : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣] ، فإذا كان هذا فى حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعاة هذه الأصنام والأنداد عند الله ، وهم لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها ، بل قد نهى عنها على السنة جميع رسله ، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه ؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى منكرًا على المشركين فى تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى ، وجعلهم لها أنها بنات الله - تعالى الله عن ذلك - كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] ؛ ولهذا قال : ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى : ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه ، بل هو كذب وزور وافتراء ، وكفر شنيع ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أى : لا يجدى شيئا ، ولا يقوم أبدا مقام الحق . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث» (٢) .

وقوله : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أى : أعرض عن الذى أعرض عن الحق وهجره ﴿وَلَمْ

(١) المسند (٢/٣٥٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/١٥٤) : «رجال رجال الصحيح» .

(٢) البخارى (٥١٤٣) ومسلم (٢٨/٢٥٦٣) .

يُرَدُّ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣١﴾ أى : وإنما أكثر همه ومبلغ غلمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه . ولذلك قال : ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أى : طلب الدنيا والسعى لها هو غاية ما وصلوا إليه . وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » (١) وفى الدعاء المأثور : « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » . وقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى﴾ أى : هو الخالق لجميع المخلوقات ، والعالم بمصالح عباده ، وهو الذى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته ، وهو العادل الذى لا يجور أبداً ، لا فى شرعه ولا فى قدره .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (٢١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ انْتَقَى (٢٢) ﴿

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه الغنى عما سواه ، الحاكم فى خلقه بالعدل ، وخلق الخلق بالحق ، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ أى : يجازى كلا بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، أى : لا يتعاطون المحرمات والكبائر ، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستتر عليهم ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾ [النساء : ٣١] . وقال هاهنا : ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ . وهذا استثناء منقطع ؛ لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى ﷺ ، قال : «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حفظه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» . أخرجاه فى الصحيحين (٢) . وعن ابن مسعود قال : زنا العينين النظر ، وزنا الشفتين التقبيل ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين المشى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه ، فإن تقدم بفرجه كان زانياً ، وإلا فهو اللمم . وكذا قال مسروق ، والشعبى . وقال عبد الرحمن بن نافع - الذى يقال له : ابن لبابة الطائفى - قال : سألت أبا هريرة عن قول الله : ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال : القبله ، والغمزة ، والنظرة ، والمباشرة ، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل ، وهو الزنا . وقال ابن عباس : ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ : إلا ما سلف . وكذا قال زيد بن أسلم . وقال مجاهد فى هذه الآية : ﴿إِلَّا

(١) المسند (٧١ / ٦) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٩١ / ١٠) : « رجاله رجال الصحيح غير زويد بن نافع وهو ثقة » .

(٢) المسند (٧٧٠٥) والبخارى (٦٦١٢) ومسلم (٢٠ / ٢٦٥٧) .

اللَّمَمُ قال: الذى يلم بالذنب ثم يدّعه. وعن ابن عباس: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب وقال: قال رسول الله ﷺ:

«إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما؟!»

رواه الترمذى، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب (١). وعن الحسن قال: اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر، ثم لا يعود وعنه. قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: هو الرجل يصيب اللمة من الزنا، واللمة من شرب الخمر، فيجتنبها ويتوب منها. وعن ابن الزبير: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: ما بين الحدين: حد الدنيا وعذاب الآخرة. وقال ابن عباس فى قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: كل شيء بين الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة، تكفره الصلوات، وهو اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته فى الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار، وأخر عقوبته إلى الآخرة. وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أى: رحمته وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أى: هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التى تصدر عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر، ثم قسمهم فريقين: فريقا للجنة، وفريقا للسعير. وكذا قوله: ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾: قد كتب الملك الذى يوكل به رزقه وأجله وعمله، وشقى أم سعيد.

وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]. وروى مسلم فى صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال: سميت ابنتى برة، فقالت لى زينب بنت أبى سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسميت برة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم». فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها زينب» (٢). وقد ثبت أيضا فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى بكره، قال: مدح رجل رجلاً عند النبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ويلك! قطعت عُنُقَ صاحبك - مراراً - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلانا - والله حسيبه، ولا أزكى على الله أحدا - أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك». وكذا رواه البخارى، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه (٣). وروى الإمام أحمد عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأنثى عليه فى وجهه، قال: فجعل

(٢) مسلم (١٨/٢١٤٢).

(١) الترمذى (٣٢٨٤).

(٣) المسند (٥/٤١، ٤٥) والبخارى (٢٦٦٢) ومسلم (٦٥/٣٠٠٠) وأبو داود (٤٨٠٥) وابن ماجه (٣٧٤٤).

المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب. ورواه مسلم وأبو داود (١).

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ (٣٢) ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ (٣٤) ﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ (٣٥) ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴾ (٣٦) ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ (٣٧) ﴿ أَلَا نَزَرُ وَزَرَ ﴾ (٣٨) ﴿ وَزَرَ أُخْرَى ﴾ (٣٩) ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (٤٠) ﴿ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى ﴾ (٤١) ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى ﴾ (٤٢)

يقول تعالى ذامًا لمن تولى عن طاعة الله، ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صُلَّى﴾. وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ قال ابن عباس: أطاع قليلا ثم قطعه. وكذا قال مجاهد، وسعيد ابن جبير، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد. قال عكرمة، وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئرا، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: «أكدينا»، ويتركون العمل. وقوله: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾؟ أى: أعند هذا الذى قد أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما فى يده، حتى قد أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عيانا؟! أى: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلا وشحا وهلعا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩].

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى. وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قال سعيد بن جبير، والثورى: أى بلغ جميع ما أمر به. وقال ابن عباس: ﴿وفى﴾ لله بالبلاغ. وقال سعيد بن جبير: ﴿وفى﴾ ما أمر به. وقال قتادة: ﴿وفى﴾ طاعة الله، وأدى رسالته إلى خلقه. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذى قبله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماما يُقتدى به فى جميع أحواله وأفعاله وأقواله، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]. وروى الترمذى عن أبى الدرداء وأبى ذر، عن رسول الله ﷺ عن الله، عز وجل، أنه قال: «ابن آدم، اركع لى أربع ركعات من أول النهار، أكفك آخره» (٢).

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه فى صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أى: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد كما قال: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿وَأَنْ

(١) المسند (٥/٦) ومسلم (٦٨/٣٠٠٢) وأبو داود (٤٨٠٤).

(٢) الترمذى (٤٧٥) وقال: «حديث حسن غريب»، وصححه الألبانى.

لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿١﴾ أى : كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه . ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ؛ ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة ، ولو كان خيرا لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ، ومنصوص من الشارع عليهما (١) .

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به » (٢) ، فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله ، كما جاء فى الحديث : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه » (٣) . والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هى من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ ﴾ الآية [يس : ١٢] . والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده ، هو أيضا من سعيه وعمله ، وثبت فى الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا » (٤) .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ أى : يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] أى : فيخبركم به ، ويجزيكم عليه أتم الجزاء ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴾ أى : الأوفر .

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ (٤٢) وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنْتُمْ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ

(١) وللإمام ابن تيمية - رحمه الله - جواب شاف ، فى بيان هذه المسألة ، وقد سئل عنها فأجاب : « أما الصدقة عن الميت فإنه ينتفع بها باتفاق المسلمين . وكذلك ينفعه الحج عنه ، والأضحى عنه ، والعتق عنه ، والدعاء والاستغفار له بلا نزاع بين الأئمة . وأما الصيام عنه وصلاة التطوع عنه ، وقراءة القرآن عنه ، فهذا فيه قولان للعلماء : أحدهما : ينتفع به ، وهو مذهب أحمد وأبى حنيفة وغيرهما ، وبعض أصحاب الشافعى وغيرهم . والثانى : لا تصل إليه وهو المشهور فى مذهب مالك والشافعى . وأما الاستئجار لنفس القراءة والإهداء فلا يصح ذلك » (مجموعة الفتاوى ١٧٥ / ٢٤ ط . الوفاء) .

وفى موضع آخر قال : « والأئمة اتفقوا على أن الصدقة تصل إلى الميت ، وكذلك العبادات المالية كالعتق . وإنما تنازعوا فى العبادات البدنية كالصلاة والصيام والقراءة » ثم رجع الإمام ابن تيمية بالدليل قول من قال بوصول العبادات البدنية إلى الميت . (انظر بالتفصيل : مجموعة الفتاوى ١٧٠ / ٢٤ - ١٧٤ ط . الوفاء) .

(٢) مسلم (١٦٣١ / ١٤) .

(٣) أحمد (٣١ / ٦) والترمذى (١٣٥٨) وقال : « حديث حسن صحيح » .

(٤) مسلم (١٦ / ٢٦٧٤) .

الْأُخْرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنَفِكَهَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَفَشَنَاهَا مَا غَشَىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى : ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ أى : المعاد يوم القيامة . عن عمرو بن ميمون الأودى قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : يا بنى أود ، إني رسول الله إليكم ، تعلمون أن المعاد إلى الله ، إلى الجنة أو إلى النار . وقوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ أى : خلق فى عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ ، كقوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك : ٢] ، ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ . مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ ، كقوله : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِي يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ . فَجَعَلَ مِنَهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة : ٣٦ - ٤٠] .

وقوله : ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ أى : كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة ، وهى النشأة الآخرة يوم القيامة . ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَى﴾ أى : مَلِكُ عباده المال ، وجعله لهم قُنْيَةً مقيما عندهم ، لا يحتاجون إلى بيعه ، فهذا تمام النعمة عليهم . وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين ، منهم أبو صالح ، وابن جرير ، وغيرهما . وعن مجاهد : ﴿أَغْنَى﴾ : مَوْلٌ ﴿وَأَقْنَى﴾ : أخدم . وكذا قال قتادة . وقال ابن عباس ، ومجاهد : ﴿أَغْنَى﴾ : أعطى ﴿وَأَقْنَى﴾ : رَضَى .

وقوله : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد وغيرهم : هو هذا النجم الوقاد الذى يقال له : «مِرْزَمُ الجوزاء» ، كانت طائفة من العرب يعبدونه . ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ وهم : قوم هود . ويقال لهم : عاد بن إرم بن سام بن نوح ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر : ٦ - ٨] ، فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله وعلى رسوله ، فأهلكهم الله ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة : ٦ ، ٧] .

وقوله : ﴿وَتَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ أى : دمرهم فلم يبق منهم أحدا ، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أى : من قبل هؤلاء ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ أى : أشد تمردا من الذين من بعدهم ، ﴿وَالْمُؤَنَفِكَهَ أَهْوَى﴾ يعنى : مدائن لوط ، قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود ؛ ولهذا قال : ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ يعنى : من الحجارة التى أرسلها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الشعراء : ١٧٣] . ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ أى : ففى أى نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري ؟ قاله قتادة . وقال ابن جرير : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ يا محمد . والأول أولى ، وهو اختيار ابن جرير .

﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ ﴾ ﴿٥٦﴾ أَرْفَتِ الْأَرْفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

سجدة

﴿ هَذَا نَذِيرٌ ﴾ يعنى : محمدا ﷺ ﴿ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ ﴾ أى : من جنسهم ، أرسل كما أرسلوا ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [الاحقاف: ٩] . ﴿ أَرْفَتِ الْأَرْفَةَ ﴾ أى : اقتربت القرية ، وهى القيامة ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أى : لا يدفعها إذا من دون الله أحد ، ولا يطلع على علمها سواه . ثم قال تعالى منكرًا على المشركين فى استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهمهم : ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ من أن يكون صحيحا ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ منه استهزاء وسخرية ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ أى : كما يفعل الموقنون به ، كما أخبر عنهم : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُونَ فِيهِمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٩] .

وقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ قال ابن عباس : الغناء ، هى يمانية ، اسمٌ لنا : غن لنا . وكذا قال عكرمة . وفى رواية عن ابن عباس : ﴿ سَامِدُونَ ﴾ : معرضون . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة . وقال الحسن : غافلون . وهو رواية عن على بن أبى طالب . وفى رواية عن ابن عباس : تستكبرون . وبه يقول السدى . ثم قال أمرا لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص : ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ أى : فاخضعوا له وأخلصوا ووجدوا . روى البخارى عن ابن عباس قال : سجد النبى ﷺ بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس . انفرد به دون مسلم (١) .

تفسير سورة القمر

وهي مكية

قد تقدم في حديث أبي واقد (١) : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة، في الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتغالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ١ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾

يخير تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]، وقد وردت الأحاديث بذلك، روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ والشمس على قُعَيْقَعَانَ بعد العصر، فقال: « ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقى من النهار فيما مضى » (٢). وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ هَكَذَا ». وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى. أخرجاه (٣). وروى الإمام أحمد عن خالد ابن عمير قال: خطب عتبة بن غزوان - قال بهز: وقال قبل هذه المرة - خطبنا رسول الله ﷺ قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: « أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بصرْمٍ وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صُبَابَةٌ كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقَى من شفير جهنم فيهوى فيها سبعين عاما ما يدرك لها قعرًا، والله لتملؤنه، أفعجبتم! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مِصْرَاعَيْ الْجَنَّةِ مسيرة أربعين عاما، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ الزحام » وذكر تمام الحديث، انفرد به مسلم (٤).

وقوله: ﴿ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ : قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: « خمس

(١) وذلك عند تفسير سورة « ق » في أولها .

(٢) المسند (٥٩٦٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٣) المسند (٣٣٨ / ٥) والبخارى (٦٥٠٣) ومسلم (١٣٢ / ٢٩٥٠) .

(٤) المسند (١٧٤ / ٤) ومسلم (١٤ / ٢٩٦٧) .

قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر» (١). وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾. ورواه مسلم (٢). وروى البخارى عن أنس بن مالك؛ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقيين، حتى رأوا حراء بينهما (٣). وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه (٤). وروى البخارى عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ. ورواه مسلم (٥). وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: ﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقَتَيْنِ: فِلْقَةٌ من دون الجبل، وفِلْقَةٌ من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد». رواه مسلم والترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح (٦). وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا». رواه البخارى ومسلم (٧).

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾ أى: دليلا وحجة وبرهانا ﴿يُعْرِضُوا﴾ أى: لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم، ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أى: ويقولون: هذا الذى شاهدناه من الحجاج، سحر سحرنا به. ومعنى ﴿مُسْتَمِرٌّ﴾ أى: ذاهب. قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما، أى: باطل مضمحل، لا دوام له. ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهوائهم من جهلهم وسخافة عقولهم. وقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ قال قتادة: معناه: أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر. وقال ابن جريج: مستقر بأهله. وقال مجاهد: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أى: يوم القيامة. وقال السدى: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ أى: واقع.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أى: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبة بالرسول، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم فى هذا القرآن، ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أى: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادى على التكذيب. وقوله: ﴿حِكْمَةٌ بِالْعِثَّةِ﴾ أى: فى هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ يعنى: أى شىء تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذى يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ

(٢) المسند (٣/١٦٥) ومسلم (٢٨٠٢/٤٦).

(٤) المسند (٤/٨١).

(١) البخارى (٤٧٦٧).

(٣) البخارى (٣٨٦٨).

(٥) البخارى (٣٦٣٨، ٤٨٦٦) ومسلم (٢٨٠٣/٤٨).

(٦) البيهقى فى الدلائل (٢/٢٦٧) ومسلم (٢٨٠١) والترمذى (٣٢٨٨).

(٧) المسند (٣٥٨٣) والبخارى (٤٨٦٤) ومسلم (٢٨٠٠/٤٣).

الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ [الأنعام: ١٤٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي (١) الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾ ﴿٦﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾ أى: إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ أى: ذليلة أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهى: القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ أى: كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى ﴿جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ فى الآفاق؛ ولهذا قال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أى: مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾، لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أى: يوم شديد الهول عبوس قمطرير ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ على الكافرين غير يسير [المذثر: ٩، ١٠].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجِ وَدُسِرَ ﴿١٣﴾ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿١٧﴾

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أى: صرحوا له بالكذب واتهموه بالجنون، ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ قال مجاهد: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أى: استطير جنونا. وقيل: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أى: انتهره وزجروه وتواعدوه: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]. قاله ابن زيد، وهذا متوجه حسن. ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ أى: إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ﴿فَأَنْتَصِرْ﴾ أنت لدينك.

قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ قال السدى: هو الكثير ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أى: نبعت جميع أرجاء الأرض، حتى التناير التى هى محال النيران نبعت عيوننا ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أى: من السماء والأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أى: أمر مقدر. قال ابن عباس: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾: كثير، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده، ولا من السحاب؛ فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان على أمر قد قدر. ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ

(١) فى المطبوعة والمخطوطة: «فما تغنى» وهو خطأ، صوابه ما أثبتناه.

أَلَوَاحٍ وَدُسُرٍ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والقرظي، وقتادة، وابن زيد: هي المسامير، واختاره ابن جرير، قال: وواحدها دسار، ويقال: دسير. وقال مجاهد: الدسر: أضلاع السفينة. وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج. وقال الضحاك: الدسر: طرفها وأصلها. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو كلكلها.

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرًا﴾ أى: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح، عليه السلام. وقوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ قال قتادة: أبقي الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة. والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أى: فهل من يتذكر ويتعظ؟ روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، مُدْكِرٌ أو مُذْكِرٌ؟ قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿مُذْكِرٍ﴾ (١). وهكذا رواه البخاري عن عبد الله قال: قرأت على النبي ﷺ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾. فقال النبي ﷺ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ (٢). وعن أبي إسحاق؛ أنه سمع رجلاً يسأل الأسود: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾، أو: ﴿مُذْكِرٍ﴾؟ قال: سمعت عبد الله يقرأ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأها: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ دالاً. وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه (٣). وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أى: كيف كان عذابي لمن كفر بى وكذب رسلى ولم يتعظ بما جاءت به نُذْرِي، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أى: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراد، ليتذكر الناس. كما قال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]. قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعنى: هوّنّا قراءته. وقال السدى: يسرنا تلاوته على الألسن. وقال ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان آدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله، عز وجل. قلت: ومن تيسيره، تعالى، على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف» (٤).

وقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أى: فهل من متذكر بهذا القرآن الذى قد يسّر الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد بن كعب القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟ وعن مطر الوراق فى قوله

(١) المسند (٣٧٥٥) وقال الشيخ شاکر: «إسناده صحيح».

(٢) البخارى (٤٨٦٩، ٤٨٧٤).

(٣) البخارى (٤٨٧١) ومسلم (٨٢٣/٢٨٠) وأبو داود (٣٩٩٤) والترمذى (٢٩٣٧).

(٤) البخارى (٤٩٩٢).

تعالى : ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ : هل من طالب علم فيُعَان عليه؟ وروى عن قتادة مثله .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ
نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي
﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبرا عن عاد قوم هود: إنهم كذبوا رسولهم أيضا، كما صنع قوم نوح، وأنه تعالى أرسل ﴿ عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾، وهى الباردة الشديدة البرد، ﴿ فِي يَوْمٍ نَحْسٍ ﴾ أى: عليهم. قاله الضحاك، و قتادة، والسدى ﴿ مُسْتَمِرٍّ ﴾ عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوى بالأخروى .

وقوله تعالى : ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتى أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتشلع رأسه فيبقى جثة بلا رأس؛ ولهذا قال: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾
أَلَفِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾
إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ
﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخَضَّبِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحا ﴿ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴾ يقولون: لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كُلْنَا قيادنا لواحد منا! ثم تعجبوا من إلقاء الوحى عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا: ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴾ أى: متجاوز فى حد الكذب. قال الله تعالى: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشِرِّ ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد. ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ ﴾ أى: اختبارا لهم؛ أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشاء من صخرة صماء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم فى تصديق صالح، عليه السلام، فيما جاءهم به .

ثم قال تعالى أمرا لعبده ورسوله صالح: ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ أى: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم، فإن العاقبة والنصر لك فى الدنيا والآخرة ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أى: يوم لهم ويوم للناقة؛ كقوله: ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٥] .

وقوله : ﴿كُلُّ شَرِبٍ مُّحْتَضَرٍ﴾ قال مجاهد : إذا غابت حضروا الماء ، وإذا جاءت حضروا اللبن . ثم قال تعالى : ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ قال المفسرون : هو عاقر الناقة ، واسمه قُدَّار بن سالف ، وكان أشقى قومه . كقوله : ﴿إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس : ١٢] ، ﴿فَتَعَاطَى﴾ أى : خسر ﴿فَعَقَرَ﴾ فكيف كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي أى : فعاقبتهم ، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى ؟ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أى : فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية ، وخمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات . قاله غير واحد من المفسرين . والمحتظر قال السدى : هو المرعى بالصحراء حين يبيس ويخترق وتسفيه الريح . وقال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشى من يبيس الشوك ، فهو المراد من قوله : ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ .

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ﴾ ﴿٢٢﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٢٤﴾ نِعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٢٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه ، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور ، وهى الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين ؛ ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم ، فإنه تعالى أمر جبريل ، عليه السلام ، فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عَنَانَ السماء ، ثم قلبها عليهم وأرسلها ، وأتبع بحجارة من سجيل منضود ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وهى : الحجارة ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ أى : خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم ، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته ، أصابها ما أصاب قومها ، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسه سوء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ . وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا أى : ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه ، فما التفتوا إلى ذلك ، ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه وتماروا به ، ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل فى صورة شباب مُرد حسان محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها ، فأعلمتهم بأضياف لوط ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، وذلك عشية ، ولوط ، عليه السلام ، يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه ، ويقول لهم : ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعنى : نساءهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر : ٧١] ، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أى : ليس لنا فيهن أرب ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ [هود : ٧٩] ، فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول ، خرج عليهم جبريل ، عليه السلام ، فضرب أعينهم بطرف جناحه ، فانطمست أعينهم . يقال : إنها غارت من وجوههم . وقيل : إنه لم تبق لهم عيون بالكلية ، فرجعوا على

أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطا، عليه السلام، إلى الصباح. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ أى : لا محيد لهم عنه ، ولا انفكاك لهم منه ، ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ .

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾ (٤١) ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ (٤٢) ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (٤٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ (٤٤) ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (٤٥) ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ (٤٦) ﴿

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وقومه أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا، والنذارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة، فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أى: فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبرا ولا عينا ولا أثرا. ثم قال تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ أى: أيها المشركون من كفار قريش ﴿خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ﴾ يعنى: من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب: أنتم خير أم أولئكم؟ ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أى: أم معكم من الله براءة ألا ينالكم عذاب ولا نكال؟

ثم قال تعالى مخبرا عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ أى: يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضا، وأن جمعهم يغنى عنهم من أرادهم بسوء، قال الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أى: سيتفرق شملهم ويغلبون. عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال - وهو فى قبة له يوم بدر: « أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم فى الأرض أبدا » . فأخذ أبو بكر بيده وقال : حسبك يا رسول الله! ألححت على ربك. فخرج وهو يشب فى الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ. رواه البخارى والنسائى (١). وروى البخارى عن يوسف بن ماهك قال : إني عند عائشة أم المؤمنين ، قالت : نزل على محمد ﷺ بمكة - وإني لجارية لعب - ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ هكذا رواه هاهنا مختصرا (٢). ورواه فى فضائل القرآن مطولا (٣) ، ولم يخرج مسلم .

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٤٧) ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٤٨) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩) ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٥٠) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٥١) ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ (٥٢) ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ (٥٣) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ (٥٤) ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ (٥٥) ﴿

(١) البخارى (٢٩١٥ ، ٣٩٥٣ ، ٤٨٧٥ ، ٤٨٧٧) والنسائى فى الكبرى (١١٥٥٧) .

(٢) البخارى (٤٨٧٦) .

(٣) البخارى (٤٩٩٣) .

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق، وسُعرٌ مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: كما كانوا في سُعرٍ وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالاً، يسحبون فيها على وجوههم، ولا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريعا وتوبيخا: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] وكقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ . وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٣] أي: قدر قدرا، وهدى الخلائق إليه؛ ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابتها لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة. ولنذكر هاهنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة: روى أحمد عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونهم في القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾. رواه مسلم والترمذي وابن ماجه (١). وروى الإمام أحمد عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكتبه، فكتب إليه عبد الله بن عمر: إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر، فإياك أن تكتب إليّ، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر». ورواه أبو داود (٢). وروى أحمد عن طاوس اليماني قال: سمعت ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس». ورواه مسلم (٣).

وفي الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أني فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان» (٤). وفي حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال له: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم يكتبه الله لك، لم ينفعوك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يكتبه الله عليك، لم يضروك. جفت الأقلام وطويت الصحف» (٥). وروى الإمام أحمد عن الوليد بن عباد، قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لي. فقال: أجلسوني. فلما أجلسوه قال: يا بني، إنك لم تطعم طعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بني، إنني

(١) المسند (٤٤٤/٢) ومسلم (٢٦٥٦) والترمذي (٣٢٩٠) وابن ماجه (٨٣).

(٢) المسند (٥٦٣٩) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» وأبو داود (٤٦١٣).

(٣) المسند (٥٨٩٣) ومسلم (١٨/٢٦٥٥). (٤) مسلم (٣٤/٢٦٦٤).

(٥) المسند (٢٦٦٩) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم. ثم قال له: اكتب. فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» يابني، إن مت ولست على ذلك دخلت النار. ورواه الترمذى. وقال: حسن صحيح غريب (١). وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» زاد ابن وهب: «وكان عرشه على الماء» [هود: ٧]. ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح غريب (٢).

وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾: وهو إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ أى: إنما نأمر بالشىء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثنائية، فيكون ذلك الذى نأمر به حاصلًا موجودًا كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ﴾ يعنى: أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكذبين بالرسول، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِيرٍ﴾ أى: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ [سبا: ٥٤]. وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أى: مكتوب عليهم فى الكتب التى بأيدى الملائكة، عليهم السلام ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أى: من أعمالهم ﴿مُسْتَظَرٌّ﴾ أى: مجموع عليهم، ومسطر فى صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وقد قال الإمام أحمد عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا». ورواه النسائى وابن ماجه (٣).

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أى: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر، والسحب فى النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد. وقوله: ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ أى: فى دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أى: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون؛ وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو (٤) - يبلغ به النبى ﷺ - قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا». انفرد بإخراجه مسلم والنسائى (٥).

(١) المسند (٣١٧/٥) والترمذى (٣٣١٩). (٢) مسلم (١٦/٢٦٥٣) والترمذى (٢١٥٦). (٣) المسند (١٥١/٦) وابن ماجه (٤٢٤٣)، وفى الزوائد: «إسناده صحيح، رجاله ثقات»، وعزاه صاحب التحفة (١٢/٢٥٠) للنسائى فى الكبرى وابن ماجه، ولكنه استدرك وقال: حديث النسائى ليس فى الرواية ولم يذكره أبو القاسم.

(٤) فى المطبوعة: «عبد الله أبى عمرو» وهو خطأ.

(٥) المسند (٦٤٩٢) ومسلم (١٨/١٨٢٧) والنسائى (٥٣٧٩).

تفسير سورة الرحمن وهي مكية

روى الإمام أحمد عن زرٍّ، أن رجلاً قال لابن مسعود: كيف تعرف هذا الحرف: «ماء غير ياسن أو آسن»؟ فقال: كل القرآن قد قرأت. قال: إني لأقرأ المفصل؛ أجمع في ركعة واحدة. فقال: أهذا كهذا الشعر، لا أبالك؟ قد علمت قرائن النبي ﷺ التي كان يقرن قرينتين قرينتين من أول المفصل، وكان أول مفصل ابن مسعود: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١). وروى أبو عيسى الترمذى عن جابر، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم، سورة «الرحمن»، من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، قالوا: لا بشيء من نعمك - ربنا - نكذب، فلك الحمد» (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ﴾ ١ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ٢ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ٣ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ٤ ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ٥ ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ ٦ ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ٧ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ٨ ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ٩ ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ ١٠ ﴿فِيهَا فَكْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ ١١ ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ ١٢ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ١٣

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه: أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ﴾. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ. قال الحسن: يعنى: النطق. وقال الضحاك، وقتادة، وغيرهما: يعنى: الخير والشر. وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق فى تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفيتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها.

وقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أى: يجرىان متعاقبين بحساب مُقَنَّ لا يختلف ولا يضطرب، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ (٣) اللَّيْلِ سَكْنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الانعام: ١٠٢]

(١) المسند (٣٩١٠) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٢) الترمذى (٣٢٩١)، وحسنه الألبانى. (٣) هى قراءة كما سبق بيانه.

[٩٦]. وقوله: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ قال ابن جرير: اختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿وَالنَّجْمُ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فروى عن ابن عباس قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض - يعنى من النبات. وكذا قال سعيد بن جبير، والسدى، وسفيان الثوري. وقد اختاره ابن جرير. وقال مجاهد: النجم الذي في السماء. وكذا قال الحسن، وقتادة. وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية [الحج: ١٨].

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ يعنى: العدل، كما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أى: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أى: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢].

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أى: كما رفع السماء وضع الأرض ومهدّها، وأرسلها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقر لما على وجهها من الأنام، وهم: الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألستهم، فى سائر أقطارها وأرجائها. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: الأنام: الخلق ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ أى: مختلفة الألوان والطعوم والروائح، ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾: أفردته بالذكر لشرفه ونفعه، رطباً ويابساً. والأكمام قال ابن عباس: هى أوعية الطلع. وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذى يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود، فيكون بسراً، ثم رطباً، ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه. وقيل: الأكمام: رفاتها، وهو: الليف الذى على عنق النخلة. وهو قول الحسن وقتادة. ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: يعنى: التين. وقال العوفي عن ابن عباس: ورق الزرع الأخضر الذى قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس. وكذا قال قتادة، والضحاك، وأبو مالك: عصفه: تبته. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يعنى: الورد. وقال الحسن: هو ريحانكم هذا. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾: خضرة الزرع. ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له فى حال نباته عصف، وهو: ما على السنبلة، وريحان، وهو: الورد الملتف على ساقها. وقيل: العصف: الورد أول ما ينبت الزرع بقلًا. والريحان: الورد، يعنى: إذا أدجن وانعقد فيه الحب.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أى: فبأى الآلاء - يا معشر الثقيلين، من الإنس والجن - تكذبان؟ قاله مجاهد، وغير واحد. ويدل عليه السياق بعده، أى: النعم ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: «اللهم، ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد» (١). وكان ابن عباس يقول: «لا، بأيتها

يا رب». أى : لا نكذب بشيء منها. روى الإمام أحمد عن أسماء بنت أبى بكر قالت : سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ ، وهو يصلى نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر ، والمشركون يستمعون ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١).

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالْفَخَّارِ ، وخلق الجان من مارج من نار ، وهو : طرف لهبها . قاله الضحاك ، عن ابن عباس . وبه يقول عكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وابن زيد . وقال ابن عباس : ﴿ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴾ : من لهب النار ، من أحسنها . وقال : من خالص النار . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وغيرهم . وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . ورواه مسلم (٢).

وقوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تقدم تفسيره ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ يعنى : مشرقى الصيف والشتاء ، ومغربى الصيف والشتاء . وقال فى الآية الأخرى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ [المعارج : ٤٠] ، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها فى كل يوم ، وبروزها منه إلى الناس . وقال فى الآية الأخرى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : ٩] . وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب ، ولما كان فى اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ؟

وقوله : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ قال ابن عباس : أى أرسلهما . وقوله : ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ : قال ابن زيد : أى : منعهما أن يلتقيا ، بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما . والمراد بقوله : ﴿ الْبَحْرَيْنِ ﴾ : الملح والحلو ، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس . وقد قدمنا الكلام على ذلك فى سورة « الفرقان » عند قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٥٣] . وقد اختار ابن جرير هاهنا أن المراد بالبحرين : بحر السماء وبحر الأرض ، وهو مروى عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعطية ، وابن أبى نوى . قال

(١) المسند (٣٤٩/٦) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٢٠/٧) : « فيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح » .

(٢) المسند (١٦٨/٦) ومسلم (٢٩٩٦/٦٠) .

ابن جرير: لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء، وأصداف بحر الأرض. وهذا وإن كان هكذا ليس المراد بذلك ما ذهب إليه، فإنه لا يساعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ أى: وجعل بينهما برزخا، وهو: الحاجز من الأرض، لثلا يبغي هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله عن صفته التى هى مقصودة منه. وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخا وحجرا محجورا.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أى: من مجموعهما، فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى، كما قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. والرسول إنما كانوا فى الإنسان خاصة دون الجن، وقد صح هذا الإطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ. قاله مجاهد وقتادة. وقيل: كباره وجيده. حكاه ابن جرير عن بعض السلف. وحكاه عن السدى عن حدثه، عن ابن عباس. وروى مثله عن على، ومجاهد أيضا. وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون. عن عبد الله [ابن مسعود] قال: المرجان: الخرز الأحمر. قال السدى وهو البُسْدُ بالفارسية.

وأما قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]، فاللحم من كل من الأجاج والعذب، والحلية، إنما هى من الملح دون العذب. قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء فى البحر، ف وقعت فى صدفة إلا صار منها لؤلؤة. وكذا قال عكرمة، وزاد: فإذا لم تقع فى صدفة نبتت بها عنبرة. وروى من غير وجه عن ابن عباس نحوه. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس، قال: إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف فى البحر أفواهاها، فما وقع فيها - يعنى: من قطر - فهو اللؤلؤ. إسناده صحيح. ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ يعنى: السفن التى تجرى فى البحر، قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهى منشآت وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت، وقال قتادة: ﴿الْمُنشَآتُ﴾: يعنى المخلوقات. وقال غيره: المنشآت - بكسر الشين - يعنى: البادئات. ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ أى: كالجبال فى كبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه من صلاح للناس فى جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع؛ ولهذا قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿يَسْأَلُهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات،

إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب - تعالى وتقدس - لا يموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبدا. قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله فان. وفي الدعاء المأثور: يا حي، يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلا أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك (١). وقال الشعبي: إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكقوله إخبارا عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]. قال ابن عباس: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ذو العظمة والكبرياء.

ولما أخبر عن تساوى أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. وقوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه في جميع الآئات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن. وقال مجاهد قال: كل يوم هو يجيب داعيا، ويكشف كربا، ويجيب مضطرا، ويغفر ذنبا. وقال قتادة: لا يستغنى عنه أهل السموات والأرض، يحيى حيا، ويميت ميتا، ويربى صغيرا، ويفك أسيرا، وهو منتهى حاجات الصالحين وصرىخهم، ومنتهى شكواهم. وعن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾» قال: «من شأنه أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين» (٢). قلت: وقد روى موقوفا، كما علقه البخارى بصيغة الجزم، فجعله من كلام أبي الدرداء (٣)، فالله أعلم.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْابٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٢٦﴾

قال ابن عباس في قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ قال: وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل وهو فارغ. وكذا قال الضحاك: هذا وعيد. وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه. وقال

(١) الترمذى (٣٥٢٤) وحسنه الألبانى .

(٢) ابن ماجه (٢٠٢) وفي زوائد البوصيرى: «هذا إسناد حسن»، وحسنه الألبانى .

(٣) البخارى (٦٢٠/٨ فتح) .

وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم. وقد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم» (١). قال الجوهري: الطش: المطر الضعيف. وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَرَدَّةٌ كَالْدِهَانِ﴾ قال: هو الأديم الأحمر. وقال أبو كدينة عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالْدِهَانِ﴾: كالفرس الورد. وقال العوفي، عن ابن عباس: تغير لونها. وقال أبو صالح: كالبرذون الورد، ثم كانت بعد كالدهان. وقال الحسن البصري: تكون ألوانا. وقال السدي: تكون كلون البغلة الوردية، وتكون كالمهل كدردي الزيت. وقال مجاهد: ﴿كَالدِهَانِ﴾: كألوان الدهان. وقال عطاء الخراساني: كلون دهن الورد في الصفرة. وقال قتادة: هي اليوم خضراء، ويومئذ لونها إلى الحمرة، يوم ذى ألوان.

وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾، وهذه كقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، فهذا في حال، وثم حال يسأل الخلائق فيها عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]؛ ولهذه قال قتادة: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾، قال: قد كانت مسألة، ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. قال ابن عباس: لا يسألهم: هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟ فهو قول ثان. وقال مجاهد في هذه الآية: لا يسأل الملائكة عن المجرم، يُعرفون بسيماهم. وهذا قول ثالث. وكأن هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار، فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يقادون إليها ويلقون فيها، كما قال تعالى: ﴿يُعرفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بعلامات تظهر عليهم. وقال الحسن وقاتادة: يعرفونهم بأسوداد الوجوه وزرقة العيون. قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء.

وقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أي: تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه، ويلقونه في النار كذلك. وقال ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدميه، فيكسر كما يكسر الخطب في التنور. وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره وقال السدي: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه، فتربط ناصيته بقدمه، ويفتل ظهره. وقوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ها هي حاضرة تشهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقرعاً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً. وقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً﴾ أي: تارة يعذبون في الحميم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب، يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقوله: ﴿آناً﴾ أي: حار، وقد بلغ الغاية في الحرارة، لا يستطيع من شدة ذلك. قال ابن

(١) المسند (٢٦٧/٣) وقال الهيثمي في الزوائد (٣٣٧/١٠، ٣٣٨): «فيه عبد الرحمن بن أبي الصهباء ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً، وبقيّة رجاله ثقات».

عباس فى قوله: ﴿حَمِيمٌ أَنْ﴾ : قد انتهى عليه، واشتد حره. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، والحسن، والثورى، والسدى. وقال قتادة: قد أنى طبخه منذ خلق الله السموات والأرض. وقال محمد بن كعب القرظى: يؤخذ العبد فيحركُ بناصيته فى ذلك الحميم، حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان فى الرأس. وهى كالتى يقول الله تعالى: ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾. والحميم الآن: يعنى الحار. وعن القرظى رواية أخرى: ﴿حَمِيمٌ أَنْ﴾ أى: حاضر. وهو قول ابن زيد أيضا، والحاضر، لا ينافى ما روى عن القرظى أولا أنه الحار، كقوله تعالى: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، أى حارة شديدة الحر لا تستطاع. وكقوله: ﴿غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَّاهُ﴾ [الاحزاب: ٥٣] يعنى: استواءه ونضجه. فقوله: ﴿حَمِيمٌ أَنْ﴾ أى: حميم حار جدا. ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يزرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصى وغير ذلك، قال ممتنا بذلك على بريته: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ؟

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥٣﴾

قال ابن شوذب، وعطاء الخراسانى: نزلت هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ فى أبى بكر الصديق. والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول تعالى: ولمن خاف مقامه بين يدى الله، عز وجل، يوم القيامة ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠]، ولم يطغ ولا أثر الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله، واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما روى البخارى عن عبد الله بن قيس، أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداءُ الكبرياء على وجهه فى جنة عدن». وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود (١). وهذه الآية عامة فى الإنس والجن، فهى من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا؛ ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أى: أغصان نضرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. هكذا قال عطاء الخراسانى وجماعة: إن الأفنان أغصان الشجر، يمس بعضها بعضا. وحكى البغوى عن مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والكلبى: أنه الغصن المستقيم. وعن ابن عباس: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ : ذواتا ألوان. وقد روى عن سعيد بن جبير، والحسن مثل ذلك. ومعنى هذا القول أن فيهما فنونا من الملاذ، واختاره ابن جرير. وقال عطاء: كل غصن يجمع فنونا من الفاكهة. وقال الربيع بن أنس:

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ : واسعتا الفناء. وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا منافاة بينها، والله أعلم. وقال قتادة: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ينبت بسعتها وفضلها ومزيتها على ما سواها. ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أى : تسرحان لسي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان ، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال الحسن البصرى : إحداهما يقال لها: «تسليم»، والأخرى «السلسيل». وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين.

ولهذا قال بعد هذا: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أى : من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ عن ابن عباس: ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظلة. وقال ابن عباس: ليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء، يعنى: أن بين ذلك بونا عظيما، وفرقا بينا فى التفاضل.

﴿مُتَكِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥ ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ۝٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ۝٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١ ﴿

يقول تعالى: ﴿مُتَكِّينَ﴾ يعنى: أهل الجنة. والمراد بالاتكاء هاهنا: الاضطجاع. ويقال: الجلوس على صفة التربع ﴿عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: ما غلظ من الديباج. قاله عكرمة، والضحاك، وقاتدة. وقال أبو عمران الجونى: هو الديباج المزين بالذهب. فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة. وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى. وعن عبد الله بن مسعود قال: هذه البطائن فكيف لو رأيت الظواهر؟ وقال مالك بن دينار: بطائنهما من إستبرق، وظواهرهما من نور. وقال ابن شوذب، عن أبى عبد الله الشامى: ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر، وعلى الظواهر المحابس، ولا يعلم ما تحت المحابس إلا الله. ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أى : ثمرها قريب إليهم، متى شاؤوا تناولوه، على أى صفة كانوا، كما قال: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]، وقال: ﴿وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤] أى: لا تمنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: ﴿فِيهِنَّ﴾ أى: فى الفرش ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى غضيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئا أحسن فى الجنة من أزواجهن. قاله ابن عباس، وقاتدة، وعطاء الخراسانى، وابن زيد. وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعله: والله ما أرى فى الجنة شيئا أحسن منك، ولا فى الجنة شيء أحب إلى منك، فالحمد لله الذى جعل لك لى وجعلنى لك. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ أى: بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد

قبل أزواجهن من الإنس والجن . وهذه أيضا من الأدلة على دخول مؤمنى الجن الجنة . قال أرطاة ابن المنذر : سئل ضمرة بن حبيب : هل يدخل الجن الجنة ؟ قال : نعم ، وينكحون ، للجن جنيات ، وللإنس إنسيات . وذلك قوله : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴾ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

ثم قال ينعتن للخطاب : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ قال مجاهد ، والحسن ، وابن زيد ، وغيرهم : فى صفاء الياقوت وبياض المرجان ، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، قال : « للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين ، على كل واحدة سبعون حلة ، يرى مخ ساقها من وراء الثياب » . تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه . وقد رواه مسلم عن محمد بن سيرين ، قال : إما تفاخروا وإما تذاكروا ، الرجال أكثر فى الجنة أم النساء ؟ فقال أبو هريرة : أو لم يقل أبو القاسم ﷺ : « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذى تليها على أضوء كوكب درى فى السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان ، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم ، وما فى الجنة أعزب » . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين (١) . وروى الإمام أحمد عن أنس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لَغَدْوَةٌ فى سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ، وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدَكُمْ - أو موضع رقدته - يعنى : سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لمأت ما بينهما ريحا ، ولطاب ما بينهما ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها » . ورواه البخارى بنحوه (٢) .

وقوله : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ أى : ما لمن أحسن فى الدنيا العمل إلا الإحسان إليه فى الدار الآخرة . كما قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] .

ولما كان فى الذى ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل ، بل مجرد تفضل وامتنان ، قال بعد ذلك كله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ (١٢) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٣) ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ (١٤)
 ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٥) ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴾ (١٦) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٧)
 ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ (١٨) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٩) ﴿ فِيهِنَّ خَيْرٌ مِّنْ حِسَانٍ ﴾ (٢٠)
 ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢١) ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ (٢٢) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢٣)
 ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴾ (٢٤) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢٥)
 ﴿ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ (٢٦) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢٧) ﴿ تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٢٨)

(١) المسند (٨٥٢٣) والبخارى (٣٢٤٥) ومسلم (١٤ / ٢٨٣٤) .

(٢) المسند (١٤١ / ٣) والبخارى (٢٧٩٦) .

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. وقد تقدم فى الحديث: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما» (١) فالأوليان للمقربين، والآخران لأصحاب اليمين. وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين. وقال ابن عباس: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾: من دونهما فى الدرج. وقال ابن زيد: من دونهما فى الفضل. والدليل على شرف الأولين على الآخرين وجوه: أحدها: أنه نعت الأولين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. وهذا ظاهر فى شرف التقدم وعلوه على الثانى.

وقال هناك: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾: وهى الأغصان أو الفنون فى الملاذ، وقال هاهنا: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أى: سوداوان من شدة الرى من الماء. قال ابن عباس فى قوله: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: قد اسودتا من الخضرة، من شدة الرى من الماء. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: قال: خضراوان. وروى عن أبى أيوب الأنصارى، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن أبى أوفى، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والحسن البصرى نحو ذلك. وقال محمد بن كعب: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: ممتلئتان من الخضرة. وقال قتادة: خضراوان من الرى ناعمتان. ولا شك فى نضارة الأغصان على الأشجار المشبكة بعضها فى بعض.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وقال هاهنا: ﴿نَضَّاحَتَانِ﴾ قال ابن عباس: أى فياضتان. والجرى أقوى من النضج. وقال الضحاك: ﴿نَضَّاحَتَانِ﴾ أى: ممتلئتان لا تنقطعان.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، وقال هاهنا: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر فى الأفراد والتنوع على فاكهة، وهى نكرة فى سياق الإثبات لا تعم؛ ولهذا فسر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخارى وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما. ثم قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة فى الجنة، قاله قتادة. وقيل: خيرات جمع خيرة، وهى المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه، قاله الجمهور. وفى الحديث: أن الحور العين يغنين: نحن الخيرات الحسان، خلقنا لأزواج كرام. ولهذا قرأ بعضهم: «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ»، بالتشديد ﴿حَسَنَاتٌ﴾. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، وهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾، ولا شك أن التى قد قُصِرَتْ طرفها بنفسها أفضل ممن قُصِرَتْ، وإن كان الجميع مخدرات.

وقوله: ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ روى البخارى عن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا، فى كل زاوية منها أهلٌ ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون» (٢). وأخرجه مسلم به، ولفظه: «إن للمؤمن فى

(١) مضى تخريجه عند الآية (٤٦) من السورة.

(٢) البخارى (٤٨٧٩).

الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلا، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضا « (١).

وقوله : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ : تقدم مثله سواء، إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله : ﴿كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ . وقوله : ﴿مُتَكِّينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ حَسَانٍ﴾ قال ابن عباس : الرفرف : المحابس . وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهما : هي المحابس . وقال العلاء بن زيد : الرفرف على السرير، كهيئة المحابس المتدلى . وقال عاصم الجحدري : ﴿مُتَكِّينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ يعنى : الوسائد . وهو قول الحسن البصرى فى رواية عنه . وقال سعيد بن جبير : الرفرف : رياض الجنة .

وقوله : ﴿وَعَبْقَرِيَّ حَسَانٍ﴾ قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدى : العبقرى : الزرابى . وقال سعيد بن جبير : هي عتاق الزرابى ، يعنى : جيادها . وقال مجاهد : العبقرى : الديباج . وسئل الحسن البصرى عن قوله : ﴿وَعَبْقَرِيَّ حَسَانٍ﴾ فقال : هي بسط أهل الجنة - لا أبالكم - فاطلبوها . وعن الحسن رواية : أنها المرافق . وقال زيد بن أسلم : العبقرى : أحمر وأصفر وأخضر . وسئل العلاء بن زيد عن العبقرى ، فقال : البسط أسفل من ذلك . وقال أبو العالية : العبقرى : الطنافس المخملة ، إلى الرقة ما هي . وقال أبو عبيدة : هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشى . وقال الخليل بن أحمد : كل شيء نفيس من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقرى . ومنه قول النبى ﷺ فى عمر : « فلم أر عبقرىا يفري فريه » (٢) . وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنة الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة ؛ فإنه قد قال هناك : ﴿مُتَكِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ ، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظواهرها ، اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأخرى . وتام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة : ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات ، كما فى حديث جبريل لما سأل عن الإسلام ، ثم الإيمان . فهذه وجوه عديدة فى تفضيل الجنة الأولين على هاتين الأخريين ، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأولين .

ثم قال : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أى : هو أهل أن يجل فلا يعصي ، وأن يكرم فيعبد ، ويشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى . وقال ابن عباس : ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ : ذى العظمة والكبرياء . وروى الإمام أحمد عن ربيعة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أَلْظُوا بِذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » . ورواه النسائى (٣) . قال الجوهرى : أَلْظَ فلان بفلان : إذا لزمه . وقال ابن مسعود : « أَلْظُوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » أى : الزموا . ويقال : الإلظاظ هو الإلحاح . قلت : وكلاهما قريب من الآخر - والله أعلم - وهو المداومة

(٢) البخارى (٣٦٨٢) ومسلم (١٩/٢٣٩٣) .

(١) مسلم (٢٣/٢٨٣٨) .

(٣) المسند (١٧٧/٤) والنسائى فى الكبرى (١١٥٦٣) ، وصححه الحاكم فى المستدرک (٤٩٨/١) وأقره الذهبى .

واللزوم والإلحاح . وفى صحيح مسلم والسنن الأربعة عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد - يعنى : بعد الصلاة - إلا قدر ما يقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت ذا الجلال والإكرام » (١) .

(١) مسلم (١٣٦/٥٩٢) وأبو داود (١٥١٢) والترمذى (٢٩٨) والنسائى (١٣٣٨) وابن ماجه (٩٢٤) .

تفسير سورة الواقعة

وهي مكية

قال ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شئت؟ قال: «شيتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت». رواه الترمذى وقال: حسن غريب (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ (١) ﴿ لَيْسَ لَوْفَعِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ (٢) ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ (٣) ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ (٤) ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴾ (٥) ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُبْنًيًا ﴾ (٦) ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ (٧) ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ (٨) ﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ (٩) ﴿ وَالسَّيِّقُونَ السَّيِّقُونَ ﴾ (١٠) ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (١١) ﴿ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴾ (١٢)

الواقعة: من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٥]. وقوله: ﴿لَيْسَ لَوْفَعِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أى: ليس لوقوعها - إذا أراد الله كونها - صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، كما قال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧]، وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣]. ومعنى ﴿كَاذِبَةٌ﴾ - كما قال محمد بن كعب -: لا بد أن تكون. وقال قتادة: ليس فيها مثوية ولا ارتداد ولا رجعة.

وقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أى: تخفض أقواما إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا فى الدنيا أعزاء، وترفع آخرين إلى أعلى عليين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا فى الدنيا وضعاء. هكذا قال الحسن، وقتادة وغيرهما. وعن ابن عباس: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾: تخفض أناسا وترفع آخرين. وقال محمد بن كعب: تخفض رجالا كانوا فى الدنيا مرتفعين، وترفع رجالا كانوا فى الدنيا مخفوضين. وقال السدّى: خفضت المتكبرين، ورفعت المتواضعين. وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾: أسمعت القريب والبعيد. وقال عكرمة: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى. وكذا قال الضحاك، وقتادة.

وقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أى: حركت تحريكا فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد فى قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾: أى:

(١) الترمذى (٣٢٩٧) وصححه الألبانى.

زلزلت زلزالا . وقال الربيع بن أنس : ترج بما فيها كرج الغربال بما فيه . وهذه كقوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : ١] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : ١] . وقوله : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أى : فُتَّتْ فُتًّا . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وغيرهم . وقال ابن زيد : صارت الجبال كما قال تعالى : ﴿ كَثِيًّا مَهِيلاً ﴾ [المزمل : ١٤] .

وقوله : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ قال على رضى الله عنه : كرهج الغبار يسطع ثم يذهب ، فلا يبقى منه شيء . وقال ابن عباس : الهباء الذى يطير من النار ، إذا اضطربت يطير منه الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئا . وقال عكرمة : المنبث : الذى ذرته الريح وبشته . وقال قتادة : ﴿ هَبَاءٌ مُنْبَثًّا ﴾ : كيبس الشجر الذى تذروه الرياح . وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة ، وذهابها وتسييرها ونسفها - أى قلعها - وصيرورتها كالهعن المنفوش .

وقوله : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ أى : ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف : قوم عن يمين العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن ، ويؤتون كتبهم بأيمانهم ، ويؤخذ بهم ذات اليمين . قال السدّي : وهم جمهور أهل الجنة . وآخرون عن يسار العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ، ويؤتون كتبهم بشمائلهم ، ويؤخذ بهم ذات الشمال ، وهم عامة أهل النار - عيادا بالله من صنيعهم - وطائفة سابقون بين يديه عز وجل ، وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم ، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء ، وهم أقل عددا من أصحاب اليمين ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة فى آخر السورة وقت احتضارهم ، وهكذا ذكرهم فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ﴾ الآية [فاطر : ٣٢] ، وذلك على أحد القولين فى الظالم لنفسه كما تقدم بيانه . قال سفيان الثورى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ قال : هى التى فى سورة الملائكة : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ . وقال ابن جريج ، عن ابن عباس : هذه الأزواج الثلاثة هم المذكورون فى آخر السورة وفى سورة الملائكة . وقال مجاهد : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ يعنى : فرقا ثلاثة . وقال ميمون بن مهران : أفواجا ثلاثة . وقال عثمان بن سراقه : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ : اثنان فى الجنة ، وواحد فى النار . روى أحمد عن عائشة ، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « أتدرون من السابقون إلى ظل يوم القيامة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « الذين إذا أعطوا الحق ، قبلوه ، وإذا سئلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم » (١) . وقال محمد بن كعب وأبو حرزة يعقوب بن مجاهد : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ : هم الأنبياء ، عليهم السلام . وقال السدّي : هم أهل عليين . وقال ابن أبى نجیح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ قال : يوشع بن نون ، سبق إلى موسى ، ومؤمن آل «يس» ، سبق إلى عيسى ، وعلى

ابن أبى طالب، سبق إلى محمد رسول الله ﷺ. وقال ابن سيرين: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾: الذين صلوا للقبلتين. وقال الحسن وقتادة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أى: من كل أمة.

وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢٢]، فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان فى الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٣ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ ١٤ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ ١٥ ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ ١٦ ﴿عَلَيْهَا مُتَّقَبِّلِينَ﴾ ١٧ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مَُّخْلَّدُونَ﴾ ١٨ ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ ١٩ ﴿لَّا يَصَدَّغُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ ٢٠ ﴿وَفَكَهْمٌ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ ٢١ ﴿وَلَحِيرٌ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ٢٢ ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ٢٣ ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكْنُونِ﴾ ٢٤ ﴿جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٢٥ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ ٢٦ ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ ٢٧

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ أى: جماعة ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾. وقد اختلفوا فى المراد بقوله: ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ و﴿الْآخِرِينَ﴾. فقيل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، والآخرين: هذه الأمة. هذا رواية عن مجاهد، والحسن البصرى، وهو اختيار ابن جرير. وهذا الذى اختاره ابن جرير هاهنا، فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هى خير الأمم بنص القرآن، فبعد أن يكون المقربون فى غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة. والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم. فالقول الثانى فى هذا المقام، هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: من صدر هذه الأمة، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أى: من هذه الأمة.

قال عبد الله بن بكر المزنى سمعت الحسن أتى على هذه الآية: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فقال: أما السابقون، فقد مضوا، ولكن اللهم اجعلنا من أهل اليمين. ثم قرأ الحسن ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ قال: ممن مضى من هذه الأمة. وعن محمد بن سيرين، أنه قال فى هذه الآية: ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ قال: كانوا يقولون، أو يرجون، أن يكونوا كلهم من هذه الأمة. فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة. ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم كل أمة بحسبها؛ ولهذا ثبت فى الصحاح وغيرها، من غير وجه، أن رسول الله ﷺ قال: «خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» (١) الحديث بتمامه.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا زياد أبو عمر، عن الحسن، عن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ: « مثل أمتى مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره » (١)، فهذا الحديث، بعد الحكم بصحة إسناده، محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة فى إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين به فى أواخرها، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها، والفضل للمتقدم. وكذلك الزرع الذى يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثانى، ولكن العمدة الكبرى على الأول، واحتياج الزرع إليه أكد، فإنه لولاه ما نبت فى الأرض، ولا تعلق أساسه فيها؛ ولهذا قال عليه السلام: « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، إلى قيام الساعة ». وفى لفظ: « حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » (٢). والغرض: أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة؛ لشرف دينها، وعظم نبيها. ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن فى هذه الأمة سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب. وفى لفظ: « مع كل ألف سبعون ألفا ». وفى آخر: « مع كل واحد سبعون ألفا » (٣).

وقوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ قال ابن عباس: أى مرمولة بالذهب، يعنى: منسوجة به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وغيرهم. وقال السدى: مرمولة بالذهب واللؤلؤ. وقال عكرمة: مشبكة بالدر والياقوت. وقال ابن جرير: ومنه سمى وضين الناقة الذى تحت بطنها؛ لأنه مصفور، وكذلك السرر فى الجنة مصفورة بالذهب واللآلئ. وقال: ﴿مُتَكِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ أى: وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد. ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أى: مخلدون على صفة واحدة، لا يكبرون عنها ولا يشيرون ولا يتغيرون، ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ﴾، أما الأكواب، فهى: الكيزان التى لا خراطيم لها ولا آذان. والأباريق: التى جمعت الوصفين. والكؤوس: الهنابات، والجميع من خمر من عين جارية معين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ، بل من عيون سارحة.

وقوله: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ أى: لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هى ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة. وروى الضحاك، عن ابن عباس أنه قال: فى الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقىء والبول. فذكر الله خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال. وقال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وعطية، وقتادة، والسدى: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ يقول: ليس لهم فيها صداع رأس. وقالوا فى قوله: ﴿وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ أى: لا تذهب بعقولهم. وقوله: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى: ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار. وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيير لها. روى الإمام أحمد وأبو يعلى عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه، فإذا أثنى

(١) المسند (٣٢٩/٤)، والترمذى (٢٨٦٩) وقال: « حسن غريب ».

(٢) البخارى (٣٦٤١). (٣) البخارى (٦٤٧٢).

عليه معروف، كان أعجب لرؤياه إليه. فأتته امرأة فقالت: يا رسول الله، رأيت كأنى أتيت فأخرجت من المدينة، فأدخلت الجنة فسمعت وجبة انتحبت لها الجنة، فنظرت فإذا فلان ابن فلان، وفلان ابن فلان، فسمت اثني عشر رجلا، كان النبي ﷺ قد بعث سرية قبل ذلك، فجىء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم، فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر البیدخ - أو: البیدخ - قال: فغمسوا فيه، فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فأتوا بصحفة من ذهب فيها بسر فأكلوا من بسره ما شاؤوا، فما يقبلونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم. فجاء البشير من تلك السرية، فقال: كان من أمرنا كذا وكذا، وأصيب فلان وفلان. حتى عد اثني عشر رجلا، فدعا رسول الله ﷺ المرأة فقال: «قصي رؤياك». فقصتها، وجعلت تقول: فجىء بفلان وفلان كما قال. هذا لفظ أبي يعلى، قال الحافظ الضياء: وهذا على شرط مسلم (١).

وقوله: ﴿وَلَحْمَ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ روى الإمام أحمد عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن طير الجنة كأمثال البخت، ترعى في شجر الجنة». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطيور ناعمة، فقال: «أكلتها أنعم منها - قالها ثلاثا - وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها». تفرد به أحمد من هذا الوجه (٢). وعن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال: «نهر أعطانيه ربي، عز وجل، في الجنة، أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها يعنى كأعناق الجزر». فقال عمر: إنها لناعمة. قال رسول الله ﷺ: «أكلها أنعم منها». رواه الترمذى وقال: حسن (٣).

وقوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قرأ بعضهم بالرفع، وتقديره: ولهم فيها حور عین. وقراءة الجر تحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون الإعراب على الاتباع بما قبله؛ لقوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ. بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ. لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ. وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ. وَحُورٌ عِينٌ﴾، كما قال: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وكما قال: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١]. والاحتمال الثانى: أن يكون مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم الحور العین، ولكن يكون ذلك فى القصور، لا بين بعضهم بعضا، بل فى الخيام يطوف عليهم الخدام بالحور العین، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أى: كأنهن اللؤلؤ الرطب فى بياضه وشفائه؛ ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: هذا الذى أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل. ثم قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ أى: لا يسمعون فى الجنة كلاما لاغيا،

(١) المسند (٣/١٣٥) وأبو يعلى فى مسنده (٤٤/٦) (٣٢٨٩). وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/١٧٥): «رجاله رجال الصحيح».

(٢) المسند (٣/٢٢١) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/٤١٧): «رجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم وهو ثقة».

(٣) الترمذى (٢٥٤٢).

أى : غثا خاليا عن المعنى ، أو مشتتلا على معنى حقير أو ضعيف ، كما قال : ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ [الغاشية : ١١] أى : كلمة لاغية ﴿ وَلَا تَأْتِيَمًا ﴾ أى : ولا كلاماً فيه قبح ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ أى : إلا التسليم منهم بعضهم على بعض ، كما قال : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٣] وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والإثم .

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ (١٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿١٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿١٩﴾
وَزِلْزَلٍ مَّتْدُودٍ ﴿٢٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٢١﴾ وَفُكٍّ كَثِيرٍ ﴿٢٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ
﴿٢٣﴾ وَفُرَشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٢٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً ﴿٢٥﴾ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٢٦﴾ عُرْبًا أَرْبَابًا
﴿٢٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٣٠﴾

لما ذكر تعالى مآل السابقين - وهم المقربون - عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين - وهم الأبرار - كما قال ميمون بن مهران : أصحاب اليمين منزلة دون المقربين ، فقال : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ أى : أى شىء أصحاب اليمين ؟ وما حالهم ؟ وكيف مآلهم ؟ ثم فسر ذلك فقال : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وغيرهم : هو الذى لا شوك فيه . وعن ابن عباس : هو الموقر بالثمر . وهو رواية عن عكرمة ، ومجاهد . وكذا قال قتادة أيضاً : كنا نحدث أنه الموقر الذى لا شوك فيه . والظاهر أن المراد هذا وهذا ؛ فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر ، وفى الآخرة على عكس من هذا ، لا شوك فيه ، وفيه الثمر الكثير الذى قد أثقل أصله . عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم ؛ قال : أقبل أعرابى يوماً فقال : يا رسول الله ، ذكر الله فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وما هى ؟ » . قال : السدر ، فإن له شوكاً موزياً ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله يقول : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ ، خَضَدَ اللَّهُ شَوْكَهُ ، فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها لتنبت ثمراً تَفَقَّقَ الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من طعام ، ما فيها لون يشبه الآخر » (١) .

وعن عتبة بن عبد السلمي قال : كنت جالسا مع رسول الله ﷺ ، فجاء أعرابى فقال : يا رسول الله ، أسمعك تذكر فى الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكاً منها ؟ يعنى : الطلح ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خُصْوَةِ التيس الملبود ، فيها سبعون لونا من الطعام ، لا يشبه لون آخر » (٢) .

وقوله : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴾ الطلح : شجر عظام يكون بأرض الحجاز ، من شجر العضاه ، واحدته طلحة ، وهو شجر كثير الشوك ، قال مجاهد : ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ أى : متراكم الثمر ، يذكر

(١) رواه الحاكم فى المستدرک (٢/٤٧٦) عن سليم بن عامر عن أبى أمامة ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٢) الطبرانى الكبير (١٧/١٣٠) (٣١٨) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/٤٤٧) : « رجاله رجال الصحيح » .

بذلك قريشاً؛ لأنهم كانوا يعجبون من وجّ، وظلاله من طلح وسدر . وقال السدى : ﴿مَنْضُودٍ﴾ : مصفوف . قال ابن عباس : يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل . قال الجوهري : والطلح لغة فى الطلع . وعن أبى سعيد : ﴿وَطَلَحَ مَنْضُودٍ﴾ قال : الموز . قال : وروى عن ابن عباس ، وأبى هريرة ، والحسن ، وعكرمة ، وقسامة بن زهير ، وقتادة ، وأبى حزرّة ، مثل ذلك ، وبه قال مجاهد ، وابن زيد - وزاد فقال : أهل اليمن يسمون الموز الطلح . ولم يحك ابن جرير غير هذا القول .

وقوله : ﴿وَضِلٌّ مَّمْدُودٍ﴾ روى البخارى عن أبى هريرة - يبلغ به النبى ﷺ - قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿وَضِلٌّ مَّمْدُودٍ﴾ » . ورواه مسلم^(١) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿وَضِلٌّ مَّمْدُودٍ﴾ » . وكذا رواه البخارى ، وعبد الرزاق والترمذى^(٢) . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أنس ، عن النبى ﷺ فى قول الله عز وجل : ﴿وَضِلٌّ مَّمْدُودٍ﴾ ، قال : « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » . وكذا رواه البخارى^(٣) . وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد وسهل بن سعد ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها »^(٤) . فهذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ ، بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد ، لتعدد طرقه ، وقوة أسانيده ، وثقة رجاله . فقد أبطل من يكذب بهذا الحديث ، مع ثبوته وصحته ورفعته إلى رسول الله ﷺ . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فى الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب » . ثم قال : حسن غريب^(٥) . وقال الضحاك ، والسدى فى قوله : ﴿وَضِلٌّ مَّمْدُودٍ﴾ : لا ينقطع ، ليس فيها شمس ولا حر ، مثل قبل طلوع الفجر . وقال ابن مسعود : الجنة سَجَسَج ، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وقد تقدمت الآيات كقوله : ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧] ، وقوله : ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] ، وقوله : ﴿فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : ﴿وَمَاءٌ مَّسْكُوبٍ﴾ قال الثورى : يجرى فى غير أخدود . وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى : ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ الآية [محمد: ١٥] ، بما أغنى عن إعادته هاهنا .

(١) البخارى (٤٨٨١) ومسلم (٦/٢٨٢٦) .

(٢) المسند (١٠٢٠٨) والبخارى (٣٢٥٢) والترمذى (٣٢٩٢) وعبد الرزاق فى مصنفه (٢٠٨٧٧) .

(٣) أبو يعلى فى مسنده (٢٣٧/٢٩٩٢) والبخارى (٣٢٥١) ، وفى مسند أبى يعلى : « كان فى كتاب أبى يعلى ألف عام » .

(٤) البخارى (٦٥٥٢ ، ٦٥٥٣) ومسلم (٢٨٢٧ ، ٨/٢٨٢٨) .

(٥) الترمذى (٢٥٢٥) وصححه الألبانى .

وقوله : ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أى : وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة فى الألوان ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] أى : يشبه الشكل الشكل ، ولكن الطعم غير الطعم . وفى الصحيحين فى ذكر سدره المنتهى قال : « فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر » (١) . وفيهما أيضاً عن ابن عباس قال : خُسِفَت الشمس ، فصلى رسول الله ﷺ والناس معه ، فذكر الصلاة . وفيه : قالوا : يا رسول الله ، رأيناك تناولت شيئاً فى مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكت . قال : « إني رأيت الجنة ، فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » (٢) . وروى الحافظ أبو يعلى عن جابر قال : بينا نحن فى صلاة الظهر ، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا معه ، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر ، فلما قضى الصلاة قال له أبى بن كعب : يا رسول الله ، صنعت اليوم فى الصلاة شيئاً ما كنت تصنعه ؟ قال : « إنه عُرِضَتْ عَلَى الجنة ، وما فيها من الزهرة والنضرة ، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم به ، فحِيلَ بينى وبينه ، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه » . وروى مسلم نحوه (٣) . وروى الإمام أحمد عن عامر بن زيد البكالى : أنه سمع عتبة بن عبد السلمي يقول : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عن الحوض وذكر الجنة ، ثم قال الأعرابى : فيها فاكهة ؟ قال : « نعم ، وفيها شجرة تدعى طوبى » ، فذكر شيئاً لا أدري ما هو ، قال : أى شجر أرضنا تشبه ؟ قال : « ليست تشبه شيئاً من شجر أرضك » . فقال النبى ﷺ : « أتيت الشام ؟ » قال : لا . قال : « تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة ، تنبت على ساق واحد ، وينفرش أعلاها » . قال : ما عظم أصلها ؟ قال : « لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرمأ » . قال : فيها عنب ؟ قال : « نعم » . قال : فما عظم العنقود ؟ قال : « مسيرة شهر للغراب الأبقع ، ولا يفتر » . قال : فما عظم الحبة ؟ قال : « هل ذبح أبوك تيساً من غنمه قط عظيماً ؟ » قال : نعم . قال : « فسلخ إهابه فأعطاه أمك ، فقال : اتخذي لنا منه دلوأ ؟ » . قال : نعم . قال الأعرابى : فإن تلك الحبة لتشبعنى وأهل بيتى ؟ قال : « نعم وعامة عشيرتك » (٤) .

وقوله : ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أى : لا تنقطع شتاء ولا صيفاً ، بل أكلها دائم مستمر أبداً ، مهما طلبوا وجدوا ، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شىء . وقال قتادة : لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بعد . وقوله : ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ أى : عالية وطيفة ناعمة . وقوله : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . غُرُبًا أَتْرَابًا . لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ : جرى الضمير على غير مذكور .

(١) البخارى (٣٢٠٧) ومسلم (٢٥٩/١٦٢) . (٢) البخارى (١٠٥٢) ومسلم (١٧/٩٠٧) .

(٣) انظر : مسلم (٩٠٧) .

(٤) المسند (١٨٣/٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (٤١٦/١٠) : « فيه عامر بن زيد البكالى وقد ذكره ابن أبى حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه وبقيته رجاله ثقات » .

لكن لما دل السياق ، وهو ذكر الفرش ، على النساء اللاتي يضاجعن فيها ، اكتفى بذلك عن ذكرهن ، وعاد الضمير عليهن ، كما في قوله : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿ [ص: ٣١ ، ٣٢] يعنى : الشمس ، على المشهور من قول المفسرين . قال الأخفش فى قوله : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ : أضمرهن ولم يذكرهن قبل ذلك . وقال أبو عبيدة : ذكرن فى قوله : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿ [الواقعة: ٢٢ ، ٢٣] .

فقوله : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ ﴾ أى : أعدناهن فى النشأة الآخرة بعدما كنّ عجائز رُمَصاً ، صرن أبكاراً عرباً ، أى : بعد الثبوبة عدن أبكاراً عرباً ، أى : متحبيات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة . وقال بعضهم : ﴿ عَرَبًا ﴾ أى : غَنَجَات . وفى حديث الصور الطويل المشهور : أن رسول الله ﷺ يشفع للمؤمنين كلهم فى دخول الجنة فيقول الله : قد شفتك وأذنت لهم فى دخولها . فكان رسول الله ﷺ يقول : « والذى بعثنى بالحق ، ما أنتم فى الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم ، فيدخل الرجل منهم على ثنتين وسبعين زوجة ، سبعين مما ينشئ الله ، وثلثين من ولد آدم ، لهما فضل على من أنشأ الله ، بعبادتهما الله فى الدنيا ، يدخل على الأولى منهما فى غرفة من ياقوتة ، على سرير من ذهب مَكَلَّلٌ باللؤلؤ ، عليه سبعون زوجاً من سُنْدُسٍ وإِسْتَبْرَقٍ وإنه ليضع يده بين كتفها ، ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك فى قصبة الياقوت ، كبده لها مرآة - يعنى : وكبدها له مرآة - فبينما هو عندها لا يملها ولا تملهُ ، ولا يأتيتها من مرة إلا وجدها عذراء ، ما يفتر ذكره ولا تشتكى قبلها إلا أنه لا منى ولا منية ، فبينما هو كذلك إذ نودى : إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل ، إلا أن لك أزواجاً غيرها ، فيخرج ، فيأتيهن واحدة واحدة ، كلما جاء واحدة قالت : والله ما فى الجنة شيء أحسن منك ، وما فى الجنة شيء أحب إلى منك » (١) .

وروى أبو داود الطيالسى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا فى النساء » . قلت : يا رسول الله ، ويُطِيق ذلك ؟ قال : « يعطى قوة مائة » . ورواه الترمذى وقال : صحيح غريب (٢) . وروى أبو القاسم الطبرانى عن أبى هريرة قال : قيل : يا رسول الله ، هل نصل إلى نساتنا فى الجنة ؟ قال : « إن الرجل ليصل فى اليوم إلى مائة عذراء » (٣) . قال الحافظ أبو عبد الله المقدسى : هذا الحديث عندى على شرط الصحيح ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ عَرَبًا ﴾ قال سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس : يعنى متحبيات إلى أزواجهن ،

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام ، وتخرجه هناك .

(٢) أبو داود فى مسنده (٢٠١٢) والترمذى (٢٥٣٦) .

(٣) الروض الدانى (٦٨/٢) (٧٩٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (٤٢٠/١٠) : « ورجال هذه الرواية رجال الصحيح غير

محمد بن ثواب وهو ثقة » .

ألم تر إلى الناقة الضبيعة ، هي كذلك . وقال الضحاك ، عن ابن عباس : العُربُ : العواشق لأزواجهن ، وأزواجهن لهن عاشقون . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وغيرهم . وعن عكرمة قال : سئل ابن عباس عن قوله : ﴿ عُرْبًا ﴾ قال : هي الملقّة لزوجها . وعن عكرمة : هي الغنجة . وقال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : العُربُ : حسنات الكلام . وقوله : ﴿ أَتْرَابًا ﴾ قال ابن عباس يعنى : فى سن واحدة ، ثلاث وثلاثين سنة . وقال مجاهد : الأتراب : المستويات . وفى رواية عنه : الأمثال . وقال عطية : الأقران . وقال السدى : ﴿ أَتْرَابًا ﴾ أى : فى الأخلاق المتواخيات بينهم ، ليس بينهم تباغض ولا تحاسد ، يعنى : لا كما كن فى الدنيا ضرائر متعاديات . وقوله : ﴿ لأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى : خلقنا لأصحاب اليمين ، أو : ادخرن لأصحاب اليمين ، أو : زوجن لأصحاب اليمين . والأظهر أنه متعلق بقوله : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرْبًا أَتْرَابًا . لأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ، فتقديره : أنشأناهن لأصحاب اليمين . وهذا توجيه ابن جرير .

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ لأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ متعلقاً بما قبله ، وهو قوله : ﴿ أَتْرَابًا . لأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى : فى أسنانهم . كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يتمخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعاً فى السماء » (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مردأً بيضاً جعاداً مكحلين ، أبناء ثلاث وثلاثين ، وهم على خلق آدم ستون ذراعاً فى عرض سبعة أذرع » (٢) . وروى الترمذى عن معاذ بن جبل ، أن رسول الله ﷺ قال : « يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مردأً مكحلين أبناء ثلاثين ، أو ثلاث وثلاثين سنة » . ثم قال : حسن غريب (٣) .

وقوله : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ أى : جماعة من الأولين ، وجماعة من الآخرين . عن عبد الله بن مسعود ، قال - وكان بعضهم يأخذ عن بعض : أكرينا ذات ليلة عند رسول الله ﷺ ثم غدونا عليه ، فقال : « عرضت على الأنبياء وأتباعها بأمرها ، فيمر على النبى ، والنبى فى العصابة ، والنبى فى الثلاثة ، والنبى ليس معه أحد - وتلا قتادة هذه الآية : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود: ٧٨] - قال : حتى مرّ على موسى بن عمران فى كبكبة من بنى إسرائيل ، قال :

(١) البخارى (٣٣٢٧) ومسلم (١٥/٢٨٣٤) .

(٢) المسند (٧٩٢٠) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » . قوله : « جعاداً » : هو بكسر الجيم وفتح العين المهملة مخففة ، جمع « جعد » وهو الذى شعره غير سبط ، وهى صفة مدح ؛ لأن جعودة الشعر هى الصفة الغالبة على شعور العرب . وسبوطه هى الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس وأمثالهم من الأعاجم .

(٣) الترمذى (٢٥٤٥) .

« قلتُ : ربى ، من هذا ؟ . قال : هذا أخوك موسى بن عمران ومن معه من بنى إسرائيل . »
 قال : « قلت : رب ، فأين أمتى ؟ قال : انظر عن يمينك فى الطراب » . قال : « فإذا وجوه
 الرجال » . قال : « قال : أرضيت ؟ » . قال : قلت : « قد رضيت ، رب » . قال : انظر
 إلى الأفق عن يسارك . فإذا وجوه الرجال . قال : أرضيت؟ قلت : « رضيت ، رب » . قال :
 فإن مع هؤلاء سبعين ألفاً ، يدخلون الجنة بغير حساب » . قال : وأنشأ عكاشة بن محصن من
 بنى أسد - قال سعيد : وكان بدرياً - قال : يا نبي الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم . قال :
 فقال : « اللهم اجعله منهم » . قال : أنشأ رجل آخر ، قال : يا نبي الله ، ادع الله أن يجعلنى
 منهم . فقال : « سبقك بها عكاشة » . قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإن استطعتم - فداكم
 أبى وأمى - أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا ، وإلا فكونوا من أصحاب الطراب ، وإلا
 فكونوا من أصحاب الأفق ، فإنى قد رأيت ناساً كثيراً قد تأشّبوا حوله » . ثم قال : « إنى لأرجو
 أن تكونوا ربع أهل الجنة » . فكبرنا ، ثم قال : « إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » .
 قال : فكبرنا ، قال : « إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » . قال : فكبرنا . ثم تلا
 رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ . قال : فقلنا بيننا : من هؤلاء
 السبعون ألفاً ؟ فقلنا : هم الذين ولدوا فى الإسلام ، ولم يشركوا . قال : فبلغه ذلك ،
 فقال : « بل هم الذين لا يكتون ولا يسترقون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » . روى ابن
 جرير نحوه (١) . وهذا الحديث له طرق كثيرة من غير هذا الوجه فى الصحاح وغيرها (٢) .

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾
 لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصْرُفُونَ عَلَى الْلَحْنِ
 الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ ءَابَاؤُنَا
 الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ
 إِنَّكُمْ أَنتُمُ الصَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ ﴿٥١﴾ لَا تَكُونُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَتَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾
 فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَلِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَزَلْنَاهُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين ، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال ، فقال :
 ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ أى : أى شىء هم أصحاب الشمال ؟ ثم فسر ذلك فقال :
 ﴿ فِي سُمُومٍ ﴾ وهو : الهواء الحار ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ وهو : الماء الحار ﴿ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴾ قال ابن
 عباس : ظل الدخان . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة والسدّى ، وغيرهم . وهذه كقوله تعالى :
 ﴿ انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكْذِبُونَ . انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ . لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ . إِنَّهَا تَرْمِي
 بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ . كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : ٢٩-٣٤] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَظِلٍّ

مَنْ يَحْمُومٌ ﴿٥٧﴾ وهو الدخان الأسود ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ أى : ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر ، كما قال الحسن وقتادة : ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ أى : ولا كريم المنظر . وقال الضحاك : كل شراب ليس بعذب فليس بكريم .

ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك ، فقال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أى : كانوا فى الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم ، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل . ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ أى : يُصَمِّمُونَ ولا ينوون توبة ﴿عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الكفر بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله . قال ابن عباس : ﴿الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ : الشرك . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وغيرهم . وقال الشعبى : هو اليمين الغموس . وكانوا يقولون : ﴿أَلَدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَا لَمَبْعُوثُونَ . أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ ؟ يعنى : أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدة لوقوعه ، قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أى : أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بنى آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة ، لا تغادر منهم أحداً ، كما قال : ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ . وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ . يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣ - ١٠٥] . ولهذا قال هاهنا : ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أى : هو موقت بوقت مُّحَدَّد ، لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص .

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَهِيَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَا تَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ . فَمَا لَثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ : وذلك أنهم يقبضون ويسجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم ، حتى يملؤوا منها بطونهم ، ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شَرْبَ الْهِيمِ﴾ وهى الإبل العطاش ، واحداها أهيم ، والأثنى هيماء ، ويقال : هائم وهائمة . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة : الهيم : الإبل العطاش الظماء . وعن عكرمة أنه قال : الهيم : الإبل المراض ، تمص الماء مصاً ولا تروى . وقال السدى : الهيم : داء يأخذ الإبل فلا تروى أبداً حتى تموت ، فذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبداً .

ثم قال تعالى : ﴿هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أى : هذا الذى وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم ، كما قال فى حق المؤمنين : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] أى : ضيافة وكرامة .

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ أَمْ نَحْنُ الْمَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦١﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى مُقررًا للمعاد ، وراداً على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد ، من الذين قالوا :

﴿أَنذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصفات: ١٦] ، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد ، فقال : ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أى : نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، أفليس الذى قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى ؛ فلهذا قال : ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أى : فهلا تصدقون بالبعث ! ثم قال مستدلاً عليهم بقوله : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ أى : أنتم تقرونه فى الأرحام وتخلقونه فيها ، أم الله الخالق لذلك ؟ ثم قال : ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ أى : صرفناه بينكم . وقال الضحاك : ساوى فيه بين أهل السماء والأرض .

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ﴾ أى : وما نحن بعاجزين ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ أى : نغير خلقكم يوم القيامة ، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى : من الصفات والأحوال .

ثم قال : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أى : قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة - وهى البداءة - قادر على النشأة الأخرى ، وهى الإعادة بطريق الأولى والأخرى ، وكما قال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ، وقال : ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧] ، وقال : ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧-٧٩] ، وقال تعالى : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكْ نَظْفُةً مِّن مَّنًى يُمْنًى . ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوًى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ ؟ [القيامة: ٣٦-٤٠] .

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ١٢ ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ١٤ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ١٥ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ ١٦ ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ ١٧ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ١٨ ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ ١٩ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ٢٠ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ ٢١ ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ ٢٢ ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَتَعَا لِلْمُقْوِينَ﴾ ٢٣ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ٢٤

يقول تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ؟ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ ؟ أى : تنبتونه فى الأرض ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ أى : بل نحن الذين نقره قراره وننبتة فى الأرض . وقوله : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أى : نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا ، وأبقيناه لكم رحمة بكم ، ولو نشاء لجعلناه حطاماً ، أى : لأيسنانه قبل استوائه واستحصاده ، ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ . ثم فسر ذلك بقوله : ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ أى : لو جعلناه حطاماً لظَلْتُمْ تفكّهون فى المقالة ، تنوعون كلامكم ، فتقولون تارة : ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أى : لَمُلْقُونَ .

وقال مجاهد ، وعكرمة : إنا لمولع بنا . وقال قتادة : معذبون . وتارة تقولون : بل نحن محرومون . وقال مجاهد أيضاً : ﴿ إِنَّا لَمُفْرَمُونَ ﴾ ملقون للشر ، أى : بل نحن مُحَارَفُونَ ، قاله قتادة ، أى : لا يثبت لنا مال ، ولا ينتج لنا ربح . وقال مجاهد : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى : محدودون ، يعنى : لا حظ لنا . قال ابن عباس ، ومجاهد : ﴿ فَظَلَّمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ : تعجبون . وقال مجاهد أيضاً : تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم . وهذا يرجع إلى الأول ، وهو التعجب من السبب الذى من أجله أصيبوا فى مالهم . وهذا اختيار ابن جرير . وقال عكرمة : ﴿ فَظَلَّمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ : تلاومون . وقال الحسن ، وقتادة ، والسدى : تندمون . ومعناه إما على ما أنفقتم ، أو على ما أسلفتم من الذنوب .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ يعنى : السحاب . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ يقول : بل نحن المنزلون . ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ أى : زُعَاقًا مُرًّا لا يصلح لشرب ولا زرع ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : فهلا تشكرون نعمة الله عليكم فى إنزاله المطر عليكم عذبا زلالا ! ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُبِتُّ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٠ ، ١١] .

ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ﴾ أى : تقدحون من الزناد ، وتستخرجونها من أصلها ، ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ أى : بل نحن الذين جعلناها مودعة فى موضعها ، وللعرب شجرتان ، إحداهما : المرخ ، والأخرى : العفَّار ، إذا أخذ منهما غصنان أخضران ، فحُكَّ أحدهما بالآخر ، تناثر من بينهما شرر النار . وقوله : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ : قال مجاهد ، وقتادة : أى تُذَكَّرُ النار الكبرى . روى الإمام أحمد فى مسنده : عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد » (١) . وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بنى آدم التى يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » . فقالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية . فقال : « إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » . رواه البخارى ومسلم وفى لفظ : « والذى نفسى بيده ، لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلهن مثل حرها » (٢) . وروى الطبرانى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهى أشد سواداً من ناركم هذه بسبعين ضعفاً » (٣) . قال الضياء المقدسى : وهو عندى على شرط الصحيح .

وقوله : ﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والنضر بن

(١) المسند (٧٣٢٣) وقال الشيخ شاکر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣ / ٣٠) .

(٣) الطبرانى فى الأوسط (١ / ١٥٥) (٤٨٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (٣٩٠ / ١٠) : « رجاله رجال الصحيح » .

عربى : يعنى بالمقوين : المسافرين ، واختاره ابن جرير . وقال غيره : القى والقواء : القفر الخالى البعيد من العمران . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقوى هنا الجائع . وقال ليث ابن أبى سليم ، عن مجاهد : ﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ : للحاضر والمسافر ، لكل طعام لا يصلحه إلا النار . وقال ابن أبى نجیح ، عن مجاهد قوله : ﴿ لِلْمُقْوِينَ ﴾ : المستمتعين ، الناس أجمعين . وكذا ذكر عن عكرمة . وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادى من غنى وفقير ، الجميع محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع . ثم من لطف الله تعالى أن أودعها فى الأحجار ، وخالص الحديد ، بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك فى متاعه وبين ثيابه ، فإذا احتاج إلى ذلك فى منزله أخرج زنده وأورى ، وأوقد ناره فأطبخ بها واصطلى ، واشتوى واستأنس بها ، وانتفع بها سائر الانتفاعات . فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عاماً فى حق الناس كلهم . وقد يستدل له بما رواه الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبى خدّاش حبان بن زيد الشّرعبى الشّامى ، عن رجل من المهاجرين من قرّن ، أن رسول الله ﷺ قال : «المسلمون شركاء فى ثلاثة : النار والكأ والماء» (١) . وروى ابن ماجه بإسناد جيد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث لا يُمْنَعن : الماء والكأ والنار » (٢) .

وقوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أى : الذى بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة : الماء العذب الزلال البارد ، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً كالبهار المغرقة . وخلق النار المحرقة ، وجعل ذلك مصلحة للعباد ، وجعل هذه منفعة لهم فى معاش دنياهم ، وزاجراً لهم فى المعاد .

﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُمْ رُبَّمَا لَقَرَأُوا كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾

هذا قسم من الله عز وجل ، يقسم بما شاء من خلقه ، وهو دليل على عظمته . ثم قال بعض المفسرين : « لا » هاهنا زائدة ، وتقديره : أقسم بمواقع النجوم . ورواه ابن جرير ، عن سعيد بن جبیر . ويكون جوابه : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ . وقال آخرون : ليست « لا » زائدة لا معنى لها ، بل يؤتى بها فى أول القسم إذا كان مقسماً به على منفى ، وتقدير الكلام : لا أقسم بمواقع النجوم ليس الأمر كما زعمتم فى القرآن أنه سحر أو كهانة ، بل هو قرآن كريم . وقال ابن جرير : وقال بعض أهل العربية : معنى قوله : ﴿ فَلَا أَقْسَمُ ﴾ : فليس الأمر كما تقولون ، ثم استأنف القسم بعد فقليل : أقسم .

واختلفوا فى معنى قوله : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ ، فقال ابن عباس : نزل القرآن جملة من

(١) المسند (٣٦٤ / ٥) وأبو داود (٣٤٧٧) وصححه الالبانى .

(٢) ابن ماجه (٢٤٧٣) .

عند الله من اللوح المحفوظ إلى السَّفَرَةِ الكرام الكاتبين في السماء الدنيا ، فنَجَّمَتِ السَّفَرَةُ على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة ، فهو قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ : نجوم القرآن . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والسدى . وقال مجاهد أيضا : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ في السماء ، ويقال : مطالعها ومشارقها . وكذا قال الحسن ، وقتادة ، وهو اختيار ابن جرير . وعن قتادة : مواقعها : منازلها . وعن الحسن أيضا : أن المراد بذلك انتشارها يوم القيامة . وقال الضحاك : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ يعنى بذلك : الأنواء التى كان أهل الجاهلية إذا مَطَرُوا قالوا : مطرنا بنوء كذا وكذا .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أى : وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمتة لعظمتكم المقسم به عليه ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ أى : إن هذا القرآن الذى نَزَلَ على محمد لكتاب عظيم ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ أى : معظم فى كتاب معظم محفوظ موقر . عن ابن عباس : ﴿ لَا يَمَسُّهُ ﴾ قال : الكتاب الذى فى السماء ﴿ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ يعنى : الملائكة . وكذا قال أنس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، وغيرهم . وقال قتادة : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال : لا يمسّه عند الله إلا المطهرون ، فأما فى الدنيا فإنه يمسّه المجوسى النجس ، والمنافق الرجس . وقال ابن زيد : زَعَمَت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسّه إلا المطهرون كما قال : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ [الشعراء : ٢١٠ - ٢١٢] . وهذا القول قول جيد ، وهو لا يخرج عن الأقوال التى قبله . وقال آخرون : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ أى : من الجنابة والحدث . قالوا : ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب ، قالوا : والمراد بالقرآن هاهنا المصحف ، كما روى مسلم عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو ، مخافة أن يناله العدو (١) .

وقوله : ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : هذا القرآن منزل من الله رب العالمين ، وليس هو كما يقولون : إنه سحر ، أو كهانة ، أو شعر ، بل هو الحق الذى لا مَرِيَّةَ فيه ، وليس وراءه حق نافع . وقوله : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ قال ابن عباس : أى مكذبون غير مصدقين . وكذا قال الضحاك ، والسدى . وقال مجاهد : ﴿ مُدْهِنُونَ ﴾ أى : تريدون أن تمالئوهم فيه وتركتموهم إليهم . ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال بعضهم : يعنى : وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم أنكم تكذبون ، أى : تكذبون بدل الشكر . وعن ابن عباس قال : ما مَطَرُ قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً ، يقولون : مَطَرْنَا بنوء كذا وكذا . وقرأ ابن عباس : « وتجعلون شكركم أنكم تكذبون » . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس .

وروى مالك فى الموطأ عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية فى أثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هل

(١) مسلم (١٨٦٩ / ٩٢) ، ورواه البخارى (٢٩٩٠) .

تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . « قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب . وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب » . أخرجاه فى الصحيحين ، وأبو داود ، والنسائى (١) . وروى مسلم عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ، ينزل الغيث ، فيقولون : بكوكب كذا وكذا » . تفرد به مسلم من هذا الوجه (٢) .

وقال مجاهد : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال : قولهم فى الأنواء : مطرنا بنوء كذا ، وبنوء كذا ، يقول : قولوا : هو من عند الله ، وهو رزقه . وهكذا قال الضحاك وغير واحد . وقال قتادة : أما الحسن فكان يقول : بشئ ما أخذ قوم لأنفسهم ، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب . فمعنى قول الحسن هذا : وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به ؛ ولهذا قال قبله : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أى : الروح ﴿ الْحُلُقُومَ ﴾ أى : الحلق ، وذلك حين الاحتضار ، كما قال : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي . وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ . وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ . وَالتَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاق ﴾ [القيامة: ٢٦ - ٣٠] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ أى : إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أى : بملائكتنا ﴿ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أى : ولكن لا ترونهم . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ . ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦١ ، ٦٢] .

وقوله : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا ﴾ معناه : فهلا ترجعون هذه النفس التى بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ، ومقرها فى الجسد إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . قال ابن عباس : يعنى محاسبين . وروى عن مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى مثله . وقال سعيد بن جبیر ، والحسن البصرى : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ : غير مصدقين أنكم تُدانون وتبعثون وتجزون ، فردوا هذه النفس . وعن مجاهد : ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ : غير موقنين .

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

(١) مالك فى الموطأ (١/١٩٢) والبخارى (٨٤٦) ومسلم (٧٢/١٢٥) وأبو داود (٣٩٠٦) والنسائى (٣/١٦٤) .

(٢) مسلم (٧٢/١٢٦) .

الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَزُلْ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم : إما أن يكون من المقربين ، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين . وإما أن يكون من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى ، الجاهلين بأمر الله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ ﴾ أى : المحتضر ﴿ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ، وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات و المكروهات وبعض المباحات ﴿ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾ أى : فلهم روح وريحان ، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت ، كما تقدم فى حديث البراء : أن ملائكة الرحمة تقول : « أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمريه ، اخرجى إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان » (١) . قال ابن عباس : ﴿ فَرُوحٌ ﴾ يقول : راحة وريحان ، يقول : مستراحة . وكذا قال مجاهد : إن الروح : الاستراحة . وقال سعيد بن جبير ، والسدى : الروح : الفرحة . وعن مجاهد : ﴿ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ ﴾ : جنة وريحاء . وقال قتادة : فروح : فرحة . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير : ﴿ وَرِيحَانٌ ﴾ : ورزق . وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ، فإن من مات مقرباً حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة ، والفرح والسرور والرزق الحسن ، ﴿ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾ . وقد قدمنا أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية : روى الإمام أحمد عن أم هانئ : أنها سألت رسول الله ﷺ : أنتزاور إذا متنا ، ويرى بعضنا بعضاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « تكون النسم طيراً يعلق بالشجر ، حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس فى جسدها » (٢) . هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن ، ومعنى « يعلق » : يأكل ، ويشهد له بالصحة أيضاً ما رواه الإمام أحمد عن كعب بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَلْقَى فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ » (٣) . وهذا إسناد عظيم ، ومتن قوي . وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ أَرْوَاحَ الشَّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خَضِرٍ ، تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مَعْلُوقَةٍ بِالْعَرْشِ » (٤) الحديث .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى : وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ، ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى : تبشرهم الملائكة بذلك ، تقول لأحدهم : سلام لك ، أى : لا بأس عليك ، أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين . وقال قتادة ، وابن زيد :

(١) مسند أحمد (٨٧٥٤) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وابن ماجه (٤٢٦٢) .

(٢) المسند (٤٢٤ / ٦) .

(٣) المسند (٤٥٥ / ٣) .

(٤) مضمي الحديث عند تفسير الآية (١٦٩) من آل عمران ، وتخرجه هناك .

سَلِّمَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَسَلِّمْتَ عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ اللَّهِ . كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين . وهذا معنى حسن ، ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢] . وقال البخارى : ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ ﴾ أى : مُسَلِّمٌ لَكَ ، إنك من أصحاب اليمين . وألغيت « إِنَّ » وبقي معناها .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزِّلُ مِنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أى : وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى ، ﴿ فَنُزِّلُ ﴾ أى : فضيافة ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ وهو المذاب الذى يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أى : وتقرير له فى النار التى تغمره من جميع جهاته . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أى : إن هذا الخبر لهو الحق اليقين الذى لا مرية فيه ، ولا محيد لأحد عنه . ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » . ورواه بقية الجماعة إلا أبا داود مثله (١) .

(١) البخارى (٧٥٦٣) ومسلم (٢٦٩٤/٣١) والترمذى (٣٤٦٧) والنسائى فى الكبرى (١٠٦٦٦) وابن ماجه (٣٨٠٦) .

تفسير سورة الحديد

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿ ١ ﴾ لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ ٢ ﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ
وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ ٣ ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض ، أى : من الحيوانات والنباتات ، كما
قال فى الآية الأخرى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ
لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى قد
خضع له كل شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى خلقه وأمره وشرعه ﴿ لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾
أى : هو المالك المتصرف فى خلقه ، فيحيى ويميت ، ويعطى من يشاء ما يشاء ، ﴿ وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ : وهذه الآية هى المشار إليها فى حديث
العرباض بن سارية : أنها أفضل من ألف آية . وروى أبو داود عن أبى زُمَيْل قال : سألت ابن
عباس فقلت : ما شيء أجده فى صدرى ؟ قال : ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به . قال :
فقال لى : أشيء من شك ؟ قال - وضحك - قال : ما نجا من ذلك أحد . قال : حتى أنزل
الله : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾
الآية [يونس : ٩٤] قال : وقال لى : إذا وجدت فى نفسك شيئاً فقل : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ
وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

وقد اختلفت عبارات المفسرين فى هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً . وقال
البخارى : قال يحيى : الظاهر على كل شيء علماً ، والباطن على كل شيء علماً (٢) . وقد
ورد فى ذلك أحاديث ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان
يدعو عند النوم : « اللهم ، رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ،
منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالتق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل
شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ،
وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء . اقض عنا الدين ، وأغننا
من الفقر » . ورواه مسلم عن سُهَيْل (٣) قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام :

(١) أبو داود (٥١١٠) وصححه الألبانى . (٢) البخارى (١٣ / ٣٦١ فتح) .

(٣) فى المطبوعة : « سهل » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه كما عند مسلم وأحمد وفى المخطوطة .

أن يضطجع على شقه الأيمن ، ثم يقول : اللهم ، رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته ، اللهم ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر . وكان يروى ذلك ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ (١) .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ﴿ ١ ﴾ لَمْ يَلَمْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿ ٥ ﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿ ١ ﴾

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم أخبر باستوائه على العرش بعد خلقهن ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهاها في سورة « الأعراف » (٢) بما أغنى عن إعادته هاهنا . ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من زرع ونبات وثمار ، كما قال : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] . وقوله : ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من الأمطار ، والثلوج والبرد ، والأقذار والأحكام مع الملائكة الكرام ، وقد تقدم في سورة « البقرة » أنه ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يُقررها في المكان الذى يأمر الله به حيث يشاء تعالى . ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أى : من الملائكة والأعمال ، كما جاء في الصحيح : « يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ » (٣) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى : رقيب عليكم ، شهيد على أعمالكم حيث أنتم ، وأين كنتم ، من بر أو بحر ، فى ليل أو نهار ، فى البيوت أو القفار ، الجميع فى علمه على السواء ، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم ، كما قال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [هود : ٥] . وقال : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠] ، فلا إله غيره ولا رب سواه . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل ، لما سأله عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٤) .

(٢) عند الآية (٥٤) .

(١) المسند (٢ / ٤٠٤) ومسلم (٢٧١٣ / ٦١) .

(٤) البخارى (٥٠) ومسلم (١ / ٨) .

(٣) مسلم (١٧٩ / ٢٩٣) .

وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين :

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ : عَلَى رَقِيبُ
وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ يَغْفَلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

وقوله : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى : هو المالك للعالمين والآخرة ، كما قال : ﴿ وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ [الليل : ١٣] ، وهو المحمود على ذلك ، كما قال : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ [القصص : ٧٠] ، وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [سبا : ١] . فجميع ما فى السموات والأرض ﴿ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٩٣-٩٥] . ولهذا قال : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى : إليه المرجع يوم القيامة ، فيحكم فى خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذى لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة ، بل إن يكن أحدهم عمل حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها ﴿ وَيُؤْتِ مَنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] . كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الانبياء : ٤٧] .

وقوله : ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أى : هو المتصرف فى الخلق ، يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين . وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريد به بخلقه ، ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : يعلم السرائر وإن دقت ، وإن خفيت .

﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَتَّبِعُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَكْثَرَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الاكمل ، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار ، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه ، أى : مما هو معكم على سبيل العارية ، فإنه قد كان فى أيدي من قبلكم ثم صار إليكم ، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال فى طاعته ، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه .

وقوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾: فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك ، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه ، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصى الله فيه فتكون قد سعت في معاونته على الإثم والعدوان . روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : ﴿ أَلِهَاتُكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر: ١] ، يقول ابن آدم : مالى مالى! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ . ورواه مسلم ، وزاد : « وما سوى ذلك فذهب وتاركه للناس » (١) .

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ترغيب فى الإيمان والإنفاق فى الطاعة ، ثم قال : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرُّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ ؟ أى : وأى شىء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم ، يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به ؟ . وقد روينا فى الحديث من طرق فى أوائل شرح « كتاب الإيمان » من صحيح البخارى : أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه : « أى المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ » قالوا : الملائكة . قال : « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ » قالوا : فالأنبياء . قال : « وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ؟ » قالوا : فنحن ؟ قال : « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم ، يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها » . وقد ذكرنا طرفاً من هذا فى أول سورة « البقرة » (٢) عند قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] . وقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ كما قال : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧] . ويعنى بذلك : بيعة الرسول ﷺ . وزعم ابن جرير : أن المراد بذلك الميثاق الذى أخذ عليهم فى صلب آدم ، وهو مذهب مجاهد ، فالله أعلم .

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى : حججاً واضحة ، ودلائل باهرات ، وبراهين قاطعات ، ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى : من ظلمات الجهل والكفر ، والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أى : فى إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس ، وإزاحة العلل وإزالة الشبه .

ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق ، ثم حثهم على الإيمان ، وبين أنه قد أزال عنهم موانعه ، حثهم أيضاً على الإنفاق فقال : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى : أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً ، فإن الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض ، ويده مقاليدهما ، وعنده خزائنهما ، وهو مالك العرش بما حوى ، وهو القائل : ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩] ، وقال : ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فمن توكل على الله أنفق ، ولم يخش من ذى العرش إقلالاً ، وعلم أن الله سيخلفه عليه .

وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ﴾ أى : لا يستوى هذا ومن لم يفعل

كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً ، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودخل الناس في دين الله أفواجا ؛ ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ . والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة . وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح هاهنا : صلح الحديبية ، وقد يُستدل لهذا القول بما روى الإمام أحمد : عن أنس قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال : « دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده ، لو أنفقتم مثل أحد - أو : مثل الجبال - ذهباً ، ما بلغتكم أعمالهم » (١) . ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما فى بنى جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح ، فجعلوا يقولون : « صباناً ، صباناً » ، فلم يحسنوا أن يقولوا : « أسلمنا » ، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم ، فخالفه عبد الرحمن ابن عوف ، وعبد الله بن عمر وغيرهما . فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك (٢) . والذى فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده ، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ، ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه » (٣) .

وقوله : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ يعنى : المنفقين قبل الفتح وبعده ، كلهم لهم ثواب على ما عملوا ، وإن كان بينهم تفاوت فى تفاضل الجزاء ، كما قال : ﴿ لَا يَسْتَوِ الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٥] . وهكذا الحديث الذى فى الصحيح : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير » (٤) ، وإنما نبّه بهذا لئلا يُهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه ؛ فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وما ذلك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام ، وإنفاقه فى حال الجهد والقلّة والضيق . وفى الحديث : « سبق درهم مائة ألف » (٥) . ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر ، رضى الله عنه ، له الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ، عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها .

وقوله : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ قال عمر بن الخطاب : هو الإنفاق فى سبيل الله ،

(١) المسند (٢٦٦/٣) . وهو عند البخارى بلفظ قريب منه (٢٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٠ / ٢٢١) .

(٢) البخارى (٧١٨٩) . (٣) البخارى (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١ / ٢٢٢) .

(٤) مسلم (٢٦٦٤ / ٣٤) .

(٥) فى المخطوطة : « أضعافا كثيرة وله أجر كريم » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

وقيل: هو النفقة على العيال . والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة ، دخل في عموم هذه الآية ؛ ولهذا قال : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥] أى : جزاء جميل ، ورزق باهر - وهو الجنة - يوم القيامة .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُسْتَغْفِرُونَ وَالْمُتَفَقِّهَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَانُكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانُكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين: أنهم يوم القيامة يسعون نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم ، كما قال عبد الله بن مسعود في قوله : ﴿ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة . ورواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير . وقال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : « من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء فدون ذلك ، حتى إن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه » (١) . وقال سفيان الثوري ، عن حصين ، عن مجاهد عن جنادة بن أمية قال: إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم ، وسيماكم وحلاكم ، ونجواكم ومجالسكم ، فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان ، هذا نورك . يا فلان ، لا نور لك . وقرأ : ﴿ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ . وقال الضحاك: ليس أحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طُفئ نور المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طُفئ نور المنافقين ، فقالوا : ربنا ، أتم لنا نورنا . وقال الحسن في قوله : ﴿ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ : يعنى : على الصراط .

وقوله : ﴿ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ قال الضحاك: أى وبأيمانهم كتبهم ، كما قال : ﴿ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِإِيمَانِهِ ﴾ [الإسراء: ٧١] . وقوله : ﴿ بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى : يقال لهم : بشراكم اليوم جنات ، أى : لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكثين فيها أبداً ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ : وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة ، والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة ، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ، وعمل بما أمر الله ، وترك ما عنه زجر . قال سليم بن عامر : خرجنا على جنازة في باب دمشق ، ومعنا أبو أمامة الباهلي ، فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها ، قال أبو أمامة : أيها الناس ، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر ، وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوحدة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، وبيت الضيق ، إلا ما وسع الله ، تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة ، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله ، فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فتغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً ، وهو المثل الذي ضربه الله في كتابه ، قال : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: ٤٠] ، فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى بنور البصير ، ويقول المنافقون للذين آمنوا : ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ ، وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢] . فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور ، فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ، ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ الآية . يقول سليم بن عامر : فما يزال المنافق مغترأ حتى يقسم النور ، ويميز الله بين المؤمن والمنافق . وقال ابن عباس : بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حيثئذ : ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ ، فإننا كنا معكم في الدنيا . قال المؤمنون : ﴿ ارْجِعُوا ﴾ من حيث جئتم من الظلمة ، فالتمسوا هنالك النور .

وقوله : ﴿ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ : قال الحسن ، وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الذي قال الله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ [الأعراف: ٤٦] . وهكذا روى عن مجاهد وغير واحد ، وهو الصحيح . ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أي : الجنة وما فيها ﴿ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أي : النار . قاله قتادة ، وابن زيد ، وغيرهما . قال ابن جرير : وقد قيل : إن ذلك السور سور بيت المقدس عند وادي جهنم . ثم روى عن عبادة بن الصامت ، وكعب الأحمري ، وعلى بن الحسين زين العابدين ، نحو ذلك . وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثلاً لذلك ، لا أن هذا هو الذي أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الوادي المعروف بوادي جهنم ؛ فإن الجنة في السموات في أعلى عليين ، والنار في الدركات أسفل سافلين . وإنما المراد بذلك : سور يُضْرَب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا

استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب ، كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة . ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ أى : ينادى المنافقون المؤمنين : أما كنا معكم في الدار الدنيا ، نشهد معكم الجمعات ، ونصلى معكم الجماعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدى معكم سائر الواجبات ؟ ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أى : فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى ، قد كنتم معنا ، ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ قال بعض السلف : أى فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات ﴿ تَرَبَّصْتُمْ ﴾ أى : أخرتم التوبة من وقت إلى وقت .

وقال قتادة : ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالحق وأهله ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أى : بالبعث بعد الموت ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ أى : قلتم : سيغفر لنا . وقيل : غرتكم الدنيا ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى : ما زلتُم في هذا حتى جاء الموت ﴿ وَغَرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ أى : الشيطان . قال قتادة : كانوا على خدعة من الشيطان ، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار . ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين : أنكم كنتم معنا : بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم في حيرة وشك ، فكنتُم تُراوون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً . قال مجاهد : كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرهم ، وكانوا معهم أمواتاً ، ويعطون النور جميعاً يوم القيامة ، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ، ويمار بينهم حينئذ . وهذا القول من المؤمنين لا ينافي قولهم الذى أخبر الله به عنهم ، حيث يقول وهو أصدق القائلين : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ . فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ . حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ ﴾ [المدثر : ٣٨ - ٤٧] ، فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ . ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر : ٤٨] ، كما قال تعالى ها هنا : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ، ما قبل منه .

وقوله : ﴿ مَاوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أى : هى مصيركم وإليها منقلبكم ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى : هى أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيا بكم ، وبش المصير .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١٦)

﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١٧)

يقول الله تعالى : أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أى : تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه . عن ابن عباس أنه قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ

آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴿ الآية ، رواه ابن أبي حاتم ، ثم روى هو ومسلم عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية إلا أربع سنين (١).

وقوله : ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ : نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى ، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم ، فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيد . ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أى : فى الأعمال ، فقلوبهم فاسدة ، وأعمالهم باطلة . كما قال : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة : ١٣] ، أى : فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه ، وتركوا الأعمال التى أمروا بها ، وارتكبوا ما نهوا عنه ؛ ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم فى شىء من الأمور الأصلية والفرعية .

وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ : فيه إشارة إلى أنه ، تعالى ، يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدى الحيارى بعد ضللتها ، ويفرّج الكروب بعد شدتها ، فكما يحيى الأرض الميتة المجذبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراہين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الإضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذى هو لما يشاء فعال ، وهو الحكم العدل فى جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

﴿ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (١٨) ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (١٩)

يخبر تعالى عما يثيب به المؤمنون والمؤمنات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ، ﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أى : دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً ؛ ولهذا قال : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ أى : يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزداد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك ، ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أى : ثواب جزيل حسن ، ومرجع صالح ومآب حسن .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ : هذا تمام الجملة ، وصف المؤمنين

بالله ورسله بأنهم صديقون . قال ابن عباس قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ ﴾ : هذه مفصلة ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ . وقال أبو الضحى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ ﴾ ثم استأنف الكلام فقال : ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ . وهكذا قال مسروق ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم . وقال الأعمش عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله في قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ قال : هم ثلاثة أصناف : يعنى المصدقين ، والصديقين ، والشهداء ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩] ، ففرق بين الصديقين والشهداء ، فدل على أنهما صنفان . ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد ، كما رواه الإمام مالك بن أنس عن أبي سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم » . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بلى ، والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » . اتفق البخارى ومسلم على إخرجه (١) . وقال آخرون : بل المراد من قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون وشهداء . حكاه ابن جرير عن مجاهد .

وقال عمرو بن ميمون فى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ قال : يجيئون يوم القيامة معاً كالإصبعين .

وقوله : ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى : فى جنات النعيم ، كما جاء فى الصحيحين : « إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تريدون ؟ فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فىك فنقتل كما قُتلنا أول مرة . فقال : إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون » (٢) . وقوله : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أى : لهم عند ربهم أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم ، وهم فى ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا فى الدار الدنيا من الأعمال .

كما روى الإمام أحمد عن أبى يزيد الخولانى قال : سمعت فضالة بن عبيد يقول : سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقى العدو فصدق الله فقتل ، فذلك الذى ينظر الناس إليه هكذا - ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ أو قلنسوة عمر - والثانى مؤمن لقى العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح ، جاءه سهم غرب فقتله ، فذاك فى الدرجة الثانية ، والثالث رجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك فى الدرجة الثالثة ، والرابع رجل مؤمن أسرف

(١) لم أعثر عليه فى الموطأ ورواه البخارى (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١ / ١١) .

(٢) مسلم (١٨٨٧ / ١٢١) ولم يعزه صاحب التحفة (١٤٥ / ٧) للبخارى .

على نفسه إسرافاً كثيراً، لقي العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك في الدرجة الرابعة « (١) .
 وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ : لما ذكر السعداء ومآلهم ، عطف
 بذكر الأشقياء وبين حالهم .

﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
 وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ
 عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَى
 مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ
 ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقرها لها : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ
 بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ أى : إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا ، كما قال : ﴿ زِينٌ لِلنَّاسِ
 حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ
 مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران : ١٤] . ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا فى أنها
 زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ وهو : المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس ، كما قال :
 ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ [الشورى : ٢٨] .

وقوله : ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ أى : يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث ؛
 وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شئ عليها وأميل
 الناس إليها ، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ﴾ أى : يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما
 كان خضراً نضراً ، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً ، أى : يصير يَبْساً متحطماً ، هكذا الحياة
 الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان كذلك يكون فى أول
 عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهى المنظر ، ثم إنه يشرع فى الكهولة فتتغير
 طباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ، ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه
 الشئ اليسير ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ
 بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤] . ولما كان هذا المثل دالاً على زوال
 الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة ، حذر من أمرها ورغب فيما
 فيها من الخير ، فقال : ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾
 أى : وليس فى الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا : إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من
 الله ورضوان .

(١) المسند (١٥٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده حسن » .

وقوله : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أى : هى متاع فان غار لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها ، وهى حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة . روى ابن جرير : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها » . اقرؤوا : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ . وهذا الحديث ثابت فى الصحيح بدون هذه الزيادة (١) ، والله أعلم . وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » . انفراد بإخراجه البخارى (٢) . ففى هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان ، وإذا كان الأمر كذلك ؛ فلهذا حثه الله على المبادرة إلى الخيرات ، من فعل الطاعات ، وترك المحرمات ، التى تكفر عنه الذنوب والزلات ، وتحصل له الثواب والدرجات ، فقال تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ والمراد جنس السماء والأرض ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] . وقال هاهنا : ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : هذا الذى أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم ، كما قدّمنا فى الصحيح : أن فقراء المهاجرين قالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم . قال : « وما ذاك ؟ » . قالوا : يُصَلُّونَ كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نُعتق . قال : « أفلا أدلكم على شىء إذا فعلتموه سبقتهم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم : تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » . قال : فرجعوا فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ، ففعلوا مثله ! فقال رسول الله ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (٣) .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قدره السابق فى خلقه قبل أن يبرأ البرية ، فقال : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى : فى الآفاق وفى نفوسكم ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ أى : من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة . وقال بعضهم : ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ عائد على النفوس . وقيل : عائد على المصيبة . والأحسن عوده على الخليقة والبرية ؛ لدلالة الكلام عليها ، وقال

(١) ابن جرير فى التفسير (١٣٤ / ٢٧) والبخارى (٦٤١٥) .

(٢) المسند (٣٦٦٧) والبخارى (٦٤٨٨) .

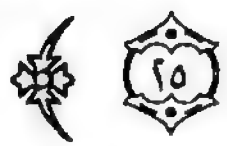
(٣) البخارى (٨٤٣) ومسلم (٥٩٥ / ١٤٢) .

قتادة : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : هي السنون . يعنى : الجَدْب ، ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ يقول : الأوجاع والأمراض . قال : وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم ، ولا خلجان عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر . وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القَدَرِيَّة نفاة العلم السابق - قبهم الله - وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قَدَّرَ اللَّهُ الْمَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » . ورواه مسلم : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » . ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح (١) . وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى : إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابتها لها طبق ما يوجد فى حينها ، سهل على الله ، عز وجل ؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

وقوله : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى : أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها ، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطاكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تأسوا على ما فاتكم ، لأنه لو قدر شيء لكان ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى : جاءكم ، وقرأ : « آتَاكُمْ » أى : أعطاكم . وكلاهما متلازمان ، أى : لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم ، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم ، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً ، تفخرون بها على الناس ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أى : مختال فى نفسه متكبر فخور ، أى : على غيره . وقال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً .

ثم قال : ﴿ الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أى : يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أى : عن أمر الله وطاعته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ كما قال موسى عليه السلام : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾



يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى : بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ، ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهو : النقل الصدق ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ وهو : العدل . قاله مجاهد ، وقاتادة ، وغيرهما . وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ، كما قال : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ [هود : ١٧] ، وقال : ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ التِّي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠] ، وقال : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧] ؛ ولهذا قال فى هذه

الآية : ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ أى : بالحق والعدل وهو : اتباع الرسل فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا به ، فإن الذى جاؤوا به هو الحق الذى ليس وراءه حق ، كما قال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ (١) رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥] أى : صدقاً فى الإخبار ، وعدلاً فى الأوامر والنواهي . ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوؤوا غرف الجنات ، والمنازل العاليات ، والسرر المصفوفات : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٣] .

وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أى : وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ؛ ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية ، وكلها جدال مع المشركين ، وبيان وإيضاح للتوحيد ، وتبيان ودلائل ، فلما قامت الحجة على من خالف ، شرع الله الهجرة ، وأمرهم بالقتال بالسيوف ، وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ بِالسِّيفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجُعِلَ الذُّلَّةُ وَالصُّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » (٢) . ولهذا قال تعالى : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يعنى : السلاح كالسيوف ، والحراب ، والسنان ، والنصال ، واليدروع ، ونحوها ﴿ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ أى : فى معاشهم كالسكة والفأس والقُدوم ، والمنشار ، والإزميل ، والمجرفة ، والآلات التى يستعان بها فى الحراثة والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوام للناس بدونه ، وغير ذلك .

وقوله : ﴿ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أى : من نيته فى حمل السلاح نصرة الله ورسوله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى : هو قوى عزيز ، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس ، وإنما شرع الجهاد ليلو بعضهم ببعض .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى عَائِثِهِمْ بِرُسُلِنَا وَفَقَيْنَا يُعْسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١٧)

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً ، عليه السلام ، لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم ، عليه السلام ، خليل الرحمن ، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده ، إلا وهو من سلالة ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي

(١) هى قراءة كما مضى بيانه .

(٢) المسند (٥١١٤ ، ٥١١٥) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (٤٠٣١) .

ذُرِّيَّتَهُمَا النَّبُوءَةُ وَالْكِتَابُ ﴿٢٨﴾ حتى كان آخر أنبياء بنى إسرائيل عيسى ابن مريم الذى بشر بعده بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهما ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴾ وهو الكتاب الذى أوحاه الله إليه ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ وهم الحواريون ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أى : رافة وهى الخشية ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بالخلق . وقوله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ أى : ابتدعها أمة النصارى ﴿ مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا ﴾ أى : ما شرعناها لهم ، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم .

وقوله : ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ فيه قولان ، أحدهما : أنهم قصدوا بذلك رضوان الله ، قاله سعيد بن جبير ، وقتادة . والآخر : ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله .

وقوله : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام . وهذا ذم لهم من وجهين ، أحدهما : الابتداع فى دين الله مالم يأمر به الله . والثانى : فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قرينة يقربهم إلى الله ، عز وجل . روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، أن رجلاً جاءه فقال : أوصنى . فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك ، أوصيك بتقوى الله ، فإنه رأس كل شئ ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن ، فإنه روحك فى السماء وذكرك فى الأرض . تفرد به أحمد (١) .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرِسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

عن ابن عباس : أنه حمل هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب ، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما فى الآية التى فى القصص (٢) ، وكما فى حديث عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنيه وآمن بى فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق موأليه فله أجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » . أخرجاه فى الصحيحين . ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك ، وعتبة بن أبى حكيم ، وغيرهما ، وهو اختيار ابن جرير . وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله هذه الآية فى حق هذه الأمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرِسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى : ضعفين ، وزادهم : ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يعنى : هدى يتبصر به من العمى والجهالة ، ويغفر لكم . فضلهم بالنور والمغفرة .

(١) المسند (٢٨ / ٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢١٥ / ٤) : « رجال أحمد ثقات » .

(٢) وهى رقم (٥٤) .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]. وقال سعيد بن عبد العزيز: سأل عمر بن الخطاب حبراً من أحبار يهود: كم أفضل ما ضعفت لكم حسنة؟ قال: كفل ثلاثمائة وخمسون حسنة. قال: فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفلين. [ثم] ذكر سعيد قول الله، عز وجل: ﴿ يُوْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ قال سعيد: والكفلان في الجمعة مثل ذلك. رواه ابن جرير (١). ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: « مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعلت اليهود. ثم قال: من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعلت النصارى. ثم قال: من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذى عملتم. فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عمالاً وأقل عطاء. قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا. قال: فإنما هو فضلى أوتيته من أشياء. انفرد بإخراجه البخارى (٢).

وروى البخارى عن أبى موسى، عن النبى ﷺ قال: « مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذى شرطت لنا، وما عملنا باطل. فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذى شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا: ما عملنا باطل، ولك الأجر الذى جعلت لنا فيه. فقال: أكملوا بقية عملكم؛ فإن ما بقى من النهار شيء يسير. فأبوا، فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور » انفرد به البخارى (٣).

ولهذا قال تعالى ﴿ لَيْسَ يَتْلُمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أى: ليتحققوا أنهم لا يقدرُونَ على ردِّ ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله، ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

(٢) المسند (٥٩٠٢) والبخارى (٢٢٦٨).

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٧ / ١٤١).

(٣) البخارى (٣٤٥٩).

تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

الجزء
٢٨

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ إلى آخر الآية . وهكذا رواه البخاري . وأخرجه النسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير . وفي رواية : أنها قالت : تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول : يا رسول الله ، أكل شبابى ، ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنّى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك . قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ (١) . وقال عروة : وكان أوس امرأ به لم ، فكان إذا أخذه لمه واشتد به يظهر من امرأته ، وإذا ذهب لم يقل شيئاً . فأتت رسول الله تستفتيه فى ذلك ، وتشتكى إلى الله ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية .

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَُمْ تَوْعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣﴾

روى الإمام أحمد عن خولة بنت ثعلبة قالت : فى - والله - وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة « المجادلة » ، قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل على يوماً فراجعته بشيء فغضب فقال : أنت على كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٠) من سورة الرعد .

نادى قومه ساعة ، ثم دخل على فإذا هو يريدنى عن نفسى . قالت : قلت : كلا ، والذي نفس خويلة بيده ، لا تخلص إلى وقد قلت ما قلت ، حتى يحكم الله ورسوله فىنا بحكمه . قالت : فوائبنى وامتنعت منه ، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقته عنى ، قالت : ثم خرجت إلى بعض جارأتى ، فاستعرت منها ثياباً ، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ ، فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : « ياخويلة ، ابن عمك شيخ كبير ، فاتقى الله فيه » . قالت : فوالله ما برحت حتى نزل فى القرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سرى عنه ، فقال لى : « يا خويلة ، قد أنزل الله فىك وفى صاحبك » . ثم قرأ على : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، قالت : فقال لى رسول الله ﷺ : « مريه فليعتق رقبة » . قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق . قال : « فليصم شهرين متتابعين » . قالت : فقلت : والله إنه شيخ كبير ، ما به من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر » . قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما ذاك عنده . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « فإننا سنعيه بعرق من تمر » . قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا سأعيه بعرق آخر ، قال : « فقد أصبت وأحسن ، فذهبي فتصدقى به عنه ، ثم استوصى بآبن عمك خيراً » . قالت : ففعلت . ورواه أبو داود (١) وعنده : خولة بنت ثعلبة ، ويقال فيها : خولة بنت مالك بن ثعلبة . وقد تصغر فيقال : خويلة . ولا منافاة بين هذه الأقوال ، فالأمر فيها قريب ، والله أعلم .

هذا هو الصحيح فى سبب نزول صدر هذه السورة ، فأما حديث سلمة بن صخر فليس فيه أنه كان سبب النزول ، ولكن أمر بما أنزل الله فى هذه السورة ، من العتق أو الصيام ، أو الإطعام ، كما روى الإمام أحمد عن سلمة بن صخر الأنصارى قال : كنت امرأة قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيرى ، فلما دخل رمضان تظهرت من امرأتى حتى ينسلخ رمضان ، فرقاً من أن أصيب فى ليلتى شيئاً فأتابع فى ذلك إلى أن يدركنى النهار ، وأنا لا أقدر أن أنزع ، فبينما هى تخدمنى من الليل إذ تكشف لى منها شيء ، فوثبت عليها ، فلما أصبحت غدوت على قومى فأخبرتهم خبرى وقلت : انطلقوا معى إلى النبى ﷺ فأخبره بأمرى . فقالوا : لا ، والله لا نفعل ؛ نتخوف أن ينزل فىنا أو يقول فىنا رسول الله ﷺ - مقالة يبقى علينا عارها ، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك . قال : فخرجت حتى أتيت النبى ﷺ ، فأخبرته خبرى . فقال لى : « أنت بذاك » . فقلت : أنا بذاك . فقال : « أنت بذاك » . فقلت : أنا بذاك . فقال : « أنت بذاك » . فقلت : أنا بذاك . قال : « أنت بذاك » قلت : نعم ، ها أناذا فامض فى حكم الله تعالى ، فإنى صابر له . قال : « أعتق رقبة » . قال : فضربت صفحة رقبتى بيدى وقلت : لا ، والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها . قال : « فصم شهرين » . قلت : يا رسول الله ، وهل أصابنى ما أصابنى

(١) المسند (٦ / ٤١٠) وأبو داود (٢٢١٤ ، ٢٢١٥) ، وقال الألبانى : « حسن دون قوله : « والعرق » .

إلا في الصيام ؟ قال : « فتصدق » . فقلت : والذي بعثك بالحق ، لقد بتنا ليلتنا هذه وحشياً مالنا عشاء . قال : « اذهب إلى صاحب صدقة بنى زريق فقل له فليدفعها إليك ، فأطعم عنك منها وسقاً من تمر ستين مسكيناً ، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك » . قال : فرجعت إلى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة ، قد أمر لى بصدقتكم ، فادفعوها إلى . فدفعوها إلى . وهكذا رواه أبو داود ، وابن ماجة ، واختصره الترمذى وحسنه (١) . وظاهر السياق : أن هذه القصة كانت بعد قصة أوس بن الصامت وزوجته خويلة بنت ثعلبة ، كما دل عليه سياق تلك وهذه بعد التأمل .

فقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا تظاهر أحد من امرأته قال لها : أنت على كظهر أمي ، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً ، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم . هكذا قال غير واحد من السلف . وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية بقوله : ﴿ مِنْكُمْ ﴾ فالخطاب للمؤمنين ، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، واستدل الجمهور عليه بقوله : ﴿ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها ، ولا تدخل في هذا الخطاب .

وقوله : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ أى : لا تصير المرأة بقول الرجل : « أنت على كأمي » أو « مثل أمي » أو « كظهر أمي » ، وما أشبه ذلك ، لا تصير أمه بذلك ، إنما أمه التي ولدته ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أى : كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ أى : عما كان منكم في حال الجاهلية . وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان ، ولم يقصد إليه المتكلم .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ : اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ فقال بعض الناس : العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره ، وهذا القول باطل ، وهو اختيار ابن حزم . وقال الشافعى : هو أن يمسكها بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق . وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا يحل له حتى يكفر بهذه الكفارة .

وقد حكى عن مالك : أنه العزم على الجماع والإمساك ، وعنه أنه الجماع . وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ، ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى تظاهر الرجل من امرأته فقد حرّمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة . وإليه ذهب أصحابه ، والليث بن سعد . عن سعيد بن جبیر : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ يعنى : يريدون أن يعودوا في الجماع الذى

(١) المسند (٣٧/٤) وأبو داود (٢٢١٣) وابن ماجة (٢٠٢) والترمذى (٣٢٩٩) .

حرموه على أنفسهم . وقال الحسن البصرى : يعنى الغشيان فى الفرج . وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر . وقال ابن عباس : ﴿ مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسَا ﴾ والمس : النكاح . وكذا قال عطاء ، والزهرى ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان . وقال الزهرى : ليس له أن يقبلها ولا يمسه حتى يكفر . وقد روى أهل السنن عن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني ظاهرت من امرأتى فوقعت عليها قبل أن أكفر . فقال : « ما حملك على هذا يرحمك الله ؟ » . قال : رأيت خلخالها فى ضوء القمر . قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله ، عز وجل » . وقال الترمذى : حسن غريب صحيح (١) . ورواه أبو داود والنسائى من حديث عكرمة مرسلاً . قال النسائى : وهو أولى بالصواب (٢) .

وقوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أى : فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا ، فهاهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان ، وفى كفارة القتل مقيدة بالإيمان ، فحمل الشافعى ما أطلق هاهنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب ، وهو عتق الرقبة ، واعتضد فى ذلك بما رواه عن مالك بسنده ، عن معاوية بن الحكم السلمي ، فى قصة الجارية السوداء ، وأن رسول الله ﷺ قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » . وقد رواه أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه (٣) . وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ تُوَعُّظُونَ بِهِ ﴾ أى : تزجرون به ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : خير بما يصلحكم ، عليم بأحوالكم .

وقوله : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ لِإِطْعَامِ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ : وقد تقدمت الأحاديث الواردة بهذا على الترتيب ، كما ثبت فى الصحيحين فى قصة الذى جامع امرأته فى رمضان ﴿ ذَلِكُمْ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : شرعنا هذا لهذا .

وقوله : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى : محارمه فلا تنتهكوها ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة ، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء ، كلا ، ليس الأمر كما زعموا ، بل لهم عذاب أليم ، أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ مُهِينٍ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَخِصَّةُ اللَّهِ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾
 يخبر تعالى عمن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ﴿ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى :

(١) أبو داود (٢٢٣) والترمذى (١٩٩٠) .

(٢) أبو داود (٢٢١ ، ٢٢٢) والنسائى (٣٤٥٩) ، وصححه الألبانى .

(٣) الموطأ (٧٧٧/٢) والمسند (٤٤٧/٥) ومسلم (٣٣/٥٣٧) .

أهينوا ولعنوا وأخزوا ، كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى : واضحات لا يخالفها ويعاندها إلا كافر فاجر مكابر ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أى : فى مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله ، والانقياد له ، والخضوع لديه . ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَعْتَنِيهِمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ وذلك يوم القيامة ، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى : فيخبرهم بالذى صنعوا من خير وشر ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ أى : ضبطه الله وحفظه عليهم ، وهم قد نسوا ما كانوا عليه ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : لا يغيب عنه شيء ، ولا يخفى ولا ينسى شيئاً .

ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم ، وسماعه كلامهم ، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ ﴾ أى : من سر ثلاثة ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ أى : يطلع عليهم ويسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ، ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به ، مع علم الله به وسمعه لهم ، كما قال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة : ٧٨] . وقال : ﴿ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٠] ؛ ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى ، ولا شك فى إرادة ذلك ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم ، وبصره نافذ فيهم ، فهو ، سبحانه ، مطلع على خلقه ، لا يغيب عنه من أمورهم شيء . ثم قال : ﴿ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِى أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فِئْتَسِ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَتَجَوَّأُ بِالْبِرِّ وَالنَّقْوَى وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

قال مجاهد : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ﴾ قال : اليهود . وكذا قال مقاتل بن حيان ، وزاد : كان بين النبی ﷺ وبين اليهود مودة ، وكانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب النبی ﷺ جلسوا يتناجون بينهم ، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله - أو : بما يكره المؤمن - فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم ، فترك طريقه عليهم . فنهاهم النبی ﷺ عن النجوى ، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى ، فأنزل الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ . وقوله : ﴿ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ أى : يتحدثون فيما بينهم بالإثم ، وهو ما يختص

بهم ، والعدوان ، وهو ما يتعلق بغيرهم ، ومنه معصية الرسول ومخالفته ، يُصِرُّون عليها ويتواصون بها .

وقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ : عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم . فقالت عائشة : وعليكم السام . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ، إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش » . قلت : ألا تسمعهم يقولون : السام عليك ؟ فقال رسول الله : « أو ما سمعت أقول : وعليكم ؟ » . فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ (١) . وفى رواية فى الصحيح أنها قالت لهم : عليكم السام والذام واللعنة . وأن رسول الله ﷺ قال : « إنه يستجاب لنا فيه ، ولا يستجاب لهم فينا » (٢) . وروى ابن جرير : عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه ، إذ أتى عليهم يهودى فسلم عليهم ، فردوا عليه ، فقال نبي الله ﷺ : « هل تدرون ما قال ؟ » . قالوا : سلم يا رسول الله . قال : « بل قال : سام عليكم ، أى : تسامون دينكم » . قال رسول الله : « ردوه » . فردوه عليه . فقال نبي الله : « أقلت : سام عليكم ؟ » . قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : « إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا : عليك » أى : عليك ما قلت . وأصل حديث أنس مخرج فى الصحيح ، وهذا الحديث فى الصحيح عن عائشة ، بنحوه (٣) .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أى : يفعلون هذا ، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام ، وإنما هو شتم فى الباطن ، ومع هذا يقولون فى أنفسهم : لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له فى الباطن ؛ لأن الله يعلم ما نسرّه ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة فى الدنيا ، فقال الله تعالى : ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى : جهنم كفايتهم فى الدار الآخرة ﴿ يَصَلُّونَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . وروى الإمام أحمد : عن عبد الله بن عمرو ؛ أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ : سام عليك ، ثم يقولون فى أنفسهم : ﴿ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ ؟ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . إسناد حسن ولم يخرجوه (٤) .

ثم قال الله مُؤدِّباً عبادة المؤمنين ألا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ أى : كما يتناجى به الجهلة من كفره أهل الكتاب ومن مآلهم على ضلالهم من المنافقين ، ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى : فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التى قد أحصاها عليكم ، وسيجزىكم بها . وروى الإمام أحمد : عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله

(١) مسلم (٢١٦٥ / ١٠) . (٢) البخارى (٦٠٣٠) ومسلم (٢١٦٦ / ١٢) .

(٣) ابن جرير فى التفسير (٢٧ / ١١) ومسلم (٢١٦٣ / ٦) .

(٤) المسند (٦٥٨٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

ﷺ يقول : « إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستتره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يُعْطَى كتابَ حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين » . أخرجاه في الصحيحين (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إنما النجوى - وهى المسارة - حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعنى : إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ، ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : ليسوءهم ، وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ، ومن أحسن من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله ، فإنه لا يضره شيء بإذن الله . وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى حيث يكون فى ذلك تأذ على مؤمن ، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه » . أخرجاه (٢) . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ؛ فإن ذلك يحزنه » . انفرد بإخراجه مسلم (٣) .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

يقول تعالى مؤدباً عباده المؤمنين ، وأمرأ لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض فى المجالس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ ﴾ وقرئ : « فى المجلس » ، ﴿ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء فى الحديث الصحيح : « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة » (٤) وفى الحديث الآخر : « ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » (٥) . ولهذا أشباه كثيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

قال قتادة : نزلت هذه الآية فى مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض . وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ،

(١) المسند (٥٤٣٦) والبخارى (٤٦٨٥) ومسلم (٢٧٦٨ / ٥٢) .

(٢) المسند (٤٠٩٣) والبخارى (٦٢٩٠) ومسلم (٢١٨٤ / ٣٧) .

(٣) مسلم (٢١٨٣ / ٣٦) . (٤) البخارى (٤٥٠) ومسلم (٢٤ / ٥٣٣) .

(٥) مسلم (٣٨ / ٢٦٩٩) .

ولكن تَفْسَحُوا وَتَوَسَّعُوا . وأخرجاه فى الصحيحين (١) .

وقد اختلف الفقهاء فى جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخص فى ذلك محتجاً بحديث : « قوموا إلى سيدكم » (٢) . ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار » (٣) ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم فى محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبى ﷺ حاكماً فى بنى قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين : « قوموا إلى سيدكم » . وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه ، والله أعلم . فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم . وقد جاء فى السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكان إذا جاء لا يقومون له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . وفى الحديث المروى فى السنن : أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، وكان الصحابة يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق يجلسه عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وبين يديه غالباً عثمان وعلى ؛ لأنهما كانا ممن يكتب الوحي ، وكان يأمرهم بذلك ، كما رواه مسلم عن أبى مسعود ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى » ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » (٤) . وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله ، صلوات الله وسلامه عليه . وروى الإمام أحمد : عن أبى مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول : « استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى » ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافاً . وكذا رواه مسلم وأهل السنن ، إلا الترمذى (٥) .

وإذا كان هذا أمره لهم فى الصلاة أن يليه العقلاء ثم العلماء ، فبطريق الأولى أن يكون ذلك فى غير الصلاة . ولهذا كان أبى بن كعب - سيد القراء - إذا انتهى إلى الصف الأول انتزع منه رجلاً يكون من أفناء الناس ، ويدخل هو فى الصف المقدم ، ويحتج بهذا الحديث : « ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى » . وأما عبد الله بن عمر فكان لا يجلس فى المكان الذى يقوم له صاحبه عنه ، عملاً بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذى أوردناه . ولنقتصر على هذا المقدار من الأنموذج المتعلق بهذه الآية ، وإلا فبسطه يحتاج إلى غير هذا الموضع ، وفى الحديث الصحيح : بينا رسول الله ﷺ جالس ، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأما أحدهم فوجد فرجة فى الحلقة فدخل فيها ، وأما الآخر فجلس وراء الناس ، وأدبر الثالث ذاهباً . فقال رسول الله ﷺ : « ألا

(١) المسند (٤٧٣٥) والبخارى (٦٢٦٩) ، ومسلم (٢١٧٧ / ٢٨) .

(٢) البخارى (٣٠٤٣) ومسلم (١٧٦٨ / ٦٤) .

(٣) أبو داود (٥٢٢٩) والترمذى (٢٧٦٦) وقال : « إسناده حسن » .

(٤) مسلم (٤٣٢ / ١٢٢) .

(٥) المسند (١٢٢ / ٤) ومسلم (١٢٢ / ٤٣٢) وأبو داود (٦٧٤) وابن ماجه (٩٧٦) .

أنبئكم بخبر الثلاثة ، أما الأول فأوى إلى الله فأواه الله ، وأما الثانى فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه» (١) . وروى الإمام أحمد : عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما » . ورواه أبو داود والترمذى . وحسنه الترمذى (٢) .

وقوله : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل ، أو إذا أمر بالخروج فخرج ، أن يكون ذلك نقصاً فى حقه ، بل هو رفعة ومزية عند الله ، والله تعالى لا يضيع ذلك له ، بل يجزيه بها فى الدنيا والآخرة ، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ، ونشر ذكره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : خير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه . وروى الإمام أحمد عن أبى الطفيل عامر بن وائلة ، أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمر استعمله على مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادى ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبى . قال : وما ابن أبى ؟ فقال : رجل من موالينا . فقال عمر : استخلفت عليهم مولى ؟ . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاض . فقال عمر : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع به آخرين » . وهكذا رواه مسلم (٣) .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَتٌ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجى رسول الله ﷺ ، أى : يساره فيما بينه وبينه ، أن يقدم بين يدى ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ . ثم قال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا ﴾ أى : إلا من عجز عن ذلك لفقره ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فما أمر بها إلا من قدر عليها .

ثم قال : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٌ ﴾ أى : أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﴿ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم . وقد قيل : إنه لم يعمل

(١) البخارى (٦٦) ومسلم (٢١٧٦ / ٢٦) .

(٢) المسند (٦٩٩٩) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (٤٨٤٥) ، والترمذى (٢٧٥٢) .

(٣) المسند (٢٣٢) ومسلم (٢٦٩ / ٨١٧) .

بهذه الآية قبل نسخها سوى على بن أبى طالب، رضى الله عنه. قال مجاهد : نهوا عن مناجاة النبی ﷺ حتى يتصدقوا ، فلم يناعه إلا على بن أبى طالب ، قدم ديناراً صدقة تصدق به ، ثم ناجى النبی ﷺ فسأله عن عشر خصال ، ثم أنزلت الرخصة . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ﴾ إلى ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ : كان المسلمون يقدمون بين يدى النجوى صدقة ، فلما نزلت الزكاة نسخ هذا . وقال قتادة ومقاتل بن حيان : سأل الناس رسول الله ﷺ ، حتى أحفوه بالمسألة ، فقطعهم الله بهذه الآية ، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبي الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة ، فاشتد ذلك عليهم ، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

يقول تعالى منكرأ على المنافقين موالاتهم الكفار فى الباطن ، وهم فى نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٣] . وقال هاهنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى : اليهود ، الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم فى الباطن . ثم قال : ﴿ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ أى : هؤلاء المنافقون ، ليسوا فى الحقيقة لا منكم أيها المؤمنون ، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود . ثم قال : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يعنى : المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا ، وهى اليمين الغموس ، ولا سيما فى مثل حالهم اللعين ، عياداً بالله منه ، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا جاؤوا الرسول حلفوا له بالله أنهم مؤمنون ، وهم فى ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به ؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه ، وإن كان فى نفس الأمر مطابقاً ؛ ولهذا شهد الله بكذبهم فى إيمانهم وشهادتهم لذلك .

ثم قال : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة ، وهى موالات الكافرين ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، واتقوا بالإيمان الكاذبة ، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم ، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أى : فى مقابلة ما امتهنوا

من الحلف باسم الله العظيم فى الإيمان الكاذبة الحائثة .

ثم قال : ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى : لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم ، ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أى : يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً ، ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ أى : يحلفون بالله ، عز وجل ، أنهم كانوا على الهدى والاستقامة ، كما كانوا يحلفون للناس فى الدنيا ؛ لأن من عاش على شىء مات عليه وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس ، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ أى : حلفهم ذلك لربهم ، عز وجل .

ثم قال منكرأ عليهم حسابهم : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ فأكّد الخبر عنهم بالكذب . عن سعيد بن جبیر ؛ أن ابن عباس حدثه : أن النبى ﷺ كان فى ظل حجرة من حجّره ، وعنده نفر من المسلمين قد كان يقلص عنهم الظل ، قال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعينى شيطان ، فإذا أتاكم فلا تكلموه » . فجاء رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فكلّمه ، فقال : « علام تشتمنى أنت وفلان وفلان ؟ » - نفر دعاهم بأسمائهم - قال : فانطلق الرجل فدعاهم ، فحلفوا له واعتذروا إليه ، قال : فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ . رواه الإمام أحمد وابن جرير بنحوه (١) . إسناده جيد ولم يخرجاه .

وحال هؤلاء كما أخبر تعالى عن المشركين حيث يقول : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٣ ، ٢٤] . ثم قال : ﴿ اسْتَحْوِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ أى : استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله ، عز وجل ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ؛ ولهذا روى أبو داود عن أبى الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو ، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليك بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب القاصية » . قال زائدة : قال السائب : يعنى الصلاة فى الجماعة (٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ يعنى : الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْآذِلِينَ ﴾ ﴿ ١٠ ﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿ ١١ ﴾ لَا يَتَّخِذُ قَوْمًا يَتُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

(١) المسند (٢١٤٧) وقال الشيخ أحمد شاكر « إسناده صحيح » وابن جرير فى التفسير (١٧/٢٨) .

(٢) أبو داود (٥٤٧) ، وصححه الألبانى .

أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله، يعنى: الذى هم فى حدّ والشرع فى حدّ، أى: مجانبون للحق مشاقون له، هم فى ناحية والهدى فى ناحية، ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ أى: فى الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب، الأذلين فى الدنيا والآخرة. ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَّا أَنَا وَرُسُلِي﴾ أى: قد حكم وكتب فى كتابه الأول وقدره الذى لا يُخَالَف ولا يُمانع، ولا يبدل بأن النصر له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]. وقال هاهنا: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَّا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أى: كتب القوى العزيز أنه الغالب لأعدائه. وهذا قدر محكم وأمر مبرم، أن العاقبة والنصرة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أى: لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ الآية [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]. وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره: أنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى آخرها فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، حين قتل أباه يوم بدر؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب حين جعل الأمر شورى بعده فى أولئك الستة: «ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته».

وقيل فى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾: نزلت فى أبى عبيدة، قتل أباه يوم بدر ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾: فى الصديق، هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾: فى مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾: فى عمر، قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفى حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، والله أعلم. قلت: ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين فى أسارى بدر، فأشار الصديق بأن يفادوا، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، وهم بنو العم والعشيرة، ولعل الله أن يهديهم. وقال عمر: لا أرى ما رأى يا رسول الله، هل تمكنى من فلان - قريب لعمر - فأقتله، وتمكن علياً من عقيل، وتمكن فلاناً من فلان، ليعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هودة للمشركين... القصة بكاملها.

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أى : من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه ، فهذا ممن كتب الله فى قلبه الإيمان ، أى : كتب له السعادة وقررها فى قلبه وزين الإيمان فى بصيرته . وقال السدى : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ : جعل فى قلوبهم الإيمان . وقال ابن عباس : ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أى : قواهم . وقوله : ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : كل هذا تقدم تفسيره غير مرة . وفى قوله : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : سر بديع ، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر فى الله عَوَضَهُمُ الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم . وقوله : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ أى : هؤلاء حزبُ الله ، أى : عباد الله وأهل كرامته ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ : تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم فى الدنيا والآخرة ، فى مقابلة ما أخبر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان . ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

تفسير سورة الحشر

وهي مدنية

وكان ابن عباس يقول : سورة بنى النضير . عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : أنزلت في بنى النضير . رواه البخارى ومسلم (١) . وروى البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : قل : سورة النضير (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنذَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

يخبر تعالى أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض من شىء يسبح له ويمجده ويقده ، ويصلى له ويوحده ، كقوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : منيع الجبابرة ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى قدره وشرعه . وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : يهود بنى النضير . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والزهرى ، وغير واحد : كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادئهم وأعطاهم عهداً وذمة ، على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه ، فأحل الله بهم بأسه الذى لا يرد ، وأنزل عليهم قضاءه الذى لا يُصدّ ، فأجلاهم النبى ﷺ ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التى ما طمع فيها المسلمون ، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئاً ، وجاءهم ما لم يكن ببالهم ، وسيرهم رسول الله وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام ، وهى أرض المحشر والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر . وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخربون ما فى بيوتهم من المنقولات التى يمكن أن تحمل معهم ؛ ولهذا قال : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ

بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴿١﴾ أى : تفكروا فى عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله ، وكذب كتابه ، كيف يحل به من بأسه المخزى له فى الدنيا ، مع ما يدخره له فى الآخرة من العذاب الأليم .

قال أبو داود : حدثنا محمد بن داود بن سفيان ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ، أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبى ، ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر : إنكم آويتم صاحبنا ، وإننا نقسم بالله لنقاتلنه ، أو لتخرجنه ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مقاتلتكم ونسبى نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبى ومن كان معه من عبدة الأوثان ، اجتمعوا لقتال النبي ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم ، فقال : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ؟ » ، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا ، فبلغ ذلك كفار قريش ، فكتب كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون ، وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خدم نساءكم شيء - وهى الخلاخيل - فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ اجتمعت بنو النضير بالغدر ، فأرسلوا إلى النبي ﷺ : اخرج إلينا فى ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً ، حتى نلتقى بمكان المنصف فيسمعوا منك ، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك ، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم ، قال لهم : « إنكم والله لا تأمنوا عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه » . فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومهم ذلك ، ثم غدا الغد على بنى قريظة بالكتائب ، وترك بنى النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم . وغدا إلى بنى النضير بالكتائب فقاتلهم ، حتى نزلوا على الجلاء . فجلت بنو النضير ، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكان نخل بنى النضير لرسول الله ﷺ خاصة ، أعطاه الله إياها وخصه بها ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يقول : بغير قتال ، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين ، قسمها بينهم ، وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوى حاجة ، ولم يقسم من الأنصار غيرهما ، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التى فى أيدي بنى فاطمة (١) .

ولنذكر ملخص غزوة بنى النضير على وجه الاختصار ، وبالله المستعان :

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازى والسير : أنه لما قُتل أصحابُ بئر معونة ، من أصحاب رسول الله ﷺ ، وكانوا سبعين ، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري ، فلما كان فى أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بنى عامر ، وكان معهما عهد من رسول الله

(١) أبو داود (٣٠٠٤) ، وصححه الألبانى .

ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ : « لقد قتل رجلين، لأدينيهما ». وكان بين بنى النضير وبنى عامر حلف وعهد، فخرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك الرجلين، وكان منازل بنى النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها .

قال ابن إسحاق فى كتابه السيرة : ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير، يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر، اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ؛ للجوار الذى كان رسول الله ﷺ عقد لهما، فيما حدثنى يزيد بن رومان، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا : نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم - فمَنْ رجل يعلو على هذا البيت، فيلقى عليه صخرة، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش ابن كعب أحدهم، فقال : أنا لذلك، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلى . فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه قاموا فى طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال : رأيته داخلاً المدينة . فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيو لحربهم والمسير إليهم . ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه فى الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها . فنادوه : أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعييه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج، منهم عبد الله بن أبى ابن سلول، ووديعه، ومالك ابن أبى قوقل، وسويد وداعس، قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم، إن قوتلتهم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله فى قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة، ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وخلّوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث شاء، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار . إلا أن سهل بن حنيف وأبا دُجانة سماك بن خرشة ذكرا فقراً، فأعطاهما رسول الله ﷺ . قال : ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عمير بن كعب بن عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاهما .

قال ابن إسحاق : وقد حدثنى بعض آل يامين : أن رسول الله ﷺ قال ليامين : « ألم

تر ما لقيتُ من ابن عمك ، وما هم به من شأني » . فجعل يامين بن عُمير لرجل جعل على أن يقتل عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون . قال ابن إسحاق : ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها (١) .

فقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : بني النضير ﴿ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ عن ابن عباس قال : من شك في أن أرض المحشر هاهنا - يعنى الشام فليقرأ هذه الآية : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ ، قال لهم رسول الله ﷺ : « اخرجوا » . قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » (٢) . وقوله : ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ أى : فى مدة حصاركم لهم وقصرها ، وكانت ستة أيام ، مع شدة حصونهم ومنعتها ؛ ولهذا قال : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ أى : جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : ٢٦] . وقوله : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أى : الخوف والهلع والجزع ، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذى نصر بالرعب مسيرة شهر ، صلوات الله وسلامه عليه . وقوله : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك ، وهو نقض ما استحسناه من سقوفهم وأبوابهم ، وتحملها على الإبل ، وكذا قال عروة بن الزبير ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد . وقال مقاتل بن حيان : كان رسول الله ﷺ يقاتلهم ، فإذا ظهر على درب أو دار ، هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال . وكان اليهود إذا علّوا مكاناً أو غلبوا على درب أو دار ، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها ، يقول الله تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى : لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء ، وهو النفى من ديارهم وأموالهم ، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبى ، ونحو ذلك ، قاله الزهرى ، عن عروة ، والسدى وابن زيد ؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم فى الدار الدنيا مع ما أعد لهم فى الآخرة من العذاب فى نار جهنم . قال عروة بن الزبير : ثم كانت وقعة بني النضير ، وهم طائفة من اليهود ، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر . وكان منزلهم بناحية من المدينة ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة ، وهى السلاح ، فأجلاهم رسول الله ﷺ قبل الشام . قال : والجلاء أنه كتب عليهم فى آى من التوراة ، وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليه رسول الله ﷺ ، وأنزل الله فيهم : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ . وقال عكرمة : الجلاء : القتل . وفى رواية عنه : الفناء . وقال قتادة : الجلاء : خروج الناس من البلد إلى البلد . وقال الضحاك : أجلاهم إلى الشام ، وأعطى كل ثلاثة بغيراً وسقاء ، فهذا الجلاء . وقوله : ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ أى : حتم لازم لا بد لهم منه .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى : إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين ؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله ، وكذبوا بما أنزل الله على رسوله المتقدمين فى البشارة بمحمد ﷺ ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ اللين : نوع من التمر ، وهو جيد . قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبرنى من التمر . وقال كثيرون من المفسرين : اللينة : ألوان التمر سوى العجوة . قال ابن جرير : هو جميع النخل . ونقله عن مجاهد : وهو البويرة أيضاً ؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم ، وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم . فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا : فبعث بنو النضير^(١) يقولون لرسول الله ﷺ : إنك تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة ، أى : ما قطعتم وما تركتم من الأشجار ، فالجميع بإذن الله ومشئته وقدرته ورضاه ، وفيه نكاية العدو ، وخزى لهم ، وإرغام لأنوفهم . وقال مجاهد : نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل ، وقالوا : إنما هى مغنم المسلمين . فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه ، وتحليل من قطعه من الإثم ، وإنما قطعه وتركه بإذنه . وروى الإمام أحمد عن نافع ، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قطع نخل بنى النضير وحرّق . وأخرجه صاحبها الصحيح بنحوه^(٢) ، ولفظ البخارى عن ابن عمر قال : حارب النضير وقريظة ، فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومنّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحق بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا ، وأجلى يهود المدينة كلهم بنى قينقاع ، وهم رهط عبد الله بن سلام ، ويهود بنى حارثة ، وكل يهود بالمدينة . ولهما عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ حرّق نخل بنى النضير وقطع - وهى البويرة - فأنزل الله ، عز وجل فيه : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾^(٣) . قال ابن إسحاق : كانت وقعة بنى النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة . وحكى البخارى ، عن الزهرى ، عن عروة أنه قال : كانت وقعة بنى النضير بعد بدر بستة أشهر^(٤) .

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿١﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَيْكُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾

(١) فى المطبوعة : « بنو قريظة » وهو خطأ .

(٢) المسند (٥٤٣٢) والبخارى (٣٠٢١) ومسلم (١٧٤٦ / ٢٩) .

(٣) البخارى (٤٨٨٤) ومسلم (٢٩ / ١٧٤) . (٤) البخارى (٣٢٩ / ٧) فتح .

يقول تعالى مبيناً ما الفىء ، وما صفته ؟ وما حكمه ؟ فالفىء : كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ، كأموال بنى النضير هذه ، فإنها مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أى : لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة ، بل نزل أولئك من الرعب الذى ألقى الله فى قلوبهم من هبة رسول الله ﷺ ، فأفاءه الله على رسوله ؛ ولهذا تصرف فيه كما شاء ، فردّه على المسلمين فى وجوه البر والمصالح التى ذكرها الله ، عز وجل ، فى هذه الآيات ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ أى : من بنى النضير ﴿ فَمَا أُوجِفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يعنى : الإبل ، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : هو قدير لا يُغالب ولا يُمانع ، بل هو القاهر لكل شىء .

ثم قال : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ أى : جميع البلدان التى تفتح هكذا ، فحكمها حكم أموال بنى النضير ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ إلى آخرها والتى بعدها . فهذه مصارف أموال الفىء ووجوهه . روى الإمام أحمد : عن عمر ، قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته وقال مرة : قوت سنته - وما بقى جعله فى الكراع والسلاح فى سبيل الله ، عز وجل . هكذا أخرجه أحمد هاهنا مختصراً ، وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم إلا ابن ماجه (١) - حديث سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن الزهرى ، به .

وقد رويناها مطولاً ، فروى أبو داود عن مالك بن أوس قال : أرسل إلى عمر بن الخطاب ، حين تعالى النهار ، فجئته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رُماله ، فقال حين دخلت عليه : يا مال ، إنه قد دفّ أهل أبيات من قومك ، وقد أمرت فيهم بشىء ، فاقسم فيهم . قلت : لو أمرت غيرى بذلك ؟ فقال : خذه . فجاءه يرفاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هل لك فى عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ؟ فقال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، ثم جاءه يرفاً فقال : يا أمير المؤمنين ، هل لك فى العباس وعلى ؟ قال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، فقال العباس : يا أمير المؤمنين ، اقض بينى وبين هذا - يعنى : علياً - فقال بعضهم : أجل يا أمير المؤمنين ، اقض بينهما وأرحهما .

قال مالك بن أوس : خيّل إلى أنهما قدّما أولئك النفس لذلك . فقال عمر : اتّدا . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُورَث ، ما تركنا صدقة » . قالوا : نعم . ثم أقبل على العباس فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . فقالوا : نعم . فقال : فإن الله خص رسوله بخاصة لم يخص

(١) المسند (١٧١) والبخارى (٤٨٨٥) ومسلم (١٧٥٧ / ٤٨) وأبو داود (٢٩٦٥) والترمذى (١٧١٩) .

بها أحداً من الناس ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . فكان الله أفاء على رسوله أموال بنى النضير ، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم ، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة - أو : نفقته ونفقة أهله سنة - ويجعل ما بقى أسوة المال . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم . ثم أقبل على على والعباس فقال : أنشدكما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمان ذلك ؟ قالوا : نعم . فلما توفى رسول الله ﷺ قال أبو بكر : « أنا ولى رسول الله » ، فجئت أنت وهذا إلى أبى بكر ، تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك ، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها ، فقال أبو بكر : قال رسول الله ﷺ : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق . فوليها أبو بكر ، فلما توفى قلت : أنا ولى رسول الله ﷺ وولى أبى بكر ، فوليتها ما شاء الله أن أليها ، فجئت أنت وهذا ، وأنتم جميع وأمركما واحد ، فسألتمانيها ، فقلت : إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تليها بالذى كان رسول الله ﷺ يليها ، فأخذتماها منى على ذلك ، ثم جئتماني لأقضى بينكما بغير ذلك . والله لا أقضى بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن عجزتُمَا عنها فَرُدَّاهَا إِلَى أَخْرَجُوهُ (١) .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك ، عن نبي الله ﷺ أن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات ، أو كما شاء الله ، حتى فُتِحَتْ عليه قريظة والنضير . قال : فجعل يَرُدُّ بعد ذلك ، قال : وإن أهلى أمرونى أن أتى النبى ﷺ فأسأله الذى كان أهله أعطوه أو بعضه ، وكان نبي الله ﷺ قد أعطاه أم أيمن ، أو كما شاء الله ، قال : فسألتُ النبى ﷺ فأعطانيهن ، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب فى عنقى وجعلت تقول : كلا ، والله الذى لا إله إلا هو لا يُعْطِيكَهُنَّ وقد أعطانيهن ، أو كما قالت ، فقال نبي الله : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول : كلا ، والله . قال : ويقول : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول : كلا والله . قال : ويقول : « لك كذا وكذا » . قال : حتى أعطاهما ، حسبت أنه قال : عشرة أمثال أو قال قريباً من عشرة أمثاله ، أو كما قال . رواه البخارى ومسلم (٢) .

وهذه المصارف المذكورة فى هذه الآية هى المصارف المذكورة فى خمس الغنيمة . وقد قدمنا الكلام عليها فى سورة « الأنفال » بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد .

وقوله : ﴿ كَى لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ أى : جعلنا هذه المصارف لمال الفىء لثلاث يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها ، بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء . وقوله : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ أى : مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر . وروى الإمام

(١) أبو داود (٢٩٦٣) والبخارى (٣٠٩٤) ومسلم (١٧٥٧ / ٤٩) والنسائى (٤١٤٨) والترمذى (١٦١٠) .

(٢) المسند (٢١٩ / ٣) والبخارى (٣١٢٨ ، ٤٠٣٠ ، ٤١٢٠) ومسلم (١٧٧١ / ٧٠) .

أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله ، عز وجل . قال : فبلغ امرأة في البيت يقال لها : « أم يعقوب » ، فجاءت إليه فقالت : بلغني أنك قلت كيت وكيت . قال : ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ، وفي كتاب الله . فقالت : إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته . فقال : إن كنت قرأته فقد وجدته . أما قرأت : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ؟ قالت : بلى . قال : فإن النبي ﷺ نهى عنه . قالت : إني لأظن أهلك يفعلونه . قال : اذهبي فانظري . فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً ، فجاءت فقالت : ما رأيت شيئاً . قال : لو كانت كذلك لم تُجَامعنا . أخرجاه في الصحيحين (١) . وقد ثبت في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » (٢) . وروى النسائي عن ابن عمر وابن عباس : أنهما شهدا على رسول الله ﷺ : أنه نهى عن الدباء والحتم والنكير والمزفت ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أى : اتقوه في امثال أوامره وترك زواجه ؛ فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفء أنهم : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أى : خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أى : هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ، ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم ، وإيثارهم مع الحاجة ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم . قال عمر : وأوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان

(١) المسند (٤١٢٩) والبخارى (٤٨٨٧) ومسلم (٢١٢٥ / ١٢٠) .

(٢) البخارى (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧ / ٤١٢) . .

من قبل ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم . رواه البخارى هاهنا أيضا (١) .
 وقوله : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أى : مَنْ كَرَّمَهُمْ وشرف أنفسهم ، يُحِبُّونَ المهاجرين
 ويواسونهم بأموالهم . روى الإمام أحمد عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ، ما
 رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير ، لقد كفونا المؤنة ،
 وأشركونا فى المهنة ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ! قال : « لا ، ما أثنتم عليهم
 ودعوتهم الله لهم » (٢) . وروى البخارى عن يحيى بن سعيد ، سمع أنس بن مالك حين خرج
 معه إلى الوليد قال : دعا النبى ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين ، قالوا : لا ، إلا أن تقطع
 لإخواننا من المهاجرين مثلها . قال : « إما لا ، فاصبروا حتى تلقونى ، فإنه سيصيبكم
 [بعدى] أثره » . تفرد به البخارى من هذا الوجه (٣) .

وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل .
 قال : لا . فقالوا : تكفونا المؤنة ونشرككم فى الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا . تفرد به دون
 مسلم (٤) .

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ أى : ولا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما
 فضلهم الله به من المنزلة والشرف ، والتقديم فى الذكر والرتبة . قال الحسن البصرى : ﴿ وَلَا
 يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعنى : الحسد . ﴿ مِّمَّا أُوتُوا ﴾ قال قتادة : يعنى : فيما أعطى إخوانهم .
 وكذا قال ابن زيد . وما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد عن أنس قال : كنا
 جلوساً مع رسول الله ﷺ ، فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلع رجل من
 الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد تعلّق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله
 ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى . فلما كان فى اليوم الثالث قال رسول الله
 ﷺ مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى . فلما قام رسول الله ﷺ تبعه
 عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال : إني لاحيت أبى فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن
 رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت . قال : نعم . قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه
 بات معه تلك الثلاث الليالى ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تعارّ وتقلب على
 فراشه ، ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر . قال عبد الله : غير أنى لم أسمعته يقول إلا
 خيراً ، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله ، لم يكن بينى
 وبين أبى غضب ولا هجر ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار : « يطلع
 عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلعت أنت الثلاث المرات ، فأردت أن آوى إليك لأنظر

(١) البخارى (٤٨٨٨) .

(٢) المسند (٢٠٠ / ٣) ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٦١٧) .

(٣) البخارى (٣٧٩٤) وما بين المعقوفين منه .

(٤) البخارى (٢٣٢٥) .

ما عملك فأقتدى به ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت . فلما وليت دعائى فقال : ما هو إلا ما رأيت ، غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : هذه التى بلغت بك ، وهى التى لا تطاق . رواه النسائى وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين (١) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ . يعنى : ﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾ : المهاجرون . قال : وتكلم فى أموال بنى النضير بعض من تكلم من الأنصار ، فعاتبهم الله فى ذلك ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، قال : وقال رسول الله : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » . فقالوا : أموالنا بيننا قطائع . فقال رسول الله ﷺ : « أو غير ذلك ؟ » . قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر » . فقالوا : نعم يا رسول الله (٢) .

وقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ يعنى : حاجة ، أى : يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدؤون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك . وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الصدقة جهد المقل » (٣) . وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ [الإنسان : ٨] . وقوله : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ [البقرة : ١٧٧] . فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تصدق الصديق بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ » . فقال : أبقيت لهم الله ورسوله (٤) . وهكذا الماء الذى عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء ، فرداه الآخر إلى الثالث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم . وروى البخارى : عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبى ﷺ : « ألا رجل يُضَيِّفُ هذا الليلة ، رحمه الله ؟ » . فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله . فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضيفُ رسول الله ﷺ لا تدخره شيئاً . فقالت : والله ما عندى إلا قوتُ الصبية . قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهن وتعالى فأطفئى السراج ونطوى بطوننا الليلة . ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ ، فقال : « لقد

(١) المسند (١٦٦/٣) والنسائى فى الكبرى (١٠٦٩٩) .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٨/٢٨) .

(٣) أحمد (٤١١/٣) وقال الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٥٦٦) : « إسناد جيد رجاله ثقات على شرط مسلم » .

(٤) أبو داود (١٦٧٨) ، وصححه الألبانى .

عجب الله ، عز وجل - أو : ضحك - من فلان وفلانة » . وأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ . وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من طرق وفى رواية لمسلم تسمية هذا الأنصارى بأبى طلحة ، رضى الله عنه (١) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح . روى أحمد : عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » . انفرد بإخراجه مسلم (٢) . وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظلم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التّفحّش ، وإياكم والشح ؛ فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » . رواه أحمد وأبو داود والنسائى (٣) . وعن أبى هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً » (٤) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ : هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفىء ، وهم المهاجرون ثم الأنصار ، ثم التابعون لهم بإحسان ، كما قال فى آية براءة : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٠] . فالتابعون لهم بإحسان هم : المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم فى السر والعلانية ؛ ولهذا قال فى هذه الآية الكريم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أى : قائلين : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا ﴾ أى : بغضاً وحسداً ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة : أن الرافضى الذى يسبّ الصحابة ليس له فى مال الفىء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء فى قولهم : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . عن عائشة قالت : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ ، فسببتموهم . سمعتُ نبيكم ﷺ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » . رواه البغوى (٥) .

(١) البخارى (٣٧٩٨) ومسلم (٢٠٥٤ / ١٧٢) والترمذى (٣٣٠٤) والنسائى فى الكبرى (١١٥٨٢) .

(٢) المسند (٣٢٣ / ٣) ومسلم (٥٦ / ٢٥٧٨) .

(٣) المسند (٦٤٨٧) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (١٦٩٨) والنسائى فى الكبرى (١١٨٣) .

(٤) النسائى (٣١٠٩) ، وصححه الألبانى .

(٥) البغوى فى معالم التنزيل (٨٠ / ٨) ورواه مسلم (١٥ / ٣٠٢٢) بنحوه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه ، حين بعثوا إلى يهود بنى النضير يعدونهم النصر من أنفسهم ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : لكاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولاً ومن نيتهم ألا يفوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذى قالوه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ أى : لا يقاتلون معهم ، ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ ﴾ أى : قاتلوا معهم ﴿ لَيُولَّيْنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها . ثم قال تعالى : ﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله ، كقوله : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء: ٧٧] ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ يعنى : أنهم من جنبهم وهلعهم لا يقدرّون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة ، بل إما فى حصون أو من وراء جدر محاصرين ، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ثم قال : ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أى : عداوتهم بينهم شديدة ، كما قال : ﴿ وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥] ؛ ولهذا قال : ﴿ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ أى : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف . قال إبراهيم النخعي : يعنى : أهل الكتاب والمنافقين ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال مجاهد ، والسدى ، ومقاتل بن حيان : يعنى : كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر . وقال ابن عباس : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى : يهود بنى قينقاع . وكذا قال قتادة ، وابن إسحاق . وهذا القول أشبه بالصواب ، فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا .

وقوله : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ﴾ : معنى : مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم : ﴿ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ ثم لما حقت الحقائق وجدَّ بهم الحصار والقتال ، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان - والعياذ بالله - الكفر ، فإذا دخل فيما سوله تبرأ منه وتنصل ، وقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : فكانت عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له ، مصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ، ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : جزاء كل ظالم .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

روى الإمام أحمد ، عن جرير ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى صدر النهار ، قال : فجاءه قوم حفاة عراة مجتابى النمار - أو : العباء - متقلدى السيوف عامتهم من مضر ، بل كلهم من مضر ، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، قال : فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة ، فصلى ثم خطب ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إلى آخر الآية [النساء: ١] . وقرأ الآية التى فى الحشر : ﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ، تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع برء ، من صاع تمره - حتى قال : ولو بشق تمره . قال : فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتהלل وجهه كأنه مذهبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَنَّ فى الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سَنَّ فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ، من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » . انفراد بإخراجه مسلم (١) .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أمر بتقواه ، وهو يشمل فعل ما به أمر ، وترك ما عنه زجر . وقوله : ﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أى : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ : تأكيد ثان ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : اعلّموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم ، لا تخفى عليه منكم خافية ، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أى : لا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل

الصالح الذى ينفعكم فى معادكم ، فإن الجزء من جنس العمل ؛ ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى : الخارجون عن طاعة الله ، الهالكون يوم القيامة ، الخاسرون يوم معادهم ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩] . وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى عن نعيم بن نَمِحة قال : كان فى خطبة أبى بكر الصديق : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله ، عز وجل ، فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله ، عز وجل . إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم ، فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا فى أيام سلفهم ، وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تبنى عجائبه فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه ، إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ، لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله ، ولا خير فىمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فىمن يخاف فى الله لومة لائم (١) . هذا إسناد جيد ، ورجاله كلهم ثقات .

وقوله : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ أى : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء فى حكم الله يوم القيامة ، كما قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] ، وقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر : ٥٨] . وقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] ؟ فى آيات أخر دالات على أن الله تعالى ، يكرم الأبرار ، ويهين الفجار ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ أى : الناجون المسلمون من عذاب الله ، عز وجل .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ، ومبيناً علو قدره ، وأنه ينبغى أن تخشع له القلوب ،

وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أى : فإذا كان الجبل فى غلظته وقساوته ، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه ، لخشع وتتصدع من خوف الله ، عز وجل ، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع ، وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . قال ابن عباس فى قوله : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ ﴾ إلى آخرها ، يقول : لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه ، لتصدع وخشع من ثقله ، ومن خشية الله . فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . ثم قال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون . وكذا قال قتادة ، وابن جرير . وقد ثبت فى الحديث المتواتر : أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع ، وجاء النبى ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حَنَّ الجذع (١) وجعل يئن كما يئن الصبى الذى يُسَكِّنُ ، لما كان يُسمع من الذكر والوحى عنده . ففى بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصرى بعد إيراده : «فأنتم أحق أن تشاققوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع» . وهكذا هذه الآية الكريمة ، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته ، لخشعت وتتصدعت من خشيته ، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَن قُرْآنًا سِيرَتِ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ الآية [الرعد : ٣١] . وقد تقدم أن معنى ذلك : أى لكان هذا القرآن . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٧٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ : أخبر تعالى أنه الذى لا إله إلا هو فلا رب غيره ، ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، أى : يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شئ فى الأرض ، ولا فى السماء من جليل وحقير وصغير وكبير ، حتى الذر فى الظلمات . وقوله : ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك فى أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته هاهنا . والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وقد قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، وقال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] ، وقال : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨] ، ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ ﴾ أى : المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ قال وهب بن منبه : أى الطاهر . وقال مجاهد ، وقتادة : أى المبارك وقال ابن جريج : تقدسه الملائكة الكرام ﴿ السَّلَامُ ﴾ أى : من جميع العيوب والنقائص ؛ لكمالها فى ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ قال ابن عباس : أمن

خلقه من أن يظلمهم . وقال قتادة : أمّن بقوله : إنه حق . وقال ابن زيد : صدّق عباده المؤمنين فى إيمانهم به ﴿ الْمُهَيَّمِنُ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : أى : الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى : هو رقيب عليهم ، كقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [البروج: ٩] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: ٤٦] ، وقوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ الآية [الرعد: ٣٣] .

وقوله : ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى قد عزّ كل شىء فقهره ، وغلب الأشياء فلا ينال جنباه ؛ لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ؛ ولهذا قال : ﴿ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ أى : الذى لا تليق الجبريّة إلا له ، ولا التكبر إلا لعظمته ، كما فى الصحيح : « العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذّبتة » (١) . وقال قتادة : الجبار : الذى جبر خلقه على ما يشاء . وقال ابن جرير : الجبار : المصلحُ أمورَ خلقه ، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم . وقال قتادة : المتكبر : يعنى عن كل سوء . ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ الخلق : التقدير ، والبراء : هو الفرى ، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله ، عز وجل . ومنه يقال : قدر الجلاد ثم فرى ، أى : قطع على ما قدره بحسب ما يريده . وقوله تعالى : ﴿ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ أى : الذى إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون على الصفة التى يريد ، والصورة التى يختار . كقوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٨] ولهذا قال : ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ أى : الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التى يريدها .

وقوله : ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة الأعراف » ، وذكر الحديث المروى فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » . وتقدم سياق الترمذى وابن ماجه له ، عن أبى هريرة أيضاً ، وزاد بعد قوله : « وهو وتر يحب الوتر » - واللفظ للترمذى - : « هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكيم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال

والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ،
البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » . وسياق ابن ماجة بزيادة ونقصان ، وتقديم
وتأخير ، وقد قدمنا ذلك مبسوطاً مطولاً بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هنا (١) .

وقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ كقوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ
فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] . وقوله :
﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فلا يرام جنابه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى شرعه وقدره .

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٨٠) من سورة الأعراف .

تفسير سورة الممتحنة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَآيَتِيَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَشْقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة ، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان . فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد ، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم ، وقال : « اللهم ، عمّ عليهم خبرنا » . فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً ، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة ، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يداً ، فأطلع الله رسوله على ذلك ، استجابة لدعائه . فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها ، وهذا بين في الحديث المتفق على صحته .

روى الإمام أحمد عن [عليّ ، قال] بعثني رسول الله ﷺ أنا والزيبر والمقداد ، فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها » . فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قلنا : أخرجى الكتاب . قالت : ما معي كتاب . قلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب . قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها ، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطب ، ما هذا ؟ » . قال : لا تعجل عليّ ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني

ولا رضى بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « إنه صدقكم » . فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال : « إنه قد شهد بدرأ ، وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه (١) . وزاد البخارى فى كتاب « المغازى » : فأنزل الله السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ (٢) . وقال فى كتاب التفسير : قال عمرو : ونزلت فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ قال : « لا أدري الآية فى الحديث أو قال عمرو » . قال البخارى : قال على - يعنى : ابن المدينى - : قيل لسفيان فى هذا : نزلت ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ؟ فقال سفيان : هذا فى حديث الناس ، حفظته من عمرو ، ما تركت منه حرفاً ، وما أرى أحداً حفظه غيرى (٣) . وقد أخرجاه فى الصحيحين عن على قال : بعثنى رسول الله ﷺ وأبا مرثد ، والزبير بن العوام ، وكلنا فارس ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب إلى المشركين : فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا : الكتاب ؟ فقالت : ما معى كتاب . فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً ، فقلنا : ما كذب رسول الله ﷺ ! لتخرجن الكتاب أو لنجردنك . فلما رأت الجد أهوت إلى حُجْزَتِهَا وهى مُحْتَجِزَةٌ بكساء فأخرجته . فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ ، فقال عمر : يا رسول الله ، قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلاضرب عنقه . فقال : « ما حملك على ما صنعت ؟ » . قال : والله ما بى إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله ، أردت أن تكون لى عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله . فقال : « صدق ، لا تقولوا له إلا خيراً » . فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلاضرب عنقه . فقال : « أليس من أهل بدر ؟ » فقال : « لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو : قد غفرت لكم » . فدَمَعَت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم . هذا لفظ البخارى فى « المغازى » فى غزوة بدر (٤) .

وقد ذكر ذلك أصحاب المغازى والسير ، فقال ابن إسحاق فى السيرة : حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عُرْوَةَ بين الزبير وغيره من علمائنا قال : لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة ، كتب حاطب بن أبى بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر فى السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة - زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة ، وزعم غيره أنها : سارة ، مولاة لبنى عبد المطلب - وجعل لها جُعللاً على أن تبلغه قريشاً فجعلته فى رأسها ، ثم قتلت عليه قرونها ، ثم خرجت به . وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع

(١) المسند (٦٠٠) والبخارى (٣٠٠٧ ، ٤٨٩٠) ومسلم (٢٤٩٤/١٦١) وأبو داود (٢٦٥٠) والترمذى (٣٣٠٥) .

(٢) البخارى (٤٢٧٤) (٣) البخارى (٤٨٩٠) .

(٤) البخارى (٣٩٨٣) ومسلم (٢٤٩٤ / ١٦١) .

حاطب ، فبعث على بن أبي طالب والزبير بن العوام فقال : « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش ، يحذرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم » . فخرجا حتى أدركاها بالحليفة - حليفة ^(١) بنى أبي أحمد - فاستنزلاها بالحليفة ، فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئا ، فقال لها على بن أبي طالب : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله وما كذبنا ، ولتُخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك . فلما رأت الجد منه قالت : أعرض . فأعرض ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه . فأتى به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله حاطبا فقال : « يا حاطب ما حملك على هذا ؟ » . فقال : يا رسول الله ، أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكن كنت امرأ ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم وكّد وأهل فصانعتهم عليهم . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعنى فلاضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق . فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك يا عمر ! لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » . فأنزل الله ، عز وجل ، فى حاطب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ [الممتحنة: ٤] إلى آخر القصة (٢) .

وروى عن عروة نحو ذلك . وهكذا ذكر مقاتل بن حيان : أن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة : أنه بعث سارة مولاة بنى هاشم ، وأنه أعطها عشرة دراهم ، وأن رسول الله ﷺ بعث فى أثرها عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنهما ، فأدركاها بالجحفة ، وذكر تمام القصة كنحو ما تقدم . وعن السدى قريب منه . وهكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغير واحد : إن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ يعنى : المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين ، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم ، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١] . وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧] . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] ؛ ولهذا قبل رسول الله ﷺ عذر حاطب لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش ، لأجل ما كان له عندهم من الأموال

(١) « بالحليفة » : بالخاء المهملة - وبالحاء أيضا - وكلاهما صحيح : اسم موضع (انظر معجم البلدان) .

(٢) سيرة ابن هشام (٤ / ٣٩ ، ٤٠) .

والأولاد. ويذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن حذيفة قال: ضَرَبَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أمثالاً : واحداً وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر - قال : فضرب لنا منها مثلاً وترك سائرهما، قال : « إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة ، قاتلهم أهل تجبر وعداء ، فأظهر الله أهل الضعف عليهم ، فَعَمَدُوا إِلَى عَدُوِّهِمْ فَاسْتَعْمَلُوهُمْ وَسَلَطُوهُمْ ، فَأَسْخَطُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ » (١) .

وقوله : ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ : هذا مع ما قبله من التهيج على عداوتهم وعدم موالاتهم ؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ أى : لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين ، كقوله : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨] ، وكقوله : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: ٤٠] .

وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ أى : إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين فى سبيلى باغين لمرضاتى عنكم فلا توالوا أعدائى وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم . وقوله : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ أى : تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَتَّقُوكُمْ يُكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ ﴾ أى : لو قدروا عليكم لما أبقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ ﴾ أى : ويحرصون على ألا تنالوا خيراً ، فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهيج على عداوتهم أيضاً .

وقوله : ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى : قرباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً ، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله ، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء . روى الإمام أحمد عن أنس ، أن رجلاً قال : يا رسول الله : أين أبى؟ قال : « فى النار » فلما قفى دعاه فقال : « إن أبى وأباك فى النار » . ورواه مسلم وأبو داود (٢) .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا

(١) المسند (٤٠٧/٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٣٢/٥) : « وفيه الأجلح الكندى وهو ثقة وقد ضعف ، وبقيّة رجاله ثقات » .

(٢) المسند (٢٦٨/٣) ومسلم (٢٠٣ ، ٣٤٧) وأبو داود (٤٧١٨) .

عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ أى : وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ ﴾ أى : تبرأنا منكم ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أى : بدينكم وطريقكم ، ﴿ وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ يعنى : وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ، ما دمت على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿ حَتَّى تَوَمَّنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ أى : إلى أن توحيدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له ، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأنداد والأوثان . وقوله : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ أى : لكم فى إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها ، إلا فى استغفار إبراهيم لأبيه ، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لأبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ، ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤] . وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أى : ليس لكم فى ذلك أسوة ، أى : فى الاستغفار للمشركين ، هكذا قال ابن عباس ، وغير واحد .

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه ، حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم ، فلعجؤوا إلى الله وتضرعوا إليه فقالوا : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : توكلنا عليك فى جميع الأمور ، وسلمنا أمورنا إليك ، وفوضناها إليك ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : المعاد فى الدار الآخرة . ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال مجاهد : معناه : لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . وكذا قال الضحاك . وقال قتادة لا تظهريهم علينا فيفتنوا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه . واختاره ابن جرير . وقال ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وقوله : ﴿ وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : واستر ذنوبنا عن غيرك ، واعف عنها فيما بيننا وبينك ، ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : الذى لا يضام من لاذ بجنابك ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك .

ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ : وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضاً لأن هذه الأسوة المثبتة هاهنا هى الأولى بعينها . وقوله :

﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ : تهيج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد. وقوله : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾
 أى : عما أمر الله به ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كقوله : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ
 اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] . وقال ابن عباس : ﴿الغنى﴾ : الذى قد كمل فى غناه ، وهو الله ،
 هذه صفته لا تنبغى إلا له ، ليس له كفاء ، وليس كمثله شئ ، سبحانه الله الواحد القهار .
 ﴿الْحَمِيدُ﴾ : المستحمد إلى خلقه ، أى : هو المحمود فى جميع أفعاله وأقواله ، لا إله غيره ،
 ولا رب سواه .

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ﴾ ٧ ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ
 تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ٨ ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ
 فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
 الظَّالِمُونَ﴾ ٩

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعبادة الكافرين : ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ
 الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾ أى : محبة بعد البغضة ، ومودة بعد النفرة ، وألفة بعد الفرقة ﴿وَاللَّهُ
 قَدِيرٌ﴾ أى : على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة ، فيؤلف بين القلوب
 بعد العداوة والقساوة ، فتصبح مجتمعة متفقة ، كما قال تعالى ممتناً على الأنصار : ﴿وَاذْكُرُوا
 نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ
 مِنْهَا﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣] . وكذا قال لهم النبي ﷺ : «ألم أجِدْكُمْ ضُلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي ،
 وَكُنْتُمْ مَتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي؟» (١) . وقال الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ
 بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾
 [الأنفال: ٦٢ ، ٦٣] . وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى : يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه
 وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له ، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه ، من أى ذنب كان .

وقوله تعالى : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أى : لا
 ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم فى الدين ، كالنساء والضعفة منهم ، ﴿أَنْ
 تَبَرُّوهُمْ﴾ أى : تحسنوا إليهم ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أى : تعدلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ . روى
 الإمام أحمد عن أسماء - هى بنت أبى بكر - قالت : قَدَمْتُ أُمِّى وهى مشركة فى عهد قريش
 إذ عاهدوا ، فأتيتُ النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن أُمِّى قدمت وهى راعبة ، أفأصلها ؟
 قال : « نعم ، صلى أملك » أخرجاه (٢) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الزبير ، قال :

(١) رواه البخارى (٤٣٣٠) .

(٢) المسند (٦ / ٣٤٤ ، ٣٤٧) والبخارى (٢٦٢٠ ، ٣١٨٣ ، ٥٩٧٨) .

قدمت قتيلة على ابنتها أسماء ابنة أبي بكر بهدايا: ضباب وقرظ وسمن ، وهى مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها . فسألت عائشة النبى ﷺ ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ إلى آخر الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها ، وأن تدخلها بيتها (١) . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ : تقدم تفسير ذلك فى سورة « الحجرات » ، وأورد الحديث الصحيح : « المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش ، الذين يعدلون فى حكمهم ، وأهاليهم ، وما ولّوا » (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ ﴾ : أى : إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم العداوة ، فقاتلوكم وأخرجوكم ، وعاونوا على إخراجكم ، ينهاكم الله عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم . ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥١] .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُهُمْ مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَايَتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَسَأَلُوا مَّا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُم مَّا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُم إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابَقْتُمْ فَذَٰلِكَ الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَّا أَنفَقُوا ۚ وَأَنْفَقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۝١١﴾

تقدم فى سورة « الفتح » ذكر صلح الحديبية الذى وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش ، فكان فيه : « على ألا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا » . وفى رواية : « على أنه لا يأتيك منا أحد - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا » . وهذا قول عروة ، والضحاك ، وعبد الرحمن ابن زيد ، والزهرى ، ومقاتل ، والسدى . فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة ، وهذا من أحسن أمثلة ذلك ، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة ، فإن الله ، عز وجل ، أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن ، فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ : كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله ورسوله . وقال مجاهد : ﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ : فاسألوهن ، ما جاء بهن ؟ فإن كان جاء بهن غضبٌ على أزواجهن أو سخطة أو غيره ، ولم

يؤمن فارجعوهن إلى أزواجهن . وقال عكرمة : يقال لها : ما جاء بك إلا حب الله ورسوله ؟ وما جاء بك عشق رجل منا ، ولا فرار من زوجك ؟ فذلك قوله : ﴿ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ . وقال قتادة : كانت محنتهن أن يستحلفن بالله : ما أخرجكن النشوز ؟ وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله وحرص عليه ؟ فإذا قلن ذلك قبل ذلك منهن .

وقوله : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ : فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً . وقوله : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ : هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين ، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة ؛ ولهذا كان أبو العاص بن الربيع زوج ابنة النبي ﷺ زينب ، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعثت امرأته زينب في فدائه بقلادة لها كانت لأُمها خديجة ، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رَقَّةً شديدةً ، وقال للمسلمين : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا » . ففعلوا ، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه ، فوفى له بذلك وصدقه فيما وعده ، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة ، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر ، وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها العاص بن الربيع سنة ثمان فردها عليه بالنكاح الأول ، ولم يحدث لها صداقاً ، كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ رد ابنته زينب على أبي العاص ، وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنين على النكاح الأول ، ولم يحدث شهادة ولا صداقاً . ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه (١) . ومنهم من يقول : « بعد سنتين » ، وهو صحيح ؛ لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بستتين . وقال الترمذي : « ليس بإسناده بأس » ولا نعرف وجه هذا الحديث ، ولعله جاء من حفظ داود بن الحصين . وسمعت عبد بن حميد يقول : سمعت يزيد بن هارون يذكر عن ابن إسحاق هذا الحديث ، وحديث ابن الحجاج - يعني ابن أرطاة - عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله ﷺ رد ابنته على أبي العاص ابن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد . فقال يزيد : حديث ابن عباس أجودُ إسناداً ، والعمل على حديث عمرو بن شعيب .

قلت : وقد رَوَى حديث الحجاج بن أرطاة ، عن عمرو بن شعيب الأمام أحمد والترمذي وابن ماجه (٢) ، وضعفه الإمام أحمد وغير واحد ، والله أعلم . وأجاب الجمهور عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضية عين يحتمل أنه لم تنقض عدتها منه ؛ لأن الذي عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدة ولم يسلم انفسخ نكاحها منه . وقال آخرون : بل إذا انقضت العدة هي بالخيار ، إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت ، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت ، وحملوا عليه حديث ابن عباس ، والله أعلم .

(١) المسند (٢٣٦٦) ثم مختصراً برقم (١٨٧٦) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (٢٢٤٠) والترمذي (١١٤٣) وابن ماجه (٢٠٠٩) .

(٢) المسند (٦٩٣٨) والترمذي (١١٤٢) وابن ماجه (٢٠١٠) .

وقوله : ﴿ وَآتُوهُمْ مَّا أَنْفَقُوا ﴾ يعنى : أزواج المهاجرات من المشركين ، ادفعوا إليهم الذى غرموه عليهن من الأصدقة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والزهرى ، وغير واحد .
وقوله : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾ يعنى : إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن ، أى : تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولى وغير ذلك . وقوله : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ ﴾ : تحريم من الله ، عز وجل ، على عباده المؤمنين نكاح المشركات ، والاستمرار معهن . وفى الصحيح عن المسور ومروان بن الحكم : أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاء نساء من المؤمنات ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ ﴾ ، فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين ، تزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية (١) . وقال الزهرى : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ، وهو بأسفل الحديبية ، حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم ، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية ، وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن ، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى زوجها ، وقال : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ ﴾ . وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال : وإنما حكم الله بينهم بذلك ، لأجل ما كان بينهم وبينهم من العهد .

وقوله : ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ أى : وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار ، إن ذهبن ، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهن اللاتي هاجرن إلى المسلمين .
وقوله : ﴿ ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أى : فى الصلح واستثناء النساء منه ، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : عليم بما يصلح عباده ، حكيم فى ذلك .

ثم قال : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : هذا فى الكفار الذين ليس لهم عهد ، إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً ، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيئاً ، حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها . وقال الزهرى قال : أقر المؤمنون بحكم الله ، فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التى أنفقوا على نسائهم ، وأبى المشركون أن يقرؤا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المشركين التى أنفقوا على نسائهم ، وأبى المشركون أن يقرؤا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين ، فقال الله للمؤمنين به : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين ، ردّ المؤمنون إلى زوجها النفقة التى أنفق عليها من العقب الذى بأيديهم ، الذى أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التى أنفقوا على أزواجهن اللاتي آمن وهاجرن ، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقى لهم .

والعقب : ما كان بقى من صداق نساء الكفار حين آمنّ وهاجرن . وقال ابن عباس فى هذه الآية : يعنى إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار ، أمر له رسول الله ﷺ أنه يعطى من الغنيمة مثل ما أنفق . وهكذا قال مجاهد : ﴿ فَعَاقِبْتُمْ ﴾ : أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿ فَاتُّوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ يعنى : مهر مثلها . وهكذا قال مسروق ، وإبراهيم ، وقتادة ، ومقاتل ، والضحاك ، وسفيان ابن حسين ، والزهرى أيضاً . وهذا لا ينافى الأول ؛ لأنه إن أمكن الأول فهو أولى ، وإلا فمن الغنائم اللاتى تؤخذ من أيدي الكفار . وهذا أوسع ، وهو اختيار ابن جرير ، ولله الحمد والمنة .

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿ ١٢ ﴾

روى البخارى عن عروة ، أن عائشة زوج النبى ﷺ أخبرته : أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . قال عروة : قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله ﷺ : « قد بايعتك » ، كلاماً ، ولا والله ما مست يده يد امرأة قطّ فى المبايعة ، ما يبايعهن إلا بقوله : « قد بايعتك على ذلك » . هذا لفظ البخارى (١) . وروى الإمام أحمد عن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت رسول الله ﷺ فى نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما فى القرآن : ﴿ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾ الآية ، وقال : « فيما استطعتن وأطقتن » ، قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا : يا رسول الله ، ألا تصافحنا ؟ قال : « إني لا أصافح النساء ، إنما قولى لامرأة واحدة كقولى لمائة امرأة » . هذا إسناد صحيح ، وقد رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وقال الترمذى : حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن المنكدر (٢) . وروى الإمام أحمد عن سلمى بنت قيس - وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ قد صلت معه القبلتين ، وكانت إحدى نساء بنى عدى بن النجار - قالت : جئت رسول الله ﷺ نبايعه فى نسوة من الأنصار ، فلما شرط علينا : ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف - قال : « ولا تغششن أزواجكن » . قالت : فبايعناه ، ثم انصرفنا ، فقلت لامرأة منهن : ارجعى فسلّى رسول الله ﷺ : ما غش أزواجنا ؟ قال : فسألته فقال : « تأخذ ماله ، فتحابى به غيره » (٣) .

وروى البخارى عن أم عطية قالت : بايعنا رسول الله ﷺ ، فقرأ علينا : ﴿ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ

(١) البخارى (٤٨٩١) .

(٢) المسند (٦ / ٣٥٧) والترمذى (١٥٩٧) والنسائى (٤١٨١) وابن ماجه (٢٨٧٤) .

(٣) المسند (٦ / ٣٧٩) وقال الهيثمى فى الزوائد (٦ / ٣٨) : « رجاله ثقات » .

شيئاً ، ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة يدها ، فقالت : أسعدتنى فلانة أريد أن أجزيها .
فما قال لها رسول الله شيئاً ، فانطلقت ورجعت فبايعها . ورواه مسلم . وفى رواية : « فما وفى
منهن امرأة غيرها ، وغير أم سليم ابنة ملحان » (١) . وللبخارى عن أم عطية قالت : أخذ علينا
رسول الله ﷺ عند البيعة ألا ننوح ، فما وقّت منا امرأة غير خمس نسوة : أم سليم ، وأم
العلاء ، وابنة أبى سبرة امرأة معاذ ، وامرأتان - أو : ابنة أبى سبرة ، وامرأة معاذ ، وامرأة
أخرى (٢) .

وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد ، كما روى البخارى عن ابن
عباس قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان ، فكلهم
يصلونها قبل الخطبة ثم يخطب بعد ، فنزل نبي الله ﷺ ، فكأنى أنظر إليه حين يجلس الرجال
بيده ، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى
أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ ،
حتى فرغ من الآية كلها . ثم قال حين فرغ : « أنتن على ذلك ؟ » . فقالت امرأة واحدة ، لم
يجبه غيرها : نعم يا رسول الله - لا يدرى الحسن من هى - قال : « فتصدقن » ، قال :
وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتح والخواتيم فى ثوب بلال (٣) . وروى الإمام أحمد عن
عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ
تبايعه على الإسلام ، فقال : « أبايك على ألا تشركى بالله شيئاً ، ولا تسرقى ، ولا تزنى ،
ولا تقتلى ولدك ، ولا تأتى ببهتان تفتريه بين يديك ورجليك ، ولا تنوحى ، ولا تبرجى
تبرج الجاهلية الأولى » (٤) . وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند رسول الله
ﷺ فى مجلس فقال : « تبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا
تقتلوا أولادكم - قرأ الآية التى أخذت على النساء ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ - فمن وفى منكم فأجره
على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً
فستره الله عليه ، فهو إلى الله ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه » . أخرجاه فى الصحيحين (٥) .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الفتح ، فبايع رسول الله ﷺ الرجال على
الصفاء ، وعمر يبايع النساء تحتها عن رسول الله ﷺ ، فذكر بقيته كما تقدم وزاد : فلما قال :
﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ ، قالت هند : ربيناهم صغاراً فقتلتموهم كباراً . فضحك عمر بن الخطاب
حتى استلقى .

فقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ أى : من جاءك منهن يبايع على هذه

(٢) البخارى (١٣٠٦) .

(١) البخارى (٤٨٩٢) ومسلم (٩٣٦ / ٣١) .

(٣) البخارى (٤٨٩٥) .

(٤) المسند (٦٨٥٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٥) المسند (٣١٤ / ٥) والبخارى (٤٨٩٤) ومسلم (١٧٠٩ / ٤١) .

الشروط ، فبايعها ، ﴿ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ ﴾ أى : أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج مقصراً فى نفقتها ، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ، ما جرت به عادة أمثالها ، وإن كان بغير علمه ، عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بنى ، فهل على جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : «خذى من ماله بالمعروف ما يكفىك ويكفى بنيك» . أخرجاه فى الصحيحين (١) . وقوله : ﴿ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢] . وفى حديث سَمُرَةَ ذَكَرُ عَقُوبَةَ الزَّانَا بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فى نار الجحيم (٢) . وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت : جاءت فاطمة بنت عتبة تباع النبی ﷺ فأخذ عليها : ﴿ أَنْ لَا يُشْرِكَنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ الآية ، قالت : فوضعت يدها على رأسها حياء ، فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة : أقرى أيتها المرأة ، فوالله ما بايعنا إلا على هذا . قالت : فنعم إذا . فبايعها بالآية (٣) . وقوله : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ : وهذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ، ويعم قتله وهو جنين ، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء ، تطرح نفسها لثلاث تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه . وقوله : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بَهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ قال ابن عباس : يعنى لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم . وكذا قال مقاتل . وقوله : ﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ يعنى : فما أمرتهن به من معروف ، ونهيتهن عنه من منكر . روى البخارى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ قال : إنما هو شرط شرطه الله للنساء (٤) . وقال ميمون بن مهران : لم يجعل الله لنبية طاعة إلا للمعروف ، والمعروف : طاعة . وقال ابن زيد : أمر الله بطاعة رسوله ، وهو خيرة الله من خلقه فى المعروف . وقد قال غيره عن ابن عباس ، وأنس بن مالك ، وسالم بن أبى الجعد ، وأبى صالح ، وغير واحد : نهاهن يومئذ عن النوح .

وروى ابن جرير عن أم عطية الأنصارية قالت : كان فيما اشترط علينا من المعروف حين بايعنا ألا ننوح ، فقالت امرأة من بنى فلان : إن بنى فلان أسعدونى ، فلا حتى أجزئهم فانطلقت فأسعدتهم ، ثم جاءت فبايعت ، قالت : فما وفى منهن غيرها ، وغير أم سليم ابنة ملحان أم أنس بن مالك . وقد روى البخارى هذا الحديث (٥) . وروى ابن جرير عن أم سلمة ، عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ ، قال : «النوح» . ورواه الترمذى وابن ماجه . وقال الترمذى : حسن غريب (٦) .

(١) البخارى (٧١٨٠) ومسلم (١٧١٤ / ٧) .

(٢) المسند (٥ / ١٥) . والحديث رواه مسلم (٢٢٧٥ / ٢٣) .

(٣) المسند (٦ / ١٥١) وذكر الهيثمى فى الزوائد (٦ / ٤٠) أن رجاله رجال الصحيح .

(٤) البخارى (٤٨٩٣) .

(٥) ابن جرير فى التفسير (٢٨ / ٥٢) والبخارى (٤٨٩٢) .

(٦) ابن جرير فى التفسير (٢٨ / ٥٣) والترمذى (٣٣٠٧) وابن ماجه (١٥٧٩) .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَیْسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا
يَیْسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ ﴿١٢﴾

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين فى آخر « هذه السورة » كما نهى عنها فى أولها فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى : اليهود والنصارى وسائر الكفار ، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد یسوا من الآخرة ، أى : من ثواب الآخرة ونعيمها فى حكم الله عز وجل .
وقوله : ﴿ كَمَا يَیْسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : كما یس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين فى القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك ؛ لأنهم لا یعتقدون بعثا ولا نشورا ، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما یعتقدونه . قال ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى آخر السورة ، يعنى : من مات من الذين كفروا فقد یس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو یبعثهم الله عز وجل . وقال الحسن البصرى : ﴿ كَمَا يَیْسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ قال : الكفار الأحياء قد یسوا من الأموات . وقال قتادة : كما یس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا . وكذا قال الضحاك . رواهن ابن جریر .

والقول الثانى : معناه : كما یس الكفار الذين هم فى القبور من كل خير .

قال ابن مسعود : ﴿ كَمَا يَیْسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ قال : كما یس هذا الكافر إذا مات وعاین ثوابه واطلع عليه . وهذا قول مجاهد ، وعكرمة ، ومقاتل ، وابن زید ، والكلبى ، ومنصور . وهو اختیار ابن جریر .

تفسير سورة الصف

وهي مدنية

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا: أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله: أي الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يقم أحد منا، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً، فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة، يعنى سورة الصف كلها. هكذا رواه الإمام أحمد (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ أَمْرًا كَبِيرًا ﴿٤﴾

تقدم الكلام على قوله: ﴿ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ غير مرة، بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ إنكار على من يعد وعدا، أو يقول قولاً لا يفي به، ولهذا استند بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتب عليه غرم للموعد أم لا. واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان » (٢). وفي الحديث الآخر في الصحيح: « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلته من نفاق حتى يدعها » (٣) فذكر منهن إخلاف الوعد. ولهذا أكد تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾. وذهب الإمام مالك، رحمه الله، إلى أنه إذا تعلق بالوعد غرم على الموعد وجب الوفاء به، كما لو قال لغيره: « تزوج ولك على كل يوم كذا ». فتزوج، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك، لأنه تعلق به حق آدمي، وهو مبني على المضايقة. وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فرضية الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾

(١) المسند (٥ / ٤٥٢) والحاكم في المستدرک (٢ / ٤٨٧) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) البخاری (٣٣) ومسلم (٥٦ / ١٠٧).

(٣) البخاری (٣٤) ومسلم (١٠٦ / ١٠٦).

[النساء : ٧٧، ٧٨] . وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ الآية [محمد : ٢٠] وهكذا هذه الآية معناها ، كما قال ابن عباس في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لَوَدِدْنَا أَنَّ اللَّهَ - عز وجل - دلنا على أحب الأعمال إليه ، فنعمل به . فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فقال الله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ؟ . وهذا اختيار ابن جرير . وقال مقاتل بن حيان : قال المؤمنون : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به . فدلهم الله على أحب الأعمال إليه ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ ، فبين لهم ، فابتلوا يوم أحد بذلك ، فولوا عن النبي ﷺ مدبرين ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ؟ وقال : أحبكم إلى من قاتل في سبيلي .

ومنهم من يقول : أنزلت في شأن القتال ، يقول الرجل : قاتلت ، ولم يقاتل . وطعنت ، ولم يطعن وضربت ، ولم يضرب وصبرت ، ولم يصبر . وقال قتادة ، والضحاك : نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون : « قتلنا ، ضربنا ، طعنا ، وفعلنا » . ولم يكونوا فعلوا ذلك . وقال ابن يزيد : نزلت في قوم من المنافقين ، كانوا يعدون المسلمين النصر ، ولا يفون لهم بذلك . وقال زيد بن أسلم : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، قال : في الجهاد . وقال مجاهد : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ فما بين ذلك : في نفر من الأنصار ، فيهم عبد الله ابن رواحة ، قالوا في مجلس : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله ، لعملنا بها حتى نموت . فأنزل الله هذا فيهم . فقال عبد الله بن رواحة : لا أبرح حبيسا في سبيل الله حتى أموت . فقتل شهيداً .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ ، فهذا إخبار من الله تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجيهين لأعداء الله في حومة الوغى ، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله ، لتكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر العالی على سائر الأديان . وروى ابن أبي حاتم عن مطرف قال : كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهى لقاءه ، فلقيته فقلت : يا أبا ذر ، كان يبلغني عنك حديث ، فكنت أشتهى لقاءك ، فقال : لله أبوك ! فقد لقيت ، فهات . فقلت : كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم أن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة ؟ قال : أجل ، فلا إخالني أكذب على خليلي ﷺ . قلت : فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله ؟ قال : رجل غزا في سبيل الله ، خرج محتسبا مجاهدا فلقى العدو فقتل ، وأنتم تجدون في كتاب الله المنزل ، ثم قرأ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٥﴾ وذكر الحديث . وقد أخرجه الترمذى والنسائى عن أبى ذرٍّ بأبسط من هذا السياق وأتم (١) .

وقال سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصفاهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ : ملتصق بعضه فى بعض ، من الصف فى القتال . وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه إلى بعض . وقال ابن عباس : ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ : مثبت ، لا يزول ، ملتصق بعضه ببعض . وقال قتادة : ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ : ألم تر إلى صاحب البنيان ، كيف لا يحب أن يختلف بنيانه ؟ فكذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره ، وإن الله صف المؤمنين فى قتالهم وصفهم فى صلاتهم ، فعليكم بأمر الله ، فإنه عصمة لمن أخذ به .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أى : لم توصلون الأذى إلى وأنتم تعلمون صدقنى فيما جئتكم به من الرسالة ؟ . وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ؛ ولهذا قال : « رحمة الله على موسى : لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » (٢) . وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبى ﷺ أو يؤصلوا إليه أذى ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ [الاحزاب : ٦٩] .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أى : فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاع الله قلوبهم عن الهدى ، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] وقال ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] ولهذا قال الله تعالى فى هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ يعنى : التوراة قد بشرت بى ، وأنا مصداق ما أخبرت عنه ، وأنا مبشّر بمن بعدى ، وهو الرسول النبى الأمى العربى المكى أحمد . فعيسى ، عليه السلام ،

(١) الترمذى (٢٥٦٨) وقال الترمذى : « هذا حديث صحيح » والنسائى (٢٥٧٠) .

(٢) البخارى (٣٤٠٥) ومسلم (١٠٦٢ / ١٤٢) .

هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ، وقد أقام فى ملا بنى إسرائيل مبشراً بمحمد ، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى لا رسالة بعده ولا نبوة . وما أحسن ما أورد البخارى عن جبير بن مطعم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » . ورواه مسلم (١) . وروى أبو داود الطيالسى عن أبى موسى قال : سَمَى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماءً ، منها ما حفظنا فقال : « أنا محمد ، وأحمد ، والحاشر ، والمقفى ، ونبى الرحمة ، والتوبة ، والملحمة » . ورواه مسلم (٢) .

وقد قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الاعراف: ١٥٧] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحَكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١] . قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد : لئن بعث محمد وهو حى ليتبعه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعه وينصرنه . وقال محمد بن إسحاق عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبُشرى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » (٣) . وهذا إسناد جيد . وروى له شواهد من وجوه آخر ، فروى الإمام أحمد عن العرباض بن سارية قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طيئته ، وسأنبئكم بأول ذلك دَعْوَةُ أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين » (٤) .

وروى أحمد أيضا عن أبى أمامة قال : قلت يا نبى الله ، ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبُشرى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام » (٥) .

وروى أحمد أيضا عن عبد الله بن مسعود قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشى ونحن نحو من ثمانين رجلا ، منهم : عبد الله بن مسعود ، وجعفر ، وعبد الله بن [عُرْفُطَةَ] (٦) ، وعثمان بن مظعون ، وأبو موسى . فأتوا النجاشى ، وبعثت قريش عمرو بن العاص ، وعمارة

(١) البخارى (٤٨٩٦) ومسلم (٢٣٥٤ / ١٢٤) .

(٢) أبو داود الطيالسى فى مسنده (٤٩٢) ومسلم (٢٣٥٥ / ١٢٦) .

(٣) الحاكم فى المستدرک (٢ / ٦٠٠) .

(٤) المسند (٤ / ١٢٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٢٦) « رواه أحمد بأسانيد وأحد رجالها رجال الصحيح غير سعيد بن سويد وقد وثقه ابن حبان » .

(٥) المسند (٥ / ٢٦٢) وحسنه الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٢٥) .

(٦) فى المطبوع : « رواحة » ومكانها بياض بالمخطوطة ، والمثبت من المسند .

ابن الوليد بهدية ، فلما دخلا على النجاشي سَجَدَا له ، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ، ثم قالوا له : إن نفرأ من بنى عمنا نزلوا أرضك ، ورجبوا عنا وعن ملتنا . قال : فأين هم ؟ قالوا : هم فى أرضك ، فابعث إليهم . فبعث إليهم . فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم . فاتبعوه فسلم ولم يسجد ، فقالوا له : ما لك لا تسجد للملك ؟ قال : إنا لا نسجد إلا لله عز وجل . قال : وما ذاك ؟ قال : إن الله بعث إلينا رسوله ، فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل ، وأمرنا بالصلاة والزكاة .

قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك فى عيسى ابن مريم . قال : ما تقولون فى عيسى ابن مريم وأمه ؟ قالوا : نقول كما قال الله عز وجل : هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول ، التى لم يمسهما بشر ولم يفرضها ولد . قال : فرفع عوداً من الأرض ثم قال : يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ، والله ما يزيدون على الذى نقول فيه ، ما يساوى هذا . مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى نجد فى الإنجيل ، وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم . انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه . وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما ، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدرأ ، وزعم أن النبى ﷺ استغفر له حين بلغه موته (١) .

وقد رويت هذه القصة عن جعفر وأم سلمة رضى الله عنهما ، وموضع ذلك كتاب السيرة . والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه فى كتبها على أممها ، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بعث . وكان ما اشتهر الأمر فى أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده ، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، وكذا على لسان عيسى ابن مريم ؛ ولهذا قالوا : « أخبرنا عن بدء أمرك » يعنى : فى الأرض ، قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى ابن مريم ، ورؤيا أمى التى رأت » أى : ظهر فى أهل مكة أثر ذلك والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ قال ابن جرير وابن جرير : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم ﴾ أحمد ، أى : المبشر به فى الأعصار المتقدمة ، المنوّه بذكره فى القرون السالفة ، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة المخالفون : ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ أى : لا أحد

أظلم ممن يفترى الكذب على الله ، ويجعل له أندادا وشركاء ، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . ثم قال : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى : يحاولون أن يردوا الحق بالباطل ، ومثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ مَتَمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين فى سورة «براءة» ، بما فيه كفاية ، ولله الحمد والمنة (١).

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تَحْرِيقِ نُجُجِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

تقدم فى حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة ، أرادوا أن يسألوا عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه ، فأنزل الله هذه السورة ، ومن جملتها هذا الآية : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تَحْرِيقِ نُجُجِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ ثم فسر هذه التجارة العظيمة التى لا تبور ، التى هى محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال : ﴿ تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : من تجارة الدنيا ، والكد لها والتصدى لها وحدها . ثم قال : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أى : إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتم عليه ، غفرت لكم الزلات ، وأدخلتكم الجنات ، والمسكن الطيبات ، والدرجات العاليات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ أى : وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها ، وهى : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : إذا قاتلتم فى سبيله ونصرتم دينه ، تكفل الله بنصركم . قال الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] . وقال تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] . وقوله : ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : عاجل . فهذه الزيادة هى خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة ، لمن أطاع الله ورسوله ، ونصر الله ودينه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَن أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم ، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ؟ أى : من مُعِينِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام : ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ أى : نحن أنصارك على ما أرسلت به وموآزروك على ذلك ؛ ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين . وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج : « من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي ، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي ؟ » (١) . حتى قِيضَ الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فبايعوه ووازره ، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم ، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه ؛ ولهذا سماهم الله ورسوله : الأنصار ، وصار ذلك علما عليهم ، رضى الله عنهم ، وأرضاهم .

وقوله : ﴿ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ أى : لما بلغ عيسى ابن مريم عليه السلام رسالة ربه إلى قومه ، ووازره من وازره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ، ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - وغلت فيه طائفة ممن اتبعه ، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ، وافترقوا فرقا وشيعا ، فمن قائل منهم : إنه ابن الله . وقائل : إنه ثالث ثلاثة : الأب ، والابن ، وروح القدس . ومن قائل : إنه الله . وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء . وقوله : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ ﴾ أى : نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ، ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أى : عليهم ، وذلك ببعثة محمد ﷺ ، كما روى جرير . عن ابن عباس ، قال : لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلا ، من عين في البيت ، ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بى اثنتى عشر مرة بعد أن آمن بى . قال : ثم قال : أيكم يلقي عليه شبهى فيقتل مكانى ، ويكون معنى فى درجتى ؟ قال : فقام شاب من أحدثهم سنا فقال : أنا . قال : فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا . فقال له : اجلس . ثم عاد عليهم فقام الشاب ، فقال : أنا . فقال : نعم ، أنت ذاك . قال : فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى عليه السلام من روزنة في البيت إلى السماء ، قال : وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه ، وكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به ، ففترقوا ثلاث فرق . قالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة ، فقتلوهما ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا ﷺ ، ﴿ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾

(١) المسند (٣ / ٣٢٢) والحاكم في المستدرک (٢ / ٦٢٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

يعنى : الطائفة التى كفرت من بنى إسرائيل فى زمن عيسى ، والطائفة التى آمنت فى زمن عيسى ، ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ . هذا لفظه فى كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة . وهكذا رواه النسائى (١) .

فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك ، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح ، والله أعلم .

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٨ / ٦٠) والنسائى فى الكبرى (١١٥٩١) .

تفسير سورة الجمعة

وهي مدنية

عن ابن عباس ، وأبى هريرة : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمناققين . رواه مسلم في صحيحه (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ١ ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ٢ ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ٣ ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ٤

يخبر تعالى أنه يُسَبِّحُ له ما في السموات وما في الأرض ، أى : من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٤٤] . ثم قال تعالى : ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ﴾ أى : هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه ، وهو المقدس ، أى : المنزه عن النقائص ، الموصوف بصفات الكمال ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم تفسيره غير مرة .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ العرب كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكد ، كما في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] ، وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به . وكذا قوله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقوله : ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وقوله إخبارا عن القرآن : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق ، أحمرهم وأسودهم ، وقد قدمنا تفسير ذلك في سورة الأنعام ، بالآيات والأحاديث الصحيحة ، ولله الحمد والمنة .

وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم ، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . فبعثه الله سبحانه وتعالى

(١) مسلم (٨٧٧ / ٦١) عن أبى هريرة (٨٧٩ / ٦٤) عن ابن عباس .

وله الحمد والمنة، على حين فترة من الرسل ، وطُمُوس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه ، وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب - أى : نذرا يسيرا - ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ . وذلك أن العرب كانوا قديما متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيروه ، وقلبوه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركا ، وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها ، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ، ورضا الله عنهم ، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله ، حاكم ، فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع . وجمع له تعالى ، وله الحمد والمنة ، جميع المحاسن ممن كان قبله ، وأعطاه ما لم يُعطِ أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين ، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

وقوله : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ روى البخارى عن أبى هريرة ، قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ ، قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً ، وفيما سلمان الفارسى ، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال - أو : رَجُلٌ - من هؤلاء » . ورواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى وابن أبى حاتم ، وابن جرير (١) . ففى هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية ، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس ؛ لأنه فسر قوله : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ بفارس ؛ ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم ، يدعوهم إلى الله عز وجل ، وإلى اتباع ما جاء به ؛ ولهذا قال مجاهد وغير واحد فى قوله : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قال : هم الأعاجم ، وكل من صدق النبي ﷺ من غير العرب . وعن سهل بن سعد الساعدى قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ فِي أَصْلَابِ أَصْلَابِ أَصْلَابِ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ مِنْ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، ثم قرأ : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ (٢) . يعنى : بقية من بقى من أمة محمد ﷺ . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : ذو العزة والحكمة فى شرعه وقدره . وقوله : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ يعنى : ما أعطاه الله محمداً ﷺ من النبوة العظيمة ، وما خص به أمته من بعثته ﷺ .

(١) البخارى (٤٨٩٧) ومسلم (٢٥٤٦ / ٢٣٠) والترمذى (٣٣١٠) وابن جرير فى التفسير (٦٢ / ٢٨) .

(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٠١ / ٦) وقال الهيثمى فى الزوائد (٤٠٨ / ١٠) : « إسناده جيد » ، وقال الألبانى :

« إسناده صحيح ، رجاله كلهم ثقات » انظر : ظلال الجنة فى تخريج أحاديث السنة (٣٠٩) .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ٥ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَرْشِ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْتَبِهُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ، ثم لم يعملوا بها ، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا ، أى : كمثل الحمار إذا حمل كتبا لا يدرى ما فيها ، فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدرى ما عليه . وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذى أوتوه ، حفظوه لفظاً ولم يفهموه ، ولا عملوا بمقتضاه ، بل أولوه وحرفوه وبدلوه ، فهم أسوأ حالا من الحمير ؛ لأن الحمار لا فهم له ، وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوها ؛ ولهذا قال فى الآية الأخرى : ﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] . وقال هاهنا : ﴿ بئسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب ، فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا ، والذى يقول له « أنصت » ، ليس له جمعة » (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : إن كنتم تزعمون أنكم على هدى ، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة ، فادعوا بالموت على الضال من الفتنين ﴿ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيما تزعمونه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : بما يعملون لهم من الكفر والظلم والنجور ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ . وقد قدمنا فى سورة « البقرة » الكلام على هذه المباهلة لليهود ، حيث قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٩٤ - ٩٦] . وقد أسلفنا الكلام هناك ، وبيننا أن المراد أن يدعوا على الضلال من أنفسهم أو خصومهم ، كما تقدمت مباهلة النصراني فى آل عمران : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٦١] ومباهلة المشركين فى سورة مريم : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ [مريم : ٧٥] . وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه . قال : فقال رسول الله ﷺ : « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن

(١) المسند (٢٠٣٣) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده حسن » .

اليهود تَمَنُّوا الموت لما تَوا ورأوا مقاعدهم من النار . ولو خرج الذين يُبَاهِلُونَ رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا » . رواه البخارى والترمذى والنسائى (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٨] .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿ (١٠) ﴾

إنما سميت الجمعة جمعة ؛ لأنها مشتقة من الجمع ، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه فى كل أسبوع مرةً بالمعابد الكبار وفيه كَمُل جميع الخلائق ، فإنه اليوم السادس من الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض . وفيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، وفيه تقوم الساعة . وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح (٢) .

وقد كان يقال له فى اللغة القديمة يوم العروبة . وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فَضَّلُوا عنه ، واختار اليهود يوم السبت الذى لم يقع فيه خلق ، واختار النصارى يوم الأحد الذى ابتدئ فيه الخلق ، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذى أكمل الله فيه الخَلِيقَةَ ، كما أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا . ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم ، فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالتاس لنا فيه تَبَعٌ ، اليهود غداً ، والنصارى بعد غد » (٣) . لفظ البخارى . وفى لفظ لمسلم : « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا . فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد . فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، المقضى بينهم قبل الخلائق » (٤) .

وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى : اقصدوا واعمدوا واهتموا فى مسيركم إليها ، وليس المراد بالسعى هاهنا المشى السريع ، وإنما هو الاهتمام بها ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [الإسراء : ١٩] . وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود يقرآنها : « فامضوا إلى

(١) المسند (٢٢٢٥) والبخارى (٤٩٥٨) والترمذى (٣٣٤٨) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٥) .

(٢) انظر - على سبيل المثال ما رواه مسلم (٨٥٢ / ١٣) عن أوس بن أوس ، (١٧ / ٨٥٤) عن أبى هريرة .

(٣) البخارى (٨٧٦ ، ٨٩٦) ومسلم (٨٥٥ / ١٩) . (٤) مسلم (٨٥٦ / ٢٢) .

ذكر الله». فأما المشى السريع إلى الصلاة فقد نهى عنه ، لما أخرجاه في الصحيحين ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة ، وعليكم السكينة والوقار ، ولا تسرعوا ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » . لفظ البخارى (١) . وعن أبي قتادة قال : بينما نحن نصلّى مع النبي ﷺ إذ سمع جلبة رجال ، فلما صلى قال : « ما شأنكم ؟ » . قالوا : استعجلنا إلى الصلاة . قال : « فلا تفعلوا ، إذا أتمتم الصلاة فامشوا وعليكم بالسكينة ، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » . أخرجاه (٢) . قال الحسن : أما والله ما هو بالسعى على الأقدام ، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكن بالقلوب والنية والخشوع . وقال قتادة في قوله : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يعنى : أن تسعى بقلبك وعملك ، وهو المشى إليها ، وكان يتأول قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ [الصفات: ١٠٢] أى : المشى معه . روى عن محمد ابن كعب ، وزيد بن أسلم ، وغيرهما نحو ذلك .

ويستحب لمن جاء الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها ، لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل » (٣) . ولهما عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ « غُسلُ يوم الجمعة واجب على كل محتلم » (٤) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « حق لله على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام ، يغسل رأسه وجسده » . رواه مسلم (٥) . وروى الإمام أحمد عن أوس بن أوس الثقفى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من غُسلَ واغتسل يوم الجمعة ، وبكر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ كان له بكل خطوة أجر سنة ، أجر صيامها وقيامها » . وهذا الحديث له طرق وألفاظ ، وقد أخرجه أهل السنن الأربعة وحسنه الترمذى (٦) . وعن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « من اغتسل يوم الجمعة غُسلَ الجنابة ، ثم راح فكأنما قرب بدنة ، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » أخرجاه (٧) .

ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ، ويتطيب ويتسوك ، ويتنظف ويتطهر . وفى حديث أبى سعيد المتقدم : « غُسلُ يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، والسواك ، وأن يمس من طيب أهله » . وروى الإمام أحمد عن أبى أيوب الأنصارى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله - إن كان عنده - ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج

(١) البخارى (٦٣٦) ومسلم (٦٠٢ / ١٥١) .

(٢) البخارى (٨٧٧) ومسلم (٨٤٤ / ١) .

(٣) البخارى (٨٩٧) ومسلم (٨٤٩ / ٩) .

(٤) البخارى (٨٧٩) ومسلم (٨٤٦ / ٧٠٥) .

(٥) البخارى (٨٨١) ومسلم (٨٥٠ / ١٠) .

(٦) المسند (١٠٤ / ٤) والترمذى (٤٩) وابن ماجه (١٠٨٧) .

(٧) البخارى (٨٨١) ومسلم (٨٥٠ / ١٠) .

حتى يأتى المسجد فيركع - إن بدا له - ولم يؤذ أحدا، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلى ، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى » (١). وعن عائشة : أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة ، فرأى عليهم ثياب النمار، فقال : « ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته ، سوى ثوبى مهنته ». رواه ابن ماجه (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ﴾ : المراد بهذا النداء هو النداء الثانى الذى كان يفعل بين يدى رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر ، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه ، فهذا هو المراد ، فأما النداء الأول الذى زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فإنما كان هذا لكثرة الناس ، كما رواه البخارى عن السائب بن يزيد قال : كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر ، فلما كان عثمان بعد زمن ، وكثر الناس ، زاد النداء الثانى على الزوراء (٣) . يعنى : يؤذن به على الدار التى تسمى بالزوراء ، وكانت أرفع دار بالمدينة ، بقرب المسجد . وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون النساء والعبيد والصبيان ، ويعذر المسافر والمريض ، وقيم المريض ، وما أشبه ذلك من الأعذار ، كما هو مقرر فى كتب الفروع . وقوله : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أى : اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودى للصلاة : ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثانى . واختلفوا : هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا ؟ على قولين ، وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر فى موضعه ، والله أعلم . وقوله : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم ، أى : فى الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون .

وقوله : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾ أى : فرغ منها ، ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ : لَمَّا حَجَرَ عَلَيْهِمْ فى التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع ، أذن لهم بعد الفراغ فى الانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله . كان عراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، فقال : اللهم ، أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك ، وأنت خير الرازقين . وروى عن بعض السلف أنه قال : من باع واشترى يوم الجمعة بعد الصلاة ، بارك الله له سبعين مرة ، لقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى حال بيعكم وشرائكم ، وأخذكم وعطائكم ، اذكروا الله ذكرا كثيرا ، ولا تشغلكم الدنيا عن الذى ينفعكم فى الدار الآخرة وقال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرا ، حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا .

(١) المسند (٤٢٠ / ٥) .

(٢) ابن ماجه (١٠٩٦) وفى الزوائد للبوصيرى : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

(٣) البخارى (٩١٢) .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ﴿١١﴾

يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ أى : على المنبر تخطب . هكذا ذكره غير واحد من التابعين ، منهم : أبو العالية ، والحسن ، وزيد ابن أسلم ، وقتادة . وزعم مقاتل بن حبان : أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يسلم ، وكان معها طبل ، فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر إلا القليل منهم . وقد صحَّ بذلك الخبر ، فروى الإمام أحمد عن جابر قال : قَدِمَتْ عِيرُ الْمَدِينَةِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ ، فَخَرَجَ النَّاسُ وَبَقِيَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، فَنَزَلَتْ : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ . أخرجاه في الصحيحين (١) . وروى الحافظ أبو يعلى : عن جابر بن عبد الله قال : بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة ، فَقَدِمَتْ عِيرٌ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَابْتَدَرَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ تَتَابَعْتُمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْكُمْ أَحَدٌ ، لَسَالُ بِكُمْ الْوَادِي نَارًا » ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ ، وَقَالَ : كَانَ فِي الْاِثْنَى عَشَرَ الَّذِينَ ثَبَّتُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٢) .

وفى قوله : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائماً . وقد روى مسلم فى صحيحه عن جابر بن سَمُرَةَ قَالَ : كَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ خُطْبَتَانِ يَجْلِسُ بَيْنَهُمَا ، يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَذْكُرُ النَّاسَ (٣) . وقوله : ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أى : الذى عند الله من الثواب فى الدار الآخرة ﴿ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أى : لمن توكل عليه ، وطلب الرزق فى وقته .

(١) المسند (٣١٣/٣) والبخارى (٤٨٩٩) ومسلم (٣٦/ ٨٦٣) .

(٢) أبو يعلى فى مسنده (١٨٨٨) ، والحديث رواه مسلم (٣٦/ ٨٦٣) .

(٣) مسلم (٣٤/ ٨٦٢) .

تفسير سورة المنافقين

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿٤﴾

ربع

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين : أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاؤوا النبي ﷺ ، فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك ، بل على الضد من ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ أي : إذا حضروا عندك واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليس كما يقولون : ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله ، فقال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : فيما أخبروا به ، وإن كان مطابقاً للخارج ؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ؛ ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم .

وقوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحلفات الآثمة ، ليصدقوا فيما يقولون ، فاعتر بهم من لا يعرف جليلة أمرهم ، فاعتقد أنهم مسلمون ، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون ، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . ولهذا كان الضحاک بن مزاحم يقرؤها : « اتَّخَذُوا إِيْمَانَهُمْ جُنَّةً » أي : تصديقهم الظاهر جنة ، أي : تقية يتقون به القتل . والجمهور يقرؤها : ﴿ أَيْمَانَهُمْ ﴾ جميع يمين . وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي : إنما قُدِّرَ عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران ، واستبدالهم الضلالة بالهدى ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي : فلا يصل إلى قلوبهم هدى ، ولا يخلص إليها خير ، فلا تعى ولا تهتدى .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ أي : كانوا أشكالا حسنة وذوى فصاحة والسنه ، إذا سمعهم السامع يصغى إلى قولهم لبلاغتهم ، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجن ؛ ولهذا قال : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : كلما وقع أمر أو

كائنة أو خوف ، يعتقدون ، لجنهم ، أنه نازل بهم ، كما قال تعالى : ﴿ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُفْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب : ١٩] ، فهم جهامات وصور بلا معانى . ولهذا قال : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أى : كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال . وقد روى الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا عبد الملك بن قدامة الجمحى ، عن إسحاق بن بكر بن أبى الفرات ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى . عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نُهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هَجْرًا ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا ، مستكبرين لا يَأْلَفُونَ ولا يُؤْلَفُونَ ، خُشِبُ بِاللَّيْلِ ، صُخْبُ بِالنَّهَارِ » . وقال يزيد مرة : سُخْبُ بِالنَّهَارِ (١) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين - عليهم لعائن الله - أنهم ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسَهُمْ ﴾ أى : صدوا وأعرضوا عما قيل لهم ، استكباراً عن ذلك ، واحتقاراً لما قيل لهم . ولهذا قال : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ . ثم جازاهم على ذلك فقال : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ، كما قال فى سورة

(١) المسند (٧٩١٣) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده حسن - ثم قال - : النُهبة - بضم النون وسكون الهاء : اسم الانتهاب ، كالنهبى ، بالالف المقصورة ، وقوله : « لا يقربون المساجد إلا هَجْرًا » هو بفتح الهاء من « هَجْرًا » والهجر : الترك والإعراض عن الشيء . يعنى : أنهم لا يقربون المساجد ، بل يهجرونها . وقوله : « ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا » : هو بفتح الدال المهملة وسكون الموحدة ، أى : آخرًا ، حين كاد الإمام أن يفرغ . « خُشِبُ بِاللَّيْلِ » : أى ينامون الليل لا يصلون . شبههم فى تمدهم نيامًا بالخشب المطرحة . قال ابن الأثير : « تضم الشين ، وتسكن تخفيفاً » . « صُخْبُ بِالنَّهَارِ » : بضم الصاد المهملة والخاء المعجمة . وفى الرواية الأخرى ليزيد فى الحديث « سخب » بالسين المهملة . والسخب والصخب : الضجة واضطراب الأصوات للخصام . قال الزمخشري فى الفائق : ٣٤٥ « والأصل السين . . . والصاد بدل . والذى أبدلت له وقوع الخاء ، بعدها ، كقولهم : « صخر » فى « سخر » . والغين والقاف والطاء أخوات الخاء فى ذلك . . . والمراد رفع أصواتهم وضجيجهم فى المجادلات والخصومات وغير ذلك » . وقال ابن الأثير : « أى إذا جن عليهم الليل سقطوا نياماً ، كأنهم خشب ، فإذا أصبحوا تساخبوا على الدنيا شحاً وحرصاً » .

«براءة» ، وقد تقدم الكلام عن ذلك ، وإيراد الأحاديث المروية هناك .

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي ابن سلول ، كما سنورده قريباً إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان . وقد قال محمد (١) بن إسحاق في السيرة : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة - يعنى مَرْجَعَهُ من أحد - وكان عبد الله بن أبي ابن سلول - كما حدثني ابن شهاب الزهري - له مقام يَقُومُهُ كل جُمُعَةٍ لا يُنْكَرُ ، شَرَفاً له من نفسه ومن قومه ، وكان فيهم شريفاً ، إذا جلس النبي ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام ، فقال : أيها الناس ، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم ، أكرمكم الله به ، وأعزكم به ، فانصروه وعزروه ، واسمعوا له وأطيعوا . ثم جلس ، حتى إذا صَنَعَ يوم أحد ما صنع - يعنى مرجعه بثلاث الجيش - ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس ، أى عدو الله ، لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت . فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بَجْراً ؛ أن قُمتُ أشدد أمره . فلقية رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك . ما لك ؟ قال : قمتُ أشدد أمره ، فوثب على رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني ، لكأنما قلت بَجْراً ، أن قمتُ أشدد أمره . قالوا : ويلك . ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى (٢) .

وقال قتادة والسدي : أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ، وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك ، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعذموه (٣) ، وأنزل الله فيه ما تسمعون ، وقيل لعدو الله : لو أتيت رسول الله ﷺ ؟ فجعل يلوى رأسه ، أى : لست فاعلاً وإن ذلك كان في غزوة المريسيع ، وهى غزوة بنى المصطلق .

قال يونس بن بكير ، عن ابن إسحاق : حدثني محمد بن يحيى بن حبان ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، فى قصة بنى المصطلق : فبينما رسول الله ﷺ مقيم هناك ، اقتتل على الماء جهجاه بن سعيد الغفارى - وكان أجيراً - لعمر بن الخطاب ، وسانان بن وبر . قال ابن اسحاق : فحدثني محمد بن يحيى بن حبان قال : ازدحما على الماء فاقتتلا ، فقال سنان : يا معشر الأنصار . وقال الجهجاه : يا معشر المهاجرين - وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي - فلما سمعها قال : قد ثاورونا فى بلادنا . والله ما مثلنا وجلايب قريش هذه إلا كما قال القائل : «سَمَنَ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ» . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من عنده من قومه وقال : هذا ما صنعتم بأنفسكم ، أحللتهم بلادكم ، وقاسمتهم أموالكم ، أما والله لو كففتهم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها . فسمعها زيد بن الأرقم ، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو غُلَيْمٌ - وعنده ابن الخطاب -

(١) فى المطبوعة حُرِّفَ إلى : «عبد الله» . (٢) السيرة النبوية لابن هشام (٦٩/٣) .

(٣) فى المطبوعة : « غرموه » وهو تصحيف . ومعنى « عذموه » : أخذوه بالسبتهم .

فأخبره الخبر ، فقال عمر : يا رسول الله مرُ عبّاد بن بشر فليضرب عنقه . فقال ﷺ : « فكيف إذا تحدث الناس - يا عمر - أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن ناد يا عمر في الرحيل » . فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ ، أتاه فاعتذر إليه ، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم - وكان عند قومه بمكان - فقالوا : يا رسول الله ، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال . وراح رسول الله ﷺ مُهَجَرًا في ساعة كان لا يروح فيها ، فلقيه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة ، ثم قال : والله لقد رُحْتَ في ساعة مُنْكَرَةٍ ما كنت تروح فيها . فقال رسول الله ﷺ : « أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي ؟ . زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعز منها الأذل » . قال : فأنت - يا رسول الله - العزيز وهو الذليل . ثم قال : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الْخَرْزَ لِنُتَوَّجِهَ ، فإنه ليرى أن قد استلبته ملكا . فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا ، وليلته حتى أصبحوا ، وصدرَ يومه حتى اشتد الضحى . ثم نزل بالناس ليشتغلهم عما كان من الحديث ، فلم يأمن الناس أن وجدوا مَسَّ الأرض فناموا ، ونزلت سورة المنافقين (١) .

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غَزَاة فَكَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى : يالأنصار . وقال المهاجري : يا للمهاجرين . فقال رسول الله ﷺ : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة » . وقال عبد الله بن أبي ابن سلول - وقد فعلوها - : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك ، فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال النبي ﷺ : « دعه ؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » . ورواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم نحوه (٢) .

وروى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال : كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فقال عبد الله بن أبي : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال : فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، قال : فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شيء من ذلك . قال : فلامنى قومي وقالوا : ما أردت إلى هذا؟ قال : فانطلقت فنمتُ كئيها حزينا ، قال : فأرسل إلى نبي الله ﷺ فقال : « إن الله قد أنزل عذرك وصدقك » . قال : فنزلت هذه الآية ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ﴾ حتى بلغ : ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ ورواه البخاري والترمذي والنسائي (٣) . ثم روى أحمد أيضا : عن زيد بن أرقم قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فأصاب الناس شدةٌ ، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢٣٦/٣ - ٢٣٨) .

(٢) البيهقي فى الدلائل (٥٣/٤) ، والمسند (٣٩٢/٣) ، والبخارى (٤٩٠٧) ، ومسلم (٦٢/٢٥٨٤) .

(٣) المسند (٣٦٨/٤) ، والبخارى (٤٩٠٢) ، والترمذي (٣٣١٤) ، والنسائي فى الكبرى (١١٩٤) .

الأذل . فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك ، فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله ، فاجتهد يمينه ما فعل . فقالوا : كذب زيد يا رسول الله . فوقع في نفسي ما قالوا ، حتى أنزل الله تصديقي : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ . قال : ودعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم ، فلووا رؤوسهم . وقوله تعالى : ﴿ كَانَهُمْ خُشْبٌ مُّسْنَدَةٌ ﴾ قال : كانوا رجالا أجمل شيء . وقد رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي (١) .

وروى أبو عيسى الترمذي عن زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من الأعراب ، فكنا نبتدر الماء ، وكان الأعراب يسبقوننا يسبق الأعرابي أصحابه يملأ الحوض ، ويجعل حوله حجارة ، ويجعل النّطع عليه حتى يجيء أصحابه . قال : فأتى رجل من الأنصار الأعرابي ، فأرخصى زمام ناقته لتشرب ، فأبى أن يدعه ، فانتزع حجراً ففاض الماء ، فرفع الأعرابي خشبة ، فضرب بها رأس الأنصاري فشجّه ، فأتى عبد الله ابن أبي رأس المنافقين فأخبره - وكان من أصحابه - فغضب عبد الله بن أبي ، ثم قال : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله - يعنى الأعراب - وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام . فقال عبد الله لأصحابه : إذا انفضوا من عند محمد فاثبوا محمداً بالطعام ، فليأكل هو ومن عنده ، ثم قال لأصحابه : إذا رجعتُم إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل . قال زيد : وأنا ردّفت عمّي ، فسمعتُ عبد الله فأخبرت عمّي ، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه رسول الله ، فحلف وجحد ، قال : فصدقه رسول الله ﷺ وكذبنى ، فجاء إلى عمّي فقال : ما أردت إلا أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبتك والمسلمون . فوقع على من الغم ما لم يقع على أحد قط ، فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفر وقد خفقتُ برأسي من الهم ، إذ أتاني رسول الله ﷺ فَعَرَكَ أذني ، وضحك في وجهي ، فما كان يسرني أن لى بها الخلد في الدنيا ، ثم إن أبا بكر لحقني وقال : ما قال لك رسول الله ﷺ قلت : ما قال لى رسول الله ﷺ شيئاً ، غير أن عرك أذني وضحك في وجهي . فقال : أبشر . ثم لحقني عمر فقلت له مثل قولى لأبى بكر . فلما أن أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين . انفرد بإخراجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح . وهكذا رواه الحافظ البيهقي وزاد بعد قوله «سورة المنافقين» ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ حتى بلغ : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴾ حتى بلغ : ﴿ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ (٢) .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة : أن عبد الله بن أبي - يعنى لما بلغه ما كان من أمر أبيه - أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني ، إنى أخشى أن تأمر به غيري

(١) المسند (٣٧٣/٤) والبخاري (٤٩٠٠ ، ٤٩٠٣) ومسلم (٢٧٧٢ / ١) والترمذي (٣٣١٢) .

(٢) الترمذي (٣٣١٣) والبيهقي في الدلائل (٥٤ / ٤) .

فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ، ما بقى معنا » (١) . وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبدُ الله بن عبد الله هذا على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبى قال له ابنه : وراءك . فقال : مالك ؟ ويلك . فقال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الدليل . فلما جاء رسول الله ﷺ - وكان إنما يسير ساقية - فشكا إليه عبدُ الله بن أبى ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله ﷺ ، فقال : أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى أمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهيا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبراً لهم بأنه من التهى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره ، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ثم حثهم على الإنفاق فى طاعته فقال : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، فكل مفرط يندم عند الاحتضار ، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً ، يستعتب ويستدرك ما فاته ، وهيهات ! كان ما كان ، وأتى ما هو آت ، وكل بحسب تفريطه ، أما الكفار فكما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤] . وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُعْتَدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ، ١٠٠] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : لا ينظر أحداً بعد حلول أجله ، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً فى قوله وسؤاله ممن لو ردّ لعاد إلى شر مما كان عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

تفسير سورة التغابن وهي مدنية ، وقيل : مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾
﴿ ١ ﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿ ٢ ﴾ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿ ٣ ﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿ ٤ ﴾

هذه السورة هي آخر المسبحات ، وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها ؛
ولهذا قال : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ أى : هو المتصرف فى جميع الكائنات ، المحمود على جميع
ما يخلق ويقدر . وقوله : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع ،
وما لم يشأ لم يكن ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ أى : هو الخالق لكم على هذه
الصفة ، وأراد منكم ذلك ، فلا بد من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية بمن
يستحق الضلال ، وهو شهيد على أعمال عباده ، وسيجزئهم بها أتم الجزاء ؛ ولهذا قال :
﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

ثم قال : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى : بالعدل والحكمة ، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ﴾
أى : أحسن أشكالكم ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ .
فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ - ٨] ، وكقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ الآية [غافر : ٦٤] ، وقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : المرجع
والمآب . ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية ، فقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَنَادُوا بِطَغْوَانِ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنُنُ بِهِمْ وَهُمْ عَنِ آلِهَتِهِمْ كَاذِبُونَ ﴾
ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ
وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿ ٥ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين ، وما حل بهم من العذاب والنكال ؛ فى مخالفة
الرسول والتكذيب بالحق ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : خبرهم وما كان من

أمرهم ، ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أى : وخيم تكذيبهم وردىء أفعالهم ، وهو ما حل بهم فى الدنيا من العقوبة والخزى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : فى الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوى . ثم علل ذلك فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى : بالحجج والدلائل والبراهين ﴿ فَقَالُوا أَبَشِّرْ يَهُدُونَنَا ﴾ ؟ أى : استبعدوا أن تكون الرسالة فى البشر ، وأن يكون هداهم على يدى بشر مثلهم ، ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ﴾ أى : كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل ، ﴿ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ أى : عنهم ، ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ﴿ ٧ ﴾ ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ﴿ ٨ ﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكَ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ ٩ ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿ ١٠ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين والكفار والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أى : لتُخْبِرُنَّ بجميع أعمالكم ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، ﴿ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى : بعثكم ومجازاتكم . وهذه هى الآية الثالثة التى أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه ، عز وجل ، على وقوع المعاد ووجوده ، فالأولى فى سورة يونس : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس: ٥٣] ، والثانية فى سورة سبأ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ الآية [سبأ: ٣] ، والثالثة هى هذه : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ يعنى : القرآن ، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ : وهو يوم القيامة ، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمُ مَشْهُودٍ ﴾ [هود: ١٠٣] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة: ٤٩ ، ٥٠] . وقوله : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ قال ابن عباس : هو اسم من أسماء يوم القيامة . وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار . وكذا قال قتادة ومجاهد . وقال مقاتل بن حيان : لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ، ويذهب بأولئك إلى النار . قلت : وقد فسر ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ [الحديد: ٢٢] ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : بأمر الله ، يعنى : عن قدره ومشئته . ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله ، هدى الله قلبه ، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى فى قلبه ، وبقينا صادقا ، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه ، أو خيراً منه . قال ابن عباس : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ يعنى : يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . وقال سعيد ابن جبير ، ومقاتل بن حيان : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ يعنى : يسترجع ، يقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦] . وفى الحديث المتفق عليه : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضرأ صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سرأ شكر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » (١) .

وقوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ : أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع ، وفعل ما به أمر وترك ما عنه نهى وزجر ، ثم قال : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى : إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حمل من البلاغ ، وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة . قال الزهرى : من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلىنا التسليم . ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد ، الذى لا إله غيره ، فقال : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، فالأول خبر عن التوحيد ، ومعناه معنى الطلب ، أى : وحدوا الإلهية له ، وأخلصوا لديه ، وتوكلوا عليه ، كما قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٩] .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوَّكُمْ لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَانْقَرُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تَقَرَّضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفَهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْفَرِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد : أن منهم من هو عدو الزوج والوالد ، بمعنى : أنه يلهي به عن العمل الصالح ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ قال ابن زيد : يعنى على دينكم . وقال مجاهد : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾ قال : يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه . وعن ابن عباس - وسأله رجل عن هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ - قال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهاوا في الدين ، فهموا أن يعاقبوه ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . رواه الترمذى وقال : حسن صحيح . ورواه ابن جرير والطبرانى (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ : يقول تعالى : إنما الأموال والأولاد فتنة ، أى : اختبار وابتلاء من الله لخلقه . ليعلم من يطيعه ممن يعصيه . وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ كما قال : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ [ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَأَبِ ﴾ والتي بعدها [آل عمران : ١٤ ، ١٥] . وروى الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني حسين بن واقد ، حدثني عبد الله بن بريدة ، عن أبى بريدة قال : كان رسول الله ﷺ يخطب ، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ، ثم قال : « صدق الله ورسوله ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما » . ورواه أهل السنن وقال الترمذى : حسن غريب (٢) . وروى الإمام أحمد : عن الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله ﷺ فى وفد كندة ، فقال لى : « هل لك من ولد ؟ » قلت : غلام ولد لى فى مخرجى إليك من ابنة جمد ، وكوددت أن بمكانه : شبع القوم . قال : « لا تقولن ذلك ، فإن فيهم قرة عين ، وأجراً إذا قبضوا » ، ثم قال : « ولئن قلت ذاك : إنهم لمجنة مَحْزَنَةٌ ، إنهم لمجنة مَحْزَنَةٌ » تفرد به أحمد (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أى : جهدكم وطاقتكم . كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه : فاجتنبوه » (٤) . وقد قال زيد بن أسلم : إن هذه الآية العظيمة ناسخة للتي فى

(١) الترمذى (٣٣١٧) وابن جرير فى التفسير (٨٠ / ٢٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (٢٧٥ / ١١) .

(٢) المسند (٣٥٤ / ٥) ، وأبو داود (١١٠٩) ، والترمذى (٣٧٧٤) .

(٣) المسند (٢١١ / ٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٥٨ / ٨) : « رواه أحمد والطبرانى وفيه مجالد بن سعيد وهو ضعيف وقد وثق وبقيّة رجال أحمد رجال الصحيح » .

(٤) البخارى (٧٢٨٨) .

«آل عمران» وهى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال سعيد بن جبير فى قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ قال: لما نزلت الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فنسخت الآية الأولى. وروى عن قتادة، والربيع ابن أنس، والسدى، ومقاتل، نحو ذلك.

وقوله: ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أى: كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله، ولا تحيدوا عنه يمناً ولا يسرة، ولا تقدموا بين يدى الله ورسوله، ولا تتخلفوا عما به أمرتم، ولا تركبوا ما عنه زجرتكم. ﴿وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ أى: وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوى الحاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم، يكن خيراً لكم فى الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم فى الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: تقدم تفسيره فى سورة «الحشر» وذكر الأحاديث الواردة فى معنى هذه الآية، بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة، وقوله: ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أى: مهما أنفقتم من شىء فهو يخلفه، ومهما تصدقتم من شىء فعليه جزاءه، ونزل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول: «من يقرض غير ظلوم ولا عديم» (١). ولهذا قال: ﴿يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ كما تقدم فى سورة البقرة: ﴿فِيضَاعِفْهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أى: ويكفر عنكم السيئات. ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ أى: يجزى على القليل بالكثير ﴿حَلِيمٌ﴾ أى: يصفح ويغفر ويستر، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: تقدم تفسيره غير مرة.

تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾

خُوطب النبي ﷺ أولاً تشريعاً وتكريماً ، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ .

روى البخارى عن سالم : أن عبد الله بن عمر أخبره : أنه طلق امرأة له وهي حائض ، فذكر عمر لرسول الله ﷺ ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها ، فتلك العدة التي أمر الله ، عز وجل » (١) . هكذا رواه البخارى ومسلم ، ولفظه : « فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء » (٢) . وأمس لفظ يورد هاهنا ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى الزبير : أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن - مولى عزة - يسأل ابن عمر وأبو الزبير يسمع ذلك : كيف ترى فى رجل طلق امرأته حائضاً ؟ فقال : طلق ابن عمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله ﷺ ، فسأل عمر رسول الله ﷺ فقال : إن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائض ، فقال رسول الله ﷺ : « ليراجعها » فردّها ، وقال : « إذا طهرت فليطلق أو يمسك » . قال ابن عمر : وقرأ النبي ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ (٣) .

وقال عبد الله [بن مسعود] فى قوله : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ قال : الطهر من غير جماع . وروى عن ابن عمر ، وعطاء ، ومجاهد ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة ، وميمون بن مهران ، ومقاتل بن حيان مثل ذلك . وهو رواية عن عكرمة ، والضحاك . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ قال : لا يطلقها وهي حائض ولا فى طهر قد جامعها فيه ، ولكن : تتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة . وقال عكرمة : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ العدة : الطهر ، والقرء : الحيضة ، أن يطلقها حبلى مستبيناً حملها ، ولا يطلقها وقد طاف عليها ، ولا

(٢) البخارى (٥٢٥١) ومسلم (١٤٧١ / ١) .

(١) البخارى (٤٩٠٨) .

(٣) مسلم (١٤٧١ / ١٤) .

يدري حبلى هى أم لا . ومن هاهنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى : طلاق سنة ، وطلاق بدعة ، فطلاق السنة : أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان حملها . والبدعى : هو أن يطلقها فى حال الحيض ، أو فى طهر قد جامعها فيه ، ولا يدري أحملت أم لا ؟ وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والآيسة ، وغير المدخول بها ، وتحرير الكلام فى ذلك وما يتعلق به مستقصى فى كتب الفروع ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ أى : احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها ؛ لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ أى : فى ذلك . وقوله : ﴿ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ أى : فى مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه ، فليس للرجل أن يخرجها ، ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها معتقلة لحق الزوج أيضاً . وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ﴾ أى : لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة ، فتخرج من المنزل ، والفاحشة المبينة : تشمل الزنا ، كما قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، والشعبى ، والحسن ، وابن سيرين ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير وغيرهم . وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذت على أهل الرجل وأذتهم فى الكلام والفعال ، كما قاله أبى ابن كعب ، وابن عباس ، وعكرمة ، وغيرهم . وقوله : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى : شرائعه ومحارمه ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ أى : يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أى : بفعل ذلك .

وقوله : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ أى : إنما أبقينا المطلقة فى منزل الزوج فى مدة العدة ، لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله فى قلبه رجعتها ، فيكون ذلك أيسر وأسهل . عن فاطمة بنت قيس فى قوله : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ قالت : هى الرجعة . وكذا قال الشعبى ، وعطاء ، وقتادة ، ومن هاهنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم ، كالإمام أحمد بن حنبل ، إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة ، وكذا المتوفى عنها زوجها ، واعتمدوا أيضاً على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية ، حين طلقها زوجها أبو عمرو ابن حفص آخر ثلاث تطليقات ، وكان غائباً عنها باليمن ، فأرسل إليها بذلك ، فأرسل إليها وكيله بشعير - يعنى : نفقة - فتسخطته فقال : والله ليس لك علينا نفقة . فأتت رسول الله ﷺ ، فقال : « ليس لك عليه نفقة » . ولمسلم : « ولا سكنى » ، وأمرها أن تعتد فى بيت أم شريك ، ثم قال : « تلك امرأة يغشاها أصحابى ، اعتدى عند ابن أم مكتوم ، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك » الحديث (١) .

وقد رواه الإمام أحمد عن عامر قال : قدمت المدينة فأتيت فاطمة بنت قيس ، فحدثتني أن زوجها طلقها على عهد رسول الله ﷺ ، فبعثه رسول الله ﷺ فى سرية . قالت : فقال لى

أخوه : اخرجني من الدار . فقلت : إن لى نفقة وسكنى حتى يحل الأجل . قال : لا . قالت : فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إن فلاناً طلقنى ، وإن أخاه أخرجنى ومنعنى السكنى والنفقة ، فأرسل إليه فقال : « مالك ولابنة آل قيس » ، قال : يا رسول الله ، إن أخى طلقها ثلاثاً جميعاً . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « انظرى يا بنت آل قيس ، إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كان له عليها رجعة ، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى . اخرجنى فانزلى على فلانة » . ثم قال : « إنه يُتحدّث إليها ، انزلى على ابن أم مكتوم ، فإنه أعمى لا يراك » وذكر تمام الحديث (١) . وروى أبو القاسم الطبرانى عن عامر الشعبي : أنه دخل على فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس القرشى ، وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومى ، فقالت : إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلى وهو منطلق فى جيش إلى اليمن بطلاقى ، فسألت أولياءه النفقة على والسكنى ، فقالوا : ما أرسل إلينا فى ذلك شيئاً ، ولا أوصانا به . فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلى بطلاقى ، فطلبت السكنى والنفقة على ، فقال أولياؤه : لم يرسل إلينا فى ذلك بشيء . فقال رسول الله ﷺ : « إنما النفقة والسكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها رجعة ، فإذا كانت لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فلا نفقة لها ولا سكنى » . وكذا رواه النسائى (٢) .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٢﴾ ﴾

يقول تعالى : فإذا بلغت المعتدات أجلهن ، أى : شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك ، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية ، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها ، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى : محسناً إليها فى صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى : من غير مقابحة ولا مشاقمة ولا تعنيف ، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن . وقوله : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ أى : على الرجعة إذا عزمتم عليها ﴿ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى : هذا الذى أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة ، إنما يأمر به من يؤمن بالله وأنه شرع هذا ، ويخاف عقاب الله فى الدار الآخرة . ومن هاهنا ذهب الشافعى - فى أحد قوليه - إلى وجوب الإشهاد

(١) المسند (٣٧٣ / ٦) ، ومسلم (٢٩٤٢ / ١١٩) .

(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤ / ٣٨٢) والنسائى (١٤٤ / ٦) وصححه الألبانى .

فى الرجعة ، كما يجب عنده فى ابتداء النكاح . وقد قال بهذا طائفة من العلماء ، ومن قال بهذا يقول : إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الإشهاد عليها (١) . وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أى : ومن يتق الله فيما أمره به ، وترك ما نهاه عنه ، يجعل له من أمره مخرجًا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أى : من جهة لا تخطر بباله . روى الإمام أحمد عن أبى ذر قال : جعل رسول الله ﷺ يتلو على هذه الآية : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، حتى فرغ من الآية ، ثم قال : « يا أبا ذر ، لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم » . قال : فجعل يتلوها ويرددها على حتى نعتت ، ثم قال : « يا أبا ذر ، كيف تصنع إن أخرجت من المدينة ؟ » . قلت : إلى السعة والدعة أنطلق ، فأكون حمامة من حمام مكة . قال : « كيف تصنع إن أخرجت من مكة ؟ » . قال : قلت : إلى السعة والدعة ، وإلى الشام والأرض المقدسة . قال : « وكيف تصنع إن أخرجت من الشام ؟ » . قال : قلت : إذا - والذى بعثك بالحق - أضع سيفى على عاتقى . قال : « أو خير من ذلك ؟ » . قلت : أو خير من ذلك ؟ قال : « تسمع وتطيع ، وإن كان عبدًا حبشيًا » (٢) . وقال عبد الله ابن مسعود يقول : إن أجمع آية فى القرآن : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وإن أكثر آية فى القرآن فرجًا : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ . وفى المسند : عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ، ومن كل ضيق مخرجًا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » (٣) .

وقال ابن عباس : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ يقول : ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ . وقال الربيع بن خثيم : ﴿ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ أى : من كل شىء ضاق على الناس . وقال عكرمة : من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجًا . وكذا روى عن ابن عباس ، والضحاك . وقال ابن مسعود : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ : يعلم أن الله إن شاء منع ، وإن شاء أعطى ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أى ، من حيث لا يدرى . وقال قتادة : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ أى : من شبهات الأمور والكرب عند الموت ، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ومن حيث لا يرجو أو لا يأمل . وروى الإمام أحمد عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يُصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر » . ورواه النسائى وابن ماجه (٤) .

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « والإشهاد عليها - الرجعة - مأمور به باتفاق الأمة ، قيل : أمر إيجاب ، وقيل : أمر استحباب » (مجموعة الفتاوى ٢٣/٢٣ ط . دار الوفاء) .

(٢) المسند (١٧٨/٥) .

(٣) المسند (٢٢٣٤) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٤) المسند (٢٧٧/٥) وابن ماجه (٤٠٢٢) . وفى زوائد البوصيرى : « إسناده حسن » ، وعزاه صاحب التحفة (١٣٣/٢) إلى النسائى وابن ماجه ولكنه استدرك وقال : « حديث النسائى ليس فى الرواية ولم يذكره أبو القاسم » .

وقال ابن إسحاق : جاء مالك الأشجعي إلى رسول الله ﷺ فقال له : أسر ابني عوف . فقال له رسول الله ﷺ : « أرسل إليه أن رسول الله يأمر أن تكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله » . وكانوا قد شدوه بالقدر فسقط القدر عنه ، فخرج ، فإذا هو بناقة لهم فركبها ، وأقبل فإذا بسرح القوم الذين كانوا شدوه فصاح بهم ، فاتبع أولها آخرها ، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادى بالبواب ، فقال أبوه : عوف ورب الكعبة . فقالت أمه : واسوأاته . وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القدر فاستبقا الباب والخادم ، فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلًا ، فقصص على أبيه أمره وأمر الإبل ، فقال أبوه : قفا حتى أتى رسول الله ﷺ فأسأله عنها . فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل ، فقال له رسول الله ﷺ : « اصنع بها ما أحببت ، وما كنت صانعًا بمالك » . ونزل : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ . رواه ابن أبي حاتم (١) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس : أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يومًا ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا غلام ، إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » . وقد رواه الترمذي . وقال : حسن صحيح (٢) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : قال رسول الله ﷺ : « من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمنا أن لا تسهل حاجته ، ومن أنزلها بالله أتاه الله برزق عاجل ، أو بموت آجل » (٣) . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ أي : منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريد ويشاؤه ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ كقوله : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨] .

﴿ وَالَّتِي يَلِيسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾

يقول تعالى مبينًا لعدة الآيسة وهي التي قد انقطع عنها الحيض لكبرها : أنها ثلاثة أشهر ، عوضًا عن الثلاثة قروء في حق من تحيض ، كما دلت على ذلك آية « البقرة » (٤) ، وكذا الصغار اللاتي لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّاتِي

(١) الدر المنثور للسيوطي (٦ / ٢٣٣) .

(٢) المسند (٢٦٦٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » والترمذي (٢٣٢٦) .

(٣) المسند (٣٨٤٦ ، ٣٨٦٩ ، ٤٢١٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٤) رقم (٢٢٨) .

لَمْ يَحْضَنْ ﴿٥﴾ . وقوله : ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ فيه قولان : أحدهما وهو قول طائفة من السلف ، كمجاهد ، والزهرى ، وابن زيد : أى إن رأين دما وشككتن فى كونه حيضاً أو استحاضة ، وارتبتم فيه . والقول الثانى : إن ارتبتم فى حكم عدتهن ، ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر . وهذا مروي عن سعيد بن جبير ، وهو اختيار ابن جرير .

وقوله : ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ يقول تعالى : ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه ، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفراق ناقة ، فى قول جمهور العلماء من السلف والخلف ، كما هو نص هذه الآية الكريمة ، وكما وردت به السنة النبوية . وقد روى عن على ، وابن عباس أنهما ذهبا فى المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع أو الأشهر ، عملاً بهذه الآية الكريمة ، والتى فى سورة « البقرة » . وقد روى البخارى عن أبى سلمة قال : جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس فقال : أفتنى فى امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة . فقال ابن عباس : آخر الأجلين . قلت أنا : ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ . قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخى يعنى أبا سلمة فأرسل ابن عباس غلامه كريبا إلى أم سلمة يسألها ، فقالت : قُتِلَ زوج سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّةِ وهى حبلى ، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت ، فأنكحها رسول الله ﷺ ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها . وقد رواه البخارى ومسلم وأصحاب الكتب مطولاً من وجوه أخر (١) .

وروى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة ، أن سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّةِ توفى عنها زوجها وهى حامل ، فلم تمكث إلا ليالى حتى وضعت ، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها خُطِبَتْ ، فاستأذنت رسول الله ﷺ فى النكاح ، فأذن لها أن تُنْكَحَ ، فنكحت . ورواه البخارى فى صحيحه ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه (٢) .

كما روى مسلم عن سبيعة ، أنها كانت تحت سعد بن خولة وكان ممن شهد بداراً فتوفى عنها فى حجة الوداع وهى حامل ، فلم تَنْشَبْ أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعَكْ فَقَالَ لها : ما لى أراك متجملة ؟ لعلك تَرَجِينَ النكاح ، إنك والله ما أنت بناكح حتى تَمُرَ عليك أربعة أشهر وعشر . قالت سُبَيْعَةُ : فلما قال لى ذلك جَمَعْتُ عَلَى ثِيَابِي حين أَمْسَيْتُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فسألته عن ذلك ، فأفتانى بأنى قد حَلَلْتُ حين وضعتُ حملى ، وأمرنى بالتزوج إن بدا لى . هذا لفظ مسلم ، ورواه البخارى مختصراً (٣) ، ثم روى البخارى عن محمد - هو ابن سيرين - قال : كنت فى حلقة فيها عبد الرحمن بن أبى ليلى ، وكان أصحابه يعظمونه ، فذكر آخر الأجلين ، فحدثتُ بحديث سُبَيْعَةَ بنت الحارث عن عبد الله بن عتبة ، قال : فَضَمَرْتُ لى بعض أصحابه ،

(١) البخارى (٤٩٠٩ ، ٥٣١٨) ، ومسلم (٥٧/١٤٨٥) .

(٢) المسند (٣٢٧/٤) والبخارى (٥٣٢٠) ، ومسلم (٥٦/١٤٨٤) وأبو داود (٢٣٠٦) وابن ماجه (٢٠٢٩) .

(٣) مسلم (٥٦/١٤٨٤) . وهو عند البخارى (٥٣١٩ ، ٣٩٩١) .

قال محمد : ففطنت له فقلت : إني لجرىءٌ أن أكذبَ على عبد الله وهو في ناحية الكوفة .
قال : فاستحيا وقال : ولكن عمّه لم يقل ذلك . فلقيت أبا عطية مالك بن عامر فسألته ،
فذهب يحدثني بحديث سبيعة ، فقلت : هل سمعت عن عبد الله فيها شيئاً ؟ فقال : كنا عند
عبد الله فقال : أتجعلون عليها التخليط ، ولا تجعلون عليها الرخصة ؟ فنزلت سورة النساء
القصرى بعد الطولى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (١) . وروى ابن جرير عن
علقمة بن قيس ؛ أن عبد الله بن مسعود قال : من شاء لاعنته ، ما نزلت : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ
أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها . قال : وإذا وضعت المتوفى عنها
زوجها فقد حلت . يريد بآية المتوفى عنها زوجها : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ
بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤] . وقد رواه النسائي (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ أى : يسهل له أمره ، ويسره عليه ، ويجعل
له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً . ثم قال : ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ أى : حكمه وشرعه أنزله
إليكم بواسطة رسوله ﷺ ، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ أى : يذهب عنه
المحذور ، ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقِهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمَلٍ
فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَاتُّوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا يَتَنِمَّ بَعْرُوهِنَّ وَإِنْ
تَعَاَسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى ۚ ﴿١﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۚ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ
مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يُلْكَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ ﴿٧﴾

يقول تعالى آمراً عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزل حتى تنقضى عدتها ،
فقال : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ ﴾ أى : عندكم ، ﴿ مِنْ وَجْدِكُمْ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ،
وغير واحد : يعنى سَعَتِكُمْ . حتى قال قتادة : وإن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه . وقوله :
﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقِهِنَّ ﴾ قال مقاتل بن حيان : يعنى يضاجرها لتفتدى منه بمالها أو تخرج
من مسكنه . وقال أبو الضحى : يطلقها ، فإذا بقي يومان راجعها .

وقوله : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن
عباس ، وطائفة من السلف ، وجماعات من الخلف : هذه فى البائن ، إن كانت حاملاً أنفق
عليها حتى تضع حملها ، قالوا : بدليل أن الرجعية تجب نفقتها ، سواء كانت حاملاً أو حائلاً .

(١) البخارى (٤٩١٠) . وقوله : « فضمز لى » : قال ابن الأثير : « قد اختلف فى ضبط هذه اللفظة ، فقيل : هى
بالضاد والزاي ؛ من ضَمَزَ إِذَا سَكَتَ ، وضمز غيره إذا أسكته ، وروى بدل اللام نونا : أى : سكتنى وهو
أشبه . ورويت بالراء والنون . والاول أشبههما » النهاية (٣ / ١٠٠) .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٨ / ٩٢) والنسائي (٣٥٢٢) وصححه الألبانى .

وقال آخرون : بل السياق كله فى الرجعية ، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية ؛ لأن الحمل تطول مدته غالباً ، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع ؛ لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة . واختلف العلماء : هل النفقة لها بواسطة الحمل ، أو للحمل وحده ؟ على قولين منصوصين عن الشافعى وغيره ، ويتفرع عليها مسائل مذكورة فى علم الفروع .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أى : إذا وضعن حملهن وهن طوالق ، فقد بنى بانقضاء عدتهن ، ولها حينئذ أن ترضع الولد ، ولها أن تمتنع منه ، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ وهو باكورة اللبن الذى لا قوام للولد غالباً إلا به فإن أرضعت استحقت أجره مثلها ، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَأَتَمِّرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى : ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف ، من غير إضرار ولا مضارة ، كما قال فى سورة « البقرة » : ﴿ لَا تَضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] . وقوله : ﴿ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فَسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى ﴾ أى : وإن اختلف الرجل والمرأة ، فطلبت المرأة أجره الرضاع كثيراً ولم يجبها الرجل إلى ذلك ، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه ، فليسترضع له غيرها . فلو رضيت الأم بما استؤجرت عليه الأجنبية فهى أحق بولدها .

وقوله : ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ أى : لينفق على المولود والده ، أو وليه ، بحسب قدرته ، ﴿ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ كقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] . روى ابن جرير عن أبى سنان قال : سأل عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة ، فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها : فما لبث أن لبس اللين من الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره ، فقال : رحمه الله ، تأول هذه الآية : ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ : وعده الله تعالى ، ووعدته حق ، وهو لا يخلفه ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] . وقد روى الإمام أحمد حديثاً يحسن أن نذكره ههنا ، فقال أبو هريرة : بينا رجل وامرأة له فى السلف الخالى لا يقدران على شىء ، فجاء الرجل من سفره ، فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته مسغبة شديدة ، فقال لامرأته : عندك شىء ؟ قالت : نعم ، أبشر ، أتاك رزق الله . فاستحثها ، فقال : ويحك ! ابتغى إن كان عندك شىء . قالت : نعم ، هنيئة - ترجو رحمة الله - حتى إذا طال عليه الطول قال : ويحك ! قومى فابتغى إن كان عندك شىء فائتنى به ، فإننى قد بلغت وجهدت . فقالت : نعم ، الآن ينضج التنور فلا تعجل . فلما أن سكنت عنها ساعة وتحينت أن يقول لها ،

قالت من عند نفسها : لو قمتُ فنظرتُ إلى تنوري ؟ فقامتُ فنظرتُ إلى تنورها ملآن جنوبَ الغنم ، ورحيها تطحنان . فقامت إلى الرحي فنفضتها ، واستخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم . قال أبو هريرة : فوالذي نفس أبي القاسم بيده ، عن قول محمد ﷺ : « لو أخذت ما في رحيها ولم تنفضها لطحتها إلى يوم القيامة » (١) .

وروى عن أبي هريرة قال : دخل رجل على أهله ، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية ، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحي فوضعتها ، وإلى التنور فسجرتة ، ثم قالت : اللهم ارزقنا . فنظرت ، فإذا الجفنة قد امتلأت ، قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً ، قال : فرجع الزوج قال : أصبتم بعدى شيئاً ؟ قالت امرأته : نعم ، من ربنا . قام إلى الرحي ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : « أما إنه لو لم ترفعها ، لم تزل تدور إلى يوم القيامة » (٢) .

﴿ وَكَانَ مِنْ قَرِيْبٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيْدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا ﴾ ﴿ ٨ ﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُسْرًا ﴿ ٩ ﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيْدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْوَلِ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿ ١٠ ﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿ ١١ ﴾

يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره ، وكذب رسله ، وسلك غير ما شرعه ، ومخبراً عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك ، فقال : ﴿ وَكَانَ مِنْ قَرِيْبٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ﴾ أى : تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله ، ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيْدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا ﴾ أى : منكرأ فظيعاً ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أى : غب مخالفتها ، وندموا حيث لا ينفع الندم ، ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيْدًا ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، مع ما عجل لهم فى الدنيا . ثم قال بعد ما قص من خبر هؤلاء : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ ﴾ أى : الأفهام المستقيمة ، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولى الألباب ، ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى : صدقوا بالله ورسله ، ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ يعنى : القرآن . كقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

وقوله : ﴿ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ قال بعضهم : ﴿ رَسُولًا ﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة ؛ لأن الرسول هو الذى بلغ الذكر . وقال ابن جرير : الصواب أن الرسول

(١) المسند (٢ / ٤٢١) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٥٧) : « رجاله وثقوا » .

وقوله : « طال عليه الطول » : الطول : التمداد فى الأمر والتراخى ، والمعنى : طال مكثه وتماديه فى الأمر أو تراضيه عنه . (اللسان) .

(٢) المسند (٢ / ٥١٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٥٦) : « رجاله رجال صحيح » .

ترجمة عن الذكر، يعنى: تفسيراً له؛ ولهذا قال: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أى : فى حال كونها بينة واضحة جلية ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ كقوله : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] ، وقال تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ، أى : من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم . وقد سمى الله تعالى الوحي الذى أنزله نوراً؛ لما يحصل به من الهدى ، كما سماه روحاً ؛ لما يحصل به من حياة القلوب ، فقال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] ، وقوله : ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ : قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرة ، بما أغنى عن إعادته .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ كقوله إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥] . وقال تعالى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

وقوله : ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أى : سبعا أيضاً ، كما ثبت فى الصحيحين : « من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع أرضين » (١) . وفى صحيح البخارى : « خُسِفَ به إلى سبع أرضين » (٢) . وقد تقدم فى سورة « الحديد » عند قوله : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الآية: ٣] ذكر الأرضين السبع ، وبعد ما بينهن ، وكثافة كل واحدة منهن خمسمائة عام . وهكذا قال ابن مسعود وغيره ، وكذا الحديث الآخر: « ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن ، والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسى ، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة » (٣) .

(٢) البخارى (٥٤٥٤) .

(١) البخارى (٢٤٥٣) ومسلم (١٦١٢ / ١٤٢) .

(٣) مضى تخريجه عند الآية (٢٥٥) من سورة البقرة .

تفسير سورة التحريم

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ١ ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ٢ ﴿ وَإِذَا أَسَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ، وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ ٣ ﴿ إِنْ تُؤَبَّأْ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ ٤ ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَيَبَّتْ عِيْدَاتٍ سَبَّحْتِ ثِيْبَتٍ وَأَنْكَارًا ﴾ ٥ ﴿

اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة، فقليل: نزلت في شأن مارية، وكان رسول الله ﷺ قد حرّمها، فنزل قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ الآية.

روى النسائي عن أنس: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها، فأنزل الله، عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ إلى آخر الآية (١). وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المرأتان؟ قال: عائشة وحفصة. وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية، أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في نوبتها، فوجدت حفصة، فقالت: يا نبي الله، لقد جئت إلى شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك، في يومي، وفي دوري، وعلى فراشي. قال: « ألا ترضين أن أحرّمها فلا أقربها؟ ». قالت: بلى. فحرّمها وقال: « لا تذكرى ذلك لأحد ». فذكرته لعائشة، فأظهره الله عليه، فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ الآية فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفر عن يمينه، وأصاب جاريته (٢).

وروى ابن جرير عن سعيد بن جبيرة: أن ابن عباس كان يقول في الحرام: يمين تكفرها، وقال ابن عباس: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الاحزاب: ٢١] يعني: أن رسول الله حرم جاريته فقال الله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ إلى قوله: ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ

(١) النسائي في الكبرى (١١٦٠٧).

(٢) ابن جرير في التفسير (١٠٢/ ٢٨)، وأصله في الصحيحين كما سيأتي بعد قليل.

تَحَلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴿١﴾ ، فكفر يمينه ، فصير الحرام يميناً (١) . ورواه البخارى عن ابن عباس : فى الحرام يمين تكفر . وقال ابن عباس : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] . ورواه مسلم من حديث هشام الدستوائى به (٢) .

وروى النسائى عن ابن عباس ، أنه أتاه رجل فقال : إني جعلت امرأتى على حراماً ؟ قال : كذبت ليست عليك بحرام . ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ عليك أغلظ الكفارات ، عتق رقبة . تفرد به النسائى ، بهذا اللفظ (٣) .

ومن هاهنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جاريته أو زوجته أو طعاماً أو شرباً أو ملبساً أو شيئاً من المباحات ، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة . وذهب الشافعى إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية ، إذا حرم عنيهما أو أطلق التحريم فيهما فى قوله ، فأما إن نوى بالتحريم طلاق الزوجة أو عتق الأمة ، نفذ فيهما .

والصحيح أن ذلك كان فى تحريمه العسل ، كما روى البخارى عند هذه الآية : عن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكنك عندها ، فتواطأت أنا وحفصة على : أيتنا دخل عليها ، فلتقل له : أكلت مغاير ؟ إني أجد منك ريح مغاير . قال : « لا ، ولكنى كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت لا تخبرى بذلك أحداً » ، ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ . ثم قال : المغاير : شبيه بالصمغ ، يكون فى الرمث فيه حلاوة ، أغفر الرمث : إذا ظهر فيه . واحدها مغفور ، ويقال : مغاير . وهكذا قال الجوهري ، قال : وقد يكون المغفور أيضاً للعشر والثمام والسلّم والطلح . قال : والرمث ، بالكسر : مرعى من مراعى الإبل ، وهو من الحمض . قال : والعرفط : شجر من العضاء ينضج المغفور ورواه مسلم (٤) .

ثم روى البخارى عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل ، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، فيدنو من إحداهن . فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس ، فغرت فسألت عن ذلك ، فقيل لى : أهدت لها امرأة من قومها عكّة عسل ، فسقت النبى ﷺ منه شربة ، فقلت : أما والله لنحتالّن له . فقلت لسودة بنت زمعة : إنه سيدنو منك ، فإذا دنا منك فقولى : أكلت مغاير ؟ فإنه سيقول لك : لا . فقولى له : ما هذه الريح التى أجد؟ فإنه سيقول لك : سقتنى حفصة شربة عسل . فقولى : جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطَ . وسأقول ذلك ، وقولى أنت له يا صفية ذلك ، قالت - تقول سودة - : والله ما هو إلا أن قام على الباب ، فأردت أن أناديه بما أمرتنى فرقاً منك ، فلما دنا منها قالت له سودة : يا رسول الله ، أكلت مغاير ؟ قال : « لا » . قالت : فما هذه الريح التى أجد منك ؟

(٢) البخارى (٤٩١١) ومسلم (١٤٧٣ / ١٨) .

(٤) البخارى (٤٩١٢ ، ٥٢٦٧ ، ٦٦٩١) .

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٨ / ١٠١) .

(٣) النسائى فى الكبرى (١١٦٠٩) .

قال: « سقتني حفصة شربة عسل ». قالت: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العرفطَ. فلما دار إلى قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله، ألا أسقيك منه؟ قال: « لا حاجة لي فيه ». قالت - تقول سودة - : والله لقد حَرَمْنَاهُ. قلت لها: اسكتي. هذا لفظ البخاري. وقد رواه مسلم^(١). وعنده قالت: وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح يعني: الريح الخبيثة؛ ولهذا قلن له: أكلت مغاير لأن ريحها فيه شيء. فلما قال: « بل شربت عسلاً ». قلن: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العرفطَ، أي: رَعَت نَحْلُهُ شَجَرَ العرفط الذي صَمَغُهُ المغاير؛ فلهذا ظهر ريحُهُ في العسل الذي شربته.

والغرض: أن هذا السياق فيه أن حفصة هي الساقية للعسل، وعن عائشة أن زينب بنت جَحْش هي التي سقت العسل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه، فإله أعلم. وقد يقال: إنهما واقعتان، ولا بُدَّ في ذلك، إلا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم.

ومما يدل على أن عائشة وحفصة هما المتظاهرتان الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة. فتبرز ثم أتاني، فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي ﷺ، اللتان قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؟ فقال عمر: وأعجبا لك يا بن عباس - قال الزهري: كره - والله ما سألته عنه ولم يكتبه قال: هي حفصة وعائشة. قال: ثم أخذ يسوق الحديث. قال: كنا معشر قريش قوماً نَغْلِبُ النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تَغْلِبُهُمْ نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم، قال: وكان منزلي في دار بني أمية بن زيد بالعوالي. قال: فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تُراجِعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ^(٢) ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم. قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعين رسول الله ولا تسأليه شيئاً، وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك - يريد عائشة - قال: وكان لي جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك. قال: وكنا نتحدث أن غَسَّان تُنْعِلُ الخيل لتغزونا، فنزل صاحبى يوماً ثم أتى عشاء، فضرب بابي ثم

(١) البخاري (٥٢٦٨) ومسلم (١٤٧٤ / ٢٠).

(٢) في المخطوطة والمطبوعة: « النبي » والمثبت من المسند.

ناداني ، فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم ! فقلت : وما ذاك ؟ أ جاءت غسان ؟ قال : لا ، بل أعظم من ذلك وأطول ! طلق رسول الله ﷺ نساءه ، فقلت : قد خابت حفصة وخسرت ، قد كنت أظن هذا كائنا . حتى إذا صليتُ الصبحَ شددتُ على ثيابي ثم نزلت ، فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت : أطلقكن رسول الله ﷺ فقالت : لا أدري ، هو هذا معتزل في هذه المشربة . فأتيت غلاماً له أسود فقلت : استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إلى فقال : ذكرت لك له فصمت . فانطلقت حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم ، فجلست قليلاً ، ثم غلبنى ما أجد ، فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج فقال : فقد ذكرت لك له فصمت . فخرجت فجلست إلى المنبر ، ثم غلبنى ما أجد فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلى فقال : قد ذكرت لك له فصمت . فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعوني فقال : ادخل ، قد أذن لك . فدخلتُ فسلمتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رُمالٍ حصير قد أثر في جنبه ، فقلت : أطلّقت يا رسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلى وقال : « لا » . فقلت : الله أكبر ، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً تغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم ، فغضبت على امرأتى يوماً ، فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه ، وتهجره أحداهن اليوم إلى الليل . فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فإذا هي قد هلكت . فتبسم رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، فدخلت على حفصة فقلت : لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم - أو : أحب - إلى رسول الله ﷺ منك . فتبسم أخرى ، فقلت : أستأنس يا رسول الله . قال : « نعم » . فجلست فرفعت رأسي في البيت ، فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهبةً ثلاثة (١) . فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك ، فقد وسّع على فارس والروم ، وهم لا يعبدون الله . فاستوى جالساً وقال : « أفى شك أنت يا بن الخطاب ؟ أولئك قوم عجّلَتْ لهم طيباتهم في الحياة الدنيا » . فقلت : استغفر لي يا رسول الله . وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً ؛ من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله ، عز وجل . وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي (٢) .

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب قال : لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه ، دخلت المسجد ، فإذا الناس يَنكُتُون بالحصي ، ويقولون : طلق رسول الله ﷺ نساءه ! وذلك قبل أن يؤمر بالحياب . فقلت : لأعلمن ذلك اليوم . . . فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة ، ووعظه

(١) في المطبوعة : « مقامه » والثبت من المسند والمخطوطة .

(٢) المسند (٢٢٢) والبخاري (٤٩١٣ ، ٥١٩١ ، ٢٤٦٨) ومسلم (١٤٧٩ / ٣٠) والترمذي (٣٣١٨) والنسائي (٢١٣٢) . وقوله : « رمال حصير » : هو بضم الراء وتخفيف الميم ، وهو ما رُمِل ، أي : نسج . ويقال : « رَمَل الحصير » . وقال بعضهم : « الرمال » جمع « رمل » بمعنى مرمول . (من تعليق الشيخ أحمد شاكر على الحديث في شرحه للمسند) .

إياهما ، إلى أن قال : فدخلت ، فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ على أسكفة المشربة ، فناديت فقلت : يا رباح ، استأذن لى على رسول الله ﷺ . . . فذكر نحو ما تقدم ، إلى أن قال : فقلت يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء ، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، وقلما تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولى ، فنزلت هذه الآية ، آية التخيير : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُدْلِهَ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ ، ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ . فقلت : أطلقتهن ؟ قال : « لا » . فقامت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى : لم يطلق نساءه ، ونزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] . فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر (١) . وكذا قال سعيد بن جبیر ، وعكرمة ، ومقاتل بن حیان ، والضحاك ، وغيرهم : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : أبو بكر وعمر - زاد الحسن البصرى : عثمان . وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : على بن أبى طالب .

وروى البخارى عن أنس ، قال : قال عمر : اجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه ، فقلت لهن : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُدْلِهَ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ فنزلت هذه الآية (٢) . وقد تقدم أنه وافق القرآن فى أماكن ، منها فى نزول الحجاب ، ومنها فى أسارى بدر ، ومنها قوله : لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فأنزل الله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥] . وقد تبين مما أوردناه تفسير هذه الآيات الكريمات .

ومعنى قوله : ﴿ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ ﴾ ظاهر . وقوله ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ أى : صائحات ، قاله أبو هريرة ، وعائشة ، وابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبیر ، وقال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ أى : مهاجرات ، وتلا عبد الرحمن : ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ [التوبة: ١١٢] أى : المهاجرون . والقول الأول أولى ، والله أعلم . وقوله : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ أى : منهن ثيبات ، ومنهن أبكارا ، ليكون ذلك أشهى إلى النفس ، فإن التنوع يبسط النفس ؛ ولهذا قال : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْزِدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تَجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا

يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْتُمْنَا نُنَارِئُكَ وَفَإِنَّ نَارَ اللَّهِ تَوَلَّوْا وَلَئِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لَكُنْتُمْ أَكْثَرًا مِمَّنْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْمَوَارِثِ الَّتِي كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

عن علي في قوله تعالى : ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول : أدبواهم ، وعلموهم . وقال ابن عباس : ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول : اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصي الله ، ومروا أهليكم بالذكر ، ينجيكم الله من النار . وقال قتادة : يأمرهم بطاعة الله ، وينهاهم عن معصية الله ، وأن يقوم عليهم بأمر الله ، ويأمرهم به ويساعدهم عليه ، فإذا رأيت لله معصية ، قذعتهم عنها وزجرتهم عنها . وهكذا قال الضحاك ومقاتل : حق على المسلم أن يعلم أهله ، من قرابته وإمائه وعبيده ، ما فرض الله عليهم ، وما نهاهم الله عنه .

وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود ، والترمذي عن عبد الملك ابن الربيع بن سبرة ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها » . هذا لفظ أبي داود ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن (١) . وروى أبو داود ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي ﷺ مثل ذلك (٢) . قال الفقهاء : وهكذا في الصوم ؛ ليكون ذلك تمريناً له على العبادة ، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر ، والله الموفق .

وقوله : ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ : ﴿وَقُودُهَا﴾ أي : حطبها الذي يلقي فيها جثث بني آدم ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ قيل : المراد بذلك الأصنام التي كانت تعبد لقوله : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] . وقوله : ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ﴾ أي : طباعهم غليظة ، قد نزعوا من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ، ﴿شِدَادٌ﴾ أي : تركيبتهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج . وقوله : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي : مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه ، لا يتأخرون عنه طرفة عين ، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه . وهؤلاء هم الزبانية عياداً بالله منهم . وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي : يقال للكفرة يوم القيامة : لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم .

ثم قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ أي : توبة صادقة جازمة ، تمحو ما قبلها من السيئات وتلم شعث التائب وتجمعه ، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات . قال عمر بن الخطاب : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ قال : يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه . وقال : التوبة النصوح : أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه ، أو لا يعود فيه . وعن النعمان : سئل عمر عن التوبة النصوح ، فقال : أن يتوب الرجل من العمل السيئ ، ثم لا يعود إليه أبداً . وعن عبد الله [بن مسعود] : ﴿تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ قال : يتوب ثم لا يعود .

(١) المسند (٣ / ٤٠٤) وأبو داود (٤٩٤) والترمذي (٤٠٧) ، وصححه الألباني .

(٢) أبو داود (٤٩٥) ، وصححه الألباني .

ولهذا قال العلماء : التوبة النصوح هو أن يُقلعَ عن الذنب في الحاضر ، ويندمَ على ما سلف منه في الماضي ، ويعزمَ على ألا يفعل في المستقبل . ثم إن كان الحق لأدمى رده إليه بطريقه . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن معقل قال : دخلت مع أبي على عبد الله بن مسعود فقال : أنت سمعت النبي ﷺ يقول : «الندم توبة ؟» . قال : نعم . وقال مرة : نعم سمعته يقول : «الندم توبة» . ورواه ابن ماجه (١) . فأما إذا جزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تجب ما قبلها من الخطيئات ، كما ثبتت في الصحيح : «الإسلام يجب ما قبله ، والتوبة تجب ما قبلها» (٢) . وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرارُ على ذلك إلى الممات، أو يكفي العزم على ألا يعود في تكفير الماضي، بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً في تكفير ما تقدم ، لعموم قوله ، عليه السلام : «التوبة تجب ما قبلها ؟» . وللأول أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضاً : «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر» (٣) . فإذا كان هذا في الإسلام الذي هو أقوى من التوبة ، فالتوبة بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ و«عسى» من الله موجبة ، ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي : ولا يخزيهم معه ، يعنى : يوم القيامة ، ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ كما تقدم في سورة الحديد ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال مجاهد ، والضحاك ، والحسن البصري وغيرهم : هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نورَ المنافقين قد طَفِئَ .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ، ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي : في الدنيا ، ﴿وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي : في الآخرة . ثم قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي : في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم ، أن ذلك لا يجدى عنهم شيئاً ، ولا ينفعهم عند الله ، إن لم يكن الإيمان حاصلًا في قلوبهم ، ثم ذكر المثل فقال : ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ أي : نبين رسولين عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً، يؤاكلانهما ويضاجعانهما

(١) المسند (٣٥٦٨) وابن ماجه (٤٢٥٢) وفي زوائد البوصيري : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

(٢) البخارى (٦٩٢١) ومسلم (١٢٠ / ١٨٩) .

(٣) مسلم (١٢١ / ١٩٢) .

ويعاشرانها أشد العشرة والاختلاط ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أى: فى الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان ، ولا صدقاهما فى الرسالة، فلم يُجد ذلك كله شيئاً، ولا دفع عنهما محذورا؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ لكفرهما ، ﴿ وَقِيلَ ﴾ أى: للمرأتين: ﴿ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ .

وليس المراد : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ فى فاحشة ، بل فى الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة؛ لحرمة الأنبياء. قال ابن عباس فى هذه الآية: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال: ما زنتا ، أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا وَكَانَتْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

وهذا مثلٌ ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ [آل عمران: ٢٨] . قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده ، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حكمٌ عدل ، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه . فقولها : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار ﴿ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ أى : خلصنى منه ، فإنى أبرأ إليك من عمله ، ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . وهذه المرأة هى آسية بنت مزاحم .

وقوله : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أى : حفظته وصانته . الإحصان : هو العفاف والحرية ، ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ أى : بواسطة الملك ، وهو جبريل ، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها فى صورة بشر سوى ، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه فى جيب درعها ، فنزلت النفخة فولجت فى فرجها، فكان منه الحمل بعميسى ، عليه السلام . ولهذا قال : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا ﴾ أى : بقدره وشرعه ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ . روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ فى الأرض أربعة خطوط، وقال : « أتدرون ما هذا ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون » (١) . وثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى ، عن النبى ﷺ أنه قال : « كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَإِنْ فَضَّلَ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضَّلَ الثَّرِيدُ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ » (٢) .

(١) المسند (٢٦٦٨) وقال الهيثمى فى الزوائد (٩/ ٢٢٣): « رجاله رجال صحيح » وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

(٢) البخارى (٥٤١٨) ومسلم (٢٤٣١ / ٧٠) .

تفسير سورة الملك

وهي مكية

روى أحمد عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت ل صاحبها حتى غفر له : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ » . ورواه أهل السنن الأربعة . وقال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء
٢٩

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾

يمجد تعالى نفسه الكريمة ، ويخبر أنه بيده الملك ، أى : هو المتصرف فى جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ : ومعنى الآية : أنه أوجد الخلائق من العدم ، ليلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملا ؟ كما قال : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨] . فسمى الحال الأول - وهو العدم - موتاً ، وسمى هذه النشأة حياة . ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨] . وقوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أى : خير عملا ، كما قال محمد بن عجلان : ولم يقل أكثر عملا ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ أى : هو العزيز العظيم المنيع الجنب ، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأتاب ، بعدما عصاه وخالف أمره ، وإن كان تعالى عزيزاً ، هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز .

ثم قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ أى : طبقة بعد طبقة ، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض ، أو متفاصلات بينهما خلاء ؟ فيه قولان ، أصحهما الثانى ، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره .

وقوله : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ أى : بل هو مصطحب مستو ، ليس فيه

(١) المسند (٨٢٥٩) وأبو داود (١٤٠٠) والترمذى (٢٨٩١) وابن ماجه (٣٧٨) ، وصححه الألبانى .

اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ، ولا نقص ولا عيب ولا خلل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ أى : انظر إلى السماء فتأملها ، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً ؟ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وغيرهم فى قوله : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ أى : شقوق . وقال السدى : أى : من خروق . وقال قتادة : أى : هل ترى خللاً يا بن آدم ؟

وقوله : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ قال : مرتين ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ قال ابن عباس : ذليلاً ؟ وقال مجاهد ، وقاتادة : صاغراً ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ قال ابن عباس : يعنى : وهو كليل . وقال مجاهد ، وقاتادة ، والسدى : الحسير : المنقطع من الإعياء . ومعنى الآية : إنك لو كررت البصر ، مهما كررت ، لانقلب إليك ، أى : لرجع إليك البصر ، ﴿ خَاسِئًا ﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً ، ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أى : كليل وقد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار ، ولا يرى نقصاً . ولما نفى عنها فى خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ وهى الكواكب التى وضعت فيها من السيارات والثوابت .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ : عاد الضمير فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ على جنس المصابيح لا على عينها ؛ لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها ، والله أعلم . وقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ أى : جعلنا للشياطين هذا الخزى فى الدنيا ، وأعتدنا لهم عذاب السعير فى الأخرى ، كما قال : فى أول الصفات : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصفات : ٦ - ١٠] . قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ﴾ ① إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ② تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ③ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ④ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑤ فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑥

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ للذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴿ أى : بئس المآل والمنقلب . ﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴿ قال ابن جرير : يعنى الصياح ﴾ وَهِيَ تَفُورُ ﴿ قال الثورى : تغلى بهم كما يغلى الحب القليل فى الماء الكثير .

وقوله : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ أى : تكاد ينفصل بعضها من بعض ، من شدة غيظها

عليهم وحنقها بهم ، ﴿ كَلَّمَآ أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۚ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِن أنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝ يَذْكُرُ تَعَالَىٰ عَدْلُهُ فِي خَلْقِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝ [الإسراء: ١٥] . وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتِ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ [الزمر: ٧١] . وَهَكَذَا عَادُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ ، وَنَدَمُوا حَيْث لَا تَنْفَعُهُمُ النَّدَامَةُ ، فَقَالُوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ أَى : لَوْ كَانَتْ لَنَا عَقُولٌ نَّتَفَعُ بِهَا أَوْ نَسْمَعُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْحَقِّ ، لَمَا كُنَّا عَلَىٰ مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالْإِغْتِرَارِ بِهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَنَا فَهْمٌ نَعَىٰ بِهِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَلَا كَانَ لَنَا عَقْلٌ يَرْشِدُنَا إِلَىٰ اتِّبَاعِهِمْ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ . رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ (١) الطَّائِي قَالَ : أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّىٰ يُعَذِّبُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » (٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ [١٢] وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ [١٣] أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝ [١٤] هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ۝ [١٥] ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس ، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات ، حيث لا يراه أحد إلا الله ، بأنه له مغفرة وأجر كبير ، أَى : يكفر عنه ذنوبه ، ويجازى بالثواب الجزيل ، كما ثبت في الصحيحين : « سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » ، فذكر منهم : « رجلاً دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (٣) .

ثم قال تعالى منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر : ﴿ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ أَى : بما يخطر في القلوب ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ۝ ؟ أَى : أَلَا يَعْلَمُ الْخَالِقُ . وَقِيلَ : معناه : أَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ مخلوقه ؟ والأول أولى (٤) ، لقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝ .

ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيرها لهم الأرض وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب ، بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهياً فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ۝ أَى : فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا في أقاليمها وأرجائها

(١) في المطبوعة : « البختري » بالحاء المهملة ، وهو خطأ .

(٢) المسند (٤/ ٢٦٠) ، والحديث رواه أبو داود (٤٣٤٧) ، وصححه الألباني .

(٣) البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١ / ٩١) . (٤) « أولى » : ساقطة من المطبوعة .

فى أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدى عليكم شيئاً ، إلا أن ييسره الله لكم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ ، فالسعى فى السبب لا ينافى التوكل ، كما روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تَغْذُو خِمَاصًا وَتَرْوُحُ بِطَانًا » . رواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح (١) . فأثبت لها رواحا وغدوا لطلب الرزق ، مع توكلها على الله ، عز وجل ، وهو المسخر المسير المسبب . ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ أى : المرجع يوم القيامة . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى : ﴿ مَنَاجِيهَا ﴾ : أطرافها وفجاجها ونواحيها . وقال ابن عباس وقتادة : ﴿ مَنَاجِيهَا ﴾ : الجبال . وقال أبو الدرداء : هى الجبال .

﴿ أَمِنتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ (١٦) أَمْ أَمِنتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿ (١٩)

وهذا أيضاً من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم ، بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ، ويؤجل ولا يعجل ، كما قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٥] . وقال هاهنا : ﴿ أَمِنتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أى : تذهب وتجيء وتضطرب ، ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أى : ريحا فيها حصباء تدمغكم ، كما قال : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٨] . وهكذا توعدهم هاهنا بقوله : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أى : كيف يكون إنذارى وعاقبة من تخلف عنه وكذب به .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : من الأمم السابقة والقرون الخالية ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : فكيف كان إنكارى عليهم ومعاقبتى لهم ؟ أى : عظيماً شديداً أليماً . ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أى : تارة يصففن أجنحتهن فى الهواء ، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً ﴿ مَا يُمَسِّكُهُنَّ ﴾ أى : فى الجو ﴿ إِلَّا الرَّحْمَنُ ﴾ أى : بما سخر لهن من الهواء ، من رحمته ولطفه ، ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ أى : بما يصلح كل شىء من مخلوقاته . وهذه كقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٩] .

(١) المسند (٢٠٥) والترمذى (٢٣٤٤) وابن ماجه (٤١٦٤) . وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ (١٠)
 ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ (١١) ﴿ أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ ۖ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١٢) ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (١٣) ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (١٤) ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٥) ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١٦) ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ (١٧) ﴿

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا غيره ، يبتغون عندهم نصراً ورزقاً ، منكرًا عليهم فيما اعتقدوه ، ومُخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه ، فقال : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ أى : ليس لكم من دونه من ولى ولا واق ، ولا ناصر لكم غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ . ثم قال : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ ؟ أى : من هذا الذى إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده ؟ ! أى : لا أحد يعطى ويمنع ويخلق ويرزق ، وينصر إلا الله ، عز وجل ، وحده لا شريك له ، أى : وهم يعلمون ذلك ، ومع هذا يعبدون غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ بَلْ لَجُّوا ﴾ أى : استمروا فى طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ أى : معاندة واستكباراً ونفوراً على أدبارهم عن الحق ، لا يسمعون له ولا يتبعونه .

ثم قال : ﴿ أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ؟ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشى مَكْبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ ، أى : يمشى منحنيًا لا مستويًا على وجهه ، أى : لا يدرى أين يسلك ولا كيف يذهب ؟ بل تائه حائر ضال ، أهذا أهدى ﴿ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا ﴾ أى : منتصب القامة ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أى : على طريق واضح بين ، وهو فى نفسه مستقيم ، وطريقه مستقيمة . هذا مثلهم فى الدنيا ، وكذلك يكونون فى الآخرة . فالمؤمن يحشر يمشى سويًا على صراط مستقيم ، مُفَضَّضٌ به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشى على وجهه إلى نار جهنم ، ﴿ احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ . بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٦] . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « أليس الذى أمشاهم على أرجلهم قادرًا على أن يمشيهم على وجوههم » . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين (١) .

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ ﴾ أى : ابتداء خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أى : العقول والإدراك ، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : قلما تستعملون هذه القوى التى أنعم الله بها عليكم فى طاعته وامثال أوامره وترك زواجره . ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي

ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿٢٨﴾ أَيْ : بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها ، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم ، وحلاكم وأشكالكم وصوركم ، ﴿وَالِيَهُ تَحْشُرُونَ ﴿٢٩﴾ أَيْ : تُجْمَعُونَ بعد هذا التفرق والشتات ، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم .

ثم قال مخبراً عن الكفار المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٠﴾ أَيْ : متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق ؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴿٣١﴾ أَيْ : لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله ، عز وجل ، ولكنه أمرنى أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ، ﴿وإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ : وإنما على البلاغ ، وقد أدبته إليكم .

قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٣٣﴾ أَيْ : لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ، ورأوا أن الأمر كان قريباً ؛ لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك ، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر ، أَيْ : فأحاط بهم ذلك ، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ولا حساب ، ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا (١) وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ [الزمر: ٤٨] ؛ ولهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ : ﴿هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٣٥﴾ أَيْ : تستعجلون .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللَّهُ وَمَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٦﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى : ﴿قُلْ﴾ : يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه : ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللَّهُ وَمَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٦﴾ أَيْ : خلصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال ، فسواء عذبنا الله أو رحمنا ، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم .

ثم قال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴿٣٧﴾ أَيْ : آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم ، وعليه توكلنا فى جميع أمورنا ، كما قال : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴿٣٨﴾ [هود: ١٢٣] . ولهذا قال : ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٩﴾ ؟ أَيْ : منا ومنكم ، ولمن تكون العاقبة فى الدنيا والآخرة ؟ . ثم قال : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴿٤٠﴾ أَيْ : ذاهبا فى الأرض إلى أسفل ، فلا يُنال بالفئوس الحداد ، ولا السواعد الشداد ، والغائر عكس النابع ؛ ولهذا قال : ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٤١﴾ ؟ أَيْ : نابع سائح جار على وجه الأرض ، لا يقدر على ذلك إلا الله ، عز وجل ، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها فى سائر أقطار الأرض ، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة ، فله الحمد والمنة .

(١) فى المطبوعة : « ما عملوا » وهو خطأ .

تفسير سورة « ن »

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ﴿ ١ ﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿ ٢ ﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿ ٣ ﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿ ٤ ﴾ فَسَتَبْصُرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿ ٥ ﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿ ٦ ﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿ ٧ ﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء فى أول «سورة البقرة» وأن قوله ﴿ ن ﴾ كقوله ﴿ ص ﴾ ، ﴿ ق ﴾ ، ونحو ذلك من الحروف المقطعة فى أوائل السور، وتحرير القول فى ذلك بما أغنى عن إعادته.

وقوله تعالى : ﴿ وَالْقَلَمِ ﴾ : الظاهر أنه جنس القلم الذى يكتب به كقوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٣ - ٥] . فهو قسم منه تعالى ، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التى بها تنال العلوم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يعنى : وما يكتبون . وقال عن ابن عباس : أى : وما يعملون . وقال السدى : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ : يعنى الملائكة وما تكتب من أعمال العباد . وقال آخرون : بل المراد هاهنا بالقلم الذى أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف عام . وأوردوا فى ذلك الأحاديث الواردة فى ذكر القلم . وعن الوليد بن عباد بن الصامت قال : دعانى أبى حين حضره الموت فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . قال : يا رب ما أكتب ؟ قال : اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد » . وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد (١) .

وقوله : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أى : يكتبون ، كما تقدم . وقوله : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أى : لست ، ولله الحمد ، بمجنون ، كما قد يقوله الجهلة من قومك ، والمكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين ، فنسبوك فيه إلى الجنون ، ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : بل لك الأجر العظيم ، والثواب الجزيل الذى لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق ، وصبرك على أذاهم . ومعنى ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير مقطوع كقوله : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨] ، ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: ٦] أى : غير مقطوع عنهم . وقال مجاهد : ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير محسوب ، وهو يرجع إلى ما قلناه .

(١) المسند (٥ / ٣١٧) والترمذى (٣٣١٩) وأبو داود (٤٧٠٠) .

وقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال العوفى ، عن ابن عباس : أى : وإنك لعلى دين عظيم ، وهو الإسلام . وكذلك قال مجاهد ، والسدى ، والربيع بن أنس ، وغيرهم . وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن سعد بن هشام قال : سألت عائشة فقلت : أخبريني يا أم المؤمنين - عن خلق رسول الله ﷺ . فقالت : أتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم . فقالت : كان خلقه القرآن . هذا حديث طويل . وقد رواه الإمام مسلم فى صحيحه (١) . وسيأتى فى سورة «المزمل» إن شاء الله تعالى . وروى الإمام أحمد عن الحسن قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن (٢) . وروى ابن جرير عن سعد (٣) بن هشام : قال : أتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها : أخبريني بخلق النبى ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن . أما تقرأ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ . وقد روى أبو داود والنسائى نحوه (٤) . وروى ابن جرير عن جبير بن نفير قال : حججت فدخلت على عائشة ، فسألته عن خلق رسول الله ﷺ . فقالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن . هكذا رواه أحمد والنسائى عن معاوية بن صالح ، به (٥) .

ومعنى هذا : أنه ، عليه السلام ، صار امثال القرآن أمراً ونهياً ، سجية له ، وخلقاً تطبعه ، وترك طبعه الجبلى ، فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه . هذا مع ما جبّله الله عليه من الخلق العظيم ، من الحياء والكرم والشجاعة ، والصفح والحلم ، وكل خلق جميل . كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى : « أف » قط ، ولا قال لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله : ألا فعلته ؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً ، ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ (٦) . وروى البخارى عن البراء قال : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأحسن الناس خلقاً ، ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير (٧) . والأحاديث فى هذا كثيرة ، ولأبى عيسى الترمذى فى هذا كتاب « الشمائل » .

وقوله : ﴿فَسَبِّحْهُ وَيُسَبِّحْهُ . بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أى : فستعلم يا محمد ، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك : من المفتون الضال منك ومنهم ؟ وهذه كقوله تعالى : ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُ﴾ [القمر: ٢٦] ، وكقوله : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤] . قال ابن جريج : قال ابن عباس فى هذه الآية : ستعلم ويعلمون يوم القيامة . وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أى : الجنون . وكذا قال مجاهد ، وغيره . وقال قتادة وغيره : ﴿بِأَيِّكُمُ

(١) عبد الرزاق فى التفسير (٢/ ٢٤٥) ومسلم (٧٤٦/ ١٣٩) .

(٢) المسند (٦/ ٢١٦) ، وأبو داود (١٣٤٢) ، وصححه الألبانى .

(٣) فى المخطوطة والمطبوعة : « سعيد » وهو خطأ .

(٤) ابن جرير فى التفسير (٢٩/ ١٣) وأبو داود (١٣٥٢) والنسائى (١٦٥١) .

(٥) ابن جرير فى التفسير (٢٩/ ١٣) والمسند (٦/ ١٨٨) والنسائى فى الكبرى (١١٣٨/ ٢) .

(٦) البخارى (٦٠٣٨) ومسلم (٢٣٠٩/ ٥١) . (٧) البخارى (٣٥٤٩) .

الْمُفْتُونُ ﴿٨﴾ أى : أولى بالشیطان . ومعنى المفتون ظاهر ، أى : الذى قد افتتن عن الحق وضل عنه ، وإنما دخلت الباء فى قوله : ﴿بِأَيْكُمُ الْمُفْتُونُ﴾ لتدل على تضمين الفعل فى قوله : ﴿فَسَتَّبَصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ وتقديره : فستعلم ويعلمون ، أو : فستُخبر ويُخبرون بأیکم المفتون . والله أعلم . ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أى : هو يعلم تعالى أى الفريقين منكم ومنهم هو المهتدى ، ويعلم الحزب الضال عن الحق .

﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَدَّهْنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِيعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

يقول تعالى : كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ . ﴿وَدُّوا لَوْ تَدَّهْنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ قال ابن عباس : لو ترخص لهم فيرخصون . وقال مجاهد : ودوا لو تركن إلى آلهتهم وترك ما أنت عليه من الحق .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَا تُطِيعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ : وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترئ بها على أسماء الله تعالى ، واستعمالها فى كل وقت فى غير محلها . قال ابن عباس : المهين : الكاذب . وقال مجاهد : هو الضعيف القلب . وقال الحسن : كل حلاف مكابر مهين ضعيف . وقوله : ﴿هَمَّازٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة : يعنى الاغتياب . ﴿مَشَاءٍ بَنَمِيمٍ﴾ يعنى : الذى يمشى بين الناس ، ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين ، وهى الحالقة ، وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال : «إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » الحديث . وأخرجه بقية الجماعة (١) . وروى أحمد عن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يدخل الجنة قتات» . رواه الجماعة إلا ابن ماجه (٢) . وقوله : ﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أى : يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿مُعْتَدٍ﴾ فى تناول ما أحل الله له ، يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿أَثِيمٍ﴾ أى : يتناول المحرمات . وقوله : ﴿عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ : أما العتل : الفظ الغليظ الصحيح ، الجموع النُّوعُ . وروى الإمام أحمد عن حارثة بن وهب قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أنبئكم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » . وقال وكيع : «كل جواظ جعظرى مستكبر » . أخرجاه فى الصحيحين وبقية الجماعة ، إلا أبا داود (٣) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن

(١) البخارى (٢١٨) ومسلم (٢٩٢ / ١١١) وأبو داود (٢٠) والترمذى (٧٠) .

(٢) المسند (٥ / ٣٨٢) والبخارى (٦٥٠٦) ومسلم (١٠٥ / ١٦٩) وأبو داود (٤٨٧١) والترمذى (٢٠٢٦) .

(٣) المسند (٤ / ٣٠٦) والبخارى (٤٩١٨) ومسلم (٢٨٥٣ / ٤٦) والترمذى (٢٦٠٥) وابن ماجه (٤١١٦) .

عمرو بن العاص ؛ أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار : « كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع » . تفرد به أحمد (١) . قال أهل اللغة : الجعظري : الفظ الغليظ ، والجواظ : الجموع المتنوع .

وأما الزنيم فروى البخارى عن ابن عباس : ﴿ عَتَلْ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴾ قال : رجل من قريش له زئمة مثل زئمة الشاة (٢) . ومعنى هذا : أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزئمة من بين أخواتها . وإنما الزنيم فى لغة العرب : هو الدَّعِىُّ فى القوم . قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة . وقال ابن عباس : الزنيم : الدعى . ويقال : الزنيم : رجل كانت به زئمة ، يعرف بها . ويقال : هو الأخنس ابن شريق الثقفى ، حليف بنى زهرة . وقال ابن أبى نجیح عن ابن عباس : أنه زعم أن الزنيم المُلْحَقُ النسب . وقال سعيد بن المسيب فى هذه الآية : هو المُلصَق فى القوم ، ليس منهم . وقال عكرمة : يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزئماء . والزئماء من الشياه : التى فى عنقها هتتان معلقتان فى حلقها . وقال سعيد بن جبیر : الزنيم : الذى يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزئمتها . والزنيم : المُلصَق . والأقوال فى هذا كثيرة ، وترجع إلى ما قلناه ، وهو أن الزنيم هو : المشهور بالشر ، الذى يعرف به من بين الناس ، وغالباً يكون دعياً ولد زناً ، فإنه فى الغالب يتسلط الشيطان عليه مالا يتسلط على غيره .

وقوله : ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : يقول تعالى : هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين ، كفر بآيات الله وأعرض عنها ، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين ، كقوله : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدر: ١١ - ٢٦] . وقال تعالى هاهنا : ﴿ سَنَسِمْهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ . قال ابن جرير : سنين أمره بياناً واضحاً ، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم ، كما لا تخفى السمة على الخراطيم . وهكذا قال قتادة : ﴿ سَنَسِمْهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ : شين لا يفارقه آخر ما عليه . وفى رواية عنه : سيما على أنفه . وكذا قال السدى . وقال ابن عباس : ﴿ سَنَسِمْهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ : يقاتل يوم بدر ، فيخطم بالسيف فى القتال . وقال آخرون : ﴿ سَنَسِمْهُ ﴾ : سمة أهل النار ، يعنى : نسود وجهه يوم القيامة ، وعبر عن الوجه بالخرطوم . وحكى ذلك كله أبو جعفر ابن جرير ، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه فى الدنيا والآخرة ، وهو متجه .

(١) المسند (٦٥٨٠) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٣٩٣) : « رجاله رجال الصحيح » . وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

(٢) ابن جرير فى التفسير (١٧ / ٢٩) .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَت كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

هذا مثل ضرب به الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعم الجسيمة ، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أى : اختبارناهم ، ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أى : حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلا ، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ، ﴿ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴾ أى : فيما حلفوا به . ولهذا حشنتهم الله فى أيمانهم ، فقال : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أى : أصابتها آفة سماوية ، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ قال ابن عباس : أى كالليل الأسود . وقال الثورى ، والسدى : مثل الزرع إذا حُصد ، أى : هشيماً ييساً . ﴿ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ أى : لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ ، أى : القطع ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : تريدون الصرام . قال مجاهد : كان حرثهم عنباً ﴿ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴾ أى : يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم . ثم فسر الله عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به ، فقال : ﴿ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ . أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ أى : يقول بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم ! قال الله تعالى : ﴿ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ ﴾ أى : قوة وشدة . وقال مجاهد : ﴿ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ ﴾ أى : جد . وقال عكرمة : غيظ . وقال الشعبى : ﴿ عَلَى حَرْدٍ ﴾ : على المساكين .

﴿ قَادِرِينَ ﴾ أى : عليها فيما يزعمون ويرومون . ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴾ أى : فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها ، وهى على الحالة التى قال الله ، عز وجل ، قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة ، لا ينتفع بشيء منها ، فاعتقدوا أنهم قد أخطؤوا الطريق ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَضَالُونَ ﴾ أى : قد سلكنا إليها غير الطريق فتُهنا عنها . قاله ابن عباس وغيره . ثم رجعوا عما كانوا فيه ، وتيقنوا أنها هى فقالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى : بل هذه هى ، ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب . ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والربيع بن أنس ،

والضحاك ، وقتادة : أى : أعدلهم وخيرهم : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ ! قال مجاهد ، والسدى ، وابن جريج : ﴿ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أى : لولا تستثنون . قال السدى : وكان استثناءهم فى ذلك الزمان تسبيحاً . وقال ابن جريج : هو قول القائل : إن شاء الله . وقيل : معناه : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أى : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ، ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ، أتوا بالطاعة حيث لا تنفع ، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ، ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى : اعتدنا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ، ﴿ عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُدْخِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ قيل : رغبوا فى بذلها لهم فى الدنيا . وقيل : احتسبوا ثوابها فى الدار الآخرة ، والله أعلم .

ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن . وقيل : كانوا من أهل الحبشة ، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليها ويدخر لعياله قوت سنتهم ، ويتصدق بالفاضل . فلما مات ورثه بنوه ، قالوا : لقد كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ، ولو أننا منعناهم لتوفر ذلك علينا . فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية ، ورأس المال والربح والصدقة ، فلم يبق لهم شيء .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أى : هكذا عذاب من خالف أمر الله ، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المسكين والفقير وذوى الحاجات ، وبدل نعمة الله كفراً ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم ، وعذاب الآخرة أشق .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ ﴿ ٢٤ ﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿ ٢٥ ﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿ ٢٦ ﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿ ٢٧ ﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿ ٢٨ ﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿ ٢٩ ﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿ ٣٠ ﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿ ٣١ ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية ، وما أصابهم فيها من النعمة حين عصوا الله ، عز وجل ، وخالفوا أمره ، بين أن لمن اتقاه وأطاعه فى الدار الآخرة جنات النعيم التى لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضى نعيمها . ثم قال : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ ؟ أى : أفنساوى بين هؤلاء وهؤلاء فى الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ! أى : كيف تظنون ذلك ؟ ثم قال : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ . إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ يقول : أفأبيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف ، متضمن

حكماً مؤكداً كما تدعونه؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ . أم لكم أيمانٌ علينا بالغةٌ إلى يومِ القيامةِ إنَّ لكم لما تحكُمونَ ﴿ أى : أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة ، ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أى : إنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ، ﴿ سَلِّمُوا بِهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾ ؟ أى : قل لهم : من هو المتضمن المتكفل بهذا ؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ، ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ﴿ ٤٢ ﴾ خَشِيعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةً وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿ ٤٣ ﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٤٤ ﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿ ٤٥ ﴾ أَمْ تَسْتَلْهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَفْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿ ٤٦ ﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿ ٤٧ ﴾

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ، بين متى ذلك كائن وواقع ، فقال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعنى : يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام . وعن ابن عباس : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : هو يوم كرب وشدة . رواه ابن جرير ، ثم روى عن ابن مسعود - أو : ابن عباس ، الشك من ابن جرير : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : عن أمر عظيم . وقال مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : شدة الأمر . وقال ابن عباس : هى أشد ساعة تكون فى يوم القيامة . وقال مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : شدة الأمر وجده . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ : هو الأمر الشديد المُنْفِطِع من الهول يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ خَشِيعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةً ﴾ أى : فى الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم فى الدنيا ، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه . ولما دعوا إلى السجود فى الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم ، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة ، إذا تجلّى الرب ، عز وجل ، فسجد له المؤمنون ، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد ، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً ، كلما أراد أحدهم أن يسجد خراً لقفاه ، عكس السجود ، كما كانوا فى الدنيا ، بخلاف ما عليه المؤمنون .

ثم قال تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى : القرآن . وهذا تهديد شديد ، أى : دعنى وإياه منى ومنه ، أنا أعلم به كيف أستدرجه ، وأمدته فى غيه وأنظره ، ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر ؛ ولهذا قال : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : وهم لا يشعرون ، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة ، وهو فى نفس الأمر إهانة ، كما قال : ﴿ أَيْحَسِبُونَ أَنَّما نُمدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أى : وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم ، وذلك من

كيدى ومكرى بهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أى : عظيم لمن خالف أمرى ، وكذب رسلى ، واجترأ على معصيتى . وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » . ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] (١) .

وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ . أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ : تقدم تفسيرهما فى سورة «الطور» (٢) . والمعنى فى ذلك : أنك يا محمد تدعوهم إلى الله ، عز وجل ، بلا أجر تأخذه منهم ، بل ترجوا ثواب ذلك عند الله ، عز وجل ، وهم يكذبون بما جئتهم به ، بمجرد الجهل والكفر والعناد .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ نُولَا أَنْ تَدْرِكُهُ نِيعَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبْذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبِهْ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم ؛ فإن الله سيحكم لك عليهم ، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ يعنى : ذا النون ، وهو يونس بن متى ، عليه السلام ، حين ذهب مغاضباً على قومه ، فكان من أمره ما كان من ركوبه فى البحر والتقام الحوت له ، وشروء الحوت به فى البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلی القدير ، الذى لا يُردّ ما أنفذه من التقدير ، فحيثُ نادى فى الظلمات : ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] . قال الله : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣ ، ١٤٤] وقال ههنا : ﴿ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدى : وهو مغموم . وقال عطاء الخراسانى ، وأبو مالك : مكروب . وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » . ورواه البخارى . وهو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة (٣) .

وقوله : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما : لَيَنْفُذُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ، أى : يعينونك بأبصارهم ، بمعنى : يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك ، وحمايته إياك منهم . وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق ، بأمر الله ، عز وجل ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة : روى

(١) البخارى (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣ / ٦١) . (٢) عند الآيتين (٤٠ ، ٤١) .

(٣) المسند (٣٧٠٣) والبخارى (٤٦٠٣ ، ٤٦٣١) ومسلم (٢٣٧٦ / ١٦٦) .

ابن ماجه عن بُرَيْدَةَ بن الحَصِيب قال: قال رسول الله ﷺ: « لا رقية إلا من عين أو حُمة ». هكذا رواه ابن ماجه ، وقد أخرجه مسلم عن بريدة موقوفاً ، وفيه قصة (١). وروى هذا الحديث الإمام البخارى وأبو داود والترمذى عن عمران بن حصين موقوفاً (٢) . وروى مسلم عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : «العين حق ، ولو كان شيء سابقَ القَدَرِ سبقَت العين ، وإذا اغتسلتم فاغسلوا » . انفرد به دون البخارى (٣) . وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يُعوذُ الحسن والحسين ، يقول : « أعيدكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » ، ويقول : « هكذا كان إبراهيم يُعوذُ إسحاق وإسماعيل ، عليهما السلام » . أخرجه البخارى وأهل السنن (٤) . وروى ابن ماجه عن أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس . فلما نزلت المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك . ورواه الترمذى والنسائى وقال الترمذى : حسن (٥) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد : أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال : اشتكيت يا محمد ؟ قال : « نعم » . قال : باسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس وعين يشفيك ، باسم الله أرقيك . ورواه مسلم وأهل السنن إلا أبا داود (٦) . وروى الإمام أحمد عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن العين حق » . أخرجاه (٧) . وروى الإمام أحمد عن عبيد بن رفاعة الزُرقي قال: قالت أسماء : يا رسول الله ، إن بنى جعفر تصيبهم العين ، أفأسترقى لهم ؟ قال : « نعم ، فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين » . وكذا رواه الترمذى وقال: حسن صحيح (٨) . وروى ابن ماجه عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقى من العين . ورواه البخارى ومسلم (٩) .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى : يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم ، ويقولون : ﴿ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى : لمجيئه بالقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

(١) ابن ماجه (٣٥١٣) ومسلم (٢٢٠ / ٣٧٤) .

(٢) البخارى (٥٧٠٥) وأبو داود (٣٨٨٤) والترمذى (٢٠٧٥) .

(٣) مسلم (٤٢ / ٢١٨٨) .

(٤) البخارى (٣٣٧١) وأبو داود (٤٧٣٧) والترمذى (٢٠٦٠) .

(٥) ابن ماجه (٣٥١١) والترمذى (٢٠٥٨) والنسائى (٥٤٩٤) .

(٦) المسند (٣ / ٢٨ ، ٥٦) ومسلم (٢١٨٦ / ٤٠) والترمذى (٩٧٥) وابن ماجه (٣٥٢٣) .

(٧) المسند (٢ / ٣١٨) والبخارى (٥٧٤٠) ومسلم (٢١٨٧ / ٤١) .

(٨) المسند (٦ / ٤٣٨) والترمذى (٢٠٥٩) .

(٩) ابن ماجه (٣٥١٠) والبخارى (٥٧٣٨) ومسلم (٢١٩٥ / ٥٥ ، ٥٦) .

تفسير سورة الحاقة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّهِمُ ۚ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ
بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ
عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ
أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ
بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ
﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾

الحاقة من أسماء يوم القيامة ؛ لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد ؛ ولهذا عظم تعالى أمرها فقال : ﴿ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ ؟

ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ ، وهي الصيحة التي أسكتتهم ، والزلزلة التي أسكتتهم . هكذا قال قتادة : الطاغية : الصيحة . وهو اختيار ابن جرير . وقال مجاهد : الطاغية : الذنوب . وكذا قال الربيع بن أنس ، وابن زيد : إنها الطغيان ، وقرأ ابن زيد : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ [الشمس : ١١] . وقال السدي : ﴿ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ قال : يعني : عاقر الناقة . ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ أي : باردة . قال قتادة ، والربيع ، والسدي ، والثوري : ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ أي : شديدة الهبوب . قال قتادة : عتت عليهم حتى نَقَبَتْ عن أفئدتهم . وقال الضحاك : ﴿ صَرْصَرٍ ﴾ : باردة ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ : عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة . وقال على وغيره : عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب .

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي : سلطها عليهم ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ أي : كوامل متتابعات مشائيم . قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : ﴿ حُسُومًا ﴾ : متتابعات . وعن عكرمة والربيع : مشائيم عليهم ، كقوله : ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ [فصلت : ١٦] قال الربيع : وكان أولها الجمعة . وقال غيره الأربعاء . ويقال : إنها التي تسميها الناس الأعجاز ؛ كأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ . وقيل : لأنها تكون في عجز الشتاء . قال ابن عباس : ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ : خربة . وقال غيره : بالية ، أي : جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتاً على أم رأسه ، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا

خرت بلا أغصان . وقد ثبت في الصحيحين ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نُصِرْتُ بالصَّبَا ، وأهلكَ عادٌ بالدَّبُور » (١) . ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ ؟ أى : هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم ؟ بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً . ثم قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾ : قرئ بكسر القاف ، أى : ومن عنده فى زمانه من أتباعه من كفار القبط . وقرأ آخرون بفتحها ، أى : ومن قبله من الأمم المشبهين له . وقوله : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ وهم المكذبون بالرسول ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أى : بالفعل الخاطئة ، وهى التكذيب بما أنزل الله . قال الربيع : ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أى : بالمعصية . وقال مجاهد : بالخطايا . ولهذا قال : ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ وهذا جنس ، أى : كل كذب رسول الله إليهم . كما قال : ﴿ كُلُّ كَذِبٍ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق: ١٤] . ومن كذب رسول الله فقد كذب بالجميع ، كما قال : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ، ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣] ، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤١] . وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمُ أَخَذَةً رَّابِيَةً ﴾ أى : عزيمة شديدة أليمة . قال مجاهد : ﴿ رَّابِيَةً ﴾ : شديدة . وقال السدى : مهلكة .

ثم قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴾ أى : زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود . قال ابن عباس وغيره : ﴿ طَغَا الْمَاءُ ﴾ : كثر - وذلك بسبب دعوة نوح ، عليه السلام ، على قومه حين كذبوه وخالفوه ، فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعمَّ أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح فى السفينة ، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته .

ولهذا قال تعالى ممتناً على الناس : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ وهى السفينة الجارية على وجه الماء ، ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ أى : وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء فى البحار ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لَتَسْتَبِشُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس: ٤١، ٤٢] . وقال قتادة : أبقي الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة . والأول أظهر ؛ ولهذا قال : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَأَعْيَةٌ ﴾ أى : وتفهم هذه النعمة ، وتذكرها أذن واعية . قال ابن عباس : حافظة سامعة . وقال قتادة : ﴿ أُذُنٌ وَأَعْيَةٌ ﴾ : عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله ، وقال الضحاك : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَأَعْيَةٌ ﴾ : سمعتها أذن ووعت . أى : من له سمع صحيح وعقل رجيح . وهذا عام فيمن فهم ووعى .

﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ (١٢) ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ (١٤) ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ (١٥) ﴿ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ (١٦) ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴾ (١٧) ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ (١٨)

(١) البخارى (١٠٣٥) ومسلم (١٧/٩٠٠) .

(٢) فى المخطوطة والمطبوعة : « إن كل إلا » وهو خطأ .

يقول تعالى مخبرا عن أهوال يوم القيامة ، وأول ذلك نفخة الفزع ، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يُصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور ، وهى هذه النفخة . وقد أكدها هاهنا بأنها واحدة ؛ لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ، ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد . وقال الربيع : هى النفخة الأخيرة . والظاهر ما قلناه ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى : فمدت مدّ الأديم العكاظى ، وتبدلت الأرض غير الأرض ، ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أى : قامت القيامة . ﴿ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ وقال ابن جريج : هى كقوله : ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ [النبا: ١٩] . وقال ابن عباس : منخرقة ، والعرش بحذائها .

﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ : الملك : اسم جنس ، أى : الملائكة على أرجاء السماء . قال ابن عباس : على حافتها . وكذا قال سعيد بن جبير ، والأوزاعى . وقال الضحاك : أطرافها . وقال الحسن البصرى : أبوابها . وقال الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ يقول : على ما استدق من السماء ، ينظرون إلى أهل الأرض .

وقوله : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ أى : يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة . ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم ، أو : العرش الذى يوضع فى الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم بالصواب . وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أذن لى أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش : بعد ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام » . وهذا إسناد جيد ، رجاله ثقات . وقد رواه أبو داود (١) . وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ أى : تعرضون على عالم السر والنجوى الذى لا يخفى عليه شىء من أموركم ، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ ﴾ ﴿ ١٩ ﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ ﴿ ٢٠ ﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿ ٢١ ﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿ ٢٢ ﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿ ٢٣ ﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿ ٢٤ ﴾

يخبر تعالى عن سعادة من أوفى كتابه يوم القيامة بيمينه ، وفرحه بذلك ، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه : ﴿ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ ﴾ أى : خذوا اقرؤوا كتابيه ؛ لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة ؛ لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات . وقوله : ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ ﴾ أى : قد كنت موقنا فى الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة ، كما قال : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٤٦] . قال الله : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ أى : مرضية ، ﴿ فِي جَنَّةٍ

عَالِيَةٍ ﴿١٥﴾ أى : رفيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها . وقد ثبت فى الصحيح : « إن الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » (١) .

وقوله : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ قال البراء بن عازب : أى قريبة ، يتناولها أحدهم ، وهو نائم على سريره . وكذا قال غير واحد . وقوله : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ أى : يقال لهم ذلك ؛ تفضلاً عليهم ، وامتناناً وإنعاماً وإحساناً . وإلا فقد ثبت فى الصحيح ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحدا منكم لن يدخله عمله الجنة » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته منه وفضل » (٢) .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ﴿١٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ ﴿١٦﴾ يَلَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿١٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ﴿١٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ﴿١٩﴾ خَذُوهُ فَعُوقُوهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ لَجِّجِمْ صَلْوَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٢٢﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يُوْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٢٣﴾ وَلَا يَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٢٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا مَحِمْ ﴿٢٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينِ ﴿٢٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ ﴿٢٧﴾

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطى أحدهم كتابه فى العرصات بشماله ، فحينئذ يندم غاية الندم : ﴿ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ . يَلَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ . قال الضحاك : يعنى موة لا حياة بعدها . وكذا قال محمد بن كعب ، والربيع ، والسدى . وقال قتادة : تمنى الموت ، ولم يكن شئ فى الدنيا أكره إليه منه . ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ﴾ أى : لم يدفع عني مالى ولا جاهى عذاب الله وبأسه ، بل خلص الأمر إلى وحدى ، فلا معين لى ولا مجير . فعندها يقول الله ، عز وجل : ﴿ خَذُوهُ فَعُوقُوهُ . ثُمَّ لَجِّجِمْ صَلْوَهُ ﴾ أى : يأمر الزبانية أن تأخذه عنفاً من المحشر ، فتغله ، أى : تضع الأغلال فى عنقه ، ثم توردته إلى جهنم فتصليه إياها ، أى : تغمره فيها .

وقوله : ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ عن ابن عباس وابن جرير : بذراع الملك . وقال ابن عباس : ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ تدخل فى استه ثم تخرج من فيه ، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد فى العود حين يشوى . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن رصاصة مثل هذه - وأشار إلى مثل جُمُجُمة - أرسلت من السماء إلى الأرض ، وهى مسيرة خمسمائة سنة ، لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة ، لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار ، قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها » . وأخرجه

(١) البخارى (٢٧٩٠) .

(٢) البخارى (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦ / ٧١) .

الترمذى وقال : هذا حديث حسن (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ . وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ أى : لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ، ولا ينفع خلقه ويؤدى حقهم ؛ فإن لله على العباد أن يوحده ولا يشركوا به شيئاً ، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى ؛ ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وقبض النبي ﷺ وهو يقول : « الصلاة ، وما ملكت أيمانكم » (٢) . وقوله : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ . لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ أى : ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله ، لا حميم - وهو القريب - ولا شفيح يطاع ، ولا طعام له هاهنا إلا من غسلين . قال قتادة : هو شر طعام أهل النار . وقال الربيع ، والضحاك : هو شجرة فى جهنم . وقال ابن عباس : ما أدرى ما الغسلين ، ولكنى أظنه الزقوم . وقال : الغسلين : الدم والماء يسيل من لحومهم . وقال على بن أبى طلحة عنه : الغسلين : صديد أهل النار .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢٨) ﴿ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢٩) ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (٣٠) ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴾ (٣١) ﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴾ (٣٢) ﴿ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٣)

يقول تعالى مقسماً لخلقه بما يشاهدونه من آياته فى مخلوقاته الدالة على كماله فى أسمائه وصفاته ، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم : إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله ، الذى اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، فقال : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ، أضافه إليه على معنى التبليغ ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل ؛ ولهذا أضافه فى سورة التكوير إلى الرسول الملكى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ ﴾ وهذا جبريل ، عليه السلام .

ثم قال : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ يعنى : أن محمداً ﷺ رأى جبريل على صورته التى خلقه الله عليها ، ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أى : بمتهم ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٥] ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴾ ، فأضافه تارة إلى قوله الرسول الملكى ، وتارة إلى الرسول البشرى ؛ لأن كلا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه ؛ ولهذا قال : ﴿ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(١) المسند (٦٨٥٦) والترمذى (٢٥٨٨) وعنده : « إسناده حسن صحيح » . وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

(٢) المسند (٥٨٥) وأبو داود (٥١٥٤) . وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ أى : محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريا علينا ، فزاد فى الرسالة أو نقص منها ، أو قال شيئا من عنده فنسبه إلينا ، وليس كذلك ، لعاجلناه بالعقوبة . ولهذا قال : ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ قيل : معناه : لانتقمنا منه باليمين ؛ لأنها أشد فى البطش . وقيل : لأخذنا منه بيمينه . ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ قال ابن عباس : وهو نياط القلب ، وهو العرق الذى القلب معلق فيه . وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير . وقوله : ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ أى : فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئا من ذلك . والمعنى فى هذا : بل هو صادق بار راشد ؛ لأن الله ، عز وجل ، مقرر له ما يبلغه عنه ، مؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعنى : القرآن كما قال : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤] . ثم قال : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴾ أى : مع هذا البيان والوضوح ، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن . ثم قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ قال ابن جرير : وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة وحكاه عن قتادة بمثله . وعن أبى مالك : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يقول : لندامة . ويحتمل عود الضمير على القرآن ، أى : وإن القرآن والإيمان به لحسرة فى نفس الأمر على الكافرين ، كما قال : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١] ، وقال تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبا: ٥٤] ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أى : الخبر الصدق الحق الذى لا مرية فيه ، ولا شك ولا ريب . ثم قال : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أى : الذى أنزل هذا القرآن العظيم .

تفسير سورة سأل سائل وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ ﴿ ١ ﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿ ٢ ﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿ ٣ ﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿ ٤ ﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿ ٥ ﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿ ٦ ﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿ ٧ ﴾

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ : فيه تضمين دل عليه حرف « الباء » ، كأنه مُقَدَّر : يستعجل سائل بعذاب واقع . كقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ [الحج: ٤٧] ، أى : وعذابه واقع لا محالة . عن ابن عباس فى قوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قال : النضر بن الحارث بن كَلْدَةَ . وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قال : ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع . وقال مجاهد فى قوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ دعا داع بعذاب واقع يقع فى الآخرة ، قال : وهو قولهم : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنًا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢] . وقال ابن زيد وغيره : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ أى : واد فى جنهم ، يسيل يوم القيامة بالعذاب . وهذا القول ضعيف ، بعيد عن المراد . والصحيح الأول لدلالة السياق عليه . وقوله : ﴿ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى : مُرْصَدٌ مُعَدٌّ لِلْكَافِرِينَ . وقال ابن عباس : ﴿ وَاقِعٍ ﴾ : جاء ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ أى : لا دافع له إذا أراد الله كونه ؛ ولهذا قال : ﴿ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ قال ابن عباس : ذو الدرجات . وقال : يعنى : العلو والفواضل . وقال مجاهد : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ : معارج السماء . وقال قتادة : ذى الفواضل والنعم .

وقوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ قال قتادة : ﴿ تَعْرُجُ ﴾ : تصعد . وأما الروح فقال أبو صالح : هم خلق من خلق الله . يشبهون الناس ، وليسوا ناسا . قلت : ويحتمل أن يكون المراد به جبريل ، ويكون من باب عطف الخاص على العام . ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بنى آدم ، فإنها إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء .

وقوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ : فيه أربعة أقوال :

أحدها : أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين ، وهو قرار الأرض السابعة ، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة ، هذا ارتفاع العرش عن المركز فى وسط الأرض السابعة . وذلك اتساع العرش من قطر إلى قطر مسيرة خمسين ألف سنة ، وأنه من ياقوتة حمراء .

القول الثانى : أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة.

القول الثالث: أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة ، وهو قول غريب جداً .

القول الرابع : أن المراد بذلك يوم القيامة ، وقد وردت أحاديث فى معنى ذلك .

روى الإمام أحمد عن أبى عمر الغداني (١) قال : كنت عند أبى هريرة فمر رجل من بنى عامر بن صعصعة، فقيل له: هذا أكثر عامرى مالا . فقال أبو هريرة : ردوه إلى . فقال: نبئت أنك ذو مال كثير ؟ فقال العامرى : إى والله ، إن لى لمائة حمراً ومائة أدماً ، حتى عد من ألوان الإبل ، وأفنان الرقيق، ورباط الخيل فقال أبو هريرة : إياك وأخفاف الإبل وأظلاف الغنم - يُردّد ذلك عليه، حتى جعل لون العامرى يتغير - فقال: ما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من كانت له إبلٌ لا يعطى حقها فى نجاتها ورسالتها - قلنا : يا رسول الله ، ما نجاتها ورسالتها ؟ قال: « فى عُسرها ويسرها - » فإنها تأتى يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره ، حتى يبطح لها بقاع قرقر ، فتطؤه بأخفافها ، فإذا جاوزته أخرها أعيدت عليه أولاهها، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس فىرى سبيله، وإذا كانت له بقر لا يعطى حقها فى نجاتها ورسالتها، فإنها تأتى يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره ثم يبطح لها بقاع قرقر فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها ، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها ، إذا جاوزته أخرها أعيدت عليه أولاهها ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فىرى سبيله. وإذا كانت له غنم لا يعطى حقها فى نجاتها ورسالتها، فإنها تأتى يوم القيامة كأغذ ما كانت وأسمنه وآشره ، حتى يبطح لها بقاع قرقر ، فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها وتنطحه كل ذات قرن بقرنها ، ليس فيها عَقْصَاء ولا عَضْبَاء ، إذا جاوزته أخرها أعيدت عليه أولاهها، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين الناس، فىرى سبيله . فقال العامرى: وما حق الإبل يا أبا هريرة ؟ قال : أن تعطى الكريمة، وتمنح الغزيرة ، وتفقر الظهر ، وتسقى اللبن (٢) ، وتُطْرَقَ الفحل . وقد رواه أبو داود، والنسائي (٣) .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب كنز لا يؤدى حقه إلا جعل صفائح يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » . وذكر بقية الحديث فى الغنم والإبل كما تقدم، وفيه: « الخيل لثلاثة؛ لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر » إلى آخره. ورواه مسلم فى صحيحه بتمامه منفرداً

(١) فى المطبوعة : « الغداني » بالعين المهملة ، وهو خطأ ، والمثبت من المسند (٤ / ٤٨٩) .

(٢) فى المخطوطة والمطبوعة : « الإبل » وهو خطأ ، والمثبت من المسند (٤ / ٤٨٩) .

(٣) المسند (٢ / ٤٨٩) وأبو داود (١٦٦٠) والنسائي (٢٤٤٢) .

به دون البخارى (١) ، والغرض من إيراد هاهنا قوله : « حتى يحكم الله بين عباده ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

وقوله : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ أى : اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك ، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه ، كقوله : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى: ١٨] قال : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ أى : وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع ، بمعنى استحيل الوقوع ، ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ أى : المؤمنون يعتقدون كونه قريباً ، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله ، عز وجل ، لكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة .

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ ٨ ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ ٩ ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ ١٠ ﴿ يُبْصَرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِنَبِيٍّ ﴾ ١١ ﴿ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴾ ١٢ ﴿ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ ١٣ ﴿ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴾ ١٤ ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْنَى ﴾ ١٥ ﴿ نَزَاعَةً لِلشَّوَى ﴾ ١٦ ﴿ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴾ ١٧ ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ ١٨ ﴿

يقول تعالى : العذاب واقع بالكافرين ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء وغير واحد ، كدردى الزيت ، ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ أى : كالصوف المنفوش ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدى . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ [القارعة: ٥] . وقوله : ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبْصَرُونَهُمْ ﴾ أى : لا يسأل القريب عن حاله ، وهو يراه فى أسوأ الأحوال ، فتشغله نفسه عن غيره . قال ابن عباس : يعرف بعضهم بعضاً ، ويتعارفون بينهم ، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك ، يقول : ﴿ لِكُلِّ امْرَأٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ .

وهذه الآية الكريمة كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [لقمان: ٣٣] . وكقوله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨] . وكقوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] . وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرَأٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِنَبِيٍّ . وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ . وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ . وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ . كَلَّا ﴾ أى : لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض ، وبأعز ما يجده من المال ، ولو بملء الأرض ذهباً ، أو من ولده الذى كان فى الدنيا حشاشة كبده ، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدى من عذاب الله به ، ولا يقبل منه . قال مجاهد والسدى : ﴿ فَصِيلَتِهِ ﴾ : قبيلته وعشيرته . وقال عكرمة : فخذ الذى هو منهم . وقال مالك : ﴿ فَصِيلَتِهِ ﴾ : أمه .

وقوله : ﴿ إِنِّهَا لَظَنَى ﴾ يصف النار وشدة حرها ﴿ نَزَاعَةً لِلشَّوَى ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد : جلدة الرأس . وقال مجاهد : ما دون العظم من اللحم . وقال سعيد بن جبير : العصب . وقال أبو صالح : ﴿ نَزَاعَةً لِلشَّوَى ﴾ يعنى : أطراف اليدين والرجلين . وقال أيضا : نزاعة لحم الساقين . وقال الحسن البصرى ، وثابت البنانى : ﴿ نَزَاعَةً لِلشَّوَى ﴾ أى : مكارم وجهه . وقال الحسن أيضا : تحرق كل شىء فيه ، ويبقى فؤاده يصيح . وقال قتادة : ﴿ نَزَاعَةً لِلشَّوَى ﴾ أى : نزاعة لهامته ومكارم وجهه وخلقه وأطرافه . فقوله : نزاعة ، قال : تقطع عظامهم ، ثم يُجَدِّدُ خلقهم وتبدل جلودهم . وقوله : ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ أى : تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدر لهم أنهم فى الدار الدنيا يعملون عملها ، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق ، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب . وذلك أنهم - كما قال الله ، عز وجل - كانوا ممن ﴿ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴾ أى : كذب بقلبه ، وترك العمل بجوارحه ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ أى : جمع المال بعضه على بعض فأوعاه ، أى : أوكاه ومنع حق الله منه من الواجب عليه فى النفقات ومن إخراج الزكاة . وقد ورد فى الحديث : « لا تُوعى فُيُوعى الله عليك » (١) وكان عبد الله بن عكيم لا يربط له كيسا ويقول : سمعت الله يقول : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ . وقال الحسن البصرى : يا بن آدم ، سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا

ربع ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٢٦ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ أَسْوَاقِهِمْ حَفِظُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٣١ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٣٢ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ۝٣٣ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ ، ثم فسرهُ بقوله : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ أى : إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب ، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ، ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ أى : إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره ، ومنع حق الله فيها . ثم قال : ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ أى : الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه ، وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه ، وهم المصلون : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ قيل : معناه : يحافظون على أوقاتهم

وواجباتهم . قاله ابن مسعود ، ومسروق ، وإبراهيم النخعي . وقيل : المراد بالدوام هاهنا السكون والخشوع ، كقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ، ٢] . قاله عتبة بن عامر . ومنه الماء الدائم ، أى : الساكن الراكد « وهذا يدل على وجوب الطمأنينة فى الصلاة ، فإن الذى لا يطمئن فى ركوعه وسجوده ليس بدائم على صلاته ؛ لأنه لم يسكن فيها ولم يدم ، بل ينقرها نقر الغراب فلا يفلح فى صلاته » .

وقيل : المراد بذلك الذين إذا عملوا عملاً داوموا عليه وأثبتوه ، كما جاء فى الصحيح عن عائشة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ » . وفى لفظ : « ما داوم عليه صاحبه » ، قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه . وفى لفظ : أثبتته (١) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أى : فى أموالهم نصيب مقرر لذوى الحاجات . وقد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة الذاريات » . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ الدِّينِ ﴾ أى : يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ أى : خائفون وجلون ، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أى : لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَقْرَبِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ أى : يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع فى غير ما أذن الله فيه . ولهذا قال : ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أى : من الإماء ، ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ . وقد تقدم تفسير ذلك فى أول سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ بما أغنى عنى إعادته هاهنا .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ أى : إذا أؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا . وهذه صفات المؤمنين ، وضدها صفات المنافقين ، كما ورد فى الحديث الصحيح : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » . وفى رواية : « إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » (٢) . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ أى : محافظون عليها لا يزيدون فيها ، ولا ينقصون منها ، ولا يكتُمونها ، ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣] . ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أى : على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها ، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها ، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها ، كما تقدم فى أول سورة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، سواء ؛ ولهذا قال هناك : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠ ، ١١] ، وقال هاهنا : ﴿ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ أى : مكرمون بأنواع الملاذ والمسار .

(١) البخارى (٤٣ ، ٦٤٦٥) ومسلم (٧٨٥ / ٢١٨) .

(٢) مضى تخريج الحديث عند الآية (٨) من سورة « المؤمنون » .

﴿ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيْطَمَعُ كُلُّ
 أَمْرِي مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ
 الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا
 وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سَرَّاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نَصَبٍ يُوفَضُونَ
 ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى منكرًا على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له ، ولما
 أرسله الله به من الهدى وأيده الله به من المعجزات الباهرات ، ثم هم مع هذا كله فارون منه ،
 متفرقون عنه ، شاردون يمينًا وشمالًا ، فرقًا فرقًا ، وشيعًا شيعًا ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ
 عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ . كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ الآية [المدر: ٤٩ - ٥١] وهذه مثلها ؛ فإنه
 قال تعالى : ﴿ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ أى : فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد
 ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أى : مسرعين نافرين منك ، كما قال الحسن البصرى : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أى : منطلقين ،
 ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ واحدا عزة ، أى : متفرقين . وهو حال من مهطعين ، أى :
 فى حال تفرقهم واختلافهم ، كما قال الإمام أحمد فى أهل الأهواء : فهم مخالفون للكتاب ،
 مختلفون فى الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب . وقال العوفى عن ابن عباس : ﴿ قَالِ الَّذِينَ
 كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ قال : قبلك ينظرون ، ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ قال : العزِينَ :
 العُصْبُ من الناس ، عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به . وقال الحسن فى قوله : ﴿ عِزِينَ ﴾
 متفرقين ، يأخذون يمينًا وشمالًا يقولون : ما قال هذا الرجل ؟ وقال قتادة : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ :
 عامدين ، ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أى : فرقًا حول النبي ﷺ لا يرغبون فى كتاب الله ،
 ولا فى نبيه ﷺ . وعن جابر بن سمرة ؛ أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق ، فقال :
 « ما لى أراكم عزين ؟ » رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن جرير (١) . وروى
 ابن جرير عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم حلق حلق ، فقال :
 « ما لى أراكم عزين ؟ » (٢) . وهذا إسناد جيد ، ولم أره فى شيء من الكتب الستة من هذا
 الوجه .

وقوله : ﴿ أَيْطَمَعُ كُلُّ أَمْرِي مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ أى : أيطمع هؤلاء - والحالة هذه - من
 فرارهم عن الرسول ونفارهم عن الحق - أن يدخلوا جنات النعيم ؟ بل مأواهم نار الجحيم . ثم
 قال تعالى مقررًا لوقوع المعاد والعذاب بهم الذى أنكروا كونه واستبعدوا وجوده ، مستدلا عليهم

(١) المسند (٥ / ٩٣) ومسلم (٤٣٠ / ١١٩) وأبو داود (٤٨٢٣) والنسائى (١١٦٢٢ / ١) وابن جرير فى التفسير (٢٩ / ٥٤) .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٩ / ٥٤) .

بالبداة التى الإعادة أهون منها وهم معترفون بها ، فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : من المنى الضعيف ، كما قال : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات: ٢٠] . وقال : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ . إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ . فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ٥ - ١٠] .

ثم قال : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ أى : الذى خلق السموات والأرض ، وجعل مشرقا ومغربا، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب فى مغاربها . وتقرير الكلام : ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب ، ولا بعث ولا نشور ، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة . ولهذا أتى بـ « لا » فى ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفى ، وهو مضمون الكلام ، وهو الرد على زعمهم الفاسد فى نفى يوم القيامة ، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة ، وهو خلق السموات والأرض ، وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، وسائر صنوف الموجودات ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧] وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الاحقاف: ٣٣] . وقال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨١ ، ٨٢] . وقال هاهنا : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ أى : يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه ، فإن قدرته صالحة لذلك ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أى : بعاجزين . كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة: ٣ ، ٤] . وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٠ ، ٦١] . واختار ابن جرير ﴿ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ أى : أمة تطيعنا ولا تعصينا ، وجعلها كقوله : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨] . والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الآخر عليه ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَذَرْنَهُمْ ﴾ أى : يا محمد ﴿ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ أى : دعهم فى تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ، ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ أى : فسيعلمون غب ذلك ويدوقون وباله ، ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ أى : يقومون من القبور إذا دعاهم الرب ، تبارك وتعالى ، لموقف الحساب ، ينهضون سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : إلى عِلْمٍ يسعون . وقال أبو العالية : إلى غاية يسعون إليها .

وقد قرأ الجمهور : « نَصَبٌ » بفتح النون وإسكان الصاد، وهو مصدر بمعنى المنصبوب .
وقرأ الحسن البصري : ﴿ نُسْبٌ ﴾ بضم النون والصاد، وهو الصنم ، أى : كأنهم فى إسرائهم
إلى الموقف كما كانوا فى الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه يوفضون ، يتدرون ، أيهم
يستلمه أول . وهذا مروي عن مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم . وقوله : ﴿ خَاشِعَةٌ
أَبْصَارُهُمْ ﴾ أى : خاضعة ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أى : فى مقابلة ما استكبروا فى الدنيا عن الطاعة ،
﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ .

تفسير سورة نوح

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ١ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٢ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ٣ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ٣

يقول تعالى مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه أرسله إلى قومه آمرا له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنبأوا رفع عنهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أى : بين النذارة ، ظاهر الأمر واضح ، ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى : اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ فيما أمركم به وأنهاكم عنه ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ أى : إذا فعلتم ما أمرتكم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم ، غفر الله لكم ذنوبكم . و « من » هاهنا قيل : إنها بمعنى « عن » ، تقديره : يصفح لكم عن ذنوبكم . واختاره ابن جرير . وقيل : إنها للتبويض ، أى : يغفر لكم الذنوب العظام التى وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام . ﴿ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : يمد فى أعماركم ويدرا عنكم العذاب الذى إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه ، أوقعه بكم . وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم ، يزداد بها فى العمر حقيقة . وقوله : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : بادروا بالطاعة قبل حلول النعمة ، فإنه إذا أمر تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع ، فإنه العظيم الذى قهر كل شيء ، العزيز الذى دانت لعزته جميع المخلوقات .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ ٤ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِيْءَ أَذَانِهِمْ وَأَسْتَفْشَوْا بِيَابِهِمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَرُوا ٦ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٨﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٩﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٠﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيجعل لكم أنهارًا ﴿١١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٢﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٤﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٧﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٨﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح ، عليه السلام ، أنه اشتكى إلى ربه ، عز وجل ، ما لقي من قومه ، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاما ، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشيد والسبيل الأقوم ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أي : لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار ، امثالا لأمرك وابتغاء لطاعتك ، ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي : كلما دعوتهم ليقربوا من الحق فرأوا منه وحادوا عنه ، ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ أي : سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه . كما أخبر تعالى عن كفار قريش : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : ٢٦].

﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم . وقال سعيد بن جبير ، والسدي : غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول . ﴿ وَأَصْرُوا ﴾ أي : استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع ، ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ أي : واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له . ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أي : جهرة بين الناس ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ ﴾ أي : كلاما ظاهرا بصوت عال ، ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أي : فيما بيني وبينهم ، فنوع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أي : ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب ، فإنه من تاب إليه تاب عليه ، ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ أي : متواصلة الأمطار . ولهذا يستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية . وهكذا روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : أنه صعد المنبر ليستسقي ، فلم يزد على الاستغفار ، وقرأ الآيات في الاستغفار . ومنها هذه الآية : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاديع السماء التي ستنزل بها المطر . وقال ابن عباس وغيره : يتبع بعضه بعضا .

وقوله : ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ أي : إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدر لكم الضرع ، وأمدكم بأموال وبنين ، أي : أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية بينها .

هذا مقام الدعوة بالترغيب . ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أي : عظمة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقال ابن عباس : لا تعظمون الله حق عظمته ، أي : لا تخافون من بأسه ونقمته ، ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ قيل : معناه : من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، ويحيى ابن رافع ، والسدي ، وابن زيد .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ ؟ أى : واحدة فوق واحدة ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ أى : فاوت بينهما فى الاستنارة ، فجعل كلا منهما أنموذجا على حدة ، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدر القمر منازل وبروجا ، وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع فى النقص حتى يستسر ، ليدل على مضى الشهور والأعوام ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥] .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ أى : إذا متم ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ أى : يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا ﴾ أى : بسطها ومهدا وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ أى : خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم ، من نواحيها وأرجائها وأقطارها ، وكل هذا مما ينبتهم به نوح ، عليه السلام ، على قدرة الله وعظمته فى خلق السموات والأرض ، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرازق ، جعل السماء بناءً ، والأرض مهادا ، وأوسع على خلقه من رزقه ، فهو الذى يجب أن يعبد ويوحى ولا يشرك به أحد ؛ لأنه لا نظير له ولا عدل له ، ولا ند ولا كفاء ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا وزير ولا مشير ، بل هو العلى الكبير .

﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (١١) ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ (١٢) ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَفُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (١٣) ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ (١٤) ﴿

يقول تعالى مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه أنهى إليه ، وهو العليم الذى لا يعزب عنه شئ ، أنه مع البيان المتقدم ذكره ، والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى : أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه ، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله ، ومتع بما ل أولاد ، وهى فى نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام ؛ ولهذا قال ﴿ وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ : قرئ ﴿ وَوَلَدُهُ ﴾ بالضم وبالفتح ، وكلاهما متقارب .

وقوله : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ قال مجاهد : ﴿ كُبَّارًا ﴾ أى : عظيماً . وقال ابن زيد : أى : كبيرا . والمعنى فى قوله : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أى : باتباعهم فى تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى ، كما يقولون لهم يوم القيامة : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ [سبا: ٣٣] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ . وقالوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَفُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا . وهذه أسماء أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله .

روى البخارى عن ابن عباس : صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد : أما ود : فكانت لكلب بدومة الجندل ؛ وأما سواع : فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمрад ، ثم لبنى غطفان بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق : فكانت لهمدان ، وأما نسر : فكانت لحمير لآل ذى كلاع ، وهى أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم . ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلم عُبدت (١) . وكذا روى عن عكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، وابن إسحاق ، نحو هذا . وقال ابن عباس : هذه أصنام كانت تعبد فى زمن نوح .

وقوله : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ يعنى : الأصنام التى اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرا ، فإنه استمرت عبادتها فى القرون إلى زماننا هذا فى العرب والعجم وسائر صنوف بنى آدم . وقد قال الخليل ، عليه السلام ، فى دعائه : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ . رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦] . وقوله : ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ : دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم ، كما دعا موسى على فرعون ومثله فى قوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] . وقد استجاب الله لكل من النبيين فى قومه ، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به .

﴿ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أَغْرِقُوا فَادْخُلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ ١٥ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ١٦ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ١٧ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ١٨ ﴿

يقول تعالى : ﴿ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ ﴾ وقرئ : « خَطَايَاهُمْ » ﴿ أَغْرِقُوا ﴾ أى : من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ أَغْرِقُوا فَادْخُلُوا نَارًا ﴾ أى : نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار ، ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ أى : لم يكن لهم معين ولا مُغيث ولا مُجير ينقذهم من عذاب الله كقوله : ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ [هود: ٤٣] . ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أى : لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً ، وهذه من صيغ تأكيد النفي . قال الضحاك : ﴿ دَيَّارًا ﴾ : واحدا . وقال السُّدِّي : الديار : الذى يسكن الدار .

فاستجاب الله له ، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذى اعتزل عن أبيه ، وقال : ﴿ سَأْوَى إِلَيَّ جَبَلٍ يَغَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ

رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ أى : إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك ، أى : الذين تخلقهم بعدهم ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أى : فاجراً فى الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

ثم قال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا ﴾ قال الضحاك : يعنى : مسجدي ، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها ، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن . وقوله : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ : دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات ، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات ؛ ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء ، اقتداء بنوح ، عليه السلام ، وبما جاء فى الآثار ، والأدعية المشروعة . وقوله : ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ قال السدى : إلا هلاكاً . وقال مجاهد : إلا خساراً ، أى : فى الدنيا والآخرة .

تفسير سورة الجن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى
الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا
﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى
اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ
ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ أن يخبر قومه : أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ أى : إلى السداد والنجاح ، ﴿ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [الاحقاف: ٢٩] . وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى ذلك بما أغنى عن إعادتها ها هنا .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ : قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أى : فعله وأمره وقدرته . وقال : جد الله : آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه . وروى عن مجاهد وعكرمة : جلال ربنا . وقال قتادة : تعالى جلاله وعظمته وأمره . وقال السدى : تعالى أمر ربنا . وعن أبى الدرداء ، ومجاهد أيضا وابن جريج : تعالى ذكره . وقال سعيد ابن جبير : ﴿ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أى : تعالى ربنا .

وقوله : ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ أى : تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد ، أى : قالت الجن : تنزه الرب جل جلاله ، حين أسلموا وآمنوا بالقرآن ، عن اتخاذ الصاحبة والولد .

ثم قالوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدى : ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ يعنون : إبليس ، ﴿ شَطَطًا ﴾ قال أبو مالك : ﴿ شَطَطًا ﴾ أى : جورا . وقال ابن زيد : ظلما كبيرا . ويحتمل أن يكون المراد بقولهم : ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ : اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولدا . ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ أى : قبل إسلامه ﴿ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ أى : باطلا وزورا ؛ ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى : ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالثون على الكذب على الله فى نسبة الصاحبة والولد إليه . فلما سمعنا هذا

القرآن وآمنوا به ، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله فى ذلك .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : كنا نرى أن لنا فضلا على الإنس ؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا ، أى : إذا نزلوا واديا أو مكانا موحشا من البرارى وغيرها كما كان عادة العرب فى جاهليتها . يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن ، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه فى جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم ، ﴿ زَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : خوفا وإرهابا وذعرا ، حتى تبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم ، كما قال قتادة : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : إثما ، وازدادت الجن عليهم بذلك جراء . وقال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضرب أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى ، قال : فإذا عاذ بهم من دون الله ، رَهَقَتْهُمُ الْجِنُّ الْأَذَى عِنْدَ ذَلِكَ .

وقال أبو العالية ، والربيع ، وزيد بن أسلم : ﴿ رَهَقًا ﴾ أى : خوفا . وقال ابن عباس : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : إثما . وكذا قال قتادة . وقال مجاهد : زاد الكفار طغيانا .

وروى ابن أبى حاتم عن كردم بن أبى السائب الأنصارى قال : خرجت مع أبى من المدينة فى حاجة ، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة ، فأوانا المبيت إلى راعى غنم . فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم ، فوثب الراعى فقال : يا عامر الوادى ، جارك . فنادى مناد لا نراه ، يقول : يا سرحان ، أرسله . فأتى الحمل يشتد حتى دخل فى الغنم لم تصبه كدمة . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ . ثم قال : وروى عن عبيد بن عمير ، ومجاهد ، وأبى العالية ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعى ، نحوه . وقد يكون هذا الذئب الذى أخذ الحمل - وهو ولد الشاة - كان جنيا حتى يرهب الإنسى ويخاف منه ، ثم رده عليه لما استجار به ، ليضله ويهيئه ، ويخرجه عن دينه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ أى : لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولا . قاله الكلبي ، وابن جرير .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسَمِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ ﴾

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمدا ﷺ وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرسا شديدا ، وحفظت من سائر أرجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التى كانت تقعد فيها قبل ذلك ؛ لئلا يسترخوا شيئا من القرآن . فيلقوه على السنة

الكهنة ، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق . وهذا من لطف الله بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز ، ولهذا قالت الجن : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتِ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا . وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ﴾ أى : من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابا مرصدا له ، لا يتخطاه ولا يتعداه ، بل يحقه ويهلكه ، ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ أى : ما ندري هذا الأمر الذى قد حدث فى السماء ، لا ندري أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشدا ؟ وهذا من أدبهم فى العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل ، والخير أضافوه إلى الله عز وجل . وقد ورد فى الصحيح : « والشر ليس إليك » . وقد كانت الكواكب يُرمى بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير بل فى الأحيان بعد الأحيان ، كما فى حديث ابن عباس : بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذا رمى بنجم فاستنار ، فقال : « ما كنتم تقولون فى هذا ؟ » فقلنا : كنا نقول : يولد عظيم ، يموت عظيم . فقال : « ليس كذلك ، ولكن الله إذا قضى الأمر فى السماء » ، وذكر تمام الحديث ، وقد أوردناه فى سورة « سبأ » بتمامه (١) .

وهذا هو السبب الذى حملهم على تطلب السبب فى ذلك ، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه فى الصلاة ، فعرفوا أن هذا هو الذى حُفِظَتْ من أجله السماء ، فأمن من آمن منهم ، وتمرد فى طغيانه من بقى ، كما تقدم حديث ابن عباس فى ذلك ، عند قوله فى سورة « الأحقاف » : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٩] . ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر ، وهو كثرة الشهب فى السماء والرمى بها ، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك ، وظنوا أن ذلك لخراب العالم ، كما قال السدى : لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون فى الأرض نبي أو دين لله ظاهر ، وكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد فى السماء الدنيا ، يستمعون ما يحدث فى السماء من أمر . فلما بعث الله محمداً نبيا ، رُجموا ليلة من الليالى ، ففزع لذلك أهل الطائف ، فقالوا : هلك أهل السماء ، لما رأوا من شدة النار فى السماء واختلاف الشهب . فجعلوا يعتقدون أرقاءهم وَيُسَيِّبُونَ مواشيهم ، فقال لهم عبد ياليل بن عمرو بن عمير : ويحكم يا معشر أهل الطائف . أمسكوا عن أموالكم ، وانظروا إلى معالم النجوم ، فإن رأيتموها مستقرة فى أمكنتها فلم يهلك أهل السماء ، إنما هذا من أجل ابن أبى كبشة - يعنى : محمداً ﷺ - وإن أنتم لم تروها فقد هلك أهل السماء . فنظروا فرأوها ، فكفوا عن أموالهم . وفزعت الشياطين فى تلك الليلة ، فأتوا إبليس فحدثوه بالذى كان من أمرهم ، فقال : اتئوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها . فأتوه فشَمَ فقال : صاحبكم بمكة . فبعث سبعة نفر من جن نصيبين ، فقدموا مكة فوجدوا رسول الله ﷺ قائما يصلى فى المسجد الحرام يقرأ القرآن ، فدنوا منه حرصا على القرآن حتى كادت كَلَالَهُمْ تصيبه ، ثم أسلموا . فأنزل الله تعالى أمرهم على نبيه ﷺ .

﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴾ (١١) ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُنْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ (١٢) ﴿ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ (١٣) ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ (١٤) ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ (١٥) ﴿ وَالْوِاسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ (١٦) ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ (١٧) ﴿

يقول مخبرا عن الجن : إنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم : ﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى : غير ذلك ، ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴾ أى : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴾ أى : منا المؤمن ، ومنا الكافر . وقوله : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُنْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ أى : نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا ، وأنا لا نعجزه فى الأرض ، ولو أمعنا فى الهرب ، فإنه علينا قادر ، لا يعجزه أحد منا . ﴿ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ءَامَنَّا بِهِ ﴾ : يفتخرون بذلك ، وهو مفخر لهم ، وشرف رفيع ، وصفة حسنة .

وقولهم : ﴿ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ قال ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما : فلا يخاف أن ينقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢] . ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أى : منا المسلم ومنا القاسط ، وهو : الجائر عن الحق الناكب عنه ، بخلاف المقسط فإنه العادل ، ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ أى : طلبوا لأنفسهم النجاة ، ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أى : وقوداً تسعر بهم .

وقوله : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا . لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ اختلف المفسرون فى معنى هذا على قولين :

أحدهما : وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ، ﴿ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ أى : كثيراً . والمراد بذلك سعة الرزق ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَرْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٦] ، وكقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦] . وعلى هذا يكون معنى قوله : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أى : لنختبرهم ، كما قال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ ﴾ : لنبليهم ، من يستمر على الهداية ممن يتردد إلى الغواية ؟ .

ذكر من قال بهذا القول : قال ابن عباس : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ يعنى بالاستقامة : الطاعة . وقال مجاهد : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ قال : الإسلام . وكذا قال سعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء ، والسدى ، ومحمد بن كعب القرظى . وقال قتادة : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ يقول : لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا . وقال مجاهد : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ أى : طريقة الحق . وكذا قال الضحاك ، واستشهد على ذلك بالآيتين

اللتين ذكرناهما ، وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا فى قوله : ﴿ لِنَفْتِهِمْ فِيهِ ﴾ أى : لنبتليهم به .
والقول الثانى : ﴿ وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ : الضلالة ﴿ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴾ أى :
لأوسعنا عليهم فى الرزق استدراجا ، كما قال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾
حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴿ [الأنعام: ٤٤] ، وكقوله : ﴿ أَيْحَسِبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ ﴾
من مالٍ وبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] ، وهذا قول أبى مجلز لاحق
ابن حميد ؛ فإنه قال فى قوله : ﴿ وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ أى : طريقة الضلالة . وحكاه
البغوى عن الربيع بن أنس ، وزيد بن أسلم ، والكلبى ، وابن كيسان . وله اتجاه ، ويتأيد
بقوله : ﴿ لِنَفْتِهِمْ فِيهِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أى : عذاباً شاقاً شديداً موجعاً مؤلماً .
قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وابن زيد : ﴿ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أى : مشقة لا
راحة معها .

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ ١٨ ﴿ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا
يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ ١٩ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ ٢٠ ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ
ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ ٢١ ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ٢٢ ﴿ إِلَّا
بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ ٢٣ ﴿ حَتَّى
إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْئَلُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ ٢٤ ﴿

يقول تعالى أمراً عباده أن يوحدوه فى مجال عبادته ، ولا يدعى معه أحد ولا يشرك به ،
كما قال قتادة فى قوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : كانت اليهود والنصارى
إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم ، أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده . وعن ابن
عباس فى قوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية فى
الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ، ومسجد إيليا : بيت المقدس . وقال الأعمش : قالت الجن :
يا رسول الله ، ائذن لنا نشهد معك الصلوات فى مسجدك . فأنزل الله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا
تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ يقول : صلوا ، لا تخالطوا الناس . وقال عكرمة : نزلت فى المساجد كلها .
وقال سعيد بن جبير . نزلت فى أعضاء السجود ، أى : هى لله فلا تسجدوا بها لغيره .
وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت
أن أسجد على سبعة أعظم : على الجبهة — وأشار بيديه إلى أنفه — واليدين والركبتين وأطراف
القدمين » (١) .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال ابن عباس يقول : لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه ؛ من الحرص ، لما سمعوه يتلو القرآن ، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ ، يستمعون القرآن . هذا قول ، وهو مروى عن الزبير بن العوام . وعن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ ، قال : لما رأوه يصلى وأصحابه ، يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ، قالوا : عجبوا من طوعية أصحابه له ، قال : فقالوا لقومهم : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ . وهذا قول ثان ، وهو مروى عن سعيد بن جبيرة أيضا . وقال الحسن : لما قام رسول الله ﷺ يقول : « لا إله إلا الله » ، ويدعو الناس إلى ربهم ، كادت العرب تلبد عليه جميعاً . وقال قتادة في قوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال : تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفثوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناواه . وهذا قول ثالث ، وهو مروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبيرة ، وقول ابن زيد ، واختيار ابن جرير ، وهو الأظهر لقوله بعده : ﴿ قَالَ (١) إِنَّمَا أَدْعُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ أى : قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ، ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته : ﴿ إِنَّمَا أَدْعُ رَبِّي ﴾ أى : إنما أعبد ربي وحده لا شريك له ، وأستجير به وأتوكل عليه ، ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أى : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ ، وعبد من عباد الله ليس إلىّ من الأمر شيء فى هدايتكم ولا غوايتكم ، بل المرجع فى ذلك كله إلى الله عز وجل . ثم أخبر عن نفسه أيضا أنه لا يجيره من الله أحد ، أى : لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذه من عذابه ، ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ قال مجاهد ، وقتادة ، والسدى : لا ملجأ . وقال قتادة أيضا : أى : لا نصير ولا ملجأ . وفى رواية : لا ولى ولا موئل . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ قال بعضهم : هو مستثنى من قوله : ﴿ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ ، ﴿ إِلَّا بَلَاغًا ﴾ ، ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : ﴿ لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أى : لا يجيرنى منه ويخلصنى إلا إبلاغى الرسالة التى أوجب أداءها علىّ ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : إنما أبلغكم رسالة الله ، فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبداً ، لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها . وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ أى : حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصراً وأقل عدداً ، هم أم المؤمنون الموحدون لله عز وجل ، أى : بل المشركين لا

(١) قال : « هى قراءة الجمهور ، وكذا قراءة الحافظ ابن كثير .

ناصر لهم بالكلية ، وهم أقل عدداً من جنود الله عز وجل .

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِرَبِّي أَمَدًا ﴿١٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿١٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿١٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبَّهُمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس : إنه لا علم له بوقت الساعة ، ولا يدرى أقرب وقتها أم بعيد ؟ ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِرَبِّي أَمَدًا ﴾ ؟ أى : مدة طويلة . وقد كان ﷺ يُسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها ، ولما تبدى له جبريل فى صورة أعرابى كان فيما سأله أن قال : يا محمد ، فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١) . ولما ناداه ذلك الأعرابى بصوت جهورى فقال : يا محمد ، متى الساعة ؟ قال : « ويحك . إنها كائنة ، فما أعددت لها ؟ » . قال : أما إنى لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام ، ولكنى أحب الله ورسوله . قال : « فأنت مع من أحببت » . قال أنس : فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث (٢) .

وقوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ ، هذه كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] . وهكذا قال هاهنا : إنه يعلم الغيب والشهادة ، وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا بما أطلعه تعالى عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ ، وهذا يعم الرسول الملكى والبشرى .

ثم قال : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ أى : يختصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله ، ويساوقونه على ما معه من وحى الله ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَهُمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ . وقد اختلف المفسرون فى الضمير الذى فى قوله : ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ ، إلى من يعود ؟ فقيل : إنه عائد على النبى ﷺ . عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ قال : أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل ، ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ محمد ﷺ ﴿ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَهُمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ . وقال قتادة : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَهُمْ ﴾ ، قال : ليعلم نبى الله أن الرسل قد بلغت عن الله ، وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها . واختاره ابن جرير . ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل ، وهو قول حكاه ابن الجوزى فى « زاد المسير » . ويكون المعنى فى ذلك : أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ، ويحفظ ما بين إليهم من الوحى ؛ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويكون ذلك

(١) جزء من حديث طويل . انظر مسلم (٨ / ١) عن عمر بن الخطاب .

(٢) مسلم (٢٦٣٩ / ١٦٣) .

كقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] ،
 وكقوله : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ١١] ، إلى أمثال ذلك ، مع العلم
 بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعا لا محالة ؛ ولهذا قال بعد هذا : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ
 وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ .

تفسير سورة المزمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ﴾ (١) ﴿ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٢) ﴿ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ (٣) ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ (٤) ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (٥) ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ (٦) ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ (٧) ﴿ وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ (٨) ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (٩)

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل ، وهو : التغطى فى الليل ، وينهض إلى القيام لربه عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦] . وكذلك كان ﷺ ممثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل ، وقد كان واجباً عليه وحده ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] . وهاهنا بين له مقدار ما يقوم ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ . قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . قال ابن عباس ، والضحاك ، والسدى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ﴾ يعنى : يا أيها النائم . وقال قتادة : المزمل فى ثيابه ، وقال إبراهيم النخعي : نزلت وهو متزمل بقطيفة . وقوله : ﴿ نِصْفَهُ ﴾ بدل من الليل ، ﴿ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ أى : أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل ، لا حرج عليك فى ذلك .

وقوله : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ أى : اقرأه على تمهل ، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره . وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة : كان يقرأ السورة فيرتهاها ، حتى تكون أطول من أطول منها . وفى صحيح البخارى ، عن أنس : أنه سُئِلَ عن قراءة رسول الله ﷺ ، فقال : كانت مدأ ، ثم قرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، يمد بسم الله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم (١) . وعن أم سلمة : أنها سُئِلَتْ عن قراءة رسول الله ﷺ ، فقالت : كان يقطع قراءته آية آية ، ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ . رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى (٢) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ قال : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارْقَ ، وَرَتِّلْ كما كنت تُرَتِّلُ فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » . ورواه أبو داود ، والترمذى . وقال الترمذى :

(١) البخارى (٥٠٤٦) .

(٢) المسند (٦ / ٣٠٢) وأبو داود (٤٠٠١) والترمذى فى الشمائل ص ٢٠٩ .

حسن صحيح (١). وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة. وروى البخارى : عن أبى وائل قال : جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : قرأت المفصل الليلة فى ركعة . فقال : هذا كهذا الشعر . لقد عرفت النظائر التى كان رسول الله ﷺ يقرن بينهما . فذكر عشرين سورة من المفصل ، سورتين فى ركعة (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ قال الحسن ، وقتادة : أى العمل به . وقيل : ثقیلٌ وقت نزوله ؛ من عظمته . كما قال زيد بن ثابت : أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذى ، فكادت ترض فخذى (٣) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : سألت النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله ، هل تحس بالوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أسمع صلاصيل ، ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تفيض » ، تفرد به أحمد (٤) . وفى أول صحيح البخارى عن عائشة : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتىك الوحى ؟ فقال : « أحيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول » . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى ﷺ فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا . هذا لفظه (٥) . واختار ابن جرير أنه ثقیل من الوجهين معا ، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما ثقل فى الدنيا ثقل يوم القيامة فى الموازين .

وقوله : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ عن ابن عباس : نشأ : قام بالحبشة . وقال عمر ، وابن عباس ، وابن الزبير : الليل كله ناشئة . وكذا قال مجاهد ، وغير واحد ، يقال : نشأ : إذا قام من الليل . وفى رواية عن مجاهد : بعد العشاء . وكذا قال أبو مجلز ، وقتادة ، وسالم وأبو حازم ، ومحمد بن المنكدر . والغرض : أن ناشئة الليل هى : ساعاته وأوقاته ، وكل ساعة منه تسمى ناشئة ، وهى الآنات . والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطاة بين القلب واللسان ، وأجمع على التلاوة ؛ ولهذا قال : ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ أى : أجمع للخاطر فى أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار ؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش .

ولهذا قال : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قال ابن عباس ، وعكرمة ، وعطاء بن أبى مسلم : الفراغ والنوم . وقال أبو العالية ، ومجاهد ، والربيع بن أنس ، وغيرهم : فراغاً طويلاً . وقال قتادة : فراغاً وبغية ومُنْقَلَباً . وقال السدى : ﴿ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ : تطوعاً كثيراً . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قال : لحوائجك ،

(١) المسند (٦٧٩٩) وأبو داود (١٤٦٤) والترمذى (٢٩١٤) والنسائى (٨٠٥ / ١) . وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

(٢) البخارى (٧٧٥) . (٣) البخارى (٤٥٩٢) .

(٤) المسند / (٧٠٧١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٥) البخارى (٢) .

فَأَفْرَغْ لَدِينِكَ اللَّيْلَ . قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ، ثم إن الله مَنَّ عَلَى الْعِبَادِ فَخَفَّفَهَا وَوَضَعَهَا ، وقرأ : ﴿ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إلى آخر الآية ، ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ﴾ ، حتى بلغ : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٤٩] . وهذا الذي قاله كما قاله .

والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد عن سعد (١) بن هشام : أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة لبيع عقاراً له بها ويجعله في الكُرَاع والسلاح ، ثم يجاهد الروم حتى يموت . فلقي رهطاً من قومه فحدثوه أن رهطاً من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال : « أليس لكم في أسوة ؟ » فنهاهم عن ذلك ، فأشهدهم على رجعتها ، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : أنت عائشة فاسألها ثم ارجع إلي فأخبرني بردها عليك . قال : فأتيت على حكيم ابن أفلح فاستلحقته إليها ، فقال : ما أنا بقاربها ؛ إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئاً ، فأبت فيهما إلا مُضِيًّا . فأقسمتُ عليه ، فجاء معي ، فدخلنا عليها فقالت : حكيم ؟ وعرفته ، قال : نعم . قالت : من هذا معك ؟ قال : سعد بن هشام . قالت : من هشام ؟ قال : ابن عامر . قال : فترحمت عليه وقالت : نعم المرء كان عامر . قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : أأست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن . فهَمَمْتُ أن أقوم ، ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ ، قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ . قالت : أأست تقرأ هذه السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴾ ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهراً ، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة . فهَمَمْتُ أن أقوم ، ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ ، قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ . قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره ، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل ، فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثمانى ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه ويدعو ثم ينهض وما يسلم . ثم يقوم ليصلى التاسعة ثم يقعد فيذكر الله وحده ثم يدعو ثم يسلم تسليماً يسمعنا ، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم . فتلک إحدى عشر ركعة يا بنى . فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم ، أوتر بسبع ، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم ، فتلک تسع يا بنى . وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها ، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض ، صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة ، ولا أعلم نبى الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة ، ولا قام ليلة حتى أصبح ، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان . فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها ، فقال : صدقت ، أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى

(١) فى المطبوعة : « سعيد » وهو خطأ . وكذا فى الموضع التالى من الحديث .

تشافهنى مشافهة . هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه . وقد أخرجه مسلم بنحوه (١) .

وروى ابن جرير عن أبى عبد الرحمن قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزْمِلُ﴾، قاموا حولاً حتى وُرمَت أقدامهم وسُوقُهم ، حتى نزلت: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ ، قال: فاستراح الناس (٢) . وكذا قال الحسن البصرى .

وقال قتادة: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: قاموا حولاً أو حولين ، حتى انتفخت سوقهم وأقدامهم فأنزل الله تخفيفها بعد فى آخر السورة . وقال ابن عباس فى قوله: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: نِصْفُهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿ فأمَرَ الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلاً ، فشق ذلك على المؤمنين ، ثم خفف الله عنهم ورحمهم ، فأنزل بعد هذا: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ، إلى قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ ، فوسع الله - وله الحمد - ولم يضيق .

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أى: أكثر من ذكره ، وانقطع إليه ، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك ، وما تحتاج إليه من أمور دنياك ، كما قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧] أى: إذا فرغت من مهامك فانصب فى طاعته وعبادته ، لتكون فارغ البال . قال ابن عباس ومجاهد ، والسدى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أى: أخلص له العبادة . وقال الحسن: اجتهد وتبتل إليه نفسك . وقال ابن جرير: يقال للعابد: متبتل ، ومنه الحديث المروى: أنه نهى عن التبتل ، يعنى: الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج (٣) .

وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أى: هو المالك المتصرف فى المشارق والمغارب الذى لا إله إلا هو ، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل ، ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] ، وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وآيات كثيرة فى هذا المعنى ، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله ، وتخصيصه بالتوكل عليه .

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٩ / ٧٩) .

(١) المسند (٦ / ٥٤) ومسلم (٧٤٦ / ١٣٩) .

(٣) ابن جرير فى التفسير (٢٩ / ٨٣) .

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه ، وأن يهجرهم هجراً جميلاً ، وهو الذى لا عتاب معه . ثم قال له متوعداً لكفار قومه ومتهدداً وهو العظيم الذى لا يقوم لغضبه شيء : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ ﴾ أى : دعنى والمكذبين المترفين أصحاب الأموال ، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم ، ﴿ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا ﴾ أى : رويداً ، كما قال : ﴿ نَمْتَعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا ﴾ وهى : القيود . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة وغير واحد ، ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ وهى السعير المضطربة ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ قال ابن عباس : ينشب فى الحلق فلا يدخل ولا يخرج ، ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا . يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ أى : تزلزل ، ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ أى : تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء ، ثم إنها تنسف نسفاً فلا يبقى منها شيء إلا ذهب ، حتى تصير الأرض قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ، أى : وادياً ، ولا أمتاً ، أى : رابية ، ومعناه : لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع .

ثم قال مخاطباً لكفار قريش ، والمراد سائر الناس : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ أى : بأعمالكم ، ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا . فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ قال ابن عباس ، وقتادة ، والسدى : ﴿ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ أى : شديداً ، أى : فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول ، فيصيبكم ما أصاب فرعون ، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٥] ، وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتُمْ ؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران . ويروى عن ابن عباس ومجاهد .

وقوله : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ : يحتمل أن يكون ﴿ يَوْمًا ﴾ معمولاً لتتقون ، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود : « فكيف تخافون أيها الناس يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به » ؟ ويحتمل أن يكون معمولاً لكفرتم ، فعلى الأول : كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم ؟ وعلى الثانى : كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه ؟ وكلاهما معنى حسن ، ولكن الأول أولى ، والله أعلم . ومعنى قوله : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ أى : من شدة أهواله وزلازله وبلابله ، وذلك حين يقول الله لآدم : ابعث بعث النار . فيقول : من كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة . وقوله : ﴿ السَّمَاءُ مُمْطِرَةٌ ﴾ قال الحسن ، وقتادة : أى بسببه من شدته وهوله ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ أى : كان وعد هذا اليوم مفعولاً ، أى : واقعاً لا محالة ، وكائنا لا محيد عنه .

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ ﴿ ١٩ ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي

الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ
أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ أي : السورة ﴿ تَذَكُّرَةٌ ﴾ أي : يتذكر بها أولو الألباب ؛ ولهذا
قال : ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أي : فمن شاء الله هدايته ، كما قيده في السورة الأخرى :
﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان : ٣٠] .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أي : تارة
هكذا ، وتارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم ، ولكن لا تقدرُونَ على المواظبة على ما
أمركم به من قيام الليل ؛ لأنه يشق عليكم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي : تارة
يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، وهذا من هذا ، ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ ﴾ أي : الفرض الذي
أوجبه عليكم ﴿ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ أي : من غير تحديد بوقت ، أي : ولكن قوموا من
الليل ما تيسر . وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال في سورة سبحان : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾
أي : بقراءتك ، ﴿ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا ﴾ . وقد استدلل أصحاب الإمام أبي حنيفة بهذه الآية ، وهي
قوله : ﴿ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة ، بل لو قرأ بها
أو غيرها من القرآن ، ولو بآية ، أجزاء ؛ واعتضدوا بحديث المسيء صلاته الذي في
الصحيحين : « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » (١) . وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة ابن
الصامت ، وهو في الصحيحين أيضا : أن رسول الله ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة
الكتاب » (٢) . وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل صلاة لا يقرأ
فيها بأم الكتاب فهي خِطَاجٌ ، فهي خِطَاجٌ ، فهي خِطَاجٌ ، غير تمام » (٣) . وفي صحيح ابن خزيمة
عن أبي هريرة مرفوعاً : « لا تجزئ صلاة من لم يقرأ بأم القرآن » (٤) .

وقوله : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أَعْدَارٍ في ترك قيام الليل ، من مرضى
لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر ، وآخرين
مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله . وهذه الآية - بل السورة كلها - مكية ،
ولم يكن القتال شرع بعد ، فهي من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات
المستقبلية . ولهذا قال : ﴿ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ﴾ أي : قوموا بما تيسر عليكم منه .

وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أي : أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة

(٢) البخارى (٧٥٦) ومسلم (٣٩٤ / ٣٤) .

(٤) ابن خزيمة في صحيحه (٤٩٠) .

(١) مسلم (٣٩٧ / ٤٥) .

(٣) مسلم (٣٩٥ / ٣٨) .

المفروضة. وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم تُبين إلا بالمدينة. والله أعلم. وقد قال ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نسخت الذى كان الله قد أوجبه على المسلمين أولا من قيام الليل . واختلفوا فى المدة التى بينهما على أقوال كما تقدم . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل : « خمس صلوات فى اليوم والليلة » . قال : هل على غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تطوع » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ يعنى : من الصدقات ، فإن الله يجازى على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، كما قال : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥] . وقوله : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ أى : جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو لكم حاصل ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم فى الدنيا . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن عبد الله : قال رسول الله ﷺ : « أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ » قالوا : يا رسول الله ، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه . قال : « اعلّموا ما تقولون » . قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إنما مال أحدكم ما قدّم ومال وارثه ما أخر » . ورواه البخارى (٢) . ثم قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى : أكثروا من ذكره واستغفاره فى أموركم كلها ؛ فإنه غفور رحيم لمن استغفره .

(١) البخارى (٤٦) ومسلم (١١ / ٨) .

(٢) أبو يعلى فى مسنده (٩ / ٩٧) والبخارى (٦٤٤٢) .

تفسير سورة المدثر وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ (١) ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ (٢) ﴿ وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ ﴾ (٣) ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ (٤) ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (٥) ﴿ وَلَا تَمَنَّئْ تَنْتَكِبْ ﴾ (٦) ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (٧) ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ (٨) ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ (٩) ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (١٠)

ثبت في صحيح البخارى عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ . وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولا قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، كم سيأتى بيان ذلك هنالك . وروى البخارى عن يحيى بن أبى كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ، قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ . قلت : يقولون : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ؟ فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : « جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا ، ونظرت أمامى فلم أر شيئا ، ونظرت خلفى فلم أر شيئا . فرفعت رأسى فرأيت شيئا ، فأتيت خديجة فقلت : دثرونى . وصبوا على ماء باردا . قال : فدثرونى وصبوا على ماء باردا قال : فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ ﴾ (١) . هكذا ساقه من هذا الوجه ، وقد رواه مسلم عن أبى سلمة قال : أخبرنى جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي : « فبينما أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فَجَشْتُ منه حتى هَوَيْتُ إلى الأرض ، فَجِثْتُ إلى أهلى ، فقلت : زملونى زملونى . فزملونى ، فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ إلى : ﴿ فَاهْجُرْ ﴾ - قال أبو سلمة : والرجز : الأوثان - ثم حمى الوحي وتتابع . هذا لفظ البخارى (٢) . وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضى أنه قد نزل الوحي قبل هذا ، لقوله : « فإذا الملك الذى جاءنى بحراء » ، وهو جبريل حين أتاه بقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة ، كما روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

(١) البخارى (٤٩٢٢) .

(٢) البخارى (٤٩٢٦) .

«ثم فتر الوحي عنى فترة ، فبينما أنا أمشى سمعتُ صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فجثت منه فرقاً ، حتى هويت إلى الأرض ، فجثت أهلى فقلت لهم : زملونى زملونى . فزملونى ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ . ثم حمى الوحي وتتابع » . أخرجاه (١) .

فقوله : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ أى : شمر عن ساق العزم ، وأنذر الناس . وبهذا حصل الإرسال ، كما حصل بالأول النبوة ﴿ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أى : عظم . وقوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، عن ابن عباس : أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، قال : لا تلبسها على معصية ولا على غدره . ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفى :

فإنى بحمد الله لا ثوبَ فاجر لبستُ ، ولا من غدره أتقنعُ

وقال ابن جريج عن ابن عباس فى هذه الآية : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : فى كلام العرب : نقى الثياب . وقال الثورى ، عن رجل ، عن عطاء ، عن ابن عباس فى هذه الآية : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : من الإثم . وكذا قال إبراهيم النخعى . وقال مجاهد : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : نفسك ، ليس ثيابه . وفى رواية عنه : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ : عملك فأصلح ، وكذا قال أبو رزين . وقال قتادة : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أى : طهرها من المعاصى ، وكانت العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله إنه لمُدَنَس الثياب . وإذا وفى وأصلح : إنه لمطهر الثياب . وقال عكرمة ، والضحاك : لا تلبسها على معصية . وقال العوفى عن ابن عباس : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ يعنى : لا تك ثيابك التى تلبس من مكسب غير طائب ، ويقال : لا تلبس ثيابك على معصية . وقال محمد بن سيرين : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أى : اغسلها بالماء . وقال ابن زيد : كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره الله أن يتطهر ، وأن يطهر ثيابه . وهذا القول اختاره ابن جرير ، وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب ، فإن العرب تطلق الثياب عليه .

وقوله : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ وَالرُّجْزَ ﴾ وهو الأصنام ، فاهجر . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة : إنها الأوثان . وقال إبراهيم ، والضحاك : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ أى : اترك المعصية . وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [الأحزاب : ١] . ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٢] .

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ قال ابن عباس : لا تعط العطية تلتمس أكثر منها . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وغيرهم . وقال الحسن البصرى : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره . وكذا قال الربيع بن أنس ، واختاره ابن جرير . وقال خُصَيْف ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ ﴾

تَسْتَكْبِرُ ﴿١٠﴾ قال : لا تضعف أن تستكثر من الخير ، قال : تمنن في كلام العرب : تضعف . وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس ، تستكثرهم بها ، تأخذ عليه عوضاً من الدنيا . فهذه أربعة أقوال ، والأظهر القول الأول ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِر ﴾ أى : اجعل صبرك على أذاهم لوجه الله عز وجل ، قاله مجاهد . وقال إبراهيم النخعي : اصبر على عطيتك لله تعالى .

وقوله : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمٌ مِّنْ يَّوْمٍ عَسِيرٍ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : وغيرهم ﴿ النَّاقُورِ ﴾ : الصور . قال مجاهد : وهو كهيئة القرن . وروى ابن أبي حاتم : عن ابن عباس : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ ، فقال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ، ينتظر متى يؤمر فينفخ ؟ » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » . وهكذا رواه الإمام (١) .

وقوله : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمٌ مِّنْ يَّوْمٍ عَسِيرٍ ﴾ أى : شديد ، ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أى : غير سهل عليهم . كما قال تعالى : ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٍ ﴾ [القمر : ٨] . وقد روينا عن زرارة بن أوفى - قاضى البصرة : أنه صلى بهم الصبح ، فقرأ هذه السورة ، فلما وصل إلى قوله : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمٌ مِّنْ يَّوْمٍ عَسِيرٍ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ : شهِقَ شهقة ، ثم خر ميتاً ، رحمه الله .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَّهُ مَالًا مَّدُودًا ۖ ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۚ إِنَّكَ كَانْتَ لَيِّنًا عَنِيدًا ۖ ﴿١٦﴾ سَاءَ رِهْقُهُ ۖ ﴿١٧﴾ إِنَّكَ فُكِّرَ وَقَدَّرَ ۖ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۖ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ ﴿٢٥﴾ سَأَصْلِيهِ سَقَرًا ۖ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۖ ﴿٢٧﴾ لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرُ ۖ ﴿٢٨﴾ لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۖ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۖ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول تعالى متوعدا لهذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، فكفر بأنعم الله ، وبدلها كفرا ، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها ، وجعلها من قول البشر . وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ أى : خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ، ثم رزقه الله ، ﴿ مَالًا مَّدُودًا ﴾ أى : واسعا كثيرا . قيل : ألف دينار . وقيل : مائة ألف دينار . وقيل : أرضا يستغلها . وقيل غير ذلك . وجعل له ﴿ بَنِينَ شُهُودًا ﴾ قال مجاهد : لا يغيبون ، أى : حضورا عنده لا يسافرون بالتجارات ، بل مواليتهم وأجراؤهم يتولون ذلك

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٧٣) من آل عمران .

عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتملى بهم. وكانوا - فيما ذكره السدى ، وأبو مالك ، وعاصم بن عمر بن قتادة - ثلاثة عشر. وقال ابن عباس ، ومجاهد : كانوا عشرة. وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده. ﴿ وَمَهَّدَتْ لَهُ تَمَهِيدًا ﴾ أى : مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك ، ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أى : معاندا ، وهو الكفر على نعمه بعد العلم . قال الله : ﴿ سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ﴾ قال ابن عباس : صعود : صخرة فى جهنم عظيمة يسحب عليها الكافر على وجهه . وقال السدى : صعودا : صخرة ملساء فى جهنم ، يكلف أن يصعدوها . وقال مجاهد : ﴿ سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ﴾ أى : مشقة من العذاب . وقال قتادة : عذابا لا راحة فيه . واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ أى : إنما أرهقناه صعودا ، أى : قربناه من العذاب الشاق ؛ لبعده عن الإيمان ، لأنه فكر وقدر ، أى : تروى ماذا يقول فى القرآن حين سئل عن القرآن ، ففكر ماذا يخلق من المقال ، ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ أى : تروى ، ﴿ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَرًا . ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَرًا ﴾ دعاء عليه ، ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أى : أعاد النظرة والتروى ، ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أى : قبض بين عينيه وقطب ، ﴿ وَبَسَرَ ﴾ أى : كلح وكره . وقوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ أى : صُرف عن الحق ، ورجع القهقري مستكبرا عن الانقياد للقرآن ، ﴿ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أى : هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ أى : ليس بكلام الله .

وهذا المذكور فى هذا السياق هو : الوليد بن المغيرة المخزومي ، أحد رؤساء قريش - لعنه الله - وكان من خبره فى هذا ما رواه العوفى ، عن ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبى بكر بن أبى قحافة فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبى كبشة . فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذى من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله . فلما سمع بذلك النفراً من قريش ائتمروا فقالوا : والله لئن صبا الوليد لتصبون قريش . فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه . فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد : ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : أأست أكثرهم مالا ولدا . فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبى قحافة لتصيب من طعامه . فقال الوليد : أأقد تحدث به عشيرتى ؟ فلا والله لا أقرب ابن أبى قحافة ، ولا عمر ، ولا ابن أبى كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر . فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ﴾ . وقال قتادة : زعموا أنه قال : والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يُعلَى ، وما أشك أنه سحر . فأنزل الله : ﴿ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَرًا ﴾ الآية ، ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ : قبض ما بين عينيه وكلح .

وروى ابن جرير : عن عكرمة : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكانه رق له . فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فأتاه فقال : أى عم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا . قال : لم ؟ قال : يعطونكه ، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله . قال :

قد علمت قريش أنى أكثرها مالا . قال : فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنت كاره له . قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من ذلك . والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإنه ليعظم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى . قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى حتى أفكر فيه . فلما فكر قال : هذا سحر يآثره عن غيره . فنزلت : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ ، حتى بلغ : ﴿ تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (١) .

وقد ذكر ابن إسحاق وغير واحد نحوه من هذا . وقد زعم السدى أنهم لما اجتمعوا فى دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه ، قبل أن يقدم عليهم وفود العرب للحج ليصدوهم عنه ، فقال قائلون : شاعر . وقال آخرون : ساحر . وقال آخرون : كاهن . وقال آخرون : مجنون . كما قال تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٨] ، كل هذا والوليد يفكر فيما يقوله فيه ، ففكر وقدر ، ونظر وعبس وبسر ، فقال : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ ، قال الله عز وجل : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أى : سأعمره فيها من جميع جهاته . ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴾ ؟ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم . ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ﴾ أى : تأكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم ، ثم تبدل غير ذلك ، وهم فى ذلك لا يموتون ولا يحيون .

وقوله : ﴿ لَوْحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ قال مجاهد : للجلد ، وقال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل . وقال زيد بن أسلم : تلوح أجسادهم عليها . وقال قتادة : ﴿ لَوْحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ أى : حراقة للجلد . وقال ابن عباس : تحرق بشرة الإنسان . وقوله : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أى : من مقدّمى الزبانية ، عظيم خلقهم ، غليظ خلقهم .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ (٢١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٢٢) وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ (٢٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ (٢٤) إِنَّهَا لَإِحدى الْكُتُبِ (٢٥) نَذِيرٌ لِلْبَشَرِ (٢٦) لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٢٧) ﴿

يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ أى : خزائنها ، ﴿ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ أى : زبانية غلاظا شدادا . وذلك رد على مشركى قريش حين ذكروا عدد الخزنة ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ؟ فقال الله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا

مَلَايَكَةً ﴿١﴾ أى : شديدى الخلق لا يقاومون ولا يغالبون . وقد قيل : إن أبا الأشدين (١) - واسمه : كَلْدَةَ بن أسيد بن خلف - قال : يا معشر قريش ، اكفونى منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر ، إعجاباً منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة ليتزعه من تحت قدميه ، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه . قال السهيلي : وهو الذى دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته وقال : إن صرعتنى آمنت بك ، فصرعه النبى ﷺ مراراً ، فلم يؤمن . قال : وقد نَسَبَ ابنُ إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب . قلت : ولا منافاة بين ما ذكرناه ، والله أعلم . ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس ، ﴿ لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أى : يعلمون أن هذا الرسول حق ؛ فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله . ﴿ وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ أى : إلى إيمانهم . أى : بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ ، ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى : من المنافقين ﴿ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ ؟ أى : يقولون : ما الحكمة فى ذكرنا هذا هاهنا ؟ قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ أى : من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان فى قلوب أقوام ، ويتزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

وقوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى : ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى ، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط ، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين . ومن شايعهم من الملتين الذين سمعوا هذه الآية ، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة ، التى اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها ، فأفهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بآخرها ، وهو قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ . وقد ثبت فى حديث الإسراء المروى فى الصحيحين وغيرهما . عن رسول الله ﷺ أنه قال فى صفة البيت المعمور الذى فى السماء السابعة : « فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم » (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أى : النار التى وصفت ، ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ . ثم قال : ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ . وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴾ أى : ولى ، ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أى : أشرق ، ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ أى : العظائم ، يعنى : النار ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغير واحد من السلف : ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ أى :

(١) فى المطبوعة : « أبا الأشدين » بالسين المهملة ، وهو خطأ ، والمثبت من المخطوطة والطبرى والدر المنثور عند تفسيرهما لهذه الآية .

(٢) جزء من حديث طويل . رواه البخارى (٧٥١٧) ومسلم (٢٥٩ / ١٦٢) . وانظر أحاديث الإسراء عند أول تفسير سورة الإسراء .

لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدى للحق ، أو يتأخر عنها ويولى ويردها .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ﴾ ٢٨ ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ ٢٩ ﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ٤٠ ﴿ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ٤١ ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ ٤٢ ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ ٤٣ ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴾ ٤٤ ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ ٤٥ ﴿ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ٤٦ ﴿ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ ٤٧ ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ ٤٨ ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ ٤٩ ﴿ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴾ ٥٠ ﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ ٥١ ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مِّنْشَرَةً ﴾ ٥٢ ﴿ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾ ٥٣ ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴾ ٥٤ ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴾ ٥٥ ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَىٰ وَأَهْلُ الْغَفِرَةِ ﴾ ٥٦ ﴿

يقول تعالى مخبراً أن : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ﴾ أى : معتقلة بعملها يوم القيامة ، قاله ابن عباس وغيره ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ ، فإنهم ﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : يسألون المجرمين وهم فى الغرفات وأولئك فى الدركات قائلين لهم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴾ أى : ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا ، ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ أى : نتكلم فيما لا نعلم . وقال قتادة : كلما غوى غاو غوينا معه ، ﴿ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ . حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ يعنى : الموت . كقوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] ، وقال رسول الله ﷺ : « أما هو - يعنى عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين من ربه » (١) .

قال الله تعالى : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ أى : من كان متصفاً بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعاة شافع ؛ لأن الشفاعاة إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً ، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة فإنه له النار لا محالة ، خالداً فيها . ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أى : فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين ، ﴿ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ أى : كأنهم فى نفارهم عن الحق ، وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد ، قاله أبو هريرة ، وابن عباس - فى رواية عنه - وزيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن . أو : رام ، وهو رواية عن ابن عباس ، وهو قول الجمهور . وقال ابن عباس : الأسد ، بالعربية ، ويقال له بالحبشية : قسورة ، وبالفارسية : شير ، وبالنبطية : أويا .

وقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مِّنْشَرَةً ﴾ أى : بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاباً كما أنزل على النبى . قاله مجاهد وغيره ، كقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ

آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴿١٢٤﴾ [الأنعام: ١٢٤] ، وفى رواية عن قتادة : يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل . فقلوه : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أى : إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها ، وتكذيبهم بوقوعها .

ثم قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴾ أى : حقاً إن القرآن تذكرة ، ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ . وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ، كقلوه : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠] . وقوله : ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ أى : هو أهل أن يخاف منه ، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب .
قاله قتادة .

تفسير سورة القيامة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ ١ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُبْتَثُّوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾

ربع

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه متى كان متنفياً ، جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي . والمقسوم عليه هاهنا هو إثبات الميعاد ، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ . وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ، قال الحسن : أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة . وقال قتادة : بل أقسم بهما جميعاً . والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً كما قاله قتادة رحمه الله ، وهو المروى عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، واختاره ابن جرير .

فأما يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللوامة ، فقال الحسن البصري في هذه الآية : إن المؤمن - والله - ما نراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ؟ ما أردت بأكلتي ؟ ما أردت بحديث نفسي ؟ وإن الفاجر يمضى قُدماً ما يعاتب نفسه . وقال جُوَيْرٍ : بلغنا عن الحسن أنه قال في قوله : ﴿ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ، قال : ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة . وقال سعيد بن جبير تلوم على الخير والشر . وقال مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه . وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : اللوامة : المذمومة . وقال قتادة : ﴿ اللُّوَّامَةُ ﴾ : الفاجرة . قال ابن جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة بالمعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على ما فات .

وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَّنْ نُجْمَعَ عِظَامُهُ ﴾ أي : يوم القيامة ، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة ؟ ﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ قال ابن عباس : أن نجعله خفّاً أو حافراً . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقاتة ، والضحاك ، وابن جرير . ووجه ابن جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا . والظاهر من الآية أن قوله : ﴿ قَادِرِينَ ﴾ حال من قوله : ﴿ نَجْمَعُ ﴾ أي : أيظن الإنسان أنا لا نجتمع عظامه ؟ بل سنجمعها

قادرين على أن نُسَوَّى بنانه ، أى : قدرتنا صالحة لجمعها ، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان ، فنجعل بنانه - وهى أطراف أصابعه - مستوية . وهذا معنى قول ابن قتيبة ، والزجاج .

وقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ قال ابن عباس : يعنى يمضى قدما . وقال : يعنى : الأمل ، يقول الإنسان : أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة ، ويقال : هو الكفر بالحق بين يدي القيامة . وقال مجاهد : ﴿ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ : يمضى أمامه راكبا رأسه . وقال الحسن : لا يلقى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدُماً قُدُماً ، إلا من عصمه الله . وروى عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف : هو الذى يَعَجِّلُ الذُّنُوبَ وَيُسَوِّفُ التَّوْبَةَ . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هو الكافر يكذب بيوم الحساب . وكذا قال ابن زيد ، وهذا هو الأظهر من المراد ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ ؟ أى : يقول متى يكون يوم القيامة ؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه ، وتكذيب لوجوده ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبا: ٢٩ ، ٣٠] .

وقال تعالى هاهنا : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴾ ، قال أبو عمرو بن العلاء : ﴿ بَرِقَ ﴾ بكسر الراء ، أى : حار . وهذا الذى قاله شبيه بقوله تعالى : ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٣] ، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا ، لا يستقر لهم بصر على شيء ؛ من شدة الرعب . وقرأ آخرون : « بَرَقَ » بالفتح ، وهو قريب فى المعنى من الأول . والمقصود : أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال ، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور .

وقوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أى : ذهب ضوؤه ، ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ قال مجاهد : كُورًا . وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ [التكوير: ١ ، ٢] وروى عن ابن مسعود أنه قرأ : « وَجُمِعَ بين الشمس والقمر » . وقوله : ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ ﴾ أى : إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة ، حينئذ يريد أن يفر ويقول : أين المفر ؟ أى : هل من ملجأ أو موئل ؟ قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ . قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد ابن جبير ، وغير واحد من السلف : أى لا نجاة . وهذه كقوله : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ [الشورى: ٤٧] أى : ليس لكم مكان تتكبرون فيه ، وكذا قال هاهنا : ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ أى : ليس لكم مكان تعتصمون فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ أى : المرجع والمصير .

ثم قال تعالى : ﴿ يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أى : يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] . وهكذا قال هاهنا : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ أى : هو شهيد على نفسه ، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر ، كما قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] . قال ابن عباس : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ يقول :

سمعُه وبصرُه ويداه ورجلاه وجوارحه . وقال قتادة : شاهد على نفسه . وفي رواية قال : إذا شئت - والله - رأيته بصيرا بعيوب الناس وذنوبهم غافلا عن ذنوبه ، وكان يقال : إن في الإنجيل مكتوبا : يا ابن آدم ، تبصر القذاة في عين أخيك ، وتترك الجذع في عينك لا تبصره . وقال مجاهد : ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ : ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتادة : ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ : ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه . وقال السدي : ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ : حجته . وكذا قال ابن زيد ، والحسن البصري ، وغيرهم . واختاره ابن جرير . وقال ابن عباس : ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ : لو ألقى ثيابه . والصحيح قول مجاهد وأصحابه ، كقوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَسْتَتِمُ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣] ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة: ١٨] .

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ ١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْآنَهُ ١٧ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ١٩ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ٢١ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٣ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرٌ ٢٤ تَطْنُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاكِرَةٌ ٢٥

هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابق الملك في قراءته ، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل له أن يجمعه في صدره ، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه . فالحالة الأولى جمعه في صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أي : بالقرآن ، كما قال : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] .

ثم قال : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ أي : في صدرك ، ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ أي : أن تقرأه ، ﴿ فَإِذَا قَرَأَهُ ﴾ أي : إذا تلاه عليك الملك عن الله عز وجل ، ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أي : فاستمع له ، ثم اقرأه كما أقرأك ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أي : بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا . وروى الإمام أحمد : عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك شفثيه قال : فقال لي ابن عباس : أنا أحرك شفثي كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفثيه . وقال لي سعيد : وأنا أحرك شفثي كما رأيت ابن عباس يحرك شفثيه - فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ، قال : جمعه في صدرك ، ثم تقرأه ، ﴿ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ : فاستمع له وأنصت ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ . فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه . وقد رواه البخاري ومسلم ، ولفظ البخاري : فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل (١) . وهكذا قال الشعبي ، والحسن

البصرى ، وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، وغير واحد : إن هذه الآية نزلت فى ذلك . وقد روى ابن جرير من طريق العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال : كان لا يفتر من القراءة مخافة أن ينساه ، فقال الله : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا ﴾ أن نجمله لك ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ : أن نفرئك فلا تنسى . وقال ابن عباس وعطية العوفى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ : تبين حلاله وحرامه . وكذا قال قتادة .

وقوله : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أى : إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم : أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة ، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ من النضارة ، أى حسنة بهيئة مشرقة مسرورة ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ أى : تراه عيانا ، كما رواه البخارى ، فى صحيحه : « إنكم سترون ربكم عيانا » (١) . وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل فى الدار الآخرة فى الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ؛ لحديث أبى سعيد وأبى هريرة - وما فى الصحيحين : أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : « هل تَصَارُونَ فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سَحَاب ؟ » قالوا : لا . قال : « فإنكم تَرَوْنَ ربكم كذلك » (٢) . وفى الصحيحين عن جرير قال : نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم تَرَوْنَ ربكم كما تَرَوْنَ هذا القمر ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا » (٣) . وفى الصحيحين عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « جَنَّاتٌ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى اللَّهِ إِلَّا رِدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِى جَنَّةِ عَدْنٍ » (٤) . وفى أفراد مسلم ، عن صهيب ، عن النبى ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة » قال : « يقول الله تعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ » قال : « فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ، وهى الزيادة » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] (٥) . وفى أفراد مسلم ، عن جابر فى حديثه : « إن الله يَتَجَلَّى للمؤمنين يضحك » (٦) . يعنى فى عرصات القيامة ، ففى هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل فى العرصات ، وفى روضات الجنات . ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن ، ولكن ذكرنا

(١) البخارى (٤٨٥ ، ٥٥٤ ، ٥٧٣) .

(٢) البخارى (٧٤٣٧ ، ٧٤٣٨) ، ومسلم (٢٩٩ / ١٨٢) .

(٣) البخارى (٧٤٣٤ ، ٧٤٣٦) ومسلم (٦٣٣ / ٢١١) .

(٤) البخارى (٧٤٤٤) ومسلم (٢٩٦ / ١٨٠) .

(٥) مسلم (٣١٦ / ١٩١) .

(٦) مسلم (٢٩٧ / ١٨١) .

ذلك مفرقا في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق. وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام. وهُدَاة الأنام.

وقوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾: هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة. قال قتادة: كالحة. وقال السدي: تغير ألوانها. وقال ابن زيد: ﴿بَاسِرَةٌ﴾ أى: عابسة. ﴿تَظُنُّ﴾ أى: تستيقن، ﴿أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ قال مجاهد: داهية. وقال قتادة: شر. وقال السدي: تستيقن أنها هالكة. وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار. وهذا المقام كقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وكقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَافِرَةٌ. تَرَهَقَهَا فَتْرَةٌ. أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٨-٤٢]، وكقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ. عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ. تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾، إلى قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ. لِّسَعِيهَا رَاضِيَةٌ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٢-١٠]، فى أشباه ذلك من الآيات والسياقات.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ ﴿١٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿١٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿١٨﴾ وَالَّتِىَ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿١٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٢٠﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٢١﴾ وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَطِي ﴿٢٣﴾ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٢٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِّنْ مَّيِّ يَتَّبِعِ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَنَخَلَ فَسَوَىٰ ﴿٢٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٢٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال - ثبتنا الله هناك بالقول الثابت - فقال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾، إن جعلنا ﴿كَلَّا﴾ رادعة فمعناها: لست يا بن آدم تكذب هناك بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عيانا. وإن جعلناها بمعنى (حقا) فظاهر، أى: حقا بلغت التراقي، أى: انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي: جمع ترقوة، وهى العظام التى بين ثغرة النحر والعاتق، كقوله: ﴿فَلَوْلَا﴾ (١) إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ. فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ. تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الرافعة: ٨٣-٨٧]. وهكذا قال هاهنا: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾، والتراقي: جمع ترقوة، وهى قريبة من الحلقوم. ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾؟ قال ابن عباس: أى من راق يرقى؟ وكذا قال أبو قلابة: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أى: من طيب شاف. وكذا قال قتادة، والضحاك، وابن زيد. وعن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالَّتِىَ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ قال: التفت عليه الدنيا والآخرة. وكذا: قال آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله. وقال عكرمة: ﴿وَالَّتِىَ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾: الأمر العظيم بالأمر العظيم. وقال مجاهد: بلاء بلاء. وقال الحسن البصرى: هما ساقاك إذا التفتا. وفى رواية عنه: ماتت رجلاه فلم تحملاه، وقد كان

(١) فى المخطوطة: «كَلَّا» وهو خطأ واضح.

عليهما جوالا . وكذا قال السدى ، عن أبى مالك . وفى رواية عن الحسن : هو لفهما فى الكفن . وقوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أى : المرجع والمآب ، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات ، فيقول الله عز وجل : ردوا عبادى إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . كما ورد فى حديث البراء الطويل . وقد قال الله تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ . ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢] .

وقوله : ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ . وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ : هذا إخبار عن الكافر الذى كان فى الدار الدنيا مكذبا للحق بقلبه ، متوليا عن العمل بقلبه ، فلا خير فيه باطنا ولا ظاهرا ، ولهذا قال : ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ . وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ أى : جَدَلَانِ أَشْرَا بَطَرَا كَسَلَانَا ، لا همة له ولا عمل ، كما قال : ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣٤] ، وقال : ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا . إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ﴾ أى : يرجع ، ﴿بَلَىٰ إِنْ رَّبُّهُ كَانَ بِهٖ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٣-١٥] . وقال الضحاك : عن ابن عباس ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ : أى : يختال . وقال قتادة ، وزيد بن أسلم : يتبختر . قال الله تعالى : ﴿أُولَئِكَ لَكَ فَآوَلَىٰ . ثُمَّ أُولَئِكَ لَكَ فَآوَلَىٰ﴾ : وهذا تهديد ووعيد أكيد من الله تعالى للكافر به المتبختر فى مشيه ، أى : يحق لك أن تمشى هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك ، كما يقال فى مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] ، وكقوله : ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦] ، وكقوله : ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٥] ، وكقوله : ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] إلى غير ذلك .

وقوله : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ قال السدى : يعنى : لا يبعث . وقال مجاهد ، والشافعى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى لا يؤمر ولا ينهى . والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أى : ليس يترك فى هذه الدنيا مهملا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة . والمقصود هنا إثبات المعاد، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد، ولهذا قال مستدلا على الإعادة بالبداء فقال : ﴿أَلَمْ يَكْ نُطْفَعُ مِنْ مَّنِيِّ يُمْنَىٰ﴾ ؟ أى : أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ، يمنى يراق من الأصلاب فى الأرحام . ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخُلِقَ فَسَوَّىٰ﴾ أى : فصار علقة ، ثم مضغة ، ثم شكّل ونفخ فيه الروح ، فصار خلقا آخر سويا سليم الأعضاء ، ذكرا أو أنثى بإذن الله وتقديره ؛ ولهذا قال : ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ . ثم قال : ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أى : أما هذا الذى أنشأ هذا الخلق السوى من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ وتناول القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة ، وإما مساوية على القولين فى قوله : ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] . والأول أشهر ، والله أعلم . عن ابن عباس أنه مر بهذه الآية : ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ ؟ قال : سبحانك ؛ فبلى .

تفسير سورة الإنسان

وهي مكية

فى صحيح مسلم ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ آلم . تنزيل ﴾ السجدة ، و ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا
كَفُورًا ﴿٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر ، لحقارته وضعفه ،
فقال : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ ؟

ثم بين ذلك فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أى : أخلط . والمشج والمشيج :
الشيء المختلط ، بعضه فى بعض . قال ابن عباس فى قوله : ﴿ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ يعنى : ماء
الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور ، وحال إلى حال .
وهكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، والربيع بن أنس : الأمشاج : هو اختلاط ماء الرجل
بماء المرأة . وقوله : ﴿ نَبْتَلِيهِ ﴾ أى : نختبره ، كقوله : ﴿ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢٠] .
﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أى : جعلنا له سمعا وبصرا يتمكن بهما من الطاعة والمعصية .

وقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ أى : بيناه له ووضحناه وبصرناه به ، كقوله : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ
فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت: ١٧] ، وكقوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠] ، أى :
بيناه له طريق الخير وطريق الشر . وهذا قول عكرمة ، وعطية ، وابن زيد ، ومجاهد - فى
المشهور عنه - والجمهور . وقوله : ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ : منصوب على الحال من « الهاء » فى
قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ تقديره : فهو فى ذلك إما شقى وإما سعيد ، كما جاء فى الحديث
الذى رواه مسلم ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « كل الناس يَغْدُو ، فبائع
نفسه فموبقها أو مُعْتَقُهَا » (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما
من خارج يخرج إلا ببابه رايتان : راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان ، فإن خرج لما يُحِبُّ الله

اتبعه الملك برايته ، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته . وإن خرج لما يُسخط الله اتبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان ، حتى يرجع إلى بيته » (١) . وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله : أن النبي ﷺ قال لكعب بن عُجرة : « أعاذك الله من إمارة السفهاء » . قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : « أمراء يكونون من بعدى ، لا يهتدون بهداى ، ولا يستنّون بسنتى ، فمن صدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا منى ولست منهم ، ولا يردّون على حوضى . ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يُعِنهم على ظلمهم ، فأولئك منى وأنا منهم ، وسيردون على حوضى . يا كعب بن عُجرة ، الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، والصلاة قربان - أو قال : برهان . يا كعب بن عُجرة ، إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار أولى به - يا كعب ، الناس غاديان ، فمبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها » (٢) .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِنًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

يخبر تعالى عما أُرصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير ، وهو اللهب والحريق فى نار جهنم ، كما قال : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١ ، ٧٢] .

ولما ذكر ما أعدّه لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ ، وقد علم ما فى الكافور من التبريد والرائحة الطيبة ، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذابة فى الجنة . قال الحسن : برد الكافور فى طيب الزنجبيل ؛ ولهذا قال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أى : هذا الذى مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفا بلا مزج ويروون بها . قال بعضهم : هذا الشراب فى طيبه كالكافور . وقال بعضهم : هو من عين كافور .

وقوله : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أى : يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا ، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم . والتفجير هو الإنباع ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء: ٩٠] . وقال : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ [الكهف: ٣٣] . قال مجاهد : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ : يقودونها حيث شاؤوا ، وكذا قال عكرمة ، وقتادة . وقال الثورى :

(١) المسند (٨٢٦٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (٣/ ٣٢١) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٣٤) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

يصرفونها حيث شاؤوا .

وقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أى: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر. روى الإمام مالك، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه»، رواه البخارى من حديث مالك (١).

ويتركون المحرمات التى نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذى شره مستطير، أى: منتشر عام على الناس إلا من رحم الله. قال ابن عباس: فاشياً. وقال قتادة: استطار - والله - شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض. قال ابن جرير: ومنه قولهم: استطار الصدع فى الزجاج واستطال.

وقوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ قيل: على حب الله تعالى. وجعلوا الضمير عائداً إلى الله عز وجل لدلالة السياق عليه. والأظهر أن الضمير عائد على الطعام، أى: ويطعمون الطعام فى حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد، ومقاتل، واختاره ابن جرير، كقوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وكقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. وفى الصحيح: «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح، شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر» (٢)، أى: فى حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾. أما المسكين واليتيم، فقد تقدم بيانهما وصفتهم. وأما الأسير: فقال سعيد بن جبیر، والحسن، والضحاك: الأسير: من أهل القبلة. وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين. ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء، وهكذا قال سعيد بن جبیر، وعطاء، والحسن، وقتادة.

وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء فى غير ما حديث، حتى إنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول: «الصلوة وما ملكت أيمانكم» (٣). وقال عكرمة: هم العبيد - واختاره ابن جرير - لعموم الآية للمسلم والمشرک. وقال مجاهد: هو المحبوس، أى: يطعمون لهؤلاء الطعام وهم يشتهونه ويحبونه، قائلين بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ أى: رجاء ثواب الله ورضاه، ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ أى: لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ولا أن تشكرونا عند الناس. قال مجاهد وسعيد بن جبیر: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب فى ذلك راغب.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَیْبًا قَمَطًا لِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى: إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا

(٢) مسلم (١٠٣٢ / ٩٢).

(١) البخارى (٦٦٩٦، ٦٧٠٠).

(٣) المسند (٥٨٥) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

بلطفه، فى اليوم العبوس القمطيرير. قال ابن عباس: ﴿عَبُوسًا﴾: ضيقًا، ﴿قَمْطَرِيرًا﴾: طويلًا. وقال عكرمة وغيره، عنه، فى قوله: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أى: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران. وقال سعيد بن جبير، وقتادة: تعبس فيه الوجوه من الهول، ﴿قَمْطَرِيرًا﴾: تقلص الجبين وما بين العينين، من الهول. وقال ابن زيد: العبوس: الشر. والقمطيرير: الشديد.

وأوضح العبارات وأجلاها وأحلاها، وأعلاها وأولاها، قول ابن عباس رضى الله عنه. قال ابن جرير: والقمطيرير هو: الشديد؛ يقال: هو يوم قمطيرير ويوم قُمَاطِر، ويوم عَصِيب وعَصْبَصَب، وقد اقمطر اليوم يقمطر اقمطارًا، وذلك أشد الأيام وأطولها فى البلاء والشدة.

قال الله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾، وهذا من باب التجانس البليغ، ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ أى: آمنهم مما خافوا منه، ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً﴾ أى: فى وجوههم، ﴿وَسُرُورًا﴾ أى: فى قلوبهم. قاله الحسن البصرى، وقتادة، وأبو العالية، والربيع بن أنس. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]. وذلك أن القلب إذا سر استنار الوجه، قال كعب بن مالك فى حديثه الطويل: وكان رسول الله ﷺ إذا سر، استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر. وقالت عائشة: دخل على رسول الله ﷺ مسرورا تبرق أسارير وجهه - الحديث (١). وقوله: ﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ أى: بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم وبوأهم ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أى: منزلا رحبا، وعيشا رغدا، ولباسا حسنا.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ ﴿١٢﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٣﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِدَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٤﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٥﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٦﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٧﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنُورًا ﴿١٨﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا ﴿٢١﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل العميم فقال: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾. وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة «الصفات»، وذكر الخلاف فى الاتكاء: هل هو الاضطجاع، أو التمرق، أو التربع، أو التمكن فى الجلوس؟ وأن الأرائك هى السرر تحت الحجال. ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أى: ليس

عندهم حرّ مزعج ، ولا برد مؤلم ، بل هى مزاج واحد دائم سرمدى ، ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف: ١٠٨] ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾ أى : قريبة إليهم أغصانها ، ﴿ وَذَلَّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ أى : متى تعاطاه دنا القطفُ إليه وتدلى من أعلى غصنه ، كأنه سامع طائع ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤] . وقال تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ٢٣] .

وقوله : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى : يطوف عليهم الخدم بأوانى الطعام ، وهى من فضة ، وأكواب الشراب وهى الكيزان التى لا عرى لها ولا خراطيم . وقوله : ﴿ قَوَارِيرٍ ﴾ قَوَارِيرٍ مِنْ فِضَّةٍ : فالأول منصوب بخبر « كان » أى : كانت قوارير . والثانى منصوب إما على البدلية ، أو تمييز ؛ لأنه بينه بقوله : ﴿ قَوَارِيرٍ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن البصرى ، وغير واحد : بياض الفضة فى صفاء الزجاج ، والقوارير لا تكون إلا من زجاج . فهذه الأكواب هى من فضة ، وهى مع هذا شفاقة يرى ما فى باطنها من ظاهرها ، وهذا مما لا نظير له فى الدنيا . وعن ابن عباس : ليس فى الجنة شىء إلا قد أعطيت فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة . وقوله : ﴿ قَدَرُواْهَا تَقْدِيرًا ﴾ أى : على قدر ريتهم ، لا تزيد عنه ولا تنقص ، بل هى مُعَدَّةٌ لذلك ، مقدرة بحسب رى صاحبها . هذا معنى قول ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة وقاله ابن جرير وغير واحد . وهذا أبلغ فى الاعتناء والشرف والكرامة . وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ قَدَرُواْهَا تَقْدِيرًا ﴾ : قدرت للكف . وهكذا قال الربيع ابن أنس . وقال الضحاك : على قدر أكف الخدام . وهذا لا ينافى القول الأول ، فإنها مقدرة فى القدر والرّى .

وقوله : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴾ أى : ويسقون - يعنى الأبرار أيضا - فى هذه الأكواب ﴿ كَأْسًا ﴾ أى : خمراً ، ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴾ فتارة يُمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ، ليعتدل الأمر ، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة . وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً ، كما قاله قتادة وغير واحد . وقد تقدم فى قوله : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴾ أى : الزنجبيل عين فى الجنة تسمى سلسبيلا . قال عكرمة : اسم عين فى الجنة . وقال مجاهد : سميت بذلك لسلاسة سيلها وحدة جريها . وحكى ابن جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها فى الخلق . واختار هو أنها تعم ذلك كله ، وهو كما قال .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا ﴾ أى : يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أى : على حالة واحدة مخلدون عليها ، لا يتغيرون عنها ، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن . ومن فسرهم بأنهم مُخَرَّصُونَ فى آذانهم الأقرطة ، فإنما عبر عن المعنى بذلك ؛ لأن الصغير هو الذى يليق له ذلك دون الكبير . ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا ﴾ أى : إذا رأيتهم فى انتشارهم فى قضاء حوائج السادة ، وكثرتهم ، وصباحة وجوههم ، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم ، حسبتهم لؤلؤا منثورا . ولا يكون فى

التشبيه أحسن من هذا، ولا فى المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن . قال عبد الله ابن عمرو : ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم ، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه .

وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ أى : وإذا رأيت يا محمد ، ﴿ ثُمَّ ﴾ أى : هناك ، يعنى فى الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبرة والسرور ، ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ أى : مملكة لله هناك عظيمة وسلطاناً باهراً . وثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجا منها ، وآخر أهل الجنة دخولا إليها : « إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها » (١) . فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون فى الجنة ، فما ظنك بما هو أعلى منزلة ، وأحظى عنده تعالى .

وقوله : ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ أى : لباس أهل الجنة فيها الحرير ، ومنه سندس ، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلى أبدانهم ، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان ، وهو مما يلى الظاهر ، كما هو المعهود فى اللباس ، ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ وهذه صفة الأبرار ، وأما المقربون فكما قال : ﴿ يُحَلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج: ٢٣] .

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلى قال بعده : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أى : طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة ، فأخبر سبحانه وتعالى بحاله الظاهر وجمالهم الباطن . وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ أى : يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كما قال تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤] ، وكقوله : ﴿ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الاعراف: ٤٣] . وقوله : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ أى : جزاكم الله على القليل بالكثير .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ (١٢) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿ (١٤) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿ (١٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿ (١٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿ (١٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمَثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿ (١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿ (١٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿ (٢٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿ (٢١)

يقول تعالى ممتناً على رسوله ﷺ بما نزله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أى : كما أكرمك بما أنزل عليك ، فاصبر على قضائه وقدره ، واعلم أنه سيدبرك بحسن

تدبيره ، ﴿ وَلَا تُطِيعُ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ أى : لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك ، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وتوكل على الله ؛ فإن الله يعصمك من الناس . فالآثم هو الفاجر فى أفعاله ، والكفور هو الكافر قلبه . ﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى : أول النهار وآخره . ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ ، كقوله : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَنفَعَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] ، وكقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ . قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ١ - ٤] . ثم قال تعالى منكرًا على الكفار ومن أشبههم فى حب الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها ، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ يعنى : يوم القيامة .

ثم قال : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : يعنى خلقهم ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمَثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أى : وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة ، وبدلناهم فأعدناهم خلقًا جديدًا . وهذا استدلال بالبداة على الرجعة . وقال ابن زيد ، وابن جرير : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمَثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أى : وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم ، كقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٣] ، وكقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم: ١٩ ، ٢٠ ، وفاطر: ١٦ ، ١٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ ﴾ يعنى : هذه السورة ﴿ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أى : طريقًا ومسلكا ، أى : من شاء اهتدى بالقرآن ، كقوله : ﴿ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٩] . ثم قال : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى : لا يقدر أحد أن يهتدى نفسه ، ولا يدخل فى الإيمان ولا يجر لنفسه نفعًا ، ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى : عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ، ويقبض له أسبابها ، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . ثم قال : ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : يهتدى من يشاء ويضل من يشاء ، فمن يهتد فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادى له .

تفسير سورة المرسلات

وهي مكية

روى البخارى عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ فى غار بمنى ، إذ نزلت عليه : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ ﴾ ، فإنه ليلتها وإنى لأتلقاها من فيه ، وإن فاه لرطب بها ، إذ وثبت علينا حية ، فقال النبى ﷺ : « اقلوها » . فابتدرناها فذهبت ، فقال النبى ﷺ : « وَقِيَتْ شُرْكَكُمْ كَمَا وَقِيْتُمْ شُرْهَآ » . وأخرجه مسلم (١) . وعن ابن عباس : أن أم الفضل سمعته يقرأ : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ ، فقالت : يا بنى ، ذكرتنى بقراءتك هذه السورة ، إنها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها فى المغرب . أخرجاه فى الصحيحين (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ ١ ﴿ فَأَلْصَقَتْ عَصْفًا ﴾ ٢ ﴿ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ ٣ ﴿ فَالْفَرَقَاتِ فَرَقًا ﴾ ٤ ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ ٥ ﴿ عُذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴾ ٦ ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ ٧ ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ ٨ ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ ٩ ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ﴾ ١٠ ﴿ وَإِذَا الرَّسُلُ أُقِنَتْ ﴾ ١١ ﴿ لِأَنَّى يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ ١٢ ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ ١٣ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ ١٤ ﴿ وَلِلَّيْلِ لِلْمُكْذِبِينَ ﴾ ١٥

عن أبى هريرة : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ قال : الملائكة . ورؤى عن مسروق ، وأبى الضحى ، ومجاهد - فى إحدى الروايات - والسدى ، والربيع بن أنس ، مثل ذلك . ورؤى عن أبى صالح أنه قال : هى الرسل . وفى رواية عنه : هى الملائكة . وهكذا قال أبو صالح فى ﴿ الْعَاصِفَاتِ ﴾ و﴿ النَّاشِرَاتِ ﴾ و﴿ الْفَارِقَاتِ ﴾ و﴿ الْمُلْقِيَاتِ ﴾ : أنها الملائكة .

قال ابن مسعود عن ﴿ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ قال : الريح . وكذا قال فى : ﴿ الْعَاصِفَاتِ عَصْفًا . وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ : إنها الريح . وكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو صالح - فى رواية عنه - وعن أبى صالح : أن الناشرات نشرا : المطر . والأظهر أن : ﴿ الْمُرْسَلَاتِ ﴾ هى الرياح ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف : ٥٧] ، وهكذا العاصفات هى : الرياح ، يقال : عصف الريح إذا هبَّت بتصويت ، وكذا الناشرات هى : الرياح التى تنشر السحاب فى آفاق السماء ، كما يشاء الرب عز وجل .

(٢) البخارى (٧٦٣) ومسلم (٤٦٢/ ١٧٣) .

(١) البخارى (١٨٣٠) ومسلم (٢٢٣٤/ ١٣٧) .

وقوله : ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا . فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا . عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ : يعنى : الملائكة . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، ومجاهد . ولا خلاف ها هنا ؛ فإنها تنزل بأمر الله على الرسل ، تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغى ، والحلال والحرام ، وتلقى إلى الرسل وحيا فيه إعذار إلى الخلق ، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره . وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعَ ﴾ : هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام ، أى : ما وعدتم به من قيام الساعة ، والنفخ فى الصور ، وبعث الأجساد ، وجمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ومجازاة كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، إن هذا كله ﴿ لَوَاقِعَ ﴾ أى : لكائن لا محالة .

ثم قال : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أى : ذهب ضوؤها ، كقوله : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ [التكوير: ٢] ، وكقوله : ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار: ٢] . ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ أى : انفطرت وانشقت ، وتدلّت أرجاؤها ، ووهت أطرافها . ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفتْ ﴾ أى : ذهب بها ، فلا يبقى لها عين ولا أثر ، كقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِيتْ ﴾ قال العوفي ، عن ابن عباس : جمعت . وقال ابن زيد : وهذه كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ﴾ [المائدة: ١٠٩] . وقال مجاهد : ﴿ أُقِيتْ ﴾ : أجلت . ثم قال : ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ : يقول تعالى : لأى يوم أجلت الرسل وأرجئ أمرها ؟ حتى تقوم الساعة ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ . يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٧، ٤٨] . وهو يوم الفصل ، كما قال : ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ . ثم قال تعالى معظما لشأنه : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى : ويل لهم من عذاب الله غدا .

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴾ ١٦ ﴿ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴾ ١٧ ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ ١٨ ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ١٩ ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ ٢٠ ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ ٢١ ﴿ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ ٢٢ ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ ٢٣ ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ٢٤ ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ ٢٥ ﴿ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴾ ٢٦ ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْسًا شِمَخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ ٢٧ ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ٢٨ ﴿

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴾ ؟ يعنى : من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به ، ﴿ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴾ أى : ممن أشبههم ؛ ولهذا قال : ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . ثم قال عمتنا على خلقه ومحتجا على الإعادة بالبداءة : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ ؟ أى : ضعيف حقير بالنسبة إلى قُدرة البارى عز وجل ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ يعنى : جمعناه

فى الرّحم ، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة ، والرحم معد لذلك ، حافظ لما أودع فيه من الماء .
وقوله : ﴿ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يعنى : إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر ؛ ولهذا قال :
﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا . أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ كِفَاتًا ﴾ : كنا . وقال
مجاهد : يَكْفَتْ المِيتُ فلا يرى منه شيء . وقال الشعبى : بطنها لأمواتكم ، وظهرها لأحيائكم .
وكذا قال مجاهد وقتادة . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ يعنى : الجبال ، أرسى بها الأرض لئلا
تميد وتضطرب . ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ : عذبا زلالا من السحاب ، أو مما أنبعه الله من عيون
الأرض . ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى : ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها ،
ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره .

﴿ أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿ ٢٩ ﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿ ٣٠ ﴾ لَا
ظِلِيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهِبِ ﴿ ٣١ ﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿ ٣٢ ﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ
﴿ ٣٣ ﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿ ٣٤ ﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿ ٣٥ ﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ
﴿ ٣٦ ﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿ ٣٧ ﴾ هَذَا يَوْمٌ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿ ٣٨ ﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ
كَيْدٌ فَاكِيدُونِ ﴿ ٣٩ ﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿ ٤٠ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار ، أنهم يقال لهم يوم
القيامة : ﴿ أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ يعنى : لهب النار إذا
ارتفع وصعد معه دخان ، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب ، ﴿ لَا ظِلِيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهِبِ ﴾
أى : ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو فى نفسه ، ولا يغنى من اللهب ، يعنى : ولا
يقيهم حر اللهب .

وقوله : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ أى : يتطاير الشرر من لهبها كالقصر . قال ابن مسعود :
كالحصون . وقال ابن عباس وقتادة ، ومجاهد ، وغيرهم : يعنى أصول الشجر . ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ (١)
صُفْرٌ أى : كالإبل السود . قاله مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، واختاره ابن جرير . وعن ابن عباس ،
ومجاهد ، وسعيد بن جبير : ﴿ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ يعنى : حبال السفن . وعنه - أعنى ابن عباس :
﴿ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ : قطع نحاس . وروى البخارى عن عبد الرحمن بن عباس قال : سمعت ابن
عباس : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ قال : كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك ، فنرفعه
للشّاء (٢) ، فنسميه القصر ، ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ : حبال السفن ، تجمع حتى تكون كأوساط
الرجال (٣) ، ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

(١) « جِمَالَتٌ » : قراءة الجمهور ، وكذا هى قراءة الحافظ ابن كثير .

(٢) فى المطبوعة والمخطوطة : « للبناء » والمثبت من البخارى .

(٣) البخارى (٤٩٣٣) .

ثم قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ أى : لا يتكلمون ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أى : لا يقدرُونَ على الكلام ، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا ، بل قد قامت عليهم الحجة ، ووقع القولُ عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون . وعرصات القيامة حالات ، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة ، وعن هذه الحالة تارة ؛ ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ . ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعًاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ . فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا : وهذه مخاطبة من الخالق لعباده يقول لهم : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعًاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ يعنى : أنه جمعهم بقدرته فى صعيد واحد ، يُسْمِعُهُم الداعى وَيَنْفِذُهُمُ البصر . ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴾ : تهديد شديد ووعيد أكيد ، أى : إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتى ، وتنجوا من حكمى فافعلوا ، فإنكم لا تقدرُونَ على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَصْرُوهُ شَيْئًا ﴾ [هود: ٥٧] ، وفى الحديث : « يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا نقعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضرى فتضررونى » (١) .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴾ ﴿٤١﴾ وَفَوَاحِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُّوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات ، وترك المحرمات : أنهم يوم القيامة يكونون فى جنات وعيون ، أى : بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه ، من ظل اليعموم ، وهو الدخان الأسود المنتن . ﴿ وَفَوَاحِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أى : ومن سائر أنواع الثمار ، مهما طلبوا وجدوا ﴿ كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم . ثم قال تعالى مخبراً خبراً مستأنفاً : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى : هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ كُلُّوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ : خطاب للمكذبين بيوم الدين ، وأمرهم أمر تهديد ووعيد فقال تعالى : ﴿ كُلُّوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا ﴾ أى : مدة قليلة قريبة قصيرة ، ﴿ إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ أى : ثم تساقون إلى نار جهنم التى تقدم ذكرها ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ١٠٦] .

[٧٠ ، ٦٩] . وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ أى : إذا أمر هؤلاء الجهلة من [الكفار] (١) أن يكونوا من المصلين مع الجماعة ، امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ أى : إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن ، فبأى كلام يؤمنون به ؟! كقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجنائىة : ٦] .

(١) سقطت من المطبوعة ، وأثبتناها من المخطوطة .

تفسير سورة النبأ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

الجزء
٣٠

يقول تعالى منكرًا على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : عن أى شيء يتساءلون ؟ عن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعنى : الخبر الهائل المقطع الباهر . قال قتادة ، وابن زيد : النبأ العظيم : البعث بعد الموت . وقال مجاهد : هو القرآن . والأظهر الأول لقوله : ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ يعنى : الناس فيه على قولين : مؤمن به وكافر . ثم قال تعالى متوعداً لمنكرى القيامة : ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ ، وهذا تهديد شديد ووعد أكيد . ثم شرع تعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة ، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره ، فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴾ ؟ أى : ممهدة للخلائق ذلولا لهم ، قارة ساكنة ثابتة ، ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ أى : جعلها لها أوتادا أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها .

ثم قال : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ يعنى : ذكراً وأنثى ، يستمتع كل منهما بالآخر ، ويحصل التناسل بذلك ، كقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : ٢١] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أى : قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعى فى المعاش فى عرض النهار . وقد تقدم مثل هذه الآية فى سورة « الفرقان » (١) . ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أى : يغشى الناس ظلامه وسواده ، كما قال : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس : ٤] ، وقال قتادة فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أى : سكناً . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ أى : جعلناه مشرقاً مُنيراً مضيئاً ، ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجئ للمعاش والتكسب والتجارات ،

(١) لعله يقصد الآية (٤٧) .

وغير ذلك . وقوله : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ : يعنى : السموات السبع ، فى اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها ، وتزيينها بالكواكب الثابت والسيارات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ : يعنى : الشمس المنيرة على جميع العالم التى يتوهج ضوءها لأهل الأرض كلهم . وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ : الرياح . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وقتادة : إنها الرياح . ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ أى : من السحاب . وكذا قال عكرمة أيضا ، وأبو العالية ، والضحاك ، والحسن . واختاره ابن جرير . والأظهر أن المراد بالمعصرات : السحاب ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الرَّدَقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ [الروم: ٤٨] أى : من بينه . وقوله : ﴿ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ قال مجاهد ، وقتادة ، والربيع بن أنس : ﴿ ثَجَّاجًا ﴾ : منصبا . وقال الثورى : متتابعاً . وقال ابن زيد : كثيرا . قال ابن جرير : ولا يعرف فى كلام العرب فى صفة الكثرة الثج ، وإنما الثج : الصب المتتابع . ومنه قول النبى ﷺ : « أَفْضَلُ الْحَجِّ الْعَجَّ وَالثَّجَّ » (١) . يعنى : صبّ دماء البدن . هكذا قال . قلت : وفى حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله ﷺ : « أَنْعَتِ لَكَ الْكُرْسُفَ » - يعنى : أن تحتشى بالقطن : قالت : يا رسول الله ، هو أكثر من ذلك ، إنما أثج ثجاً (٢) . وهذا فيه دلالة على استعمال الثج فى الصب المتتابع الكثير ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ أى : لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿ حَبًّا ﴾ يدخر للأناسى والأنعام ، ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ أى : خضراً يؤكل رطباً ، ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ أى : بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة ، وألوان مختلفة ، وطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذلك فى بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ قال ابن عباس ، وغيره : مجتمعة . وهذه كقوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قُطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضٍ لِبَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤] .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ﴾ (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿ (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿ (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿ (٢١) لِلطَّغْيِينِ مَتَابًا ﴿ (٢٢) لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿ (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿ (٢٤) إِلَّا حِيمًا وَغَسَاقًا ﴿ (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا ﴿ (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿ (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿ (٢٨) وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿ (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنتُ زَيْدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿ (٣٠) ﴿

(١) ابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٥) .

(٢) المسند (٤٣٩ / ٦) وأبو داود (٢٨٧) والترمذى (١٢٨) وقال : « حسن صحيح » .

يخبر تعالى عن يوم الفصل ، وهو يوم القيامة ، أنه مؤقت بأجل معدود ، لا يزداد عليه ولا ينقص منه ، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل ، كما قال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴾ [هود: ١٠٤] . ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ قال مجاهد : زُمَرًا زُمَرًا . قال ابن جرير : يعنى تأتى كل أمة مع رسولها ، كقوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٣١] . وقال البخارى : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون » . قالوا : أربعون يوماً ؟ قال : « أبيت » . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : « أبيت » . قالوا : أربعون سنة ؟ قال : « أبيت » . قال : « ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل ، ليس من الإنسان شيء إلا يبلَى ، إلا عظماً واحداً ، وهو عَجَبُ الذنْب ، ومنه يُرْكَبُ الخلق يوم القيامة » (١) .

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ أى : طرقاً ومسالك لنزول الملائكة ، ﴿ وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ ، كقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨] ، وكقوله : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ المنفوش ﴾ [القارعة: ٥] . وقال هاهنا : ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أى : يخيل إلى الناظر أنها شيء ، وليست بشيء ، وبعد هذا تذهب بالكلية ، فلا عين ولا أثر ، كما قال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧] ، وقال : ﴿ وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف: ٤٧] .

وقوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أى : مرصدة مُعَدَّة ، ﴿ لِلطَّاغِينَ ﴾ وهم : المردة العصاة المخالفون للرسول ، ﴿ مَأْبًا ﴾ أى : مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ونزلاً . وقال الحسن ، وقتادة فى قوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ يعنى : أنه لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار ، فإن كان معه جواز نجا ، وإلا احتبس . وقال سفيان الثورى : عليها ثلاث قناطر . وقوله : ﴿ لَا بَشِيرَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ أى : ماكثين فيها أحقاباً ، وهى جمع « حُقْب » ، وهو : المدة من الزمان . وقد اختلفوا فى مقداره ، فقال ابن جرير قال على بن أبى طالب لَهلال الهجرى : ما تعدون الحُقْبَ فى كتاب الله المنزل ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، كل سنة اثنا عشر شهراً ، كل شهر ثلاثون يوماً ، كل يوم ألف سنة (٢) . وهكذا روى عن أبى هريرة ، وعبد الله بن عمرو ، وابن عباس ، وسعيد بن جببر ، وعمرو بن ميمون ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والضحاك . وعن الحسن والسدى أيضاً : سبعون سنة كذلك . وعن عبد الله بن عمرو : الحُقْبُ أربعون سنة ، كل يوم منها كالف سنة مما تعدون . وقال السدى : ﴿ لَا بَشِيرَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ : سبعمائة حُقْب ، كل حُقْب سبعون سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً ، كل يوم كالف سنة مما تعدون . وقد قال مقاتل ابن حيان : إن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ . وقال خالد بن معدان : هذه الآية وقوله : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١٠٧] فى أهل التوحيد . رواهما ابن جرير .

(١) البخارى (٤٩٣٥) .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٨ / ٣) .

ثم قال : يحتتمل أن يكون قوله : ﴿ لَا يَبِشِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ ، ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذاباً من شكل آخر ونوع آخر . ثم قال : والصحيح أنها لا انقضاء لها ، كما قال قتادة والربيع بن أنس .

وقوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ أى : لا يجدون فى جهنم برداً لقلوبهم ، ولا شراباً طيباً يتغذون به . ولهذا قال : ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ قال أبو العالية : استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق . وكذا قال الربيع بن أنس . فأما الحميم : فهو الحار الذى قد انتهى حره وحموه . والغساق : هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم ، فهو بارد لا يستطيع من برده ، ولا يواجهه من نتنه . وقد قدمنا الكلام على الغساق فى سورة « ص » (١) بما أغنى عن إعادته ، أجازنا الله من ذلك ، بمنه وكرمه . قال ابن جرير : وقيل : المراد بقوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ﴾ يعنى : النوم .

وقوله : ﴿ جَزَاءً وَفَاقًا ﴾ أى : هذا الذى صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التى كانوا يعملونها فى الدنيا . قاله مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد . ثم قال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ أى : لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون . ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴾ أى : وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التى أنزلها على رسله ، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة . وقوله : ﴿ كِذَابًا ﴾ أى : تكذيباً ، وهو مصدر من غير الفعل . قالوا : وقد سُمع أعرابى يستفتى الفراء على المروءة : الحلقُ أحب إليك أو القصار ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ أى : وقد علمنا أعمال العباد كلهم ، وكتبناها عليهم ، وسنجزئهم على ذلك ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ أى : يقال لأهل النار : ذوقوا ما أنتم فيه ، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه ، ﴿ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص: ٥٨] . عن عبد الله بن عمرو قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه : ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ . قال : فهم فى مزيد من العذاب أبداً .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ ٢١ ﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ ٢٢ ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ ٢٣ ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ ٢٤ ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴾ ٢٥ ﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ ٢٦

يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم ، فقال : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ قال ابن عباس والضحاك : متنزها . وقال مجاهد ، وقتادة : فازوا ، فنجوا من النار . والأظهر هاهنا قول ابن عباس ؛ لأنه قال بعده : ﴿ حَدَائِقَ ﴾ ، وهى البساتين من النخيل وغيرها ﴿ وَأَعْنَابًا . وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ أى : حوراً كواعب . قال ابن عباس ومجاهد ، وغير واحد : ﴿ كَوَاعِبَ ﴾ أى : نواهد ، يعنون أن تُدَيَّهن نواهد لم يتدلين لأنهن أبكار عُرب أتراب ، أى :

فى سن واحدة ، كما تقدم بيانه فى سورة « الواقعة » .

وقوله : ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ قال ابن عباس : مملوءة متتابعة . وقال عكرمة : صافية . وقال مجاهد ، والحسن وقتادة ، وابن زيد : ﴿ دِهَاقًا ﴾ : الملقى المترعة . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير : هى المتتابعة . وقوله : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴾ ، كقوله : ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣] أى : ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة ، ولا إثم كذب ، بل هى دار السلام ، وكل كلام فيها سالم من النقص . وقوله : ﴿ جَزَاءُ مَن رَّبَّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ أى : هذا الذى ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه ، بفضلله ومنه وإحسانه ورحمته ؛ ﴿ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ أى : كافياً وافراً شاملاً كثيراً ؛ تقول العرب : « أعطانى فأحسبني » أى : كفىنى . ومنه « حسبى الله » ، أى : الله كافى .

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ (٢٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَن أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿ ٢٨ ﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴿ ٢٩ ﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿ ٣٠ ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله ، وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، وأنه الرحمن الذى شملت رحمته كل شىء . وقوله : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أى : لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه ، كقوله : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [هود: ١٠٥] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ : اختلف المفسرون فى المراد بالروح هاهنا ، ما هو ؟ على أقوال : أحدها : رواه العوفى ، عن ابن عباس : أنهم أرواح بنى آدم . الثانى : هم بنو آدم . قاله الحسن ، وقتادة ، وقال قتادة : هذا مما كان ابن عباس يكتبه . الثالث : أنهم خلق من خلق الله ، على صور بنى آدم ، وليسوا بملائكة ولا بشر ، وهم يأكلون ويشربون . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو صالح والأعمش . الرابع : هو جبريل . قاله الشعبى ، وسعيد بن جبير ، والضحاك . ويستشهد لهذا القول بقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ، ١٩٤] . وقال مقاتل بن حيان : الروح : أشرف الملائكة ، وأقرب إلى الرب عز وجل ، وصاحب الوحى . والخامس : أنه القرآن . قاله ابن زيد ، كقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ الآية [الشورى: ٥٢] . والسادس : أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات ؛ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ ، قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً . وتوقف ابن جرير فلم يقطع بواحد من هذه الأقوال كلها ، والأشبه - والله أعلم - أنهم بنو آدم .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَن أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ ، كقوله : ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [هود: ١٠٥] . وكما

ثبت فى الصحيح : «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل» (١). وقوله : ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أى : حقا ، ومن الحق : «لا إله إلا الله» ، كما قاله أبو صالح ، وعكرمة . وقوله : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ أى : الكائن لا محالة ، ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴾ أى : مرجعا وطريقا يهتدى إليه ومنهجيا يمر به عليه .

وقوله : ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يعنى : يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبا ، لأن كل ما هو آت آت . ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أى : يعرض عليه جميع أعماله ، خيرها وشرها ، قديمها وحديثها ، كقوله : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ [الكهف: ٤٩] ، وكقوله : ﴿ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣] . ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ أى : يود الكافر يومئذ أنه كان فى الدار الدنيا ترابا ، ولم يكن خلق ، ولا خرج إلى الوجود . وذلك حين عاين عذاب الله ، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سَطُرَتْ عليه بأيدى الملائكة السَّفَرَةَ الكرام البررة . وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التى كانت فى الدنيا ، فيفصل بينها بحكمه العدل الذى لا يجور ، حتى إنه ليقترص للشاة الجماء من القرناء . فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كونى ترابا ، فتصير ترابا . فعند ذلك يقول الكافر : ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ أى : كنت حيوانا فأرجع إلى التراب . وقد ورد معنى هذا فى حديث الصَّوَر المشهور (٢) .

(١) البخارى (٨٠٦) ، ومسلم (١٨٢/ ٢٩٩) .

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام ، وكذلك تخريجه هناك .

تفسير سورة النازعات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّيِّئَاتِ سَبَقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يُومِذُ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَيْنَا كُنَّا عِظْمًا نَخْرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وسعيد بن جبير : ﴿النَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ : الملائكة ، يعنون حين تنزع أرواح بنى آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعنف فتغرق في نزعها ، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط ، وهو قوله : ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ قاله ابن عباس .

وعن ابن عباس : ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ : هي أنفس الكفار ، تُنْزَعُ ثم تُنْشَطُ ، ثم تغرق في النار . رواه ابن أبي حاتم . وقال مجاهد : ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ : الموت . وقال الحسن ، وقتادة : ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا : هي النجوم . وقال عطاء بن أبي رباح في قوله : ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ و ﴿النَّاشِطَاتِ﴾ : هي القسي في القتال . والصحيح الأول ، وعليه الأكثر .

وأما قوله : ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ ، فقال ابن مسعود : هي الملائكة . ورؤى عن علي ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير مثل ذلك . وعن مجاهد : ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ : الموت . وقال قتادة : هي النجوم . وقال عطاء بن أبي رباح : هي السفن . وقوله : ﴿فَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ : رؤى عن علي ، ومسروق ، ومجاهد : يعني الملائكة ؛ قال الحسن : سبقت إلى الإيمان والتصديق به . وعن مجاهد : الموت . وقال قتادة : هي النجوم . وقال عطاء : هي الخيل في سبيل الله . وقوله : ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ قال علي ، ومجاهد ، وعطاء : هي الملائكة ، زاد الحسن : تدبر الأمر من السماء إلى الأرض . يعني : بأمر ربها عز وجل . ولم يختلفوا في هذا ، ولم يقطع ابن جرير بالمراد في شيء من ذلك ، إلا أنه حكى في ﴿الْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ : أنها الملائكة ، ولا أثبت ولا نفى .

وقوله : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ قال ابن عباس : هما النفختان الأولى والثانية .

وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد . وعن مجاهد : أما الأولى - وهى قوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ - فكقوله جلت عظمتة : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ [المزمل: ٦٤] ، والثانية - وهى الرادفة - فهى كقوله : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة: ١٤] . وقد روى الإمام أحمد عن أبى بن كعب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » . فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن جعلت صلاتى كلها عليك ؟ قال : « إذا يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك » . وقد رواه الترمذى ، وابن جرير ، ولفظ الترمذى : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » (١) .

وقوله : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ قال ابن عباس : يعنى خائفة . وكذا قال مجاهد ، وقتادة . ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ أى : أبصار أصحابها . وإنما أضيف إليها ، للملابسة ، أى : ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال . وقوله : ﴿ يَقُولُونَ أَنِنَّا لَمَرَدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ ؟ يعنى : مشركى قريش ومن قال بقولهم فى إنكار المعاد ، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة ، وهى القبور ، قاله مجاهد . وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ ؟ وقرئ : « ناخرة » . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : أى بالية . قال ابن عباس : وهو العظم إذا بلى ودخلت الريح فيه ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ . وعن ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر : الحافرة : الحياة بعد الموت . وقال ابن زيد : الحافرة : النار . وما أكثر أسماءها ! هى النار ، والجحيم ، وسقر ، وجهنم ، والهاوية ، والحافرة ، ولظى ، والحطمة . وأما قولهم : ﴿ تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ، فقال محمد بن كعب : قالت قريش : لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أى : فإنما هو أمر من الله لا مشوية فيه ولا تأكيد ، فإذا الناس قيام ينظرون ، وهو أن يأمر تعالى إسرافيل فينفخ فى الصور نفخة البعث ، فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدى الرب عز وجل ينظرون ، كما قال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل: ٧٧] . قال مجاهد : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ : صيحة واحدة . وقال الحسن البصرى : زجرة من الغضب . وقال أبو مالك ، والربيع بن أنس : زجرة واحدة : هى النفخة الآخرة .

وقوله : ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ السَّاهِرَةُ ﴾ : الأرض كلها . وكذا قال سعيد بن جبیر ، وقتادة . وقال عكرمة ، والحسن ، والضحاك ، وابن زيد : ﴿ السَّاهِرَةُ ﴾ : وجه الأرض . وقال مجاهد : كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها . قال : و﴿ السَّاهِرَةُ ﴾ :

(١) المسند (٥ / ١٣٦) والترمذى (٢٤٥٧) وابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٢١) وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

المكان المستوى . وقال الربيع بن أنس : ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ ، يقول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ، ويقول : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ، فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ ، ١٠٦] . وقال : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف: ٤٧] : وبرزت الأرض التي عليها الجبال ، وهى لا تعد من هذه الأرض ، وهى أرض لم يعمل عليها خطيئة ، ولم يهراق عليها دم .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿ ١٦ ﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿ ١٧ ﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿ ١٨ ﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿ ١٩ ﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿ ٢٠ ﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿ ٢١ ﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿ ٢٢ ﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿ ٢٣ ﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿ ٢٤ ﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿ ٢٥ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿ ٢٦ ﴾

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه ابتعثه إلى فرعون ، وأيده بالمعجزات ، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه ، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر . وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به ؛ ولهذا قال فى آخر القصة : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ .

فقوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ؟ أى : هل سمعت بخبره ؟ ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ أى : كلمه نداء ، ﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ أى : المطهر ، ﴿ طُوًى ﴾ : وهو اسم الوادى على الصحيح ، كما تقدم فى سورة «طه» . فقال له : ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ أى : تجبر وتمرد وعتا ، ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ ؟ أى : قل له : هل لك أن تحبب إلى طريقة ومسلك تزكى به ، أى : تسلم وتطيع . ﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى : أدلك إلى عبادة ربك ، ﴿ فَتَخْشَى ﴾ أى : فيصير قلبك خاضعا له مطيعا خاشعا بعد ما كان قاسيا خبيثا بعيدا من الخير . ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴾ يعنى : فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية ، ودليلا واضحا على صدق ما جاء به من عند الله ، ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ أى : فكذب بالحق وخالف ما أمر به من الطاعة . وحاصله أنه كفر قلبه فلم يتفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره ، وعلمه بأن ما جاء به حق لا يلزم منه أنه مؤمن به ؛ لأن المعرفة علم القلب ، والإيمان عمله ، وهو الانقياد للحق والخضوع له .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴾ أى : فى مقابلة الحق بالباطل ، وهو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى ، عليه السلام ، من المعجزة الباهرة ، ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴾ أى : فى قومه ، ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ أى : انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتكبرين فى الدنيا ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِشْرِ الرِّفْدِ الْمَرْفُودِ ﴾ [هود: ٩٩] ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١] . هذا هو الصحيح

فى معنى الآية، أن المراد بقوله: ﴿ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ أى: الدنيا والآخرة، وقيل: المراد بذلك كلمته الأولى والثانية. وقيل: كفره وعصيانه. والصحيح الذى لا شك فيه الأول. وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ أى: لمن يتعظ وينزجر.

﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا ﴿ (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿ (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿ (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿ (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿ (٣٣)

يقول تعالى محتجاً على منكرى البعث فى إعادة الخلق بعد بدئه: ﴿ أَنْتُمْ ﴾: أيها الناس ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾؟ يعنى: بل السماء أشد خلقاً منكم، كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١]، فقوله: ﴿ بَنَاهَا ﴾، فسرهُ بقوله: ﴿ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ أى: جعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب فى الليلة الظلماء. وقوله: ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى: جعل ليلها مظلماً أسود حالكا، ونهارها مضيئاً مشرقاً نيراً واضحاً. قال ابن عباس: أغطش ليلها: أظلمه. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد ابن جبیر، وجماعة كثيرون. ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى: أثار نهارها. وقوله: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾، فسرهُ بقوله: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾. وقد تقدم فى سورة « حم السجدة » (١) أن الأرض خلقت قبل السماء، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل. وهذا معنى قول ابن عباس، وغير واحد، واختاره ابن جرير. وقوله: ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ أى: قررها وأثبتها وأكدها فى أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرؤوف بخلقه الرحيم. وقوله: ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ أى: دحا الأرض فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأثبت زروعها وأشجارها وثمارها، وثبت جبالها، لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التى يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها فى هذه الدار إلى أن ينتهى الأمد، وينقضى الأجل.

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿ (٣٥) وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿ (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿ (٣٧) وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿ (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿ (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿ (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿ (٤٣) إِلَيْنَا رُبُّكَ مُنْهَبَا ﴿ (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ﴿ (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا لَوْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿ (٤٦)

يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ وهو يوم القيامة . قاله ابن عباس ، سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع ، كما قال تعالى : ﴿ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴾ [القمر: ٤٦] . ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ أى : حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ [الفجر: ٢٣] . ﴿ وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴾ أى : أظهرت للناظرين فرأها الناس عيانا ، ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَفَى ﴾ أى : تَمَرَدَ وَعَتَا ، ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى : قدمها على أمر دينه وأخراه ، ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ أى : فإن مصيره إلى الجحيم ، وإن مطعمه من الزقوم ، ومشربه من الحميم . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ أى : خاف القيام بين يدي الله عز وجل ، وخاف حكم الله فيه ، ونهى نفسه عن هواها ، وردّها إلى طاعة مولاهما ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ أى : منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء .

ثم قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ أى : ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مردّها ومرجعها إلى الله عز وجل ، فهو الذى يعلم وقتها على التعيين ، ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، وقال هاهنا : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ . ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١) . وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ﴾ أى : إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه ، فمن خشى الله وخاف مقامه ووعيده ، اتبعك فأفلح وأنجح ، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك . وقوله : ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أى : إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا ، حتى كأنها عندهم كانت عشيّة من يوم أو ضحى من يوم . قال جويبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ ، أما ﴿ عَشِيَّةً ﴾ : فما بين الظهر إلى غروب الشمس ، ﴿ أَوْ ضُحَاهَا ﴾ : ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار .

وقال قتادة : وقت الدنيا فى أعين القوم حين عاينوا الآخرة .

تفسير سورة عبس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴿٣﴾ أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ ﴿٤﴾
الذِّكْرَى ﴿٥﴾ أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى ﴿٦﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٧﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ﴿٨﴾ وَأَمَّا مَنْ
جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٩﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿١٠﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾
فِي مُحْفٍ مَكْرَمٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش ، وقد طمع في إسلامه ، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم - وكان ممن أسلم قديماً - فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه ، وودَّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك لیتمكن من مخاطبة ذلك الرجل ؛ طمعا ورغبة في هدايته . وعَبَسَ في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه ، وأقبل على الآخر ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴾ ؟ أي : يحصل له زكاة وطهارة في نفسه ، ﴿ أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ أي : يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم ، ﴿ أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ أي : أما الغنى فأنت تتعرض له لعله يهتدى ، ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ﴾ ؟ أي : ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة . ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى ﴾ أي : يقصدك ويؤمك ليهتدى بما تقول له ، ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ أي : تتشاغل . ومن هاهنا أمر الله عز وجل رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف ، والفقر والغنى ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار . ثم الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة . وروى أبو يعلى وابن جرير عن عائشة قالت : أنزلت : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ في ابن أم مكتوم الأعشى ، أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدني . قالت : وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين . قالت : فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ، ويقول : « أترى بما أقول بأساً ؟ » . فيقول : لا . ففي هذا أنزلت : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ . وقد روى الترمذی مثله (١) .

وهكذا ذكر عروة بن الزبير ، ومجاهد ، وأبو مالك ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وغير واحد من السلف والخلف : أنها نزلت في ابن أم مكتوم . والمشهور أن اسمه عبد الله ،

(١) أبو يعلى في المسند (٥ / ٤٣١) وابن جرير في التفسير (٣٠ / ٣٢) والترمذی (٣٣٣١) ، وصححه الألبانی .

ويقال : عمرو . والله أعلم .

وقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أى : هذه السورة ، أو الوصية بالمساواة بين الناس فى إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم . وقال قتادة والسدى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ يعنى : القرآن ، ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أى : فمن شاء ذكر الله فى جميع أموره . ويحتمل عود الضمير على الوحي ؛ لدلالة الكلام عليه .

وقوله : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أى : هذه السورة أو العظة ، وكلاهما متلازم ، بل جميع القرآن ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ أى : معظمة موقرة ﴿ مَرْفُوعَةٍ ﴾ أى : عالية القدر ، ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أى : من الدنس والزيادة والنقص . وقوله : ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن زيد : هى الملائكة . وقال وهب بن منبه : هم أصحاب محمد ﷺ ، وقال قتادة : هم القراء . وقال ابن جريج ، عن ابن عباس : السفرة بالنبطية : القراء . وقال ابن جرير : الصحيح أن السفرة الملائكة ، والسفرة يعنى بين الله وبين خلقه ، ومنه يقال : السفير : الذى يسعى بين الناس فى الصلح والخير . وقال البخارى : سَفَرَةٌ : الملائكة . سَفَرَتْ : أصلحت بينهم . وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله وتأديته كالسفير الذى يصلح بين القوم (١) .

وقوله : ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ أى : خلقهم كريم حسن شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة . ومن هاهنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد . روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق له أجران » . أخرجه الجماعة (٢) .

﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴾ (١٧) مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿ ١٨ ﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿ ١٩ ﴾
ثُمَّ السَّيْلَ يَسْرُهُ ﴿ ٢٠ ﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿ ٢١ ﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿ ٢٢ ﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ ﴿ ٢٣ ﴾
فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿ ٢٤ ﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿ ٢٥ ﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿ ٢٦ ﴾
فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿ ٢٧ ﴾ وَعَبَا وَقَضَا ﴿ ٢٨ ﴾ وَزَيَّنَّاهَا غُلَا ﴿ ٢٩ ﴾ وَحَدَّائِقُ غُلَا ﴿ ٣٠ ﴾
وَفَكَهَهَا وَأَبَّا ﴿ ٣١ ﴾ مَتَاعًا لَّكَ وَلِإِئِمَّتِكَ ﴿ ٣٢ ﴾

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بنى آدم : ﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴾ قال الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانُ ﴾ : لعن الإنسان . وكذا قال أبو مالك . وهذا الجنس الإنسان المكذب ؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند ، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم . قال ابن جريج :

(١) البخارى (٨ / ٦٩١ فتح) .

(٢) المسند (٦ / ٤٨) والبخارى (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨ / ٢٤٤) وأبو داود (١٤٥٤) والترمذى (٢٩٠٤) ، والنسائى فى الكبرى (٨٠٤٧) وابن ماجه (٣٧٧٩) .

﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما أشد كفره ! وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد : أى شىء جعله كافراً ؟ أى : ما حمله على التكذيب بالمعاد . وقال قتادة : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما ألعنه .

ثم بين تعالى له كيف خلّقه الله من الشىء الحقير ، وأنه قادر على إعادته كما بدأه ، فقال : ﴿ مِنْ أَى شَىءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴾ أى : قدر أجله ورزقه وعمله وشقى أو سعيد . ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ﴾ قال ابن عباس : ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه . وكذا قال عكرمة ، والضحاك ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدى ، واختاره ابن جرير . وقال مجاهد : هذه كقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣] أى : بيناه وأوضحناه وسهلنا عليه عمله ، وهكذا قال الحسن ، وابن زيد . وهذا هو الأرجح ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : إنه بعد خلقه له ﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : جعله ذا قبر . والعرب تقول : « قبرت الرجل » : إذا ولى ذلك منه ، وأقبره الله . وعصبت قرن الثور ، وأعصبه الله ، وبترت ذنب البعير وأبتره الله . وقوله : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ أى : بعثه بعد موته ، ومنه يقال : البعث والنشور ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠] ، ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ^(١) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] . وروى ابن أبى حاتم عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ قال : « يأكل التراب كل شىء من الإنسان إلا عَجْبُ ذَنْبِهِ » . قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « مثل حبة خردل منه ينشؤون » . وهذا الحديث ثابت فى الصحيح عن أبى هريرة ، بدون هذه الزيادة ، ولفظه : « كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذَّنْبِ ، منه خلق وفيه يركب » (٢) .

وقوله : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال ابن جرير : يقول : كلا ، ليس الأمر بقول هذا الإنسان الكافر ؛ من أنه قد أدى حق الله عليه فى نفسه وماله ، ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ يقول : لم يؤد ما فُرض عليه من الفرائض لربه عز وجل . ثم روى - هو وابن أبى حاتم - عن مجاهد قوله : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال : لا يقضى أحد أبداً كل ما افترض عليه . وحكاه البغوى ، عن الحسن البصرى ، بنحو من هذا . ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا . والذى يقع لى فى معنى ذلك - والله أعلم - أن المعنى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ أى : بعثه ، ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ أى : لا يفعله الآن حتى تنقضى المدة ، ويفرغ القدر من بنى آدم ممن كتب تعالى له أن سيُوجد منهم ، ويخرج إلى الدنيا ، وقد أمر به تعالى كونا وقدرًا ، فإذا تنهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ فيه امتنان ، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً ، ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾

(١) « ننشرها » : بالراء ، وقد تقدم بيان ذلك فى سورة البقرة .

(٢) البخارى (٤٨١٤) ومسلم (٢٩٥٥ / ١٤١) .

أى : أنزلناه من السماء على الأرض ، ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أى : أسكنناه فيها فدَخل في تَحْوِمِها وتَخَلَّل في أجزاء الحب المودع فيها ، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ، ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ فالحب : كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو : الفصفصة التى تأكلها الدواب رطبة . ويقال لها : القَت أيضا . قال ذلك ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى . وقال الحسن البصرى : القضب : العلف . ﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ : وهو معروف ، وهو آدم وعصيره آدم ، ويستصبح به ، ويدهن به . ﴿ وَنَخْلًا ﴾ يؤكل بلحا بسرا ، ورطبا ، وتَمرا ، ونيثا ، ومطبوخا ، ويعتصر منه رُبُّ وُخل . ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى : بساتين . قال الحسن ، وقتادة : ﴿ غُلْبًا ﴾ : نخل غلاظ كرام . وقال ابن عباس ، ومجاهد : « الحدائق » : كل ما التف واجتمع . وقال ابن عباس أيضا : ﴿ غُلْبًا ﴾ : الشجر الذى يستظل به . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى : طوال . وقال عكرمة : ﴿ غُلْبًا ﴾ أى : غلاظ الأوساط . وفى رواية : غلاظ الرقاب ، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل : والله إنه لأغلب . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ : أما الفاكهة فهو ما يتفكه به من الثمار . قال ابن عباس : الفاكهة : كل ما أكل رطبا . والأب : ما أنبتت الأرض ، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس . وفى رواية عنه : هو الحشيش للبهائم . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبیر ، وأبو مالك : الأب : الكلا . وعن مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد : الأب للبهائم كالفاكهة لبنى آدم . وعن عطاء : كل نبت على وجه الأرض فهو أب . وقال الضحاك : كل شىء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أب . وقال أبو السائب : ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس وتأكل الأنعام . وقال ابن عباس : الأب : الكلا والمرعى . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، وغير واحد . وعن أنس قال : قرأ عمر بن الخطاب ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ قال : عرفنا ما الفاكهة ، فما الأب ؟ فقال : لعمر ك يا بن الخطاب إن هذا لهو التكلف . فهو إسناده صحيح ، وقد رواه غير واحد عن أنس به . هو محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه ، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض ، لقوله : ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ . وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ أى : عيشة لكم ولأنعامكم فى هذه الدار إلى يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ ﴾ (٢٢) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٢٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٢٥) وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ (٢٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٢٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٢٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٢٩) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٣٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٣١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿ (٣٢)

قال ابن عباس : ﴿ الصَّاحَّةُ ﴾ : اسم من أسماء يوم القيامة ، عظمه الله ، وحذره عباده . قال ابن جرير : لعله اسم النفخة فى الصور . وقال البغوى : ﴿ الصَّاحَّةُ ﴾ : يعنى صيحة القيامة ؛

سميت بذلك لأنها تصخّ الأسماع ، أى : تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تُصمّها .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ أى : يراهم ، ويفر منهم ، ويبتعد عنهم ؛ لأن الهول عظيم ، والخطب جليل . قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه ، أى بعل كنت لك ؟ فتقول : نعم البعل كنت ! وتثنى بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإننى أطلبُ إليك اليومَ حسنةً واحدةً تهيبها لى لعلنى أنجو مما ترين . فتقول له : ما أيسر ما طلبتَ ، ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذى تخاف . قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول : يا بنى ، أى والد كنتُ لك ؟ فيثنى بخير . فيقول له : يا بنى ، إننى احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلنى أنجو بها مما ترى . فيقول ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً . يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ . وفى الحديث الصحيح - فى أمر الشفاعة : أنه إذا طلب إلى كل من أولى العزم أن يشفع عند الله فى الخلائق ، يقول : نفسى نفسى ، لا أسأله اليوم إلا نفسى ، حتى إن عيسى ابن مريم يقول : لا أسأله اليوم إلا نفسى ، لا أسأله مريم التى ولدتنى . ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ (١) . قال قتادة : الأحب فالأحب ، والأقرب فالأقرب ، من هول ذلك اليوم .

وقوله : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أى : هو فى شغل شاغل عن غيره . روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة مشاة غرلاً » . قال : فقالت زوجته : يا رسول الله ، أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : « ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » . أو قال : « ما أشغله عن النظر » . وعن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « تحشرون حفاة عراة غرلاً » . فقالت امرأة : أيبصر - أو : يرى - بعضنا عورة بعض ؟ قال : « يا فلانة ، ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » . ثم قال الترمذى : وهذا حديث حسن صحيح (٢) . وروى النسائى عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » . فقالت عائشة : يا رسول الله ، فكيف بالعورات ؟ فقال : « ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » (٣) . انفرد به النسائى .

وقوله : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى : يكون الناس هنالك فريقين : وجوه مسفرة ، أى : مستنيرة ، ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى : مسرورة فرحة من السرور فى قلوبهم ، قد ظهر البشر على وجوههم ، وهؤلاء هم أهل الجنة . ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أى : يعلوها ويغشاها قتر ، أى : سواد . وقال ابن عباس : ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أى : يغشاها سواد الوجوه . وقوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ أى : الكفرة قلوبهم ، الفجرة فى أعمالهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٧] .

(١) مضت أحاديث الشفاعة عند تفسير أول سورة الإسراء . فانظرها .

(٢) الترمذى (٣٣٣٢) . (٣) النسائى (٢٠٨٣) ، وصححه الألبانى .

تفسير سورة التكوير وهي مكية

روى الإمام أحمد : عن ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : « من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ ، و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ . » وهكذا رواه الترمذى (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ (١) ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ (٢) ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ (٣)
﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ (٤) ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ (٥) ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ (٦) ﴿ وَإِذَا
النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ (٧) ﴿ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ ﴾ (٨) ﴿ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (٩) ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ
نُشِرَتْ ﴾ (١٠) ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ (١١) ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ (١٢) ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ (١٣)
﴿ عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ (١٤) ﴿

قال ابن عباس : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ يعني : أظلمت وعنه : ذهب ، وقال مجاهد : اضمحلّت وذهب . وكذا قال الضحاك . وقال قتادة : ذهب ضوءها . وقال سعيد بن جبيرة : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ : غُورَتْ . وقال الربيع بن خثيم : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ يعني : رمى بها . وقال زيد بن أسلم : تقع في الأرض . قال ابن جرير : والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه إلى بعض ، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض ، فمعنى قوله : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ : جمع بعضها إلى بعض ، ثم لفت فرمى بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها . روى عن البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « الشمس والقمر يكوران يوم القيامة » . انفراد به البخارى (٢) .

وقوله : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ أى : انثرت ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انثَرَتْ ﴾ [الانفطار: ٢] ، وأصل الانكدار : الانصباب . قال أبى بن كعب : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينا الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، ففرغت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطيور والوحوش ، فمأجوا بعضهم فى بعض :

(١) المسند (٤٨٠٦) والترمذى (٣٣٣٣) وقال : « حديث حسن غريب » ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٣٢٠٠) .

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال : اختلطت ، ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال : أهملها أهلها ، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال : قالت الجن : نحن نأتيكم بالخبر . قال : فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج ، قال : فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا ، قال فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الرياح فأماتتهم . رواه ابن جرير (١) وهكذا قال مجاهد والربيع بن خثيم ، والحسن البصري ، وأبو صالح ، وحماد بن أبي سليمان ، والضحاك في قوله : ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أى : تناثرت .

وقوله : ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أى : زالت عن أماكنها ونُسفت ، فتركت الأرض قاعاً صفصفاً . وقوله : ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال عكرمة ، ومجاهد : عشار الإبل . قال مجاهد : ﴿عُطِّلَتْ﴾ : تركت وسييت . وقال أبو بن كعب ، والضحاك : أهملها أهلها : وقال الربيع ابن خثيم : لم تحلب ولم تُصَرَّ ، تخلى منها أربابها . وقال الضحاك : تركت لا راعى لها . والمعنى فى هذا كله متقارب . والمقصود : أن العشار من الإبل - وهى : خيارها والحوامل منها التى قد وصلت فى حملها إلى الشهر العاشر ، واحدها : عُشْرَاء ، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع - قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها ، بعد ما كانوا أرغب شئ فيها ، بما دهمهم من الأمر العظيم المفزع الهائل ، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها ، ووقوع مقدماتها . وقيل : بل يكون ذلك يوم القيامة ، يراها أصحابها كذلك ولا سبيل لهم إليها . وقد قيل فى العشار : إنها السحاب يُعْطَلُ عن المسير بين السماء والأرض ، لخراب الدنيا . وقيل : إنها الأرض التى تُعْشَرُ . وقيل : إنها الديار التى كانت تسكن تُعْطَلُ لذهاب أهلها . حكى هذه الأقوال كلها الإمام القرطبي ، ورجح أنها الإبل ، وعزاه إلى أكثر الناس . قلت : بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أى : جمعت . كما قال تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] . قال ابن عباس : يحشر كل شئ حتى الذباب . رواه ابن أبي حاتم . وكذا قال الربيع بن خثيم والسدي ، وغير واحد . وكذا قال قتادة فى تفسير هذه الآية : إن هذه الخلائق موافية فيقضى الله فيها ما يشاء . وقال عكرمة : حشرها : موتها . وقد تقدم عن أبي بن كعب أنه قال : ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ : اختلطت . قال ابن جرير : والأولى قول من قال : ﴿حُشِرَتْ﴾ : جمعت ، قال الله تعالى : ﴿وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ﴾ [ص: ١٩] ، أى : مجموعة .

وقوله : ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال على لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال : البحر . فقال : ما أراه إلا صادقا . ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦] ، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ . وقال ابن عباس وغير واحد : يرسل الله عليها الدبور فتسعرها ، وتصير ناراً تأجج ، وقد تقدم الكلام

على ذلك عند قوله : ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ . وقال مجاهد ، والحسن بن مسلم : ﴿سُجِّرَتْ﴾ : أوقدت . وقال الحسن : يبست . وقال الضحاك ، وقتادة : غاص ماؤها فذهب ولم يبق فيها قطرة . وقال الضحاك أيضا : ﴿سُجِّرَتْ﴾ فجرت . وقال السدى : فتحت وسيرت . وقال الربيع ابن خثيم : ﴿سُجِّرَتْ﴾ : فاضت .

وقوله : ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أى : جمع كل شكل إلى نظيره ، كقوله : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢] . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال : ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة . وقال مجاهد : ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال : الأمثال من الناس جمع بينهم . وكذا قال الربيع بن خثيم والحسن ، وقتادة . واختاره ابن جرير ، وهو الصحيح .

وقوله : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ ، هكذا قراءة الجمهور : ﴿سُئِلَتْ﴾ . والمؤودة هى التى كان أهل الجاهلية يدسونها فى التراب كراهية البنات ، فى يوم القيامة تسأل المؤودة على أى ذنب قتلت ، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها ، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا ؟! وقال ابن عباس : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ أى : سألت . وكذا قال أبو الضحى : « سألت » أى : طلبت بدمها . وعن السدى ، وقتادة ، مثله . وقد وردت أحاديث تتعلق بالمؤودة ، فروى الإمام أحمد عن عائشة ، عن جدّامة (١) بنت وهب - أخت عكاشة - قالت : حضرت رسول الله ﷺ فى ناس وهو يقول : « لقد هممت أن أنهى عن الغيلة ، فنظرت فى الروم وفارس فإذا هم يُغِيلُونَ أولادهم ، ولا يضر أولادهم ذلك شيئا » . ثم سأله عن العزل ، فقال رسول الله ﷺ : « ذلك الواد الخفى ، وهو المؤودة سُئِلَتْ » . ورواه مسلم ورواه أيضا ابن ماجه ، وأبو داود والترمذى ، والنسائى (٢) . وروى أحمد عن حسناء (٣) ابنة معاوية الصريمية ، عن عمها قال : قلت : يا رسول الله ، من فى الجنة ؟ قال : « النبى فى الجنة ، والشهيد فى الجنة ، والمولود فى الجنة ، والمؤودة فى الجنة » (٤) .

وقوله : ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ : قال الضحاك : أعطى كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله . وقال قتادة : صحيفتك يا بن آدم ، تُملَى فيها ، ثم تطوى ، ثم تنشر عليك يوم القيامة ، فليُنظر رجل ماذا يملَى فى صحيفته .

وقوله : ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ قال مجاهد : اجتذبت . وقال السدى : كشفت . وقال الضحاك : تنكشط فتذهب . وقوله : ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ قال السدى : أحميت . وقال قتادة : أوقدت . قال : وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بنى آدم . وقوله : ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْزِلَتْ﴾ قال

(١) فى المطبوعة : « جدّامة » بالذال ، وهى خطأ .

(٢) المسند (٤٣٤ / ٦) ومسلم (١٤٤٢ / ١٤٠) ، وابن ماجه (٢٠١١) وأبو داود (٣٨٨٢) والترمذى (٢٠٧٧) والنسائى (١٠٦ / ٦) .

(٣) فى المطبوعة والمخطوطة : « خنساء » والمثبت من المسند .

(٤) المسند (٥٨ / ٥) والحديث رواه أبو داود (٢٥٢١) ، وصححه الألبانى .

الضحاك ، وأبو مالك ، وقتادة ، والربيع بن خثيم أى : قربت إلى أهلها . وقوله : ﴿ عَلِمْتُ نَفْسًا مَا أَحْضَرْتُ ﴾ : هذا هو الجواب ، أى : إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣] .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ١٥ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ٢٢ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقى الْمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ٢٥ فَأَتَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٢٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٩ ﴾

روى مسلم ، والنسائي عن عمرو بن حريث قال : صليت خلف النبي ﷺ الصبح ، فسمعتة يقرأ : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (١) . وعن علي : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ قال : هي النجوم تخنس بالنهار ، وتظهر بالليل . وكذا روى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم : أنها النجوم . وقال بعض الأئمة : إنما قيل للنجوم : « الخنس » ، أى : فى حال طلوعها ، ثم هى جوار فى فللكها ، وفى حال غيوبتها يقال لها : « كُنَّس » من قول العرب : أوى الظبي إلى كنانة : إذا تغيب فيه . وقال عبد الله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ﴾ قال : بقر الوحش . وكذا قال سعيد بن جبير . وقال العوفي ، عن ابن عباس : هى الظباء . وكذا قال سعيد أيضا ، ومجاهد ، والضحاك . وتوقف ابن جرير فى قوله : ﴿ الْخُنُوسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ ، هل هو النجوم ، أو الظباء وبقر الوحش ؟ قال : ويحتمل أن يكون الجميع مرادا .

وقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴾ فيه قولان : أحدهما : إقباله بظلامه . قال مجاهد : أظلم . وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ . وقال الحسن البصرى : إذا غشى الناس . وقال ابن عباس : ﴿ إِذَا عَسَسَ ﴾ : إذا أدبر . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وكذا قال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : ﴿ إِذَا عَسَسَ ﴾ أى : إذا ذهب فتولى . وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ إِذَا عَسَسَ ﴾ : إذا أدبر . قال لقوله : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أى : أضواء . وعندى أن المراد بقوله : ﴿ عَسَسَ ﴾ : إذا أقبل ، وإن كان يصح استعماله فى الإدبار ، لكن الإقبال هاهنا أنسب ؛ كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل ، وبالفجر وضيائه إذا أشرق ، كما قال :

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ١ ، ٢] ، وقال : ﴿وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ١ ، ٢] ، وقال : ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] ، وغير ذلك من الآيات . وقال كثير من علماء الأصول : إن لفظة « عسعس » تستعمل فى الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك ، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما ، والله أعلم .

وقوله : ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ قال الضحاك : إذا طلع . وقال قتادة : إذا أضاء وأقبل . وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ . وهو المروى عن على . وقال ابن جرير : يعنى : وضوء النهار إذا أقبل وتبين . وقوله : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعنى : إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم ، أى : ملك شريف حسن الخلق ، بهى المنظر ، وهو جبريل ، عليه الصلاة والسلام . قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم . ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ﴾ [فاستوى] ﴿[النجم: ٥ ، ٦] ، أى : شديد الخلق ، شديد البطش والفعل ، ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أى : له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة . قال أبو صالح فى قوله : ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ قال : جبريل يدخل فى سبعين حجاباً من نور بغير إذن ، ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أى : له وجاهة ، وهو مسموع القول مطاع فى الملأ الأعلى . قال قتادة : ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أى : فى السموات ، يعنى : ليس هو من أفناء الملائكة ، بل هو من السادة والأشراف ، معتنى به ، انتخب لهذه الرسالة العظيمة . وقوله : ﴿أَمِينٍ﴾ : صفة لجبريل بالأمانة ، وهذا عظيم جدا أن الرب عز وجل يزكى عبده ورسوله الملكى جبريل كما زكى عبده ورسوله البشرى محمداً ﷺ بقوله : ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ . قال الشعبى ، وميمون بن مهران ، وأبو صالح ، ومن تقدم ذكرهم : المراد بقوله : ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ يعنى : محمداً ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ يعنى : ولقد رأى محمداً جبريل الذى يأتى بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التى خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ أى : البين ، وهى الرؤية الأولى التى كانت بالبطحاء ، وهى المذكورة فى قوله : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ٥ - ١٠] ، كما تقدم تفسير ذلك وتقريره والدليل أن المراد بذلك جبريل ، عليه السلام . والظاهر - والله أعلم - أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء ؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهى الأولى ، وأما الثانية وهى المذكورة فى قوله : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٣ - ١٦] ، فتلك إنما ذكرت فى سورة «النجم» ، وقد نزلت بعد سورة الإسراء .

وقوله : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أى : وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين ، أى : بمتهم . ومنهم من قرأ ذلك بالضاد ، أى : ببخيل ، بل يبذله لكل أحد . قال سفيان بن عيينة : ظنين وضنين سواء ، أى : ما هو بكاذب ، وما هو بفاجر . والظنين : المتهم ، والضنين : البخيل . وقال قتادة : كان القرآن غيباً ، فأنزله الله على محمد ، فما ضنَّ به على

الناس ، بل بَلَّغَهُ ونشره وبذله لكل من أرادَه . وكذا قال عكرمة ، وابن زيد، وغير واحد . واختار ابن جرير قراءة الضاد . قلت : وكلاهما متواتر ، ومعناه صحيح كما تقدم .

وقوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ أى : وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم ، أى : لا يقدر على حمله ، ولا يريده ، ولا ينبغى له . كما قال : ﴿ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢] . وقوله : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ ؟ أى : فأين تذهب عقولكم فى تكذيبكم بهذا القرآن ، مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه حقا من عند الله عز وجل ، كما قال الصديق لوفد بنى حنيفة حين قدموا مسلمين ، وأمرهم فتلوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة الذى هو فى غاية الهذيان والركاكة ، فقال : ويحكم ، أين يُذهب بعقولكم ؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل ، أى : من إله . وقال قتادة : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أى : عن كتاب الله وعن طاعته . وقوله : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى : هذا القرآن ذكر لجميع الناس ، يتذكرون به ويتعظون ، ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ أى : من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن ، فإنه منجاة له وهداية ، ولا هداية فيما سواه ، ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : ليست المشيئة موكولة إليكم ، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل ، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين .

تفسير سورة الانفطار

وهي مكية

روى النسائي عن جابر قال : قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطوّل ، فقال النبي ﷺ : «أفتان يا معاذ !؟ أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى ، والضحي ، وإذا السماء انفطرت !؟» . وأصل الحديث مخرج في الصحيحين (١) ، ولكن ذكر ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ من أفراد النسائي . وتقدم من رواية عبد الله بن عمر ، عن النبي ﷺ قال : « من سرّه أن ينظرَ إلى القيامة رأى عين فليقرأ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّت ﴾ » (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ ﴿ ١ ﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَرت ﴿ ٢ ﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿ ٣ ﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿ ٤ ﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿ ٥ ﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿ ٦ ﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ ﴿ ٧ ﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿ ٨ ﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿ ٩ ﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿ ١٠ ﴾ كِرَامًا كُنِينٍ ﴿ ١١ ﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿ ١٢ ﴾

يقول تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ أى : انشقت ، كما قال : ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل : ١٨] . ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَرت ﴾ أى : تساقطت . ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴾ قال ابن عباس : فجر الله بعضها فى بعض . وقال الحسن : فجر الله بعضها فى بعض ، فذهب ماؤها . وقال قتادة : اختلط ما لحها بعذبها . ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ قال ابن عباس : بُحِثَتْ . وقال السدى : تُبْعَثَرُ : تُحْرَكُ فيخرج من فيها . ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ أى : إذا كان هذا حصل هذا .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ : هذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب ؛ حيث قال : ﴿ الْكَرِيمِ ﴾ ، حتى يقول قائلهم : غره كرمه . بل المعنى فى هذه الآية : ما غرك يا بن آدم بربك الكريم - أى : العظيم - حتى أقدمت على معصيته ، وقابلته بما لا يليق ؟ كما جاء فى الحديث : « يقول الله يوم القيامة : ابن آدم ، ما غرك بى ؟ ابن آدم ، ماذا أجبت المرسلين ؟ » . عن ابن عمر - وقرأ هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ قال : غره - والله - جهله . وروى عن ابن عباس ، والحسن مثل ذلك . وقال قتادة : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ : شىء ما غرّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان . وقال

(١) النسائي فى الكبرى (١١٦٥٢) والبخارى (٧٠٠ ، ٧١١) ومسلم (٤٦٥ / ١٧٨) .

(٢) مضى تخريجه فى أول سورة التكوير .

الفضيل بن عياض : لو قال لى : « ما غرك بى » ، لقلت : ستورك المُرخاة . وقال أبو بكر الوراق : لو قال لى : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ لقلت : غرنى كرم الكريم .

وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أى : ما غرك بالرب الكريم ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أى : جعلك سويًا معتدل القامة منتصبها ، فى أحسن الهيئات والأشكال . روى الإمام أحمد عن بُسر^(١) بن جَحَّاش القرشى : أن رسول الله ﷺ بصق يوما فى كفه ، فوضع عليها إصبعه ، ثم قال : « قال الله عز وجل : ابن آدم ، أننى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى إذا سَوَّيتك وعدلتك ، مشيت بين بردين وللأرض منك وَئِيدٌ ، فجَمَعْتَ ومنَعْتَ ، حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق ، وأننى أوان الصدقة » . وكذا رواه ابن ماجه^(٢) .

وقوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ : قال مجاهد : فى أى شبه أب أو أم أو خال أو عم ؟ وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن امرأتى ولدت غلاماً أسوداً ؟ . قال : « هل لك من إبل ؟ » . قال : نعم . قال : « فما ألونها ؟ » قال : حُمِر . قال : « فهل فيها من أورق ؟ » قال : نعم . قال : « فأنى أتاها ذلك ؟ » قال : عسى أن يكون نَزْعَة عرق . قال : « وهذا عسى أن يكون نزعَة عرق »^(٣) . وقد قال عكرمة فى قوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ : إن شاء فى صورة قرد ، وإن شاء فى صورة خنزير . وكذا قال أبو صالح : إن شاء فى صورة كلب ، وإن شاء فى صورة حمار ، وإن شاء فى صورة خنزير . قال قتادة : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ ، قال : قادر - والله - ربنا على ذلك . ومعنى هذا القول عند هؤلاء : أن الله ، عز وجل ، قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام ، حَسَنَ المنظر والهيئة . وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴾ أى : بل إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصى ، تكذيب فى قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ يعنى : وإن عليكم لملائكة حَفَظَة كراما فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ ١٢ ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ ١٤ ﴿ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ١٥
﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ ١٦ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ١٧ ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ١٨
﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ ١٩

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : « بشر » والمثبت كما فى المسند وابن ماجه . وكلاهما صحيح . انظر المغنى فى ضبط أسماء الرجال لمحمد طاهر الهندي (ص ٣٨ ط . دار الكتاب العربى) .

(٢) المسند (٢١٠ / ٤) وابن ماجه (٢٧٠٧) وفى زوائد البوصيرى : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

(٣) البخارى (٥٣٠٥) ومسلم (١٥٠٠ / ١٨) .

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم ، وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ، ولم يقابلوه بالمعاصي . ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم ؛ ولهذا قال : ﴿ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى : يوم الحساب والجزاء والقيامة ، ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ أى : لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ، ولو يوما واحدا .

وقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة ، ثم أكد بقوله : ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ، ثم فسر بقوله : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ أى : لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه ، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . ونذكر هاهنا حديث : « يا بنى هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار ، لا أملك لكم من الله شيئا » (١) . ولهذا قال : ﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] ، وكقوله : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ [الفرقان : ٢٦] ، وكقوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٤] . قال قتادة : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ ، والأمر - والله - اليوم لله ، ولكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد .

تفسير سورة المطففين

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

روى النسائي وابن ماجه عن ابن عباس قال : لما قدم نبي الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله : ﴿ وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ، فحسنوا الكيل بعد ذلك (١) . فالمراد بالتطفيف هاهنا : البخس في المكيال والميزان ، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قضاهم . ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل ، بقوله : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ أى : من الناس ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أى : يأخذون حقهم بالوفاء والزائد ، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أى : ينقصون . والأحسن أن يجعل « كالوا » و« وزنوا » متعديا ، ويكون هم فى محل نصب ، ومنهم من يجعلها ضميرا مؤكدا للمستتر فى قوله : « كالوا » و« وزنوا » ، ويحذف المفعول للدلالة الكلام عليه ، وكلاهما متقارب .

وقد أمر الله - تعالى - بالوفاء فى الكيل والميزان ، فقال : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥] ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَفِ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ، وقال : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٩] . وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس فى المكيال والميزان . ثم قال تعالى متوعدا لهم : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ؟ أى : أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر ، فى يوم عظيم الهول ، كثير الفرع ، جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل نارا حامية ؟

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : يقومون حفاة عراة غرلا ، فى موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم ، ويغشاهم من أمر الله ما تعجز القوى والحواس عنه . عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حتى يغيب أحدهم فى رشحته إلى أنصاف أذنيه » . رواه البخارى ومسلم (٢) .

(١) النسائي فى الكبرى (١١٦٥٤) وابن ماجه (٢٢٢٣) ، وصححه الألبانى .

(٢) البخارى (٢٨٦٢ ، ٦٥٣١) ومسلم (٢٨٦٢ / ٦٠) .

ولفظ الإمام أحمد عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » : لعظمة الرحمن عز وجل يوم القيامة ، حتى إن العرق ليلجم الرجال إلى أنصاف آذانهم (١) .

وروى الإمام أحمد : عن المقداد - يعنى ابن الأسود الكندى - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد ، حتى تكون قيد ميل أو ميلين ، قال : فتصهرهم الشمس ، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم ، منهم من يأخذه إلى عقبه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبته ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إجماعاً » . رواه مسلم والترمذى (٢) . روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق ، ومنهم من يبلغ إلى ركبته ، ومنهم من يبلغ العجز ، ومنهم من يبلغ الخصرة ، ومنهم من يبلغ منكبيه ، ومنهم من يبلغ وسط فيه - وأشار بيده فألجمها فاه ، رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا - ومنهم من يغطيه عرقه » . وضرب بيده إشارة . انفرد به أحمد (٣) .

وفى حديث : أنهم يقومون سبعين سنة لا يتكلمون . وقيل : يقومون ثلاثمائة سنة . وقيل : يقومون أربعين ألف سنة . ويقضى بينهم فى مقدار عشرة آلاف سنة ، كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة مرفوعاً : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٤) . وفى سنن أبى داود والنسائى وابن ماجه عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان يفتح قيام الليل : يكبر عشراً ، ويحمد عشراً ، ويسبح عشراً ، ويستغفر عشراً ، ويقول : « اللهم اغفر لى واهدنى ، وارزقنى وعافنى » . ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة (٥) .

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينَ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينَ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلُومِذِي الْمَكْدِيبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُقْتَدِرٍ أَشِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ ءَابَتُنَا قَالَ أَسْطِرُّ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى : حقا ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينَ ﴾ أى : إن مصيرهم وماوهم لفي سجين -

(١) المسند (٤٨٦٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (٣١٦) ومسلم (٢٨٦٤ / ٦٢) والترمذى (٢٤٢١) .

(٣) المسند (١٥٧ / ٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٣٨ / ١٠) : « رواه أحمد والطبرانى وإسناد الطبرانى جيد » .

(٤) مسلم (٩٨٧ / ٢٤) .

(٥) أبو داود (٧٦٦) والنسائى (١٦١٧) وابن ماجه (١٣٥٦) وصححه الألبانى .

فَعِيلٌ مِنَ السَّجْنِ ، وَهُوَ الضَّيْقُ - كَمَا يُقَالُ : فَسَيْقٌ وَشَرِيْبٌ وَخَمِيْرٌ وَسَكِيْرٌ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَلِهَذَا عَظُمَ أَمْرُهُ فَقَالَ : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِيْنٌ ﴾ ؟ أَيْ : هُوَ أَمْرٌ عَظِيْمٌ ، وَسَجْنٌ مُقِيْمٌ وَعَذَابٌ أَلِيْمٌ . وَالصَّحِيْحُ أَنَّ «سَجِيْنَا» مَأْخُوْذٌ مِنَ السَّجْنِ ، وَهُوَ الضَّيْقُ ، فَإِذَا الْمَخْلُوْقَاتُ كُلُّ مَا تَسَافَلُ مِنْهَا ضَاقَ ، وَكُلُّ مَا تَعَالَى مِنْهَا اتَّسَعَ ، فَإِنَّ الْأَفْلَاكَ السَّبْعَةَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَوْسَعُ وَأَعْلَى مِنَ الَّذِي دُونَهُ ، وَكَذَلِكَ الْأَرْضُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ أَوْسَعُ مِنَ الَّتِي دُونَهَا ، حَتَّى يَنْتَهَى السُّفُولُ الْمَطْلُوقُ وَالْمَحَلُّ الْأَضْيَاقُ إِلَى الْمَرْكَزِ فِي وَسْطِ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ . وَلَمَّا كَانَ مُصِيْرُ الْفَجَارِ إِلَى جَهَنَّمَ وَهِيَ أَسْفَلُ السَّافِلِيْنَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِيْنَ ﴾ [التين: ٥] قَالَ هَاهُنَا : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِيْنٍ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِيْنٌ ﴾ ، وَهُوَ يَجْمَعُ الضَّيْقَ وَالسُّفُولَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٣] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ لَيْسَ تَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِيْنٌ ﴾ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَفْسِيرٌ لِمَا كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الْمَصِيْرِ إِلَى سَجِيْنٍ ، أَيْ : مَرْقُومٌ مَكْتُوبٌ مَفْرُوعٌ مِنْهُ ، لَا يَزَادُ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ أَحَدٌ ؛ قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ : إِذَا صَارُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَا أَوْعَدَهُمُ اللَّهُ مِنَ السَّجْنِ وَالْعَذَابِ الْمُهِيْنِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَيَلَّ ﴾ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ الْهَلَاكُ وَالْدَّمَارُ ، كَمَا يُقَالُ : وَيَلُّ لِفُلَانٍ . وَكَمَا جَاءَ فِي الْمُسْنَدِ وَالسَّنَنِ مِنْ رَوَايَةِ بَهْزِ بْنِ حَكِيْمٍ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَيَلُّ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فِيكَذِبٍ ، لِيُضْحِكَ النَّاسَ ، وَيَلُّ لَهُ ، وَيَلُّ لَهُ » (١) . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَفْسِرًا لِلْمُكَذِّبِينَ الْفَجَارِ الْكَفَرَةَ : ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أَيْ : لَا يَصْدُقُونَ بِوُقُوعِهِ ، وَلَا يَعْتَقِدُونَ كَوْنَهُ ، وَيَسْتَبْعِدُونَ أَمْرَهُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أَيْ : مُعْتَدٍ فِي أَفْعَالِهِ ؛ مِنْ تَعَاطَى الْحَرَامَ وَالْمَجَاوِزَةَ فِي تَنَاوُلِ الْمُبَاحِ ، وَالْأَثِيمُ فِي أَقْوَالِهِ : إِنْ حَدَّثَ كَذِبًا ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِنْ خَاصَمَ فَجَرَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : إِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ مِنَ الرَّسُولِ يَكْذِبُ بِهِ ، وَيُظَنُّ بِهِ ظَنُّ السُّوءِ ، فَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُفْتَعَلٌ مَجْمُوعٌ مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل: ٢٤] ، وَقَالَ : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥] ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا كَمَا قَالُوا ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، بَلْ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَإِنَّمَا حَجَبَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِيْمَانِ بِهِ مَا عَلَيْهَا مِنَ الرَّيْنِ الَّذِي قَدْ لَبَسَ قُلُوبَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . وَالرَّيْنُ يَعْتَرِي قُلُوبَ الْكَافِرِينَ ، وَالْغَيْمُ لِلْأَبْرَارِ ، وَالْغَيْمُ لِلْمُقَرَّبِينَ . وَقَدْ رَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنْ الْعَبْدُ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نَكْتَةٌ سُودَاءَ فِي قَلْبِهِ ، فَإِنْ تَابَ مِنْهَا صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ :

(١) الْمُسْنَدُ (٥/٥ ، ٧) وَأَبُو دَاوُدَ (٤٩٩٠) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٣١٥) ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ .

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . وقال الترمذى : حسن صحيح . ولفظ النسائى : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة ، فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه ، فهو الران الذى قال الله : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » (١) . وروى أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه ، فإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ، وذاك الران الذى ذكر الله في القرآن : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » (٢) . وقال الحسن البصرى : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب ، فيموت . وكذا قال مجاهد وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ أى : لهم يوم القيامة منزل ونزل سجين ، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم . قال الإمام الشافعى : فى هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ . وهذا الذى قاله الإمام الشافعى ، رحمه الله ، فى غاية الحسن ، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية ، كما دل عليه منطوق قوله : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] . وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة فى رؤية المؤمنين ربهم عز وجل فى الدار الآخرة ، رؤية بالأبصار فى عَرَصات القيامة ، وفى روضات الجنات الفاخرة . قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴾ أى : ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران ، ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ ، والتصغير والتحقير .

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْمُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُ مِسْكِ فِي ذِكِّكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ أَجْلِئِكَ تَسْلِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول تعالى : حقا ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ ﴾ وهم بخلاف الفجار ، ﴿ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴾ أى : مصيرهم إلى عليين ، وهو بخلاف سجين . قال غير واحد : إنها السماء السابعة . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴾ يعنى : الجنة . وفى رواية عنه : أعمالهم فى السماء عند الله . وكذا قال الضحاك . وقال قتادة : عليون : ساق العرش اليمنى . وقال غيره : عليون عند سدرة المنتهى . والظاهر : أن عليين مأخوذ من العلو ، وكلما علا الشئ وارتفع عظم

(١) ابن جرير فى التفسير (٦٢ / ٣٠ ، ٦٣) والترمذى (٢٣١٥) والنسائى (١١٦٥٨ / ١) وابن ماجه (٤٢٤٤) وصححه الألبانى .

(٢) المسند (٧٩٣٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

واتسع ؛ ولهذا قال معظمًا أمره ومفخمًا شأنه : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّونَ ﴾ .
ثم قال مؤكدا لما كتب لهم : ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ . يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، وهم الملائكة ، قاله قتادة .
وقال العوفي ، عن ابن عباس : يشهده من كل سماء مقربوها . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ أى : يوم القيامة هم فى نعيم مقيم ، وجنات فيها فضل عظيم ، ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ وهى : السرر تحت الحجال ، ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ قيل : معناه : ينظرون فى ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذى لا ينقضى ولا يبيد . وقيل : معناه : ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ إلى الله عز وجل .
وهذا مقابلة لما وُصف به أولئك الفجار : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ ، فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله عز وجل وهم على سررهم وفرشهم .

وقوله : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ أى : تعرف إذا نظرت إليهم فى وجوههم نضرة النعيم ، أى : صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة ؛ مما هم فيه من النعيم العظيم .
وقوله : ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ أى : يسقون من خمر من الجنة . والرحيق : من أسماء الخمر .
قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد . وقال ابن مسعود فى قوله : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أى : خلطه مسك . وقال ابن عباس : طيب الله لهم الخمر ، فكان آخر شيء جعل فيها مسك ، ختم بمسك . وكذا قال قتادة والضحاك . وقال إبراهيم والحسن : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أى : عاقبته مسك . وقال مجاهد : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال : طيبه مسك .
وقوله : ﴿ وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ أى : وفى مثل هذا الحال فليتنافس المتنافسون ، وليتباهى ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون ، كقوله : ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١] . وقوله : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ أى : ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم ، أى : من شراب يقال له تسنيم ، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه . قاله أبو صالح والضحاك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَعَيْنَا يُشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى : يشربها المقربون صرفاً ، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وقتادة ، وغيرهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۝١٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٢٠ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝٢١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۝٢٢ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ۝٢٣ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٢٤ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۝٢٥ هَلْ ثَوَابَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٢٦﴾

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا فى الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين ، أى : يستهزئون بهم ويحتقرونهم ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم ، أى : محتقرين لهم ، ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ (١) أى : إذا انقلب ، أى : رجع هؤلاء المجرمون إلى

(١) « فاكهين » : قراءة الجمهور ، وكذا قراءة الحافظ ابن كثير .

منازلهم ، انقلبوا إليها فاكهين ، أى : مهما طلبوا وجدوا ، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم ، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم ، ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ أى : لكونهم على غير دينهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أى : وما بُعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر من أعمالهم وأقوالهم ، ولا كلفوا بهم ؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨-١١١] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ يعنى : يوم القيامة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ أى : فى مقابلة ما ضحك بهم أولئك ، ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ أى : إلى الله عز وجل ، فى مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ، ليسوا بضالين ، بل هم من أولياء الله المقربين ، ينظرون إلى ربهم فى دار كرامته . وقوله : ﴿ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ؟ أى : هل جوزى الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا ؟ يعنى : قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية

عن أبي هريرة أنه قرأ بهم : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ، فسجد فيها ، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها . رواه مسلم والنسائي (١) . وروى البخارى عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ، فسجد ، فقلت له ، فقال : سجدت خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه . وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي (٢) . وقد روى مسلم وأهل السنن عن أبي هريرة قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ و ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ (٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربع ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ١ ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ ٢ ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ ٣ ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ ٤ ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ ٥ ﴿ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمُلْقِيهِ ﴾ ٦ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتْبُهُ بِيَمِينِهِ ﴾ ٧ ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ٨ ﴿ وَنَقَلُبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ ٩ ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتْبُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ ١٠ ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴾ ١١ ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ ١٢ ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ ١٣ ﴿ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَن لَّنْ يَحْجُورَ ﴾ ١٤ ﴿ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ ١٥ ﴿

يقول تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ وذلك يوم القيامة ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أى : استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أى : وحق لها أن تطيع أمره ؛ لأنه العظيم الذى لا يُمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شيء وذل له كل شيء . ثم قال : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أى : بسطت وفرشت ووسعت . روى ابن جرير عن على بن الحسين : أن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة مدَّ الله الأرض مدَّ الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه ، فأكون أول من يدعى ، وجبريل عن يمين الرحمن ، والله ما رآه قبلها ، فأقول : يا رب ، إن هذا أخبرنى أنك أرسلته إلى ؟ فيقول الله عز وجل : صدق . ثم أشفع فأقول : يا رب ،

(١) مسلم (٥٧٨ / ١٠٧) والنسائي فى الكبرى (١١٦٦٠) .

(٢) البخارى (٧٦٦ ، ٧٦٨) ومسلم (٥٧٨ / ١٠٧) وأبو داود (١٤٠٨) والنسائي (٩٦٢) .

(٣) مسلم (٥٧٨ / ١٠٨) وأبو داود (١٤٠٧) والترمذى (٥٧٣) .

عبادك عبدوك فى أطراف الأرض . قال : وهو المقام المحمود « (١) .

وقوله : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أى : ألقى ما فى بطنها من الأموات ، وتخلت منهم .
قاله مجاهد ، وسعيد ، وقتادة ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّت ﴾ كما تقدم .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أى : ساع إلى ربك سعيًا ، وعامل عملاً ، ﴿ فَمَلَأْهِ ﴾ ، ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر . ويشهد له ما رواه أبو داود الطيالسى ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قال جبريل : يا محمد ، عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه » (٢) . ومن الناس من يعيد الضمير على قوله : ﴿ رَبِّكَ ﴾ أى : فملاق ربك ، ومعناه : فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك . وعلى هذا فكلا القولين متلازم . قال ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ يقول : تعمل عملاً تلقى الله به ، خيراً كان أو شراً . وقال قتادة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ : إن كدحك - يا ابن آدم - لضعيف ، فمن استطاع أن يكون كدحه فى طاعة الله فليفعل ، ولا قوة إلا بالله . ثم قال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أى : سهلاً بلا تعسير ، أى : لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله ؛ فإن من حوسب كذلك يهلك لا محالة . روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « من نُوقِشَ الحساب عُدْبٌ » . قالت : فقلت : أليس قال الله : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ؟ ، قال : « ليس ذاك بالحساب ، ولكن ذلك العرض ، من نُوقِشَ الحساب يوم القيامة عذب » . وهكذا رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير (٣) . وروى ابن جرير عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنه ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا معذبا » . فقلت : أليس الله يقول : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ؟ ، قال : « ذاك العرض ، إنه من نُوقِشَ الحساب عُدْبٌ » ، وقال بيده على إصبعه كأنه ينكت . أخرجاه (٤) . وروى أحمد عن عائشة قالت : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول فى بعض صلواته : « اللهم حاسبنى حساباً يسيراً » . فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال : « أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نُوقِشَ الحسابَ يا عائشة يومئذ هلك » . صحيح على شرط مسلم (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أى : ويرجع إلى أهله فى الجنة . قاله قتادة ،

(١) ابن جرير فى التفسير (٧٢ / ٣٠) . ورواه الحاكم فى المستدرک (٥٧٠ / ٥) عن جابر بنحوه ، ثم قال : « صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

(٢) الطيالسى فى المسند (١٧٥٥) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٥٥ / ٢ ، ٢٥٦) : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه زاخر بن سليمان وثقه أحمد وابن معين وأبو داود وتكلم فيه ابن عدى وابن حبان بما لا يضر » .

(٣) المسند (٤٧ / ٦) والبخارى (٤٩٣٩) ومسلم (٢٨٧٦ / ٧٩) والترمذى (٣٣٣٧) وابن جرير فى التفسير (٧٤ / ٣٠) .

(٤) ابن جرير فى التفسير (٧٤ / ٣٠) والبخارى ومسلم السابقان .

(٥) المسند (٤٨ / ٦) .

والضحاك ، ﴿ مَسْرُورًا ﴾ أى : فرحان مغتبطا بما أعطاه الله عز وجل . وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ أى : بشماله من وراء ظهره ، تُثْنَى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك ، ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ أى : خسارا وهلاكًا ، ﴿ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ . إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أى : فرحًا لا يفكر فى العواقب ، ولا يخاف مما أمامه ، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل ، ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ أى : كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته . قاله ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما . والْحَوْرُ : هو الرجوع . قال الله : ﴿ بَلَى إِنْ رَبُّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ يعنى : بلى سيعيده الله كما بدأه ، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها ، فإنه ﴿ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ أى : عليما خبيرًا .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ۝ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ۝ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ ﴾

سجدة

رُوى عن على ، وابن عباس ، وعُبادة بن الصامت ، وأبى هريرة ، وشداد بن أوس ، وابن عمر ، وغيرهم أنهم قالوا : الشفق : الحمرة . فالشفق هو : حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس - كما قاله مجاهد - وإما بعد غروبها - كما هو معروف عند أهل اللغة . قال الخليل بن أحمد : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة ، فإذا ذهب قيل : غاب الشفق . وقال الجوهري : الشفق : بقية ضوء الشمس وحمرةؤها فى أول الليل إلى قريب من العتمة . وكذا قال عكرمة : الشفق الذى يكون بين المغرب والعشاء . وفى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « وقت المغرب ما لم يغب الشفق » (١) .

ففى هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهري والخليل . ولكن صح عن مجاهد أنه قال فى هذه الآية : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ : هو النهار كله . وفى رواية عنه أيضا أنه قال : الشفق : الشمس . رواهما ابن أبى حاتم . وإنما حملة على هذا قرنه بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أى : جمع . كأنه أقسم بالضياء والظلام . وقال ابن جرير : أقسم الله بالنهار مدبراً ، وبالليل مقبلاً . قال ابن جرير : وقال آخرون : الشفق اسم للحمرة والبياض . وقالوا : هو من الأضداد . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : ﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾ : وما جمع . قال قتادة : وما جمع من نجم ودابة . واستشهد ابن عباس بقول الشاعر :

مُسْتَوْسَقَاتُ لَوْ تَجِدْنَ سَائِقًا

قد قال عكرمة : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ يقول : ما ساق من ظلمة ، إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه .

وقوله : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ قال ابن عباس : إذا اجتمع واستوى . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومسروق ، وأبو صالح ، والضحاك ، وابن زيد : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ : إذا استوى . وقال الحسن : إذا اجتمع ، إذا امتلأ . وقال قتادة : إذا استدار . ومعنى كلامهم : أنه إذا تكامل نوره وأبدر ، جعله مقابلاً لليل وما وسق . وقوله : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ روى البخارى عن ابن عباس : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال ، قال هذا نبيكم ﷺ . هكذا رواه البخارى بهذا اللفظ (١) ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبي ﷺ ، كأنه قال : سمعت هذا من نبيكم ﷺ ، فيكون قوله : « نبيكم » مرفوعاً على الفاعلية من « قال » وهو الأظهر ، والله أعلم ، كما قال أنس : لا يأتى عام إلا والذي بعده شر منه ، سمعته من نبيكم ﷺ . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال . وكذا قال عكرمة ومرة الطيب ، ومجاهد ، والحسن ، والضحاك .

ويحتمل أن يكون المراد : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال . قال : هذا ، يعنى المراد بهذا نبيكم ﷺ ، فيكون مرفوعاً على أن « هذا » و « نبيكم » يكونان مبتدأ وخبراً ، والله أعلم . ولعل هذا قد يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة ، كما قال أبو داود الطيالسى وغندر : حدثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قال : محمد ﷺ . ويؤيد هذا المعنى قراءة عمر ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وعامة أهل مكة والكوفة : « لَتَرْكَبُنَّ » بفتح التاء والباء . روى ابن أبى حاتم عن الشعبى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قال : لتركبن يا محمد سماء بعد سماء . وهكذا روى عن ابن مسعود ، ومسروق ، وأبى العالية : ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : سماء بعد سماء . قلت : يعنون ليلة الإسراء .

وقال السدى نفسه : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : أعمال من قبلكم منزلاً بعد منزل . قلت : كأنه أراد معنى الحديث الصحيح : « لتركبن سنن من كان قبلكم ، حذوا القذة بالقذة » ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » (٢) . وهذا محتمل . وقال عبد الله [بن مسعود] : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قال : السماء تنشق ثم تحمر ، ثم تكون لونا بعد لون . وقال سعيد بن جبير : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قال : قوم كانوا فى الدنيا خسيس أمرهم ، فارتفعوا فى الآخرة ، وآخرون كانوا أشرافاً فى الدنيا ، فاتضعوا فى الآخرة . وقال عكرمة : ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال ، فطيماً بعد ما كان رضيعاً ، وشيخاً بعد ما كان شاباً . وقال الحسن البصرى : ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ يقول : حالا بعد حال ، رخاء بعد شدة ، وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر ، وفقراً بعد غنى ، وصحة بعد سقم ، وسقماً بعد صحة .

(٢) مضى تخريجه عند الآية (٣٤) من سورة التوبة .

(١) البخارى (٤٩٤٠) .

ثم قال ابن جرير بعد ما حكى أقوال الناس فى هذه الآية من القراء والمفسرين : والصواب من التأويل قول من قال لَتَرْكَبَنَّ أَنْتَ - يا محمد - حالا بعد حال وأمراً بعد أمر من الشَّدَائِدِ. والمراد بذلك - وإن كان الخطاب إلى رسول الله ﷺ مُوجَّهاً - جَمِيعَ النَّاسِ ، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالاً .

وقوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ أى : فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ؟ وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الرحمن وكلامه - وهو هذا القرآن - لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً ؟ وقوله : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴾ أى : من سجيئتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : يكتُمون فى صدورهم ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : فأخبرهم - يا محمد - بأن الله عز وجل قد أعد لهم عذاباً أليماً .

وقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ : هذا استثناء منقطع ، يعنى : لكن الذين آمنوا ، أى : بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ أى : فى الدار الآخرة ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال ابن عباس : غير منقوص . وقال مجاهد ، والضحاك : غير محسوب . وحاصل قولهما أنه غير مقطوع ، كما قال تعالى : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ ﴾ [هود: ١٠٨] . وقال السدى : قال بعضهم : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ : غير منقوص . وقال بعضهم : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ عليهم . هذا القول الآخر عن بعضهم قد أنكره غير واحد ؛ فإن الله عز وجل له المنة على أهل الجنة فى كل حال وآن ولحظة ، وإنما دخلوها بفضلِهِ ورحمته لا بأعمالهم ، فله عليهم المنة دائماً سرمداً ، والحمد لله وحده أبداً ؛ ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

تفسير سورة البروج وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾

يقسم تعالى بالسماء وبروجها ، وهي : النجوم العظام ، كما تقدم بيان ذلك في قوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١] . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : البروج : النجوم . وعن مجاهد أيضا : البروج التي فيها الحرس . وقال يحيى ابن رافع : البروج : قصور في السماء . وقال المنهال بن عمرو : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ : الخلق الحسن . واختار ابن جرير أنها : منازل الشمس والقمر ، وهي اثنا عشر برجاً ، تسير الشمس في كل واحد منها شهراً ، ويسير القمر في كل واحد يومين وثلاثاً ، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً ، ويستمر ليلتين .

وقوله : ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ . وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ : اختلف المفسرون في ذلك . وروى أحمد عن أبي هريرة أنه قال في هذه الآية : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، والموعود يوم القيامة (١) . وقد روى عن أبي هريرة أنه قال : اليوم الموعود يوم القيامة . وكذلك قال الحسن ، وقتادة ، وابن زيد . ولم أرهم يختلفون في ذلك ، ولله الحمد . وقال مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك : الشاهد : ابن آدم ، والمشهود : يوم القيامة . وعن عكرمة أيضا : الشاهد : محمد ﷺ ، والمشهود : يوم الجمعة . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الشاهد : الله ، والمشهود : يوم القيامة . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : الشاهد : الإنسان . والمشهود : يوم الجمعة .

وروى ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ الشاهد : يوم عرفة ، والمشهود : يوم القيامة . وبه عن سفيان - هو الثوري - عن مغيرة ، عن إبراهيم قال : يوم الذبح ، ويوم عرفة ،

يعنى الشاهد والمشهود. وعن سعيد بن جبير: الشاهد : الله ، وتلا ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ [النساء : ٧٩] ، والمشهود : نحن . حكاة البغوى ، وقال : الأكثرون على أن الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة .

وقوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ أى : لعن أصحاب الأخدود ، وجمعه : أخاديد ، وهى الحفير فى الأرض ، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمّدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله ، عز وجل ، فقهرتهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ، فأبوا عليهم ، فحفروا لهم فى الأرض أخدوداً وأججوا فيه ناراً ، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به ، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم ، فقتلهم فيها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أى : مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ أى : وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذى لا يضام من لاذ بجنابه ، المنيع الحميد فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذى وقع بهم بأيدي الكفار به ، فهو العزيز الحميد ، وإن خفى سبب ذلك على كثير من الناس . ثم قال : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : لا يغيب عنه شيء فى جميع السموات والأرض ، ولا تخفى عليه خافية .

وقد اختلف أهل التفسير فى أهل هذه القصة ، من هم . فعن على : أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم ، فامتنع عليه علماؤهم ، فعمد إلى حفر أخدود فقتل فيه من أنكر عليه منهم ، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم . وعنه : أنهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم ، فغلب مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين ، فخذوا لهم الأخاديد ، وأحرقوهم فيها . وعنه : أنهم كانوا من أهل الحبشة ، ونبههم حبشى . وقال ابن عباس : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ قال : ناس من بنى إسرائيل ، خدّوا أخدوداً فى الأرض ، ثم أوقدوا فيه نارا ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساءً ، فعرضوا عليها ، وزعموا أنه دانيال وأصحابه . وهكذا قال الضحاك بن مزاحم ، وقيل غير ذلك .

وقد روى الإمام أحمد عن صُهَيْب : أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إني قد كبرت سنّي وحضر أجلي ، فادفع إلى غلاما أعلمه السحر . فدفع إليه غلاما فكان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر وبين الملك راهب ، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه ، فأعجبه نحوه وكلامه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال : ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا : ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل : حبسنى أهلى . وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : حبسنى الساحر . قال : فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة ، قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر

الساحر . قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس . ورماها فقتلها ، ومضى الناس . فأخبر الراهب بذلك فقال : أى بُنى ، أنت أفضل منى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على . فكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان جليس للملك فعمى ، فسمع به ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : اشفنى ولك ما ههنا أجمع . فقال : ما أنا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله ، عز وجل ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك . فآمن فدعا الله فشفاه . ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان ، من ردّ عليك بصرك؟ فقال : ربي ؟ فقال : أنا ؟ قال : لا ، ربي وربك الله . قال : ولك رب غيرى ؟ قال : نعم ، ربي وربك الله . فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فبعث إليه فقال : أى بُنى ، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؟ قال : ما أشفى أنا أحداً ، إنما يشفى الله ، عز وجل . قال : أنا ؟ قال : لا . قال : أولك رب غيرى ؟ قال : ربي وربك الله . فأخذه أيضاً بالعذاب ، فلم يزل به حتى دل على الراهب ، فأتى بالراهب فقال : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه ، وقال للأعمى : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض . وقال للغلام : ارجع عن دينك ، فأبى ، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا ، وقال : إذا بلغت ذروته ، فإن رجع عن دينه وإلا فدّدهوه ، فذهبوا به ، فلما علوا به الجبل قال : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فدّدهوا أجمعون . وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . فبعث به مع نفر فى قُرُور فقال : إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه فى البحر . فلججوا به البحر فقال الغلام : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فغرقوا أجمعون ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . ثم قال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما أمرك به ، فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلتنى ، وإلا فإنك لا تستطيع قتلى . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ثم تصلبنى على جذع ، وتأخذ سهماً من كنانتى ثم قل : « بسم الله رب الغلام » ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى . ففعل ، ووضع السهم فى كبد قوسه ثم رماه ، وقال : « بسم الله رب الغلام » . فوقع السهم فى صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام . فقيل للملك : رأيت ما كنت تحذر ؟ فقد - والله - نزل بك ، قد آمن الناس كلهم . فأمر بأفواه السكك فخذّت فيها الأخاديد ، وأضرمت فيها النيران ، وقال : من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها . قال : فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون ، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه ، فكانها تقاعست أن تقع فى النار ، فقال الصبى : اصبرى يا أمه ، فإنك على الحق » وهكذا رواه مسلم والنسائى (١) .

وقد جَوّده الإمام أبو عيسى الترمذى عن صُهَيْب قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر

هَمَسَ - والهَمَسَ فى قول بعضهم : تحريك شفثيه كأنه يتكلم - فقليل له : إنك - يا رسول الله - إذا صليت العصر همست ؟ قال : « إن نبيا من الأنبياء ، كان أعجب بأمرته فقال : من يقوم لهؤلاء ؟ . فأوحى الله إليه أن خيرهم بين أن أنتقم منهم ، وبين أن أسلط عليهم عدوهم . فاختاروا النعمة ، فسَلَّطَ عليهم الموت ، فمات منهم فى يوم سبعون ألفا » . قال : وكان إذا حَدَّثَ بهذا الحديث ، حَدَّثَ بهذا الحديث الآخر قال : كان مَلِكٌ من الملوك ، وكان لذلك الملك كاهن تكهن له ، فقال الكاهن : انظروا لى غلاماً فهما - أو قال : فطناً لَقِناً - فأعلّمه علمى هذا . فذكر القصة بتمامها ، وقال فى آخره : « يقول الله عز وجل : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴾ » حتى بلغ : ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ . قال : فأما الغلام فإنه دفن قال : فيذكر أنه أخرج فى زمان عمر بن الخطاب ، وإصبعه على صُدْغِه كما وضعها حين قتل . ثم قال الترمذى : حسن غريب (١) . وهذا السياق ليس فيه صراحة أن سياق هذه القصة من كلام النبى ﷺ . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المِزى : فيحتمل أن يكون من كلام صُهَيْب الرومى ، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى ، والله أعلم .

وقد أورد ابن إسحاق بن يسار هذه القصة فى السيرة بسياق آخر، فيها مخالفة لما تقدم فقال: حدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظى - وحدثنى أيضاً بعض أهل نجران ، عن أهلها : أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان ، وكان فى قرية من قرأها قريباً من نجران - ونجران هى القرية العظمى التى إليها جماعُ أهل تلك البلاد - ساحرٌ يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزلها فيمُون - ولم يسموه لى بالاسم الذى سماه ابن منبه ، قالوا : رجل نزلها - ابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى فيها الساحر ، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر ، فبعث الثامر ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه ، حتى أسلم فوحد الله وعبده، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم ، وكان يعلمه ، فكتمه إياه وقال له : يا ابن أخى ، إنك لن تحمله ؛ أخشى ضعفك عنه . والثامر أبو عبد الله لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان ، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه ، وتخوف ضعفه فيه ، عمد إلى أقذاح فجمعها ، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه فى قدح ، وكل اسم فى قدح ، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً ثم جعل يقذفها فيها قدحاً قدحاً ، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقذحه ، فوثب القدح حتى خرج منها لم يضره شيء ، فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذى كتبه فقال : وما هو ؟ قال : هو كذا وكذا . قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع . قال : أى ابن أخى ، قد أصبته فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل .

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر إلا قال : يا عبد الله ،

أتوحدُ الله وتدخلُ في ديني وأدعو الله لك فيعافيكَ مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم .
 فيوحد الله ويسلم ، فيدعو الله له فيشفى ، حتى لم يبق بنجران أحد به ضر إلا أتاه ، فاتبعه
 على أمره ودعا له فعوفى ، حتى رُفِع شأنه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال له : أفسدت على أهل
 قريتي ، وخالفت ديني ودين آبائي ، لأمثلنَّ بك . قال : لا تقدر على ذلك . قال : فجعل يرسل
 به إلى الجبل الطويل ، فيطرح على رأسه ، فيقع إلى الأرض ما به بأس ، وجعل يبعث به إلى
 مياه نجران ، بـُحور لا يلقى فيها شيء إلا هلك ، فيلقى به فيها ، فيخرج ليس به بأس . فلما
 غلبه قال له عبد الله بن الثامر : إنك - والله - لا تقدر على قتلى حتى تُوَحِّدَ الله فتؤمن بما آمنت
 به ، فإنك إن فعلت سلطتَ على فقتلتني . قال : فوحدَ الله ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله
 ابن الثامر ، ثم ضربه بعضاً في يده فشجّه شجرة غير كبيرة ، فقتله ، وهلك الملك مكانه .
 واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر - وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم ، عليه
 السلام ، من الإنجيل وحكمه - ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث ، فمن هنالك
 كان أصل دين النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب القرظي وبعض أهل نجران عن عبد الله بن
 الثامر ، والله أعلم أي ذلك كان . قال : فسار إليهم ذو نواس بجنده ، فدعاهم إلى اليهودية ،
 وخيرهم بين ذلك أو القتل ، فاختاروا القتل ، فخذَ الأخدود ، فحرق بالنار وقتل بالسيف
 ومثل بهم ، حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً ، ففى ذى نواس وجنده أنزل الله ، عز
 وجل ، على رسوله ﷺ : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَى مَا
 يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

هكذا ذكر ابن إسحاق في السيرة أن الذي قتل أصحاب الأخدود هو ذو نواس ، واسمه :
 زرعة ، ويسمى في زمان مملكته ييوسف ، وهو ابن تَبَّان أسعد أبي كَرَب ، وهو تَبَّع الذي غزا
 المدينة وكسى الكعبة ، واستصحب معه حبرين من يهود المدينة ، فكان تهود من تهود من أهل
 اليمن على يديهما ، كما ذكره ابن إسحاق مبسوطاً ، فقتل ذو نواس في غداة واحدة في الأخدود
 عشرين ألفاً ، ولم ينج منهم سوى رجل واحد يقال له : دوس ذو ثعلبان ، ذهب فارساً ،
 وطرَدُوا وراءه فلم يُقدَر عليه ، فذهب إلى قيصر ملك الشام ، فكتب إلى النجاشي ملك الحبشة ،
 فأرسل معه جيشاً من نصارى الحبشة يقدمهم أرباط وأبرهة ، فاستنقذوا اليمن من أيدي اليهود ،
 وذهب ذو نواس هارباً فَلَجَّجَ في البحر ، ففرق . واستمر مُلْكُ الحبشة في أيدي النصارى سبعين
 سنة ، ثم استنقذه سيف بن ذى يزن الحميري من أيدي النصارى ، لما استجاش بكسرى ملك
 الفرس ، فأرسل معه من في السجون ، وكانوا قريباً من سبعمائة ، ففتح بهم اليمن ، ورجع
 الملك إلى حمير . وسنذكر طرفاً من ذلك - إن شاء الله - في تفسير سورة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ

رُبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ .

وقال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أنه حدث : أن رجلاً من أهل نجران كان في زمان عمر بن الخطاب ، حَفَرَ خَرَبَةً من خَرِبِ نَجْرَانِ لبعض حاجته ، فوجد عبد الله بن الثامر تحت دَفْنٍ فيها قاعداً ، واضعاً يده على ضربة في رأسه ، ممسكاً عليها بيده ، فإذا أخذت يده عنها ثَعَبَتْ دماً ، وإذا أرسلت يده رُدَّتْ عليها ، فأمسكت دمه ، وفي يده خاتم مكتوب فيه : ربي الله .

فكُتِبَ فيه إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره ، فكتب عمر إليهم : أن أقرّوه على حاله ، وردّوا عليه الدفن الذي كان عليه . ففعلوا (١) .

وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا عن بعض أهل العلم : إن أبا موسى لما افتتح أصبهان وجد حائطاً من حيطان المدينة قد سقط ، فبناه فسقط ، ثم بناه فسقط ، فقبل له : إن تحته رجلاً صالحاً . فحفر الأساس فوجد فيه رجلاً قائماً معه سيف ، فيه مكتوب : أنا الحارث بن مضاض ، نقيمت على أصحاب الأخدود . فاستخرجه أبو موسى ، وبنى الحائط ، فثبت .

قلت : هو الحارث بن مضاض بن عمرو بن مضاض بن عمرو الجرهمي ، أحد ملوك جرهم الذين ولوا أمر الكعبة بعد ولد نَبْتِ بن إسماعيل بن إبراهيم ، وولّد الحارث هذا هو : عمرو بن الحارث بن مضاض هو آخر ملوك جرهم بمكة ، لما أخرجتهم خزاعة وأجلوهم إلى اليمن ، وهو القاتل في شعره الذي قال ابن هشام إنه أول شعر قاله العرب :

كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُّونِ إِلَى الصَّفَا أَنَيْسٌ ، وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ
بَلَى ، نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودُ الْعَوَائِرُ

وهذا يقتضي أن هذه القصة كانت قديماً بعد زمان إسماعيل ، عليه السلام ، بقرب من خمسمائة سنة أو نحوها ، وما ذكره ابن إسحاق يقتضي أن قصتهم كانت في زمان الفترة التي بين عيسى ومحمد ، عليهما من الله السلام ، وهو أشبه ، والله أعلم . وقد يحتمل أن ذلك قد وقع في العالم كثيراً .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي : حَرَقُوا . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن أبيزى . ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ أي : لم يقلعوا عما فعلوا ، ويندموا على ما أسلفوا . ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ ، وذلك أن الجزاء من جنس العمل .

قال الحسن البصري : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يَدْئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم قوى ؛ فإنه تعالى ذو القوة المتين ، الذى ما شاء كان كما يشاء فى مثل لمح البصر ، أو هو أقرب ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يَدْئُ وَيُعِيدُ ﴾ أى : من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ثم يعيده كما بدأه ، بلا ممانع ولا مدافع ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ أى : يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ، ولو كان الذنب من أى شىء كان . و ﴿ الْوَدُودُ ﴾ - قال ابن عباس وغيره : هو الحبيب ، ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ أى : صاحب العرش العظيم العالى على جميع الخلائق . و ﴿ الْمَجِيدُ ﴾ فيه قراءتان : الرفع على أنه صفة للرب ، عز وجل . والجر على أنه صفة للعرش ، وكلاهما معنى صحيح . ﴿ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴾ أى : مهما أراد فعله ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ؛ لعظمته وقهره وحكمته وعدله ، كما روينا عن أبى بكر الصديق أنه قيل له - وهو فى مرض الموت : هل نظر إليك الطيب ؟ قال : نعم . قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال لى : إنى فعال لما أريد .

وقوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ . فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ أى : هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس ، وأنزل عليهم من النعمة التى لم يردّها عنهم أحد ؟ وهذا تقرير لقوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديداً ، أخذ عزيز مقتدر . وقوله : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ أى : هم فى شك وريب وكفر وعناد ، ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ أى : هو قادر عليهم ، قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه ، ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴾ أى : عظيم كريم ، ﴿ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ أى : هو فى الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل . وقال الحسن البصرى : إن هذا القرآن المجيد عند الله فى لوح محفوظ ، ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه .

تفسير سورة الطارق

وهي مكية

روى عبد الله ابن الإمام أحمد عن خالد بن أبي جبيل العدواني : أنه أبصر رسول الله ﷺ في مُشرقٍ ثَقِيف وهو قائم على قوس - أو : عصا - حين أتاهم يبتغي عندهم النصر ، فسمعه يقول : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ، حتى ختمها - قال : فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك ، ثم قرأتها في الإسلام - قال : فدعنتني ثَقِيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم ، فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم ما يقول حقا لاتبعناه (١) . وروى النسائي عن جابر قال : صلى معاذ المغرب ، فقرأ البقرة والنساء ، فقال النبي ﷺ : « أفتان يا معاذ ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسما والطارق ، والشمس وضحاها ، ونحو هذا ؟ » (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ٣ إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا ٤ حَافِظٌ ٥ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ٦ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ٧ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ٨ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ٩ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ١٠ فَاَلَمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ١١

يقسم تعالى بالسما وما جعل فيها من الكواكب النيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ ، ثم فسره بقوله : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ . قال قتادة وغيره : إنما سمى النجم طارقا ؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفى بالنهار . ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح : نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا (٣) ، أى : يأتيهم فجأة بالليل .

وقوله : ﴿ الثَّاقِبُ ﴾ قال ابن عباس : المضيء . وقال السدي : يثقب الشياطين إذا أرسل عليها . وقال عكرمة : هو مضيء ومحرق للشيطان .

وقوله : ﴿ إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أى : كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات ، كما قال تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ الآية [الرعد: ١١] . وقوله : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ : تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذى خلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ؛ لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ، كما قال :

(١) المسند (٤ / ٣٣٥) وقال الهيثمي فى الزوائد (٧ / ١٣٩) : « عبد الرحمن ذكره ابن أبى حاتم ولم يجرحه أحد وبقيّة رجاله ثقات » .

(٢) النسائي فى الكبرى (١١٦٦٤) ، ورواه البخارى (٧٠٥) بلفظ قريب منه .

(٣) البخارى (٥٢٤٣) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] . وقوله : ﴿ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ يعنى : المنى ؛ يخرج دَفَقاً من الرجل ومن المرأة ، فيتولد منهما الولد بإذن الله ، عز وجل ؛ ولهذا قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ يعنى : صلب الرجل وترائب المرأة ، وهو صدرها . وعن ابن عباس : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ : صلب الرجل وترائب المرأة ، أصفر رقيق ، لا يكون الولد إلا منهما . وكذا قال سعيد بن جبيرة ، وعكرمة ، وقتادة والسُّدِّي ، وغيرهم . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ قال : هذه الترائب . ووضع يده على صدره . وقال الضحاك وعطية ، عن ابن عباس : تربية المرأة موضع القلادة . وكذا قال عكرمة ، وسعيد ابن جبيرة . وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الترائب : بين ثدييها . وعن مجاهد : الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر . وعنه أيضا : الترائب أسفل من التراقي . وعن قتادة : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ : من بين صلبه ونحره .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : على رجوع هذا الماء الدافق إلى مقره الذى خرج منه لقادر على ذلك . قاله مجاهد ، وعكرمة ، وغيرهما .

والقول الثانى : إنه على رجوع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق ، أى : إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر ؛ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة .

وقد ذكر الله ، عز وجل ، هذا الدليل فى القرآن فى غير ما موضع ، وهذا القول قال به الضحاك ، واختاره ابن جرير ، ولهذا قال : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ أى : يوم القيامة تبلى فيه السرائر ، أى : تظهر وتبدو ، ويبقى السر علانية والمكنون مشهورا . وقد ثبت فى الصحيحين ، عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « يرفع لكل غادر لواء عند استه » ، يقال : هذه غَدْرَةٌ فلان بن فلان « (١) .

وقوله : ﴿ فَمَا لَهُ ﴾ أى : الإنسان يوم القيامة ﴿ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ أى : فى نفسه ﴿ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ أى : من خارج منه ، أى : لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ، ولا يستطيع له أحد ذلك .

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۚ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۚ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٢﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزِيلٌ ﴿١٣﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٤﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٥﴾ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ آمِهْلَهُمْ رُودًا ﴿١٦﴾ ﴾

قال ابن عباس : الرجع : المطر . وعنه : هو السحاب فيه المطر . وعنه : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ : تمطر ثم تمطر . وقال قتادة : ترجع رزق العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا وهلك مواشيهم . وقال ابن زيد : ترجع نجومها وشمسها وقمرها ، يأتين من هاهنا . ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ

الصدع ﴿ قال ابن عباس : هو انصداعها عن النبات . وكذا قال سعيد بن جبّير ، وعكرمة ، وقتادة ، وغير واحد .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴾ : قال ابن عباس : حق . وكذا قال قتادة . وقال آخر : حكم عدل . ﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ أى : بل هو حق جد .

ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله ، فقال : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ أى : يمكرون بالناس فى دعوتهم إلى خلاف القرآن . ثم قال : ﴿ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : أنظرهم ولا تستعجل لهم ، ﴿ أَمْهَلُهُمْ رُويْدًا ﴾ أى : قليلا . أى : وترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك ، كما قال : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤] .

تفسير سورة سبح

وهي مكية

والدليل على ذلك ما رواه البخارى عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجعلنا يُقرئنا القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد . ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين . ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله ﷺ قد جاء ، فما جاء حتى قرأت : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ فى سور مثلها (١) . وثبت فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » (٢) . وروى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير : أن رسول الله ﷺ قرأ فى العيدين بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعا . وقد رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، وابن ماجه ، ولفظ مسلم وأهل السنن : كان يقرأ فى العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، وربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأهما (٣) . وقد روى الإمام أحمد فى مسنده من حديث أبى بن كعب ، وعبد الله ابن عباس ، وعبد الرحمن ابن أبزى ، وعائشة أم المؤمنين : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى الوتر بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ - زادت عائشة : والمعوذتين (٤) . وهكذا روى هذا الحديث من طريق جابر وأبى أمامة صدق بن عجلان ، وعبد الله بن مسعود ، وعمران بن حصين ، وعلى بن أبى طالب ، ولولا خشية الإطالة لأوردنا ما تيسر من أسانيد ذلك ومتونه ولكن فى الإرشاد بهذا الاختصار كفاية ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (١) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِى أَخْرَجَ
الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا
يَخْفَى (٧) وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذِكْرٌ لِّىَ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠)
وَيَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿ (١٣) ﴾

ربع

(٢) البخارى (٥٠٧) ومسلم (٤٦٥ / ١٧٨) .

(١) البخارى (٤٩٤١) .

(٣) المسند (٤ / ٢٧١) ومسلم (٦٢ / ٨٧٨) وأبو داود (١١٢٢) والترمذى (٥٣٣) والنسائى (١٥٦٨) وابن ماجه (١٢٨١) .

(٤) المسند (٥ / ١٢٣) عن أبى ، (٢٧٢٠) عن ابن عباس ، (٤٠٦ / ٣) عن ابن أبزى ، (٢٢٧ / ٦) عن عائشة . وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

عن عبد خير قال : سمعت عليا قرأ : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، فقال : سبحان ربى الأعلى . وروى ابن جرير : أن ابن عباس كان إذا قرأ : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، يقول : سبحان ربى الأعلى ، وإذا قرأ : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [القيامة: ١] فأتى على آخرها : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ [القيامة: ٤٠] يقول : سبحانك وبلى (١) .

وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ أى : خلق الخليقة وسوى كل مخلوق فى أحسن الهيئات .
وقوله : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة ، وهدى الأنعام لمراتعها . وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠] أى : قدر قدرا ، وهدى الخلائق إليه ، كما ثبت فى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قَدَّرَ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » (٢) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ أى : من جميع صنوف النباتات والزرع ، ﴿ فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى ﴾ قال ابن عباس : هشيما متغيرا . وعن مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ، نحوه .
وقوله : ﴿ سَنَقِرُكَ ﴾ أى : يا محمد ﴿ فَلَا تَنْسَى ﴾ . وهذا إخبار من الله ، عز وجل ، ووعد منه له ، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها ، ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ . وهذا اختيار ابن جرير . وقال قتادة : كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئا إلا ما شاء الله . وقيل : المراد بقوله : ﴿ فَلَا تَنْسَى ﴾ : طلب ، وجعل معنى الاستثناء على هذا ما يقع من النسخ ، أى : لا تنسى ما نقرئك إلا ما شاء الله رفعه ؛ فلا عليك أن تتركه . وقوله : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ أى : يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم ، لا يخفى عليه من ذلك شيء . وقوله : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ أى : نسهل عليك أفعال الخير وأقواله ، ونشرع لك شرعا سهلا سمحا مستقيما عدلا ، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر .

وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَقَتِ الذِّكْرَى ﴾ أى : ذكّر حيث تنفع التذكرة . ومن هاهنا يؤخذ الأدب فى نشر العلم ، فلا يضعه عند غير أهله ، كما قال أمير المؤمنين على : ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم . وقال : حدث الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟! وقوله : ﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ أى : سيتعظ بما تبلغه - يا محمد - من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه ، ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ أى : لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه ، بل هى مضرة عليه ؛ لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب ، وأنواع النكال . روى الإمام أحمد عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها لا يموتون ولا يحيون ، وأما أناس يريد الله بهم الرحمة فيميتهم فى النار فيدخل عليهم الشفعاء ، فيأخذ الرجل أنصاره فينبتهم - أو قال : ينبتون - فى نهر الحياة -

أو قال : الحياة - أو قال : الحيوان - أو قال : نهر الجنة فينبتون - نبات الحبة في حميل السيل .
قال : وقال النبي ﷺ : « أما ترون الشجرة تكون خضراء ، ثم تكون صفراء أو قال : تكون صفراء ثم تكون خضراء ؟ » . قال : فقال بعضهم : كأن النبي ﷺ كان بالبادية (١) .

وروى أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أناس - أو كما قال - تصيبهم النار بذنوبهم - أو قال : بخطاياهم - فيميتهم إماتة ، حتى إذا صاروا فحما أذن في الشفاعة ، فجاء بهم ضبائر ضبائر ، فَنَبَتُوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ، فيقال : يا أهل الجنة ، اقْبِضُوا عَلَيْهِمْ . فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل » . قال : فقال رجل من القوم حينئذ : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية .
ورواه مسلم (٢) . ورواه أحمد أيضا عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال : « إن أهل النار الذين لا يريد الله إخراجهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وإن أهل النار الذين يريد الله إخراجهم يميتهم فيها إماتة ، حتى يصيروا فحماً ، ثم يخرجون ضبائر فيلقون على أنهار الجنة ، فيرش عليهم من أنهار الجنة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل » (٣) .

وقد قال الله إخبارا عن أهل النار : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الزخرف : ٧٧] ، وقال تعالى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر : ٣٦] . إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ١٤ ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ ١٥ ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ١٦ ﴿ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ١٧ ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ١٨ ﴿ صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ١٩ ﴿

يقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ أى : طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة ، وتابع ما أنزل الله على الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ أى : أقام الصلاة في أوقاتها ؛ ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتنالا لشرع الله . وكذا قال ابن عباس : إن المراد بذلك الصلوات الخمس . واختاره ابن جرير . وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر ، ويتلو هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ . وقال أبو الأحوص : إذا أتى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة ، فليقدم بين يدي صلاته زكاته ، فإن الله يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ . وقال قتادة في هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ : زكى ماله وأرضى خالقه .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى : تقدمونها على أمر الآخرة ، وتبدونها على

(١) المسند (٥ / ٣) وابن ماجه (٤٣٠٩) ، وصححه الألبانى .

(٢) المسند (١١ / ٣) ومسلم (٣٠٦ / ١٨٥) . (٣) المسند (٢٠ / ٣) ومسلم (٣٠٦ / ١٨٥) .

ما فيه نفعكم وصلاحكم في معاشكم ومعادكم ، ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أى : ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، فإن الدنيا دنية فانية ، والآخرة شريفة باقية ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ، ويهتم بما يزول عنه قريباً ، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد ؟! روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دارٌ من لا دارَ له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » (١) . وروى ابن جرير عن عرفة الثقفي قال : استقرأت ابن مسعود : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ فلما بلغ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ترك القراءة ، وأقبل على أصحابه وقال : آثرنا الدنيا على الآخرة . فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأننا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل (٢) . وهذا منه على وجه التواضع والهضم ، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو ، والله أعلم . وقد روى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري : أن رسول الله ﷺ قال : « من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنيته ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » . تفرد به أحمد (٣) .

وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ قال النبي ﷺ : « كان كل هذا - أو : كان هذا - في صحف إبراهيم وموسى » (٤) . ثم قال : لا نعلم أسند الثقات عن عطاء بن السائب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس غير هذا ، وحديثاً آخر أورده قبل هذا . وروى النسائي عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قال : كلها في صحف إبراهيم وموسى ، فلما نزلت : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم : ٣٧] قال : وفى ﴿ أَلَا تَرَى وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى ﴾ [النجم : ٣٨] (٥) . يعنى أن هذه الآية كقوله في سورة « النجم » : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى . أَلَا تَرَى وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى . وَأَنَّ لِيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى . وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ [النجم : ٣٦ : ٤٢] . . . الآيات إلى آخرهن . وقال أبو العالية : قصة هذه السورة في الصحف الأولى . واختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ إشارة إلى قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ، ثم قال : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أى : مضمون هذا الكلام ﴿ لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ (٦) . وهذا اختيار حسن قوى . وقد روى عن قتادة وابن زيد ، نحوه . والله أعلم .

(١) المسند (٧١/٦) وقال الهيثمي في الزوائد (٢٩١/١٠) : « رجاله رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة » .

(٢) ابن جرير في التفسير (١٠٠/٣٠) .

(٣) المسند (٤١٢/٤) وقال الهيثمي في الزوائد (٢٥٢/١٠) : « رواه أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات » .

(٤) البزار في المسند (٢٢٨٥ كشف الأستار) وقال الهيثمي في الزوائد (١٤٠/٧) : « فيه عطاء بن السائب وقد اختلط ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٥) النسائي في الكبرى (١١٦٦٨) ، والحاكم في المستدرک (٤٧٠/٢) وقال : « حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي .

(٦) ابن جرير في التفسير (١٠١/٣٠) .

تفسير سورة الغاشية

وهي مكية

قد تقدم عن النعمان بن بشير : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ ب ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ، والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة (١) . وروى الإمام مالك : أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير : بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ . ورواه أبو داود والنسائي . ورواه مسلم وابن ماجه (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ﴿١﴾ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ ﴿٢﴾ ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ ﴿٣﴾ ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ ﴿٤﴾ ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَاطِيَةٍ﴾ ﴿٥﴾ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ ﴿٦﴾ ﴿لَا يُسَمِّنُ وَلَا يَقْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ ﴿٧﴾

الغاشية : من أسماء يوم القيامة . قاله ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد ؛ لأنها تغشى الناس وتعمهم .

وقوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ أى : ذليلة . قاله قتادة . وقال ابن عباس : تخشع ولا ينفعها عملها .

وقوله : ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أى : قد عملت عملاً كثيراً ، ونصبت فيه ، وصليت يوم القيامة ناراً حامية . وقال البخارى : قال ابن عباس : ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ : النصارى . وعن عكرمة ، والسدى : ﴿عَامِلَةٌ﴾ فى الدنيا بالمعاصى ﴿نَاصِبَةٌ﴾ فى النار بالعذاب والأغلال . قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ أى : حارة شديدة الحر ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَاطِيَةٍ﴾ أى : قد انتهى حرها وغليانها . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، والسدى .

وقوله : ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : شجر من نار . وقال سعيد بن جبير : هو الزقوم . وعنه : أنها الحجارة . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو الجوزاء ، وقتادة : هو الشبرق . قال قتادة : قريش تسميه فى الربيع : الشبرق ، وفى الصيف : الضريع . قال عكرمة : وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض . وقال البخارى : قال مجاهد :

(١) مضى تخريجه فى أول سورة الأعلى .

(٢) مالك فى الموطأ (١١١/١) وأبو داود (١١٢٣) والنسائي (١٤٢٣) ورواه مسلم (٨٧٨/٦٢) وابن ماجه (١١١٩) .

الضريعُ نبتٌ يقال له: الشَّبْرُقُ ، يسميه أهل الحجاز : الضريعَ إذا يبس ، وهو سم (١). وقوله : ﴿ لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ يعنى : لا يحصل به مقصود ، ولا يندفع به محذور .

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ (٨) ﴿ لِسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ﴾ (٩) ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ (١٠) ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَفِيَةً ﴾ (١١) ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ (١٢) ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ (١٣) ﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ (١٤) ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ (١٥) ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (١٦)

لما ذكر حال الأشقياء ، ثنى بذكر السعداء فقال : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ أى : يعرف النعيم فيها . وإنما حصل لها ذلك بسعيها . وقال سفيان : ﴿ لِسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ﴾ : قد رضيت عملها .

وقوله : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أى : رفيعة بهية فى الغرفات آمنون ، ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَفِيَةً ﴾ أى : لا تسمع فى الجنة التى هم فيها كلمة لغو . كما قال : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ﴾ [مريم: ٦٢] ، وقال : ﴿ لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣] ، وقال : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥ ، ٢٦] . ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أى : سارحة . وهذه نكرة فى سياق الإثبات ، وليس المراد بها عينا واحدة ، وإنما هذا جنس ، يعنى : فيها عيون جاريات . عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : « أنهار الجنة تفجر من تحت تلال - أو : من تحت جبال - المسك » (٢) . ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ أى : عالية ناعمة كثيرة الفرش ، مرتفعة السمك ، عليها الحور العين ﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ يعنى : أوانى الشرب معدة مُرصدة لمن أرادها من أربابها ، ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ قال ابن عباس : النمارق : الوسائد . وكذا قال عكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى ، والثورى ، وغيرهم . وقوله : ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ قال ابن عباس : الزرابى : البسط . وكذا قال الضحاك ، وغير واحد . ومعنى مَبْثُوثَةٌ ، أى : هاهنا وهاهنا لمن أراد الجلوس عليها .

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (١٧) ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ (١٨) ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ (١٩) ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (٢٠) ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (٢١) ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (٢٢) ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ (٢٣) ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ (٢٤) ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ (٢٥) ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ (٢٦)

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر فى مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ؟ فإنها خلق عجيب ، وتركيبها غريب ، فإنها فى غاية القوة والشدة ، وهى مع ذلك تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل ، وينتفع بوبرها ، ويشرب

لبنها . ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ، وكان شريح القاضي يقول : إخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ؟ أى : كيف رفعها الله ، عز وجل ، عن الأرض هذا الرفع العظيم ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦] .

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أى : جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن . ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أى : كيف بسطت ومدت ومهدت ، فنبه البدوى على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذى هو راكب عليه ، والسماء التى فوق رأسه ، والجبل الذى تجاهه ، والأرض التى تحته - على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك ، وأنه الإله الذى لا يستحق العبادة سواه . وهكذا أقسم « ضِمَام » فى سؤاله على رسول الله ﷺ ، كما رواه الإمام أحمد عن أنس قال : كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء ، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمد ، إنه أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك . قال : « صدق » . قال : فمن خلق السماء ؟ قال : « الله » . قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « الله » . قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : « الله » . قال : فبالذى خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال ، آله أرسلك ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا . قال : « صدق » . قال : فبالذى أرسلك ، آله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة فى أموالنا ؟ قال : « صدق » . قال : فبالذى أرسلك ، آله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا . قال : « صدق » . قال : ثم ولى فقال : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن شيئا . فقال النبى ﷺ : « إن صدق ليدخلن الجنة » . وقد رواه مسلم ، وعلقه البخارى ، ورواه الترمذى والنسائى (١) . ورواه الإمام أحمد والبخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن أنس ، به بطوله ، وقال فى آخره : « وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر » (٢) .

وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ أى : فذكر - يا محمد - الناس بما أرسلت به إليهم ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ؛ ولهذا قال : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما : لست عليهم بجبار . وقال ابن زيد : لست بالذى تكرههم على الإيمان . وروى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم

(١) المسند (١٤٣/٣) ومسلم (١٠/١٢) . ورواه البخارى (١٤٨/١ فتح) والترمذى (٦١٩) والنسائى فى الكبرى (٢٤٠١) .

(٢) المسند (١٦٨/٣) والبخارى (٦٣) وأبو داود (٤٨٦) والنسائى فى الكبرى (٢٤٠٢) وابن ماجه (١٤٠٢) .

على الله عز وجل . ثم قرأ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ . وهكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى بهذه الزيادة (١) . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من رواية أبى هريرة ، بدون ذكر هذه الآية (٢) .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ أى : تولى عن العمل بأركانه ، وكفر بالحق بجنانه ولسانه . وهذه كقوله : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى . وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [القيامة : ٣١ ، ٣٢] . ولهذا قال : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ . روى الإمام أحمد : أن أبا أمامة الباهلى مرّ على خالد بن يزيد بن معاوية ، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا كلّمكم يدخل الجنة ، إلا من شردّ على الله شراد البعير على أهله » . تفرد بإخراجه الإمام أحمد (٣) . وقوله : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أى : مرجعهم ومنقلبهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ أى : نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

(١) المسند (٣٠٠ / ٣) ومسلم (٣٣ / ٢١) والترمذى (٣٣٤١) والنسائى فى الكبرى (١١٦٧٠) .

(٢) البخارى (٢٩٤٦) ومسلم (٣٤ / ٢١) .

(٣) المسند (٢٥٨ / ٥) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٤٠٦ / ١٠) : « رجاله رجال الصحيح غير على بن خالد الدولى وهو ثقة » .

تفسير سورة الفجر

وهي مكية

روى النسائي عن جابر قال : صلى معاذ صلاةً ، فجاء رجل فصلى معه فطَوَّل ، فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذاً فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى ، فقال : يا رسول الله ، جئت أصلي معه فطَوَّل عَلىَّ ، فانصرفت واصلتُ في ناحية المسجد ، فعلفت ناضحى . فقال رسول الله ﷺ : « أَفَتَأْنِ يا معاذ ؟ أين أنت من ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ و ﴿ الشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴾ و ﴿ الْفَجْر ﴾ و ﴿ اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْر ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ ۝٣ وَاللَّيْلَ إِذَا يَسِرَ ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَارِ ۝١٠ الَّذِينَ طَفَوْا فِي الْبَلَدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾

أما الفجر فمعروف ، وهو : الصبح . قاله على ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والسدى . وعن مسروق ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب : المراد به فجر يوم النحر خاصة ، وهو خاتمة الليالي العشر . وقيل : المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده ، كما قاله عكرمة . وقيل : المراد به جميع النهار . وهو رواية عن ابن عباس .

والليالي العشر : المراد بها عشر ذى الحجة . كما قاله ابن عباس ، وابن الزبير ، ومجاهد ، وغير واحد من السلف والخلف . وقد ثبت في صحيح البخارى ، عن ابن عباس مرفوعاً : « ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام » - يعنى عشر ذى الحجة - قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله ، إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشيء » (٢) . وقيل : المراد بذلك العشر الأول من المحرم . والصحيح القول الأول .

وقوله : ﴿ وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ ﴾ : قيل : الوتر يوم عرفة ، لكونه التاسع ، وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر . وقاله ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك أيضاً .

قول ثان : عن واصل بن السائب قال : سألت عطاء عن قوله : ﴿ وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ ﴾ قلتُ :

(٢) البخارى (٩٦٩) .

(١) النسائي فى الكبرى (١١٦٧٣) .

صلاتنا وترنا هذا ؟ قال : لا ، ولكن الشفع يوم عرفة ، والوتر ليلة الأضحى .

قول ثالث : عن عبد الله بن الزبير قال : الشفع قول الله ، عز وجل : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ، والوتر قوله : ﴿ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٢٠٣] . وفي الصحيحين من رواية أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسع وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » (١) .

قول رابع : قال الحسن البصرى ، وزيد بن أسلم : الخلق كلهم شفع ، ووتر ، أقسم تعالى بخلقه . وهو رواية عن مجاهد ، والمشهور عنه الأول . وقال ابن عباس : ﴿ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ ﴾ قال : الله وتر واحد ، وأنتم شفع . ويقال : الشفع صلاة الغداة ، والوتر : صلاة المغرب .

قول خامس : عن مجاهد : ﴿ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ ﴾ قال : الشفع الزوج ، والوتر : الله عز وجل . وعنه : الله الوتر ، وخلقه الشفع ، الذكر والأنثى . وعنه : ﴿ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ ﴾ : كل شيء خلقه الله شفع ، السماء والأرض ، والبر والبحر ، والجن والإنس ، والشمس والقمر ، ونحو هذا . ونحا مجاهد فى هذا ما ذكره فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] أى : لتعلموا أن خالق الأزواج واحد .

قول سادس : قال قتادة ، عن الحسن : ﴿ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ ﴾ : هو العدد ، منه شفع ومنه وتر .

قول سابع : قال أبو العالية ، والربيع بن أنس ، وغيرهما : هى الصلاة ، منها شفع كالرباعية والثنائية ، ومنها وتر كالمغرب ، فإنها ثلاث ، وهى وتر النهار . وكذلك صلاة الوتر فى آخر التهجد من الليل .

ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال فى الشفع والوتر .

وقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ قال : ابن عباس : أى إذا ذهب . وقال عبد الله بن الزبير : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ : حتى يذهب بعضه بعضا . وقال مجاهد ، وأبو العالية ، وقتادة ، ومالك ، عن زيد بن أسلم وابن زيد : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ إذا سار . وهذا يمكن حمله على ما قاله ابن عباس ، أى : ذهب . ويحتمل أن يكون المراد إذا سار ، أى : أقبل . وقد يقال : إن هذا أنسب ؛ لأنه فى مقابلة قوله : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ ، فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل ، فإذا حمل قوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، على إقباله كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار ، وبالعكس ، كقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَفَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكويد : ١٧ ، ١٨] . وكذا قال الضحاك : ﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾ أى : يجرى . وقال عكرمة : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ يعنى : ليلة جمع . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ أى : لذى عقل ولب وحجا ودين ، وإنما سمي العقل حجراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطى ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ، ومنه حجر البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامى . ومنه حجر اليمامة ، وحجر الحاكم على فلان : إذا منعه التصرف ، ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٢] ، كل هذا من قبيل واحد ، ومعنى متقارب ، وهذا القسم هو بأوقات العبادة ، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التى يتقرب بها إليه عباده المتقون المطيعون له ، الخائفون منه ، المتواضعون لديه ، الخاشعون لوجهه الكريم .

ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ ، وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين ، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله ، جاحدين لكتبه . فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم ، وجعلهم أحاديث وعبراً ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ وهؤلاء عاد الأولى ، وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح ، قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً ، عليه السلام ، فكذبوه وخالفوه ، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم ، وأهلكهم بريح صرصر عاتية ، ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧ ، ٨] . وقد ذكر الله قصتهم فى القرآن فى غير ما موضع ، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون . فقوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : عطف بيان ؛ زيادة تعريف بهم .

وقوله : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التى ترفع بالأعمدة الشداد ، وقد كانوا أشد الناس فى زمانهم خلقة وأقواهم بطشا ، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة ربهم الذى خلقهم ، فقال : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ [لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ] (١) ﴾ [الاعراف: ٦٩] . وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥] ، وقال هاهنا : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ أى : القبيلة التى لم يخلق مثلها فى بلادهم ، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم . قال مجاهد : إرم : أمة قديمة . يعنى : عادا الأولى ، كما قال قتادة بن دعامة ، والسدّى : إن إرم بيت مملكة عاد . وهذا قول حسن جيد قوى . وقال مجاهد ، وقتادة ، والكلبى فى قوله : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : كانوا أهل عمود لا يقيمون . وقال ابن عباس : إنما قيل لهم : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ لطولهم . واختار الأول ابن جرير ، ورد الثانى فأصاب .

وقوله : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ : أعاد ابن زيد الضمير على العماد ؛ لارتفاعها ، وقال : بنوا عمداً بالأحقاف لم يخلق مثلها فى البلاد . وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على

(١) فى المطبوعة والمخطوطة بدلها : « ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » وهو خطأ .

القبيلة، أى : لم يخلق مثل تلك القبيلة فى البلاد ، يعنى فى زمانهم . وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف ؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال : التى لم يعمل مثلها فى البلاد، وإنما قال : ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ . قلت : فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها ، أو أعمدة بيوتهم للبدو ، أو سلاحا يقاتلون به ، أو طول الواحد منهم - فهم قبيلة وأمة من الأمم ، وهم المذكورون فى القرآن فى غير ما موضع ، المقرونون بشمود كما هاهنا ، والله أعلم . وقال ابن إسحاق : كانوا عربا ، وكان منزلهم بواى القرى . وقد ذكرنا قصة « عاد » مستقصاة فى سورة « الأعراف » بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ قال ابن عباس : الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره . ويقال : كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم فى أوتاد من حديد يعلقهم بها . وكذا قال مجاهد : كان يوتد الناس بالأوتاد . وهكذا قال سعيد بن جبير ، والحسن ، والسدى . ﴿الَّذِينَ طَفَّوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ أى : تمردوا وعتوا وعاثوا فى الأرض بالإفساد والأذية للناس ، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أى : أنزل عليهم رجزا من السماء ، وأحل بهم عقوبة لا يردّها عن القوم المجرمين . وقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِرٌ صَادٍ﴾ قال ابن عباس : يسمع ويرى . يعنى : يرصد خلقه فيما يعملون ، ويجازى كلا بسعيه فى الدنيا والأخرى ، وسيعرض الخلائق كلهم عليه ، فيحكم فيهم بعدله ، ويقابل كلا بما يستحقه . وهو المنزه عن الظلم والجور .

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى منكراً على الإنسان فى اعتقاده إذا وسع الله عليه فى الرزق ليختبره فى ذلك ، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك ، بل هو ابتلاء وامتحان . كما قال تعالى : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] . وكذلك فى الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه فى الرزق ، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له . قال الله : ﴿كَلَّا﴾ أى : ليس الأمر كما زعم ، لا فى هذا ولا فى هذا ، فإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المدار فى ذلك على طاعة الله فى كل من الحالين ، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك ، وإذا كان فقيراً بأن يصبر .

وقوله : ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ فيه أمر بالإكرام له ، وروى أبو داود عن سهل - يعنى ابن سعد - أن رسول الله ﷺ قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » . وقرن بين إصبعيه :

الوسطى والتي تلى الإبهام (١) . ﴿ وَلَا تَحْضُونْ (٢) عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ يعنى : لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ، ويحث بعضهم على بعض فى ذلك ، ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ﴾ يعنى : الميراث ﴿ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ أى : من أى جهة حصل لهم ، من حلال أو حرام ، ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أى : كثيراً - زاد بعضهم : فاحشا .

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (١١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (١٢) وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (١٣) يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (١٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ (١٥) وَلَا يُوثِقُ وِثْقُهُ أَحَدٌ (١٦) يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (١٧) أَرْجَى إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً (١٨) فَأَدْخِلْنِي عِبْدِي (١٩) وَأَدْخِلْنِي جَنَّتِي (٢٠) ﴾

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة، فقال : ﴿ كَلَّا ﴾ أى : حقا ﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ أى : وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم، ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ يعنى : لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ ، بعدما يسألون أولى العزم من الرسل واحداً بعد واحد ، فكلهم يقول : لست بصاحب ذاكم ، حتى تنتهى النوبة إلى محمد ﷺ فيقول : « أنا لها ، أنا لها » . فيذهب فيشفع عند الله فى أن يأتى لفصل القضاء فيشفعه الله فى ذلك ، وهى أول الشفاعات، وهى المقام المحمود كما تقدم بيانه فى سورة « سبحان » (٣) ، فيجىء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً .

وقوله : ﴿ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ : روى الإمام مسلم عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » . وهكذا رواه الترمذى (٤) . وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ ﴾ أى : عمله وما كان أسلفه فى قديم دهره وحديثه ، ﴿ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ أى : وكيف تنفعه الذكرى ؟ ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ يعنى : يندم على ما كان سلف منه من المعاصى - إن كان عاصياً - ويود لو كان ازداد من الطاعات - إن كان طائعاً - كما روى الإمام أحمد بن حنبل عن محمد بن أبى عميرة - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ - قال : لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هَرَمًا فى طاعة الله ، لَحَقِرَهُ يوم القيامة ، ولودَّ أنه يُرَدَّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب (٥) .

(١) أبو داود (٥١٥٠) . ورواه البخارى (٦٠٠٥) .

(٢) « تحضون » : هى قراءة الجمهور ، وكذا هى قراءة الحافظ ابن كثير .

(٣) عند الآية (٧٩) . (٤) مسلم (٢٨٤٢ / ٢٩) والترمذى (٢٥٧٣) .

(٥) المسند (١٨٥ / ٤) ، وصححه الهيثمى فى الزوائد (١ / ٥٤) .

قال الله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴾ أى : ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ، ﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا ﴾ أى : وليس أحد أشد قبضاً ووثقا من الزبانية لمن كفر بربهم ، عز وجل ، هذا فى حق المجرمين من الخلائق والظالمين . فأما النفس الزكية المطمئنة وهى الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ أى : إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده فى جنته ، ﴿ رَاضِيَةً ﴾ أى : فى نفسها ﴿ مَرْضِيَّةً ﴾ أى : قد رضى عن الله ورضى عنها وأرضاها ، ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ أى : فى جملتهم ، ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ . وهذا يقال لها عند الاحتضار ، وفى يوم القيامة أيضا ، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره ، وكذلك هاهنا .

ثم اختلف المفسرون فىمن نزلت هذه الآية، فروى عن ابن عباس : نزلت فى عثمان بن عفان . وعن بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب : نزلت فى حمزة بن عبد المطلب . وقال ابن عباس : يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ ، يعنى : صاحبك ، وهو بدنها الذى كانت تعمره فى الدنيا ، ﴿ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾ . وروى عنه أنه كان يقرؤها : « فادخلى فى عبدى وادخلى جنتى » . وكذا قال عكرمة والكلبى ، واختاره ابن جرير ، وهو غريب ، والظاهر الأول ؛ لقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ٦٢] ، ﴿ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ [غافر: ٤٣] أى : إلى حكمه والوقوف بين يديه . وعن سعيد بن جبیر قال : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طير لم ير على خلقه ، فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجا منه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر ، ما يدرى من تلاها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ . رواه الطبرانى (١) . وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر الهروى - المعروف بشكّر - فى كتاب « العجائب » بسنده عن قُبَاث بن رزین أبى هاشم قال : أسرت فى بلاد الروم ، فجمعنا الملك وعرض علينا دينه ، على أن من امتنع ضربت عنقه . فارتد ثلاثة ، وجاء الرابع فامتنع ، فضربت عنقه ، وألقى رأسه فى نهر هناك ، فرسب فى الماء ثم طفا على وجه الماء ، ونظر إلى أولئك الثلاثة فقال : يا فلان ، ويا فلان ، ويا فلان - يناديهم بأسمائهم - قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ . ثم غاص فى الماء ، قال : فكادت النصارى أن يسلموا ، ووقع سرير الملك ، ورجع أولئك الثلاثة إلى الإسلام . قال : وجاء الفداء من عند الخليفة أبى جعفر المنصور فخلصنا .

(١) الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠ / ٢٩٠) وقال الهيثمى فى الزوائد (٩ / ٢٨٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

تفسير سورة البلد

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿ وَالْوَالِدِ وَمَا وَلَدَ ﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَمْ عَيْنَيْنِ ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾

ربع

هذا قسم من الله تبارك وتعالى بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حالا ؛ لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها . قال مجاهد : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ : لا رد عليهم ؛ أقسم بهذا البلد . وقال ابن عباس : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ يعني : مكة ، ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ قال : أنت - يا محمد - يحل لك أن تقابل به . وكذا روى عن سعيد بن جبير ، وقتادة . وقال مجاهد : ما أصبت فيه فهو حلال لك . وقال قتادة : ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ قال : أنت به من غير حرج ولا إثم . وقال الحسن البصري : أحلها الله له ساعة من نهار . وهذا المعنى الذي قالوه قد ورد به الحديث المتفق على صحته : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرامٌ بحُرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعَصَّدُ شجره ولا يختلى خلاه . وإنما أحلت لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب » . وفي لفظ آخر : « فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم » (١) .

وقوله : ﴿ وَالْوَالِدِ وَمَا وَلَدَ ﴾ قال ابن عباس : الوالد : الذي يلد ، وما ولد : العاقر الذي لا يولد له . وقال عكرمة : الوالد : العاقر ، وما ولد : الذي يلد . وقال مجاهد ، وقتادة ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصري ، وغيرهم : يعني بالوالد آدم ، وما ولد ولده . وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسنٌ قوى ؛ لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهي المساكن أقسم بعده بالسكن ، وهو آدم أبو البشر وولده . وقال أبو عمران الجوني : هو إبراهيم وذريته . رواه ابن جرير . واختار ابن جرير أنه عام في كل والد وولده .

وقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ : روى عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وعكرمة ،

(١) البخارى (١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٨٣٢ ، ٤٢٩٥) ومسلم (١٣٥٣ / ٤٤٥) .

ومجاهد، وغيرهم : يعنى منتصباً - زاد ابن عباس فى رواية عنه - فى بطن أمه . والكبد : الاستواء والاستقامة . ومعنى هذا القول : لقد خلقنا الإنسان سوياً مستقيماً كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار: ٦، ٧] ، وكقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤] . وقال ابن عباس : فى كبد ، قال : فى شدة خلق ، ألم تر إليه . . . وذكر مولده ونبات أسنانه . وقال مجاهد : ﴿ فى كبد ﴾ : نطفة ، ثم علقه ، ثم مضغة يتكبد فى الخلق ، قال مجاهد : وهو كقوله : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ [الأحقاف: ١٥] ، وأرضعته كرها ، ومعيشته كره ، فهو يكابد ذلك . وقال سعيد بن جبیر : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ : فى شدة وطلب معيشة . وقال عكرمة : فى شدة وطول . وقال قتادة : فى مشقة . واختار ابن جرير أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها .

وقوله : ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ : قال الحسن البصرى : يعنى أيعسب أن لن يقدر عليه أحد يأخذ ماله . وقال قتادة : ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ قال : ابن آدم يظن أن لن يسأل عن هذا المال : من أين اكتسبه؟ وأين أنفقه؟ وقال السدى : ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ قال : الله عز وجل .

وقوله : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴾ أى : يقول ابن آدم : أنفقت مالا لبدا ، أى : كثيراً . قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم . ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ قال مجاهد : أى أيعسب أن لم يره الله عز وجل . وكذا قال غيره من السلف .

وقوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ أى : يبصر بهما ، ﴿ وَلِسَانًا ﴾ أى : ينطق به ، فيُعبّر عما فى ضميره ، ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام ، وجمالاً لوجهه وفمه .

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ : الطريقين عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : الخير والشر . وكذا روى عن على ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة . ونظير هذه الآية قوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢، ٣] .

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ ١١ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ ١٢ ﴿ فَكُ رَقَبَةً ﴾ ١٣ ﴿ أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ ١٤ ﴿ بَيْنَمَا ذَا مَقَرَبَةٍ ﴾ ١٥ ﴿ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ ١٦ ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ ١٧ ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمُنْمَنَةِ ﴾ ١٨ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ ١٩ ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴾ ٢٠

عن ابن عمر فى قوله : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ قال : جبل فى جهنم . وقال كعب الأحبار : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ : هو سبعون درجة فى جهنم . وقال الحسن البصرى : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ قال : عقبة فى جهنم . وقال قتادة : إنها قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله عز وجل . وقال قتادة : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ . ثم أخبر عن اقتحامها فقال : ﴿ فَكُ رَقَبَةً . أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ . وقال ابن زيد :

﴿ اتَّخَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ أى: أفلا سلك الطريق التى فيها النجاة والخير. ثم بينها فقال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُ رَقَبَةً . أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ . قرئ: ﴿ فَكُ رَقَبَةً ﴾ بالإضافة، وقرئ على أنه فعل، وفيه ضمير الفاعل والرقبة مفعوله وكلتا القراءتين معناهما متقارب .

روى الإمام أحمد عن سعيد بن مرجانة : أنه سمع أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب منها إرباً منه من النار ، حتى إنه ليعتق باليد اليد ، وبالرجل الرجل ، وبالفرج الفرج » . فقال على بن الحسين : أنت سمعتَ هذا من أبى هريرة ؟ فقال سعيد : نعم . فقال على بن الحسين لغلام له - أفره غلماناه : ادعُ مطرفاً . فلما قام بين يديه قال : اذهب فانت حر لوجه الله . ورواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى، من طرق . وعند مسلم أن هذا الغلام الذى أعتقه على ابن الحسين زين العابدين كان قد أعطى فيه عشرة آلاف درهم (١) . وروى أحمد : أن شرحبيل بن السمط قال لعمر بن عبسة : حدثنا حديثاً ليس فيه تزيد ولا نسيان . قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاهه من النار ، عضواً بعضو . ومن شاب شيبة فى سبيل الله ، كانت له نورا يوم القيامة ، ومن رمى بسهم فبلغ فأصاب أو أخطأ ، كان كمعتق رقبة من بنى إسماعيل » . وروى أبو داود والنسائى بعضه (٢) . وروى أحمد عن عمرو بن عبسة السلمى قال : قلت له : حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهم . قال : سمعته يقول : « من ولد له ثلاثة أولاد فى الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث ، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، ومن شاب شيبة فى سبيل الله كانت له نورا يوم القيامة ، ومن رمى بسهم فى سبيل الله ، بلغ به العدو ، أصاب أو أخطأ ، كان له عتق رقبة . ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار ، ومن أنفق زوجين فى سبيل الله ، فإن للجنة ثمانية أبواب ، يدخله الله من أى باب شاء منها » (٣) . وهذه أسانيد جيدة قوية ، ولله الحمد .

وقوله : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ قال ابن عباس : ذى مجاعة . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وغير واحد . والسَّغَبُ : هو الجوع . وقال إبراهيم النخعي : فى يوم الطعام فيه عزيز . وقال قتادة : فى يوم يُشْتَهَى فيه الطعام . وقوله : ﴿ يَتِيمًا ﴾ أى : أطعم فى مثل هذا اليوم يتيماً ، ﴿ ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أى : ذا قرابة منه . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، والحسن ، والضحاك ، والسدى . كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن سليمان بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم اثنتان ، صدقة وصلة » . وقد رواه الترمذى والنسائى ، وهذا إسناد صحيح (٤) .

(١) المسند (٢ / ٤٢٢) والبخارى (٢٥٤٧، ٦٧١٥٥) ومسلم (١٥٠٩ / ٢١) والترمذى (١٥٤١) والنسائى فى الكبرى (٤٨٧٥) .

(٢) المسند (٤ / ١١٣) وأبو داود (٣٩٩٦) والنسائى فى الكبرى (٤٨٨٥ ، ٤٨٨٦) ، وصححه الألبانى .

(٣) المسند (٤ / ٣٨٦) .

(٤) المسند (٤ / ٢١٤) والترمذى (٦٥٨) والنسائى (٩٢ / ٥) وقال الترمذى : « حديث حسن » .

وقوله : ﴿ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أى : فقيراً مُدَقِّعاً لاصقاً بالتراب ، وهو الدقعاء أيضاً . قال ابن عباس : ﴿ ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ هو المطروح فى الطريق ، الذى لا بيت له ، ولا شىء يقيه من التراب - وفى رواية : هو الذى لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة ، ليس له شىء - وفى رواية عنه : هو البعيد التربة . قال ابن أبى حاتم : يعنى الغريب عن وطنه . وقال عكرمة : هو الفقير المديون المحتاج . وقال سعيد ابن جبیر : هو الذى لا أحد له . وقال ابن عباس ، وسعيد ، وقتادة ، ومقاتل بن حیان : هو ذو العيال . وكل هذه قريبة المعنى .

وقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة ، مؤمنٌ بقلبه ، محتسب ثواب ذلك عند الله عز وجل . كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] وقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ الآية [النحل: ٩٧] . وقوله : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ أى : كان من المؤمنين العاملين صالحاً ، المتواصين بالصبر على أذى الناس ، وعلى الرحمة بهم . كما جاء فى الحديث : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » (١) . وفى الحديث الآخر : « لا يَرْحَمَ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ » (٢) . وقوله : ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين .

ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أى : أصحاب الشمال ، ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ أى : مطبقة عليهم ، فلا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها . قال أبو هريرة ، وابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، ومجاهد : ﴿ مُؤَصَّدَةٌ ﴾ أى : مطبقة - قال ابن عباس : مغلقة الأبواب . وقال مجاهد : أصد الباب بلغة قريش : أى أغلقه . وسيأتى فى ذلك حديث فى سورة : ﴿ وَيَلْ لَّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ ﴾ . وقال الضحاك : ﴿ مُؤَصَّدَةٌ ﴾ : حيط لا باب له . وقال قتادة : ﴿ مُؤَصَّدَةٌ ﴾ : مطبقة فلا ضوء فيها ولا فرج ، ولا خروج منها آخر الأبد .

(١) المسند (٦٤٩٤) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) مسلم (٢٣١٩ / ٦٦) .

تفسير سورة الشمس وضحاها

وهي مكية

تقدم حديث جابر الذي في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ الشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ و ﴿ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ ؟ » (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ١٠

قال مجاهد : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ أى : وضوئها . وقال قتادة : ﴿ وَضُحَاهَا ﴾ : النهار كله . قال ابن جرير : والصواب أن يقال : أقسم الله بالشمس ونهارها ؛ لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار . ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ﴾ قال مجاهد : تبعها . وقال ابن عباس : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ﴾ قال : يتلو النهار . وقال قتادة : ﴿ إِذَا تَلَّهَا ﴾ ليلة الهلال ، إذا سقطت الشمس روى الهلال . وقال ابن زيد : هو يتلوها فى النصف الأول من الشهر ، ثم هى تتلوه . وهو يتقدمها فى النصف الأخير من الشهر . وقال زيد بن أسلم : إذا تلاها ليلة القدر .

وقوله : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴾ قال مجاهد : أضاء . وقال قتادة : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴾ : إذا غشيها النهار . قال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى : والنهار إذا جلا الظلمة ، لدلالة الكلام عليها . قلت : ولو أن هذا القائل تأول ذلك بمعنى ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴾ أى : البسيطة ، لكان أولى ، ولصح تأويله فى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ ، فكان أجود وأقوى ، والله أعلم . ولهذا قال مجاهد : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴾ إنه كقوله : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل: ٢] . وأما ابن جرير فاختار عود الضمير فى ذلك كله على الشمس ، لجرى ذكرها . وقالوا فى قوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ يعنى : إذا يغشى الشمس حين تغيب ، فتظلم الآفاق .

وقوله : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ : يحتمل أن تكون « ما » هاهنا مصدرية ، بمعنى : والسماء وبنائها ، وهو قول قتادة . ويحتمل أن تكون بمعنى « من » يعنى : والسماء وبانيها . وهو قول مجاهد ، وكلاهما متلازم ، والبناء هو الرفع ، كقوله : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ أى : بقوة ﴿ وَإِنَّا

(١) مضى الحديث وتخرجه أول سورة الأعلى .

لَمُوسِعُونَ . وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿ ٤٨ ٤٧ : [الذاريات : ٤٨ ، ٤٧] . وهكذا قوله : ﴿ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا ﴾ قال مجاهد : ﴿ طَحَاهَا ﴾ : دحاهها . وقال ابن عباس : ﴿ وَمَا طَحَاهَا ﴾ أى : خلق فيها . وقال : ﴿ طَحَاهَا ﴾ : قسمها . وقال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : ﴿ طَحَاهَا ﴾ : بسطها . وهذا أشهر الأقوال ، وعليه الأكثر من المفسرين ، وهو المعروف عند أهل اللغة ، قال الجوهري : طحوته مثل دحوته ، أى : بسطته .

وقوله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ أى : خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم : ٣٠] . وقال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » . أخرجاه من رواية أبى هريرة (١) . وفى صحيح مسلم من رواية عياض ابن حمار المجاشعى ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم » (٢) .

وقوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ أى : فأرشدها إلى فجورها وتقواها ، أى : بين لها ذلك ، وهداها إلى ما قدر لها . قال ابن عباس : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ : بين لها الخير والشر . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والثورى . وقال سعيد بن جبیر : ألهمها الخير والشر . وقال ابن زيد : جعل فيها فجورها وتقواها . وروى ابن جرير عن أبى الأسود الدبلى قال : قال لى عمران بن حصين : رأيت ما يعمل فيه الناس ويتكادحون فيه ، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ ، وأكدت عليهم الحجة ؟ قلت : بل شيء قضى عليهم . قال : فهل يكون ذلك ظلماً ؟ قال : ففرغت منه فزعاً شديداً ، قال : قلت له : ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . قال : سددك الله ، إنما سألت لأخبر عقلت ، إن رجلاً من مزيّنة - أو جهينة - أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، رأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون ، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق ، أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ، وأكدت به عليهم الحجة ؟ قال : « بل شيء قد قضى عليهم » . قال : فقيم نعمل ؟ قال : « من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهيئه لها ، وتصديق ذلك فى كتاب الله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ » . رواه أحمد ومسلم (٣) .

وقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ : يحتمل أن يكون المعنى : قد أفلح من زكى نفسه ، أى : بطاعة الله - كما قال قتادة - وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل . ويروى نحوه عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد ابن جبیر . وكقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [الأعلى : ١٤ ، ١٥] .

(١) البخارى (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨ / ٢٢) . (٢) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) .

(٣) ابن جرير فى التفسير (١٣٥ / ٣٠) والمسند (٤٣٨ / ٤) ومسلم (٢٦٥٠ / ١٠) .

﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ أى : دسها ، أى : أحمّلها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى ، حتى ركب المعاصى وترك طاعة الله عز وجل . وقد يحتمل أن يكون المعنى : قد أفلح من زكى الله نفسه ، وقد خاب من دسّى الله نفسه ، كما قال عن ابن عباس .

وروى الطبرانى عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ وقف ، ثم قال : « اللهم آت نفسي تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وخير من زكاها » (١) . وروى الإمام أحمد عن عائشة : أنها فقّدت النبی ﷺ من مضجعه ، فلمسته بيدها ، فوقعت عليه وهو ساجد ، وهو يقول : « رب ، أعط نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » تفرد به (٢) . وروى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم ، إني أعوذ بك من العجز والكسل والهزم ، والجبن والبخل وعذاب القبر . اللهم ، آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها . اللهم ، إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، وعلم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها » . قال زيد : كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن . رواه مسلم (٣) .

﴿ كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَنِهَا ﴾ (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم ، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغى . وقال محمد بن كعب : ﴿ بِطَغْوَاهَا ﴾ أى : بأجمعها . والأول أولى ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . فأعقبهم ذلك تكذيباً فى قلوبهم بما جاءهم به رسولهم من الهدى واليقين . ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ أى : أشقى القبيلة ، هو قدار بن سالف عاقر الناقة ، وهو أحيمر ثمود ، وهو الذى قال تعالى : ﴿ فَنادوا أصحابهم فطعنا طعاً فمقر ﴾ [القمر : ٢٩] . وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم ، شريفاً فى قومه ، نسيباً رئيساً مطاعاً ، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن زمعة قال : خطب رسول الله ﷺ ، فذكر الناقة ، وذكر الذى عقرها ، فقال : « ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ : انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه ، مثل زمعة » . ورواه البخارى ومسلم ، والترمذى والنسائى (٤) .

وقوله : ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ يعنى : صالحاً ، عليه السلام : ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾ أى : احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ، ﴿ وَسُقْيَاهَا ﴾ أى : لا تعتدوا عليها فى سقياها ، فإن لها شرب يوم

(١) الطبرانى فى المعجم الكبير (١١ / ١٠٦) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ١٤١) : « إسناده حسن » .

(٢) المسند (٦ / ٢٠٩) . (٣) المسند (٤ / ٣٧١) ومسلم (٢٧٢٢ / ٧٣) .

(٤) المسند (٤ / ١٧) والبخارى (٤٩٤٢) ومسلم (٢٨٥٥ / ٤٩) والترمذى (٣٣٤٣) والنسائى فى الكبرى (١١٦٧٥) .

ولكم شرب يوم معلوم . قال الله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ أى : كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التى أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ، ﴿ فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى : غضب عليهم ، فدمر عليهم ، ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أى : فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء . قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنشاهم ، فلما اشترك القوم فى عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها .

وقوله : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ . قال ابن عباس : لا يخاف الله من أحد تبعة . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وبكر بن عبد الله المزنى ، وغيرهم . وقال الضحاك والسدى : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ أى : لم يخف الذى عقرها عاقبة ما صنع والقول الأول أولى ؛ لدلالة السياق عليه ، والله أعلم .

تفسير سورة الليل

وهي مكية

تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ : « فهلا صليت بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، و﴿ الشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴾ ، و﴿ اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ ؟ » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ (١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَمَا مَنَ أَعْطَى وَآلَقَى (٥) وَصَدَقَ بِالْحَقِّ (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْفَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) ﴿

روى الإمام أحمد عن علقمة : أنه قدم الشام فدخل مسجد دمشق ، فصلى فيه ركعتين وقال : اللهم ، ارزقني جليساً صالحاً . قال : فجلس إلى أبي الدرداء ، فقال له أبو الدرداء : ممن أنت ؟ قال : من أهل الكوفة . قال : كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴾ ؟ قال علقمة : « والذكر والأنثى » . فقال أبو الدرداء : لقد سمعتها من رسول الله ﷺ ، فما زال هولاء حتى شككوني . ثم قال : ثم ألم يكن فيكم صاحب الوساد وصاحب السر الذي لا يعلمه أحد غيره ، والذي أجير من الشيطان على لسان النبي ﷺ ؟ (٢) . وقد رواه البخاري هاهنا ومسلم عن إبراهيم قال : قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء ، فطلبهم فوجدتهم ، فقال : أيكم يقرأ على قراءة عبد الله ؟ قالوا : كلنا ، قال : أيكم أحفظ ؟ فأشاروا إلى علقمة ، فقال : كيف سمعته يقرأ : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ ؟ قال : « والذكر والأنثى » . قال : أشهد أنني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هكذا ، وهولاء يريدوني أن أقرأ : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ ، والله لا أتابعهم (٣) .

هذا لفظ البخاري : هكذا قرأ ذلك ابن مسعود ، وأبو الدرداء - ورفع أبو الدرداء - وأما الجمهور فقرؤوا ذلك كما هو مثبت في المصحف الإمام العثماني في سائر الآفاق : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ ، فأقسم تعالى بـ ﴿ اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ أي : إذا غشى الخليقة بظلامه ، ﴿ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴾ أي : بضيائه وإشراقه ، ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ ، كقوله : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ [النبا : ٨] ، وكقوله : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

(٢) المسند (٦ / ٤٤٩) .

(١) مضمي الحديث وتخريجه أول سورة الأعلى .

(٣) البخاري (٤٩٤٤) ومسلم (٨٢٤ / ٢٨٢) .

ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان القسم عليه أيضاً متضاداً؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ أى: أعمال العباد التى اكتسبوها متضادة أيضاً ومتخالفة، فمن فاعل خيراً ومن فاعل شراً، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ أى: أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله فى أموره، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أى: بالمجازاة على ذلك، قاله قتادة، وقال خصيف: بالثواب. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، وزيد بن أسلم: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أى: بالخلف. وقال أبو عبد الرحمن السلمى، والضحاك: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أى: بلا إله إلا الله. وفى رواية عن عكرمة: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أى: بما أنعم الله عليه. وفى رواية عن زيد بن أسلم: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ قال: الصلاة والزكاة والصوم. وقال مرة: وصدقة الفطر. وقوله: ﴿فَسَيِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ قال ابن عباس: يعنى للخير. وقال زيد بن أسلم: يعنى للجنة.

وقال بعض السلف: من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ أى: بما عنده، ﴿وَأَسْتَفْتَى﴾ قال ابن عباس: أى بخل بماله، واستغنى عن ربه، عز وجل. ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ أى: بالجزاء فى الدار الآخرة، ﴿فَسَيِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ أى: لطريق الشر، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ وَالْكَافِرُ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنعام: ١١٠]. والآيات فى هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله، عز وجل، يجازى من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان. وكل ذلك بقدر مُقدَّر، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة:

روى البخارى عن على بن أبى طالب قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فى جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من الجنة ومقعده من النار». فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له». قال: ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَيِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾، إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَى﴾ (١). ثم رواه عن على ابن أبى طالب قال: كنا فى جنازة فى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ، فأتى رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مَخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «ما منكم من أحد - أو: ما من نفس منفوسة - إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة». فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء؟ فقال: «أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء». ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَيِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ الآية. وقد أخرجه بقية الجماعة (٢). وروى ابن جرير عن جابر بن عبد الله أنه قال: يا رسول الله، أنعمل لأمر قد فرغ منه، أو لأمر

(١) البخارى (٤٩٤٥ - ٤٩٤٧).

(٢) البخارى (٤٩٤٨) ومسلم (٢٦٤٧/٦) وأبو داود (٤٦٩٤) والترمذى (٣٣٤٤).

نستأنفه ؟ فقال : « لأمر قد فرغ منه » . فقال سراقه : فقيم العمل إذا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « كل عامل مُيسَّر لعمله » . ورواه مسلم (١) . قال ابن جرير : وذكر أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق : عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أى بنى ، أراك تعتق أناساً ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالاً جلداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك ؟! فقال : أى أبت ، إنما أريد - أظنه قال - ما عند الله : قال : فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ قال مجاهد : أى إذا مات . وقال أبو صالح ، وزيد ابن أسلم : إذا تردى في النار .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۝ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝ ﴾

قال قتادة : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ أى : نبين الحلال والحرام . وقال غيره : من سلك طريق الهدى وصل إلى الله . وجعله كقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ [النحل: ٩] . حكاه ابن جرير . وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴾ أى : الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيهما .

وقوله : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ : قال مجاهد : أى توهج . روى الإمام أحمد عن النعمان ابن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجلٌ توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلى منها دماغه » . رواه البخارى (٣) . وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل ، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً » (٤) .

وقوله : ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ أى : لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى . ثم فسرهُ فقال : ﴿ الَّذِي كَذَّبَ ﴾ أى : بقلبه ، ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أى : عن العمل بجوارحه وأركانه . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أمتى تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى » . قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى » . ورواه البخارى (٥) .

(١) ابن جرير في التفسير (٣٠ / ١٤٤) ومسلم (٢٦٤٨ / ٨) .

(٢) ابن جرير في التفسير (٣٠ / ١٤٢) . (٣) المسند (٤ / ٢٧٤) والبخارى (٦٥٦١ ، ٦٥٦٢) .

(٤) مسلم (٢١٣ / ٣٦٣) . (٥) المسند (٢ / ٣٦١) والبخارى (٧٢٨٠) .

وقوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴾ أى : وسيُزحزح عن النار التقى النقى الأتقى . ثم فسرهُ بقوله : ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ أى : يصرف ماله فى طاعة ربه ؛ ليزكى نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا ، ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ أى : ليس بذله ماله فى مكافأة من أسدى إليه معروفًا ، فهو يعطى فى مقابلة ذلك ، وإنما دفعه ذلك ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ أى : طمعاً فى أن يحصل له رؤيته فى الدار الآخرة فى روضات الجنات ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ أى : ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق ، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك . ولا شك أنه داخل فيها ، وأولى الأمة بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ ، ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ؛ فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله فى طاعة مولاه ، ونصرة رسول الله ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم ، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل ؛ ولهذا قال له عروة بن مسعود - وهو سيد ثقيف ، يوم صلح الحديبية : أما والله لولا يد لك كانت عندى لم أجرك بها لأجبتك . وكان الصديق قد أغلظ له فى المقالة ، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل ، فكيف بمن عداهم ؟ ولهذا قال : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ . وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله دَعَتَهُ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ : يا عبد الله ، هذا خير » ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ما على من يُدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم » (١) .

تفسير سورة الضحى وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَى ﴾ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ٣ ﴿ ٤ ﴾ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ٥ وَلَسَوْفَ يُمْطِرُكَ رَبُّكَ فَفَرَضَى ٦ ﴿ ٧ ﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ٨ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ٩ ﴿ ١٠ ﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ١١ ﴿ ١٢ ﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٣ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١٤ ﴿ ١٥ ﴾

روى الإمام أحمد عن جندب قال: اشتكى النبی ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ . رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن جرير (١). وقد ذكر بعض السلف - منهم ابن إسحاق - أن هذه السورة هى التى أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ، حين تبدى له فى صورته التى خلقه الله عليها، ودنا إليه وتدلى منهبطاً عليه وهو بالابطح، ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [النجم: ١٠]. قال: قال له هذه السورة: ﴿ وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ . قال ابن عباس: لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن، أبطأ عنه جبريل أياماً، فتغير بذلك، فقال المشركون: ودعه ربه وقلاه. فأنزل الله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ .

وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ أى: سكن فأظلم وادلهم. قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم. وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا، كما قال: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال: ﴿ فَالْقُ وَالْإِصْبَاحَ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقوله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ أى: ما تركك، ﴿ وَمَا قَلَى ﴾ أى: وما أبغضك، ﴿ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ أى: والدار الآخرة خير لك من هذه الدار. ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس فى الدنيا، وأعظمهم لها إطراحاً، كما هو معلوم من سيرته. ولما خير، عليه السلام، فى آخر عمره بين الخلد فى الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية. روى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: اضطلع رسول الله ﷺ على حصير، فآثر فى جنبه، فلما استيقظ جعلت

(١) المسند (٤ / ٣١٢) والبخارى (١١٢٤، ١١٢٥، ٤٩٥٠، ٤٩٥١، ٤٩٨٣) ومسلم (١٧٩٧ / ١١٤)، والترمذى (٣٣٤٥) وابن ماجه (٣٢٥٠) وابن جرير فى التفسير (١٤٨ / ٣٠).

أمسح جنبه وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما لى وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب ظلّ تحت شجرة، ثم راح وتركها». ورواه الترمذى وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح (١).

وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ أى: فى الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه فى أمته، وفيما أعدّه له من الكرامة، ومن جملة نهر الكوثر الذى حافته قباب اللؤلؤ المجوف، وطينه مسك أذفر. عن عبد الله بن عباس قال: عرض على رسول الله ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كثيراً، فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ فأعطاه فى الجنة ألف ألف قصر، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج والخدم. رواه ابن جرير (٢)، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس: ومثل هذا ما يقال إلا عن توقيف. وقال السدى، عن ابن عباس: من رضا محمد ﷺ ألا يدخل أحد من أهل بيته النار. رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم. وقال الحسن: يعنى بذلك الشفاعة. وهكذا قال أبو جعفر الباقر.

ثم قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾، وذلك أن أباه توفى وهو حملٌ فى بطن أمه، وقيل: بعد أن ولد، عليه السلام، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين. ثم كان فى كفالة جده عبد المطلب، إلى أن توفى وله من العمر ثمانى سنين، فكفله عمه أبو طالب. ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويؤقره، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره، إلى أن توفى أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهاهم، فاختر الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم والأكمل. فلما وصل إليهم أووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه، رضى الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به.

وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرَى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [الشورى: ٥٢]. وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ أى: كنت فقيراً ذا عيال، فأغناك الله عن سواه، فجمع له بين مقامى، الفقير الصابر والغنى الشاكر، صلوات الله وسلامه عليه. وقال قتادة فى قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾. ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾. ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ قال: كانت هذه منازل الرسول ﷺ قبل أن يبعثه الله، عز وجل. وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس» (٣). وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال:

(١) المسند (٣٧٠-٩) والترمذى (٢٣٧٧) وابن ماجه (٤١٠-٩). وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٢) ابن جرير فى التفسير (١٤٩/٣٠). (٣) البخارى (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١/١٢٠).

قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » (١) .

ثم قال : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ أى : كما كنت يتيماً فأواك الله فلا تقهر اليتيم ، أى : لا تذله وتنهره وتهنه ، ولكن أحسن إليه ، وتلطف به . قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم . ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أى : وكما كنت ضالاً فهداك الله ، فلا تنهر السائل فى العلم المسترشد . قال ابن إسحاق : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أى : فلا تكن جباراً ، ولا متكبراً ، ولا فحاشاً ، ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله . وقال قتادة : يعنى رد المسكين برحمة ولين .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث ﴾ أى : وكما كنت عائلاً فقيراً فأغنك الله ، فحدث بنعمة الله عليك ، كما جاء فى الدعاء المأثور النبوى : « واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها ، قابليها ، وأتمها علينا » . وعن أبى نضرة قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها . وروى أبو داود عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » . ورواه الترمذى ، وقال : صحيح (٢) . وروى أبو داود عن جابر ، عن النبى ﷺ قال : « من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره » . تفرد به أبو داود (٣) . وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعطى عطاءً فوجد فليجز به ، فإن لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره » . تفرد به أبو داود (٤) . وقال مجاهد : يعنى النبوة التى أعطاك ربك . وفى رواية عنه : القرآن . وقال الحسن بن على : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث ﴾ قال : ما عملت من خير فحدث إخوانك . وقال ابن إسحاق : ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدث بها واذكرها ، وادع إليها . وقال : فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سرّاً إلى من يطمئن إليه من أهله ، وافترضت عليه الصلاة ، فصلى .

(١) مسلم (١٠٥٤ / ١٢٥) .

(٢) أبو داود (٤٨١١) والترمذى (١٩٥٤) ، وصححه الألبانى .

(٣) أبو داود (٤٨١٤) ، وصححه الألبانى . (٤) أبو داود (٤٨١٣) ، وصححه الألبانى .

تفسير سورة ألم شرح

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ١ ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ ٢ ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ ٣ ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ٤ ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ٥ ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ٦ ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ ٧ ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ ٨ ﴿

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ : أما شرحنا لك صدرك ، أى : نورناه وجعلناه فسيحاً رحياً واسعاً كقوله : ﴿ لَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً سمحاً سهلاً لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق . وقيل : المراد بقوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ : شرح صدره ليلة الإسراء (١) ، فإن من جملة شرح صدره الذى فعل بصدرة ليلة الإسراء ، وما نشأ عنه من الشرح المعنوى أيضاً ، والله أعلم .

روى عبد الله بن الإمام أحمد عن أبى بن كعب : أن أبا هريرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، فقال : يا رسول الله ، ما أول ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال : « لقد سألت يا أبا هريرة ، إني لفي الصحراء ابنَ عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ [قال : نعم] فاستقبلاني بوجوه لم أرها [لخلق] قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط . فأقبلوا إلى يمشيان ، حتى أخذ كل واحد منهما بعَضُدِي ، لا أجد لأحدهما مساً ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه . فأضجعاني بلا قَصْر ولا مَصْر . فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره . فهوى أحدهما إلى صدرى فقلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فقال له : أخرج الغلّ والحسد . فأخرج شيئاً كهية العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرافة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج شبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلى اليمنى فقال : اغدُ واسلم . فرجعت بها أعدو ، رقة على الصغير ، ورحمةً للكبير » (٢) .

وقوله : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ : بمعنى : ﴿ لِيُفْخِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢]

(١) انظر الأحاديث أول سورة الإسراء .

(٢) المسند (٥ / ١٣٩) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٢٢) : « رجاله ثقات وثقهم ابن حبان » . وما بين المعقوفين من المسند .

﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الإنقاض : الصوت . وقال غير واحد من السلف في قوله : ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أى : أثقلت حملك .

وقوله : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال مجاهد : لا أذكرُ إلا ذُكرتَ معي : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وقال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا مُتَشهد ولا صاحبُ صلاة إلا ينادى بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سألت ربي مسألة ودَدْتُ أنى لم أكن سألته ، قلت : قد كانت قبلى أنبياء ، منهم من سخرت له الريح ، ومنهم من يحيى الموتى . قال : يا محمد ، ألم أجذك يتيماً فأويتك ؟ قلت : بلى يا رب . قال : ألم أجذك ضالاً فهديتك ؟ قلت : بلى يا رب . قال : ألم أجذك عائلاً فأغنيتك ؟ قال : قلت : بلى يا رب . قال ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت : بلى يا رب » (١) .

وقال آخرون : رفع الله ذكره في الأولين والآخرين ، ونوه به ، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به ، وأن يأمرُوا أممهم بالإيمان به ، ثم شهر ذكره في أمته فلا يُذكر الله إلا ذكر معه .

وقوله : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ : أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر ، ثم أكد هذا الخبر . وقوله : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ أى : إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها ، فانصب في العبادة ، وقم إليها نشيطاً فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة . ومن هذا القبيل قوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته : « لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهو يدافعه الأخبثان » (٢) . وقوله ﷺ : « إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء ، فابدؤوا بالعشاء » (٣) . قال مجاهد في هذه الآية : إذا فرغت من أمر الدنيا فقمتم إلى الصلاة ، فانصب لربك ، وفي رواية عنه : إذا قمت إلى الصلاة فانصب في حاجتك ، وعن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل . وعن ابن عباس نحوه . وفي رواية عن ابن مسعود : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس . وقال ابن عباس : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ يعنى : فى الدعاء . وقال زيد بن أسلم ، والضحاك : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ أى : من الجهاد ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ أى : فى العبادة . ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ قال الثورى : اجعل نيتك ورغبتك إلى الله ، عز وجل .

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٢/ ٥٢٦) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٢) مسلم (٥٦٠/ ٦٧) . (٣) البخارى (٥٤٦٥) .

تفسير سورة التين

وهي مكية

عن البراء بن عازب : كان النبي ﷺ يقرأ في سفر في إحدى الركعتين بالتين والزيتون ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجه الجماعة في كتبهم (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللّٰتِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ ١ ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ ٢ ﴿ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ ٣ ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ٤ ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ٥ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ٦ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴾ ٧ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ ٨ ﴿

اختلف المفسرون هاهنا على أقوال كثيرة ، فقليل : المراد بالتين مسجداً دمشق . وقيل : هي نفسها . وقيل : الجبل الذي عندها . وقال مجاهد : هو تينكم هذا . ﴿ وَالزَّيْتُونِ ﴾ قال قتادة ، وابن زيد ، وغيرهم : هو مسجد بيت المقدس . وقال مجاهد ، وعكرمة : هو هذا الزيتون الذي تعصرون . ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ قال غير واحد : هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى . ﴿ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ يعني : مكة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وإبراهيم النخعي ، ولا خلاف في ذلك .

وقال بعض الأئمة : هذه محالٌ ثلاثة ، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار ، فالأول : محلة التين والزيتون ، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم . والثاني : طور سينين ، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى ابن عمران . والثالث : مكة ، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً ، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ . قالوا : وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء - يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ساعير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران - يعني : جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً - فذكرهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ، ثم بالأشرف منه ، ثم بالأشرف منهما .

وقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ : هذا هو المقسم عليه ، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة ، وشكل منتصب القامة ، سوى الأعضاء حسنها . ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ

(١) البخاري (٤٩٥٢) ومسلم (٤٦٤ / ١٧٥) وأبو داود (١٢٢١) والترمذي (٣١٠) والنسائي في الكبرى (١١٦٨٢) وابن ماجه (٨٣٤ ، ٨٣٥) .

سَافِلِينَ ﴿١﴾ أى : إلى النار . قاله مجاهد ، وأبو العالية ، والحسن ، وابن زيد ، وغيرهم . ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ . وقال بعضهم : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أى : إلى أرذل العمر . روى هذا عن ابن عباس ، وعكرمة - حتى قال عكرمة : من جمع القرآن لم يُرَدَّ إلى أرذل العمر . واختار ذلك ابن جرير . ولو كان هذا هو المراد لما حَسُنَ استثناء المؤمنين من ذلك ؛ لأن الهَرَمَ قد يصيبُ بعضهم ، وإنما المراد ما ذكرناه ، كقوله : ﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [العصر: ١ - ٣] .

وقوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير مقطوع ، كما تقدم . ثم قال : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ يعنى : يا بن آدم ﴿ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴾ ؟ أى : بالجزاء فى المعاد وقد علمت البداية ، وعرفت أن من قدر على البداية ، فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى ، فأى شىء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا ؟ وقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ أى : أما هو أحكم الحاكمين ، الذى لا يجور ولا يظلم أحداً ، ومن عدله أن يقيم القيامة فينصف المظلوم فى الدنيا ممن ظلمه .

تفسير سورة اقرأ

وهي أول شيء نزل من القرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ﴿ ١ ﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿ ٢ ﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿ ٣ ﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿ ٤ ﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿ ٥ ﴾

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو : التعبّد - الليالي ذوات العدد ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ . قال رسول الله ﷺ : « فقلت : ما أنا بقارئ » . قال : « فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ حتى بلغ : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ » قال : فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : « زملوني زملوني » . فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال : « يا خديجة ، ما لي ؟ » فأخبرها الخبر وقال : « قد خشيت على نفسي » . فقالت له : كلا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي - وهو ابن عم خديجة ، أخى أبيها ، وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، وكتب بالعربية (١) من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى - فقالت خديجة : أي ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال ورقة : ابن أخى ، ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على موسى ، ليتنى فيها جذعا أكون حيا حين يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : « أومخرجي هم ؟ » . فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزراً . ثم لم ينشأ ورقة أن توفي ، وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ - فيما بلغنا - حزناً غدا منه مرارا كى يتردى من رؤوس شواطئ الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقي نفسه منه ، تبدى له جبريل فقال : يا محمد ، إنك رسول الله حقاً . فيسكن بذلك جأشه ، وتقرُّ

(١) فى المطبوعة : « بالعبرانية » والمثبت من المسند والمخطوطة .

نفسه فيرجع . فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل ، فقال له مثل ذلك . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين^(١).

فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات ، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم . وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه ، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون في الأذهان ، وتارة يكون في اللسان ، وتارة يكون في الكتابة بالبنان ، ذهني ولفظي ورسمي ، والرسمي يستلزمهما من غير عكس ، فلهذا قال : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . وفي الأثر : قيدوا العلم بالكتابة .

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ ١ أَنْ رَآهُ اسْتَغْفَى ٢ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى ٣ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ٤ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ٥ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ٦ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ٧ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ٨ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ٩ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ١٠ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ١١ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ١٢ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ١٣ كَلَّا لَا نُطِيعُكَ وَأَسْجُدُ ١٤ وَاقْتَرِبَ ١٥

سجدة

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان ، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله . ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ أي : إلى الله المصير والمرجع ، وسيحاسبك على مالك : من أين جمعته ؟ وفيه صرفته ؟ ثم قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ : نزلت في أبي جهل ، لعنه الله ، توعده النبي ﷺ على الصلاة عند البيت ، فوعظه الله تعالى بالتي هي أحسن أولا ، فقال : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَى ﴾ أي : فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله ، أو ﴿ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾ بقوله ، وأنت تزجره وتوعده على صلاته ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ أي : أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه ، وسيجازه على فعله أتم الجزاء . ثم قال تعالى متوعدا ومتهددا : ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ أي : لنسمنها سوادا يوم القيامة .

ثم قال : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ يعني : ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها خاطئة في فعالها . ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ أي : قومه وعشيرته ، أي : ليدعهم يستنصر بهم ، ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ : وهم ملائكة العذاب ، حتى يعلم من يغلب : أحزبنا أو حزبه . روى البخاري عن ابن عباس :

قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ النبي ﷺ ، فقال : « لئن فعله لأخذه ملائكة » . وكذا رواه الترمذى والنسائى وابن جرير (١) . وروى أحمد ، والترمذى وابن جرير - وهذا لفظه - عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يصلى عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا ؟ - وتوعدّه - فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره ، فقال: يا محمد ، بأى شيء تهددنى ؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادى نادياً ! فأنزل الله: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ قال ابن عباس : لو دعا نادية لأخذه ملائكة العذاب من ساعته . وقال الترمذى : حسن صحيح (٢) .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه . قال: فقال: « لو فعل لأخذه ملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً » (٣) . وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : فقال : واللّات والعزى لئن رأيته يصلى كذلك لأطأن على رقبته ، ولأعفرن وجهه فى التراب ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى ليّطأ على رقبته ، قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه ، قال : فقبل له : ما لك ؟ فقال : إن بينى وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة . قال : فقال رسول الله : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » . قال : وأنزل الله - لا أدري فى حديث أبى هريرة أم لا - : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَىٰ ﴾ إلى آخر السورة . وقد رواه أحمد بن حنبل ، ومسلم ، والنسائى (٤) .

وقوله: ﴿ كَلَّا لَا تَطَعَهُ ﴾ يعنى: يا محمد ، لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصل حيث شئت ولا تباله ؛ فإن الله حافظك وناصرك ، وهو يعصمك من الناس، ﴿ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ ، كما ثبت فى الصحيح - عند مسلم - عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » (٥) . وتقدم أيضاً : أن رسول الله ﷺ كان يسجد فى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ و﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ (٦) .

(١) البخارى (٤٩٥٨) والترمذى (٣٣٤٨) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٥) وابن جرير فى التفسير (٣٠ / ١٦٥) .
(٢) المسند (٣٠٤٥) والترمذى (٣٣٤٩) وابن جرير فى التفسير (٣٠ / ١٦٤) . وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٣) المسند (٢٢٢٥) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٤) ابن جرير فى التفسير (٣٠ / ١٦٥) والمسند (٣٧٠ / ٢) ومسلم (٢٧٩٧ / ٣٨) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٣) .

(٥) مسلم (٤٨٢ / ٢١٤) . (٦) مضى تخريج ذلك فى أول سورة الانشقاق .

تفسير سورة القدر وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ
مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ
حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

يخبر الله تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر ، وهي الليلة المباركة التي قال الله ، عز وجل :
﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣] وهي ليلة القدر ، وهي من شهر رمضان ، كما قال تعالى :
﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] . قال ابن عباس وغيره : أنزل الله القرآن جملة
واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في
ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ .

ثم قال تعالى مُعْظَمًا لِّشَأْنِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها ، فقال :
﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ . وقال مجاهد : ليلة القدر خير من ألف
شهر ، ليس في تلك الشهور ليلة القدر . وهكذا قال قتادة بن دعامة ، والشافعي ، وغير واحد .
وقال عمرو بن قيس الملائي : عمل فيها خير من عمل ألف شهر . وهذا القول بأنها أفضل من
عبادة ألف شهر - وليس فيها ليلة القدر - هو اختيار ابن جرير . وهو الصواب لا ما عداه ،
وهو كقوله ﷺ : « رِبَاطُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ فِيهَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ » . رواه
أحمد (١) . وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة ، ونية صالحة : « أَنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ عَمَلُ سَنَةٍ ،
أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا » إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك . ولما كانت ليلة القدر تعدل
عبادتها عبادة ألف شهر ، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَامَ
لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » (٢) .

وقوله : ﴿ نَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي : يكثر تنزل الملائكة في هذه
الليلة لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة ، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن
ويحيطون بحلق الذكر ، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيما له . وأما الروح ف قيل :
المراد به هاهنا جبريل ، عليه السلام ، فيكون من باب عطف الخاص على العام . وقيل : هم

(١) المسند (٤٧٠) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخاري (١٩٠١) ومسلم (١٧٥ / ٧٦٠) .

ضرب من الملائكة . كما تقدم فى سورة « النبأ » . والله أعلم . وقوله : ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ قال مجاهد : سلام هى من كل أمر . وقال : هى سالمة ، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو يعمل فيها أذى . وقال قتادة وغيره : تقضى فيها الأمور ، وتقدر الآجال والأرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان : ٤] .

وقوله تعالى : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ عن الشعبى قال : تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد ، حتى يطلع الفجر . وقال قتادة وابن زيد فى قوله : ﴿ سَلَامٌ هِيَ ﴾ يعنى : هى خير كلها ، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر .

فصل : اختلف العلماء : هل كانت ليلة القدر فى الأمم السالفة ، أو هى من خصائص هذه الأمة ؟ على قولين :

قال الزهرى : حدثنا مالك : أنه بلغه : أن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس قبله - أو : ما شاء الله من ذلك - فكانه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل الذى بلغ غيرهم فى طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر (١) . وهذا الذى قاله مالك يقتضى تخصيص هذه الأمة بليلة القدر ، وقد نقله صاحب « العدة » أحد أئمة الشافعية عن جمهور العلماء ، فإله أعلم . وحكى الخطابى عليه الإجماع ، والذى دل عليه الحديث أنها كانت فى الأمم الماضين كما هى فى أمتنا .

روى الإمام أحمد بن حنبل عن مرثد قال : سألت أبا ذر قلت : كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر ؟ قال : أنا كنت أسأل الناس عنها ، قلت : يا رسول الله ، أخبرنى عن ليلة القدر ، أفى رمضان هى أو فى غيره ؟ قال : « بل هى فى رمضان » . قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا ، فإذا قبضوا رفعت ؟ أم هى إلى يوم القيامة ؟ قال : « بل هى إلى يوم القيامة » . قلت : فى أى رمضان هى ؟ قال : « التمسوها فى العشر الأول ، والعشر الأواخر » . ثم حدث رسول الله ﷺ وحدث ، ثم اهتبلت غفلته قلت : فى أى العشرين هى ؟ قال : « ابتغوها فى العشر الأواخر ، لا تسألنى عن شئ بعدها » . ثم حدث رسول الله ﷺ ، ثم اهتبلت غفلته فقلت : يا رسول الله ، أقسمت عليك بحقى عليك لَمَّا أخبرتنى فى أى العشر هى ؟ فغضب على غضباً لم يغضب مثله منذ صحبتته ، وقال : « التمسوها فى السبع الأواخر ، لا تسألنى عن شئ بعدها » . ورواه النسائى (٢) .

ففيه دلالة على ما ذكرناه ، وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة فى كل سنة بعد النبى ﷺ ، لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية ، على ما فهموه من الحديث الذى سنورده بعد من قوله ، عليه السلام : « فرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم » ؛ لأن المراد رفع علم وقتها عيناً . وفيه دلالة على أنها ليلة القدر يختص وقوعها بشهر رمضان من بين سائر

(٢) المسند (١٧١ / ٥) والنسائى (٣٤٢٧) .

(١) مالك فى الموطأ (٣٢١ / ١) (١٥) .

الشهور ، لا كما روى عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة ، من أنها توجد في جميع السنة ، وترجى في جميع الشهور على السواء .

فصل : ثم قد قيل : ليلة إحدى وعشرين ؛ لحديث أبي سعيد الخدري قال : اعتكف رسول الله ﷺ العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه ، فاتاه جبريل فقال : إن الذي تطلب أمامك . فاعتكف العشر الأوسط واعتكفنا معه ، فاتاه جبريل فقال : إن الذي تطلب أمامك . ثم قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان ، فقال : « من كان اعتكف معي فليرجع ، فإنني رأيت ليلة القدر ، وإنني أنسيتها ، وإنها في العشر الأواخر في وتر ، وإنني رأيت كأنني أسجد في طين وماء » . وكان سقف المسجد جريداً من النخل ، وما نرى في السماء شيئاً ، فجاءت قزعة فمطرنا ، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه . وفي لفظ : « في صبح إحدى وعشرين » أخرجاه في الصحيحين (١) . قال الشافعي : وهذا الحديث أصح الروايات .

وقيل : ليلة ثلاث وعشرين ؛ لحديث عبد الله بن أنيس في « صحيح مسلم » (٢) وهو قريب السياق من رواية أبي سعيد ، فالله أعلم .

وقيل : تكون ليلة خمس وعشرين ؛ لما رواه البخاري ، عن عبد الله بن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : « التمسوها في العشر الأواخر من رمضان ، في تاسعة تبقى ، في سابعة تبقى ، في خامسة تبقى » (٣) . فسره كثيرون بليالي الأوتار ، وهو أظهر وأشهر . وحمله آخرون على الإشفاع كما رواه مسلم عن أبي سعيد ، أنه حملة على ذلك . والله أعلم .

وقيل : إنها تكون ليلة سبع وعشرين ؛ لما رواه مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب ، عن رسول الله ﷺ : « إنها ليلة سبع وعشرين » (٤) . روى الإمام أحمد عن زرّ : سألت أبا بن كعب قلت : أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول : من يُقِمُ الحَوْلَ يُصِبُ ليلة القدر . قال : يرحمه الله ، لقد علم أنها في شهر رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين . ثم حلف . قلت : وكيف تعلمون ذلك ؟ قال : بالعلامة - أو : بالآية - التي أخبرنا بها ، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها ، أعنى الشمس . وقد رواه مسلم ، عن أبي ، فذكره ، وفيه : فقال : والله الذي لا إله إلا هو ، إنها لفي رمضان - يحلف بما يستثنى - والله إنني لأعلم أي ليلة القدر هي التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها ، هي ليلة سبع وعشرين ، وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها (٥) . وفي الباب عن معاوية ، وابن عمر ، وابن عباس ، وغيرهم ، عن رسول الله ﷺ : أنها ليلة سبع وعشرين . وهو قول طائفة من السلف ، وهو الجادة من مذهب أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، وهو رواية عن أبي حنيفة أيضاً . وقد حكى عن بعض

(١) البخاري (٢٠١٨) ومسلم (١١٦٧/٢١٣) .

(٢) مسلم (٢١٨/١١٦٨) .

(٣) البخاري (٢٠٢١) .

(٤) مسلم (١٧٩/٧٦٢) .

(٥) المسند (١٣٠/٥) ومسلم ، السابق .

السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن ، من قوله : ﴿ هِيَ ﴾ لأنها الكلمة السابعة والعشرون من السورة ، والله أعلم .

وقيل : إنها تكون في ليلة تسع وعشرين . روى أحمد بن حنبل عن أبي هريرة . أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر : «إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين ، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى» (١) . تفرد به أحمد ، وإسناده لا بأس به .

فصل : قال الشافعي في هذه الروايات : صدرت من النبي ﷺ جواباً للسائل إذا قيل له : أتمس ليلة القدر في الليلة الفلانية ؟ يقول : « نعم » . وإنما ليلة القدر ليلة معينة : لا تنتقل . نقله الترمذي عنه بمعناه . وروى عن أبي قلابة أنه قال : ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر (٢) .

وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة نص عليه مالك ، والثوري ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ابن راهويه ، وأبو ثور ، والمزني ، وأبو بكر بن خزيمة ، وغيرهم . وهو محكى عن الشافعي - نقله القاضي عنه ، وهو الأشبه - والله أعلم . وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت في الصحيحين ، عن عبد الله بن عمر : أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان ، فقال رسول الله ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحريها فليتحريها في السبع الأواخر» (٣) . وفيهما أيضاً عن عائشة ، رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان » (٤) . ولفظه للبخاري .

ويحتج للشافعي أنها لا تنتقل ، وأنها معينة من الشهر ، بما رواه البخاري في صحيحه ، عن عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر ، فتلاحى رجلان من المسلمين ، فقال : « خرجت لأخبركم بليلة القدر ، فتلاحى فلان وفلان ، فرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم ، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة » (٥) .

وجه الدلالة منه : أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين ، لما حصل لهم العلم بعينها في كل سنة ، إذ لو كانت تنتقل لما علموا تعيينها إلا ذلك العام فقط ، اللهم إلا أن يقال : إنه إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط .

وقوله : « فتلاحى فلان وفلان فرفعت » : فيه استئناس لما يقال : إن الممارسة تقطع الفائدة والعلم النافع .

وقوله : « فرفعت » أي : رفع علم تعيينها لكم ، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود ، كما يقوله جهلة الشيعة ؛ لأنه قد قال بعد هذا : « فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة » .

(٢) الترمذي (١٥٩/٣) .

(١) المسند (٥١٩/٢) .

(٤) البخاري (٢٠١٧) ومسلم (٢١٩/١١٦٩) .

(٣) البخاري (٢٠١٥) ومسلم (٢٠٥ / ١١٦٥) .

(٥) البخاري (٢٠٢٣) .

وقوله : « وعسى أن يكون خيراً لكم » يعنى : عدم تعيينها لكم ، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها فى ابتغائها فى جميع محال رجائها ، فكان أكثر للعبادة ، بخلاف ما إذا علموا عينها فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط . وإنما اقتضت الحكمة إيهامها لتعم العبادة جميع الشهر فى ابتغائها ، ويكون الاجتهاد فى العشر الأواخر أكثر . ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله ، عز وجل . ثم اعتكف أزواجه من بعده . أخرجاه من حديث عائشة (١) . ولهما عن ابن عمر : كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان (٢) .

وقالت عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر ، أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وشد المنزر . أخرجاه (٣) . ولمسلم عنها : كان رسول الله ﷺ يجتهد فى العشر ما لا يجتهد فى غيره (٤) .

وهذا معنى قولها : « وشد المنزر » . وقيل : المراد بذلك : اعتزال النساء . ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين ، لما رواه الإمام أحمد عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا بقى عشر من رمضان شدَّ منزره ، واعتزل نساءه . انفرد به أحمد (٥) .

والمستحب الإكثار من الدعاء فى جميع الأوقات ، وفى شهر رمضان أكثر ، وفى العشر الأخير منه ، ثم فى أوتاره أكثر . والمستحب أن يكثّر من هذا الدعاء : « اللهم ، إنك عفوٌ تحب العفو ، فاعف عني » ؛ لما رواه الإمام أحمد عن عائشة قالت : يا رسول الله ، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو ؟ قال : « قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو ، فاعف عني » .

وقد رواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه الحاكم فى مستدركه ، وقال : هذا صحيح على شرط الشيخين (٦) .

(٢) البخارى (٢٠٢٥) . ومسلم (١/١١٧١) .

(١) البخارى (٢٠٢٦) . ومسلم (٣/١١٧٢) .

(٤) مسلم (٨/١١٧٥) .

(٣) البخارى (٢٠٢٤) . ومسلم (٧/١١٧٤) .

(٥) المسند (٦٦/٦) .

(٦) المسند (١٨٢/٦) . والترمذى (٣٥١٣) . والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٨) . وابن ماجه (٣٨٥٠) . والحاكم (١/٥٣٠) ، وصححه الألبانى .

تفسير سورة لم يكن

وهي مدنية

روى الإمام أحمد عن أبي حبة البدرى - وهو: مالك بن عمرو بن ثابت الأنصارى - قال: لما نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إلى آخرها، قال جبريل: يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تقرئها أياً. فقال النبي ﷺ لأبى: «إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة». قال أبى: وقد ذكرت ثم يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: فبكى أبى (١). وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبى بن كعب: «إن الله أمرنى أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾» قال: وسمانى لك؟ قال: «نعم». فبكى. ورواه البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى (٢). وروى أحمد عن أبى بن كعب قال: إن رسول الله ﷺ قال لى: «إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن». قال: فقرأ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، قال: فقرأ فيها: ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال، فأعطيه، لسأل ثانياً، ولو سأل ثانياً فأعطيه لسأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب. وإن ذلك الدين عند الله الحنيفية، غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية، ومن يفعل خيراً فلن يكفره. ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح (٣).

وإنما قرأ عليه النبي ﷺ هذه السورة تثبيتاً له، وزيادة لإيمانه، فإنه - كما رواه، أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى (٤) - كان قد أنكر على عبد الله بن مسعود قراءة شيء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول الله ﷺ فرفعه إلى النبي ﷺ فاستقرأهما، وقال: لكل منهما: «أصبت». قال أبى: فأخذنى من الشك ولا إذ كنت فى الجاهلية. فضرب رسول الله ﷺ فى صدره، قال أبى: ففضضت عرقاً، وكأنما أنظر إلى الله فرقاً. وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف. فقلت: «أسأل الله معافاته ومغفرته». فقال: على حرفين. فلم يزل حتى قال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف. كما قدمنا ذكر هذا الحديث بطرقه وألفاظه فى أول التفسير. فلما نزلت هذه السورة الكريمة وفيها: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ فيها كُتِبَ قِيمَةٌ، قرأها عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار، لا قراءة تعلم واستذكار، والله أعلم. وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة، وكان فيما قال: أو لم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرت أنك تأتية عامك هذا؟». .

(١) المسند (٤٨٩/٣).

(٢) المسند (١٣٠/٣) والبخارى (٤٩٥٩) ومسلم (٢٤٥/٧٩٩) والترمذى (٣٧٩٢) والنسائى فى الكبرى (١١٦٩١).

(٣) المسند (١٣١/٥) والترمذى (٣٧٩٣).

(٤) المسند (١٢٧/٥) ومسلم (٢٧٣/٨٢٠) وأبو داود (١٤٧٨) والنسائى (٤٩٠).

قال : لا ، قال : « فإنك آتية ، ومُطَوَّف به » . فلما رجعوا من الحديبية ، وأنزل الله على النبي ﷺ سورة « الفتح » ، دعا عمر بن الخطاب وقرأها عليه ، وفيها قوله : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾ الآية [الفتح : ٢٧] ، كما تقدم (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ ﴿١﴾
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ
وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ﴿٥﴾

أما أهل الكتاب فهم : اليهود والنصارى ، والمشركون : عبدة الأوثان والنيران ، من العرب ومن العجم . وقال مجاهد : لم يكونوا ﴿ مُنْفَكِينَ ﴾ يعنى : متتهين حتى يتبين لهم الحق . وكذا قال قتادة . ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ أى : هذا القرآن ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ . ثم فسر البينة بقوله : ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ، وما يتلوه من القرآن العظيم ، الذى هو مكتب فى الملائكة الأعلى ، فى صحف مطهرة كقوله : ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس : ١٣-١٦] .

وقوله : ﴿ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ قال ابن جرير : أى فى الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة ، ليس فيها خطأ ؛ لأنها من عند الله ، عز وجل . قال قتادة : ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ : يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويشنى عليه بأحسن الثناء . وقال ابن زيد : ﴿ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ : مستقيمة معتدلة . وقوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] يعنى بذلك : أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا ، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبيانات تفرقوا واختلفوا فى الذى أراده الله من كتبهم ، واختلفوا اختلافاً كثيراً .

وقوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ؛ ولهذا قال : حنفاء ، أى : متحنفين عن الشرك إلى التوحيد . كقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، وقد تقدم تقرير الحنيف فى سورة « الأنعام » (٢) بما أغنى عن إعادته هاهنا . ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾

وهي أشرف عبادات البدن ، ﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ أى : الملة القائمة العادلة ، أو : الأمة المستقيمة المعتدلة . وقد استدل كثير من الأئمة ، كالزهري والشافعى ، بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة فى الإيمان ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ ١ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ ٢ ﴿ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ ٣

يخبر تعالى عن مآل الفجار ، من كفره أهل الكتاب ، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسله : أنهم يوم القيامة ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكثين ، لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ أى : شر الخليقة التى برأها الله وذراها . ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار - الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم - بأنهم خير البرية . وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء ، على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة ؛ لقوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

قال تعالى : ﴿ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ، ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم . وقوله : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أى : هذا الجزاء حاصل لمن خشى الله واتقاه حق تقواه ، وعبداه كأنه يراه ، قد علم أنه إن لم يره فإنه يراه .

تفسير سورة إذا زلزلت

وهي مكية

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله. قال له: «اقرأ ثلاثاً من ذات الر». فقال له الرجل: كبر سبني واشتد قلبي، وغلظ لساني. قال: «اقرأ من ذات حم»، فقال مثل مقالته الأولى. فقال: «اقرأ ثلاثاً من المسبحات»، فقال مثل مقالته. فقال الرجل: ولكن أقرئني - يا رسول الله - سورة جامعة. فأقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليها أبداً. ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويجل! أفلح الرويجل!» ثم قال: «على به». فجاءه فقال له: «أمرتُ بيوم الأضحى جعله الله عيداً لهذه الأمة». فقال له الرجل: رأيت إن لم أجد إلا منيحة أنثى فأضحى بها؟ قال: «لا، ولكنك تأخذ من شعرك، وتقليم أظفارك، وتقص شاربك، وتحلق عانتك، فذاك تمام أضحيتك عند الله، عز وجل». وأخرجه أبو داود والنسائي (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿١﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٢﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٣﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٤﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاكَ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٥﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٦﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٧﴾

قال ابن عباس: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي: تحركت من أسفلها. ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ يعني: ألقى ما فيها من الموتى. قاله غير واحد من السلف. وهذه كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وكقوله: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ. وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤، ٣]. وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقوى الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً» (٢).

(١) المسند (٦٥٧٥) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» وأبو داود (١٣٩٩) والنسائي (٤٣٦٥).

(٢) مسلم (١٠١٣/١٢٢).

وقوله : ﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ أى : استنكر أمرها بعد ما كانت قارة ساكنة ثابتة ، وهو مستقر على ظهرها ، أى : تقلبت الحال ، فصارت متحركة مضطربة ، قد جاءها من أمر الله ما قد أعد لها من الزلزال الذى لا محيد لها عنه ، ثم ألقت ما فى بطنها من الأموات من الأولين والآخرين ، وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار . وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أى : تحدث بما عمل العاملون على ظهرها . روى الإمام أحمد والترمذى عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا ، يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها » . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب (١) .

وقوله : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ : قال البخارى : أوحى لها وأوحى إليها ، ووحى لها ووحى إليها : واحد (٢) . وكذا قال ابن عباس : ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أى : أوحى إليها . والظاهر أن هذا مُضْمَنٌ بمعنى أذن لها . وقال ابن عباس : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : قال لها ربها : قولى ، فقالت . وقال مجاهد : ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أى : أمرها . وقال القرطبى : أمرها أن تنشق عنهم .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ أى : يرجعون عن موقف الحساب ، ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ أى : أنواعاً وأصنافاً ، ما بين شقى وسعيد ، مأمور به إلى الجنة ، ومأمور به إلى النار . قال ابن جريج : يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ما عليهم . وقال السدى : ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ : فرقا . وقوله تعالى : ﴿ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى : ليعملوا ويجازوا بما عملوه فى الدنيا ، من خير وشر . ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

روى البخارى عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ؛ فأما الذى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال طيلها فى مرج أو روضة ، فما أصابت فى طيلها ذلك فى المرج والروضة كان له حسناً ، ولو أنها قطعت طيلها فاستنتت شرفاً أو شرفين ، كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقى به كان ذلك حسنات له ، وهى لذلك الرجل أجر . ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها ، فهى له ستر . ورجل ربطها فخراً ورتاء ونواء ، فهى على ذلك وزر » . فسئل رسول الله ﷺ عن الحُمُر ، فقال : « ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ . ورواه مسلم (٣) .

(١) المسند (٣٧٤ / ٢) والترمذى (٣٣٥٣) والنسائى فى الكبرى (١١٦٩٣) .

(٢) البخارى (٨ / ٧٢٦ فتح) . (٣) البخارى (٤٩٦٢) ومسلم (٢٤ / ٩٨٧) .

وفى صحيح البخارى، عن عدى مرفوعا: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة» (١).
وفى الصحيح: « لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئا ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط » (٢).

وفى الصحيح أيضاً: « يا نساء المؤمنات ، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » (٣)
يعنى : ظلفها .

(٢) مسلم (٢٦٢٦/١٤٤).

(١) البخارى (٧٥١٢).

(٣) البخارى (٢٥٦٦).

تفسير سورة العاديات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ ١ ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ ٢ ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ ٣ ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ ٤ ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ ٥ ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ ٦ ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ٧ ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ ٨ ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ ٩ ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ ١٠

ربع

يقسم تعالى بالخيول إذا أجريت في سبيله فعدت وضبحت ، وهو : الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو . ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ : يعني : اصطكاك نعالها للصخر فتقدح منه النار . ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ : يعني : الإغارة وقت الصباح ، كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحاً ويستمع الأذان ، فإن سمع أذاناً وإلا أغار .

وقوله ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ : يعني : غباراً في مكان معترك الخيول . ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ : أي : توسطن ذلك المكان كلهن جمع . عن عبد الله [بن مسعود] : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ قال : الإبل . وقال علي : هي الإبل . وقال ابن عباس : هي الخيل . فبلغ علياً قول ابن عباس ، فقال : ما كانت لنا خيل يوم بدر . قال ابن عباس : إنما كان ذلك في سرية بعثت .

روى ابن أبي حاتم وابن جرير : عن ابن عباس ، قال : بينا أنا في الحجر جالساً ، جاءني رجل فسألني عن : ﴿ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ ، فقلت له : الخيل حين تغير في سبيل الله ، ثم تأوى إلى الليل ، فيصنعون طعامهم ، ويورون نارهم . فانفتل عني فذهب إلى علي ، وهو عند سقاية زمزم فسأله عن ﴿ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ ، فقال : سألت عنها أحداً قبلي ؟ قال : نعم ، سألت ابن عباس فقال : الخيل حين تغير في سبيل الله . قال : اذهب فادعه لي . فلما وقف على رأسه قال : تفتي الناس بما لا علم لك ، والله لئن كان أول غزوة في الإسلام بدر ، وما كان معنا إلا فرسان : فرس للزبير وفرس للمقداد ، فكيف تكون العاديات ضبحاً ؟ إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى . قال ابن عباس : فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال علي ، رضى الله عنه . وقد قال بقول علي : إنها الإبل جماعة . منهم : إبراهيم ، وعبيد بن عمير ويقول ابن عباس آخرون ، منهم : مجاهد وعكرمة ، وعطاء وقتادة ، والضحاك . واختاره ابن جرير . وقال أكثر هؤلاء في قوله : ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ : يعني : بحوافرها . وقيل : أسعرن الحرب بين ركبانهن . قاله قتادة . وعن ابن عباس ومجاهد : ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾

يعنى : مكر الرجال . وقيل : هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل . وقيل : المراد بذلك : نيران القبائل . وقال ابن جرير : والصواب الأول ؛ أنها الخيل حين تقدح بحوافرها .

وقوله : ﴿ فَأَلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يعنى إغارة الخيل صباحاً فى سبيل الله . وقال من فسرهما بالإبل : هو الدفع صباحاً من المزدلفة إلى منى . وقالوا كلهم فى قوله : ﴿ فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ هو : المكان الذى إذا حلت فيه أثارت به الغبار ، إما فى حج أو غزو . وقوله : ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ قال ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك : يعنى جمع الكفار من العدو . ويحتمل أن يكون : فوسطن بذلك المكان جميعهن ، ويكون ﴿ جَمْعًا ﴾ منصوباً على الحال المؤكدة . وقوله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ : هذا هو المقسم عليه ، بمعنى : أنه بنعم ربه لجحود كفور . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، الكنود : الكفور . قال الحسن : هو الذى يعد المصائب ، وينسى نعم ربه . وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ قال قتادة وسفيان الثوري : وإن الله على ذلك لشهيد . ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان ، قاله محمد بن كعب القرظي ، فيكون تقديره : وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد ، أى : بلسان حاله ، أى : ظاهر ذلك عليه فى أقواله وأفعاله ، كما قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : وإنه لحب الخير - وهو : المال - لشديد . وفيه مذهبان : أحدهما : أن المعنى : وإنه لشديد المحبة للمال . والثانى : وإنه لحريص بخيل ؛ من محبة المال . وكلاهما صحيح . ثم قال تعالى مَزْهُدًا فى الدنيا ، وَمُرْغَبًا فى الآخرة ، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال ، وما يستقبله الإنسان من الأهوال : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ ﴾ أى : أخرج ما فيها من الأموات ، ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى الصُّدُورِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعنى أبرز وأظهر ما كانوا يسرون فى نفوسهم ، ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أى : العالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ، ولا يظلم مثقال ذرة .

تفسير سورة القارعة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ ١ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ
النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾
فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ
﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾

﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ : من أسماء القيامة ، كالحاقة ، والطامة ، والصاخة ، والغاشية ، وغير ذلك .

ثم قال تعالى معظماً أمرها ومهولاً لشأنها : ﴿ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ ثم فسر ذلك بقوله :
﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ أى : فى انتشارهم وتفرقهم ، وذهابهم ومجيئهم ، من
جبرتهم مما هم فيه ، كأنهم فراش مبثوث ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ كَانَهُمْ جُرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾
[القمر: ٧] . وقوله : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ يعنى : قد صارت كأنها الصوف المنفوش ،
الذى قد شرع فى الذهاب والتمزق . قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، والحسن ، وقتادة :
﴿ الْعِهْنُ ﴾ : الصوف .

ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين ، وما يصيرون إليه من الكرامة أو الإهانة ،
بحسب أعمالهم ، فقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أى : رجحت حسناته على سيئاته ، ﴿ فَهُوَ فِي
عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ يعنى : فى الجنة . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أى : رجحت سيئاته على حسناته .
وقوله : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ قيل : معناه : فهو ساقط هاو بأم رأسه فى نار جهنم . وعبر عنه بأمه -
يعنى دماغه - روى نحو هذا عن ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، قال قتادة : يهوى فى النار
على رأسه . وقيل : معناه : ﴿ فَأُمُّهُ ﴾ التى يرجع إليها ، ويصير فى المعاد إليها ﴿ هَاوِيَةٌ ﴾ ،
وهى اسم من أسماء النار . قال ابن جرير : وإنما قيل : للهاوية أمه ؛ لأنه لا مأوى له غيرها .
وقال ابن زيد : الهاوية : النار ، هى أمه ومأواه التى يرجع إليها ويأوى إليها ، وقرأ :
﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ [آل عمران: ١٥١] . وعن قتادة أنه قال : هى النار ، وهى مأواهم . ولهذا قال
تعالى مفسراً للهاوية : ﴿ وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ . نَارُ حَامِيَةٍ ﴾ أى : حارة شديدة الحر ، قوية اللهب
والسعير . عن أبى هريرة : أن النبى ﷺ قال : « نار بنى آدم التى تُوقدون جزء من سبعين جزء
من نار جهنم » . قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية . فقال : « إنها فضّلت عليها بتسعة

وستين جزءاً » . رواه البخارى وفى بعض ألفاظه : « إنها فُضِلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلهن مثل حرّها » (١) .

وروى الإمام أحمد : عن أبى هريرة قال : سمعت أبا القاسم عليه السلام يقول : « نار بنى آدم التى توقدون ، جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » . فقال رجل : إن كانت لكافية . فقال : « لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً حرّاً فحراً » . تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وهو على شرط مسلم (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى عليه السلام : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد » . وهذا على شرط الصحيحين ، ولم يخرجوه من هذا الوجه ، وقد رواه مسلم (٣) . وقد روى الإمام أحمد : عن أبى هريرة ، عن النبى عليه السلام قال : « هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم » (٤) . تفرد به أيضاً من هذا الوجه ، وهو على شرط مسلم أيضاً . وروى أبو القاسم الطبرانى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله عليه السلام : « أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهى أشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً » (٥) . وثبت فى الصحيح أن رسول الله عليه السلام قال : « اشتكت النار إلى ربها فقالت : يا رب ، أكل بعضى بعضاً ، فأذن لها بنفسين : نفس فى الشتاء ، ونفس فى الصيف . فأشد ما تجدون فى الشتاء من بردها ، وأشد ما تجدون فى الصيف من حرّها » (٦) . وفى الصحيحين : « إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة ، فإن شدة الحر من فيح جهنم » (٧) .

(١) البخارى (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣/٣٠) .

(٢) المسند (٢٤٤/٢) ومسلم (٢٨٤٣/٣٠) .

(٤) المسند (٣٧٩/٢) .

(٥) الطبرانى فى الأوسط (٤٨٤٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٣٩٠/١٠) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٦) البخارى (٣٢٦٠) .

(٧) البخارى (٥٣٣) ومسلم (٦١٥/١٨٠) .

تفسير سورة التكاثر

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣
ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ٦
ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ٨ ﴿

يقول تعالى: أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتنادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر ، وصرتم من أهلها ؟! وقال الحسن البصرى : ﴿ أَلْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ فى الأموال والأولاد . وفى صحيح البخارى عن أبى بن كعب قال : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت : ﴿ أَلْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ يعنى : « لو كان لابن آدم واد من ذهب » (١) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الشخير ، عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ﴿ أَلْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ » ، يقول ابن آدم : مالى مالى . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ » . ورواه مسلم والترمذى (٢) .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول العبد : مالى مالى ! وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فافتنى (٣) ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » . تفرد به مسلم (٤) . وروى البخارى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد : يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » . وكذا رواه مسلم والترمذى (٥) . وروى الإمام أحمد عن أنس : أن النبى ﷺ قال : « يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنان : الحرص والأمل » . أخرجاه فى الصحيحين (٦) . والمراد بقوله : ﴿ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أى : صرتم إليها ودفنتم فيها ، كما جاء فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده ، فقال : « لا بأس ، طهور

(١) البخارى (٦٤٣٧) .

(٢) المسند (٢٤/٤) ومسلم (٣/٢٩٥٨) والترمذى (٣٣٥٤) .

(٣) فى المطبوعة : « فأمضى » والمثبت من المخطوطة ومسلم .

(٤) مسلم (٤/٢٩٥٩) .

(٥) البخارى (٦٥١٤) ومسلم (٥/٢٩٦٠) والترمذى (٢٣٧٩) .

(٦) المسند (١١٥/٣) والبخارى (٦٤٢١) ومسلم (١٠٤٧/١١٦) .

إن شاء الله . فقال : قلت : طهور ؟! بل هي حمى تفور ، على شيخ كبير ، تُزيره القبور ! قال : «فَنَعَمْ إِذَا» (١).

وقوله : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال الحسن البصري : هذا وعيد بعد وعيد . وقال الضحاك : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : الكفار ، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : أيها المؤمنون .

وقوله : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أى : لو علمتم حق العلم ، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة ، حتى صرتم إلى المقابر . ثم قال : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم ، وهو قوله : ﴿ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ توعدّهم بهذا الحال ، وهي رؤية النار (٢) ، التي إذا زفرت زفرة خرّ كل ملك مقرب ، ونبي مرسل على ركبتيه ، من المهابة والعظمة ومعاناة الأهوال . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ أى : ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم ، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك . ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته .

وروى ابن جرير عن أبي هريرة قال : بينما أبو بكر وعمر جالسان ، إذ جاءهما النبي ﷺ فقال : « ما أجلسكما هاهنا ؟ » قالا : والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع . قال : «والذى بعثنى بالحق ما أخرجنى غيره» . فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار ، فاستقبلتهم المرأة ، فقال لها النبي ﷺ : « أين فلان ؟ » فقالت : ذهب يستعذب لنا ماء . فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال : مرحبا ، ما زار العباد أفضل من شيء زارنى اليوم . فعلق قربته بكرب نخلة ، وانطلق فجاءهم بعدق ، فقال النبي ﷺ : « ألا كنت اجتنيبت ؟ » فقال : أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم . ثم أخذ الشفرة ، فقال النبي ﷺ : « إياك والحلوب ؟ » فذبح لهم يومئذ ، فأكلوا . فقال النبي ﷺ : « لتسألن عن هذا يوم القيامة . أخرجكم من بيوتكم الجوع ، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا ، فهذا من النعيم » ورواه مسلم وأهل السنن (٣) . وروى أحمد عن معاذ بن عبد الله بن حبيب ، عن أبيه ، عن عمه قال : كنا في مجلس فطلع علينا النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء ، فقلنا : يا رسول الله ، نراك طيب النفس . قال : « أجل » . قال : ثم خاض الناس في ذكر الغنى ، فقال رسول الله ﷺ : « لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم » . ورواه ابن ماجه (٤) . وروى الترمذى عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « إن أول ما يسأل

(١) البخارى (٥٦٦٢ ، ٥٦٥٦ ، ٧٤٧٠) .

(٢) فى المطبوعة : « رؤية أهل النار » . ولا معنى لزيادة « أهل » .

(٣) ابن جرير فى التفسير (١٨٥ / ٣٠) ومسلم (٢٠٣٨ / ١٤٠) وأبو داود (٥١٢٨) والترمذى (٢٣٦٩ ، ٢٨٢٢) .

(٤) المسند (٣٧٢ / ٥) وابن ماجه (٢١٤١) وفى زوائد البوصيرى : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

عنه - يعنى يوم القيامة - العبد من النعيم أن يقال له : ألم نُصِحْ لك جسمك ، ونُروك من الماء البارد ؟ . ورواه ابن حبان فى صحيحه (١) . وعن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : لما نزلت : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قالوا : يا رسول الله ، لأى نعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ قال : « إن ذلك سيكون » . رواه الترمذى وابن ماجه وأحمد ، وقال الترمذى : حسن (٢) . وقال سعيد بن جبیر : حتى عن شربة عسل . وقال مجاهد : عن كل لذة من لذات الدنيا . وقال الحسن البصرى : نعيم الغداء والعشاء ، وقال أبو قلابة : من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقى . وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال .

وقال ابن عباس : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ النعيم : صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العباد فيما استعملوها ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] . وثبت فى صحيح البخارى ، وسنن الترمذى وابن ماجه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » (٣) . ومعنى هذا : أنهم مقصرون فى شكر هاتين النعمتين ، لا يقومون بواجبهما ، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه ، فهو مغبون . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « يقول الله ، عز وجل - يوم القيامة : يا بن آدم ، حملتك على الخيل والإبل ، وزوجتك النساء ، وجعلتك تربع وترأس ، فأين شكر ذلك ؟ » (٤) . تفرد به من هذا الوجه .

(١) الترمذى (٣٣٥٨) وصحيحه الألبانى وابن حبان فى صحيحه (٧٣٢٠ إحصان) .

(٢) الترمذى (٣٣٥٦) وابن ماجه (٤١٥٨) وحسنه الألبانى وهو فى المسند (٤٢٩/٥) .

(٣) البخارى (٦٤١٢) والترمذى (٢٣٣٤) وابن ماجه (٤١٧٠) .

(٤) المسند (٤٩٢/٢) ورواه مسلم (١٦/٢٩٦٨) .

تفسير سورة العصر

وهي مكية

روى الطبراني عن عبد الله بن حصن قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا، لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر « سورة العصر » إلى آخرها ، ثم يسلم أحدهما على الآخر (١) . وقال الشافعي لو تدبر الناس هذه السورة ، لو سعتهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ﴿ ١ ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿ ٢ ﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿ ٣ ﴾

العصر : الزمان الذي يقع فيه حركاتُ بني آدم ، من خير وشر . وقال زيد بن أسلم : هو العشي ، والمشهور الأول .

فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفى خسر ، أى : فى خسارة وهلاك ، ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم ، ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ وهو أداء الطاعات ، وترك المحرمات ، ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ على المصائب والأقذار ، وأذى من يؤذى ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر .

(١) الطبراني فى الأوسط (٥٠٩٧) .

تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ١ ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ ٢ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ ٣ ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ ٤ ﴿وَمَا أَدرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ ٥ ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ ٦ ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِتَةِ﴾ ٧ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ ٨ ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ ٩ ﴿

الهماز بالقول ، واللماز بالفعل . يعنى : يزدري الناس ويتقص بهم . وقد تقدم بيان ذلك فى قوله : ﴿ هَمَازٌ مِّثْلُ بَنِيمٍ ﴾ [القلم : ١١] .

قال ابن عباس : ﴿ هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ ﴾ : طعان معياب . وقال الربيع بن أنس : الهمزة : يهمزه فى وجه ، واللمزة من خلفه . وقال قتادة : يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه ، ويأكل لحوم الناس ، ويطعن عليهم . وقال مجاهد : الهمزة : باليد والعين ، واللمزة : باللسان . وهكذا قال ابن زيد ، وزيد ابن أسلم : هُمَزَةٌ لَحُومُ النَّاسِ . ثم قال بعضهم : المراد بذلك الأخنس بن شريق . وقيل غيره . وقال مجاهد : هى عامة .

وقوله : ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ أى : جمعه بعضه على بعض ، وأحصى عدده كقوله : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ [المعارج : ١٨] . قاله السدى ، وابن جرير . وقال محمد بن كعب فى قوله : ﴿ جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ : ألهاه ماله بالنهار ، هذا إلى هذا ، فإذا كان الليل ، نام كأنه جيفة متنتة .

وقوله : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أى : يظن أن جمعه المال يخلده فى هذه الدار ؟ ﴿ كَلَّا ﴾ أى : ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب . ثم قال تعالى : ﴿ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ أى : ليلقين هذا الذى جمع مالا فعدده فى الحطمة وهى اسم طبقة من أسماء النار ؛ لأنها تحطم من فيها . ولهذا قال : ﴿ وَمَا أَدرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِتَةِ ﴾ قال ثابت البناني : تحرقهم إلى الآفئة وهم أحياء ، ثم يقول : لقد بلغ منهم العذاب ، ثم يبكى . وقال محمد بن كعب : تأكل كل شئ من جسده ، حتى إذا بلغت فؤاده حَذَوَ حلقة ترجع على جسده .

وقوله : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴾ أى : مطبقة كما تقدم تفسيره فى سورة البلد .

وقوله : ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ قال عطية العوفى : عمد من حديد . وقال السدى : من نار . وعن ابن عباس : ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ يعنى : الأبواب هى الممدودة . وقال قتادة فى قراءة عبد الله

ابن مسعود : إنها عليهم مؤصدة بعمد ممة . وقال العوفى ، عن ابن عباس : أدخلهم فى عمَد فمدت عليهم بعماد ، وفى أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب . وقال قتادة : كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد فى النار . واختاره ابن جرير . وقال أبو صالح : ﴿ فى عمَدٍ مُّمدَّدةٍ ﴾ ، يعنى القيود الطوال .

تفسير سورة الفيل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش ، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل ، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود ، فأبادهم الله ، وأرغم آنافهم ، وخيب سعيهم ، وأضل عملهم ، وردهم بشر خيبة . وكانوا قوما نصارى ، وكان دينهم إذ ذلك أقرب حالا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان . ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ، ولسان حال القدرة يقول : لم ينصركم - يا معشر قريش - على الحبشة لخيريتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببيعة النبي الأمي محمد ﷺ خاتم الأنبياء .

وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب ، وقد تقدم في قصة أصحاب الأخدود : أن ذا نُوَّاس - وكان آخر ملوك حمير ، وكان مشركاً - هو الذي قتل أصحاب الأخدود ، وكانوا نصارى ، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً ، فلم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان ، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام وكان نصرانياً - فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة ، لكونه أقرب إليهم ، فبعث معه أميرين : أرباط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم ، في جيش كثيف ، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار ، واستلبوا الملك من حمير ، وهلك ذو نواس غريقاً في البحر . واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران : أرباط وأبرهة ، فاختلفا في أمرهما وتصالوا وتقاتلا وتصافا ، فقال أحدهما للآخر : إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الحبشين بيننا ، ولكن ابرز إلى وأبرز إليك ، فأينا قتل الآخر استقل بعده بالملك . فأجابه إلى ذلك فتبارزا ، وخلف كل واحد منهما قناة ، فحمل أرباط على أبرهة فضربه بالسيف ، فشرم أنفه وفمه وشق وجهه ، وحمل عتودة مولى أبرهة على أرباط فقتله ، ورجع أبرهة جريحاً ، فداوى جرحه فبرأ ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن . فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه ، ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجز ناصيته . فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه ، وبعث مع رسوله بهدايا وتحف ، ويجراب فيها من تراب اليمن ، وجز ناصيته فأرسلها معه ،

ويقول في كتابه : ليطأ الملك على هذا الجراب فيسير قسمه ، وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك . فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ، ورضى عنه ، وأقره على عمله . وأرسل أبرهة يقول للنجاشي : إني سأبنى لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبنَ قبلها مثلها . فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء ، رفيعة البناء ، عالية الفناء ، مزخرفة الأرجاء . سمّتها العرب القُدّيس ؛ لارتفاعها ، لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها . وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حجّ العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة ، ونادى بذلك في مملكته ، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك ، وغضبت قريش غضباً شديداً ، حتى قصدها بعضهم ، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً . فأحدث فيها وكرّاً راجعاً . فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة ، وقالوا له : إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به ، فأقسم أبرهة ليسيرون إلى بيت مكة ، وليخرّبنه حجراً حجراً .

وذكر مقاتل بن سليمان : أن فتية من قريش دخلوا فأججوا فيها ناراً ، وكان يوماً فيه هواء شديد فاحترقت ، وسقطت إلى الأرض .

فتأهب أبرهة لذلك ، وصار في جيش كثيف عرّم لثلاً يصده أحد عنه ، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله . يقال له : محمود . وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك ، ويقال : كان معه أيضاً ثمانية أفيال ، وقيل : اثنا عشر فيلاً غيره ، فالله أعلم . يعنى ليهدم به الكعبة ، بأن يجعل السلاسل في الأركان ، وتوضع في عنق الفيل ، ثم يزجر ليلقى الحائط جملة واحدة . فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً ، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجة دون البيت ، وردّ من أراد به بكيد . فخرج إليه رجل من أشرف أهل اليمن وملوكهم ، يقال له « ذو نَفَر » فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة ، وجهاده عن بيت الله ، وما يريد من هدمه وخرابه . فأجابوه وقاتلوا أبرهة ، فهزمهم لما يريد الله - عز وجل - من كرامة البيت وتعظيمه ، وأسر « ذو نَفَر » فاستصحبه معه . ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم اعترض له نُفَيْل بن حَبِيب الخثعمي في قومه : شَهْرَان (١) وناهس ، فقاتلوه ، فهزمهم أبرهة ، وأسر نُفَيْل بن حبيب ، فأراد قتله ثم عفا عنه ، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز . فلما اقترب من أرض الطائف ، خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم ، الذي عندهم ، الذي يسمونه اللات . فأكرمهم وبعثوا معه « أبا رغال » دليلاً . فلما انتهى أبرهة إلى الْمُغَمْس - وهو قريب من مكة - نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها ، فأخذوه . وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب . وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة ، وكان يقال له : « الأسود بن مَفْصُود » فهجاه بعض العرب - فيما ذكره ابن إسحاق - وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة ، وأمره أن يأتيه

(١) في المطبوعة : « شهدان » بالبدال المهملة بعد الهاء ، وهو خطأ . قال في القاموس : « وشَهْرَان بن عَفْرِس أبو قبيلة من خثعم » (مادة : شهر) .

بأشرف قريش ، وأن يخبره أن الملك لم يجرئ لقتالكم إلا أن تصُدّوه عن البيت . فجاء حناطة فدلّ على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة ، وإن يخلى بينه وبينه ، فوالله ما عندنا دَفْعُ عنه . فقال له حناطة : فاذهب معي إليه . فذهب معه ، فلما رآه أبرهة أجله ، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً^(١) حسن المنظر ، ونزل أبرهة عن سريره ، وجلس معه على البساط ، وقال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ فقال لترجمان : إن حاجتي أن يردّ علىّ الملك مائتي بعير أصابها لى . فقال أبرهة لترجمانه : قل له : لقد كنت أعجبتي حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه ، لا تكلمني فيه ؟! فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه . قال : ما كان ليمنع مني ! قال : أنت وذاك .

ويقال : إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشرف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت ، فأبى عليهم ، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله ، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة ، والتحصن في رؤوس الجبال ، تخوفاً عليهم من مَعرة الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، وقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة :

لَاهُمْ إِنْ الْمَرْءَ يَمُ نَعُ رَحْلَهُ فَاْمْنَعُ حَالَك
لَا يَغْلِبُنَّ صَلِيْهُهُمْ وَمَحَالُهُمْ غَدَوْا مِحَالَك

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ، ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال . وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلّدة ، لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق ، فيستقم الله منه .

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهياً فيله - وكان اسمه محموداً - وعبأ جيشه ، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : « ابرك محمود ، أو ارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام » . ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل . وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل . وضربوا الفيل ليقوم فأبى . فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مرقاه فبزغوه بها ليقوم ، فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول . ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف

(١) في المطبوعة : « جسيما » والمثبت من المخطوطة .

والبَلَسَان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره ، وحجران فى رجله ، أمثال الحمص والعَدَس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت . وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق ، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق . هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ، ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النعمة ، وجعل نفيل يقول :

أَيْنَ الْمَفْرُ؟ وَالْإِلَهُ الطَّالِب
وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ غَيْرَ الْغَالِبِ

قال ابن إسحاق : وقال نفيل فى ذلك أيضاً :

أَلَا حُيِّيتَ عَنَّا يَا رُدَيْنَا	نَعْمَانَاكُمْ مَعَ الْإِصْبَاحِ عَيْنَا
رُدَيْنَةُ ، لَو رَأَيْتَ - وَلَا تَرِيهِ	لَدَى جَنْبِ الْمَحْصَبِ - مَا رَأَيْنَا
إِذَا لَعَذَرْتَنِي وَحَمَدْتَ أَمْرِي	وَلَمْ تَأْسَى عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَا
حَمَدْتُ اللَّهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طِيْرًا	وَخَفْتُ حَجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا
فَكُلَّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَنْ نَفِيلٍ	كَأَنَّهُ عَلَى الْحَبْشَانِ دَيْنَا !

وذكر الواقدي بإسناده أنهم لما تعبوا للدخول الحرم وهيؤوا الفيل ، جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب فيها ، فإذا وجهوه إلى الحرم ربض وصاح . وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه ، ليقهر الفيل على دخول الحرم . وطال الفصل فى ذلك . هذا وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة ، منهم المطعم بن عدى ، وعمرو بن عائذ ابن عمران بن مخزوم ، ومسعود بن عمرو الثقفى ، على حراء ينظرون إلى ما الحبشة يصنعون ، وماذا يلقون من أمر الفيل ، وهو العجب العجائب . فبينما هم كذلك ، إذ بعث الله عليهم طيراً أبابيل ، أى قطعاً قطعاً صفراً دون الحمام ، وأرجلها حمر ، ومع كل طائر ثلاثة أحجار ، وجاءت فحلقت عليهم ، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا .

وقال محمد بن كعب : جاؤوا بفيلين فأما محمود فربض ، وأما الآخر فشجع فحصب . وقال وهب بن منبه : كان معهم فيلة ، فأما محمود - وهو فيل الملك - فربض ، ليقتردى به بقية الفيلة ، وكان فيها فيل تشجع فحصب ، فهربت بقية الفيلة . وقال عطاء بن يسار ، وغيره : ليس كلهم أصابه العذاب فى الساعة الراهنة ، بل منهم من هلك سريعاً ، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً وهم هاربون ، وكان أبرهة ممن تساقط عضواً عضواً ، حتى مات ببلاد خثعم .

وقال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون على كل منهل ، وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون .

وذكر مقاتل بن سليمان : أن قريشاً أصابوا مالا جزيلاً من أسلابهم ، وما كان معهم ، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة . وقال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب

ابن عتبة : أنه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة والجُدري بأرض العرب ذلك العام . وهكذا روى عن عكرمة ، من طريق جيد . قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمداً ﷺ كان فيما يعد به على قريش من نعمته عليهم وفضله ، ما ردّ عنهم من أمر الحبشة ، لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ . ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [سورة قريش] أى : لثلا يغير شيئاً من حالهم التى كانوا عليها ، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه .

قال ابن هشام : الأبايل : الجماعات ، ولم تتكلم العرب بواحدة . قال : وأما السجيل ، فأخبرنى يونس النحوى وأبو عبيدة أنه عند العرب : الشديد الصلب . قال : وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية ، جعلتهما العرب كلمة واحدة ، وإنما هو سنج وجل يعنى بالسنج : الحجر ، والجل : الطين . يقول : الحجارة من هذين الجنسين : الحجر والطين . قال : والعصف : ورق الزرع الذى لم يقضب ، واحده عصفه . انتهى ما ذكره . وقال ابن عباس ، والضحاك : أبايل : يتبع بعضها بعضاً . وقال الحسن البصرى ، وقتادة : الأبايل : الكثيرة . وقال مجاهد : أبايل : شتى متتابعة مجتمعة . وقال ابن زيد : الأبايل : المختلفة ، تأتى من هاهنا ، ومن هاهنا ، أتتهم من كل مكان . وقال السدّى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ حِجَارَةٌ مِّن سِجِيلٍ ﴾ قال : طين فى حجارة .

وقوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعنى التبن الذى تسميه العامة : هبور . وفى رواية عن سعيد : ورق الحنطة . وعنه أيضاً : العصف : التبن . والمأكول : القصيل يجز للدواب . وكذلك قال الحسن البصرى . وعن ابن عباس : العصف : القشرة التى على الحبة ، كالغلاف على الحنطة .

والمعنى : أن الله ، سبحانه وتعالى ، أهلكهم ودمرهم ، وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً ، وأهلك عامتهم ، ولم يرجع منهم بخير إلا وهو جريح ، كما جرى لملكهم أبرهة ، فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء ، وأخبرهم بما جرى لهم ، ثم مات . فملك بعده ابنه يكسوم ، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة . ثم خرج سيف بن ذى يزن الحميرى إلى كسرى فاستعان على الحبشة ، فأنفذ معه من جيوشه فقاتلوا معه ، فرد الله إليهم ملكهم ، وما كان فى آبائهم من الملك ، وجاءته وفود العرب بالتهنئة .

وقد قدمنا فى تفسير « سورة الفتح » (١) أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التى تهبط به على قريش ، بركت ناقته ، فزجروها فألحّت ، فقالوا : خلأت القصواء ، أى : حرّنت . فقال رسول الله ﷺ : « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها

(١) راجع تفسير الآية (٢٦) .

حابس الفيل ». ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى اليوم خطة يُعَظَمُونَ فيها حُرُمَاتِ الله، إلا أجبتهم إليها ». ثم زجرها فقامت. والحديث من أفراد البخارى (١).

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلَّط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حُرُمَتُها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب» (٢).

(٢) البخارى (١١٢) ومسلم (٤٤٧/١٣٥٥).

(١) وهو فى البخارى (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

تفسير سورة لإيلاف قريش

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾ ﴿إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾

هذه السورة متعلقة بما قبلها . كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ لأن المعنى عندهما : حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿لإيلاف قريش﴾ أى : لائتلافهم واجتماعهم فى بلدهم آمين .

وقيل : المراد بذلك ما كانوا يالفونه من الرحلة فى الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشام فى المتاجر وغير ذلك ، ثم يرجعون إلى بلدهم آمين فى أسفارهم ؛ لعظمتهم عند الناس ، لكونهم سكان حرم الله ، فمن عرفهم احترامهم ، بل من صوفى إليهم وسار معهم أمن بهم . هذا حالهم فى أسفارهم ورحلتهم فى شتائهم وصيفهم . وأما فى حال إقامتهم فى البلد ، فكما قال تعالى : ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت : ٦٧] . ولهذا قال : ﴿لإيلاف قريش . إيلافهم﴾ ، بدل من الأول ومفسر له . ولهذا قال : ﴿إيلافهم رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ .

وقال ابن جرير : الصواب أن « اللام » لام التعجب ، كأنه يقول : اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتى عليهم فى ذلك . قال : وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان .

ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أى : فليوحدوه بالعبادة ، كما جعل لهم حرما آمنا وبيتا محرما ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل : ٩١] .

وقوله : ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ أى : هو رب البيت ، وهو الذى أطعمهم من جوع ، ﴿وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أى : تفضل عليهم بالأمن والرخص ، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ، ولا يعبدوا من دونه صنما ولا ندأ ولا وثناً . ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ، ومن عصاه سلبهما منه ، كما قال تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل : ١١٢ ، ١١٣] .

تفسير السورة التي يذكر فيها الماعون
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾

يقول تعالى : أرأيت - يا محمد - الذي يكذب بالدين ؟ وهو : المعاد والجزاء والثواب ، ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ أى : هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه ، ولا يطعمه ولا يحسن إليه ، ﴿ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ . وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨] يعنى : الفقير الذى لا شئ له يقوم بأوده وكفايته .

ثم قال : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، قال ابن عباس ، وغيره : يعنى المنافقين ، الذين يصلون فى العلانية ولا يصلون فى السر . ولهذا قال : ﴿ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ أى : الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها ، ثم هم عنها ساهون ، إما عن فعلها بالكلية ، كما قاله ابن عباس ، وإما عن فعلها فى الوقت المقدر لها شرعا ، فيخرجها عن وقتها بالكلية ، كما قاله مسروق ، وأبو الضحى . وقال عطاء بن دينار : والحمد لله الذى قال : ﴿ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، ولم يقل : فى صلاتهم ساهون .

وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائما أو غالبا . وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به . وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها ، فاللفظ يشمل هذا كله ، ولكل من اتصف بشئ من ذلك قسط من هذه الآية . ومن اتصف بجميع ذلك ، فقد تم نصيبه منها ، وكمل له النفاق العملى . كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس ، حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقرَ أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » (١) . فهذا آخر صلاة العصر التى هى الوسطى ، كما ثبت به النص إلى آخر وقتها ، وهو وقت كراهة ، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب ، لم يطمئن ولا خشع فيها أيضا ؛ ولهذا قال : « لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » . ولعله إنما حمله على القيام إليها مراعاة الناس ، لا ابتغاء وجه الله ، فهو إذا لم يصل بالكلية . قال

(١) مسلم (٦٢٢ / ١٩٥) ولم يعزه صاحب التحفة (٢٩٦ / ١) للبخارى .

تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢] . وقال هاهنا : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع الناس بعمله ، سمع الله به سامع خلقه ، وحقره وصغره » (١) .

وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية ، أو صلاتها بعد وقتها شرعا ، أو تأخيرها عن أول الوقت .

وقوله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ أى : لا أحسنوا عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به ، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم . فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربيات أولى وأولى . وقد قال مجاهد : قال على : الماعون : الزكاة . وكذا رواه السدى ، عن أبى صالح ، عن على . وكذا روى من غير وجه عن ابن عمر . وبه يقول محمد بن الحنفية ، وسعيد بن جبيرة ، وعكرمة ، ومجاهد .

وقال الحسن البصرى : إن صلى رأى ، وإن فاتته لم يأس عليها ، ويمنع زكاة ماله . وفى لفظ : صدقة ماله . وقال زيد بن أسلم : هم المنافقون ، ظهرت الصلاة فصلوها ، وخفيت الزكاة فمنعوها . وقال يحيى بن الجزار : إن أبا العبيدين سأل عبد الله بن مسعود عن الماعون ، فقال : هو ما يتعاوره الناس بينهم من الفأس ، والقدر ، والدلو .

وروى ابن جرير عن عبد الله قال : كنا أصحاب رسول الله ﷺ نتحدث أن الماعون الدلو ، والفأس ، والقدر ، لا يستغنى عنهن (٢) .

وعن أبى إسحاق قال : سمعت سعد بن عياض يحدث عن أصحاب النبى ﷺ مثله . وعن عبد الله : أنه سئل عن الماعون ، فقال : ما يتعاوره الناس بينهم : الفأس والدلو ، وشبهه . وقال ابن عباس : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ يعنى : متاع البيت . وكذا قال مجاهد وإبراهيم النخعى ، وسعيد ابن جبيرة ، وغير واحد : إنها العارية للأمتعة .

وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ قال : لم يجئ أهلها بعد .

وقال عكرمة : رأس الماعون زكاة المال ، وأدناه المنخل ، والدلو ، والإبرة . رواه ابن أبى حاتم . وهذا الذى قاله عكرمة حسن ؛ فإنه يشمل الأقوال كلها ، وترجع كلها إلى شىء واحد . وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة . ولهذا قال محمد بن كعب : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ قال : المعروف . ولهذا جاء فى الحديث : « كل معروف صدقة » (٣) .

(١) المسند (٦٩٨٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وهو فى المسند أيضاً برقم (٦٥٠٩) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٠٥ / ٣٠) . (٣) البخارى (٦٠٢١) ومسلم (٥٢ / ١٠٠٥) .

تفسير سورة الكوثر
وهي مدنية ، وقيل : مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾
هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿

قد ورد في صفة الحوض يوم القيامة أنه يشخب فيه ميزابان من السماء عن نهر الكوثر، وأن آيته عدد نجوم السماء. وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائي، ولفظ مسلم قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسم، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت على آفا سورة»، فقرا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ. إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهر وعديني ربي، عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي. فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك» (١). وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة، وأنها منزلة معها.

فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فقد تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة. وقد رواه الإمام أحمد عن أنس أنه قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾. قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت الكوثر، فإذا هو نهر يجري، ولم يشق شقاً، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ، فضربت يدي في تربته، فإذا مسكه ذفرة، وإذا حصاه اللؤلؤ» (٢). روى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر، حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت يدي إلى ما يجري فيه الماء، فإذا مسك أذفر. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله، عز وجل». ورواه البخاري ومسلم، عن أنس بن مالك قال: لما عرج بالنبى ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر». وهذا لفظ البخاري (٣). وروى ابن جرير عن شريك بن أبي نمر، قال:

(١) مسلم (٤٠٠/٥٣) وأبو داود (٤٧٤٧) والنسائي في الكبرى (١١٧٠٢).

(٢) المسند (١٥٢/٣) ورواه الترمذي (٣٣٦١) وقال: «حسن صحيح».

(٣) المسند (١٠٣/٣) والبخاري (٤٩٦٤) وعزاه صاحب التحفة (٣٣٧/١) للبخاري ومسلم ثم قال: «حديث مسلم هذا لم يذكره أبو السعود»، وقال صاحب النكت الظراف: «أورده الحميدي في أفراد البخاري».

سمعت أنس بن مالك يحدثنا قال : لما أسرى برسول الله ﷺ ، مضى به جبريل فى السماء الدنيا ، فإذا هو بنهر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فذهب يشم ترابه ، فإذا هو مسك . قال : « يا جبريل ، ما هذا النهر ؟ قال : هو الكوثر الذى خبأ لك ربك » . وهو مخرج فى الصحيحين (١) .

ورى البخارى عن أبى عبيدة ، عن عائشة قال : سألتها عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، قالت : نهر أعطيه نبيكم ﷺ ، شاطئاه عليه درّ مجوف ، آيته كعدد النجوم . ورواه أحمد والنسائى (٢) . ثم قال البخارى عن ابن عباس أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبیر : فإن ناساً يزعمون أنه نهر فى الجنة ؟ فقال سعيد : النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه (٣) . وعن ابن عباس قال : الكوثر : الخير الكثير (٤) . وهذا التفسير يعم النهر وغيره ؛ لأن الكوثر من الكثرة ، وهو الخير الكثير ، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، ومجاهد ، حتى قال مجاهد : هو الخير الكثير فى الدنيا والآخرة . وقال عكرمة : هو النبوة والقرآن ، وثواب الآخرة . وقد صح عن ابن عباس أنه فسرهُ بالنهر أيضاً ، فروى ابن جرير عن ابن عباس قال : الكوثر : نهر فى الجنة ، حافتاه ذهب وفضة ، يجرى على الياقوت والدر ، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل (٥) .

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ، والماء يجرى على اللؤلؤ ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل » . وهكذا رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح (٦) .

وقوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ أى : كما أعطيناك الخير الكثير فى الدنيا والآخرة ، ومن ذلك النهر الذى تقدم صفته فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونحرك ، فاعبده وحده لا شريك له ، وانحر على اسمه وحده لا شريك له . كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] ، قال ابن عباس ، وعطاء ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن : يعنى بذلك نحر البدن ونحوها . وكذا قال قتادة ، ومحمد بن كعب القرظى ، والضحاك وغير واحد من السلف . وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله ، والذبح على غير اسمه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ الآية [الأنعام: ١٢١] .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ وَأَنْحَرْ ﴾ : وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر . يروى

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٠٧ / ٣٠) والبخارى (٧٥١٧) ومسلم (٢٦٢ / ١٦٢) .

(٢) البخارى (٤٩٦٥) والمسند (٨١ / ٦) والنسائى فى الكبرى (٦١٧٠٥) .

(٣) البخارى (٤٩٦٦) . (٤) البخارى (٦٥٧٨) .

(٥) ابن جرير فى التفسير (٢٠٧ / ٣٠) .

(٦) المسند (٦٤٧٦) والترمذى (٣٣٦١) وابن ماجه (٤٣٣٤) . وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

هذا عن علي، ولا يصح. وعن الشعبي مثله. وعن أبي جعفر الباقر : ﴿ وَأَنْحَرُ ﴾ يعني : ارفع اليدين عند افتتاح الصلاة . وقيل : ﴿ وَأَنْحَرُ ﴾ أى : استقبل بنحرك القبلة . ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير . وكل هذه الأقوال غريبة جدا . والصحيح القول الأول : أن المراد بالنحر ذبح المناسك ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلى العيد ، ثم ينحر نسكه ويقول : « من صلى صلاتنا ، ونسك نسكنا ، فقد أصاب النسك . ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له » . فقام أبو بردة ابن نيار فقال : يا رسول الله ، إني نَسَكْتُ شاتى قبل الصلاة ، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم . قال : « شاتك شاة لحم » . قال : فإن عندى عناقا هى أحب إلى من شاتين ، أفتجزئ عني ؟ قال : « تجزئك ، ولا تجزئ أحداً بعدك » (١) . قال ابن جرير : والصواب قول من قال : معنى ذلك : فاجعل صلاتك كلها لربك خالصا دون ما سواه من الأنداد والآلهة ، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان ؛ شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير ، الذى لا كفاء له ، وخصك به . وهذا الذى قاله فى غاية الحسن ، وقد سبقه إلى هذا المعنى : محمد بن كعب القرظي ، وعطاء .

وقوله : ﴿ إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ أى : إن مبغضك - يا محمد - ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين ، هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكره . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبیر ، وقتادة : نزلت فى العاص بن وائل . وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان قال : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره . فأنزل الله هذه السورة . وقال شمر بن عطية : نزلت فى عقبة بن أبى معيط . وقال ابن عباس أيضا ، وعكرمة : نزلت فى كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش . وروي البزار : عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُنْبَرِ المنبر من قومه يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السدانة وأهل السقاية ؟ فقال : أنتم خير منه . قال : فنزلت : ﴿ إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ . هكذا رواه البزار (٢) ، وهو إسناد صحيح . وقال عطاء : نزلت فى أبى لهب ، وذلك حين مات ابن رسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال : بُتِرَ محمد الليلة . فأنزل الله فى ذلك : ﴿ إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ . وعن ابن عباس : نزلت فى أبى جهل . وعنه : ﴿ إِنَّ شَانِكَ ﴾ يعنى : عدوك . وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر ، وغيرهم . وقال عكرمة : الأبتر : الفرد . وقال السدّي : كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا : بُتِرَ . فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا : بتر محمد . فأنزل الله : ﴿ إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ . وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذى إذا مات انقطع ذكره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمرا على دوام الآباد ، إلى يوم الحشر والمعاد ، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد .

(١) البخارى (٩٨٣) .

(٢) البزار فى المسند (٢٢٩٣ كشف الاستار) .

تفسير سورة قل يا أيها الكافرون

وهي مكية

ثبت في صحيح مسلم ، عن جابر : أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة ، وب ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في ركعتي الطواف (١) . وروى الإمام أحمد عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب ، بضعا وعشرين مرة - أو : بضع عشرة مرة - ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٢) . وروى أحمد عن ابن عمر قال : رمقت النبي ﷺ أربعاً وعشرين - أو : خمسا وعشرين - مرة ، يقرأ في الركعتين قبل الفجر ، والركعتين بعد المغرب بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٣) . وروى أحمد عن ابن عمر قال : رمقت النبي ﷺ شهراً ، وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . وكذا رواه الترمذي وابن ماجه . وقال الترمذي : هذا حديث حسن (٤) . وروى أبو القاسم الطبراني عن جبلة بن حارثة - وهو أخو زيد بن حارثة - أن النبي ﷺ قال : « إذا أويت إلى فراشك فاقرأ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ حتى تمر بآخرها ، فإنها براءة من الشرك » (٥) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون ، وهي أمرة بالإخلاص فيه ، فقوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ شمل كل كافر على وجه الأرض ، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش . وقيل : إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ، ويعبدون معبوده سنة ، فأنزل الله هذه السورة ، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية ، فقال : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني : من الأصنام والأنداد ، ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ وهو الله وحده لا شريك له . ف « ما » هاهنا بمعنى « من » .

ثم قال : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أي : ولا أعبد عبادتكم ، أي : لا

(١) مسلم (١٢١٨/١٤٧)

(٢) المسند (٤٧٦٣) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٣) المسند (٥٧٤٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٤) المسند (٥٦٩١) والترمذي (٤١٧) وابن ماجه (١١٤٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٥) الطبراني في المعجم الكبير (٢٨٧/٢) (٢١٩٥) وقال الهيثمي في الزوائد (١٢٤/١٠) : « رجاله وثقوا » .

أسلكها ولا اقتدى بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذى يحبه ويرضاه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أى : لا تقتدون بأوامر الله وشرعه فى عبادته ، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم ، كما قال : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [النجم: ٢٣] ، فتبرأ منهم فى جميع ما هم فيه ، فإن العابد لا بد له من معبود يعبد ، وعبادة يسلكها إليه ، فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ؛ ولهذا كان كلمة الإسلام « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أى : لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله ؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِيْ عَمَلِيْ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١] ، وقال : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ [القصص: ٥٥] . وقال البخارى : يقال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ : الكفر ، ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ : الإسلام . ولم يقل : « دينى » لأن الآيات بالنون ، فحذف الياء ، كما قال : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨] ، و﴿ يَسْقِينِ (١) ﴾ [الشعراء: ٧٩] . وقال غيره : لا أعبد ما تعبدون الآن ، ولا أجيبكم فيما بقى من عمرى ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وهم الذين قال : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [المائدة: ٦٤] . انتهى ما ذكره (٢) .

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد ، كقول : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥ ، ٦] ، وكقوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ٦ ، ٧] . وحكاها بعضهم - كابن الجوزى ، وغيره - عن ابن قتيبة ، فالله أعلم . فهذه ثلاثة أقوال : أولها ما ذكرناه أولاً . الثانى : ما حكاها البخارى وغيره من المفسرين أن المراد : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ . ولا أنا عابدٌ ما عبدتُمْ . ولا أنتم عابدون ما أعبدُ فى المستقبل . الثالث : أن ذلك تأكيد محض . وثم قول رابع ، نصره أبو العباس بن تيمية فى بعض كتبه ، وهو أن المراد بقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ : نفى الفعل لأنها جملة فعلية ، ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ : نفى قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفى بالجملة الإسمية أكد فكانه نفى الفعل ، وكونه قابلاً لذلك ومعناه نفى الوقوع ونفى الإمكان الشرعى أيضاً . وهو قول حسن أيضاً ، والله أعلم .

وقد استدلل الإمام أبو عبد الله الشافعى وغيره بهذه الآية الكريمة : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة فورث اليهود من النصارى وبالعكس ؛ إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به ؛ لأن الأديان - ما عدا الإسلام - كلها كالشيء الواحد فى البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس ؛ لحديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » (٣) .

(١) فى المطبوعة : ﴿ يشفين ﴾ وهى الآية (٨٠) من الشعراء ، وأثبتنا ما فى المخطوطة ، وكلاهما جائز الاستدلال به .

(٢) البخارى (٧٣٣ / ٨ فتح) .

(٣) المسند (٦٨٤٤) وأبو داود (٢٩١١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

تفسير سورة إذا جاء نصر الله والفتح

وهي مدنية

قد تقدم أنها تعدل ربع القرآن، و﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ تعدل ربع القرآن (١). وروى النسائي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: يا بن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. قال: صدقت (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

روى البخاري عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رثيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريههم فقال: ما تقولون في قول الله، عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أأذكلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. تفرد به البخاري. وروى ابن جرير عن ابن عباس، فذكر مثل هذه القصة، أو نحوها (٣).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، قال رسول الله ﷺ: «نُعِيَتْ إِلَى نَفْسِي» بأنه مقبوض في تلك السنة. تفرد به أحمد (٤). وهكذا قال مجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وغير واحد: إنها أجل رسول الله ﷺ نعى إليه. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ علم النبي ﷺ أنه قد نعت إليه نفسه، فقليل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، السورة كلها (٥). وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: لما نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا

(١) راجع تفسير سورة الزلزلة.

(٢) النسائي في الكبرى (١١٧١٣)، ورواه مسلم (٢٤/٣٠٢١).

(٣) البخاري (٤٩٧٠) وابن جرير في التفسير (٣٠/٢١٥).

(٤) المسند (١٨٧٣) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٥) المسند (٣٢٠١) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ ، قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها ، فقال : « الناس حيز ، وأنا وأصحابي حيز » . وقال : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » . فقال له مروان : كذبت - وعنده رافع بن خديج ، وزيد بن ثابت ، قاعدان معه على السرير فقال أبو سعيد : لو شاء هذان لحدثاك ، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه ، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة . فرفع مروان عليه الدرة ليضربه ، فلما رأيا ذلك قالوا : صدق (١) . تفرد به أحمد ، وهذا الذي أنكره مروان على أبي سعيد ليس بمنكر ، فقد ثبت من رواية ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : « لا هجرة ، ولكن جهاد ونية » ، ولكن إذا استنفرتهم فانفروا . أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما (٢) .

فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر ، من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه ، يعنى نصلى ونستغفره - معنى مليح صحيح ، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثمانى ركعات ، فقال قائلون : هى صلاة الضحى . وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها ، فكيف صلاها ذلك اليوم وقد كان مسافراً لم ينو الإقامة بمكة ؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريباً من تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة ويُفطر هو وجميع الجيش ، وكانوا نحواً من عشرة آلاف . قال هؤلاء : وإنما كانت صلاة الفتح ، قالوا : فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلداً أن يصلى فيه أول ما يدخله ثمانى ركعات . وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن ، ثم قال بعضهم : يصلها كلها بتسليمة واحدة . والصحيح أنه يسلم من كل ركعتين .

وروى البخاري عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثّر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » يتأول القرآن . وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذى (٣) . وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثّر فى آخر أمره من قول : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » . وقال : « إن ربى كان أخبرنى أنى سأرى علامة فى أمتى ، وأمرنى إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره ، إنه كان تواباً ، فقد رأيتها : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ » . ورواه مسلم (٤) .

والمراد بالفتح هاهنا فتح مكة قولاً واحداً ، فإن أحياء العرب كانت تتلّوم بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبي . فلما فتح الله عليه مكة دخلوا فى دين الله أفواجا ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق فى سائر قبائل

(١) المسند (٢٢ / ٣) .

(٢) البخاري (١٣٤٩ ، ١٨٣٤) ومسلم (١٣٥٣ / ٤٤٥) .

(٣) البخاري (٤٩٦٨) ومسلم (٤٨٤ / ٢١٧) وأبو داود (٨٧٧) وابن ماجه (٨٨٩)

(٤) المسند (٣٥ / ٦) ومسلم (٤٨٤ / ٢٢٠) .

العرب إلا مظهر للإسلام ، ولله الحمد والمنة . وقد روى البخارى فى صحيحه عن عمرو بن سلمة قال : لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ ، وكانت الأحياء تتلَوُّ بإسلامها فتح مكة ، يقولون : دعوه وقومه ، فإن ظهر عليهم فهو نبي . الحديث . وقد حررنا غزوة الفتح فى كتابنا : السيرة ، فمن أراد فليراجعه هناك ، ولله الحمد والمنة .

تفسير سورة تبت
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَلٍ ۝ ﴾

روى البخارى عن ابن عباس : أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : « يا صباحاه . فاجتمعت إليه قريش ، فقال : « أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ، أكنتم تصدقونى ؟ » . قالوا : نعم . قال : « فإنى نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد . » . فقال أبو لهب : ألهذا جمعنا ؟ تبا لك . فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ، إلى آخرها (١) . وفى رواية : فقام ينفض يديه ، وهو يقول : تبا لك سائر اليوم . ألهذا جمعنا ؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (٢) . الأول دعاء عليه ، والثانى خبر عنه . فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ واسمه : عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة . وإنما سمي « أبا لهب » لإشراق وجهه ، وكان كثير الأذى لرسول الله ﷺ والبغضة له ، والازدراء به ، والتنقص له ولدينه .

روى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد ، من بنى الدليل - وكان جاهلياً فأسلم - قال : رأيت النبي ﷺ فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » . والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين ، يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب (٣) . ثم رواه عن سريج ، عن ابن أبي الزناد ، عن أبيه ، فذكره ، قال أبو الزناد : قلت لربيعة : كنت يومئذ صغيراً ؟ قال : لا ، والله إنى يومئذ لأعقل أنى أزفر القربة . تفرد به أحمد .

وقال ابن إسحاق : حدثنى حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة ابن عباد الديلى يقول : إنى لمع أبى رجل شاب ، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل - ووراءه رجل أحول وضىء ، ذو جمّة - يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول : « يا بنى فلان ،

(١) البخارى (٤٩٧٢) .

(٢) البخارى (١٣٩٤ ، ٣٥٢٥ ، ٤٨٠١) .

(٣) المسند (٣٤١/٤) .

إني رسول الله إليكم ، أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به . وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بني فلان ، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الحى من بنى مالك بن أقيش ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه . فقلت لأبى : من هذا ؟ قال : عمه أبو لهب . رواه أحمد والطبرانى بهذا اللفظ (١) .

فقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ أى : خسرت وخابت ، وضل عمله وسعيه ، ﴿ وَتَبَّ ﴾ أى : وقد تبَّ تحقق خسارته وهلاكه . وقوله : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ قال ابن عباس وغيره : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعنى : ولده . ورؤى عن عائشة ، ومجاهد ، وعطاء ، والحسن ، وابن سيرين مثله . وذكر عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان ، قال أبو لهب : إذا كان ما يقول ابن أخى حقاً ، فإنى أفتدى نفسى يوم القيامة من العذاب بمالى وولدى . فأنزل الله : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ .

وقوله : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أى : ذات شرر ولهيب وإحراق شديد ، ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهى : أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب ابن أمية ، وهى أخت أبى سفيان . وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده ؛ فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه فى عذابه فى نار جهنم . ولهذا قال : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ فى جديدها جبلٌ من مسدٍ . يعنى : تحمل الحطب فتلقى على زوجها ، ليزداد على ما هو فيه ، وهى مهيأة لذلك مستعدة له . ﴿ فى جديدها جبلٌ من مسدٍ ﴾ قال مجاهد ، وعروة : من مسد النار . وعن مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والثورى ، والسدى : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ : كانت تمشى بالنميمة . قال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة ، فقالت : لأنفقنها فى عداوة محمد ، يعنى : فأعقبها الله بها جبلاً فى جديدها من مسد النار . وعن الشعبى قال : المسد : الليف ، وقال مجاهد : ﴿ فى جديدها جبلٌ من مسدٍ ﴾ أى : طوق من حديد ، ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسداً ؟

عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لما نزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ، ولها ولولة ، وفى يدها فهر ، وهى تقول :

مُذَمَّمًا أَبِينَا ودينه قَلِينَا وأمره عَصِينَا

ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله ، قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك . فقال رسول الله ﷺ : « إنها لن ترانى » . وقرأ قرآنا اعتصم به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرَأَتِ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾

(١) المسند (٤٩٢/٣) والطبرانى فى المعجم الكبير (٦٣/٥) (٤٥٨٩) وقال الهيثمى فى الزوائد (٣٩/٦) : « فيه حسين ابن عبد الله بن عبيد الله وهو ضعيف ، ووثقه ابن معين فى رواية » .

[الإسراء: ٤٥] . فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت : يا أبا بكر ، إنني أخبرتُ أن صاحبك هجاني ؟ قال : لا ، ورب هذا البيت ما هجاك . فولت وهي تقول : قد علمت قريش أنني ابنة سيدها . قال : وقال الوليد في حديثه أو غيره : فعثرت أم جميل في مرطها وهي تطوف بالبيت ، فقالت : تعس مذمم . فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إنني لحصانُ فما أكلّم ، وثقافُ فما أعلم ، وكلنا من بنى العم ، وقريش بعد أعلم (١) . ثم قال البزار : لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد ، عن أبي بكر ، رضى الله عنه .

وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أى : فى عنقها حبل من نار جهنم تُرفع به إلى شفيرها ، ثم يرمى بها إلى أسفلها ، ثم كذلك دائما .

قال العلماء : وفى هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ، فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ ، فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان ، لم يقيض لهما أن يؤمنا ، ولا واحد منهما لا ظاهراً ولا باطناً ، لا مسراً ولا معلناً ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة .

تفسير سورة الإخلاص

وهي مكية

ذكر سبب نزولها وفضلها :

روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب : أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ . وكذا رواه الترمذى ، وابن جرير (١) . وروى البخارى عن عائشة : أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم ، فيختم بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ ، فقال : « سلوه : لآى شىء يصنع ذلك ؟ » . فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي ﷺ : « أخبروه أن الله تعالى يحبه » وقد رواه مسلم والنسائى (٢) . وروى البخارى عن أبى سعيد : أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، يرددتها ، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ ، فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقالتها ، فقال النبي ﷺ : « والذى نفسى بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » ورواه أبو داود والنسائى (٣) .

وروى البخارى : عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ » . فشق ذلك عليهم وقالوا : أينما يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » . تفرد بإخراجه البخارى (٤) . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احشدوا ، فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » . فحشد من حشد ، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : قال رسول الله ﷺ : « فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » . إنى لأرى هذا خبراً جاء من السماء ، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال : « إنى قلت : سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن » . وهكذا رواه مسلم . وقال الترمذى : حسن صحيح غريب (٥) .

وروى الإمام أحمد عن أبى الدرداء ، أن رسول الله ﷺ قال : « أيعجز أحدكم أن يقرأ كل يوم ثلث القرآن ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن أضعف من ذلك وأعجز . قال : « فإن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء ، فـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثلث القرآن » . ورواه مسلم والنسائى (٦) . وروى البخارى عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ، ثم نفث

(١) المسند (١٣٣ / ٥) والترمذى (٣٣٦٤) وحسنه الألبانى ، وابن جرير فى التفسير (٢٢١ / ٣٠ ، ٢٢٣) .

(٢) البخارى (٧٣٧٥) ومسلم (٨١٣ / ٢٦٣) والنسائى (٩٩٣) .

(٣) البخارى (٧٣٧٤ ، ٥٠١٣ ، ٦٦٤٣) وأبو داود (١٤٦١) والنسائى (٩٩٥) .

(٤) البخارى (٥٠١٥) . (٥) الترمذى (٢٩٠٠) ومسلم (٨١٢ / ٢٦١) .

(٦) المسند (٤٤٢ / ٦) ومسلم (٨١١ / ٢٥٩) والنسائى فى الكبرى (١٠٥٣٧) .

فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات. وهكذا رواه أهل السنن (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ﴿٢﴾ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾
﴿٣﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿٤﴾

قد تقدم ذكر سبب نزولها . وقال عكرمة : لما قالت اليهود : نحن نعبد عزير ابن الله . وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن الله . وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر . وقالت المشركون : نحن نعبد الأوثان - أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ . يعنى : هو الواحد الأحد ، الذى لا نظير له ولا وزير ، ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يُطلق هذا اللفظ على أحد فى الإثبات إلا على الله ، عز وجل ؛ لأنه الكامل فى جميع صفاته وأفعاله .

وقوله تعالى : ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ قال ابن عباس : يعنى الذى يصمد الخلائق إليه فى حوائجهم ومسائلهم . وعنه : هو السيد الذى قد كمل فى سؤده ، والشريف الذى قد كمل فى شرفه ، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته ، والحليم الذى قد كمل فى حلمه ، والعليم الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمته . وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه ، هذه صفته لا تنبغى إلا له ، ليس له كفاء ، وليس كمثله شئ ، سبحانه الله الواحد القهار . وقال أبو وائل : ﴿الصَّمَدُ﴾ : السيد الذى قد انتهى سؤده ، وعن ابن مسعود مثله . وقال زيد بن أسلم : ﴿الصَّمَدُ﴾ : السيد . وقال الحسن ، وقتادة : هو الباقي بعد خلقه . وقال الحسن أيضا : ﴿الصَّمَدُ﴾ : الحى القيوم الذى لا زوال له . وقال عكرمة : ﴿الصَّمَدُ﴾ : الذى لم يخرج منه شئ ولا يطعم . وقال الربيع بن أنس : هو الذى لم يلد ولم يولد . كأنه جعل ما بعده تفسيرا له ، وهو قوله : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ، وهو تفسير جيد . وقال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وعبد الله بن بريدة ، وعكرمة أيضا ، وسعيد ابن جبير ، وعطاء بن أبى رباح ، وعطية العوفى ، والضحاك ، والسدى : ﴿الصَّمَدُ﴾ : الذى لا جوف له . وقال الشعبى : هو الذى لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى كتاب السنة له ، بعد إيراده كثيرا من هذه الأقوال فى تفسير « الصمد » : وكل هذه صحيحة ، وهى صفات ربنا ، عز وجل ، وهو الذى يُصمَد

(١) البخارى (٥٠١٧) وأبو داود (٥٠٥٦) والترمذى (٣٤٠٢) والنسائى فى الكبرى (١٠٦٢٤) وابن ماجه (٣٨٧٥) .

إليه فى الحوائج ، وهو الذى قد انتهى سؤدده ، وهو الصمد الذى لا جوف له ، ولا يأكل ولا يشرب ، وهو الباقي بعد خلقه . وقال البيهقى نحو ذلك أيضا . وقوله : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أى : ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة . قال مجاهد : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ يعنى : لا صاحبة له . وهذا كما قال تعالى : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١] أى : هو مالك كل شىء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه من نظير يساميه ، أو قريب يدانيه ، تعالى وتقدس وتنزه . قال الله تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥] ، وقال تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ، ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨] ، [١٥٩].

وفى صحيح البخارى : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدا ، وهو يرزقهم ويعافيهم » (١) . وروى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « قال الله ، عز وجل : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقله : لن يُعِيدَنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته . وأما شتمه إياى فقله : اتخذ الله ولداً . وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » (٢) .

(١) البخارى (٦٠٩٩) .

(٢) البخارى (٤٩٧٤ ، ٤٩٧٥) .

تفسير سورتى المعوذتين وهما مدنيتان

روى مسلم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ . ورواه أحمد والترمذى ، والنسائى ، وقال الترمذى : حسن صحيح (١) .

وروى الإمام مالك عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه ، وأمسح بيده عليه ، رجاء بركتها . ورواه البخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه (٢) . وتقدم فى آخر سورة : ﴿ ن ﴾ ، من حديث أبى نضرة ، عن أبى سعيد : أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وعين الإنسان ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما ، وترك ما سواهما . رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حديث حسن (٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ﴿ ١ ﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿ ٢ ﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿ ٣ ﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿ ٤ ﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿ ٥ ﴾ ﴿ ٦ ﴾

عن جابر قال : الفلق : الصبح . وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ : الصبح . وروى عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة مثل هذا . قال ابن زيد ، وابن جرير : وهى كقوله تعالى : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ [الأنعام: ٩٦] . وهذا هو الصحيح ، وهو اختيار البخارى فى صحيحه (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أى : من شر جميع المخلوقات . وقال ثابت البنانى ، والحسن البصرى : جهنم وإبليس وذريته مما خلق . ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قال مجاهد : غاسقُ الليل إذا وَقَبَ غروبُ الشمس . وكذا قال ابن عباس ، ومحمد بن كعب القرظى ، والضحاك ، وخصيف ، والحسن ، وقتادة : إنه الليل إذا أقبل بظلامه . وقال الزهرى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ : الشمس إذا غربت . وعن عطية وقتادة : إذا وَقَبَ الليل : إذا ذهب . وقال

(١) مسلم (٢٦٤ / ٨١٤) والمسند (١٤٤ / ٤) والترمذى (٢٩٠٢) والنسائى (٩٥٤) .

(٢) مالك فى الموطأ (٩٤٢ / ٢) والبخارى (٥٠١٦) ومسلم (٢١٩٢ / ٥١) وأبو داود (٣٩٠٢) والنسائى فى الكبرى (٧٥٤٤ ، ٧٥٤٩ ، ١٠٨٤٧) وابن ماجه (٣٥٢٩) .

(٤) البخارى (٧٤١ / ٨ فتح) .

(٣) مضى تخريجه هناك .

أبو هريرة : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ : كوكب . وقال ابن زيد : كانت العرب تقول : الغاسق سقوط الثريا ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها .

قال ابن جرير : وقال آخرون : هو القمر . قلت : وحمدة أصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن أبي سلمة قال : قالت عائشة : أخذ رسول الله ﷺ بيدي ، فأراني القمر حين يطلع ، وقال : « تَعُوذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ » . ورواه الترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح . ولفظه : « تعوذى بالله من شر هذا ، فإن هذا الغاسق إذا وقب » . ولفظ النسائي : « تعوذى بالله من شر هذا ، هذا الغاسق إذا وقب » (١) .

قال أصحاب القول الأول - وهو أنه الليل إذا ولج : هذا لا ينافى قولنا ؛ لأن القمر آية الليل ، ولا يوجد له سلطان إلا فيه ، وكذلك النجوم لا تضيء ، إلا في الليل ، فهو يرجع إلى ما قلناه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة والضحاك : يعنى : السواحر - قال مجاهد : إذا رقين ونفشن في العقد . وروى ابن جرير عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : ما من شيء أقرب من الشرك من رقية الحية والمجانين (٢) . وفي الحديث الآخر : أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : اشتكيت يا محمد ؟ فقال : « نعم » . فقال : باسم الله أرقيك ، من كل داء يؤذيك ، ومن شر كل حاسد وعين ، الله يشفيك (٣) .

ولعل هذا كان من شكواه ، عليه السلام ، حين سحر ، ثم عافاه الله تعالى وشفاه ، ورد كيد السحرة الحساد من اليهود في رؤوسهم ، وجعل تدميرهم في تدبيرهم ، وفضحهم ، ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول الله ﷺ يوماً من الدهر ، بل كفى الله وشفى وعافى .

وروى البخارى عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ سحر ، حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن - قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر ، إذا كان كذا - فقال : « يا عائشة ، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى ، فقال الذى عند رأسى للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن أعصم - رجل من بنى زريق حليف لليهود ، كان منافقاً - قال : وفيه ؟ قال : فى مُشط ومُشاقة . قال : وأين ؟ قال : فى جُفْ طُلْعَةٍ ذكر تحت رعوقة فى بئر ذروان » . قالت : فأتى البئر حتى استخرجه فقال : « هذه البئر التى أريتها ، وكان ماءها نُقَاعَةَ الْحَنَاءِ ، وكان نخلها رؤوس الشياطين » . قال : فاستخرج فقلت : أفلا ؟ أى : تَنَشَّرَتْ ؟ فقال : « أمّا الله فقد شفانى ، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً » . وفيه : « قالت : حتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله » . وعنده : « فأمر بالبئر فدفنت » . وقد رواه مسلم . ورواه

(١) المسند (٦١ / ٦) والترمذي (٣٣٦٦) والنسائي فى الكبرى (١٠١٣٨) .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٢٧ / ٣٠) . (٣) مسلم (٢١٨٦ / ٤٠) .

الإمام أحمد عن عائشة قالت : لبث رسول الله ﷺ ستة أشهر يرى أنه يأتي ولا يأتي ، فأتاه ملكان ، فجلس أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجله ، فقال أحدهما للآخر : ما باله ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، وذكر تمام الحديث (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ ﴿٦﴾

هذه ثلاث صفات من صفات الرب ، عز وجل ؛ الربوبية ، والملك ، والإلهية ، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له ، مملوكة عبيد له ، فأمر المستعبد أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ، من شر الوسواس الخناس ، وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بنى آدم إلا وله قرين يُزين له الفواحش ، ولا يألوه جهداً في الخبال . والمعصوم من عصم الله ، وقد ثبت في الصحيح أنه : « ما منكم من أحد إلا قد وكل به قرينة » . قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، إلا أن الله أعانني عليه ، فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير » (٢) ، وثبت في الصحيح ، عن أنس في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف ، وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها ، فلقيه رجلان من الأنصار ، فلما رآيا رسول الله ﷺ أسرع ، فقال رسول الله : « على رسلكما ، إنها صفية بنت حُيٍّ » . فقالا : سبحان الله ، يا رسول الله . فقال : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً ، أو قال : شراً » (٣) . وروى الإمام أحمد عن أبي تيممة عن رديف رسول الله ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ حماره ، فقلت : تعس الشيطان . فقال النبي ﷺ : « لا تقل : تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت : تعس الشيطان ، تعاظم ، وقال : بقوتي صرعته ، وإذا قلت : باسم الله ، تصاغر حتى يصير مثل الذباب » . تفرد به أحمد (٤) . إسناده جيد قوى ، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغلب ، وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا كان في المسجد ، جاءه الشيطان فأبس به كما يُبس الرجل بدابته ، فإذا سكن له زنقه - أو : أجمه » . قال أبو هريرة : وأنتم ترون ذلك ، أما

(١) البخارى (٥٧٦٦ ، ٥٨٦٣ ، ٦٣٩١) ومسلم (٢١٨٩ / ٤٣) وهو في المسند (٩٦١٦) .

(٢) مسلم (٢٨١٤ / ٦٩) .

(٣) مسلم (٢١٧٤ / ٢٣) ، ورواه البخارى (٢٠٣٥ ، ٦٢١٩ ، ٧١٧١) عن صفية .

(٤) المسند (٥٩ / ٥) .

المزنوق فتراه مائلاً - كذا - لا يذكر الله ، وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله ، عز وجل . تفرد به أحمد (١) .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ ، قال : الشيطان جائم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله خنس . وكذا قال مجاهد ، وقتادة . وقال المعتمر ابن سليمان ، عن أبيه : ذكر لي أن الشيطان ، أو : الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح ، فإذا ذكر الله خنس . وقال العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ قال : هو الشيطان يأمر ، فإذا أطيع خنس .

وقوله : ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ : هل يختص هذا ببني آدم - كما هو الظاهر أو يعم بني آدم والجن ؟ فيه قولان ، ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليباً . وقال ابن جرير : وقد استعمل فيهم (رجال من الجن) فلا بدع في إطلاق الناس عليهم .

وقوله : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ هل هو تفصيل لقوله : ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ، ثم بينهم فقال : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وهذا يقوى القول الثاني . وقيل قوله : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس ، من شياطين الإنس والجن ، كما قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] . وكما روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله . إنني أحدث نفسي بالشئ لأن آخر من السماء أحب إلى من أن أتكلم به . قال : فقال النبي ﷺ : «الله أكبر الله أكبر ، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة» . ورواه أبو داود والنسائي (٢) .

آخر التفسير ولله الحمد والمنة

(١) المسند (٨٣٥٢) وقال الهيثمي في الزوائد (٢٤٥ / ١) : « رجاله رجال الصحيح » ، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

(٢) المسند (٢٠٩٧) وأبو داود (٥١١٢) والنسائي في الكبرى (١٠٥٠٣) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» .

فهرس المسانيد



فهرس المسانيد

«أ»

* أبي بن كعب ١/٥٠، ٥٥، ٣٠٨، ٨٠٧،
٢/٤٨٤، ٤٨٧، ٣/٥٥، ٦٨، ٦٣٣، ٦٧٢،
٧٠١، ٧١٠، ٧١٣، ٧٢٣، ٧٤٨.

* أسامة بن زيد ١/١٠٩، ١١٨، ١٥٨، ٢٤٩،
٣٩٥، ٤٤٦، ٢/١٤٣، ٣/١٧.

* أسامة بن عمير ١/٥٨.

* أسماء بنت أبي بكر ١/٢٤٥، ٢/٤٣٠،
٤٣٥، ٣/٤١٨.

* أسماء بنت عميس ١/٦٢٩.

* أسماء بنت يزيد بن السكن ١/٢٠٣، ٣١١،
٦١٩، ٧٣٠، ٧٦١.

* الأسود بن سريع من بني سعد ١/٦٢،
٢/٤١٧، ٣/٤٢٤.

* أبو أسيد ١/٢٩٢، ٢/٦٤، ٣/٢٧٢، ٦٠/٣.

* أسيد بن حضير ١/٧٢.

* الأشعث بن قيس ١/٥٠١، ٣/٥٣١.

* الأشعري ١/٦٩٩.

* الأقرع بن حابس ٣/٣٥٤.

* أبو أمامة الباهلي ١/٧٣، ١٨٥، ٣١١، ٣٥٣،
٤٠٠، ٦٠٥، ٧١٦، ٨١١، ٢/٢٠٠، ٢٧٦،
٤٣، ٣/٣٩٣، ٥٠٩.

* امرأة من بني سليم ٣/١٥٢.

* أنس بن مالك ١/٥٣، ٥٧، ١٠٩، ١٧٣،
١٩٤، ١٩٨، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٨،
٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٨، ٢٥١، ٢٦٦، ٢٨١،
٢٩٩، ٣٠٨، ٣١٤، ٣٤٣، ٣٦٢، ٣٧١،
٣٩٠، ٣٩٥، ٤١٣، ٤٢٦، ٤٣٨، ٤٣٩.

٤٤٠، ٤٥٣، ٤٨٩، ٤٩١، ٥١١، ٥٢٩،
٥٣٧، ٥٥٩، ٥٦٣، ٥٩١، ٦١١، ٦٢٣،
٦٤٠، ٦٤٥، ٦٥٥، ٦٦٠، ٦٦٧، ٦٦٨،
٦٧٣، ٦٨٦، ٦٨٧، ٧١٧، ٧١٩، ٧٢٦،
٧٢٧، ٧٢٩، ٧٤٢، ٧٦١، ٧٨٢، ٨٠٥،
٨٤٥، ٢/٨٤، ٨٥، ١١٤، ١٤١، ١٤٩،
١٩٦، ٣٠٧، ٣٢٧، ٣٤٦، ٣٨٩، ٣٩٩،
٤٠٧، ٤٠٩، ٤١٩، ٤٢٩، ٤٤٨، ٤٥٧،
٤٧٩، ٥٢٤، ٥٩٢، ٥٩٣، ٦١١، ٦١٤،
٦٤٠، ٦٥١، ٦٥٨، ٦٩٢، ٣/٣٨، ٣٩،
٥٣، ٥٨، ٦٤، ١٣٢، ١٧٢، ١٩٦، ٢٠٢،
٢٠٤، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٥٦، ٣٢٧، ٣٣٦،
٣٤٦، ٣٥٣، ٣٥٦، ٣٥٩، ٣٧٢، ٤٠٨،
٤٢٢، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٧، ٤٦٩،
٤٨٣، ٤٨٥، ٤٩٧، ٥٤٣، ٥٤٧، ٥٥٥،
٥٥٨، ٥٩٣، ٦٧٨، ٧١٣، ٧٢٣، ٧٣٩.

* أنس بن النضر ٣/٣٩.

* أوس بن أبي أوس ١/٦٤٦.

* أوس بن أوس الثقفي ٣/٧٠، ٥١٩.

* أوس بن حذيفة ١/٤٧.

* إياس بن عبد الله بن أبي ذباب ١/٥٠١.

* أبو أيوب الأنصاري ١/٢٣٦، ٣٠٩، ٤٩١،
١٠١/٢، ٣/١٩٦، ٥١٩.

«ب»

* أبو البحتري ١/٧١٦، ٣/٥٥٣.

* البراء بن عازب ١/١٥٦، ١٩١، ٢٠٣،
٢٢٦، ٢٨٧، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠٥، ٣٢٤،
٤٢٦، ٤٨٠، ٥٤٤، ٥٥٨، ٦١٥، ٦٨٠.

* ثوبان مولى رسول الله ﷺ ١/٢٧٩ ، ٤٤٥ ،
٢/٣٥٥ ، ٤٦٢ ، ٣/٥٣٦ .

«ج»

* جابر بن سمرة ١/٦٥٢ ، ٢/٦٧٣ ، ٣/٥٢١ ،
٥٧٧ .

* جابر بن سليم ٢/٧٥٢ .

* جابر بن عبد الله ١/٥٣ ، ٦٢ ، ١١٦ ، ١٤٨ ،
١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٩٢ ، ٢٠١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ،
٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ،
٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٣٣١ ، ٣٧٨ ،
٣٩٤ ، ٣٩٨ ، ٤١٠ ، ٤٢٣ ، ٤٣٩ ، ٤٦٤ ،
٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٩ ، ٥٠١ ، ٥١٧ ، ٥٢١ ،
٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٦٠٥ ، ٦١٥ ، ٦٢٨ ، ٦٣٥ ،
٦٤٥ ، ٦٥٠ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٨٠ ،
٧٠٩ ، ٧٣٧ ، ٧٤٠ ، ٧٨٢ ، ٨٢٩ ، ٨٣٢ ،
٨٣٤ ، ١٦/٢ ، ٣٧ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٤٠ ،
١٩١ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٨٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٧ ،
٣٤٧ ، ٣٨٨ ، ٤١٣ ، ٤٤٨ ، ٥٠٩ ، ٥٩٤ ،
٥٩٧ ، ٦٥٣ ، ٨١٩ ، ٧١/٣ ، ٩١ ، ١١٩ ،
١٦٨ ، ٢٣٧ ، ٢٥٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،
٣٦٠ ، ٤٣٦ ، ٤٨٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٥ ، ٥٦٨ ،
٦٠٠ ، ٦١١ ، ٦١٥ ، ٦٤٨ ، ٦٥٧ ، ٦٦٨ ،
٦٧٨ ، ٦٨٠ ، ٦٩٠ ، ٦٩٥ ، ٧٠٠ ، ٧٤١ .

* جارية بن قدامة السعدي ١/٤١٥ .

* جبیر بن مطعم بن عدی ١/٢٤٩ ، ٤٩٧ ،
٢/١٢٨ ، ٣/٣٩٦ ، ٤٠٧/٣ ، ٥٠٩ .

* جبیر بن نفیر ١/٧٠٧ ، ٣/٥٥٨ .

* أبو جبيرة ٣/٣٥٨ .

* جُدّامة بنت وهب - أخت عكاشة ٣/٦٤٤ .

* جرير بن عبد الله البجلي ١/٢٤٦ ، ٤٥٦ ،
٦٤٧ ، ٧٠٥ ، ٢/٥٤٥ ، ٣/٣٧٤ ، ٤٨٩ ، ٦١٠ .

٧٢٩ ، ٧/٢ ، ٢١ ، ١٥٦ ، ٢٣٤ ، ٣٤٦ ،
٤٦٢ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٦ ، ٦٨٧ ، ٣/٣٢٦ ،
٣٤٩ ، ٣٦٠ ، ٤٤٦ ، ٥٥٨ ، ٦٧٢ ، ٧٠٣ .

* أبو بردة بن دينار ٣/٧٤٠ .

* أبو برزة الأسلمي ١/٦٠٥ ، ٣/٥١ .

* بريدة بن الحصيب ١/٧٣ ، ٢٣٣ ، ٢٩٦ ، ٣٣٧ ،
٦٢٥ ، ٦٣٩ ، ٧٢٣ ، ٢/١٤٣ ، ٦٦٤ ، ٣/٩٧ ،
٥٦٤ ، ٥٦٥ .

* أبو بريدة ٣/١٥ ، ٥٣١ .

* بسر بن أرطاة ١/١٦٢ ، ٢/٤٦٥ .

* بسر بن جحاش ٢/٣٧٢ ، ٣/١٣٦ ، ٦٤٩ .

* بشير بن الخصاصية ١/٢٣٠ .

* بشير بن سعد ٣/٦٠ .

* أبو بكر ١/٤١٧ ، ٥١٤ ، ٥٧٧ ، ٧٤٨ ،
٢/١٦٨ ، ٨٠٨ ، ٣/٢٥٥ .

* أبو بكر بن عياش ١/٦٠٩ .

* أبو بكرة ١/٤٩١ ، ٤٩٩ ، ٥٢٣ ، ٢/١٦٤ ،
٥٩١ ، ٧٠٤ ، ٣/٣٢٢ ، ٣٥٦ ، ٤٠٢ .

* بلال ١/٨٠٥ .

* بلال بن الحارث المزني ٣/٣٦٨ .

«ت»

* تميم الداري ١/٧٢٥ ، ٢/١٦١ ، ٣/٨٤ .

* أبو تيمية ٣/٧٥٤ .

«ث»

* ثابت بن يزيد الخولاني ١/٧٢٨ .

* ثعلبة بن الحكم ١/٦٧٧ ، ٢/٥٢٢ ، ٣/١١١ .

* أبو ثعلبة الخشني ١/٦٣٤ ، ٨١٥ .

* ثمامة بن أثال ٣/٣١٦ .

- * الحسين بن علي ٢١١/١ ، ٦٨/٣ .
- * حفصة ٢٤٠/١ ، ٥١٥/٢ .
- * حمدان بن أبان ٦٤٢/١ ، ٦٤٣ .
- * حمرة بن عمرو الأسلمي ٢٢٢/١ .
- * حميد بن عبد الرحمن بن عوف ٤٤٨/١ .
- * أبو حميد الساعدي ٤٣٤/١ ، ٦٤/٢ ، ٢٧٢ ، ٦٦٥ ، ٦٧/٣ .
- * حنظلة بن حزيم بن حنيفة ٢١٦/١ .
- * أبو حية البدرى ٦٨٢/٣ .

«خ»

- * خالد بن أبي جبل العدواني ٦٦٩/٣ .
- * خالد الخزاعي ٧٨٣/١ ، ٤٥٢/٣ .
- * خالد بن عرعة ٣٩٢/١ .
- * خالد بن معدان ٦٤٥/١ .
- * خالد بن يزيد بن معاوية ٦٧٩/٣ .
- * خباب بن الارت ٢٥٩/١ ، ٧٣٨ .
- * خريم بن فانك الأسدي ٨٤٦/١ .
- * خزيمه بن ثابت ١١٨/١ ، ٣٤١ .
- * خزيمه بن ثابت الخطمي ٢٧٠/١ .
- * خولة بنت ثعلبة ٤٦٤/٣ .

«د»

- * أبو الدرداء ١٣٧/١ ، ٢٢٢ ، ٣٢٠ ، ٣٦٥ ، ٥٤٥ ، ٥٧٣ ، ٦٢٨ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٥/٢ ، ٤٦٢ ، ١١١/٣ ، ١٧٠ ، ٣١٧ ، ٤٠٣ ، ٧٤٩ .
- * درة بنت أبي لهب ٤٠١/١ ، ٣٦١/٣ .
- * أبو الدهماء ١٦٩/٣ .

- * جعدة بن خالد بن الصمة ٧١٠/١ .
- * جعفر بن أبي طالب ٣٠/٣ ، ٥١١ .
- * جعفر بن عبد الله بن الحكم ٣٢٩/١ .
- * أبو جمعة ٧٨/١ .
- * جندب الأزدي ١٤٩/١ ، ٧٤١ .
- * جندب بن عبد الله ٤٥/١ ، ١٠٩ ، ٢٦١ ، ٤٨٩ ، ٦٢/٢ ، ٦٩٨/٣ .
- * جنيد بن سبع ٣٣٨/٣ .

«ح»

- * الحارث البكري ٣٦/٢ ، ٣٠٧ .
- * الحارث بن الحارث الأشعري ٩١/١ .
- * الحارث مولى عثمان ٤٧٧/٢ .
- * الحارث بن هشام ٢٤٧/٣ .
- * حارثة بن وهب ٥٦٣/١ ، ٥٥٩/٣ .
- * حبة بن خالد ٣٨٤/٣ .
- * حبيبة بنت نجرارة ٢٠١/١ .
- * حبيبة بنت سهل الأنصاري ٢٧٩/١ .
- * أم حبيبة ٥٧٢/١ .
- * الحجاج بن عمرو الأنصاري ٢٣٩/١ .
- * حذيفة بن أسيد الغفاري ٦٠٥/١ ، ٦٠٦ ، ٨٤٣ ، ٥٧٩/٢ ، ٦١٤ ، ٧٥٦ ، ٢٨٣/٣ .
- * حذيفة بن اليمان ١١٠/١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٧٨ ، ٣٩٩ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦١٧ ، ٦٣٥ ، ٦٤٦ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٨٥/٢ ، ١١٥ ، ٣٤/٣ ، ٧٨ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٥٨ ، ٥٥٩ .
- * الحسن ٣٣٢/١ ، ٧٠/٣ ، ٤٠٢ ، ٥٥٨ ، ٥٩٠ .
- * حسناء ابنة معاوية الصرمية ٤٢٤/٢ ، ٦٤٤/٣ .

* أم رومان ٦٤٦/٢ .

* أبو ريحانة ٥٨٧/١ .

«ز»

* الزبير بن العوام ٤٢٨/١ .

* أبو الزبير ٢١١/٣ .

* زر ٧١٠/٣ .

* زهرة بن معبد ١٥٤/٢ .

* أبو زهير الثقفي ١٩٣/١ .

* زهير بن عمرو ٧٣١/١ .

* زيد بن أرقم ٢٥٥/٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٦٩٢ .

* زيد بن أسلم ٣٩٢/٣ ، ٣٧٩ ، ٤٨٦ .

* زيد بن أبي أوفى ٣٦٣/٢ .

* زيد بن ثابت ٢٩٥/١ ، ٣١٧ ، ٥٤٧ ، ٥٥٨ ،

٥٤٧/٢ ، ٣٨/٣ ، ٥٩٤ .

* زيد بن حارثة ٧٤٠/٣ .

* زيد بن خالد الجهني ٣٤٠/١ ، ٦٣٤/٢ ،

٤٤٣/٣ .

* زيد بن عاصم ٦٤٢/١ .

* زينب بنت جحش ٢٩٠/١ ، ٤٤١ ، ٤٩٢/٢ ،

٦٦٦ .

* زينب بنت أبي سلمة ٤٠٢/٣ .

«س»

* سبرة بن معبد الجهني ٤٨٥/١ ، ٥٤٨/٣ .

* سبرة بن فاكه ١٠/٢ .

* سبيعة ٥٣٨/٣ .

* سراقه بن مالك ٣٩٥/١ ، ٥٤٨ .

* سعد بن مالك ١٠٦/١ ، ١١٨ ، ٩٧/٢ .

«ذ»

* أبو ذر ٥٦/١ ، ٨٦ ، ١٠٤ ، ١٣١ ، ٢١٠ ،

٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢٠ ، ٣٤٦ ، ٣٥٩ ، ٣٨٤ ،

٣٩٢ ، ٤٧٦ ، ٥١٢ ، ٥١٦ ، ٥٢١ ، ٦٣٢ ،

٦٦٤ ، ٧٠٠ ، ٧٥٩ ، ٧٧٢ ، ٨١١ ، ٨٣٦ ،

٨٤٣ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ١٣٥/٢ ، ٢١١ ، ٢٢٩ ،

٢٣٤ ، ٢٧٨ ، ٣٢٧ ، ٣٣٨ ، ٤١١ ، ٤١٢ ،

٥٨٤ ، ٥٨٨ ، ٧٠٣ ، ١٢٦/٣ ، ٣٦١ ، ٣٩٧ ،

٤٠٣ ، ٥٣٦ .

«ر»

* أبو راشد الخبراني ١٩٣/٣ .

* رافع بن خديج ١٧٧/١ ، ٦٢٧ .

* أبو رافع ٦٥٧/٣ .

* ربيع ١٣٧/٣ .

* ربيعة بن عامر ٤٢٧/٣ .

* ربيعة بن عباد ٧٤٦/٣ .

* ربيعة بن كعب الأسلمي ٥٣٧/١ .

* رجل من أصحاب النبي ﷺ ٤٧٨/٣ .

* رجل من الأعراب ٦٣/٢ .

* رجل من الأنصار ٥٥٠/١ .

* رجل من بني سليم ١١٠/١ .

* رجل من بني عامر ١٦/٣ .

* رجل من مزينة ٢٥/٢ .

* أبو رزين العقيلي (لقيط بن عامر) ١٢٦/١ ،

٢٥٠/٢ ، ٥٨٠ .

* رفاعه بن رافع الزرقى ١٠٥/٢ ، ١٢٢ ،

٣٥٥/٣ .

* رويغ بن ثابت الأنصاري ٦٩/٣ .

- * سعد بن معاذ /١/ ٦٦٠ .
- * سعد بن هشام /٣/ ٥٥٨ ، ٥٩٥ .
- * سعد بن أبي وقاص /١/ ٤٦٦ ، ٦٦٣ ، ٧٨٢ ، ٣٠ /٢/ ٩٧ ، ٦٠١ ، ٧٩٠ ، ٣٦٢ /٣/ .
- * ابن السعدى /١/ ٨٤٤ .
- * أبو سعيد الأشعرى /١/ ٣٩٨ .
- * سعيد بن جبير /١/ ٥٣٦ .
- * أبو سعيد الخدرى /١/ ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٩٠ ، ١١٦ ، ١٨٤ ، ١٩٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٧ ، ٤٤٨ ، ٤٨٤ ، ٤٩٠ ، ٥٠٨ ، ٥٣٧ ، ٥٤٥ ، ٥٥٩ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٦٢٠ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧٢٥ ، ٨٠٥ ، ٨٥٠ ، ٢٤ /٢/ ٦٣ ، ١٠٠ ، ١٢١ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ٢٠٠ ، ٢١٦ ، ٣٢٧ ، ٣٦٣ ، ٣٨٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٩٣ ، ٥٠٥ ، ٥٣٤ ، ٥٤٧ ، ٥٧١ ، ٥٧٧ ، ٦٣١ ، ٦٥٥ ، ٦٦٣ ، ٧٧٢ ، ٧٨٤ ، ٩٧ /٣/ ١٠١ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ٢٠٤ ، ٣٥١ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٩٢ ، ٤٥٧ ، ٤٦٢ ، ٥١٩ ، ٥٦٥ ، ٦١١ ، ٦٣٩ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٧١٠ ، ٧٤٣ ، ٧٤٩ .
- * سعيد بن زيد /١/ ٥٨ ، ١١٦ .
- * سعيد بن عمرو /٢/ ٥٨٧ ، ٣١١ /٣/ .
- * أبو سعيد بن المعلّى /١/ ٤٩ ، ١٩٥ ، ١١٣ /٢/ ٣٦٨ .
- * أبو سعيد مولى ابن عامر بن كريز /١/ ٥٠ .
- * سعيد بن أبي هلال /١/ ٧٤ .
- * أبو سفيان /١/ ٣٧٩ .
- * سفيان بن عبد الله الثقفى /٣/ ٢٣٩ .
- * سلمان الفارسى /١/ ٢٢٤ ، ٤٥٤ ، ٥٤٦ ، ٥٣ /٢/ ٦٢ ، ١٣٩ ، ٥١٦ /٣/ .
- * سلمى بنت قيس /٣/ ٥٠٣ .
- * سلمة بن الأكوع /١/ ٢١٩ ، ١٧١ /٣/ ٣٣١ .
- * سلمة بن صخر /٣/ ٤٦٥ .
- * سلمة بن قيس الأشجعى /١/ ٤٩٢ .
- * أبو سلمة بن عبد الرحمن /٣/ ٧٥٣ .
- * أم سلمة /١/ ٥٧ ، ٢٠٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٣٥٥ ، ٤٥٠ ، ٤٩٥ ، ٥٧٠ ، ١١٤ /٢/ ، ١١٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٨ ، ٤٩ /٣/ ٣٨٦ ، ٥٠٥ ، ٥١١ ، ٥٩٣ .
- * سليم بن عامر /٣/ ٤٢٤ .
- * سليمان بن صُرد /٣/ ٤١ .
- * سليمان بن عامر /٣/ ٥١٦ ، ٦٨٨ .
- * سمرة بن جندب /١/ ٢١٣ ، ٢٢٨ ، ٣٤٤ ، ٥٢٦ ، ٥٦١ ، ٦٠٥ ، ١٧ /٢/ ٨٦ ، ١٤٧ ، ١٩٥ ، ٤٩١ .
- * سهل بن سعد الساعدى /١/ ٧٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٩٢ ، ٤٢٧ ، ٤٥٣ ، ٨٥ /٢/ ١٨١ ، ٣٢٧ ، ٣٥٤ ، ٦٤٠ ، ٢٢ /٣/ ٦٠ ، ٦١ ، ١٨٤ ، ٢٠٣ ، ٢٧١ ، ٣٢٠ ، ٣٥٧ ، ٤٠٧ ، ٦٨٣ .
- * سهلة بنت سهيل (امرأة أبي حذيفة) /١/ ٤٨١ ، ٣٠ /٣/ .
- * سهيل /٣/ ٤٤٨ .
- * سواء بن خالد /٣/ ٣٨٥ .
- * سودة بنت زمعة /١/ ٥٨٢ .
- * سويد بن هبيرة /١/ ٣٦٠ .
- « ش »
- * شبيب أبو روح /٢/ ٨٢٧ ، ٨٢٨ .
- * الشخير /٣/ ٧٢٣ .
- * شداد بن أوس /١/ ٢٥٠ ، ٧٨٤ .
- * أبو شريح الخزاعى /١/ ٢١٣ .

٦٤٥ ، ٦٦٤ ، ٦٧٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ،
 ٧١٩ ، ٧٣١ ، ٧٣٨ ، ٧٤٨ ، ٧٥١ ، ٧٥٤ ،
 ٧٧٥ ، ٧٧٨ ، ٨٠٤ ، ٨١٥ ، ٩/٢ ، ٧٨ ،
 ٨٣ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٩٢ ، ٣٠٧ ، ٣٥٨ ،
 ٣٨٨ ، ٤٢٦ ، ٤٦٦ ، ٤٧٩ ، ٥٧٨ ، ٥٩٤ ،
 ٦٤١ ، ٦٤٤ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٦٦ ، ٧٣٣ ،
 ٧٥٣ ، ٦/٣ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ١١١ ،
 ١٣٤ ، ١٦٨ ، ١٩٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
 ٢٦١ ، ٣١٧ ، ٣٢٧ ، ٤٠١ ، ٤١٣ ، ٤١٨ ،
 ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٤٥ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥٢٠ ،
 ٥٤٤ ، ٥٦٥ ، ٥٧٦ ، ٥٩٤ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ،
 ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٤١ ، ٦٥٨ ، ٦٧٢ ، ٦٧٥ ،
 ٧٠٥ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧٣١ ، ٧٤٤ ، ٧٤٩ ،
 ٧٥٣ .

* عاصم بن عمر بن قتادة ١/١٧٢ ، ٣٥٧ ،
 ٦٩٨ ، ١٥١/٢ ، ٤٦٥/٣ .

* عباد بن شرحبيل الغبري ١/٢٠٨ .

* عبادة بن الصامت ١/٥٣ ، ٦٥ ، ٢٢٤ ، ٤٧٤ ،
 ٥٢٩ ، ٥٤٥ ، ٥٥٢ ، ٦١٢ ، ٦٧٠ ، ٦٨٨ ،
 ٧٧٤ ، ٨٣٦ ، ٨٤٠ ، ٥٠٥/٢ ، ٦٣٥ ، ٣/٣ ،
 ٣٩٣ ، ٥٠٤ ، ٥٩٨ ، ٧١١ .

* العباس بن عبد المطلب ٣/٢٥٤ ، ٢٥٥ .

* عبد الرحمن بن أبزي ٢/٥١٧ ، ٨٤٧ ،
 ٦٧٢/٣ .

* عبد الرحمن بن البيهقي ١/٤٧٥ .

* عبد الرحمن بن أبي سعيد ١/٣٢٩ .

* عبد الرحمن بن سمرة ١/٢٧٢ .

* عبد الرحمن بن عوف ١/٦٥ ، ٤٢٩ ، ٤٩٧ ،
 ٨٤٤ ، ٥٠٠ .

* عبد الرحمن بن غنم ١/٤٣٢ ، ٧٢٥ .

* عبد الرحمن بن يعمر الديلي ١/٢٤٧ ، ٢٥٢ .

* شريك بن أبي نمر ٣/٧٣٨ .

* شقيق ١/٥١٧ .

* شهر بن حوشب ١/١١٦ ، ٢/٦٩٨ ، ٣/٢٠٩ .

« ص »

* صدى بن عجلان ١/٦٢٤ .

* صرمة بن قيس ١/٢٢٦ .

* الصعب بن جثامة ١/٧٤٠ .

* صفوان بن عسال ١/٨٤٣ .

* صفوان بن مُحَرِّز ٣/٤٦٩ .

* صفية ١/٢٣١ .

* صفية بنت شيبة ١/٥٢٧ .

* صهيب ١/٢٥٥ ، ٨٠٥ ، ٢/٣٢٣ ، ٣/٦١١ ،
 ٦٦٣ ، ٦٦٤ .

« ط »

* أبو الطفيل ٢/١٨٣ .

* أبو طلحة الأنصاري ٣/٦٨ ، ١٥٩ .

« ع »

* عائشة ١/٥٨ ، ٩٧ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٥٩ ،

١٧١ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٩٢ ، ٢٠١ ، ٢١٩ ،

٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ،

٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ،

٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ،

٣٠٧ ، ٣٢٥ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٢ ،

٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٤٢٠ ، ٤٤١ ، ٤٥٧ ، ٤٦٢ ،

٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٧٧ ، ٤٨١ ، ٤٨٤ ، ٥٠٥ ،

٥١٢ ، ٥١٥ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٣٦ ، ٥٧٧ ،

٥٧٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٩٣ ، ٦٣٤ ،

٧٠٩ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٤٣ ،
٧٥٢ ، ٧٥٧ ، ٧٥٩ ، ٧٧١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٤ ،
٨٤٥ ، ٨٤٧ ، ١٥/٢ ، ١٧ ، ٣٩ ، ٦٠ ، ٧٢ ،
٩٨ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٩ ، ١٢١ ،
١٢٨ ، ١٤١ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ٢٤٢ ، ٢٩٠ ،
٣٣١ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٣٩ ،
٤٥٣ ، ٤٩٣ ، ٥١٣ ، ٥٣٥ ، ٥٧٣ ، ٥٨١ ،
٥٨٤ ، ٥٨٩ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٦٢ ، ٧٣٠ ،
٧٦٠ ، ٧٨٦ ، ٨١١ ، ٨١٥ ، ٨٢٠ ، ١٥/٣ ،
٣٠ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١٣٤ ،
١٥٢ ، ١٩١ ، ٢٠٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٦ ،
٣٠٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٧ ،
٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ،
٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤٣٦ ، ٤٤٨ ، ٤٧٧ ، ٥٠١ ،
٥٠٤ ، ٥١٧ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ،
٥٤٥ ، ٥٥٠ ، ٥٥٩ ، ٥٦٥ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ،
٦١٠ ، ٦١٤ ، ٦٢١ ، ٦٤١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٥ ،
٦٨٠ ، ٦٩٢ ، ٦٩٩ ، ٧٠٢ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ،
٧١٠ ، ٧٢٥ ، ٧٣٩ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٥٥ .

* عبد الله بن عدي بن الحمراء ٢٤٨/٣ .

* عبد الله بن عمر ٦٢/١ ، ٧٩ ، ١٢٧ ، ١٤٦ ،
١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٧٣ ، ١٩١ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ،
٢١٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢ ،
٢٨٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ،
٣٣٩ ، ٤١٢ ، ٤١٥ ، ٤٣٥ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ،
٤٧٥ ، ٥٠٤ ، ٥١٦ ، ٥٢٦ ، ٥٢٩ ، ٥٤٦ ،
٥٥١ ، ٥٥٦ ، ٥٦٣ ، ٥٦٥ ، ٥٨٣ ، ٥٩١ ،
٦٢٤ ، ٦٣٠ ، ٦٤٨ ، ٦٧٩ ، ٧٢٥ ، ٧٢٧ ،
٧٢٩ ، ٧٣١ ، ٧٣٨ ، ٧٨٢ ، ٨٢٦ ، ١١/٢ ،
٣٧ ، ٥٢ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٨٧ ، ٢٥٥ ، ٣١٧ ،
٣٢٨ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٧٧ ، ٣٩٧ ، ٤٤٧ ،
٤٥٧ ، ٤٦٣ ، ٥٧٣ ، ٦٦٦ ، ٧٨٤ ، ١٠/٣ ،
١٩٩ ، ٢٢١ ، ٢٦٧ ، ٢٩٣ ، ٤٠٨ ، ٤١٤ .

* أبو عبد الرحمن ١٩٣/٣ .

* عبد الله بن أنيس الجهني ٢٩٨/١ ، ٧٠٩ .

* عبد الله بن أبي أوفى ١٣٢/١ ، ١٩٥/٢ ،
٧١/٣ ، ٣٤٨ ، ٤٢٥ .

* عبد الله بن بسر ٦٥٢/٢ .

* عبد الله بن أبي بكر ١٧٢/٢ ، ٣٢٩/٣ .

* عبد الله بن حبيب ٧٢٤/٣ .

* عبد الله بن أبي حدر ٥٥٥/١ ، ٥٥٦ .

* عبد الله بن جابر ٥١/١ .

* عبد الله الديلمي ١٧٠/٣ .

* عبد الله بن الزبير ١٨٣/١ ، ٤٥٣ ، ٢١٤/٢ ،
٢٢٥/٣ ، ٣٥١ ، ٤٩٨ .

* عبد الله بن زمعة ٦٩٢/٣ .

* عبد الله بن السائب ٢٥٢/١ .

* عبد الله بن سرجس ٣٢١/٣ .

* عبد الله بن سلام ٢١٨/٢ ، ٥٠٦ .

* عبد الله بن الشخير ٤٥١/٣ .

* عبد الله بن شقيق ٦٩/١ ، ٤١٢/٢ .

* عبد الله بن عباس ٤٥/١ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٧ ،

٩١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١٣٨ ،

١٤٠ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٧ ،

١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، ٢١٦ ، ٢٣٣ ،

٢٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،

٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣٣٢ ،

٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٨٥ ،

٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤٠٣ ،

٤١٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٤ ،

٤٧٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ،

٥٤٠ ، ٥٤٦ ، ٥٥٣ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ،

٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٧ ، ٦١٠ ، ٦١٧ ،

٦٤٠ ، ٦٤٥ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٩٠ ، ٦٩٥ .

٣١٧ ، ٣١٩ ، ٤١٥ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ ، ٤٥١ ،
 ٤٩٣ ، ٥١٥ ، ٥٤٧ ، ٥٦٥ ، ٥٧١ ، ٥٧٩ ،
 ٦١٢ ، ٦١٤ ، ٨٠٨/٢ ، ٨٠٩ ، ٢١/٣ ،
 ١٠٣ ، ١٧٨ ، ١٩٩ ، ٢٣٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢٧ ،
 ٣٨٤ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠١ ،
 ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٤٣٨ ، ٤٧٠ ،
 ٥١٠ ، ٥٣٧ ، ٥٦٤ ، ٥٩٩ ، ٦٢١ ، ٦٨٤ ،
 ٦٩٨ ، ٧٠٣ ، ٧٣٧ ، ٧٤٧ .

* عبد الله بن مغفل ١/٣٠ ، ٢/٢٤ ، ٣/٣٢٤ ،
 ٣٣٦ ، ٥٤٩ ، ٥٧٢ ، ٦٣٦ .

* عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث ٢/١٧٦ .

* عبيد الله وهو ابن عمر العمرى ٢/١٨٧ .

* أبو عبيدة بن الجراح ١/٨٩ .

* عتبة بن عبد السلمي ٣/٤٣٤ .

* عتبة بن خالد ٣/٣٨٥ .

* عتبة بن غزوان ٣/٢٠٤ .

* عثمان بن عفان ١/٤١٧ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ،
 ٨٣٨ ، ١٨٩/٢ ، ٢٧٨ ، ٥٦٧ ، ٦٦٤ .

* عدي بن حاتم ١/٣١٨ ، ٣٨٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ،
 ٦٣٤ ، ١٦٠/٢ ، ٦٧٣ ، ٨١٥ ، ٧١٧/٣ .

* عدي بن عميرة الكندي ١/٣٨٤ ، ٤٣٤ .

* العرباض بن سارية ١/١٨٥ ، ٣/٥٠٩ .

* عروة بن الزبير ٢/٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٢١٤/٣ ، ٤٩٥ .

* عروة بن أبي الجعد البارقي ٢/١٣٧ .

* عروة الفقيمي ١/٢٢٢ .

* أبو عزة ٣/١٧ .

* عطية السعدي ١/٧٧ .

* عطية القرظي ١/٤٦٣ .

* عقبه بن عامر ١/٢٥٢ ، ٢٨٣ ، ٣٣٧ ، ٦٤٨ ،
 ٧٣٧ ، ١٣٧/٢ ، ٣٧١ ، ٤٢٢ ، ١٣٢/٣ .

٥٣٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٧١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٨ ،
 ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧٣٩ ،
 ٧٤١ .

* عبد الله بن عمرو بن العاص ١/٨٩ ، ١٦٧ ،

١٨٤ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ ، ٢٥٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،
 ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٣٩٨ ، ٤١٨ ،
 ٤٣١ ، ٤٤٦ ، ٤٦٧ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٥٠٤ ،
 ٥٠٥ ، ٥٣٠ ، ٥٤٣ ، ٥٧٩ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ،

٦١٩ ، ٦٤٥ ، ٦٥٧ ، ٦٦٦ ، ٦٧٢ ، ٦٧٧ ،
 ٧٢٧ ، ٧٢٩ ، ٧٨٨ ، ٨٤٤ ، ٣٨/٢ ، ٧٨ ،

١٧٥ ، ١٨١ ، ٢٥٠ ، ٣٢٥ ، ٣٩٨ ، ٥٥٨ ،
 ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٩٥ ، ٥٨/٣ ، ٦٥ ، ٩٤ ،

١٠١ ، ١١١ ، ١٧١ ، ٢٤٨ ، ٣١١ ، ٣١٦ ،
 ٣٢٢ ، ٣٥٦ ، ٣٧٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٤١٤ ،

٤٦٠ ، ٤٧٢ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧/٣ ، ٥٥٩ ، ٥٦٩ ،
 ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٦٠٨ ، ٦٥٩ ، ٦٧٣ ، ٦٩٩ ،

٧١٦ ، ٧٣٧ .

* عبد الله بن قيس الأشعري ٢/١٨١ ، ٣/٤٢٣ .

* عبد الله بن كعب بن مالك ٢/١٧٨ .

* عبد الله بن مسعود ١/٥٤ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٨ ،

٩٠ ، ٩١ ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤٨ ،
 ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٢٨ ، ٢٤٥ ،

٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٢٣ ،
 ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٧ ،

٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤١٥ ،
 ٤٢٥ ، ٤٣٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٩١ ، ٤٩٥ ،

٥٠٥ ، ٥٠٩ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٧ ، ٥٤٩ ،
 ٥٥٠ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٦٤ ، ٥٧١ ، ٥٧٥ ،

٥٩١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٥ ، ٦٠٩ ، ٦٢٣ ، ٦٥١ ،
 ٦٦٥ ، ٧٠٤ ، ٧١٥ ، ٧١٩ ، ٧٢٣ ، ٧٢٥ ،

٧٤٣ ، ٧٤٥ ، ٧٧٦ ، ٧٩٣ ، ٨١٥ ، ٨٢٠ ،
 ٨٣٥ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٦/٢ ، ١٨ ، ٧٩ ،
 ٨٤ ، ١٢٤ ، ١٥٦ ، ٢٠٧ ، ٢٧٨ ، ٣٠٩ ،

٣٥٤ ، ٣٦٦ ، ٤٣٤ ، ٤٨٨ ، ٦٣٣ ، ٦٤٣ ،
٦٦٤ ، ٦٧٥ ، ٨٤٦ ، ١٧/٢ ، ٥٩ ، ٦٦ ، ٦٩ ،
١٩٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٣١٣ ، ٥٠١ ، ٥٠٤ ،
٥٤٨ ، ٥٦٤ ، ٦٢٩ ، ٦٤٤ ، ٧٤٢ ، ٧٩٩ .

- * عمرة بن مرة الجهني ٥٣٧/١ .
- * عمرو بن عبسة ٦٤٦/١ ، ١٣٦/٢ ، ٦٧٨/٣ .
- * عمير بن قتادة ٤٩٠/١ .
- * عوف بن مالك الأشجعي ٤٤١/١ .
- * أبو عياش الزرقى ٥٦٧/١ .
- * عياض بن حمار المجاشعي ٧٩٢/١ ، ٨٠٢ ، ١٦/٢ ، ٧٢ ، ٢٠٦ ، ٢٢٤ ، ٢٤٢ ، ٦٨٧ ، ٨٢٠ ، ٨٠٢ .

« ف »

- * فاطمة بنت أبي حبيش ٢٧٦/١ .
- * فاطمة بنت فيس ٥٣٤/٣ .
- * الفريعة بنت مالك بن سنان ٣٠١/١ .
- * فضالة الأنصاري ٥٠٩/١ .
- * فضالة بن عبيد ٤٥٤/١ .
- * فضالة بن عبيدة ٣٩٩/٢ .
- * الفضل بن عباس ٢٩٩/١ .
- * أم الفضل أم عبد الله بن عباس ٣٥٦/١ .

« ق »

- * قيصة بن مخارق ٥٢٤/١ ، ١٧٧/٢ ، ٧٣١ .
- * أبو قتادة الأنصاري ٢٢٢/١ ، ٣٣٧ ، ٥٨٩/٢ ، ١٦٩/٣ ، ٣١٦ ، ٧٤٠ .
- * قتادة بن النعمان ٥٩٥/٢ .

١٥٨ ، ٦٥٢ .

- * عقبة بن مالك الليثي ٥٣٣/١ .
- * عكرمة ٢٦٦/١ ، ٤٧٦ ، ٣٤٣/٣ ، ٦٠٣ .
- * أم العلاء ٣٧٠/٢ .
- * علقمة بن أبي وقاص ١٠٢/٢ ، ٣١٠/٣ ، ٦٩٤ .
- * علي بن الحسين ٦٥٦/٣ .
- * علي بن أبي طالب ١١٠/١ ، ٢٥٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٧١ ، ٤٠٢ ، ٤١٧ ، ٤٦٣ ، ٤٧٠ ، ٤٨٥ ، ٥٢٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٤ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٧ ، ٦٧٦ ، ٦٨٦ ، ٧٧٠ ، ٨٤٨ ، ٢٠١/٢ ، ٤٨١ ، ٣٧٥ ، ٣٨٩ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٦٩٥ .
- * عمار بن ياسر ٥١٨/١ ، ٧٥٦ ، ١٨٣/٢ ، ٤٣٢/٣ .

* عمارة بن خزيمة الأنصاري ٣٤١/١ .

* عمارة بن ربيعة ٥٤٦/٢ .

- * عمر بن الخطاب ١٧٣/١ ، ١٧٤ ، ١٩٣ ، ٢٢٩ ، ٢٦٢ ، ٢٧٣ ، ٣٠٣ ، ٣٣٢ ، ٣٩٠ ، ٤٣٤ ، ٤٧٨ ، ٥٤٤ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ ، ٦١١ ، ٦١٥ ، ٦١٧ ، ٦٢٧ ، ٦٤٥ ، ٧٢٤ ، ٧٧٩ ، ٨٣٣ ، ١٣/٢ ، ٧١ ، ١٠٤ ، ٢٠٢ ، ٥٤٦ ، ٦٢٥ ، ٧٦٦ ، ٦٤/٣ ، ٢٠٤ ، ٣٢٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٩٣ ، ٤٥٧ ، ٥١٣ ، ٥٤٦ ، ٥٥٤ .

* عمر بن علي ١٧/٣ .

* عمر بن أبي سلمة ٧٤٤/٣ .

- * عمران بن حصين ١٩٨/١ ، ٢٤١ ، ٤٤٩ ، ٥١٥ ، ٥٣٧ ، ٥٤٦ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٣٧٠/٢ ، ٥٧٧ ، ٦٩١/٣ .

* عمرو بن الأحوص ٣٣٦/١ .

* عمرو بن خارجة ٢١٤/١ .

* عمرو بن العاص ١٣٦/١ ، ٢٢٨ ، ٢٩٣ .

* قيس بن سعد بن عبادة ١ / ٣١٥ ، ٧٢٧ .

* قيس بن عاصم ١ / ٤٩٧ .

« ك »

* أبو كبشة الأنصاري ٢ / ٣٧ .

* كعب بن عجرة ١ / ٢٤٠ ، ٦٧ / ٣ .

* كعب بن مالك ١ / ١٩٩ ، ٢ / ٢٠٣ ، ٤١٢ ، ٦١٧ / ٣ .

* كلدة بن الحنبل ٢ / ٦٥٣ .

* أم كلثوم بنت عقبة ١ / ٥٧٢ .

* كيسان ١ / ٦٠٥ ، ٧٢٦ .

« ل »

* لقيط بن صبرة ١ / ٦٤٦ .

« م »

* أبو مالك الأشجعي ١ / ٤٣٣ .

* أبو مالك الأشعري ١ / ٦٤٨ ، ٢ / ٣٥٦ ، ١٨٤ / ٣ ، ٦١٤ .

* مالك بن أنس ٣ / ٧٠٩ .

* مالك بن صعصعة ٢ / ٤٠٩ .

* مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري ٣ / ٧١٣ .

* مالك بن أبي كعب ١ / ٤٣٩ .

* مالك بن فضلة ١ / ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٢ / ٢٣٢ .

* أم مبشر - امرأة زيد بن حارثة ٢ / ٥١٥ ، ٣ / ٣٣٢ .

* مجمع بن جارية ١ / ٦٠٥ .

* معجن بن الأدرع ١ / ٢٢٣ .

* محمد بن حمزة ٣ / ٢٦٧ .

* محمد بن أبي عميرة ٣ / ٦٨٤ .

* محمد بن كعب القرظي ١ / ٨٠٩ ، ٣ / ٢٣١ ، ٣٠٩ .

* محمد بن مسلم بن بدر المكي ٣ / ٢٢٧ .

* محمود بن ليبد ٢ / ٤٩٦ .

* مرثد ٣ / ٧٠٩ .

* مروان بن الحكم ٣ / ٣٤٢ .

* مسروق ١ / ٤٣٨ .

* أبو مسعود الأنصاري ١ / ٣١٩ ، ٣٤٦ ، ١٨٥ / ٢ ، ٦٧ / ٣ ، ٤٧١ .

* أبو مسعود البدري ١ / ٣٣٧ .

* المستورد أخو بني فهر ٢ / ١٦٧ ، ٣٢٦ .

* المستورد بن شداد ١ / ٤٣٣ .

* المسور بن مخرمة ١ / ٢٤٨ ، ٢ / ٦٣١ ، ٣ / ٣٣٧ ، ٥٣٧ .

* المسيب بن حزن ٢ / ٢٠١ ، ٧٧٧ .

* المطلب بن أبي وداعة ١ / ٨١٩ .

* معاذ بن أنس الجهني ٢ / ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٣ / ٣٦٠ .

* معاذ بن جبل ١ / ٥٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٤٠١ ، ٤٥٤ ، ٥٠٣ ، ٥١٤ ، ٥٤٥ ، ٥٩٢ ، ٧٨٢ ، ٧٩٠ ، ٣٠٧ / ٢ ، ٦٧٤ ، ٢٢ / ٣ ، ١٧٦ ، ٦٧٢ .

* معاوية بن الحكم السلمي ١ / ٢٩٧ ، ٥٥٠ ، ٣ / ٤٦٧ ، ٧٢٢ .

* معاوية بن حيدة القشيري ١ / ١١٢ ، ٢٦٨ ، ٢٧٧ ، ٤٠١ ، ٥٠١ ، ٣ / ٣١٩ ، ٦٥٣ .

* معاوية بن أبي سفيان ١ / ٥٢١ ، ٥٥٣ ، ٦٤٥ ، ٨٤٤ ، ٥٢٢ / ٢ ، ٢٥٨ / ٣ ، ٢٧٣ ، ٧١٠ .

* معبد الجهني ١ / ٥٢٣ .

* المغيرة بن شعبة ١ / ١٥٦ ، ٥٤٤ ، ٥٠٣ / ٢ .

* أبو هريرة ١/٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٨٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٥٥ ، ٣٦٢ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢٦ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٧٣ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٥٠٠ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥١٦ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧ ، ٥٥٠ ، ٥٦١ ، ٥٧٥ ، ٥٧٨ ، ٥٨٣ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦١٦ ، ٦٢٤ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٥ ، ٦٤٨ ، ٦٥٦ ، ٦٦٦ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦ ، ٦٨٢ ، ٦٨٨ ، ٦٩٤ ، ٧٠٦ ، ٧١٠ ، ٧٢٤ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٥ ، ٧٥٨ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٧٢ ، ٧٧٧ ، ٧٨٠ ، ٧٨٤ ، ٧٩٢ ، ٨٠٥ ، ٨١٩ ، ٨٣٤ ، ٨٣٨ ، ٨٤٣ ، ٨٥٠ ، ١٦/٢ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٥٦ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١١٠ ، ١٣٧ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ٢٣٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٦ ، ٣٠٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨

٢٣/٣ ، ١٠٠ ، ٣٢٧ .

* المقداد بن الأسود ١/٥٠٤ ، ٥٢٣ ، ٦٦٠ ، ٧٠٥ ، ٧٠٢/٢ ، ٤٠٣/٣ ، ٦٥٢ .

* المقدام أبو كريمة ١/٥٩٣ .

* المقدام بن معد يكرب ١/٥٠٥ ، ٦٤٥ ، ١٧/٢ ، ٣١٧/٣ .

* ابن أبي مليكة ٣/٣٥٢ .

* أبو موسى الأشعري ١/٥٣ ، ٨٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ ، ٢٧٢ ، ٢٨٤ ، ٣١١ ، ٣٤٢ ، ٣٧١ ، ٤٢٣ ، ٤٥٣ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٧٢٣ ، ٧٥٣ ، ٨٠٥ ، ٦٦/٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٢٥ ، ١٦٩ ، ٢٥٤ ، ٢٧٤ ، ٣٥٧ ، ٤٧٦ ، ٥٢٠ ، ٦٠٠ ، ٦١٣ ، ٦٥٢ ، ٦٥٩ ، ٧٣٧ ، ٧٧٦ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ١٠/٣ ، ٩٧ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٥١٠ ، ٥٥٠ ، ٦١١ ، ٦٧٥ .

* مولى لرسول الله ٢/٤٧٨ .

* ميمونة بنت الحارث ١/٢٦٧ .

« ن »

* نافع ٣/٣٣٠ .

* نافع بن عتبة ١/٦٠٥ .

* نبیشة الهذلي ١/٢٤١ ، ٢٥٢ .

* النعمان بن بشير ١/٣٣١ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ ، ١٠٣/٣ ، ٢٢٥ ، ٦٧٢ ، ٦٧٦ ، ٦٩٦ .

* النعمان بن مقرن المزني ٢/٧٠١ .

* النواس بن سمعان ١/٦٦ ، ٧٣ ، ٦٠٣ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٨١٤ ، ٨٣٩ ، ٥٧٠/٢ .

« هـ »

* أم هانئ ٣/٤٤٥ .

* أبو واقد الليثي ٣٩٥/١ ، ٦٣١ ، ٥٤/٢ ، ٥٩٥ ، ٤٠٧ ، ٣٦٤/٣ .

* وحشي بن حرب ٦٧٨/٢ .

* الوليد بن عباد ٤١٤/٣ ، ٥٥٧ .

« ي »

* يزيد بن رومان ١٧٢/٢ .

* يزيد أبو حبيب ٥١٢/١ .

* يزيد بن أبي عبيد ٣٣١/٣ .

* أبو اليسر ٣٣٨/١ .

الأحاديث التي لم يذكر صاحبها :

* ٤٢/١ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ .

٤٠٥ ، ٣٩٢ ، ٣٦٩ ، ٣٦٨ ، ٣٥٩ ، ٣٥٥ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٧١ ، ٤٨٨ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥١٦ ، ٥٢١ ، ٥٢٨ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٥٤ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٧٤ ، ٥٧٦ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٦٠١ ، ٦٠٨ ، ٦١٢ ، ٦٢٠ ، ٦٣٤ ، ٦٥١ ، ٦٥٥ ، ٦٦٠ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٧٠٥ ، ٧١٦ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٣ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٥٧ ، ٧٧٧ ، ٧٨٧ ، ٧٩٧ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ، ١٠/٣ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٦٥ ، ١٧٣ ، ١٨٤ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٦١ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٣٢٢ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤٢٥ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٩ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٢ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٣ ، ٥٣١ ، ٥٤١ ، ٥٥١ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٧٣ ، ٥٧٧ ، ٥٩٨ ، ٦١١ ، ٦١٤ ، ٦٢٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٢ ، ٦٤٩ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٧٧ ، ٦٨١ ، ٦٧٩ ، ٦٩٦ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧١١ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٤٩ ، ٧٥١ ، ٧٥٤ .

« و »

* وائل بن حجر ٧٠/١ .

* وائلة بن الأسقع ٧٤/١ ، ٢٢٠ ، ٥٥٥ ، ٨١٩ .

، ٤٧٧ ، ٤٧٤ ، ٤٧١ ، ٤٧٠ ، ٤٦٨ ، ٤٦٧
 ، ٤٩٨ ، ٤٩٥ ، ٤٩٣ ، ٤٩١ ، ٤٨٨ ، ٤٨٧
 ، ٥١٤ ، ٥١١ ، ٥١٠ ، ٥٠٩ ، ٥٠٨ ، ٥٠٥
 ، ٥٤٧ ، ٥٤٦ ، ٥٤٢ ، ٥٤٠ ، ٥٣٤ ، ٥٢٩
 ، ٥٨٦ ، ٥٦٩ ، ٥٦٥ ، ٥٦٤ ، ٥٥٥ ، ٥٤٨
 ، ٦٠٨ ، ٦٠٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٦ ، ٥٩٥ ، ٥٨٧
 ، ٦٢٩ ، ٦٢٨ ، ٦٢٦ ، ٦٢٠ ، ٦١٢ ، ٦٠٩
 ، ٦٥٣ ، ٦٤٩ ، ٦٤٨ ، ٦٤٧ ، ٦٣٦ ، ٦٣٠
 ، ٦٦١ ، ٦٦٠ ، ٦٥٩ ، ٦٥٨ ، ٦٥٥ ، ٦٥٤
 ، ٦٧٥ ، ٦٧٤ ، ٦٧٣ ، ٦٦٦ ، ٦٦٥ ، ٦٦٤
 ، ٦٩٦ ، ٦٩٣ ، ٦٩٠ ، ٦٨١ ، ٦٧٩ ، ٦٧٧
 ، ٧١٦ ، ٧٠٢ ، ٧٠٠ ، ٦٩٩ ، ٦٩٨ ، ٦٩٧
 ، ٧٣٩ ، ٧٣٨ ، ٧٣٥ ، ٧٣٤ ، ٧٣٢ ، ٧١٧
 ، ٧٧٩ ، ٧٧٨ ، ٧٦٨ ، ٧٥٨ ، ٧٥٤ ، ٧٤٥
 ، ٧٩٦ ، ٧٩٥ ، ٧٩١ ، ٧٨٨ ، ٧٨٥ ، ٧٨٣
 ، ٨٢١ ، ٨١٩ ، ٨١٨ ، ٨١٧ ، ٨١٠ ، ٨٠٢
 ، ١١٢ ، ٩٥ ، ٣١/٣ ، ٨٢٦ ، ٨٢٣ ، ٨٢٢
 ، ١٦٠ ، ١٥٩ ، ١٥٤ ، ١٣٦ ، ١١٩ ، ١١٣
 ، ٢٤٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٠ ، ١٦٧
 ، ٢٨٣ ، ٢٦٣ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥٢
 ، ٣٤٠ ، ٣١٩ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٦ ، ٢٩٠
 ، ٣٥٦ ، ٣٥٠ ، ٣٤٩ ، ٣٤٥ ، ٣٤٤ ، ٣٤٢
 ، ٤٣١ ، ٤١٤ ، ٤١٠ ، ٣٦٩ ، ٣٥٨ ، ٣٥٧
 ، ٤٧١ ، ٤٧٠ ، ٤٥٧ ، ٤٥٣ ، ٤٥٢ ، ٤٤٦
 ، ٥١٨ ، ٥١٣ ، ٥٠٨ ، ٥٠٤ ، ٥٠١ ، ٤٨٧
 ، ٥٤٩ ، ٥٤٢ ، ٥٣٥ ، ٥٣٠ ، ٥٢٥ ، ٥٢٤
 ، ٥٧٠ ، ٥٦٩ ، ٥٦٦ ، ٥٦٤ ، ٥٥٣ ، ٥٥٠
 ، ٦٠٢ ، ٥٩٩ ، ٥٩٨ ، ٥٩١ ، ٥٧٦ ، ٥٧٥
 ، ٦٢٧ ، ٦٢٤ ، ٦١٩ ، ٦١٦ ، ٦٠٦ ، ٦٠٥
 ، ٦٥٠ ، ٦٤٨ ، ٦٤١ ، ٦٣٦ ، ٦٣٣ ، ٦٣١
 ، ٦٨٩ ، ٦٨٦ ، ٦٨٤ ، ٦٧٢ ، ٦٦٩ ، ٦٦٠
 ، ٧٢٢ ، ٧١٨ ، ٧١٣ ، ٧٠٨ ، ٧٠٧ ، ٦٩٧
 ، ٧٥٣ ، ٧٤٩ ، ٧٣٨ ، ٧٣٦ ، ٧٣٤ ، ٧٢٣

، ٤٩٥ ، ٤٩٢ ، ٤٨٨ ، ٤٨٦ ، ٤٨٥ ، ٤٨٣
 ، ٥١٠ ، ٥٠٧ ، ٥٠٦ ، ٥٠٥ ، ٥٠٠ ، ٤٩٧
 ، ٥٣٣ ، ٥٣١ ، ٥٢٨ ، ٥٢٧ ، ٥١٧ ، ٥١٤
 ، ٥٤٥ ، ٥٤٤ ، ٥٤٢ ، ٥٤١ ، ٥٣٩ ، ٥٣٦
 ، ٥٧٦ ، ٥٦٦ ، ٥٦٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٢ ، ٥٤٨
 ، ٦٢٢ ، ٦١٢ ، ٦٠٥ ، ٥٩٤ ، ٥٩٠ ، ٥٨٨
 ، ٦٣٧ ، ٦٣٦ ، ٦٣٤ ، ٦٣٠ ، ٦٢٨ ، ٦٢٣
 ، ٦٤٩ ، ٦٤٦ ، ٦٤٣ ، ٦٤١ ، ٦٤٠ ، ٦٣٩
 ، ٦٨٠ ، ٦٦٤ ، ٦٦٣ ، ٦٦٠ ، ٦٥٩ ، ٦٥٧
 ، ٧١٢ ، ٧٠٢ ، ٧٠١ ، ٧٠٠ ، ٦٨٣ ، ٦٨١
 ، ٧٤٢ ، ٧٣٠ ، ٧٢٧ ، ٧٢٠ ، ٧١٥ ، ٧١٣
 ، ٧٨٥ ، ٧٨٤ ، ٧٧٧ ، ٧٦٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٤
 ، ٨٠٥ ، ٧٩٩ ، ٧٩٨ ، ٧٩٥ ، ٧٩٠ ، ٧٨٨
 ، ٨٤٥ ، ٨٢١ ، ٨٢٠ ، ٨١٧ ، ٨١٣ ، ٨٠٨
 ، ٢٧ ، ٢٤ ، ١٦ ، ١٣ ، ٧/٢ ، ٨٤٨ ، ٨٤٦
 ، ٧٧ ، ٦٥ ، ٥٩ ، ٤٧ ، ٤٤ ، ٣٩ ، ٣٣
 ، ١١٦ ، ١١٠ ، ١٠٥ ، ١٠٠ ، ٩١ ، ٨٧ ، ٨٣
 ، ١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٢٤ ، ١٢٠ ، ١١٧
 ، ١٤٤ ، ١٤١ ، ١٣٩ ، ١٣٨ ، ١٣٧ ، ١٣٠
 ، ١٦١ ، ١٥٨ ، ١٥٧ ، ١٥٤ ، ١٥٠ ، ١٤٦
 ، ١٧٨ ، ١٧٦ ، ١٧٠ ، ١٦٧ ، ١٦٤ ، ١٦٢
 ، ١٩١ ، ١٨٨ ، ١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٨٠ ، ١٧٩
 ، ٢١٨ ، ٢١٦ ، ٢١٥ ، ٢١١ ، ١٩٩ ، ١٩٨
 ، ٢٣٣ ، ٢٣٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ٢١٩
 ، ٢٥١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٣٧
 ، ٢٧٦ ، ٢٧٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٢
 ، ٣٠٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٠ ، ٢٧٩
 ، ٣٢٢ ، ٣١٩ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٥ ، ٣٠٩
 ، ٣٣٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣٢٦ ، ٣٢٥
 ، ٣٦٣ ، ٣٦١ ، ٣٥١ ، ٣٤١ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧
 ، ٤٢٥ ، ٣٩٥ ، ٣٩٠ ، ٣٨٣ ، ٣٧٧ ، ٣٦٧
 ، ٤٣٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٢ ، ٤٣١ ، ٤٢٨ ، ٤٢٧
 ، ٤٦٦ ، ٤٥٨ ، ٤٥٠ ، ٤٤٥ ، ٤٤٢ ، ٤٤٠

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

سورة لقمان (٣١)

- ٥ ربيع : ﴿ اَلَمْ تَرَ اَنَّ تِلْكَ اٰيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾
- ٥ أقوال السلف فى الغناء والمزامير وقسمهم على تحريمها
- ٦ مآل الأبرار السعداء فى الدر الآخرة
- ٦ ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾
- ٧ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ اَنْ اَشْكُرَ لِلّٰهِ ﴾
- ٨ لقمان يعظ ولده
- ٩ وصايا نافعة حكاها لقمان الحكيم ليمثلها الناس ويقتدوا بها
- ١٠ ﴿ اَلَمْ تَرَوْا اَنَّ اللّٰهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْاَرْضِ ﴾
- ١١ ربيع : ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ اِلَى اللّٰهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾
- ١٢ ﴿ وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ ﴾
- ١٢ ﴿ وَلَوْ اَنَّامَا فِى الْاَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ اَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ اَبْحَارٍ ﴾
- ١٣ ﴿ اَلَمْ تَرَ اَنَّ اللّٰهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾
- ١٣ ﴿ اَلَمْ تَرَ اَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللّٰهِ ﴾
- ١٤ أمر الله تعالى عباده بالتقوى وإنذاره إياهم يوم القيامة وما فيه
- ١٤ مفاتيح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها

سورة السجدة (٣٢)

- ١٨ ﴿ اَلَمْ تَنْزِلِ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِىهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
- ١٨ خلق الله السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام وهو سبحانه القائم على شؤون من فيهما
- ١٩ ﴿ الَّذِى اَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْاِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾
- ١٩ ربيع : ﴿ قُلْ يَتُوفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾
- ٢٠ حال المشركين يوم القيامة حين عاينوا البعث وحين وقوفهم حقيرين ذليلين
- ٢١ ﴿ اِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ اِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾
- ٢٣ الله تعالى لا يساوى فى حكمه يوم القيامة بين مؤمن وفاسق
- ٢٤ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِى مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾
- ٢٦ ﴿ اَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ اَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِينِهِمْ ﴾

٢٧ _____ استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم وحلول غضبه ونقمته عليهم

سورة الأحزاب (٣٣)

٢٨ _____ ربع : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾

ليس للشخص الواحد قلبان في جوفه ولا تصير الزوجة زوجة التي يظهر منها ، ولا يصير

٢٨ _____ الدعى ولداً إذا تبناه فدعاه ابناً له

٣١ _____ ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾

٣٢ _____ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

٣٣ _____ نصر الله تعالى للمؤمنين في غزوة الأحزاب

٣٥ _____ ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

٣٦ _____ ﴿ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا ﴾

٣٧ _____ ربع : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعْرِقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾

٣٧ _____ ﴿ يَخْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾

٣٧ _____ التأسى برسول الله ﷺ في جميع أقواله وأفعاله وأحواله

٣٨ _____ استمرار المؤمنين على عهد الله وميثاقه وجزاؤهم وجزاء المنافقين

٤٠ _____ ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ ﴾

٤١ _____ ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾

٤٤ _____ أمر الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين الطلاق وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال

٤٦ _____ الجزء - ٢٢ : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ لَلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُفْتِيهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ ﴾

أمر الله تعالى لنساء المؤمنين بعدم الخضوع في القول ولزوم البيوت وعدم التبرج وإقامة

٤٦ _____ الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله

٤٨ _____ ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾

٥٠ _____ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾

٥٢ _____ ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾

٥٤ _____ ﴿ الَّذِينَ يُكْفُون رَسُولَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾

٥٦ _____ أمر الله عباده المؤمنين بكثرة ذكره وتسبيحه ليلاً ونهاراً وصلاة الله تعالى عليهم وملائكته

٥٨ _____ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

٦٠ _____ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ ﴾

٦٢ _____ ربع : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾

٦٣ _____ ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾

٦٤ _____ آية الحجاب

٦٦ _____ أقارب لا يجب الاحتجاب منهم

٦٦ _____ ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾

- ٧٢ ﴿ إِنَّ الدِّينَ يُدُونُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾
- ٧٣ للمرأة المسلمة رى خاص بها يميزها عن المرأة الجاهلية وسمات الإمام
- ٧٣ ربيع : ﴿ لَنْ يَنْتَهِي الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾
- ٧٥ ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾
- ٧٦ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾
- ٧٧ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾
- ٧٧ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴾

سورة سبأ (٣٤)

- ٧٩ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾
- ٧٩ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾
- ٨٠ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مَزْقٍ ﴾
- ٨١ ربيع : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾
- ٨٢ تسخير الله تعالى الريح لسليمان عليه السلام وكذلك الجن
- ٨٣ ﴿ فَلَمَّا قُضِيَنا عَلَيْهِ الْمَوْتُ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾
- ٨٤ ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ ﴾
- ٨٦ ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ﴾
- ٨٨ ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ ﴾
- ٨٨ بيان أنه تبارك وتعالى الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد
- ٩٠ ربيع : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾
- ٩٢ تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان
- ٩٣ ما بعث الله نبيا فى قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم
- ٩٥ تقريع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق
- ٩٥ استحقاق الكفار العقوبة والاليم من العذاب
- ٩٦ ربيع : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَارِكُمْ ثُمَّ تَنَفَّكُوا ﴾
- ٩٧ ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾
- ٩٨ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فُزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾

سورة فاطر (٣٥)

- ١٠٠ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾
- ١٠٠ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن
- ١٠١ استقلاله سبحانه بالخلق والرزق
- ١٠١ ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

- ١٠١ ————— عداوة إبليس لابن آدم
- ١٠٢ ————— ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾
- ١٠٣ ————— ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَسَقَنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾
- ١٠٥ ————— ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾
- ١٠٦ ————— ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾
- ١٠٦ ————— ربع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾
- ١٠٧ ————— ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾
- ١٠٨ ————— كمال قدرته سبحانه في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد
- ١٠٩ ————— رجاء عباد الله المؤمنين ثواب الله
- ١١٠ ————— ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾
- ١١٠ ————— القائمين بالكتاب العظيم هم المصطفون من عباد الله
- ١١١ ————— جزاء المصطفين من عباد الله جنات عدن
- ١١٢ ————— ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾
- ١١٤ ————— ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
- ١١٥ ————— ربع: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾
- ١١٥ ————— ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إْحْدَى الْأُمَمِ﴾
- ١١٦ ————— ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾

سورة يس (٣٦)

- ١١٧ ————— ﴿يَس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾
- ١١٧ ————— ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾
- ١٢٠ ————— ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾
- ١٢١ ————— ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾
- ١٢١ ————— ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾
- ١٢٢ ————— الجزء - ٢٣ : ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾
- ١٢٤ ————— ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾
- ١٢٤ ————— ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾
- ١٢٥ ————— ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾
- ١٢٨ ————— ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾
- ١٢٩ ————— تمادى المشركين في غيهم وضلالهم
- ١٢٩ ————— استبعاد الكفرة لقيام الساعة
- ١٢٩ ————— ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾
- ١٣٠ ————— أهل الجنة يوم القيامة في شغل عن غيرهم فاكهون

- ١٣١ ربيع: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾
- ١٣١ ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾
- ١٣٣ كلما طال عمر الإنسان عاد إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط
- ١٣٥ ذكر ما أنعم به تعالى على خلقه من الأنعام التي سخرها لهم
- ١٣٦ ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾
- ١٣٧ قدرة الله العظيمة في خلق السموات السبع

سورة الصافات (٣٧)

- ١٣٩ ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾
- ١٤٠ ﴿ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴾
- ١٤١ ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾
- ١٤١ ربيع: ﴿ احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾
- ١٤٢ تلاوم الكفار في عرصات القيامة
- ١٤٣ ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾
- ١٤٥ تساؤل أهل الجنة بعضهم البعض عن أحوالهم
- ١٤٦ ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ﴾
- ١٤٨ أكثر الأمم الماضية كانوا ضالين
- ١٤٨ ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾
- ١٤٩ ربيع: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴾
- ١٤٩ ﴿ فَفَطَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾
- ١٥٠ هجرة إبراهيم عليه السلام
- ١٥٣ ذكر ما أنعم الله به على موسى وهارون عليهما السلام
- ١٥٣ ﴿ وَإِنْ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾
- ١٥٤ ﴿ وَإِنْ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾
- ١٥٤ ربيع: ﴿ فَبَدَّنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾
- ١٥٥ ﴿ فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتِ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾
- ١٥٦ ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِتِينَ ﴾
- ١٥٧ العاقبة للرسول وأتباعهم في الدنيا والآخرة
- ١٥٨ تنزيه الله تعالى عما يقول الظالمون المكذبون

سورة ص (٣٨)

- ١٦١ ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾
- ١٦١ تعجب المشركين من بعثة رسول الله ﷺ بشيرا ونذيرا

- ١٦٤ _____ إخبار الله تعالى عن القرون الماضية وما حل بهم من العذاب
- ١٦٥ _____ إخبار الله تعالى عن عبده ورسوله داود أنه كان ذا أيد
- ١٦٦ _____ ربع : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾
- ١٦٦ _____ وصية الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالعدل
- ١٦٦ _____ إخباره تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه
- ١٦٧ _____ هبة الله تعالى لداود سليمان نبيا
- ١٦٨ _____ ﴿ وَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾
- ١٧١ _____ ابتلاء الله تعالى لعبده أيوب
- ١٧٣ _____ فضائل عباد الله المرسلين وأنبيائه العابدين
- ١٧٤ _____ ربع : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرْفِ أَثَرَابَ ﴾
- ١٧٥ _____ ذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم
- ١٧٦ _____ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾
- ١٧٧ _____ إعلام الله الملائكة بأنه خالق بشرا من طين
- ١٧٨ _____ ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾

سورة الزمر (٣٩)

- ١٧٩ _____ ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾
- ١٨٠ _____ الله خالق السموات والأرض بالحق
- ١٨١ _____ ربع : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾
- ١٨٢ _____ ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾
- ١٨٢ _____ أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته
- ١٨٣ _____ ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾
- ١٨٣ _____ ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾
- ١٨٤ _____ ﴿ أَلَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهَ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾
- ١٨٥ _____ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾
- ١٨٦ _____ مدح الله لكتابه القرآن العظيم
- ١٨٧ _____ ﴿ أَلَمْ يَنْفِخِ بِوَجْهِهِ سُبُوحَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾
- ١٨٨ _____ ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾
- ١٨٩ _____ الجزء - ٢٤ : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾
- ١٩٠ _____ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾
- ١٩١ _____ ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ﴾
- ١٩٢ _____ ذم الله تعالى للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله
- ١٩٢ _____ ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾

- ١٩٤ _____ تضرع الإنسان إلى الله في حال الضراء
- ١٩٤ _____ ربيع : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾
- ١٩٧ _____ يوم القيامة تسود وجوه وتبيض وجوه
- ١٩٧ _____ الله تعالى خالق الأشياء كلها
- ١٩٨ _____ ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره
- ١٩٩ _____ إخبار الله تعالى عن هول يوم القيامة
- ٢٠١ _____ حال الأشقياء وكيف يساقون إلى النار
- ٢٠٢ _____ حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة
- ٢٠٥ _____ إخبار الله تعالى عن ملائكته بأنهم محدقون من حول عرشه المجيد ، يسبحون بحمد ربهم

سورة غافر (٤٠)

- ٢٠٦ _____ ربيع : ﴿ حَمْدُكَ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾
- ٢٠٧ _____ ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان إلا الذين كفروا
- ٢٠٧ _____ إخبار الله تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة ومن حوله من الكروبيين
- ٢٠٩ _____ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾
- ٢١١ _____ إخبار الله تعالى عن عظمته وكبريائه
- ٢١٢ _____ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ ﴾
- ٢١٣ _____ ربيع : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ﴾
- ٢١٤ _____ تسليه الله تعالى لنبيه ﷺ في تكذيب من كذب من قومه
- ٢١٥ _____ مؤمن آل فرعون
- ٢١٧ _____ تحذير مؤمن آل فرعون قومه بأس الله
- ٢١٨ _____ عتو فرعون وتمرده واقترائه في تكذيبه موسى عليه السلام
- ٢١٩ _____ ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾
- ٢١٩ _____ ربيع : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾
- ٢٢٢ _____ تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم
- ٢٢٥ _____ إخبار الله تعالى بأنه يعيد الخلائق يوم القيامة وأن ذلك سهل عليه
- ٢٢٥ _____ من فضل الله تعالى أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة
- ٢٢٦ _____ امتنان الله على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه وجعل النهار مبصرا
- ٢٢٧ _____ ربيع : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾
- ٢٢٨ _____ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرَفُونَ ﴾
- ٢٢٨ _____ أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه
- ٢٢٩ _____ امتنان الله تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام
- ٢٣٠ _____ إخبار الله تعالى عن الأمم المكذبة بالرسول في قديم الدهر

سورة فصلت (٤١)

- ﴿ حَمْدٌ ۝١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ٢٣١
- ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ ٢٣٢
- ربع : ﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ٢٣٣
- ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ٢٣٥
- ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ٢٣٦
- ربع : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ٢٣٨
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ٢٣٩
- ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ٢٤٠
- قدرة الله العظيمة وأنه الذي لا نظير له ٢٤٢
- علم الله بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته ٢٤٢
- كفر المشركين بالقرآن كفر عناد وتعنت ٢٤٣
- الجزء - ٢٥ : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ٢٤٤
- لا يمل الإنسان من دعائه ربه بالخير ٢٤٥
- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ ٢٤٥

سورة الشورى (٤٢)

- ﴿ حَمْدٌ ۝١ عَسَقَ ﴾ ٢٤٧
- ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ٢٤٨
- إنكار الله تعالى على المشركين اتخاذهم آلهة من دونه ٢٤٩
- ربع : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ٢٥٠
- ﴿ فَلِلَّذَلِكَ فَادَعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ ٢٥١
- توعد الله تعالى الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ٢٥١
- إخبار الله تعالى عن لطفه بعباده في رزقه إياهم عن آخرهم ٢٥٢
- ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُشِيرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ٢٥٤
- ربع : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبِفَوْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ٢٥٦
- من آيات الله الدالة على عظمته خلق السموات والأرض ٢٥٨
- من آيات الله تعالى الدالة على قدرته وسلطانه وتسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ٢٥٨
- تحقير الله لشأن الحياة الدنيا وزينتها ٢٥٩
- ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ٢٦٠
- ما شاء الله كان ولا راد له ٢٦٢
- أمر الله تعالى بالاستعداد لما يكون في يوم القيامة من الأحوال ٢٦٢

- ٢٦٣ الله تعالى خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما
- ٢٦٤ ربع : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾

سورة الزخرف (٤٣)

- ٢٦٥ ﴿ حَمْدُ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾
- ٢٦٦ اعتراف المشركين بأن الخالق للسموات والأرض هو الله
- إخبار الله تعالى عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم
- ٢٦٨ وبعضها لله
- ٢٦٩ ربع : ﴿ قَالَ أُولُو جُنُوحٍ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾
- ٢٧٠ تبرؤ إبراهيم عليه السلام من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان
- ٢٧٢ ﴿ وَمَنْ يَغْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾
- ٢٧٣ ابتعث الله تعالى عبده ورسوله موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه
- ٢٧٤ تمرد فرعون وعتوه وكفره وعناده وافتخاره بملك مصر
- ٢٧٥ ربع : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾
- ٢٧٨ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾
- ٢٧٩ حال الأشقياء في جهنم
- ٢٨٠ ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾

سورة الدخان (٤٤)

- ٢٨٢ ﴿ حَمْدُ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾
- ٢٨٣ المشركون في شك يلعبون
- ٢٨٥ ربع : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾
- ٢٨٧ أنكار الله تعالى على المشركين إنكارهم البعث والمعاد
- ٢٨٩ عدل الله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث الباطل
- ٢٨٩ إخبار الله بما يعذب به الكافرين الجاحدين للقاءه
- ٢٩٠ حال السعداء يوم القيامة

سورة الجاثية (٤٥)

- ٢٩٢ ﴿ حَمْدُ ① تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾
- ٢٩٢ ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾
- ٢٩٣ ربع : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾
- ٢٩٤ ذكر ما أنعم الله به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم
- ٢٩٤ لا يستوى المؤمنون والكافرون

- ٢٩٥ _____ قول الدهرية ومن وافقهم فى إنكار المعاد
- ٢٩٦ _____ الله تعالى مالك السموات والأرض والحاكم فيهما
- ٢٩٧ _____ حكم الله فى خلقه يوم القيامة

سورة الأحقاف (٤٦)

- الجزء - ٢٦ : ﴿ حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ _____ ٢٩٩
- الكفار إذا تتلى عليهم آيات الله بينات يقولون هذا سحر مبين _____ ٣٠٠
- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفْرْتُمْ بِهِ ﴾ _____ ٣٠٢
- الوصية بالوالدين _____ ٣٠٣
- حال الأشقياء العاقين للوالدين _____ ٣٠٥
- ربع : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾ _____ ٣٠٦
- تمكين الله للأمم السالفة فى الدنيا من الأموال والأولاد _____ ٣٠٨
- سماع الجن للقرآن وإنذارهم قومهم _____ ٣٠٩
- ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لَيْفٍ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ _____ ٣١٤

سورة القتال (٤٧)

- ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ _____ ٣١٥
- إرشاد المؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حربهم مع المشركين _____ ٣١٦
- ربع : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ _____ ٣١٨
- ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَفَرَ بِهِ وَسَاءَ عَمَلُهُ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ _____ ٣١٩
- بلادة المنافقين وقلة فهمهم _____ ٣٢٠
- تمنى المؤمنين شرعية الجهاد فلما فرض نكل عنه كثير من الناس _____ ٣٢١
- أمر الله تعالى بتدبر القرآن وفهمه _____ ٣٢٣
- ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ _____ ٣٢٣
- ربع : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا ﴾ _____ ٣٢٤
- تحقير الله تعالى لأمر الدنيا والتهوين من شأنها _____ ٣٢٥

سورة الفتح (٤٨)

- ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ _____ ٣٢٦
- إنزال الله تعالى السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا _____ ٣٢٨
- إرسال الله تعالى رسوله ﷺ شاهدا ومبشرا ونذيرا _____ ٣٢٩
- إخبار الله تعالى رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب _____ ٣٣٣
- ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوا ذُرُونا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ _____ ٣٣٤

- ٣٣٤ ﴿ قُلْ لِلْمُخْلِفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾
- ٣٣٥ ربع : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾
- ٣٣٥ ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾
- الكفار من مشركى العرب من قريش ومن مالا هم على نصرتهم على رسول الله ﷺ هم
- ٣٣٧ الكفار دون غيرهم
- ٣٤٦ ﴿ لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْوُثْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾
- ٣٥٠ إخبار الله تعالى عن محمد ﷺ أنه رسول الله حقا بلا شك

سورة الحجرات (٤٩)

- ٣٥٢ ربع : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾
- ٣٥٤ ذم الذين ينادون رسول الله ﷺ من وراء الحجرات
- ٣٥٦ الأمر بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض
- ٣٥٨ نهى الله تعالى عن السخرية بالناس
- ٣٥٨ الأمر باجتنباب الكثير من الظن
- ٣٦١ خلق الله تعالى الناس جميعا من نفس واحدة وجعلهم شعوبا ليتعارفوا
- ٣٦٢ ربع : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾

سورة ق (٥٠)

- ٣٦٥ ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾
- ٣٦٦ ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾
- ٣٦٧ ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّمِّ وَثَمُودَ ﴾
- ٣٦٨ قدرة الله تعالى على الإنسان بأنه فلقه ، وعلمه ، وعلمه محيط بجميع أموره
- ٣٧٠ ربع : ﴿ قَالَ قَرِيبُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾
- ٣٧٢ قول الله تعالى لجهنم يوم القيامة هل امتلأت
- ٣٧٣ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾
- ٣٧٥ ﴿ وَاسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾

سورة الذاريات (٥١)

- ٣٧٧ ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ۝ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾
- ٣٧٨ ما يكون فيه المتقون يوم القيامة
- ٣٨١ حديث ضيف إبراهيم عليه السلام
- ٣٨٢ الجزء - ٢٧ : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾
- ٣٨٢ ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾

- ٣٨٣ قدرة الله تعالى على خلق العالم العلوى والسفلى
- ٣٨٤ تكذيب السابقين لأنبيائهم وقولهم لكل نبي ساحر أو مجنون

سورة الطور (٥٢)

- ٣٨٦ ﴿ وَالطُّورِ ١ ﴾ وَكِتَابٍ مُّسْطُورٍ ﴿
- ٣٨٨ حال السعداء فى الجنات
- ٣٨٨ ربع: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ ﴿
- ٣٩٠ نفى الله تعالى عن رسوله ﷺ ما يرميه به أهل البهتان والفجور
- ٣٩١ ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿
- ٣٩٢ عناد المشركين ومكابرتهم للمحسوس

سورة النجم (٥٣)

- ٣٩٤ ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿
- ٣٩٥ ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿
- ٣٩٨ ربع: ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴿
- ٤٠٠ الإنكار على المشركين فى تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى
- ٤٠١ الله تعالى مالك السموات والأرض الغنى عما سواه
- ٤٠٣ ذم الله تعالى لمن تولى عن طاعته
- ٤٠٤ ﴿ وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿
- ٤٠٦ ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ ﴿

سورة القمر (٥٤)

- ٤٠٧ ﴿ اقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿
- ٤٠٩ ﴿ قَتُولَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿
- ٤٠٩ ربع: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴿
- ٤١١ ذكر ثمود وأنهم كذبوا رسولهم صالحا ﷺ
- ٤١٢ ذكر قوم لوط وأنهم كذبوا رسولهم وخالفوه
- ٤١٣ ذكر فرعون وقومه وأنهم كذبوا بآيات الله
- ٤١٤ المعجرون فى ضلال عن الحق وسعر مما هم فيه من الشكوك

سورة الرحمن (٥٥)

- ٤١٦ ربع: ﴿ الرَّحْمَنُ ١ ﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿
- ٤١٨ خلق الإنسان من صلصال كالفخار

- ٤٢١ انشقاق السماء يوم القيامة وردة كالدهان
 ٤٢٣ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴾
 ٤٢٤ ذكر الفرش في الجنة وعظمتها
 ٤٢٦ ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ ﴾

سورة الواقعة (٥٦)

- ٤٢٩ ربع: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾
 ٤٣٠ إخبار الله تعالى عن السابقين الأولين وأنهم جماعة من الأولين
 ٤٣٤ ذكر أصحاب اليمين ومآلهم
 ٤٣٩ ذكر أصحاب الشمال ومآلهم
 ٤٤٩ تقرير الله تعالى للمعاد والرد على المكذبين به
 ٤٤١ ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾
 ٤٤٣ ربع: ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾
 ٤٤٥ ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾
 ٤٤٦ أحوال الناس عند احتضارهم

سورة الحديد (٥٧)

- ٤٤٨ ربع: ﴿ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾
 ٤٤٩ خلق الله تعالى السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام
 ٤٥٠ أمر الله تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل
 ٤٥٣ المؤمنون يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم
 ٤٥٥ ربع: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾
 ٤٥٦ ثواب الله تعالى للمصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة
 ٤٥٨ تحقير الله تعالى لأمر الحياة الدنيا
 ٤٥٩ قدر الله تعالى السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية
 ٤٦٠ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾
 ٤٦١ منذ مبعث نوح عليه السلام لم يرسل الله تعالى بعده رسولا إلا من ذريته
 ٤٦٢ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾

سورة المجادلة (٥٨)

- ٤٦٤ الجزء - ٢٨ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾
 ٤٦٥ الظهار بأحكامه
 ٤٦٧ جزاء من يشاق الله ورسوله ﷺ ويعاند شرعه
 ٤٦٨ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النُّجُوزِ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ ﴾
 ٤٧٠ الأمر بإحسان المؤمنين بعضهم إلى بعض في المجالس
 ٤٧٢ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ﴾
 ٤٧٣ ربع: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾
 ٤٧٤ جزاء الكفار المعاندين المحادين

سورة الحشر (٥٩)

- ٤٧٧ _____ جميع من في السموات وما في الأرض يسبح لله ويمجده ويقده
- ٤٨١ _____ الفى وصفته وحكمه
- ٤٨٤ _____ حال الفقراء المستحقين لمال الفى
- ٤٨٨ ربع : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾
- ٤٨٩ _____ الأمر بتقوى الله تعالى
- ٤٩٠ _____ تعظيم أمر القرآن وعلو قدره وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب

سورة الممتحنة (٦٠)

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ٤٩٤
 الأمر بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام ومن معه في مجانية المشركين ومعاداتهم ٤٩٧
 ريع : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةَ ﴾ ٤٩٩
 أمر المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن ٥٠٠
 رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات ٥٠٢
 نهى الله تعالى عن موالاة الكافرين ٥٠٥

سورة الصف (٦١)

- ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٥٠٧
 ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ ٥٠٩
 لا أحد أظلم ممن يفتري على الله الكذب ٥١١
 التجارة العظيمة التي تنجى من العذاب الاليم ٥١٢
 أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم ٥١٢

سورة الجمعة (٦٢)

- ٥١٥ ربيع : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾
 ٥١٧ ذم اليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها ثم لم يعلموا بها
 ٥١٨ أمر المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة
 ٥٢١ معاتبته من وقع منه الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة

سورة المنافقين (٦٣)

- ربع : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ ٥٢٢
 صدود المنافقين عما يقال لهم استكبارا واحتقارا لما قيل لهم ٥٢٣
 الأمر للمؤمنين بكثرة ذكره الله والنهي عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ٥٢٧

سورة التغابن (٦٤)

- | | | |
|-----|-------------------------|---|
| ٥٢٨ | _____ | ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ |
| ٥٢٩ | _____ من العذاب والنكال | إخبار الله تعالى عن الأمم الماضية وما حل بهم |
| ٥٢٩ | _____ | ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ دَارِهِمْ ﴾ |

- ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ ٥٣٠
 من الأزواج والأولاد من هو عدو الزوج والوالد ٥٣٠

سورة الطلاق (٦٥)

- ربع : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ ٥٣٣
 ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ ٥٣٥
 عدة الآيسة التي انقطع عنها الحيض والتي لم تحض ٥٣٧
 إذا طلق أحد أمراته عليه أن يسكنها في منزل حتى تنقضى عدتها ٥٣٩
 ما حل بالأمم السابقة بسبب مخالفة أمر الله وتكذيب رسله ٥٤١
 قدرة الله التامة وسلطانه العظيم ٥٤٢

سورة التحريم (٦٦)

- ربع : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ٥٤٣
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ ٥٤٧
 أمر الله تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ٥٤٩
 مثل للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم ٥٥٠

سورة الملك (٦٧)

- الجزء - ٢٩ : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ٥٥١
 مآل الذين كفروا بربهم ٥٥٢
 مآل من يخاف مقام ربه إذا كان غائبا عن الناس ٥٥٢
 قدرة الله على تعذيب الكافرين ٥٥٥
 عبادة المشركين لغير الله يبتغون عندهم نصرا ورزقا ٥٥٥
 ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ٥٥٦

سورة القلم (٦٨)

- ربع : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ٥٥٧
 ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ ٥٥٩
 قصة أصحاب الجنة ومآلهم ٥٦١
 جزاء المتقين في الدار الآخرة جنات النعيم ٥٦٢
 يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والبلاء ٥٦٣
 ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ ٥٦٤

سورة الحاقة (٦٩)

- ربع : ﴿ الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ ٥٦٦
 أهوال يوم القيامة وأول ذلك نفخة الفزع ٥٦٧
 سعادة من أوتى كتابه يوم القيامة يمينه ٥٦٨
 حال الأشقياء إذا أعطى أحدهم كتابه في العرصات بشماله ٥٦٩

٥٧٠. قسم الله تعالى أن القرآن كلامه ووحية إلى رسوله الذي اصطفاه ﷺ
 ٥٧١ ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾

سورة المعارج (٧٠)

- ٥٧٢ ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾
 ٥٧٤ ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾
 ٥٧٥ ربع : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾
 ٥٧٧ الإنكار على المشركين نفورهم من رسول الله ﷺ

سورة نوح (٧١)

- ٥٨٠ إخبار الله تعالى عن نوح عليه السلام وأنه أرسله إلى قومه لينذرهم بأس الله
 ٥٨٠ شكاية نوح ﷺ إلى ربه ما لقي من قومه
 ٥٨٢ اتباع قوم نوح ﷺ من يزدده ماله وولده إلا خسارا
 ٥٨٣ ذنوب الكافرين وإصرارهم على كفرهم وعتوهم أدخلهم النار

سورة الجن (٧٢)

- ٥٨٥ ربع : ﴿ قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾
 ٥٨٦ حال الجن حين بعث الله رسوله محمدا ﷺ
 ٥٨٨ إخبار الجن عن أنفسهم وأن منهم الصالحون ومنهم دون ذلك
 ٥٨٩ ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾
 ٥٩١ أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول للناس أنه لا علم له بوقت الساعة

سورة المزمل (٧٣)

- ٥٩٣ أمر الله تعالى رسوله أن يترك التزمل وينهض إلى القيام لربه
 ٥٩٦ أمر الله تعالى رسوله بالصبر على المكذبين
 ٥٩٧ ربع : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ ﴾

سورة المدثر (٧٤)

- ٦٠٠ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾
 ٦٠٢ ﴿ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾
 ٦٠٤ ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾
 ٦٠٦ كل نفس متعلقة بعملها يوم القيامة

سورة القيامة (٧٥)

- ٦٠٧ ربع : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾
 ٦١٠ تعليم الله تعالى لرسوله ﷺ في كيفية تلقي الوحي من الملك
 ٦١٢ حالة الاحتضار وما يكون عنده من الأهوال

سورة الإنسان (٧٦)

- ٦١٤ الإنسان أوجده الله تعالى و لم يكن شيئاً يذكر
٦١٥ ما أرصده الله للكافرين من خلقه من السلاسل والأغلال والسعير
٦١٧ ربع: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّغَلَّدُونَ﴾
٦١٩ امتنان الله تعالى على رسوله ﷺ بما نزله عليه من القرآن العظيم

سورة المرسلات (٧٧)

- ٦٢١ إقسام الله تعالى بملائكته أن ما وعدنا به لواقع
٦٢٢ إهلاك الله تعالى الأولين
٦٢٣ انطلاق الكفار يوم القيامة إلى ما كانوا يكذبون به من الجزاء والجنة والنار
٦٢٤ حال المتقين يوم القيامة وأنهم فى ظلال وعيون

سورة النبأ (٧٨)

- ٦٢٦ الجزء - ٣٠: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ﴾
٦٢٧ يوم الفصل مؤقت بأجل معدود
٦٢٩ حال السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم
٦٣٠ عظمة الله وجلاله وأنه رب السماوات والأرض

سورة النازعات (٧٩)

- ٦٣٢ ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾
٦٣٤ بعثة موسى ﷺ إلى فرعون وتأيده بالمعجزات
٦٣٥ ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ - يوم القيامة يتذكر الإنسان فيه ما سعى

سورة عبس (٨٠)

- ٦٣٧ ربع: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾
٦٣٨ ذم الله تعالى من أنكر البعث
٦٤٠ إذا جاءت صبيحة القيامة يفر المرء من أخيه

سورة التكوير (٨١)

- ٦٤٢ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾
٦٤٥ إقسام الله تعالى بالنجوم والليل والصبح على أن القرآن تبليغ رسول كريم

سورة الانفطار (٨٢)

- ٦٤٨ ربع: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَرتْ﴾
٦٤٩ ما يصير الأبرار إليه من النعيم

سورة المطففين (٨٣)

- ٦٥١ الويل للذين يبخسون فى الكيل والميزان

- ٦٥٢ _____ مصير الفجار وماوَاهم فى سجين
٦٥٤ _____ مصير الأبرار وماوَاهم فى عليين
٦٥٥ _____ إخبار الله تعالى عن المجرمين وأنهم كانوا فى الدنيا يضحكون من المؤمنين

سورة الانشقاق (٨٤)

- ٦٥٧ _____ ربيع : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾

سورة البروج (٨٥)

- ٦٦٢ _____ إقسام الله تعالى بالسمااء وبروجها
٦٦٨ _____ وعد الله تعالى لعباده المؤمنين أن لهم جنات

سورة الطارق (٨٦)

- ٦٦٩ _____ إقسام الله تعالى بالسمااء وما جعل فيهما من الكواكب السيارة

سورة الأعلى (٨٧)

- ٦٧٢ _____ ربيع : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾
٦٧٤ _____ فلاح من طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة

سورة الفاشية (٨٨)

- ٦٧٦ _____ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَاشِيَةِ ﴾
٦٧٧ _____ حال السعداء يوم القيامة - أمر الله تعالى عباده بالنظر فى مخلوقاته

سورة الفجر (٨٩)

- ٦٨٠ _____ ﴿ وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾
٦٨٣ _____ الإنكار على الإنسان فى اعتقاده أن توسيع الله عليه إكرام له
٦٨٤ _____ ذكر ما يقع يوم القيامة من الأهوال

سورة البلد (٩٠)

- ٦٨٦ _____ ربيع : ﴿ لَا أَسْمُ بِهِذَا أَلَدٌ ﴾
٦٨٧ _____ ﴿ فَلَا تَحْمِ الْعُقَّةَ ۝ وَمَا أَفْرَاكَ مَا الْعُقَّةُ ﴾

سورة الشمس (٩١)

- ٦٩٠ _____ إقسام الله تعالى بالشمس وضحاها
٦٩٢ _____ ذكر ثمود وأنهم كذبوا رسولهم

سورة الليل (٩٢)

- ٦٩٤ _____ إقسام الله تعالى بالليل إذا يغشى
٦٩٦ _____ ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾

سورة الضحى (٩٣)

٦٩٨ إقسام الله تعالى بالضحى والليل إذا سجى

سورة ألم نشرح (٩٤)

٧٠١ ربع : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾

سورة التين (٩٥)

٧٠٣ ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾

سورة اقرأ (٩٦)

٧٠٥ الأمر بالقراءة باسم الله الذى خلق

٧٠٦ حال الإنسان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله

سورة القدر (٩٧)

٧٠٨ ذكر الله تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر

سورة لم يكن (٩٨)

٧١٤ ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾

٧١٥ مآل الفجار من كفره أهل الكتاب والمشركون

سورة الزلزلة (٩٩)

٧١٦ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾

سورة العاديات (١٠٠)

٧١٩ ربع : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾

سورة القارعة (١٠١)

٧٢١ تعظيم الله سبحانه أمر القيامة وتهويل شأنها

سورة التكاثر (١٠٢)

٧٢٣ شغل حب الدنيا ونعيمها الإنسان عن طلب الآخرة

سورة العصر (١٠٣)

٧٢٦ إقسام الله تعالى بالعصر أن الإنسان لفى خسر

سورة ويل لكل همزة لمزة (١٠٤)

٧٢٧ _____ الويل لكل طعان معياب

سورة الفيل (١٠٥)

٧٢٩ _____ من النعم التي أنعم الله بها على قريش صرف أصحاب الفيل عنهم

سورة ليلاف قريش (١٠٦)

٧٣٥ _____ ذكر ما كانت تألفه قريش من الرحلة في الشتاء والرحلة في الصيف

سورة الماعون (١٠٧)

٧٣٦ _____ ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالَّذِينَ ﴾

سورة الكوثر (١٠٨)

٧٣٨ _____ إعطاء الله الكوثر لنبيه ﷺ

سورة قل يا أيها الكافرون (١٠٩)

٧٤١ _____ طلب البراءة من العمل الذي يعمله المشركون

سورة إذا جاء نصر الله والفتح (١١٠)

٧٤٣ _____ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾

سورة تبت (١١١)

٧٤٦ _____ ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ ﴾

سورة الإخلاص (١١٢)

٧٤٩ _____ الله هو الواحد الأحد

سورة الفلق (١١٣)

٧٥٢ _____ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾

سورة الناس (١١٤)

٧٥٤ _____ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾

٧٥٧ _____ فهرس المسانيد

٧٧٣ _____ فهرس الموضوعات